اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربي

العدد العاشر　　المجلد الأول　　مارس ٢٠٠٢ م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطية - عمـــارات شركـة الخليـج
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلة

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

* تصدر مؤقتا سنوياً فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

* لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

* تخصص أقسام فى المجلة – حسب الإمكانات – لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

*****

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى – الحى الثامن – مدينة نصر – القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ – فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويـــــــات

كلمة الافتتاح

التاريخ ... أيام متداولة

جاء فى قواميس اللغة العربية : دالت الأيام أى دارت ؛ والله عز وجل (يداولها بين الناس) .

والواقع إن من يتأمل مسيرة التاريخ على مر الأيام والعصور تتكشف أمامه الكثير من الحقائق التى يمكن أن تستوقفه ، والتى يتخذ منها التاريخ ركائز يبنى عليها مسيرته ، فى حين يتخذ منها المؤرخون محاور يحاولون النفاذ منها إلى صميمها للكشف عن أسرار الماضى وخبايا الحاضر .

وإذا كان للتاريخ ثلاثة محاور كبرى يدور حولها ، هى الإنسان والزمان والمكان ، فإن المشتغل بالتاريخ تواجهه مشكلة عدم تكافؤ هذه العناصر فى قوة التأثير على المدى القريب والبعيد . وكثيرا ما يلمس الباحث فى بعض حلقات التاريخ تغلب الزمان والمكان على الإنسان ، كما هو الحال فى الفيضانات والأوبئة وغير ذلك من الكوارث الطبيعية . وفى الوقت نفسه كثيراً ما يلمس الباحث تغلب الإنسان على كوارث الطبيعة ، فيقيم السدود ويشق الطرق ويعالج الأمراض . ويستغل ما وهبه الله من عقل وطاقة فى التغلب على ما يواجهه من صعاب وأخطار .

وهكذا فإنه مع مسيرة الزمان تبرز على ساحة المجتمع البشرى قوى جديدة وقد يكون ذلك فى نفس الحقبة التى يخبو فيها ضوء شعل كبيرة فيكون ذلك مصداقا لقوله عز وجل: " وتلك الأيام نداولها بين الناس "(من الآية ١٤٠ - سورة آل عمران) .

وهكذا تدور عجلة التاريخ .

د. فايزة محمود صقر(*)

العلاقات الاقتصادية بين مصر وكنعان خلال النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد

كان اجتياح شعوب البحر منطقة الشرق الأدنى القديم عاملا هاما فى انهيار الإمبراطوريات الكبرى خلال النصف الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد أدى ذلك إلى تخفيف الضغط الأجنبى على إقليم سوريا وفلسطين وهو الإقليم الذى عرف باسم كنعان مما أدى - بدوره - إلى قيام كيانات محلية فى تلك المنطقة أكثر استقلالا من الكيانات السابقة . وقد أتاح ذلك لشعوب المنطقة فرصة إثبات وجودها ، مما أثر فى الأحداث التى مرت بها ، حتى اضمحلت الدول الكبرى من كبوتها . وتاريخ العبريين هو من الناحية السياسية فترة متواضعة الشأن ، إذا قورن بتاريخ الإمبراطوريات الكبرى فى الشرق الأدنى قديما ، ولا تصح مقارنته فى الواقع إلا بتاريخ الأقوام المتواضعة الأخرى فى المنطقة نفسها(١) ، ونقوم نحن فى هذا البحث برصد العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر وإقليم كنعان خلال النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد ، وهو الأمر الذى يتضح من خلال حملتين عسكريتين مصريتين سجلتهما المصادر التاريخية .

الحملة الأولى قام بها الملك سيا أمون (٩٧٩ - ٩٦٠ ق . م.) ، والحملة الثانية قام بها الملك شيشنق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ ق . م .) ، حيث كانت سياسة كلا الملكين تجاه إقليم سوريا وفلسطين خيارا استراتيجيا لا مناص من تحقيقه سواء سلما أم حربا شكل (١) .

---

* - مدرس تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - فرع دمنهور .

ذلك أن بعض الباحثين يعتقد أن عصر الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ - ٩٥٠ ق.م.) يعبر عن بداية للتأخر في أوضاع مصر ربما بسبب الخمول الذى غلب على سياسته وضعف وحدة الحكم الأعلى فيه ، وتقلص النفوذ المصرى خلاله خارج الحدود ، وتوزع السلطة فيه بعض الشئ بين الملوك . ويرى كتشن(٢) أن الفترة الممتدة من عصر الأسرة الحادية والعشرين حتى نهاية الأسرة الخامسة والعشرين تعبر عن عصر انتقال ثالث يتوسط بين العصر الزاهر للأسرة العشرين وبين بداية الأسرة السادسة والعشرين الذى جرى على تسميته باسم العصر الصاوى .

وقد أدت سياسة المسالمة واقتسام المغانم في عصر الأسرة الحادية والعشرين بين البيتين المالكين في تانيس وطيبة ، إلى الإبقاء على نظام الحكم الثنائى مائة واثنين وأربعين سنة اتسمت بالفتور والسياسة الانطوائية في مجملها . ويرجع السبب في غموض عصر الأسرة الحادية والعشرين إلى قلة ما كشف من آثارها في صعيد مصر ، ولتحلل أغلب آثاره في الدلتا بفعل رطوبة الأرض وكثافة طميها وكثرة المجارى المائية . وهكذا ظلت إمكانيات الدولة ومواردها محدودة ، بحيث استعانت في بعض منشآتها المعمارية بأحجار المباني القديمة . وانكمشت بر رعمسسو وتانيس إلى نصف مساحتهما السابقة(٣) .

وجدير بالذكر أن تاريخ العلاقة بين مصر وكنعان خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين اقتصر على المعلومات التوراتية (الملوك ١١ : ٢١-٢٢) ومؤداها أن القائد اليهودى "يؤاب" كان قد قام - كقائد لقوات داود - بمجزرة بشرية في " أدوم " أفنى فيها الذكور بحد السيف ولكن أحد أطفال الأسرة المالكة واسمه " هدد " استطاع أن يهرب مع بعض الرفقاء ولجأ إلى مصر حيث احتضنه الملك المصرى ، وتزوج من أخت " تحفنيس " زوجة ملك مصر إذ ذاك ، وولدت أخت " تحفنيس " له ، " جنوبث " ابنه ، وفطمته " تحفنيس " في وسط بيت فرعون بين بنى فرعون (ملوك أول ١١ : ١٤-٢٢) . وبعد مدة خرج ملك مصر إلى كنعان وهاجم " جازر " وأحرقها وقدمها هدية لابنته التى تزوجها من سليمان مما يدل على أنه تودد بهذه الطريقة إلى جاره ملك فلسطين . شكل (٢) .

وهكذا تتضح سياسة ملوك مصر في ذلك العصر : فإنهم في الوقت الذى يظهرون ودهم وتحالفهم مع حكام فلسطين كانوا ينتهزون كل فرصة لتنمية روح الانقسام بين حكامهم وذلك للتدخل بينهم في الوقت المناسب . وبهذه الوسيلة يمكنهم استرجاع شئ من النفوذ في تلك

البلاد التى حصلوا عليها ممن سبقوهم ، بحروبهم المظفرة[٤]، ويبدو أن ملوك الأسرة الواحدة والعشرين كانت لديهم الرغبة في إعادة النفوذ المصرى فى آسيا . ومن هؤلاء الملك بسوسنس الأول حيث تشير ألقاب الملوك إلى الطموح السياسى والعسكرى[٥] .

حملة سيا أمون على فلسطين

جاء فى سفر الملوك – الجزء الأول ، الإصحاح التاسع ، الفقرة ١٦ – أن الملك منح ابنته زوجة للملك سليمان ، وتعاهد الملك سليمان مع الملك المصرى عن طريق المصاهرة ، واصطحب ابنة ملك مصر فى مدينة داود حتى انتهى من بناء منزله ، " منزل الأبدية " وانتهى من بناء المعبد بعد إتمام الزواج الذى من المحتمل أنه تم فى ٩٨٠ ق.م. ويقال أن هذه الأميرة أعطيت مدينة جازر صداق ، ولكن من الصعب معرفة إذا كانت هذه الأحداث قد وقعت أثناء حكم سيا آمون أو إبان حكم خليفته بسوسنس الثانى ، وقد حكم سيا أمون حوالى ستة عشرة عاما[٦] .

ويرى د. عبد العزيز صالح أن تحالف الملك المصرى مع سليمان كان تحالف الأقوياء ، فبعث جيشه إلى جنوب أرض كنعان حيث استقرت جماعات من شعوب البحر المنافسة لسليمان وسيطرت القوات المصرية على مدينة جازر التى عجز العبرانيون عنها عدة مرات ، ثم جعلها بائنة لابنته التى رضى أن يزوجها لسليمان ، وفى ذلك يعنى ضمنا أن مصر ظلت حتى فى عهود ضعفها أقوى مرات من ملك سليمان الذى تحدثت به الأمثال لما كان عليه ملك أسلافه وجيرانه بطبيعة الحال[٧] .

ويرجح كيتشن أن الملك المصرى الذى زوج ابنته لسليمان هو سيا آمون[٨] بينما يرى د. نجيب ميخائيل أن الملك هو فى الغالب " باسباخع ان نيوت "[٩] .

وجدير بالذكر أنه لدينا شواهد مصرية نستخلص منها زواج المصرى من أجنبية ، إلا أنه فى الغالب لم يكن الأب يرضى أن تتزوج ابنته من أجنبى . ونستخلص من ذلك ما جاء على لسان ملك مصر أمنحتب الثالث – وكان قد تزوج من أكثر من امرأة من البلاد الآسيوية ولكنه دهش حين طلب منه ملك متيانى أن يبعث بفتيات مصريات إلى حريمه[١٠] .

وقد عرفت مصر الزواج السياسى كأسلوب من أساليب الدبلوماسية المصرية ولكنه اقتصر على زواج الملك المصرى من أميرات أجنبيات وخاصة خلال الإمبراطورية أو الدولة الحديثة .

ولكن حدث خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين أن اختلف الأمر ، إذ عقد زواج أميرات ملكيات على أشخاص من العامة ، بما فيهم غير المصريين ، فالأميرة " تنت سبتاح " ابنة الملك بسوسنس الثانى تزوجت من الكاهن الأعلى للإله بتاح فى منف ، كما تزوج سيا آمون أو ربما بسوسنس الثانى ، ابنة ششنق زعيم الما الليبى . كما تزوجت الأميرة " ماعت كارع " ابنة بسوسنس الثانى من الشاب الليبى أوسركون الذى سيعتلى عرش مصر فى الأسرة الثانية والعشرين باسم أوسركون الأول ابن ششنق الأول . وفى المقابل فإن ملوك الأسرة الثانية والعشرين لم يزوجوا بناتهم من أشخاص لا ينتمون إلى الأسرة الملكية(١١) .

ورغم صعوبة تفسير زواج سليمان من ابنة سيا آمون ، إلا أن القرن العاشر .ق.م. شهد عدة زيجات بين العائلات الملكية وطبقة النبلاء وذلك بغرض تحقيق أهداف اقتصادية وسياسية(١٢). وقد تزوج ششنق الأول من ابنة بسوسنس آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرون ، ويبدو أن ششنق لم يقم بثورة للاستيلاء على الحكم بل انتظر حتى وفاة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين واستولى على العرش فى تانيس ، وعلى ذلك فقد قامت الأسرة الثانية والعشرين متخذة من بوباسطة بشرق الدلتا عاصمة لها(١٣) .

ونلاحظ أن النص التوراتي قد ربط بين زواج الملك سليمان من ابنة الملك المصرى وبناء المعبد .

ويرى د. حسن ظاظا أن عدد الصناع الذين اجتمعوا فى أورشليم لينفذوا مشروع سليمان – الذى أوصى به أبوه داود – ضخم جدا يزيد على مائة وخمسين ألف عامل ، والهيكل بناء صغير حسب أوصافه التى وردت فى النصوص (طوله ٣٢ مترا ، وعرضه ١١ مترا وارتفاعه١٦٧ مترا بالتقريب) مما يدعو إلى التساؤل :

هل كانت كل مواد البناء التى أعدها داود ، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين الأجانب مخصصة للهيكل وحده ، أم أن الأمر على ما يذكره (لويس براون) من أن الهيكل لم يظفر من كل هذا إلا بالقدر الأقل بينما الجانب الأكبر خصص لمبان أخرى أقل اتصالا بتمجيد الرب ، منها القصر الملكى لسليمان ، وقصر زوجته ابنة فرعون مصر ، الصروح البديعة والأبنية الحكومية ، المعابد الوثنية التى أقيمت لمن رفضن التهود من النساء الأجنبيات اللاتى تزوجهن سليمان (الملوك الأول ١١)(١٤) .

وجدير بالذكر أن المعابد الوثنية استمرت تقيم طقوس المعبودات القديمة التى عرفتها أرض فلسطين ومنها الإله حورون الذى أشارت الأدلة الأثرية إلى استمرار عبادته فى أرض فلسطين منذ القرن الثانى قبل الميلاد حتى العصر الهلينيسى(١٥) .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن سيا آمون كان يخطط لغزو إسرائيل نفسها كما عثر له على آثار فى " تل فرعة " ، وسواء أصح هذا أم لم يصح ، فإن سليمان أدرك بثاقب فكره أن مملكته الصغيرة لن تعيش بالتفاهم مع جيرانها . واقتضت هذه السياسة أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الأمراء والملوك ، ومن ثم تزوج طبقا لرواية التوراة من بنات أمراء العمونيين والمؤابيين والآراميين والكنعانيين والحيثيين(١٦) ، ثم ساعدته الظروف بأن كانت أحوال مصر وآشور مرتبكة إلى حد كبير ، وأيا كان الأمر ، فقد لجأ سليمان إلى صهره ملك مصر لكى يعطيه منفذا على البحر المتوسط الذى كان يتنازع السيادة على موانيه ، الفينيقيون والفلسطينيون ، ومن ثم نقرأ فى التوراة " أن فرعون قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار ، وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة ، وأعطاها مهرا لابنته امرأة سليمان " ، وأصبحت الأميرة المصرية هى السيدة الأولى فى مملكته أو الزوجة الرئيسية كما كان يطلق عليها(١٧) .

وجدير بالذكر أن أحوال مصر الاقتصادية كانت متدهورة وخاصة فى عاصمة الأسرة الحادية والعشرين (تانيس) التى - بعد أن كانت مركزا لتجارة البحر المتوسط - أضحت لاتمتاز بغير كونها قاعدة الحكم ، وكان ثراؤها من قبل يقوم على قناة بينها وبين البحر ، ولكن تطهير هذه القناة أصابه الإهمال فملأتها الرواسب الطمية ولم يعد أصحاب السفن يدخلون الميناء . ثم ظهر منافسون جدد فى الميدان التجارى وعلى رأسهم سليمان الذى كان حريصا على تلك الأسواق القديمة وغزو أسواق جديدة . ولقد دخلت إسرائيل تحت حكمه - لأول مرة فى تاريخها- فى الميدان التجارى فحرمت مصر من موارد التجارة العربية ، وقد انضم حيرام الصورى إلى سليمان واتفقا على تبادل الفائض ، وكان حيرام فى حاجة إلى الزيت والحبوب ، وسليمان فى حاجة إلى خشب لبنان لبناء أسطوله ، وهكذا سيطر سليمان على محصولات آسيا التى بادلها بمحصولات بلاد العرب وأفريقيا(١٨) .

يتضح من النص التوراتى أن جيوش سيا آمون زحفت إلى جنوب غرب فلسطين واجتاحت مدنها حتى وصلت " جازر " - المقاطعة الكنعانية - التى تقع على الحدود بين فلسطين وإسرائيل ، كما يتضح أن الملك المصرى اجتاح أولا مدينة جازر قبل أن يقدمها دوطة (هدي

زواج) ابنته من الملك سليمان . ومن الواضح أن هذه الحادثة وقعت فى بداية تولى سليمان العرش ، ربما خلال العقد الأول من عهد سليمان (٩٧٠ - ٩٦٦ ق.م) ، وربما خلال السنوات الأربعة الأولى من عهده وهذا يتطابق مع الغزو المصرى لجازر والمدن الفلسطينية الذى يقع خلال العقد الأخير من عصر الملك المصرى سيا أمون (٩٧٨ - ٩٥٩ ق.م) ، ومن الشواهد الأثرية التى تشير إلى حملة سيا أمون ، يظهر على مبنى متهدم ، أقامه بسوسنس الأول وسيا أمون فى المنطقة الشرقية للمقابر الملكية وجنوب المعبد الرئيسى للإله آمون فى العاصمة تانيس ، فى هذا النقش يظهر سيا أمون يضرب بمقمعة مجموعة من الأسرى تتسلح بفأس مزدوجة ، وهم ممثلون فى طراز شعوب البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

وهذا المنظر يؤكد خروج الملك سيا أمون بالفعل للحرب ضد عناصر شعوب البحرْ فى فلسطين، وهذا ما يشير إليه الفأس المزدوجة الذى يمثل تقليدا مصريا يحيى ذكرى حملات الملوك المصريين ضد شعوب البحر(١٩) .

وتعد الفأس المزدوجة رمزاً للسلاح الذى كانت تستخدمه شعوب البحر الذين عاشوا فى فلسطين بعد هزيمتهم على أيدى رعمسيس الثالث ، مما يشير إلى أن النقش إنما يخلد ذكرى غزو حقيقى قام به المصريون هناك ، وأن مدينة جازر إنما كانت هى الهدف المقصود ، ولعل هذه المصاهرة وغزو جازر وتقديمها مهرا لابنة الملك المصرى ، إنما كانت أحد الأسباب التى دفعت "برستد" يذهب إلى أن سليمان إنما كان واليا تحت النفوذ المصرى ، كما يرى المؤرخ اليهودى "سيسل روث" ، أن التحالف مع مصر هو الذى مكن دولة سليمان من أن يكون لها موطئ قدم على البحر المتوسط ، الأمر الذى لم يتح لها بغير معاونة الملك المصرى(٢٠) .

وغالبا فإن لوحة تانيس التى تصور الملك سيا أمون وهو يضرب عددا راكعا أمامه قابضا فى يده على فأس للحرب مزدوجة ، تسجل غزوة حقيقية قام بها المصريون وأنهم استولوا على مدينة جازر وإذا صح ذلك فسيكون سيا أمون هو الملك المصرى الذى عاصر سليمان(٢١) .

مما سبق يتضح أن العناصر العبرانية قامت بتحسين أوضاعها فى إقليم كنعان بعد مواجهة بعض مدن المنطقة مثل أريحا ولكيش وجازر ، بيد أن المدن الفلسطينية التى استقر أهلوها بالمنطقة وأسسوا كيانات سياسية تحكمت فى اقتصاديات المنطقة ، قد وقفت عقبة كؤود ضد طموح سليمان فى بسط السيطرة التجارية ، وكل منهما منع مصر من الحصول على حاجاتها من المواد الأساسية ، الحبوب من شمال النقب أو النحاس من مناجم تمنة أو

تحصيل الضرائب من بعض هذه المدن على الأقل فى الجزء الكنعانى وكذلك خشب الأرز من بيبولس(٢٢) .

وتعد حملة سيا آمون على فلسطين ثم تحالفه مع سليمان ذات أهداف مزدوجة لأن أغراض سيا آمون من الحملة كانت اقتصادية قبل أن تكون سياسية . فمنذ عصر سمندس والمرحلة الانتقالية ، كانت تانيس مدينة لها علاقات تجارية مع موانئ البحر المتوسط ، تمتلك موانئ تجارية مع سواحل البحر المتوسط (قصة ون آمون) ، فقوات سيا آمون تقوم بإعادة الأمن للمنطقة بغرض القضاء على منافسة المدن الفلسطينية والفينيقية التجارية . ومقاطعة جازر كانت مدينة كنعانية محصنة تقع على الحدود مع مملكة سليمان ، وكان وصول القوات المصرية حتى هذا الموقع مدعاة لوقوع تصادم بين قوات سليمان وقوات سيا آمون ، ولكن كلا الملكين وجدا فى التحالف الاقتصادى فائدة أكثر من الحرب ، لأن التحالف العسكرى والاقتصادى بين سليمان وسيا آمون سيجعل المدن الكنعانية تقع بين شقى الرحى ، فمدينة جازر ليست ذات أهمية خاصة للملك سيا آمون ولكنها تمثل أهمية كبيرة عند الملك سليمان حيث تمثل خطرا على حدوده ، وهنا يحصل عليها سليمان عند زواجه من ابنة سيا آمون ، إذن فقد قامت الحملة وتم التحالف ثم الزواج حوالى عام ٩٦٧ ق.م. واستطاع سيا آمون وقف زحف التنافس التجارى من قبل المدن الفلسطينية ، واكتسب امتيازات اقتصادية فى سوريا وفلسطين ، وسليمان فى نفس الوقت أمن حدوده الجنوبية الغربية مع مصر(٢٣) .

أما ازدهار الأحوال الاقتصادية فى أرض كنعان فقد نشأت عدة مدن تعد مراكز تجارية أخذت تزدهر خلال عصر سليمان وهى :

١- عصيون جابر

تقع بقايا عصيون جابر الآن فى تل الخليفة غربى ميناء العقبة(٢٤) . وقد نشر جلوك Gluek ، فى الفترة ١٩٣٨-١٩٤٠ نتائج الحفائر التى أجراها فى تل الخليفة ، وقد كشفت عن بقايا مصانع النحاس والحديد ترجع إلى القرن العاشر وعصر سليمان . وقد أحسن اختيار المكان ، فقد أقيمت فى موضع تبلغ فيه الرياح على وادى عربة غاية قوتها ، وذلك لكى تؤجج النار اللازمة للتكرير . وكان يؤتى بالنحاس والحديد من مناجم وادى عربة وطور سيناء ويتم التكرير فى عصيون جابر حيث تصنع الأدوات المعدنية المختلفة ، وقد عثر على الكثير منها فى تل الخليفة .

وجدير بالذكر أن العهد القديم لا يذكر شيئا عن هذه المصانع رغم أهميتها[٢٥].

وقد أضاء القرآن الكريم لنا الطريق في هذا الشأن حينما حدثنا عن النشاط التجاري للملك سليمان في قوله تعالى :-

" قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب " صدق الله العظيم (سورة ص ، آية ٣٥ ، ٣٦) .

ويتميز عهد سليمان بن داود بتقدم تجاري عظيم ، كفلته السيطرة على الطرق التجارية في سوريا وفلسطين وعلى الطريق المؤدي إلى البحر الأحمر .

ويرى " موسكاتي " أن رحلته إلى أوفير كانت عملا مشتركا مع الدول الفينيقية البحرية ، كما يعتقد أن أوفير ربما تقع على ساحل الصومال شكل (٤)[٢٦] .

ويتحدث سفر الملوك (١٠) عن اتجاره في الخيل وعربات الحرب ، ولابد أنه كان محتكرا لهذه التجارة فعلا ، لأن مزاولتها بين مصر وسوريا كانت تعتمد بالطبع على الطرق البرية ، وهذه كلها كانت في يد سليمان ، والاسطبلات الملكية الكبيرة التي كشف عنها في مجدّو تؤكد مدى اهتمام سليمان بتربية الخيل[٢٧] .

وقد قام أسطول سليمان من هذا الميناء بعدة بعثات بحرية حول ساحل بلاد العرب وشرقي أفريقيا ، وكان الغرض من هذه البعوث هو إحضار البخور وخشب الصندل والعاج والذهب والأحجار الثمينة في مقابل النحاس والحديد اللذين كانا يتم تكريرهما في عصيون جابر ، وهذه المواد كانت ترسل بطريق البحر أو بالقوافل إلى بلاد العرب وغيرها[٢٨] ، وقد أكدت الدلائل الأثرية استخدام الطرق البحرية منذ فترة مبكرة ، ومن تلك الدلائل العثور على جرة تحمل نقشا عربيا في ميناء عصيون جابر على رأس خليج العقبة ويعود تاريخها إلى القرن السادس ق.م.[٢٩] ، مما قد يشير إلى استيلاء سليمان على تجارة الجزيرة العربية .

وفي جملة ما عثر عليه في (تل الخليفة) جرتان ، عليهما كتابات بأحرف المسند ، وقد قدر أن تاريخ صنعهما لا يقل عن القرن الثامن قبل الميلاد ، وتدل أحرف المسند هذه على أن صانعيها كانوا يستخدمون هذه الكتابة . وقد يشير هذا إلى التبادل التجاري بين فلسطين والمعينيين الذين كانوا في العلا وتبوك[٣٠] .

٢- أوفير

اتجه سليمان إلى التجارة مع البلاد الساحلية ، وليستورد منها ما يحتاج العبرانيون إليه ، فأنشأ أسطولا تجاريا فى (عصيون جابر) على خليج العقبة بجانب (أيلة) - (أيلوت) - (ايلات) من أرض أدوم[٣١] .

وقد عرف خليج العقبة بـ (بحر سوف) ، (يم - سوف) فى العبرانية . ولما كان العبرانيون لا يعرفون البحر ، استعان سليمان بـ (حيرام) ملك صور فى تسيير الأسطول وتدريب العبرانيين على ركوب البحر ، فأمده بخبراء من صور تولوا قيادة السفن ، يخدمهم رجال سليمان ، فمخروا البحر حتى وصلوا إلى (أوفير) وأخذوا من هناك ذهبا زنته أربعمائة وعشرون وزنة أتوا بها إلى سليمان[٣٢] .

وقد اختلف الباحثون فى تحديد موقع أوفير ، فيرى البعض أنها فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية[٣٣] ، ويرى البعض أنها على ساحل أريتريا[٣٤] ، بينما يرى آخرون أنها كانت تشمل المنطقتين ، أى أنها كانت تشمل بلاد اليمن والساحل الإفريقى المقابل لها ، ويحدد البعض الآخر موقع أوفير بساحل الصومال ، بينما يرى آخرون إلى مدى أبعد بالقول أنها كانت فى بلاد الهند . فالذين قالوا بأن أوفير فى الهند اعتمدوا على ما ورد فى الكتاب المقدس من أن سفن حيرام وسليمان كانت تقوم بالرحلة إلى أوفير مرة واحدة كل ثلاث سنين ، كما اعتمدوا على أنواع السلع التى ذكرها الكتاب المقدس ، وكانت تجلب من أوفير ومن بينها سلع لا توجد إلا فى الهند منها الطواويس وخشب الصندل . غير أن بعض الباحثين يرون أن كلمة " تكييم" التى تترجم عادة بالطواويس ، محرفة عن " سكيم " بمعنى العبيد ، وبذلك تشير هذه الكلمة إلى سلعة أفريقية[٣٥] .

وقد قام الأستاذ الدكتور يعقوب بكر بعرض الآراء المختلفة حول مكان " أوفير " فقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، إذ منها ما يجعل أوفير فى الهند ، ومنها ما يجعلها فى بلاد العرب . وإذا استبعدنا النظرية الهندية ، لأن السفن فى عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب ، فقد تركزت آراء الباحثين حول النظرية الإفريقية والنظرية العربية ويرجح يعقوب بكر أن أوفير تقع فى الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، إذ كان أمام سليمان طريقان للحصول على الذهب هما : طريق البر عبر الصحراء وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر ، فآثر طريق البحر . رغم أن قومه أهل زراعة ورعى ولم يتمرسوا البحا،

. ذلك لأن طريق القوافل شاق ، وقد تزيد نفقاته على نفقات الطريق البحرى . ويفترض يعقوب بكر أن الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية هو المصدر الذى يجلب منه سليمان الذهب . ويستدل من الرواية التوراتية أن الذهب أهم سلع أوفير ، ويرد ذكرها فى سفر الملوك الأول ٢٨:٩ (فأتوا إلى أوفير وأخذوا من هناك ذهبا أربعمائة وزنة وعشرين وزنة) ويذكر الذهب وحده أيضا فى أخبار الأيام الثانى ١٨:٨ ، كما يذكر فى الملوك الأول ٤٩:٢٢ . كما ورد " الذهب الأوفيرى " فى أيوب ٢٢ : ٢٤(٣٦) .

وكان يلى الذهب فى الأهمية بين سلع أوفير خشب الصندل ، ويرى بعض الباحثين أنه خشب الأصطرك ، والحجارة الكريمة ، فسفر الملوك الأول ١١:١٠ يذكرهما هما والذهب دون سائر السلع . كذلك لا نجد سوى هذه السلع الثلاث فى سفر أخبار الأيام الثانى ٩ :١٠ ، والحجارة الكريمة سلع عربية أيضا ، وكذلك خشب الأصطرك . ويرى البعض أنه كان ينبت فى بعض أرجاء الجزيرة نبات يشبه الصندل ويقاربه فى الرائحة(٣٧) .

يضاف إلى هذا أن أوفير هو أحد أبناء يقطان ، وأوفير بن يقطان هذا – أى شعب أوفير القحطانى – هو الشعب الذى يسكن أرض أوفير ، فليس هناك أوفيران ، أوفير فى الجزيرة العربية وأوفير فى مكان آخر . وقد يعترض على هذا الرأى : من أن ذهب بلاد العرب كان قليلا بالقياس إلى المقادير الهائلة التى كانت تصل إلى سليمان ويتفق جواد على مع رأى يعقوب بكر فى أن أوفير تقع فى شبه الجزيرة العربية(٣٨) .

ولكن يجب علينا ألا نسلم بقصة أوفير حرفا حرفا ، لأن المبالغة الأدبية واردة فى هذا المجال ، وربما كان الغرض من المبالغة إظهار حملات أوفير وكأنها من حملات الملوك المصريين إلى بلاد بونت . وعن المبالغة فى تقدير دخل سليمان من الذهب ، يذكر سفر الملوك الأول ١٤:١٠–١٥ أن الدخل السنوى المنتظم ٦٦٦ وزنة يساوى حوالى ٢٠٠٠٠ كيلو جرام (يساوى ٤٠٠ قنطار إنجليزى) ، وهو قدر لم يكن العالم القديم كله يستطيع إنتاجه فى سنة واحدة . ويضاف إلى ذلك أن ما كان يأتيه من أوفير كل ثلاث سنوات هو ٤٢٠ وزنة تساوى١٢٦٠٠ كيلو جرام (يساوى ٢٥٢ قنطارا إنجليزيا) . يضاف أن ما أتت به مملكة سبأ (الملوك الأول ١١:١٠) هو: ١٢٠ وزنة تساوى ٣٦٠٠ كيلو جراما (تساوى ٧٢ قنطارا إنجليزيا) فيكون المجموع ٧٢٤ قنطارا إنجليزيا من الذهب ومع هذا لم يستطع سليمان أن يرد دين ملك حيرام ، فيروى العهد القديم (الملوك الأول ٩: ١١) أن حيرام ملك صور " قد ساعد سليمان

بخشب أرز وخشب سرو وذهب " فأعطاه سليمان مقابل ذلك " عشرين مدينة من أرض الجليل " وهذا يدل على أن موارد سليمان لم تسعفه فى رد الدين ، فتنازل لدائنه عن بعض أرض فلسطين نفسها . إذن لم يكن الذهب الذى يجلبه سليمان من أوفير بالكثرة الخيالية كما صورتها الرواية التوراتية (٣٩).

وفى دراسة أخرى تربط بين بلاد بونت(٤٠) والفينيقيين ، حيث لكل منهما نشاط تجارى فى البحر الأحمر ، فقد مارس الفينيقيون نشاطًا بارزا فى البحر الأحمر خاصة فى العصور المتأخرة لمصر ، ومع ذلك لم تنقطع علاقتهم بمصر وهم يمارسون نشاطهم البحرى فى البحر الأحمر . وقد كان المصريون يستخدمون فى رحلاتهم فى البحر الأحمر سفنا تسمى " سفن جبيل " وقد اقتصرت هذه السفن على الرحلات المصرية فى البحر الأحمر . ورد فى مقبرة "خوى" بأسوان نص يربط بين بونت وبيبلوس ، ولعل ما يعزز هذه الصلة ، ذلك التشابه بين سلع بلاد بونت وبين السلع التى كانت السفن الفينيقية تجلبها من موانئ البحر الأحمر ومنها بلاد أوفير – أى المناطق الجنوبية من الساحل الأفريقى للبحر الأحمر .

ومن أهم السلع التى كانت تجلب من بونت ومن أوفير : الذهب ، وقد أفاضت نصوص البعثات المصرية فى ذكر وفرة الذهب الذى كان يجلب من بلاد بونت ، واحتل مكانا بارزا بين السلع التى جلبتها بعثة حتشبسوت . أما القردة فقد كانت من أبرز السلع التى جلبها المصريون من بلاد بونت كما أسماها المصرى gwf وقد انتشر اللفظ لدى بعض الشعوب التى كانت تشارك فى تجارة البحر الأحمر ومنها اللغة العبرية(٤١) .

وكان العاج فى مقدمة السلع التى تجلب إلى مصر من بونت ، وكان أيضا ضمن سلع أوفير (الملوك الأول ١٠ :٢٢ ، وأخبار الأيام الثانى ٩:٢١) ، وهذا يرجح تحديد موقع أوفير على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، فإن وفرة الفيلة فى القارة الأفريقية ، لاشك جعل من السهل على الفينيقيين والعبرانيين استيراد العاج من مناطق إنتاجه مباشرة . ومما يعزز هذا الرأى ما ورد فى سفر الملوك الأول بأن رحلات أوفير كانت تتم عن طريق البحر ، بينما ورد أن رحلة سبأ (فى بلاد العرب) كانت تتخذ البحر طريقا (وهذا يبرر أن أوفير كانت تقع فى جهة أخرى من بلاد العرب حيث سبأ – أى فى جهة كان الوصول إليها بالبحر) .

ومن أنواع سلع أوفير والتى تتفق مع سلع بلاد بونت ، الفضة والأحجار الكريمة (وقد وردت هذه المنتجات فى رسوم بهو بونت فى معبد حتشبسوت)(٤٢) . غير أن هناك سلعة من

سلع أوفير تثير مشكلة وهى خشب الصندل ، فإن هذا النبات هندى الأصل ، ولا يوجد لا فى شبه الجزيرة العربية ولا فى المناطق الأفريقية ، وقياسا على رأى يعقوب بكر بوجود نبات فى شبه الجزيرة العربية يشبه خشب الصندل ويقاربه فى الرائحة ، فليس هناك ما يمنع(٤٣) أن يكون نفس الأمر ينطبق على القارة الأفريقية التى تمتاز عن شبه الجزيرة العربية بكثرة أشجارها وتعدد أنواعها ، هذا بالإضافة إلى نصوص رحلة بلاد بونت الى أشارت إلى جلب الأخشاب ذات الرائحة الذكية ضمن سلع هذه البلاد .

من هذا يتضح أن موقع أوفير يقع ضمن مناطق الساحل الأفريقى للبحر الأحمر .

ويرجح د. عبد المنعم عبد الحليم أن أوفير تقع على الساحل الممتد من أريتريا إلى الصومال وخاصة المنطقة الممتدة من خليج زولا (أدوليس) إلى خليج تاجورة حيث تنتشر الموانى الملائمة لرسو السفن الفينيقية والعبرانية . ويقدم عدة أدلة لإثبات هذا الموقع(٤٤) .

ويبدو أن أوفير كانت محطة تجارية لتجميع منتجات القارة الأفريقية حيث تبادل المنتجات المحلية بما تحمله السفن من بضائع يحتاج إليها سكان أفريقيا من ملح وحديد ، وهكذا كان تكديس السفن الفينيقية والعبرانية والسفن المصرية بالمنتجات كالذهب والفضة والعاج والقردة والأخشاب .

وفى حفائر " تل قاصيل " على الضفة الشمالية لنهر " يرقون " عثر على قطعتين أوستراكا بنقوش عبرية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، تحمل الأولى نقشا يقول :

" للملك ألف (وزنة) من الزيت " . وربما تمثل قائمة بكميات الزيت التى ترسل من قبل الخزائن الملكية إلى أحد الموانئ المصرية أو الفينيقية من تل قاصيل . أما القطعة الثانية فتحمل إشارة إلى ذهب أوفير : " ذهب أوفير إلى بيت حورون ، ثلاثون وزنة " . ويبدو أن بيت حورون كان مركزا إداريا فى مقاطعة افرايم التى كانت مدينة اقتصادية فى عصر سليمان وقد أقيمت عدة قلاع على الطريق الذى يبدأ من السهل حتى الجبال التى تقع بين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل . ومع ذلك لا يمكننا أن نغفل أن بيت حورون كانت تتضمن معبدا كنعانيا للمعبود حورون ، وكان يعبد فى فلسطين منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد استمرت عبادة هذا المعبود على الساحل الفلسطينى حتى العصر الهيلينستى كما يشير هذا النقش إلى أن عبادة حورون من قبل الفلسطينيين والفينيقيين استمرت فى تل قاصيل والمدن المجاورة لها شكل (٥)(٤٥) .

٣- ترشيش

أنشأ سليمان خطا بحريا آخر ينتهى بأرض اشتهرت بالذهب كذلك ، سميت فى التوراة (ترشيش) . وقد استعان سليمان بمدربين وملاحين من صور أمده بهم حيرام ملك صور ، وكان الأسطول يذهب مرة كل ثلاث سنوات وأما البضائع التى تعود بها من ترشيش فهى الذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس . ولم يتفق الرأى على تعيين موضع ترشيش فيرى البعض أنها فى أفريقية ، ويرى آخرون أنها فى مكان ما من سواحل أسبانيا الجنوبية ، ويرى البعض أنه فى أسبانيا ، وكانت سفن صور تتاجر مع ترشيش وتربح من هذه التجارة ربحا وفيرا كما جاء فى التوراة(٤٦) .

وترى الباحثة أن اسم ترشيش يقترب من اسم أحد عناصر شعوب البحر وهم التورشا الذين جاءوا من المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم ليديا (غرب الأناضول) ومنها هاجر التورشيون إلى وسط إيطاليا ، وربما حرف اسمهم إلى تاروشا ثم الأتروسكيين سكان روما القدامى(٤٧) .

ويتضح أن سليمان استعان بخبرة الفينيقيين فى تجارة البحر المتوسط ويبدو أن العبرانيين لم يتعلموا ، الخبرة الفينيقية البحرية ، إنما اعتمدوا عليهم اعتمادا كبيرا ، ويتضح ذلك عندما أقدم أحد خلفاء سليمان بعد وفاة سليمان على بناء أسطول جديد فى عصيون جابر ليسير إلى ترشيش ، غير أن مأربه لم يتحقق إذ تكسرت السفن ولم تستطع السير إلى ترشيش . وهذا يوضح أن العبرانيين لم يكونوا قد أتقنوا بناء السفن والسير بها فى البحار ، فأخفقوا ، وأن نجاح سليمان فى الوصول إلى أوفير وترشيش مرده إلى خبرة ومهارة الفينيقيين(٤٨) . ورغم أن أسماء داود وسليمان لم يردا فى النصوص المصرية ، إلا أن الشواهد الأثرية تشير إلى أن المدن التى افترض أن سليمان أقامها فى فلسطين ومنها حازور ومجدو وجازر فإن سماتها المعمارية من أسوار ومداخل ثلاثية وثكنات الموظفين تشير بجدية إلى النموذج المعمارى المصرى السائد فى ذلك العصر(٤٩) .

حملات ششنق الأول على فلسطين (الأسرة الثانية والعشرون ٩٥٠-٧٣٠ ق.م.)

من أهم الأحداث فى عهد الملك ششنق الأول (٩٥٠-٩٢٩ ق.م.) غزو سوريا العليا

وفلسطين ، وقد جاء ذكر هذه الحملة في الكتاب المقدس ، فنجد في سفر الملوك الأول ، الفصل الرابع عشر ، الجزء الثاني من التاريخ ، الفصل الثالث عشر أنه : " في السنة الخامسة من حكم مربعام جاء شيشاق – هكذا يسمى في التوراة – ملك مصر ليهاجم القدس بألف ومائتي مركبة حربية وستين ألف فارس ، وخرج من مصر ومعه شعب لا يمكن حصره من الليبيين والسوقيين والأثيوبيين ، واستولى على المدن المحصنة التي كانت ملكا ليهوذا ووصل القدس واستولى على خزائن بين الأبدية وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شئ ، وأخذ كل الدروع من الذهب التي صنعها سليمان " .

كانت حملة ششنق الأول تهدف إلى إحياء الأمجاد المصرية في غربي آسيا ، وكانت الأمور قد بدأت تسير في هذا الاتجاه منذ عصر الأسرة الحادية والعشرين كما رأينا من قبل ، وهناك ما يشير إلى أن ششنق وخلفاءه قد أعادوا العلاقات التجارية مع أمراء جبيل ، وقد أهدى ششنق الأول تمثالا جالسا له إلى معبد سيدة جبيل ، أما في الجنوب فهناك ما يشير إلى إرسال حملة للحصول على احتياجات آمون في الكرنك . وهذا يرجع عودة العلاقات التجارية ، وقد تحقق ذلك عام ٩٢٥ ق.م. تقريبا ودخل أورشليم واستولى على خزائن معبدها الرئيسي بعد تسليم رحبعام له تجنبا لأي تخريب قد يلحق بالعاصمة ومعبدها ، ثم يقفل ششنق عائدا لمصر ليخضع في طريق العودة مدن مجدو ومجاوراتها في سهل جزريل(٥٠) .

تتطابق السنة الخامسة من حكم يربعام الذي خلف سليمان في عام ٩٢٩ ق.م. مع السنة الحادية والعشرين من حكم ششنق ، وكان الجيش المصري يضم في تلك الفترة قوات مرتزقة من الليبيين والسوقيين الذين قد يكونون قبائل من شرق الدلتا ، أما الأثيوبيون فهم قبائل من بلاد النوبة السفلى الذين أطلق عليهم الكوشيين والذين أمدوا في كل الأوقات الجيش المصري بأفضل عناصره المقاتلة(٥١) .

وعندما عاد ششنق منتصرا إلى مصر ، سجل بالنقوش قصة انتصاره على الجدران الجنوبية الخارجية لبهو الأعمدة الكبير في معبد الكرنك . ويظهر في منظر فوق رؤوس الأسرى الذين يمثلون أهالي مائة وست وخمسين مدينة فلسطينية تقع على الحدود الجنوبية لأرض يهوذا شمال الجليل(٥٢) .

وعادت حملة ششنق على فلسطين بفوائد شتى ، فاستعادت مصر بها جانبا من مجدها القديم ، واستعادت سعة صلاتها بالمدن الفينيقية ، واستحب بعض حكام المدن الفينيقية أن

يقيموا التماثيل والنصب بأسماء ملوك مصر فى معابدهم ومنها تماثيل لكل من شيشنق الأول واسركون الأول واسركون الثانى . وأفاضت الحملة على مصر فى الوقت نفسه غنائم وثروات استغلها ملوك الأسرة ٢٢ فى مواصلة الترف القديم وزيادة مبانى المعابد(٥٣) . وأعاد هذا الملك لمصر بعض سيطرتها القديمة التى كانت على عهد أسلافه المحاربين منذ النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

أهم المدن التى ورد ذكرها فى نص شيشنق الأول

يصف كيتشن قائمة شيشنق الأول(٥٤) ، فيذكر أن القائمة تتكون من عشرة صفوف من الأسماء ، كتبت خلف المعبود آمون ، بينما هناك صف حادى عشر يمتد أسفل الجزء الخاص بالملك . ويرى كيتشن أن هذه السلسلة الطويلة من الأسماء لا تشكل تسلسلا جغرافيا فى مجملها ، إلا أن بعضها يشير إلى طريق جغرافى موحد (شكل ٣) .

ويقدم كيتشن توزيعا جغرافيا كما يلى :-

الصف العلوى قائمة تمهيدية للأعداء التقليديين لمصر (الأقواس التسعة) ، ثم يعطى نقطة بداية الحملة إلى فلسطين وهى غزة إن لم تكن Makkedah أو Rubuti . أما الصف الثانى فيحتوى على ثلاثة قطاعات يمكن تمييزها :

أ- من وادى اسدراليون إلى رحوب (تل الساريم) .

ب- يستمر الامتداد عبر الأردن إلى ماهانيم .

ج- قطاع منفصل يمتد من وادى اجالون حتى جبيون بالقرب من أورشاليم .

وهكذا فإن الصف الثانى فى (ج) يكمل المعلومات فى الصف الأول ، بينما الصف الثانى (أ) و (ب) يمثلان الجزء الشمالى الشرقى من حملة شيشنق ثم يقدم الصف الثالث :-

١- جزء من الطريق من مجدو جنوبا إلى Socoh وما وراءها .

٢- جزء يمثل الطريق من مجدو إلى جنوب غرب الجليل .

أما الصف الرابع والخامس فإن جزئيهما يمثلان :

١- طريق عبر الأردن بين ماهانيم وأدوم .

٢- طريق من زيماريام (شمال أورشليم) حتى تيرزان والوادى (اسداrليون) .

وبعد ذلك فالصفوف من التاسع حتى العاشر ترتبط بجنوب يهوذا ومناطق النقب ، بينما الصف الحادى عشر من رفح متجها مع الطريق الساحلى إلى مصر .

وهكذا نجد الصف الرابع الذى كان يحتوى على ثلاثة عشر اسما لمواقع ، فقدت كلها باستثناء اثنين فقط أحدهما (رقم ٤٠) لا يمكن تحديده تماما ، والموقع الثانى غامض (بيت سبا؟) وهناك عشرة أسماء أخرى ، كلها فقدت باستثناء بقايا غير مقروءة ولا نستطيع معرفة أى بيت من فلسطين كانت ترتبط به هذه الأسماء . وقد يثار تساؤل حول عدم ذكر لمدينة أورشاليم فى قائمة ششنق ، والإجابة بسيطة وتشمل :

أولا : من المحتمل أن أورشاليم قد استسلمت لششنق الأول قبل قيام الحملة وقامت بدفع الجزية ، فلم يتم غزوها بالقوة وبالتالى لم يأت ذكرها فى القائمة .

ثانيا : من المحتمل أن اسم أورشاليم ذكر فى القائمة ولكن ضاع فى الأجزاء المهشمة منها فهناك ثمان أسماء مفقودة بالكامل قد تكون أورشاليم واحدة منها وعليه فإن قائمة ششنق الأول إما أنها لم تعد فى حاجة إلى وضع اسم أورشاليم فى المكان الأول ، أو قد ذكر فى الصف الرابع المهشم .

وجدير بالذكر أن التوراة تتحدث فقط عن غزو يهوذا جنوبا بينما قائمة ششنق تركز على مدن إسرائيل شمالا . فالمواقع الشمالية التى أخضعها الملك المصرى تشتمل على صفين كاملين فى القائمة هى الصف الثالث والخامس وجزء من الصف الثانى . بينما الصف الرابع مهشم ، وغير مقروء أساسا . وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الروايات التوراتية كتبت من وجهة نظر مملكة يهوذا وبالتالى فهم لم يهتموا بما حدث لجيرانهم فى الشمال ، لذا فإن قائمة ششنق أصدق قولا فى اجتياح الملك المصرى لهاتين المملكتين الصغيرتين : يهوذا وإسرائيل(٥٥) .

وفى محاجر جبل السلسلة التى أخذت منها أحجار البناء لتشييد بهو الأعمدة الكبير فى الكرنك والبوابة الرئيسية ، عثر على نقش رقم (١٠٠) مؤرخ بنهاية العام الحادى والعشرين من حكم ششنق الأول . مما يشير إلى أن الحملة نفسها قد قامت بالفعل فى خريف هذا العام نفسه ، حيث كان من نتيجة هذه الحملة تزويد المعابد المصرية بالغنائم العديدة(٥٦) .

ويرد فى نقش جبل السلسلة أن الملك شِشنق الأول أمر بإعادة فتح محاجر جبل السلسلة لبدء مشروعات الملك الإنشائية ، من أجل إقامة العمائر الدينية للإله أمون رع الذى يمنحه مزيد من سنوات الحكم ، كما يتضح من النقش أن الملك ومعه ولى العهد (ابنه الذى كان يحمل لقب الكاهن الأول لآمون رع) قاما بافتتاح هذا المشروع وذلك فى العام الحادى والعشرين من حكم ششنق الأول ، حيث تقوم الآلهة برعاية وحماية هذا المشروع واختيار أحسن المواقع فى محاجر السلسلة من أجل إقامة العمائر العظيمة فى معبد آمون رع .

وجدير بالذكر أن النقش يحتوى على عبارة " إن الملك أعطى تعليماته من أجل بناء الصرح العظيم " . ويبدو أن العام الحادى والعشرين كان العام الأخير من حكم ششنق وهو ٩٢٥ ق.م. حيث ذكر مانيثون أن مدة حكم ششنق الأول هى واحد وعشرون عاما . ويبدو أن ششنق الأول أعطى أوامره إلى مهندسه المعمارى " حر – م – ساف " لإعادة فتح المحاجر فى جبل السلسلة من أجل إنشاء مبنيين رئيسيين فى المعبد الكبير لآمون رع بالكرنك ، ويفترض أنهما الصرح والأعمدة . وقام الملك بتقديم هدايا الذهب والفضة لكبار الموظفين المشرفين على المشروع تقديرا لجهودهم . ويتضح من ذلك أن البوابة البوباسطية كانت جزء من المشروع الأساسى الذى بدأه ششنق الأول ، أما عبارة " الصرح العظيم " التى وردت فى نص جبل السلسلة فتشير إلى المدخل الرئيسى للمعبد كله(٥٧) .

ويرى John Wilson(٥٨) أن النصوص المصرية لم تكن كافية لتغطية تفاصيل حملة ششنق الأول على فلسطين ، مما يجعل نص ششنق يبدو كما لو كان سرد لخط سير الرحلة أكثر منه نصا روائيا للحملة التى قادها الملك(٥٩) . ومع ذلك يتضمن النص عبارات مثل : " جزى الأراضى السورية " و " الأسيويون فى البلاد الأجنبية " كما يذكر الملك أنه قام بالحملة إرضاءا للإله آمون : " أحضرت للإله ، الأسيويين من جيوش ميتانى " . وهناك وثيقتان عثر عليهما فى الأراضى الآسيوية تؤكدان حملة ششنق ، ففى مجدو عثر على لوحة جنائزية تحمل اسم الملك ششنق الأول تشير إلى أن الملك بنفسه أقام احتفالا بالنصر هناك . وفى جبيل عث على مقعد لتمثال جالس يحمل اسم الملك ، ويبدو أن هذه القطعة كانت هدية من أمراء المنطقة.

كما يوجد فى بلتيمور " Walters Art Gallery " تمثال من البازلت لشخص مصرى نقش عليه : " مبعوث إلى كنعان وفلسطين بادى ايست ابن أبيب " وربما رجع هذا التمثال إلى

عصر الأسرة الثانية والعشرين ، وهذا يؤكد عودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وكنعان(٦٠).

مما سبق يتضح أن :-

- تاريخ العبريين هو من الناحية السياسية فترة متواضعة الأهمية إذا قورن بتاريخ الإمبراطوريات الكبرى فى الشرق الأدنى .
- إمكانيات الأسرة الحادية والعشرين الاقتصادية كانت محدودة ، حيث انكمشت العاصمة تانيس إلى نصف مساحتها السابقة .
- التحالف بين سيا أمون وسليمان كان يحقق لكل منهم غرضا اقتصاديا ، فمصر فى حاجة إلى اكتساب امتيازات اقتصادية فى فلسطين ، وسليمان يأمل أن يكون لدولته منفذ على البحر المتوسط عن طريق القضاء على مدينة جازر .
- استعان سليمان بخبرة المدن الفينيقية فى إنشاء أسطول تجارى بحرى .
- استولى سليمان على الأسواق التجارية القديمة فى البحر الأحمر وحرم مصر من موارد التجارة الخارجية .
- استطاع سليمان نتيجة تحالفه مع مصر ، إنشاء ميناء عصيون جابر على خليج العقبة حيث أنشأ مصانع لإنتاج النحاس والحديد مستغلا اتجاه الرياح ، ويبدو أن النحاس كان يأتى إليها من المناجم الغنية فى طور سيناء .
- وصلت سفن سليمان إلى ميناء أوفير لإحضار الذهب ، الرواية التوراتية بالغت فى إظهار حملات أوفير وكأنها أبهى من حملات الملوك المصريين إلى بلاد بونت .
- تشابه السلع التى جلبتها سفن سليمان من أوفير مع السلع التى كانت مصر تجلبها من بلاد بونت وهى الذهب والعاج والقردة والأخشاب والفضة والأحجار الكريمة وتكاد تقع فى المنطقة التى تشمل الصومال حتى خليج عدن .
- أوفير كانت محطة تجارية لتجميع منتجات القارة الأفريقية .
- سار سليمان على نهج الملوك المصريين من تقديم الهبات والهدايا إلى المعابد الأخرى ، مثل معبد حورون حيث كان يقدم له ذهب أوفير .

- ميناء ترشيش ربما كان المنفذ لتجارة سليمان على البحر المتوسط الذى أتاحه له الملك المصرى .

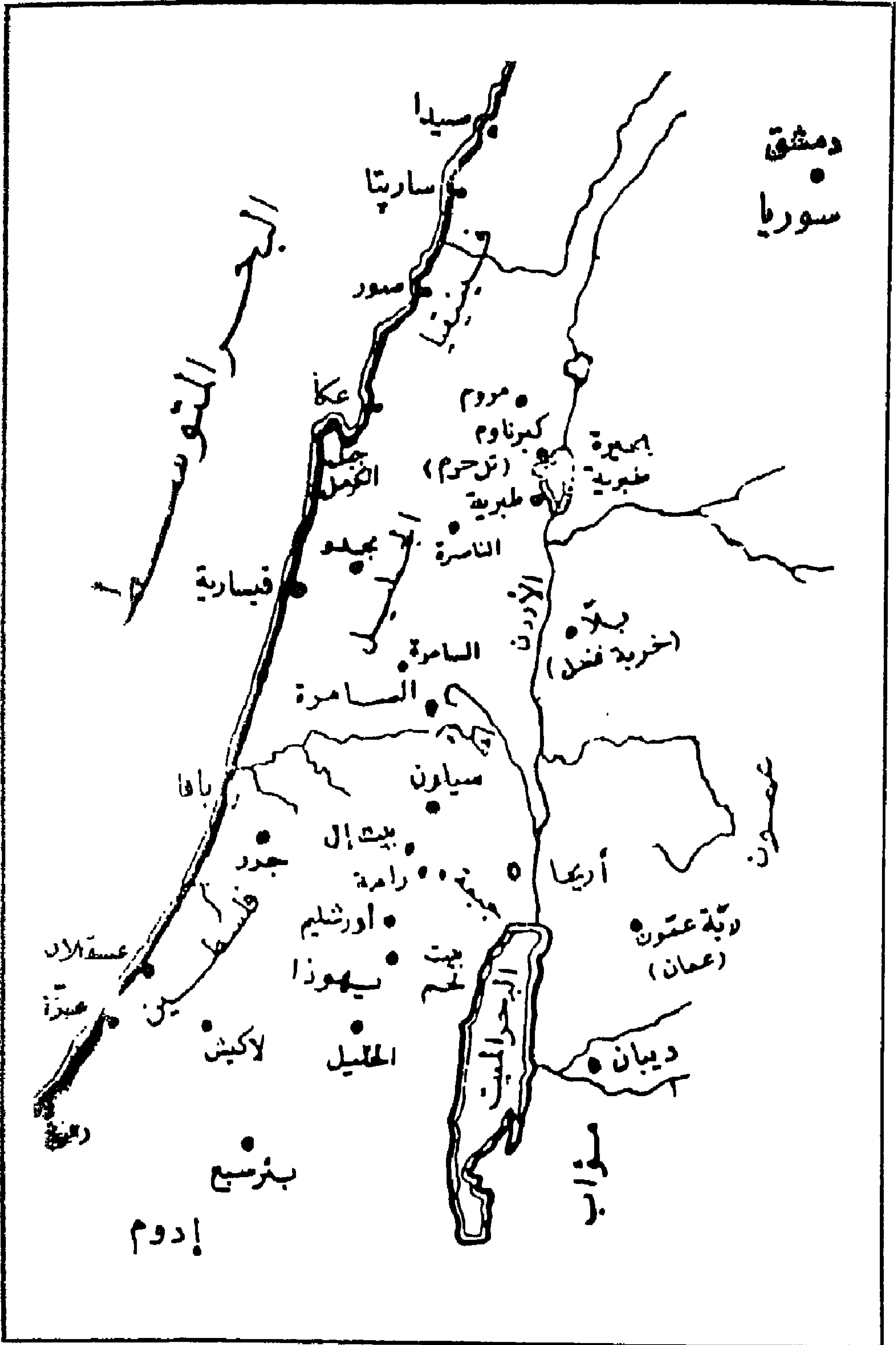
- حملة ششنق الأول على فلسطين أعادت سيطرة مصر على التجارة الخارجية فى غرب آسيا ، وعادت العلاقات التجارية بين مصر والمدن الفينيقية .

- سياسة الملك ششنق الأول تختلف عن سياسة سيا آمون تجاه الشرق ، فكان يرى أن صالح مصر السياسى والاقتصادى ليس مع التحالف مع الكيانات القائمة فى تلك المنطقة لأنها تمثل عائقا لا يستهان به أمام ازدهار العلاقات المصرية السورية ويقلل من الثروة المصرية لحساب مملكة سليمان ، فزحف بقواته لإخضاع المنطقة عسكريا .

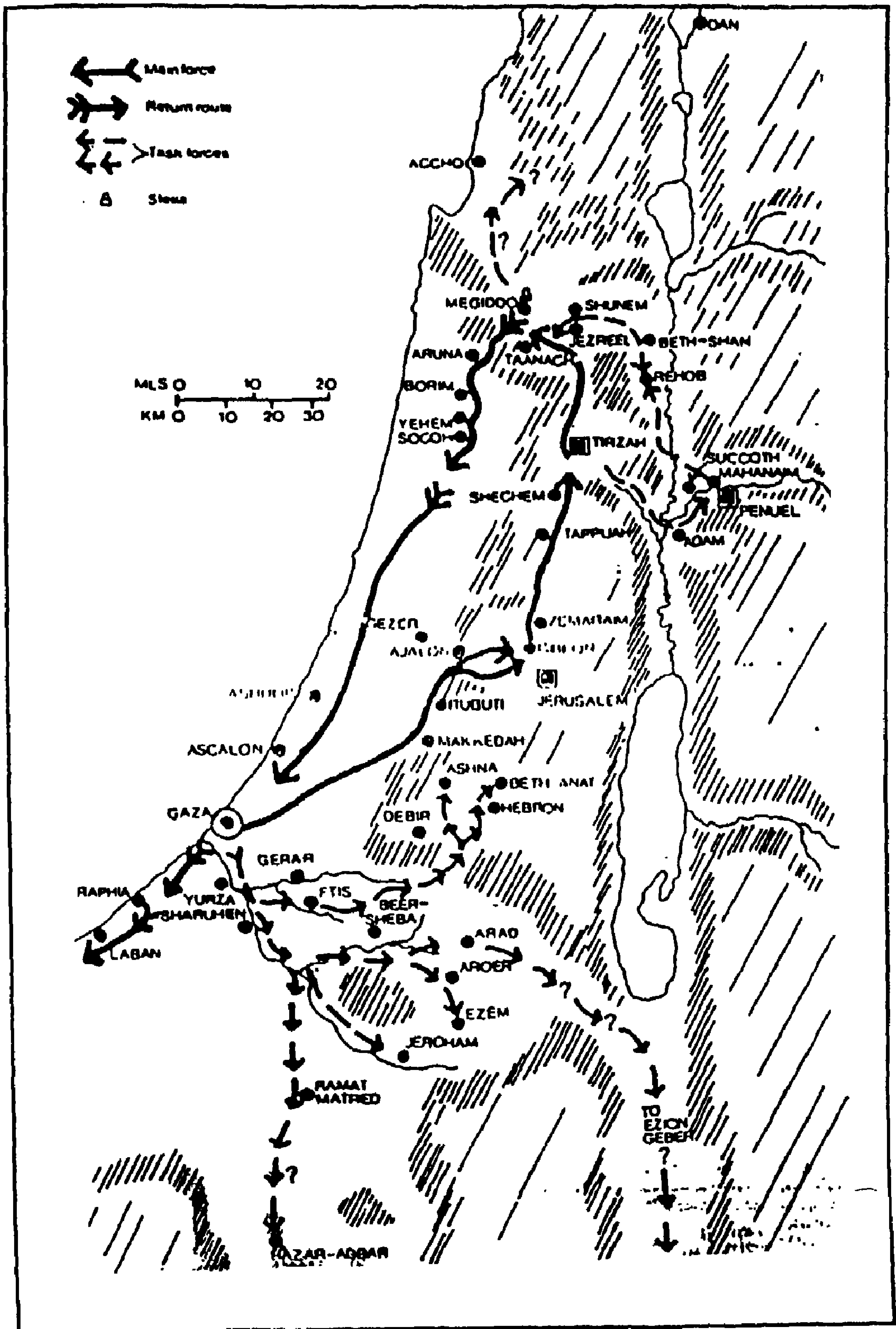
فترات حكم ملوك مصر المعاصرة لسليمان وابنه

الأسرة الواحدة والعشرين	سليمان	٩٧٠ - ٩٣٠ ق.م.	
	سيا آمون	٩٧٩ - ٩٦٠ ق.م.	
حملة سيا آمون	←	العقد الأول من عهد سليمان والعقد الأخير من عهد سيا آمون = ٩٦٧ ق.م.	
الأسرة الثانية والعشرين	ششنق الأول	٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م.	
	رحبعام	٩٣٠ - ٩١٣ ق.م.	
حملة ششنق الأول	←	السنة الخامسة من حكم رحبعام	= ٩٢٥ ق.م.
	←	السنة ٢١ من حكم ششنق	

شكـــل (١)


صيدا
صاريتا
صور
عكا
دمشق
سوريا
مروم
كفرناحوم
(تل حوم)
طبرية
الناصرة
مجدو
قيسارية
السامرة
بحيرة طبرية
الأردن
يافا
سيلون
بيت إل
جرر
راعة
أريحا
أورشليم
يهوذا
بيت لحم
ربة عمون
(عمان)
عسقلان
غزة
لاكيش
الخليل
ديبان
بئر سبع
إدوم

شكل (٢) فلسطين



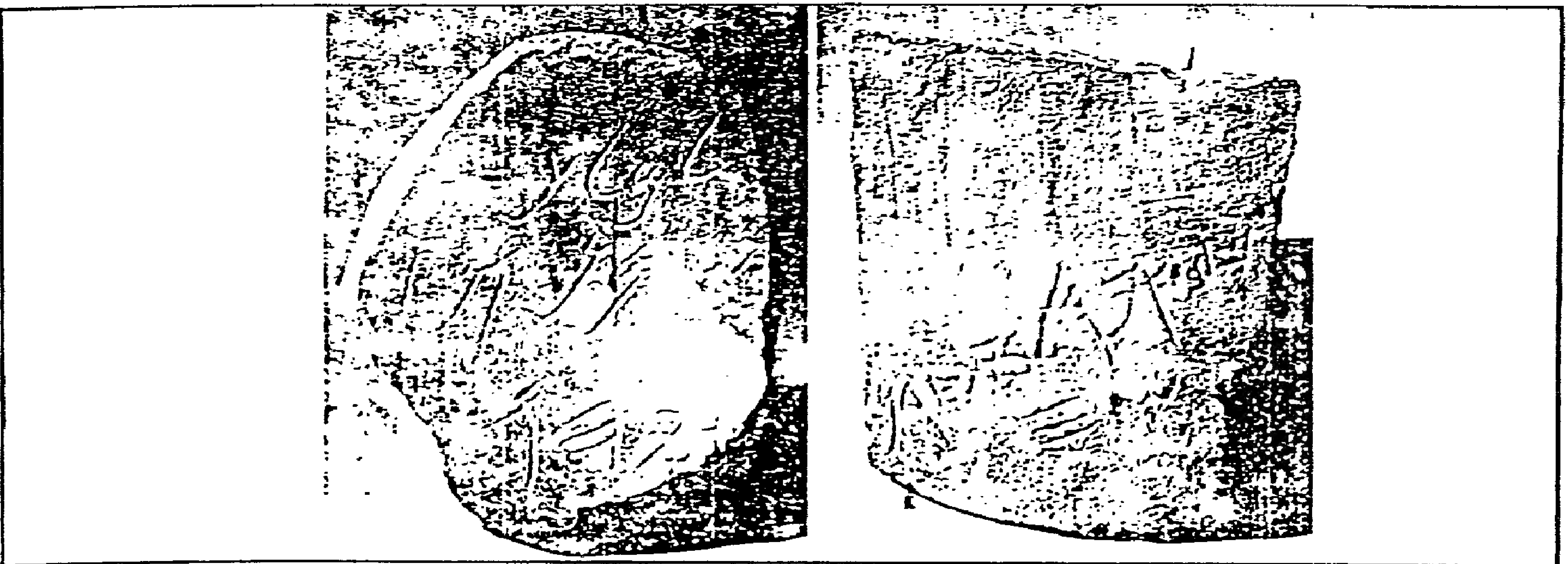
شکل (۳)

Course of the Palestinian Campaign of Shosheng I. O.925.13.C.

EGYPT
NABATAEANS
RED SEA
BARBARIA
ARABIA
PERSIAN GULF
PERSIS
PARTHIANS
Indus River
SAKAS
Narmada River
Barygaza
INDIA
Ganges River
AXUM
ZÔSKALÊS KINGDOM
HOMERITES and SABAEANS
FRANKINCENSE-BEARING LAND
DIOSCURIDES
ARABIAN SEA
ANDHRAS
CHERA
PANDYA
FAR-SIDE BARBARIA
Opone
AZÂNIA
BAY OF BENGAL
INDIAN OCEAN

2. Political geography of the *Periplus*

شكل (٤)



شكل (٥)

HEBREW OSTRACA FROM TELL QAILE

A OSTRACON NO.1

B OSTRACON NO.2

الهوامش

١- سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية ، ترجمة السيد يعقوب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ١١٠ .

٢- Kitchen, K, The Third Intermediate Period in Egypt, warminster, 1986, 493.

٣- عبد العزيز صالح : مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٧ ، ٢٦٥ .

٤- نجيب ميخائيل : مصر من قيام الدولة الحديثة إلى دخول الإسكندر ، جـ٢ ، الإسكندرية ، ١٩٦٢ ، ٣١٧ ؛ Kitchen, K.A, op. cit, 280.

٥- Redford. B.R., Egypt, Canaan, and Israel, Cairo, 1993, 310.

٦- رمضان السيد : تاريخ مصر القديمة ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٩٣ ، ٢٢٥ .

يرى د. عبد العزيز صالح أن تحديد اسم الملك لازال فى مرحلة الفروض ، فهو قد يكون أحد الاثنين السابق ذكرهما ، أو قد يكون أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين : عبد العزيز صالح : مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٧ ، ٢٦٥ .

٧- عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٦٥ .

٨- Kitchen, K.A, op. cit, table 12 , 479.

٩- نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، ٣١٧ .

١٠- تحفة أحمد حندوسة : الزواج والطلاق فى مصر القديمة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ٢٨ .

١١- Kitchen, K.A, op. cit, 276, 282.

١٢- Redford, B.R, op. cit., 311.

١٣- أحمد أمين سليم وسوزان عباس عبد اللطيف : تاريخ مصر الفرعونية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ٢٩٢ .

١٤- حسن ظاظا : القدس مدينة الله ... أم مدينة داود ، الإسكندرية ، ١٩٧٠ ، ٣٨ .

١٥- Maisler, B, Two Hebrew Ostraca from Tell Qasile, JENS, X, 1951, 267.

١٦- عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ٣٨٧ .

١٧- محمد بيومى مهران : جـ٣ ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ٦٠٩ .

انظر: Chen, S., Solomon and the Daughter of pharoah: intermarriage Conversion and the Impurity of woman, JENS, 1984/85, 37.

١٨- نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣١٦ .

قام شـشنق بنقل قاعدة الملك من تانيس إلى بوباستة التى رأى أنها تفضل تانيس مـن نواحى عدة ، أنظر : إبراهيم محمد كامل : إقليم شرق الدلتا فى عصوره التاريخيـة القديمة ، جـ٢ ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ١٤٩-١٨١ .

سليم حسن : مصر القديمة ، جـ٩ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ٥١٧-٥١٩ .

١٩- Montet, P., Les Constructions et le Tombeau d'Osorkon II á de Tanis, 1947, (La Nécropole Royale Tains, I) 36, pl. 1, 9A'; Kitchen, K.A., op. cit, 280-281.

٢٠- محمد بيومى مهران : مصر ، جـ١ ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ٦٠٩-٦١٠ .

٢١- عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٩ .

حفلت النقوش الجدارية بالعديد من مناظر قهر الشـعوب الأجنبية منذ عـصور ما قبل الأسرات وحتى العصور المتأخرة ، وهى تسـجل الأحداث التاريخية بالإضافة إلى نوعية العقوبات التى ينزلها الملك على الشعوب الأجنبية ، أنظر :

Ivery, J., Crime and Punishment, (in) Egyptian Art principle and Themes in Wall Scenes, Prism Egypt, 2000, 207-223.

٢٢- Kemp, B., Ancient Egypt: A social History, Cambridge, 1989, 226-232.

Malemat, A., Aspects of the forgien Policies of Dawid and Solomon. JENS, 22/1, 1963, 1-17.

Waterman, L., The Treasuries of Solomon's Private chapel, JENS, 6, 1947, 161-163.

٢٣- Kitchen, K.A, op. cit, 282; Redford, D.B. op, cit., 310; Malamat, A., JENS, 22, 10-17.

إبراهيم محمد كامل : المرجع السابق ، ١٤٩-١٨١ .

٢٤- تقع عند رأس خليج العقبة عند تل الخليفة حاليا ، وكانت تسـمى قديما عصيون جابر ثم أطلق عليها بعد ذلك إيلات ولما أتى الرومان أسموها أيلة :

انظر: عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٨ .

٢٥- Albright, W.F., The Archaeology of PALASTINE, Pengeuim Books;, Haramonds-worth, 1949, 44, 127-128

٢٦- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية ، ترجمة السيد يعقوب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ١١٥ -١١٦ .

٢٧- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ١ ، بيروت ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ٦٣٨ .

٢٨- سليم حسن : مصر القديمة ، جـ٩ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ٥١٦ .

٢٩- Glueck, N., M River in the Desert, New York. 1959, 162.

٣٠- جواد على : المرجع السابق ، ٦٨٣ ؛ Redford, D.B. op, cit., 328 .

٣١- لطفى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ٣٢٥ ؛ LÄ, V, 370

٣٢- جواد على : المرجع السابق ، ٦٣٧ .

٣٣- جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ١٥١-١٦٠ .

٣٤- Oxford Bible Atlas, trans. By Herbert G., and others , London, Oxford, 1968 , 66 .

٣٥- عبد المنعم عبد الحليم سيد : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الأحمر ، رسالة دكتوراه ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ ، ٢٠٢ .

٣٦- جورج فضلو حورانى : المرجع السابق ، ١٥٢-١٥٣ .لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ٣٣٥-٣٣٦

٣٧- جورج فضلو حورانى : المرجع السابق ، ١٥٣-١٥٤ .

٣٨- جواد على : المرجع السابق ، ٦٣٨ .

٣٩- جورج فضلو حورانى : المرجع السابق ، ١٥٨-١٦٦ .

٤٠- بلاد بونت : كان لها مدلول عام عند المصريين جنوبا على طول الساحل الأفريقى للبحر الأحمر .

٤١- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ -٢٠٣ ؛ Faulkner, R.O., CD., 288

٤٢- سليم حسن : مصر القديمة ، جـ٤ ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ٣٢٦ ؛ Naville, D. Bahari, Pl. 81

٤٣- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

٤٤- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

٤٥- Maisler, B., Two Hebrew Ostraca from Tell Qasile, JENS, X, 1951, 265-267.

٤٦- جواد على : المرجع السابق ، ٦٤٠ ؛ LÄ, V, 370

٤٧- Wainwright, G., the Teresh, The Etruscans and Asia Minor, Antolian Studies, 9, 201 ff.;
Id., JEA, 47, 1961, 83 ff. ; Sanders, N.K., Sea Peoples, London, 1978, 111 ff.

٤٨- جواد على : المرجع السابق ، ٦٤٠-٦٤١ .

٤٩- Redfold, D.B., Egypt, Canaan and Israel, Cairo, 1993, 310;
انظر : Bienkowski, P., The Role of Hazor in the late Bronze Age, PEQ, 1987, 50-51.

٥٠- Kitchen, K.A., The third Intermediate Period, 1996, 293-300. fig.2;

رمضان السيد : المرجع السابق ، ٢٣٣ ؛ عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٨٦ ؛

محمد بيومى مهران : المرجع السابق ، ٦١٤-٦١٥ ؛

Simons, J., Hand book for the study of Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia, Leiden, 1937, 89-102.

٥١- رمضان السيد : المرجع السابق ، ٢٣٣-٢٣٤ .

٥٢- انظر: Braguet, Le Temple d'Amon-Re à Karnak, 1962, 48-49;

Legrain, Karnak, 54-62; University of Chicago, Oriental Institute Publ. 74, Relief and Inscriptions at Karnak III, 74; PM, VII, 381.

٥٣- عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٨٦ ؛ PM, VII, 388

Redford, D,B., Op. Cit., 334.

٥٤- PM, Thebant Temples, II, Oxford, 1991, 34-35.

٥٥- Kitchen, K.A., Jerusalem in Ancient Egyptian Documentation ; in Bienkouski, P., The Jordan Volume: Apre- Islamic Jerusalem, London (Forth Coming) , 16.

٥٦- رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ؛ عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ٨٥٧ ؛

Cominos R.A., Gebel Es - Silsilah No. 100, JEA, 38, 1952, 46-61, Pl. 10-13.

٥٧- Cominos R,A., op. Cit., 50, 59-60.

٥٨- Pritchard, J.B., Ancient Near Easternt Texts, New Jersey, 1969, 263-264.

٥٩- Olmstead, A.T., History of Palastine and Syria, New York, 1931, 354-56; Yeivin, S., JEA, XVIII, 1962, 75-80.

٦٠- Steindorff, G., JEA, XXV, 1939, 30-33;

Malamat, A., The Kingdom of David & Solomon in its Contact with Egypt and Aram Naharain, XXII, 1963, 96-104;

Helck, W., Geschichte Des Atlen Ägypten, Leiden, 1968, 217-221.

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

تــراث حضــارة مصـــر الفرعونيـــة في الحضارة الإنسانية

نتناول فى هذا البحث جانبا من تراث حضارة مصر الفرعونية الذى ما زال باقيا حتى اليوم فى سجل الحضارة الإنسانية ، فنقول إن هذا التراث يدور حول محورين ، لا تتقدم أى حضارة بدونهما ، هما : تقسيم الزمن ، والكتابة أو بالتحديد الأبجدية .

أما عن تقسيم الزمن فقد اعتمد المصريون القدماء فيه على دورة الشمس السنوية ، وليس على دورة القمر مثل سائر شعوب الشرق الأدنى القديم . وأما الأبجدية فقد كان المصريون القدماء أقدم الشعوب التى توصلت إلى الأساس الذى تقوم عليه فكرة الأبجدية بابتكار ٢٤ حرفاً أبجدياً فى الكتابة الهيروغليفية .

وقد انتقلت هاتان الظاهرتان الحضاريتان أى التقويم الشمسى وفكرة الأبجدية إلى الشعوب الأخرى ، وتطورت خلال القرون ، حتى وصلت إلينا فى أشكالها الحالية . فالتقويم الشمسى المصرى وصل إلينا فيما يعرف بالتقويم الميلادى ، وفكرة الأبجدية وصلت إلينا فى مختلف الأبجديات الباقية حتى اليوم سواء الأبجدية العربية (الخط العربى) أو الأبجديات اليونانية واللاتينية وسائر الأبجديات الأوروبية أو الأبجدية الجعزية فى الحبشة .

وعلى ذلك سوف نتناول فى هذا البحث العناصر الحضارية التى ما زالت باقية حتى اليوم لدى الشعوب المعاصرة والتى ترجع فى أصولها إلى حضارة مصر الفرعونية ، وهى :

---

* - أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

أولا: التقويم الميلادى (الشمسى) .

ثانيا: الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط وما يتاخمه من مناطق أوروبية .

ثالثا: الأبجدية الأثيوبية (الجعزية) فى الحبشة .

أولا: تراث مصر الفرعونية فى التقويم الشمسى

لما كان المصريون القدماء شعبا زراعيا ، فقد احتاجوا إلى تقويم ثابت لضبط مواعيد البذر والحصاد . لذا فإن التقويم القمرى لم يكن ملائما لضبط هذه المواعيد . فاتجهوا لرصد دورة الشمس السنوية ، وبذكاء لاحظ الراصدون المصريون أن وصول بشائر فيضان إلى خط عرض مدينة عين شمس أو هليوبوليس (التى كان المصريون القدماء يسمونها أون بمعنى "البرج" لأنهم كانوا يرصدون منه الأجرام السماوية) يتفق مع الشروق الاحتراقى (والشروق الاحتراقى لأى نجم معناه ظهور النجم قبل شروق الشمس ، ثم اختفائه بمجرد شروقها) لنجم الشِّعْرَى اليمانية الذى كان المصريون القدماء يسمونه " سبدت " (وقد شبهوا هذا النجم فيما بعد فى المراحل التالية من تاريخهم بالإلهة إيزيس) وكان هذا النجم يظهر فى الأفق الشرقى قبل شروق الشمس مباشرة بعد اختفائه مدة طويلة .

وقد أطلقوا على هذا الشروق الاحتراقى للنجم واقترانه ببشائر فيضان النيل عبارة " ب ر ت / س ب د ت / ح ع ب " ومعناها " شروق نجم الشعرى اليمانية (مع) فيضان النيل " (Breasted 1988, 709 & Sethe 1961, IV, 1116.4) وهذه الظاهرة أى اقتران الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية بوصول بشائر فيضان النيل لخط عرض هليوبوليس كانت تحدث يوم ١٩ يوليو من كل عام .

وعلى هذا فقد اعتبر الراصدون المصريون أن حدوث هذه الظاهرة يعبر عن بداية السنة ، وكانوا يحتفلون بها كل عام ، ويسمونها " أ و ب ت / ر ن ب ت " أى " فاتحة السنة " . وعلى ذلك فقد كان طول السنة المصرية هو المدة التى تنقضى بين شروقين احتراقيين لنجم الشعرى اليمانية . وقد احتسبها المصريون ٣٦٥ يوماً ، وقسموا السنة على أساس فيضان النيل إلى ثلاثة فصول ، هى : الفصل الأول الذى أطلقوا عليه " أ خ ت " بمعنى " الفيضان"، والفصل الثانى " ب ر ت " بمعنى " الخروج " أى خروج النبت من الأرض ، والفصل الثالث "ش م و" بمعنى " الذهاب " أى ذهاب الماء نتيجة انحسار الفيضان . ثم قسموا كل فصل من هذه

الفصول إلى أربعة شهور طول كل شهر ثلاثون يوما . وبذلك يكون مجموع الشهور الاثنى عشر ٣٦٠ يوما ، وتبقت خمسة أيام كان المصريون يضيفونها إلى آخر كل سنة ، وهى ما تعرف اليوم بأيام النسئ فى السنة القبطية التى هى امتداد للسنة المصرية القديمة .

وكانوا فى البداية لا يطلقون أسماء على الشهور لأن هذه الأسماء – التى تبدأ بشهر توت وتنتهى بشهر مسرى فيما يعرف بالشهور القبطية اليوم – لم يطلقها المصريون على الشهور إلا ابتداء من عصر الأسرة السادسة والعشرين (حوالى ٦٠٠ ق . م) (مونتيه ، ١٩٦٥ ص ٤٥) وإن كانت بعض الأسماء قد ظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة (إرمان ، ١٩٥٠، ص ٣٦٧) .

أما قبل الأسرة الثامنة عشرة فقد كان المصريون القدماء يرقمون الشهور طبقا لتسلسها بالنسبة للفصول ، فيقولون : الشهر الأول من فصل أخت – وهو الذى أطلق عليه فيما بعد شهر " توت " – والشهر الأول من فصل برت – وهو الذى أطلق عليه فيما بعد شهر " طوبة " – والشهر الرابع من فصل شمو – وهو الذى أطلق عليه فيما بعد " مسرى " .

ثم قسموا الشهر إلى ثلاث عشرات ، وليس إلى أسابيع كما نفعل اليوم . وقسم المصريون القدماء اليوم إلى ٢٤ ساعة ، ١٢ ساعة للنهار ، و ١٢ ساعة لليل . وهكذا أرسى المصريون القدماء أساس التقسيم الزمنى المتبع حتى اليوم فيما عدا اختلافين أولها أن طول السنة الشمسية اليوم ٣٦٥,٢٥ ، وليس ٣٦٥ كما كان عند المصريون القدماء فى البداية مما كان يؤدى إلى اضطراب مواعيد الفصول ولكن ذلك كان يحدث فى مدى زمنى طويل يصل إلى ٧٣٠ سنة عندما كانت الشهور التى من المفروض أنها شهور صيفية مثل شهر بؤونة تأتى فى فصل الشتاء ، بينما كانت الشهور التى من المفروض أنها شهور شتوية مثل شهر طوبة كانت تأتى فى شهر الصيف .

ولم يحاول المصريون إصلاح هذا الخطأ بإضافة ربع اليوم إلى الـ ٣٦٥ لأن التغيير فى الفصول لم يكن يشعر به الإنسان طوال حياته أو حتى طوال عدة أجيال ، وإن كان قد وصلتنا شكاوى للمصريين من هذا الاضطراب فى نص ، يتضرع كاتبه إلى الإله " أمون " أن يخلصه من السنة المضطربة . غير أنه بمرور ٧٣٠ سنة أخرى كانت الفصول تعود إلى حالتها الأصلية لأن نجم الشعرى اليمانية يعود إلى دورته المعتادة كل ١٤٦٠ سنة .

وكـان أن أصلح الكهنة المصـريون هذا الخطأ بإضـافـة ربع اليـوم إلى الـ ٣٦٥ يومـا ، وبالتحديد بإضافة يوم كامل إلى السنة كل أربع سنوات . وقد حدث ذلك سنة ٢٣٨ قبل الميلاد فى عـهـد الملك بطليـمـوس الثـالث فى المرسـوم الذى أصدره هؤلاء الكهنة لتمـجـيد هـذا الملك البطلمى ، والذى سجل على كتلة من الحجر بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية (مثل حجر رشيد) فيما يعرف باسم حجر كانوب نسبة إلى بلدة كانوب (أبى قير الحالية) ، حيث اجتمع هؤلاء الكهنة ، وسجلوا هذا المرسوم (عبد المنعم عبد الحليم ، ٢٠٠٠ ، ص ٦١).

وكان سبب هذا الإصلاح رغبة هؤلاء الكهنة فى ضبط مواعيد الاحتفال بعيد تتويج الملك البطلمى ، وليس لعلاج الاضطراب فى الفصـول ، لأن المصـريين لم يشعروا فى حياتهم بهذا الاضطراب كما سبق القول .

ولعل الإنسـان يتسـاءل ! كيف عرفنا هذه المعلومـات عن عـلاقـة التقويم المصرى بنجم الشعرى اليمانية ؟

لقد ذكرنا فيما سبق النص الهيروغليفى الذى يدل على أن المصريون القدماء ربطوا بين شروق نجم الشعرى اليمانية وبين فيضـان النيل ، ولكن تواريخ بدء اتباع المصريين للتقويم الشمسى على هذا الأساس لم يرد لها ذكر فى النصوص المصرية القديمة ، وإنما الذى ذكرها كاتب رومانى يدعى سنسورينوس Sinsorinus الذى كتب فى عام ٢٣٨ ميلادية ، يقول : إن المصريين لا يعتمدون على القمر فى تقويمهم ، بل يبدءون سنتهم بشروق النجم Sothis (وهـو الاسم الرومانى للشعرى اليمانية التى تسمى باليونانية Sirius) فى الأول من شهر توت ، وأن طول السنة المصرية يقل بمقدار ربع يوم عن السنة الفعلية (حرفيا يقل بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات) وهذا الفـرق يخـتـفى كل ١٤٦٠ سنة (٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠) ، ويقـول سنسـورينوس أيضـا أن النجم Sothis هو نجم الكلب الذى ينتمى للمجموعة الجنوبية لكوكبة الكلب الأكبر Canis Major وأن هذا النجم يختفى من السماء الشمالية (حيث توجد سماء مصـر) لجزء من السنة ، ثم يعود إلى الشـروق فى نفس المكان فى نفس الوقت من فـصل الصيف (Velikovsky 1977, P.216) .

أما تفسير فرق الربع يوم فهو بعد أن يظهر نجم الشعرى اليمانية فوق الأفق قبل شروق الشمس بقليل ، ثم يختفى هو والنجوم الأخرى مع شروق الشمس فيما يسمى " الشروق الاحتراقى " فإن نجم الشعرى اليمانية يشرق فى اليوم التالى مبكرا بعدة دقائق عن اليوم

السابق ، ويعلو فى الأفق قبل شروق الشمس . وبذلك يتجمع تأخير شروق النجم عن شروق الشمس بما يساوى ربع يوم كل ٣٦٥ يوما .

وهكذا يتأخر الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية فبدلا من أن يحدث هذا الشروق الاحتراقى فى اليوم الأول من شهر توت ، فإنه يشرق فى اليوم الثانى من توت ، ويظل هذا التأخير مستمرا حتى يبلغ ٣٦٥ يوما بعد ١٤٦٠ سنة إذ يعود الشروق الاحتراقى للنجم إلى اليوم الأول من شهر توت (Velikovsky 1977, p. 217) .

وقد أنبأنا سنسورينوس بمعلومة هامة أخرى هى أنه فى سنة ١٣٩ ميلادية بدأت دورة جديدة للنجم Sothis ، وهذا معناه أن الاتفاق بين الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية مع أول شهر توت حدث عام ١٣٩ ميلادية . ومما لا شك فيه أن المصريين القدماء لابد أنهم قد بدأوا تقويمهم بهذه الظاهرة أى باتفاق الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية مع أول شهر توت ، والذى يحدث كل ١٤٦٠ سنة . فإذا رجعنا فى الزمن إلى الوراء لتحديد مناسبات هذا الاتفاق لوجدنا أن ذلك حدث عام ١٣٢١ قبل الميلاد (١٤٦٠-١٣٩م = ١٣٢١) وقبل ذلك حدث فى عام ٢٧٨١ ق.م. (١٤٦٠ + ١٣٢١ = ٢٧٨١) وقبل ذلك فى عام ٤٢٤١ ق.م. (١٤٦٠ + ٢٧٨١ = ٤٢٤١) .

ولما كانت حضارة مصر الفرعونية قد بلغت النضج فى الأعوام ١٣٢١ ق.م (عصر الدولة الحديثة) و ٢٧٨١ ق.م (عصر الدولة القديمة) مما يدل على أن المصريين كانوا يتبعون فعلا التقويم الشمسى قبل هذه السنوات ، فضلا عن وجود إشارات فى النقوش المصرية إلى رصد النجم سبد منها : إشارة فى إحدى برديات اللاهون من عصر الأسرة الثانية عشرة (Breasted 1988, Vol. I, § 42) وإشارتان من عصر الملك تحتمس الثالث (Breasted , 1988, Vol. I, § 42, Vol. II, § 709) فعلى ذلك لا يبقى غير التاريخ الأقدم وهو عام ٤٢٤١ ق.م وهو يعاصر فترة ازدهار مدينة هليوبوليس التى يغلب أنه قامت فيها مملكة أو دولة كانت تتخذ من الشمس معبودا لها ، كما يدل على ذلك رمزها الذى ظهر على آثار العصور التالية ، وهو قرص الشمس المجنح . والتى كان معنى اسمها يشير إلى رصد الأجرام السماوية ، وهو " أون أو البرج " كما كان كبير كهنتها يحمل لقب " ور / م ا و" بمعنى " كبير الرائين " .

وقد استمر المصريون القدماء يتبعون هذا التقويم الشمسى القائم على الاتفاق بين الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية وبين وصول بشائر فيضان النيل إلى خط عرض هليوبوليس حتى آخر عصورهم ، وإن كانت أسماء الشهور قد تغيرت من أرقام منسوبة إلى الفصول إلى أسماء خاصة بكل شهر والتى استمرت حتى اليوم فيما يعرف بالشهور القبطية ، والتى تغيرت تواريخ بدايتها اليوم عما كانت أيام المصريين القدماء .

فبينما كان شهر توت هو أول شهور السنة يبدأ يوم ١٩ يوليو ، أصبح اليوم يبدأ يوم ١١ سبتمبر ، وتبع ذلك تغير بدايات الشهور الأخرى ربما نتيجة لما تعرض له التقويم الشمسى من إضافات أولها إضافة ربع اليوم سنة ٢٣٨ ق.م كما ذكرنا ، ثم ما أدخل عليه من إصلاحات عبر القرون حتى اليوم وكان آخرها الإصلاح الجريجورى كما سنذكر بعد .

وأسماء الشهور القبطية هذه إما أسماء آلهة أو أسماء مناسبات كما يلى :

١- توت : وهذا الشهر يبدأ فى الوقت الحاضر من ١١ / ٩ ، ويمتد حتى ١٠ / ١٠ ، واسمه الأصلى فى اللغة المصرية القديمة " تحوت " ، وقد تحور فى اللغة القبطية إلى Toot ، وهو نفس الاسم المستخدم حاليا فى العامية المصرية . وتحوت اسم إله مصرى كان رمزه الطائر أبى منجل والظاهر أن هذا الطائر كان يكثر في الحقول لالتقاط الديدان بعد تعرية الأرض من النباتات قبل وصول مياه الفيضان الجديد .

٢- بابه : ويمتد من ١١ / ١٠ إلى ٩ / ١١ ، وهو اسم عيد كان يحتفل به فى طيبة التى كانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة " أ ب ت " ، وأضيف إليها اسم الإشارة " ب ن " ، فصارت الكلمة " ب ن /أ ب ت " التى تحولت فى اللغة القبطية إلى Pawpi وبقيت نفس الكلمة فى العامية المصرية .

٣- هاتور : ويمتد من ١٠ / ١١ إلى ٩ / ١٢ ، وينسب إلى الالهة " حتحور " إلهة الخصب والجمال عند المصريين القدماء ، التى تحور اسمها فى اللغة القبطية إلى Hatwr .

٤- كيهك : ويمتد من ١٠ / ١٢ إلى ٨ / ١ والاسم محور من الكلمة المصرية القديمة "كا-حر-كا" ومعناها " قران الروح بالروح " ، وهو اسم عيد ، وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Kiahk ، وهو نفس نطقه بالعامية المصرية .

٥– طوبة : ويمتد من ١/٩ إلى ٢/٧ ، وأصل الاسم من الكلمة المصرية القديمة بتت أو بطت ومعناها " قمح " ، وقلبت الكلمة فى اللغة القبطية إلى Twbe وهو نفس نطقها فى العامية المصرية .

٦– أمشير : يمتد من ٢/٨ إلى ٣/٩ ، وأصل اسمه من الكلمة المصرية القديمة " مخير " ومعناها " الزوابع " ، ثم صارت فى القبطية Emsheer ، وهو نفس النطق فى العامية المصرية.

٧– برمهات : يمتد من ٣/١٠ إلى ٤/٨ والأصل المصرى القديم للاسم هو " ب ن / أمنحتب " وهو اسم أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، وقد رفعه المصريون إلى مصاف الآلهة بعد وفاته ، وقد تحور الاسم فى اللغة القبطية إلى Parmhotep ، وصار فى العامية المصرية " برمهات " .

٨– برمودة : يمتد من ٤/٩ إلى ٥/٨ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " ب ن / ر ن و ت هـ " وهو اسم إلهة الحصاد عند المصريين القدماء ؛ لأنه شهر حصاد القمح ، وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Parmoutc وصارت فى العامية المصرية برمودة .

٩– بشنس : يمتد من ٥/٩ إلى ٦/٧ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " ب ن / خ ن س و " ، وخنسو هو اسم إله القمر عند المصريين القدماء ، وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Pashons ، وهو نفس الاسم تقريبا فى العامية المصرية .

١٠– بؤونه : يمتد من ٦/٨ إلى ٧/٧ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " ب ن / ا ن ت " ، و" ا ن ت " وهو اسم وادى الملوك غرب مدينة طيبة الذى توجد فيه مقابر الفراعنة ، وكان المصريون يحتفلون فى هذا الوقت بعيد ينسب إليه أى يسمى " عيد الوادى " كان يتم فيه انتقال تمثال الإله أمون إله مدينة طيبة من البر الشرقى للنيل حيث يوجد معبد الكرنك إلى البر الغربى حيث يوجد وادى الملوك . وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Paowne ، وهو نفس النطق فى العامية المصرية .

١١– أبيب : يمتد من ٧/٨ إلى ٨/٧ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " إب إب " ، وفى القبطية , Epep وهو اسم عيد كان المصريون يحتفلون فيه بانتصار الإله حورس على إله الشر ست أى بانتصار الخير على الشر ، وقد ظل الاسم كما هو تقريبا فى العامية المصرية .

١٢- مسرى : يمتد من ٨/٨ إلى ٩/٥ ، وهو من الكلمة المصرية القديمة " م س / ر ع " بمعنى " ميلاد الشمس " أو " ابن الشمس " ربما إشارة إلى قرب ميلاد السنة الجديدة باقتران شروق (ميلاد) الشمس بنجم الشعرى اليمانية . وقد صار الاسم فى القبطية Me-sowre التى صارت فى العامية المصرية " مسرى " . (جورجى صبحى ، ١٩٢٥ ، ص ٩٣).

وأخيرا تتبقى الأيام الخمسة الزائدة على الـ ٣٦٠ يوما والمسماة اليوم " أيام النسئ " ، وكان المصريون القدماء يسمونها باللغة المصرية القديمة " د ى و/هـ ر و / ا ن / ر ن ب ت " ومعناها " الخمسة أيام الخاصة بالسنة " أو " د ى و/هـ ر و / ح ر و/ ر ن ب ت " أى الأيام الخمسة التى فوق السنة .

والآن بعد أن تتبعنا نشأة التقويم الشمسى عند المصريين القدماء وتطوره عبر العصور تبقى نقطة هامة هى : كيف انتقل هذا التقويم إلى الشعوب الأخرى واستمر حتى اليوم ؟

وللأجابة على هذا السؤال نقول أن هذا التقويم انتقل عن طريق الرومان على يد يوليوس قيصر عندما جاء إلى مصر فى عام ٤٦/٤٥ قبل الميلاد ، فقد كان الرومان يتبعون تقويما قمريا يبدأ بتأسيس روميولوس لروما ، وقد أخذ يوليوس قيصر فى ذلك بنصيحة عالم فلكى سكندرى يدعى " سوسيجينس " Sosigenes .

وهناك معلومة خاطئة تتردد عن سوسيجينس هذا بأنه الذى أضاف ربع اليوم للسنة المصرية التى كانت تتكون من ٣٦٥ يوما ، وبالطبع فإن الذى أضاف ربع اليوم هم الكهنة المصريون فى عام ٢٣٨ قبل الميلاد كما تقدم القول .

أما كيف تمت مطابقة التقويم الشمسى المصرى مع التقويم الرومانى القمرى ؟ فيمكننا معرفة ذلك إذا تتبعنا التقويم الرومانى منذ نشأته وتطوره حتى استبدل به التقويم المصرى على يد يوليوس قيصر .

نشأة التقويم الرومانى وتطوره :

ينسب الرومان التقويم الرومانى إلى Romolus مؤسس مدينة روما ، وكانت السنة الرومانية تتكون فى الأصل من عشرة شهور ، تبدأ بشهر مارس ، وتنتهى بشهر ديسمبر الذى اشتق اسمه من العدد عشرة (Decem) ، ثم حدثت عدة تعديلات فى هذا التقويم منها إضافة شهرى يناير وفبراير فى بداية السنة أى قبل شهر مارس ، فصارت السنة الرومانية

تتكون من اثنتي عشر شهرا ، ورغم ذلك ظل شهر ديسمبر يحتفظ بالرقم عشرة (Decem) في اسمه .

ولما كانت السنة الرومانية سنة قمرية ، فقد كان عدد أيامها ٣٥٤ يوما ؛ لذلك أخذ يوليوس قيصر عندما جاء إلى مصر عام ٤٥/٤٦ ق.م بنصيحة العالم السكندرى سوسيجينس باتباع التقويم المصرى بدلا من التقويم الرومانى كما ذكرنا سابقا . وأصبحت السنة الرومانية تتكون من ٣٦٥,٢٥ (لأن ربع اليوم سبق أن أضافه الكهنة المصريون سنة ٢٣٨ ق.م كما ذكرنا) مع تغيير أسماء الشهور من مصرية إلى رومانية فشهر توت أول شهور السنة المصرية صار " يناير " ، وشهر بابه صار فبراير وهكذا .

وكانت أسماء الشهور الرومانية متخذة من أسماء آلهة أو أباطرة أو أرقام كما يلى :

– يناير : اتخذ اسمه من اسم الإله الرومانى يانوس Janus وهو إله على هيئة إنسان ذى وجهين أو رأسين لهما ذقنان ملتصقان ظهرا بظهر فكأنه يودع العام الفائت ويستقبل العام الجديد (أمين سلامة ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٧) .

– فبراير : واسمه مشتق من الاسم Februra بمعنى " التطهير " لأن الرومان كانوا يتطهرون فى منتصف هذا الشهر ، ويكفرون عن الخطايا .

– مارس : نسبة إلى إله الحرب Mars .

–إبريل : وهو من كلمة Operio بمعنى " ينكشف " أو " ينفتح " (Lewis, 1979, p. 64) وربما يشير إلى تفتح الأزهار فى فصل الربيع .

– مايو : من اسم الآلهة Maia إلهة الإخصاب والنمو الطبيعى (أمين سلامة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٦) . وربما إشارة إلى إخصاب الطبيعية فى فصل الربيع .

– يونية : ربما اسم الإلهة الرومانية Juno ، وتعادل الإلهة هيرا عند اليونان ، ولعلها ترمز إلى جمال الطبيعة فى شهر يونيه .

– يولية : على اسم يوليوس قيصر .

– أغسطس : على اسم الإمبراطور أغسطس أكتافيوس .

– سبتمبر : معناه الشهر السابع ، وهو رقمه فى السنة الرومانية ، عندما كانت تتكون من عشرة شهور ، وقد ظل اسم الشهر السابع (سبتمبر) رغم أنه أصبح الشهر التاسع عندما أصبحت السنة الرومانية تتكون من اثنى عشر شهرا كما ذكرنا .

– أكتوبر ونوفمبر وديسمبر : أسماء هذه الشهور معناها الثامن والتاسع والعاشر على التوالى ، وهى أرقامها عندما كانت السنة الرومانية تتكون من عشرة شهور ، وشأنها شأن شهر سبتمبر ، فقد احتفظت بترقيمها القديم .

هذا التقويم أطلق عليه التقويم اليوليانى نسبة إلى يوليوس قيصر ، ومبدؤه كما ذكرنا هو سنة تأسيس روما على يد رومولوس ، ولكنه تحول إلى التقويم الميلادى ، أى صار مبدؤه سنة ميلاد السيد المسيح وذلك على يد راهب يدعى ديونيسوس اكسيخيوس Dionysius Exigyus الذى عاش فى روما فى منتصف القرن السادس الميلادى وحوالى عام ١٢٨٦ رومانية حول هذا الراهب التقويم اليوليانى إلى التقويم الميلادى على أساس رواية للمؤرخ الرومانى كليمنت السكندرى بأن السيد المسيح ولد فى ٢٥ ديسمبر فى السنة الثامنة والعشرين من حكم الإمبراطور أغسطس أكتافيوس ، وبمعادلة هذه السنة مع التقويم الرومانى ، توصل ديونيسوس إلى أن السيد المسيح ولد يوم ٢٥ ديسمبر سنة ٧٥٤ رومانية ، وقد اعتبر ديونيسوس إن أول يناير من هذه السنة (٧٥٤ رومانية) موافقا لأول يناير سنة ١ ميلادية (محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ ، ص ٢٩) وبذلك بدأ التقويم الميلادى ، وبحساب هذا التقويم يكون هذا التغيير قد حدث سنة ٥٣٢ ميلادية (وهى المعادلة لسنة ١٢٨٦ رومانية) .

غير أنه بمرور القرون تبين فى عام ١٥٨٢ ميلادية – فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر– أن هناك خطأ فى حساب هذا التقويم نتيجة لوجود اختلاف طفيف بين السنة الشمسية والسنة الميلادية بزيادة السنة الميلادية بمقدار ٠٠٧٨ ,٠ من اليوم ، وقد عهد البابا جريجورى إلى الراهب كرستوفر كلافيوس Christopher Clavius بإصلاح هذا الخطأ . الذى تبين له أنه نتيجة لهذا الخطأ زادت السنة الميلادية بمقدار عشرة أيام عن السنة الشمسية ، فاعتبر هذا الراهب يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ هو يوم الجمعة ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ جريجوارية (محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ ، ص ٢٨ ، ٣٢) .

(وقد استخدمنا كلمة "ميلادية " بدلا من " يوليانية " ؛ لأن التقويم ظل يطلق عليه التقويم اليوليانى رغم أنه بدأ بميلاد السيد المسيح ، ولهذا استخدمنا كلمة ميلادى بدلا من كلمة يوليانى تسهيلا على القارئ الكريم) .

وقد أخذت الدول الأوربية تباعا بالتقويم الجريجوارى ، وتبعتها بقية دول العالم ، وهو التقويم المستخدم اليوم فى سائر أنحاء العالم باسم التقويم الميلادى ، وهو فى أصله من تراث حضارة مصر الفرعونية كما ذكرنا .

ثانيا: تراث مصر الفرعونية فى الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط وما يتاخمه من مناطق أوربية

من المتفق عليه بين الباحثين فى تاريخ الكتابة ، أن جميع الأبجديات المعاصرة فى المناطق المحيطة بالبحرين المتوسط والأحمر وما يتاخمها شمالا فى أوروبا وجنوبا حتى اليمن والحبشة وشرقا حتى الهند ، ترجع لأصل واحد مشترك يطلق عليه الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى .

ورغم أن الكتابة الهيروغليفية المصرية تضم أقدم أبجدية فى التاريخ ، وتتكون من أربع وعشرين علامة أبجدية (شكل ١) ، إلا أنها لم تكن الأبجدية الأم ، لأن المصريين القدماء استخدموها بطريقة أضاعت قيمتها الأبجدية ، فقد كانت الكتابة الهيروغليفية تضم إلى جانب هذه العلامات الأبجدية علامات مقطعية ثنائية وثلاثية (شكل ٢) ، وكانوا يستخدمون العلامات الأبجدية كمكملات صوتية لهذه العلامات المقطعية ، ومثال ذلك العلامات المقطعية الدالة على المنزل كانت تنطق " بر " أى بصوتين هما : الباء والراء (شكل ٣) ، فكان المصريون يضيفون حرف الراء ورغم ذلك كانت تنطق " بر " وليس " برر " وبذلك ضاعت قيمة الحروف الأبجدية الهيروغليفية نتيجة استخدامها مع العلامات المقطعية أى عدم الاقتصار على استخدامها وحدها كما هو الشأن فى الحروف الأبجدية .

وقد راجت آراء فى وقت ما بأن الأبجدية الفينيقية هى هذه الأبجدية الأم ، ولكن ثبت خطأ هذا الرأى لأنه لا يظهر فى حروفها مراحل التطور على الأرض الفينيقية ، وإنما تدل أشكال حروفها على أنها نهاية سلسلة تطور كما سنوضح بعد

فما هى هذه الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى ؟

إنها تلك التى يطلق عليها الأبجدية السينائية المبكرة Proto-Sinaitic Alphabet لأنها نشأت فى سيناء . وكلمة المبكرة تميزها عن أبجدية سينائية أخرى انتشرت فى سيناء فى عصر متأخر وبالتحديد فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، وترجع فى أصلها إلى الأبجدية النبطية.

نشأت الأبجدية السينائية المبكرة فى منطقة سيرابيط الخادم بسيناء على يد شعب سامى بسيط كان أفراده يعملون تحت إشراف المصريين فى استخراج النحاس والفيروز فى العصر الذى بلغ فيه النشاط المصرى ذروته فى سيناء ، وهو عصر الأسرة الثانية عشرة الفرعونية أى ما بين القرنين العشرين والثامن عشر قبل الميلاد ، إذ بلغ عدد أفراد إحدى البعثات التى أرسلها الفرعون آمون - محات الثالث - أحد ملوك هذه الأسرة - ٧٣٤ فردا وذلك لتعدين حجر الفيروز نصف الكريم من مناجم منطقة سيرابيط الخادم (الخريطة رقم ١) .

وقد حدث نوع من التقارب بين المصريين وبين أفراد هذا الشعب السامى البسيط تمثل فى اتباع هؤلاء الساميين للعادات المصرية وفى تقليدهم لمظهر المصريين ، وخاصة أن المصريين شيدوا معبدا لإلهتهم حتحور داخل كهف كان فى الأصل معبدا لإلهة الساميين " عشتارت " التى كانوا يكنونها " بعلات " بمعنى الربة أو السيدة مما أدى إلى توحيد الإلهتين . فوجدت داخل هذا المعبد تماثيل مصرية الطابع مثل تماثيل على هيئة أبى الهول (شكل ٤) والشخص القابع (شكل ٥) كما وجدت رسوم الآلهة المصرية كالإله " بتاح " (شكل ٦) وقد نقشت على هذه التماثيل والرسوم عبارات بالكتابة السينائية المبكرة . أى أن أصحابها الساميين صنعوها على الطراز المصرى بينما نقشوا عليها كتاباتهم . كذلك ظهرت بين الرسوم صور لبعض هؤلاء الساميين وهم يرتدون الزى المصرى ، وقد حلقوا لحاهم كالمصريين (شكل ٧ ب) على عكس عادة الساميين كما تظهرهم الرسوم المصرية الأخرى بلحى نامية وبأردية طويلة كاسية . (شكل ٧ أ) .

غير أن أهم ما أخذه هؤلاء الساميون عن المصريين علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية التى كانت بمثابة المادة الخام التى استخلص هؤلاء الساميون منها أبجديتهم ، إذ يبدو أن الكتابة الهيروغليفية المصرية بعلاماتها التى تبلغ حوالى ٧٠٠ علامة بخصائصها المقطعية المعقدة ، والتى لم يكن يستطيع فهمها واستخدامها إلا الذين نشأوا فى البيئة المصرية ، وتمرسوا عليها منذ صغرهم - يبدو أن هذه الكتابة استعصت على هؤلاء الساميين البسطاء ، فبسطوا بعض علاماتها بتحويلها من كتابة مقطعية إلى حروف أبجدية ، واتبعوا فى ذلك نفس الطريقة التى اتبعها المصريون فى ابتكار حروف أبجديتهم الهيروغليفية ، والتى لا شك أنهم تعلموها من المصريين ، إذ يستبعد توصلهم إلى هذه الطريقة بأنفسهم بالنظر إلى بداوتهم وحياتهم البسيطة ، وهذه الطريقة يطلق عليها الباحثون فى تاريخ الكتابة " الطريقة

الأكروفونية" Acrophonic Principle وتتلخص فى اتخاذ الصوت الأول من نطق الاسم الدال على شكل العلامة ليكون مدلولا صوتيا مفردا Uniliteral للعلامة إذا دخلت فى تركيب الكلمات (راجع حروف النون والألف المكسورة والغين والقاف والجيم والثاء والزاى أو الجيم المعطشة على سبيل المثال فى الأبجدية الهيروغليفية فى شكل ١) ، ومثال ذلك العلامة المقطعية الدالة على المنزل التى سبق أن ذكرناها والتى تنطق " بر " (شكل ٢) ، فقد اتخذها هؤلاء الساميون مدلولا لحرف الباء لأن المنزل يدعى " بيت " فى لغتهم (ويلاحظ أن الكلمة تتفق فى نطقها ومعناها مع اللغة العربية لأنها لغة سامية الأصل) ولأن أول حرف فى هذه الكلمة هو حرف الباء .

بهذه الطريقة حول هؤلاء الساميون سبعا وعشرين علامة من العلامات الهيروغليفية إلى حروف أبجدية ، واستخدموها وحدها فقط ، أى غير مقترنة بعلامات مقطعية كمكمل صوتى لها كما فعل المصريون القدماء بأبجديتهم الهيروغليفية . فكانت هذه الأبجدية المسماة بالسينائية المبكرة هى الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى التى اشتق منها سائر الأبجديات وفى مقدمتها أبجديات شرق البحر المتوسط التى اشتقت منها بدورها أبجديات غرب البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى .

وكما ذكرنا ، رجح الباحثون – وخاصة علماء المصريات – عصر الأسرة الثانية عشرة الفرعونية (١٩٩١ – ١٧٨٣ ق.م) كتاريخ لنشأة هذه الأبجدية وفى مقدمتهم العالم " الان جاردنر " الذى حل رموز هذه الأبجدية (Gardiner , 1916, pp. 1-16.) وحددوا لذلك عصر الفرعون أمون – محات الثالث بوجه خاص (١٨٤٣–١٧٩٧ق.م) لأن منطقة مناجم الفيروز فى سرابيط الخادم شهدت نشاطا مصريا مكثفا لم يحدث فى عصر ملك واحد طوال عصور استغلال المصريين القدماء لهذه المناجم ، وازدادت مشاركة الساميين فى البعثات المصرية فى منطقة سيرابيط الخادم (Gardiner , 1962, p. 47.) .

غير أن بعض الباحثين فى الدراسات السامية وخاصة الإسرائيليين منهم (Cross 1947, p.8, cf. Naveh 1987, p. 30) أرجعوا تاريخ اختراع الأبجدية السينائية المبكرة إلى عصر الأسرة الثامنة الفرعونية وخاصة عصر حتشبسوت وتحتمس الثالث (١٤٨٤–١٤٢٩ ق.م) واعتمدوا فى ذلك على رأى قديم يرجع إلى أوائل القرن الحالى كان قد تبناه العالم الأثرى

فلندرز بتـرى (Petrie 1906, p. 131) الذى كان أول من أجرى حفـائر أثرية فى منطقة سيرابيط الخادم ، وكشف عن معبدها وآثارها ، وتتلخص الأدلة التى اعتمد عليها بترى فى تحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الأسرة الثامنة عشر وخاصة عصر تحتمس الثالث وحتشبسوت فيما استخلصه من الآثار التالية :

(١) تمثال لشخص قابع (شكل ٥) عليه كتابة سينائية مبكرة (وقد أعطاه بترى رقم ٣٤٦) عثر عليه عند مدخل مقصورة الإله " سبدو " (أحد آلهة منطقة سيرابيط الخادم) التى شيدتها الملكة حتشبسوت .

(٢) تمثال على شكل أبى الهول المؤنث (شكل ٤) وعليه كتابة سينائية مبكرة (وهى التى توصل إلى حلها العلامة جاردنر كما سبق القول وأمكنه بذلك قراءة النصوص السينائية المبكرة) . وهذا التمثال مصنوع من الحجر الرملى الأحمر ، وقال بترى عن هذا الحجر أنه استخدم لأول مرة فى عصر الملك تحتمس الثالث .

(٣) كسرة من الفخار البرتقالى ذو الخطوط الحمراء والسوداء ، وجدت فى أحد مناجم سيرابيط الخادم الذى نحتت على واجهته كتابة سينائية مبكرة ، وهذا النوع من الفخار يميز عصر تحتمس الثالث فى رأى بترى (Ibid) .

وقد أضاف علماء الدراسات السامية إلى أدلة بترى هذه أدلة أخرى من وجهة نظرهم ، وهى أن تمثال أبى الهول المؤنث (شكل ٤) ظهر فجأة فى عصر حتشبسوت(Albright 1948, p.10) وأن التمثال القابع شاع فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد أى فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وأن وجود هذا التمثال يعتبر دليل قوى ضد أى تحديد لعصر النقوش قبل هذه الأسرة (Ibid) .

وللرد على هذه الحجج ، فإننا نقول إن آراء بترى كانت تعتبر صحيحة فى أوائل القرن العشرين عندما ألف كتابه عن حفائره فى سيناء فى أوائل القرن السابق (عام ١٩٠٦) ، ولكنها تغيرت خلال هذه المدة الطويلة ، فمثلا ثبت أن الحجر الرملى الأحمر استخدم قبل عصر تحتمس الثالث بوقت طويل ، بل وقبل عصر الأسرة الثانية عشرة نفسها وبالتحديد فى معبد الملك منتو – حتب الثانى فى الدير البحرى بالأقصر (٢٠١٠–١٩٩٨ ق.م) الذى يرجع لعصر الأسرة الحادية عشرة . (Lucas 1945, p. 72) .

أمـا عن العـثـور على قطعـة الفـخـار من عـصـر تحـتـمس الثـالث وعلى تمـثـال مـن عـصـر حتشبسوت فى أماكن ترجع لعصر هذين الملكين فلا يمكن الاعتمـاد على ذلك لأن هذه الآثار غير ثابتة ، فيسهل نقلها من مكان لآخر فضـلا عن أن معبد سيرابيط الخادم امتد بناء أجزائه من عصر الأسرة الثانية عشرة إلى عصر الأسرة العشرين وبذلك شمل آثارا من جميع هذه العصور ومن بينها بطبيعة الحال آثار من الأسرة الثامنة عشرة .

وبالنسبة لأراء علماء الدراسات السامية بأن تمثال أبى الهول المؤنث ظهر فجأة فى عصر حتشبسوت ، فالواقع غير ذلك لأن هذا النوع من التماثيل منذ عصر الأسرة الرابعة وبالتحديد فى منطقة هرم الملك ددفرع فى أبى رواش (حوالى ٢٥٤٠ ق.م) (Hassan 1949, p.91).

كذلك فـإن رأيهم بأن وجود التـمـثـال المكعب يعتبـر دليل قوى ضـد تـحـديد عـصـر النقوش السينائية قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة ، هـذا الرأى ينقضه العثور على تمـاثيل من هـذا النوع ترجع لعصـر الأسرة الثانية عشرة ، ومثال ذلك تمثالين أحدهمـا محـفوظ فى المتحف البريطانى وهو لشخص يدعى " سا – حتـحـور " والثانى فى المتحف المصرى وهو لشـخص يدعى " حتب " (Aldred 1956,pp. 43-44, pls. 36-37) .

وعلى ذلك فإن رأى علماء المصريات بتحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الأسرة الثـانيـة عشـرة هو الأرجح ولاسـيـمـا أنهم الذين نسـخـوا النقـوش السـينائيـة المبكرة والذين درسوها ، والذين حلوا رموزهـا ، فـهم أقدر على تحديد عصـرها . (Cerny 1955, Vol I, pl. 82 & Vol II, p. 202 no. 345) .

وقد أكد هذا التـحـديد نقش وجد فى منطقة وادى نصب بسيرابيط الخـادم (شكل ٨) بعد حوالى ستين عامـا من كشف بترى للنقوش السينائية . ويتميز بخشـونة ظاهرة بالنسبة لباقى النقوش ممـا يدل على قدمه فضلا عن أن العالم " آلان جاردنر " أثبت أنه يرجع إلى عصـر الملك " أمون – محات " الثالث أحد أواخر ملوك الأسرة الثانية عشرة (Gardiner 1962, p. 46)

ومن الغريب أن هذا الرأى أى إرجاع عصـر النقوش السينائية المبكرة إلى عصـر الأسرة الثانية عشرة ، كان سائدا بين علماء الدراسات السامية وفى مقدمـتهم العالم " ألبريت " فى بحث نشره عـام ١٩٣٥ (Albright 1948, p. 15) واعتمـد فى هذا التاريخ على وجود ميم التنوين Mimation فى لغة النقوش السينائية المبكرة (Ibid) وكانت ميم التنوين هذه – فى

رأيه – من خصائص اللغات السامية قبل منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، ثم اختفت حوالى ذلك التـاريخ (Ibid) . ثم عاد ألبريت وغير رأيه فى بحث نشره عام ١٩٤٨ منكرا وجود ميم التنوين فى النقوش السينائية المبكرة (Ibid) وأكد رأيه هذا فى دراسة نشرها عام ١٩٦٩ عن قـواعد لغة النقوش السـينائية المبكرة ومـفرداتها ، وبذلك تبنى الرأى القائل بأن النقـوش السينائية المبكرة ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة (Albright 1969 , p.6) ولو أنـه فى نفس هذه الدراسة أقر بأنه قد يضطر لقبول الرأى القائل بأن النقوش السينائية المبكرة ترجع لعـصر الأسـرة الثانية عشـرة عندمـا واجهته بعض الصـعوبات بشـأن تفسير نشـأة الأبجدية السامية الشمالية الغربية (ربما يقصد الفينيقية) ذات المظهر الخطى(Op.Cit., p.15) .

هذا التـذبذب فى الرأى من أكبر علمـاء النقـوش السـينائية المبكرة يضـعف رأى علمـاء الدراسات السامية بتحديد عصر هذه النقوش بعصر الأسرة الثامنة عشرة ، وبالتالى يرجح رأى علماء المصريات بإرجاع هذا العصر إلى عصر الأسرة الثانية عشرة .

لقد كان من أهم أسباب تغيير علماء الدراسات السامية لرأيهم الأقدم بأن النقوش السامية المبكرة ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة إلى رأيهم الأحدث بأنها ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عـشرة – كان من أهم هذه الأسبـاب – العثـور فى فلسطين على عدة قطع أثرية حدد الباحثون عصرها بالقرنين السـابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد، وقد نقشت بكتابة أطلقوا عليها الكتابة الكنعانية المبكرة Proto-Canaanite (Naveh 1987, p. 27) وهـذه القـطـع الأثرية هى :

(١) كسرة فـخار وجدت فى منطقة تل جازر الواقعة شمال غرب أورشليم بثلاثين كيلو مترا (الخـريطة رقـم ٢) وعليـهـا ثلاثة حـروف تقـرأ من أعلى إلى أسـفل " ك ل ب " (شكل ٩) (Op,cit.fig.19) وهو فى الغالب اسم علم قد يكون الاسم السامى " كالب " .

(٢) نصل خنجر مـن البرونز عثر عليه فى منطقة لكيش القديمة (تل الدوير الواقعة على بعد أربعين كيلو مترا جنوب غرب أورشليم) (الخريطة رقم ٢) وقد نقشت عليه أربعة حروف من أعلـى إلى أسـفل تقـرأ " ط ر ن ز " (شـكل ١٠) (Op,cit.fig.20) ويرى ألبـريـت أنه مـن أسـمـاء الحـوريين (شـعب كـان يسكن بين جنوب تركـيـا وشـمـال الشـام) (Albright 1969,p.10) .

(٣) كسرة وجدت فى منطقة " شكيم " القديمة (تل بلاطة الحالية بالقرب من نابلس) ، وقد نقشت عليها سبعة حروف (شكل ١١) (Naveh, Op,cit.fig.19) قرأها ألبريت من اليسار إلى اليمين (... ت «ب» أ أ ر غ م / م أ ر «ت ....») " وترجمتها " (سوف) تحدث كلمات (هذه) اللعنة " (Abright 1969, p. 10).

ومن رأى علماء الدراسات السامية أن حروف النقوش السينائية المبكرة لاحقة فى التطور لحروف النقوش المذكورة وبهذا أرجعوا النقوش السينائية المبكرة إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد لأن النقوش المذكورة ترجع إلى القرن السابع عشر أو السادس عشر قبل الميلاد .

غير أننا إذا قارنا بين حروف الكتابة الكنعانية المبكرة ، وبين حروف الكتابة السينائية المبكرة من حيث الصفة الصورية (أو التصويرية) لهذه الحروف ، وهو لا شك مقياس قدم إحدى الكتابتين عن الأخرى ، نجد أنها إما متساوية بين حروف الكتابتين أو أن الحروف السينائية المبكرة تتفوق على الكعنانية المبكرة التى اختفت من حروفها هذه الصفة . فمن أمثلة الظاهرة الأولى حروف الكاف والباء (فى شكل ٩) وفى قائمة الحروف السينائية المبكرة (فى شكل ١٢ أرقام ٢ ، ١٣) وأيضا حرف الراء (فى شكل ١٠ ، ١١ بالمقارنة فى القائمة شكل ١٢ رقم ٢٤) أى أن الحروف الكنعانية المبكرة تتقارب فى شكلها الصورى مع الحروف السينائية المبكرة ومن أمثلة الظاهرة الثانية أى التى تتفوق فيها الحروف السينائية المبكرة على الكنعانية المبكرة فى الصفة الصورية ، حرف الألف (رأس الثور) فما زال رأس الثور واضحا فى السينائية المبكرة كما يتضح من القائمة (شكل ١٢ رقم ١) بينما اختفى فى الكعنانية المبكرة ، وتحول إلى ما يشبه شكل المثلث (شكل ١١) أى أخذ الشكل الخط Linear الذى يشبه إلى حد كبير الشكل الذى ظهر به هذا الحرف فى المرحلة النهائية للكتابة الكنعانية التى ترجع للقرن الثالث عشر ق.م (شكل ١٦) وكذلك حرف النون فما زال انحناء رأس الثعبان (نحش) ظاهرا فى السينائية (رقم ١٦ فى القائمة شكل ١٢) بينما اختفى هذا الانحناء وتحول إلى شكل مستطيل (خطى) فى الكنعانية المبكرة (شكل ١٠) . وأيضا حرف الميم الذى تمثله موجة مياه ، فما زال شكل موجة المياه ظاهرا فى السينائية المبكرة (رقم ١٥ فى القائمة شكل ١٢) بينما اختصرت خطوطها فى الكنعانية المبكرة (شكل ١١) . وأخيرا حرف الياء (يد) فإن شكل اليد (الذراع) ما زال واضحا فى السينائية المبكرة (رقم ١٢ فى القائمة شكل ١٢) بينما ابتعد عن هذا الشكل فى الكنعانية المبكرة (نفس الرقم فى نفس القائمة شكل ١٢) . (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٣) .

نستنتج من هذه المقارنة أن الصفة الصورية (أو التصويرية) قد غلبت فى الحروف السينائية المبكرة بالنسبة لحروف الكنعانية المبكرة مما يدل على أسبقية الأبجدية السينائية المبكرة وأنها الأصل الذى اشتقت منه الأبجدية الكنعانية المبكرة ، وهو ما يخالف رأى علماء الدراسات السامية . ويطابق رأى علماء المصريات الذين حددوا تاريخ النقوش السينائية المبكرة بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وبهذا تسبق أقدم نقوش الكتابة الكنعانية المبكرة التى حدد علماء الدراسات السامية تاريخها بالقرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد .

والحقيقة إن الكتابات السينائية المبكرة انتقلت إلى فلسطين ، وعلى الأرض الفلسطينية أخذت الصفة الصورية تختفى بالتدريج بينما غلبت الصفة الخطية على أشكال الحروف ومثال ذلك مكعب من الطين وجد فى لكيش (تل الدوير) وقد نقشت على وجهين من أوجهه علامات هيروغليفية (شكل ١٣ أ ، ب) (Albright 1969, fig.2) بينها اسم الفرعون أمنحتب الثانى (الوجه أ) وبذلك تحدد تاريخ المكعب بعصر هذا الفرعون (١٤٣٥-١٤٢٣ ق.م) وعلى الوجهين الآخرين (ج ، د) نقشت كتابة سينائية مبكرة وقد طمست تلك التى على الوجه (د) بينما يمكن قراءة التى على الوجه (ج) وقد قرأها ألبريت " (ايل) ذ ج ت " وفسر العبارة بأنها وصف للإله المسمى عند الساميين فى سيناء " نو – جت " أو " نو – جنتى " وإنه الإله الحامى لمعصرة العنب وإنه كان يعتبر من ضمن حاشية الإله بتاح المرسومة صورته بجوار هذا النقش (Albright 1969 , p. 4) .

ويلاحظ على حروف هذا النقش أن حرف التاء ما زال محتفظا بالشكل الصورى وهو شكل رغيف الخبز بينما اختفى الشكل الصورى فى حرفى الذال والجيم وغلب عليهما الشكل الخطى.

إن النقوش على هذاالمكعب تعتبر دليلا قويا على تطور الأبجدية السينائية المبكرة على الأرض الفلسطينية من الصفة الصورية إلى الصفة الخطية . وهذه الصفة الأخيرة سوف تتضح فى مراحل اللاحقة للكتابة الكنعانية المبكرة إلى أن تصل إلى آخر مراحل تطورها فى الكتابة الفينيقية ، ولكن خلال هذا التطور سوف تظهر فى كل مرحلة خاصية من الخصائص التى ميزت الكتابة الفينيقية وهى اختفاء الشكل الصورى تماما واتخاذ الحروف كلها الشكل

الخطى ، ثم ظهور الفواصل الرأسية التى بدأت على شكل نقط ثم صارت خطا رأسيا فى نهاية التطور . (عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٤) .

وقبل أن نتتبع هذا التطور ، يجدر بنا أن نشير إلى الكتابات الأخرى التي ظهرت فى الشام ، والتى يحاول بعض الباحثين الربط بينها وبين الأبجدية الأولى ، وهى كتابة " رأس الشمرا – أوجاريت " فى شمال سوريا ، والكتابة المسماة بكتابة ببلوص الشبيهة بالهيروغليفية(Pseudo-hieroglyphic Script of Byblos) ورغم أن كتابة رأس شمرا تتكون من أبجدية من ثلاثين حرفا ، فإن كتاباتها بالخط المسمارى على الطين قلل من قيمتها فى نظر الفينيقيين التجار الذين كانوا يفضلون أبجدية تصلح للكتابة على المواد السهلة كالبردى والجلد ففضلوا عليها الأبجدية الكنعانية المبكرة (المتطورة عن السينائية المبكرة كما ذكرنا) ولهذا اندثرت أبجدية رأس الشمرا ، ولم تترك أثرا لدى شعوب الشام . أما الكتابة الثانية المسماة كتابة ببلوص الشبيهة بالهيروغليفية فرغم أن أغلب علاماتها صورية الشكل إلا أنها لم تكن كتابة أبجدية بل كانت مقطعية تتكون من عدد كبير من العلامات يبلغ ١١٤ علامة ، فاندثرت هى الأخرى .

ورغم هذه الحقائق عن هاتين الكتابتين التى أخذ بها العلماء منذ عهد بعيد ، فما زال بعض الباحثين يحاول الربط بين هاتين الكتابتين للخروج بآراء مؤداها أن الأبجدية الفينيقية ترجع إلى هاتين الكتابتين بل أن أحد الباحثين فى الدراسات العراقية القديمة حاول الربط بين هاتين الكتابتين من ناحية بعض حروف الكتابة الكنعانية المبكرة ، وهى المنقوشة على خنجر لكيش (شكل ١٠) وفى سبيل الوصول لهذا الغرض قرأ هذه الحروف قراءة تختلف تماما عن جميع قراءات العلماء الذين قرأوها " ط ر ن ز " كما ذكرنا ، إذ قرأها " ل ر ص ى " وفسر الكلمة بأنها اسم علم تعنى " معاونتى (على الإله) " (Sauren 1992, p.218) . ولا شك أن هذه الآراء تخالف تماما ما اتفق عليه العلماء بشأن هاتين الكتابتين ، (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٥) .

مراحل تطور الأبجدية الكنعانية المبكرة وظهور الأبجدية الفينيقية :

يطلق الباحثون على الحروف الكنعانية المبكرة التى ترجع للقرنين السابع عشر والسادس عشر ق.م (التى ذكرناها فيما سبق) " المجموعة الأولى من الحروف الكنعانية المبكرة " بينما

يطلقون تسمية " المجموعة الثانية " ، " والمجموعة الثالثة " على مجموعتين لاحقتين من هذه الحـــــروف (Diringer 1947, p.208) . وبعضهم يجمعونها تحت تسمية واحدة هى "الكنعانية" أو " الكنعانية المتأخرة " . وترجع المجموعة الثانية إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد (وبعضها يرجع للقرن الثالث عشر) بينما ترجع المجموعة الثالثة إلى القرن الثاني عشر . وتتميز حروف المجموعتين بغلبة الصفة الخطية عليها ، وهى الصفة التى ستظهر بوضوح فيما بعد فى الأبجدية الفينيقية .

وقد وجد أحد نقوش المجموعة الثانية فى منطقة " تل الحصى " فى جنوب فلسطين (بالقرب من تل الدوير) بينما وجد النقش الآخر فى منطقة " بيت شمس " (الواقعة عند منتصف المسافة بين القدس واسدود تقريبا (الخريطة رقم ٢)) .

ويتكون نقش " تل الحصى " من ثلاثة حروف منقوشة على شقفة فخار تقرأ "ب ل ع " (شكل ١٤) ويتضح التطور نحو الشكل الخطى فى حرف الباء الذى ابتعد عن شكل البيت وفى حرف العين الذى خلا من النقطة التى فى وسط الدائرة التى ترمز لإنسان العين فى الكتابة السينائية المبكرة .

أما نقش " بيت شمس أو بيت الشمس " فقد نقش على وجهى شقفة فخار أيضا ، ويتكون من خمسة أسطر على وجه الشقفة (شكل ١٥ أ) ومن أربعة أسطر على ظهرها (شكل ١٥ ب) ويلاحظ أن نظام الكتابة على وجه الشقفة يتبع الطريقة المعروفة بالطريقة الحلزونية فالسطر الأول يقرأ من اليسار إلى اليمين والثانى من اليمين إلى اليسار والثالث من اليسار إلى اليمين (شكل ١٥ أ) . وهى الطريقة المتبعة فى بعض النقوش السينائية المبكرة كما ذكرنا وأن كانت الحروف فى هذه النقوش تكتب أيضا من أعلى إلى أسفل ومن أسفل لأعلى (شكل ٨) . أما ظهر الشقفة فتقرأ سطوره كلها من اليمين إلى اليسار باستثناء السطر الأول فيقرأ من اليسار (شكل ١٥ ب) (Jensen 1958, p.279 & fig. 234) .

وفى هذه المجموعة أيضا تظهر بداية إحدى الخصائص التى ميزت الكتابة الفينيقية فيما بعد ، وهى الفواصل الرأسية بين الكلمات ، وكان ظهورها فى هذه المرحلة على هيئة نقط رأسية وذلك فى نقش يعرف بنقش " إبريق لكيش " (شكل ١٦) ويرجع لأواخر القرن الرابع عشر أو أوائل الثالث عشر ق.م. (Naveh 1987, p.35 & fig. 28) .

أما المجموعة الثالثة فترجع للقرن الثانى عشر قبل الميلاد وفيها يختفى الشكل الصورى تماما من الحروف ، وتتحول الفواصل من نقطة رأسية إلى خطوط عمودية ، وتتضح هذه الخصائص فى نقش يعرف بنقش " قبور الولايدة " (الواقعة شمال غرب بئر سبع فى جنوب فلسطين) (شكل ١٧) (Naveh, Op. cit. p. 38 & fig. 30) ويتمثل اختفاء الشكل الصورى فى هذا النقش فى تحول شكل رأس الثور إلى ما يشبه المثلث واختفاء النقطة التى تمثل إنسان العين من وسط الدائرة التى تمثل حرف العين (وإن كانت هذه الظاهرة ترجع إلى أحد نقوش المجموعة الثانية كما ذكرنا) .

ولكن رغم هذه التطورات الهامة نحو خصائص الكتابة الفينيقية ، فما زال اتجاه الكتابة مخالف لاتجاه الكتابة الفينيقية ، فالنقش يقرأ من اليسار إلى اليمين بينما تتجه الكتابة الفينيقية من اليمين إلى اليسار .

من كل ما تقدم يتبين أن الشكل الخطى للحروف الأبجدية ظهر فى فلسطين متطورا عن المراحل الأخيرة للأبجدية الكنعانية المبكرة (التى تطورت بدورها عن السينائية المبكرة) أى أن الأبجدية ذات الشكل الخطى كانت قد اكتملت قبل انتقالها إلى الفينيقيين فيما عدا خاصية واحدة هى اتجاه الكتابة الذى كان من عدة اتجاهات .

غير أنه بحلول القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، استقرت الكتابة الكنعانية فى آخر مراحل تطورها على اتجاه واحد هو من اليمين إلى اليسار ، وكان ذلك إيذانا بظهور الأبجدية الفينيقية .

الأبجدية الفينيقية وخصائصها :

إن هذه الخصائص كما يتضح من الدراسة السابقة هى اتخاذ الحروف الشكل الخطى Linear البحت بعد اختفاء الشكل الصورى تماما ، واقتصار اتجاه السطور على اتجاه واحد هو من اليمين إلى اليسار والفصل بين الكلمات بخطوط عمودية .

وأقدم النقوش التى ظهرت فيها هذه الخصائص والتى وجدت على الأرض الفينيقية نفسها، هو نقش تابوت الملك " حيرام " الذى يرجع إلى حوالى ١٠٥٠ ق.م (شكل ١٨) (Naveh 1987, p. 53) .

والظاهرة التى تلاحظ على حروف هذا النقش أن أشكالها لا تمت بصلة إلى أسمائها (التى وصلتنا عن طريق العبرية واليونانية اللتين اشتقتا حروفهما من الفينيقية) ، وإنما ترتبط بالأشكال الأولى لهذه الحروف فى السينائية المبكرة (وليس فى الكنعانية المبكرة لابتعاد بعض حروفها عن الشكل الصورى كما ذكرنا من قبل) ، ولتوضيح هذه الظاهرة رسمنا فوق الحرف شكله كما ظهر فى السينائية المبكرة ، فحرف الألف اسمه فى السينائية " الف " بمعنى ثور أو رأس ثور ، بينما لا يدل شكله فى الفينيقية كما هو موضح على هذا المعنى ، وحرف الباء اسمه فى الفينيقية " بيت " بينما لا يدل شكل الحرف فى الفينيقية على ذلك ، وكذلك حرف النون (نحش بمعنى ثعبان) وحرف الراء (راش بمعنى رأس) وحرف اللام (لامد بمعنى لجام أو مقود ثور) ، فهذه الأسماء كلها تدل عليها أشكال هذه الحروف فى السينائية المبكرة والمرسومة فوقها .

مراحل اشتقاق الأبجديات الأخرى فى شرق البحر المتوسط :

استكمالا لحلقات التطور عن الأبجدية الأولى وانتشارها فى شرق البحر المتوسط ، فمن المناسب تتبع مراحل هذا التطور ، وهناك رأيان فى هذا الموضوع أولهما أن الأبجدية الكنعانية المبكرة (التى يسميها أصحاب هذا الرأى " الأبجدية السامية الشمالية ") اشتقت منها فى الشام – بالإضافة إلى الفينيقية – أبجديتان أخريان هما الآرامية والعبرية المبكرة (وهى غير العبرية المتأخرة المسماة بالخط المربع) (Jensen 1958, p. 286) والرأى الثانى أن الآرامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الفينيقية . (Naveh, Op. cit., p. 53) .

وسواء صح هذا الرأى أو ذلك ، فالثابت أن هناك تشابها كبيرا بين حروف الأبجديات الثلاث قد يرجع إلى الأصل المشترك لها كما يرى الفريق الأول أو إلى اشتقاق العبرية والآرامية من الفينيقية كما يرى الفريق الثانى .

غير أن الثابت أن الحروف العبرية المبكرة بدأت تأخذ شكلها المميز منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، وأول نقش تظهر فيه خصائصها المميزة هو نقش " ميشع " ملك مـوآب (Naveh, Op.cit., P.65) .

أما الآرامية فقد بدأت حروفها تأخذ شكلها المميز ابتداء من منتصف القرن الثامن ق.م وظهرت هذه الخصائص فى نقوش على قوالب من الطين وجدت فى أطلال مدينة " حماة " (Naveh, Op.cit., P.78 & fig. 74) .

وحوالى القرن السادس قبل الميلاد ، اختلفت حروف كل من الأبجديات الثلاث (الفينيقية والآرامية والعبرية المبكرة) عن بعضها كما يتضح من الجدول (شكل ٩) (Naveh, Op.cit., P.87) .

وقد تميزت من هذه الأبجديات الثلاث الأبجدية الآرامية باشتقاق العديد من الأبجديات منها ، بينما توقفت الفينيقية عن التطور ، فيما عدا انتقالها (وهى فى مرحلة التكوين كما سنذكر بعد) إلى بلاد اليونان واشتقاق الأبجدية اليونانية منها . كذلك اندثرت العبرية المبكرة ، وحلت محلها بعد السبى البابلى أبجدية أخرى اشتقت من الآرامية هى العبرية المتأخرة أو ما تسمى بالخط المربع . وأقدم نقش معروف من هذه الأبجدية هو المعروف بنقش " عراق الأمير " وهو اسم منطقة تقع على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا إلى الشمال الشرقى من نقطة التقاء نهر الأردن بالبحر الميت ، ويرجع هذا النقش إلى حوالى عام ١٨٠ ق.م . (Jensen 1958, p.305) .

ومن الآرامية أيضا تفرعت عدة أبجديات أخرى هى التدمرية (أو البلميرية Palmyrene) والسريانية والنبطية ، ومن هذه الأخيرة اشتقت الأبجدية العربية أو الخط العربى .

أما التدمرية والتى تنسب إلى مملكة " تدمر " أو بلميرا Palmyra التى ازدهرت خلال القرن الثالث الميلادى ، ثم سقطت فى يد الرومان عام ٢٧٢ ق.م فأقدم نقش تدمرى يرجع إلى عام ٩ ق.م ، وقد دون على شاهد قبر شخص يدعى " ع د ن ت ن " بن " ك هـ ى ل و " (Jensen,Op.cit., p.315) وتتميز الكتابة التدمرية بظهور الأربطة ، وإن كانت قليلة فى أول الأمر وذلك فى نقش يرجع إلى عام ٢٧١م على تمثال للملكة " بت زباى " (المسماة زنوبيا عند الرومان) (Jensen,Op.cit., p.316 & fig. 281) ، أو الزباء عند العرب .

أما الأبجدية السريانية ، فقد ظهرت بوضوح فيما بين القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وأقدم نقش سريانى معروف ورد على شاهد قبر ملكة تدعى " صدان " ويرجع إلى القرن الأول الميلادى (Jensen,Op.cit., p.318 & fig. 281) وحروف هذا النقش مفردة فلم تظهر الأربطة فى الحروف السريانية إلا فى القرن الرابع الميلادى وذلك فى نقش وجد فى مجاورات منطقة الرها (Jensen,Op.cit., p.318 & fig. 286) .

وبالنسبة للأبجدية النبطية التى تنسب إلى الأنباط الذين ازدهرت دولتهم فى البتراء (شمال شرق خليج العقبة بحوالى ١٤٠ كيلو مترا) خلال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد والأول الميلادى . والذى امتد نفوذها جنوبا فشمل الحجاز - بالنسبة لهذه الأبجدية ، فقد اشتقت من الأبجدية الآرامية ، ويمكن تتبع الأصل الآرامى لها فى نقش وجد فى منطقة حوران (جبل الدروز) يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد (شكل ٢٠) (Jensen,Op.cit., p. 323 & fig. 292) ويلاحظ أن الأربطة التى ستصبح من مميزات الخط النبطى (ثم الخط العربى الذى اشتق منه) لم تظهر بعد كما يبدو من هذا النقش .

وقد اكتمل الخط النبطى بكل مميزاته فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد فغلبت الأربطة على حروفه كما يتضح من نقش على أحد أضرحة مدائن صالح (شكل ٢١) (Jensen,Op.cit., p. 323 & fig. 294) .

والجدول الموضح فى (شكل ٢٢) يوضح تطوير الخطين التدمرى والنبطى من الخط الآرامى مع مقارنة بين الحروف النبطية والحروف العربية (رمزى بعلبكى ، الكتابة العربية ، ١٩٨١ ، ص ١٦٨ ، شكل ٤١) .

ومن الخط النبطى اشتق الخط العربى كما هو معروف ، ولكن هناك رأيان بشأن مكان هذا الاشتقاق ، أى مكان نشأة الخط العربى ، أحدهما رأى قديم تبناه المستشرقون ومؤداه أن هذا الخط نشأ فى منطقة حوران فى جنوب شرق سوريا حيث وجد النقش النبطى المعروف بنقش " النمارة " . وأن هذا الخط انتقل إلى شمال الشام ومنه إلى الحيرة التى انتقل الخط العربى المبكر منها إلى مكة ويثرب فى عصور ما قبل الإسلام .

أما الرأى الثانى فيتبناه الباحثون العرب ومؤداه أن الخط العربى نشأ من الخط النبطى فى الحجاز حيث يوجد نقش نبطى فى منطقة مدائن صالح يعرف باسم نقش " رقوش بنت عبد مناة " وهو اسم صاحبة النقش وقد اتضحت فى هذا النقش الخصائص المبكرة للخط العربى ، ومن مدائن صالح انتقل هذا الخط إلى يثرب ومكة رأسا فكان أصل الخط العربى الذى ظهر فى صدر الإسلام ومنهما انتقل إلى الكوفة بعد تأسيسها . وقد ناقشنا هذين الرأيين فى دراسة سابقة ، ورجحنا الرأى الثانى (عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر وظهيره ، ١٩٩٣ ، ص ٢٣٦-٢٤٥) .

انتشار الأبجدية الفينيقية إلى بلاد اليونان ونشأة الأبجدية اليونانية

رغم أن الأبجدية اليونانية تنتمى للدراسات الكلاسيكية أكثر من انتمائها للدراسات السامية ، ولكن نظرا لاشتقاقها من أبجدية سامية هى الأبجدية الفينيقية فإنه يجب دراستها فى إطار الأبجديات السامية .

وقبل أن نتتبع مراحل اشتقاق الأبجدية اليونانية من الأبجدية الفينيقية لابد من أن نسوق الأدلة التى تثبت هذا الاشتقاق ، ونلخصها فيما يلى :

أ- جاء فى الروايات اليونانية أن حروف الأبجدية التى تطلق عليها هذه الروايات (Phoinika Grammata) بمعنى الحروف الفينيقية أو Kadmeia Grammata بمعنى حروف كادموس - جاء فى هذه الروايات أن هذه الأبجدية دخلت اليونان مع فنون أخرى على يد الفينيقيين الذين جاءوا إلى بلاد اليونان مع شخص يسمى كادموس (Naveh 1987,p.175) .

ب- إن أغلب أسماء الحروف اليونانية وهى ألفا ، بيتا ، جما ، دلتا لا معنى لها فى اللغة اليونانية . ولكن لها معان فى اللغات السامية أى أنها كلمات سامية الأصل .

ج- إن ترتيب الحروف فى الأبجدية اليونانية مشابه فى الأساس لترتيب الحروف فى الأبجدية الفينيقية كما عرف من الأبجديتين العبرية والآرامية .

د- إن أشكال الحروف اليونانية المبكرة تشبه إلى حد كبير أشكال الحروف الفينيقية المناظرة لها .

والحقيقة إن بلاد اليونان نفسها لم تصلها الأبجدية الفينيقية إلا فى مرحلة متأخرة نسبيا ، بينما وصلت الأشكال المبكرة للأبجدية الكنعانية (التى اشتقت منها الأبجدية الفينيقية كما ذكرنا) إلى المناطق المحيطة ببلاد اليونان نفسها مثل جزيرة كريت وجزر الكيكلاد Cyclades ومن ذلك نقش وجد فى مدينة كنوسوس بجزيرة كريت (شكل ٢٦) وتظهر فيه أشكال الحروف الكنعانية ، كما تظهر الشرط الرأسية التى تفصل بين الكلمات واتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار ، وهى نفس الخصائص التى ظهرت فيما بعد فى الكتابة الفينيقية ، ومثال ذلك نقش الملك " احيرام " (شكل ١٨) من القرن الحادى عشر ، ونقش من بلدة كنوسوس فى جزيرة كريت ، ثم نقش من القرن الثامن قبل الميلاد وجد فى جزيرة ثيرا فى منطقة جزر الكيكلاد

(شكل ٢٥ أ ، ب) . تبدو فيه الخاصية الحلزونية التى تظهر فى الكنعانية التى تطورت عنها الفينيقية . فالسطر الأول والرابع يقرآن من اليمين لليسار ، والسطران الثانى والثالث يقرآن من اليسار إلى اليمين . وهذا دليل على أن الأبجدية اليونانية اشتقت من الأبجدية الفينيقية فى مرحلة تكوين هذه الأخيرة .

وأخيرا نقش وجد فى أثينا ، وهو نقش على إناء يطلق عليه Dipylon وهو أقدم نقش يونانى على الأرض اليونانية نفسها ، ويرجع إلى نهاية القرن الثامن ق.م (شكل ٢٦) ، وقد بدأت الحروف فيه تأخذ أشكال الحروف اليونانية . والجدول (شكل ٢٧) يوضح مراحل تطور حروف الأبجدية اليونانية بعد اشتقاقها من حروف الأبجدية الفينيقية ، والتشابه فى نطق أسماء الحروف فى كل من اليونانية والفينيقية ، وقد ميزت الأسماء اليونانية التى اختلفت عن الأسماء الفينيقية بعلامة × (عماد حاتم ، ١٩٨٢ ، شكل ٣٦ ص ٢٥١) .

إن هذه الأشكال التى توضح مراحل اشتقاق الأبجدية اليونانية من الأبجدية الفينيقية تدل على أن الإغريق أخذوا أبجديتهم عندما كانت الأبجدية فى الشام فى المرحلة الكنعانية ، وكانت تكتب بالطريقة الحلزونية أى قبل أن تثبت الكتابة اليونانية على نظام موحد ، فذلك لم يحدث إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد عندما اتبع الإغريق فى كل بلاد اليونان الكتابة الأيونية ، واختفت بذلك الكتابات اليونانية المحلية ، وصارت هذه الكتابة هى كتابة اليونان الكلاسيكية (انظر شكل ٢٧) وثبت اتجاه كتابتها من اليسار إلى اليمين ، كما ثبتت أشكال الحروف (Naveh 1987, p.178) .

هذا ومن المعروف أن اللاتينية اشتقت من الأبجدية اليونانية ومن الأبجدية اللاتينية اشتقت سائر الأبجديات الأوروبية وبذلك انتشر تراث مصر الفرعونية فى الكتابة خلال ألوف السنين فى حوض البحر المتوسط .

ثالثا: انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن ومنها إلى الحبشة حيث نشأت الأبجدية الأثيوبية (الجعزية) التى ما زالت باقية حتى اليوم .

مثلما انتقلت الأبجدية السينائية المبكرة إلى الشام حيث تطورت عنها أبجديات الشام وأوروبا الباقية حتى اليوم ، فقد انتقلت إلى اليمن فى جنوب الجزيرة العربية ، حيث نشأت عنها ما يطلق عليه الباحثون الأبجدية السامية الجنوبية التى تفرعت منها الأبجديات العربية الجنوبية فى اليمن ، وهى السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية .

ومن السبئية اشتقت الأبجدية الحبشية القديمة Old Abyssinian التى تطورت إلى الأثيوبية Ethiopian المسماة أيضا " بالجعزية " نسبة إلى اللغة التى تكتب فى الحبشة بهذه الأبجدية .

كما تفرعت عن الأبجدية السامية الجنوبية الأبجديات العربية الشمالية فى شمال الجزيرة العربية ، وهى الدادانية واللحيانية والثمودية والصفوية ، ولكن جميع هذه الأبجديات اندثرت ، ولم يتبق من فروع الأبجدية السامية الجنوبية فى الوقت الحاضر سوى الأبجدية الأثيوبية أو الجعزية ، وعلى ذلك فهذه هى الوحيدة التى تعتبر من تراث حضارة مصر الفرعونية فى الحضارة الإنسانية .

وفى دراستنا لنشأة الأبجدية الحبشية القديمة ، واشتقاقها من الأبجدية السبئية (الخط المسند) سوف نتناول ناحيتين :

أ- أدلة انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن واشتقاق الأبجدية السامية الجنوبية وأبجدية الخط المسند منها .

ب- مراحل اشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الأبجدية السبئية .

أدلة انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن واشتقاق الخط المسند منها :

هذه الأدلة يمكن إجمالها فيما يلى :

١- العثور على حروف سينائية مبكرة فى النقوش الصخرية فى اليمن ومثال ذلك حرف الألف ، وقد تمكن الباحثون من تتبع مراحل تطوره فى هذه النقوش حتى وصل إلى شكل حرف الألف فى الخط المسند (شكل ٢٨) (Jamme 1963, no. 173, fig.1) .

٢- العثور على نقش فى منطقة تل الخليفة بالقرب من العقبة يظهر به حرفان من حروف الخط المسند المبكر ، وهما حرف الألف وحرف الحاء أو الصاد (شكل ٢٩) ، مما يدل على أن انتقال الأبجدية تم عبر الطريق التجارى العظيم المتجه من اليمن إلى سواحل البحر المتوسط .

٣- التشابه الكبير بين أشكال بعض حروف الأبجدية السينائية المبكرة وما يماثلها من حروف الأبجدية السبئية المبكرة كما يدل على ذلك (شكل ٣٠) (Naveh 1987, fig.41) ، وهو يحتوى على حروف سبئية مبكرة (موضحة بالخط الثقيل) وإلى جانبها ما يشبهها من

حروف الأبجدية السينائية المبكرة (بالخط الرفيع) . هذا بالإضافة إلى أن الكتابة السبئية المبكرة كتبت أحيانا فى سطور رأسية (شكل ٣٠) مثل الكتابة السينائية المبكرة (شكل ٣١).

٤- إن الكتابة السبئية المبكرة كانت تكتب أحيانا بالطريقة الحلزونية ، وهى تختلف عن الطريقة الحلزونية التى كتبت بها الأبجدية الكنعانية فى الشام وفى بلاد اليونان فى أن السبئية الحلزونية منتظمة . فيكتب السطر الأول من اليمين إلى اليسار ، ويكتب السطر الثانى من اليسار إلى اليمين مع تغيير اتجاه الحروف ، والسطر الثالث من اليمين إلى اليسار ، والرابع من اليسار إلى اليمين ، وذلك بصفة مطردة وبانتظام (شكل ٣٣) (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٣ ، ص ٢٧٣ وشكل ٣ ص ٢٩٠) . ولذلك يطلق الباحثون فى نقوش الجزيرة العربية على هذه الطريقة المصطلح Boustrophedon أى " دوران الثور " أو " دوران المحراث " ، وهذه الطريقة الحلزونية من خصائص الكتابة السينائية المبكرة (شكل ٣٢) وإن كانت ليست بنفس الانتظام الذى يميز الكتابة السبئية .

٥- إن الأبجدية السبئية تحتوى على روادف أو حروف ثانوية Secondary Letters وهى حروف الذال ، والثاء ، والخاء ، والضاد ، والظاء ، والغين ، ونفس الحروف توجد فى السينائية المبكرة . (شكل ٣٦) .

٦- وفى الجدول (شكل ٣٤) قائمة بحروف كل من الأبجدية السينائية المبكرة والأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند) يظهر فيها التشابه الكبير بين حروف الأبجديتين .

هذه هى أدلة اشتقاق الأبجدية السبئية أو أبجدية الخط المسند من الأبجدية السينائية المبكرة . أما عن اشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الأبجدية السبئية ، فلا يحتاج إلى أدلة لوضوح التشابه الكبير بين أشكال الحروف فى الأبجديتين رغم أن حروف الأبجدية السبئية أو أبجدية الخط المسند أغلبها ذات زوايا قائمة أو حادة ، بينما حروف الأبجدية الحبشية القديمة (التى تطورت عنها الأبجدية الأثيوبية المسماة بالجعزية التى تستخدم اليوم) مستديرة (شكل٣٥) .

وقد أفاد هذا التشابه علماء اللغات السامية فى التوصل إلى حل رموز الكتابة السبئية أو الخط المسند عام ١٨٤١ ، وذلك على يد العالمين النمساويين Gesenius & Rodiger ، وأقدم نقش حبشى قديم هو ما يعرف بنقش الملك " عيزانا " (شكل ٣٦) ويرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى (Jensen 1970, p. 345) ، ويتميز هذا النقش بأن الكلمات

تفصلها شرط رأسية ، وهى نفس خصائص الكتابة السبئية ، وقد اختفت هذه الخاصية فى الكتابة الأثيوبية الجعزية .

ولأهمية هذا النقش نقدم فيما يلى ترجمة له :

" عيزانا ملك أكسوم وكاسو (و) سبأ وحبشات وريدان وسلحين (و) سيامو وبجا ملك الملوك ابن محرم الذى لم يهزمه عدو ، عندما بدأ شعب بجا شن الحرب ، أرسلت إخوتنا "سيا زانا" وحشاد فاها ؛ لكى يتصدوا لهم وعندما ... " (Jensen 1970, p. 345 & fig. 329) .

كذلك تتميز الكتابة الحبشية القديمة بوجود بعض الروادف ، وهى حروف الحاء ، والضاد ، والظاء ، والغين ، وقد ورثت ذلك من الأبجدية السبئية التى ورثتها بدورها من الأبجدية السينائية المبكرة (شكل ٣٧) كما ذكرنا .

غير أن الأبجدية الأثيوبية (وهى المرحلة التالية لمرحلة الحبشية القديمة) تتميز بوجود الحروف المتحركة Vowels ، وهى ليست حروفا مستقلة ، وإنما تتكون نتيجة إضافة زيادات إلى شكل الحرف الساكن (شكل ٣٨) كما تتميز الأبجدية الأثيوبية بكتاباتها من اليسار إلى اليمين ، ويبدو أنها أخذت هذه الخصائص (فيما عدا طريقة تحويل الحروف الساكنة إلى متحركة التى يغلب أنها أخذتها من الكتابة الهندية) من الكتابة اليونانية إبان انتشار النفوذ اليونانى فى الحبشة فى القرن السادس عشر .

وعلى ذلك فإن الأبجدية الأثيوبية الجعزية هى التراث الباقى من حضارة مصر الفرعونية فى الحضارة الإنسانية بعد رحلة الكتابة المصرية القديمة عبر آلاف السنين ، وتطورها وانتشار المراحل الأخيرة لهذا التطور بين مختلف الشعوب .

ملاحظة : اقتصرنا فى دراسة انتشار الأبجديات الباقية من تراث مصر الفرعونية على الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط ، وفى الحبشة حتى اليوم ، ولم نتناول تلك التى انتشر منها فى مناطق أخرى مثل بعض الأبجديات المنتشرة فى إيران وفى الهند ، والتى اشتقت من الأبجدية الآرامية .

قائمة المراجع

أ- المراجع العربية والمترجمة :

١- أمين سلامة ، ١٩٥٥ : معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية ، القاهرة .

٢- إرمان ، ١٩٥٠ : إرمان ، أدولف وهرمان رانكة ، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، القاهرة .

٣- جورجى صبحى ، ١٩٢٥ : كتاب قواعد اللغة المصرية القبطية ، القاهرة .

٤- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٣ : البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، الإسكندرية .

٥- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٤ : " الأبجدية الأولى وانتشارها فى شرق البحر المتوسط " كتاب بحوث مؤتمر الإسكندرية الدولى الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ (١٥-١٩ يناير ١٩٩٤) ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

٦- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ٢٠٠٠ : " حجر رشيد ، قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه ، ودراسة تحليلية مقارنة لنصوصه " ، العدد الثامن من مجلة المؤرخ العربى ، مارس ٢٠٠٠ ، إصدار اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة .

٧- عماد حاتم ، ١٩٨٢ : فقه اللغة وتاريخ الكتابة ، طرابلس ، ليبيا .

٨- محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ : التقاويم ، العدد ١٦٣ من مجموعة الألف كتاب الأولى ، القاهرة .

٩- مونتيه ، ١٩٦٥ : مونتيه ، بيير ، الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة ، ترجمة عزيز مرقص منصور ، ومراجعة عبد الحميد الدواخلى ، القاهرة .

١٠- وليم نظير ، ١٩٦٨ : الثروة النباتية عند قدماء المصريين ، القاهرة .

ب- المراجع الأجنبية :

ملاحظة : اتبع فى الإشارات لهذه المراجع النظام المعروف بنظام Harvard Reference

System ، ويتخلص فى الإشارة إلى المرجع فى صلب البحث باسم المؤلف وسنة الطبع ورقم الصفحة فقط . ويمتاز هذا النظام بأنه يوفر المساحة الكبيرة التى تشغلها بيانات المراجع فى النظام التقليدى المعروف ، فضلا عن تركيز انتباه القارئ فى متابعة البحث وعدم تشتيت هذا الانتباه لمتابعة الإشارات للمراجع فى أسفل الصفحات أو فى نهاية البحث كما هو الحال فى النظام التقليدى .

1- Albright, W.F., 1948. The Early Alphabetic Inscriptions from Sinai and their Decipherment, Bull. Schools of Oriental Research, No. 110.

2- Aldred, C., 1956. Middle Kingdom Art in Ancient Egypt, London.

3- Breasted, J.H., 1988. Ancient Records of Egypt 5 Vols. Chicago, 1906, Repr. 1988.

4- Cerny, J., & Gardiner, A. & Peet, E., 1955. The Inscriptions of Sinai, 2 Vols. London.

5- Cross, M., F., 1967. The Origin and Early Evolution of the Alphabet, Erez.

6- Driniger, D., 1947. The Alphabet, a key to the history of Mankind, London.

7- Gardiner, A., 1916. "The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet", Journ. Egypt. Arch., Vol 3.

8- Gardiner, A., 1962. "Once Again the Proto-Sinaitic Inscriptions", ., Journ. Egypt. Arch., Vol 48.

9- Hassan, S., 1949. The Sphinx, its History in the Light of Recent Excavations, Cairo.

10- Jamme, A., 1963. Preliminary Report on Epigraphic Research. Bulletin of the Schools of Oriental Research, London.

11- Jensen, Hans, 1958. Sign, Symbol and Script, 3rd. ed. transl. From the German by G.Unwin, London.

12- Lewis, C.T., 1979. An Elementary Latin Dictionary, Oxford.

13- Lucas, A., 1945. Ancient Egyptian Materials and Industries, London.

14- Naveh, J.,1987. The Early History of the Alphabet, London.

15- Petrie, W.M.F., 1906. Researches in Sinai, London.

16- Sauren, Herbert, 1992, "Une Lance Pour L'Alphabet, le Poignard de Lachis" le Muséon, Tome 105, Fac. 3-4, Louvain.

17- Sethe, K., 1961. Urkunden der 18. Dynastie, Vierte Band, Berlin, 1927-1930, Rebr. 1961.

18- Sewell, 1943. "The Calendars and Chronology "in Clanville, S.R.K. (Editor) The Legacy of Egypt, Oxford.

19- Velikovsky Immanuel, 1977. People of the Sea, New York.

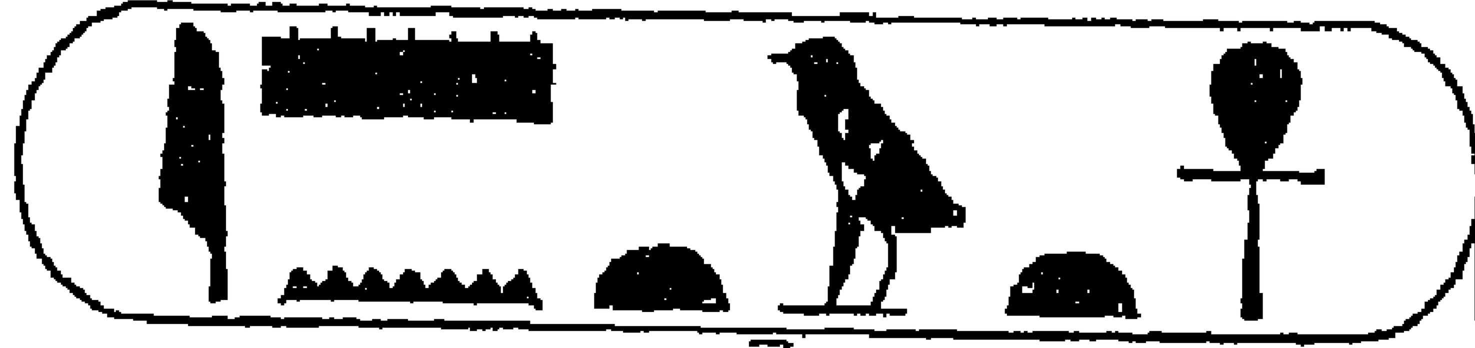
الأشكـــال

الصورة	وما تمثله الصورة	الحروف المصرية بالعربية	الحروف المصرية باللاتينية	الصورة	وما تمثله الصورة	الحروف المصرية بالعربية	الحروف المصرية باللاتينية
𓄿	عقاب	أ ، ا	ꜣ	𓇋	قصبة مزهرة	إ ، ي	i
𓂝	ساعد	ع	ꜥ	𓅱	فرخ سمان	و	w
𓃀	ساق	ب	b	𓊪	مقعد	پ	p
𓆑	حية ذات قرنين	ف	f	𓅓	بومة	م	m
𓈖	موجة ماء	ن	n	𓂋	فم	ر	r
𓉔	فناء دار	هـ	h	𓎛	ضفيرة من الكتان	ح	ḥ
𓐍	مشيمة السيدة	خ	ḫ	𓄡	بطن حيوان ثديي وذنبه	غ	ẖ
𓊃	مزلاج (ترباس الباب)	ز	z	𓋴	منديل مطوي	س	s
𓈙	حوض ماء	ش	š	𓈎	جانب الكثيب (أو التل من الرمل)	ق	ḳ
𓎡	سلة ذات أذن	ك	k	𓎼	حمالة زير	ج	g
𓏏	رغيف خبز	ت	t	𓍿	عقال للدواب	ث	ṯ
𓂧	يد	د	d	𓆓	ثعبان	ج	ḏ

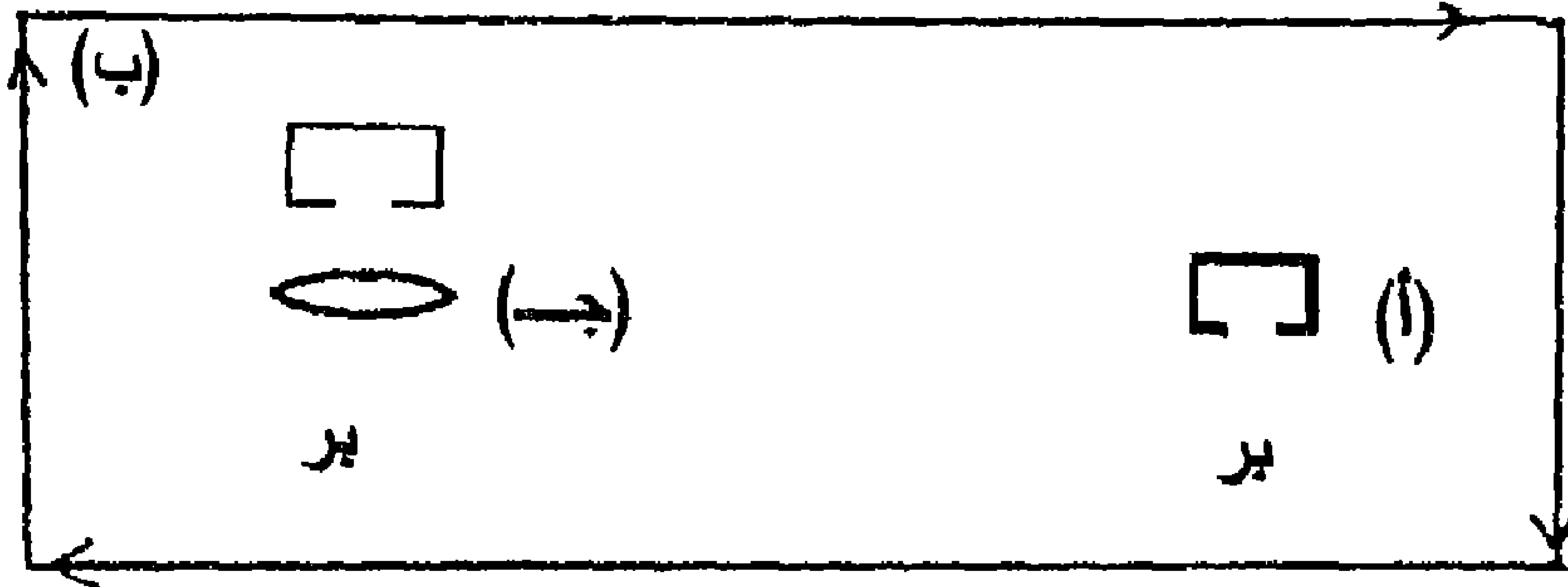
(شكل ١) الأبجدية المصرية الهيروغليفية ، وقد اشتقت بعض حروفها بالطريقة الأكروفونية مثل حرف "ن" وهو على شكل موجة مياه ، والمياه تسمى فى اللغة المصرية القديمة " ن ت " وحرف النون هو الحرف الأول من الكلمة . ومثل الألف المكسورة وهو على شكل بوصة التى تسمى فى المصرية القديمة "إسو" والألف المكسورة هى الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " غ " على شكل بطن حيوان وذنبه وتسمى فى اللغة المصرية القديمة " غت " بمعنى " بطن " وحرف الغين هو الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " ق " وهو على شكل جانب تل والتل يسمى فى المصرية القديمة " ق ا ا " وحرف القاف هو الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " ج " على شكل قاعدة إناء (أو حمالة زير) التى تسمى فى اللغة المصرية القديمة "ج ن" ، والجيم هو الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " ث " على شكل قيد حيوان الذى يسمى فى اللغة المصرية القديمة " ث ث ت " والثاء هى الحرف الأول فى الكلمة . وحرف الزاى (أو الجيم المعطشة) على شكل ثعبان الذى يسمى فى اللغة المصرية القديمة " ج د ف ت " أو " ز د ف ت " والجيم المعطشة أو الزاى هو الحرف الأول فى الكلمة . وهكذا كانت القاعدة الأكروفونية هى الأساس الذى كون المصريون القدماء أبجديتهم عليه ، ولو أنه لم تطبق على جميع الحروف ، وإن كانت بعض الحروف الأخرى مثل حرف " الشين " ، ويمثل بركة مياه التى تسمى " ش " فى اللغة المصرية القديمة أى من صوت واحد هو الأول والأخير فى الكلمة. وكذلك حرف التاء ، ويمثل رغيف خبز الذى يسمى

"ت" فى اللغة المصرية القديمة . وحرف الراء ، ويمثل "فم إنسان" الذى يسمى "ر" فى اللغة المصرية القديمة . وقد نقل الساميون سكان سيناء هذه الطريقة عن المصريين ، واستخدموها فى ابتكار أبجديتهم (السينائية المبكرة) التى اقتبسوها من العلامات الهيروغليفية المصرية .

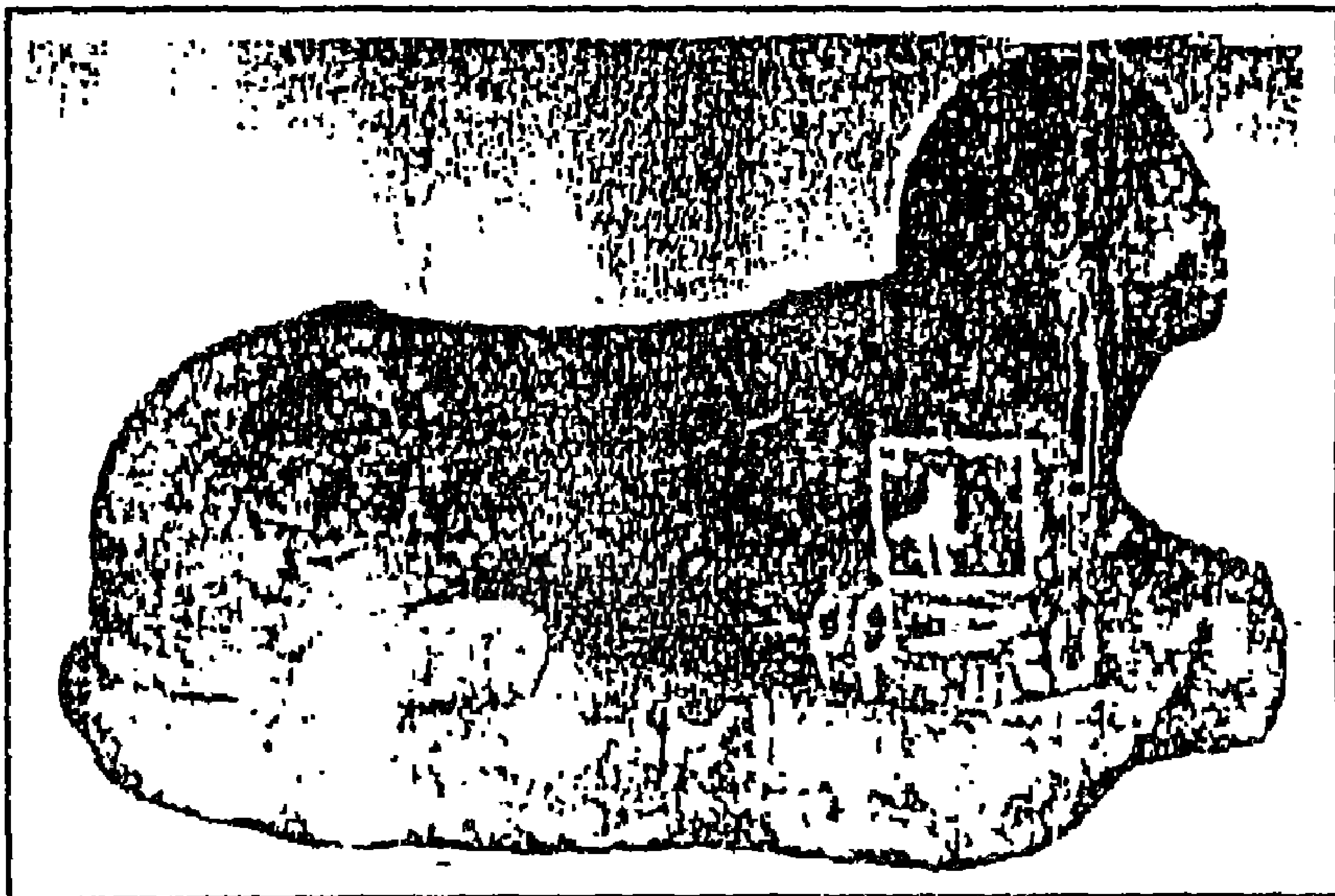
(الرسم من كتاب قواعد اللغة المصرية للدكتور عبد المحسن بكير ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٥) .



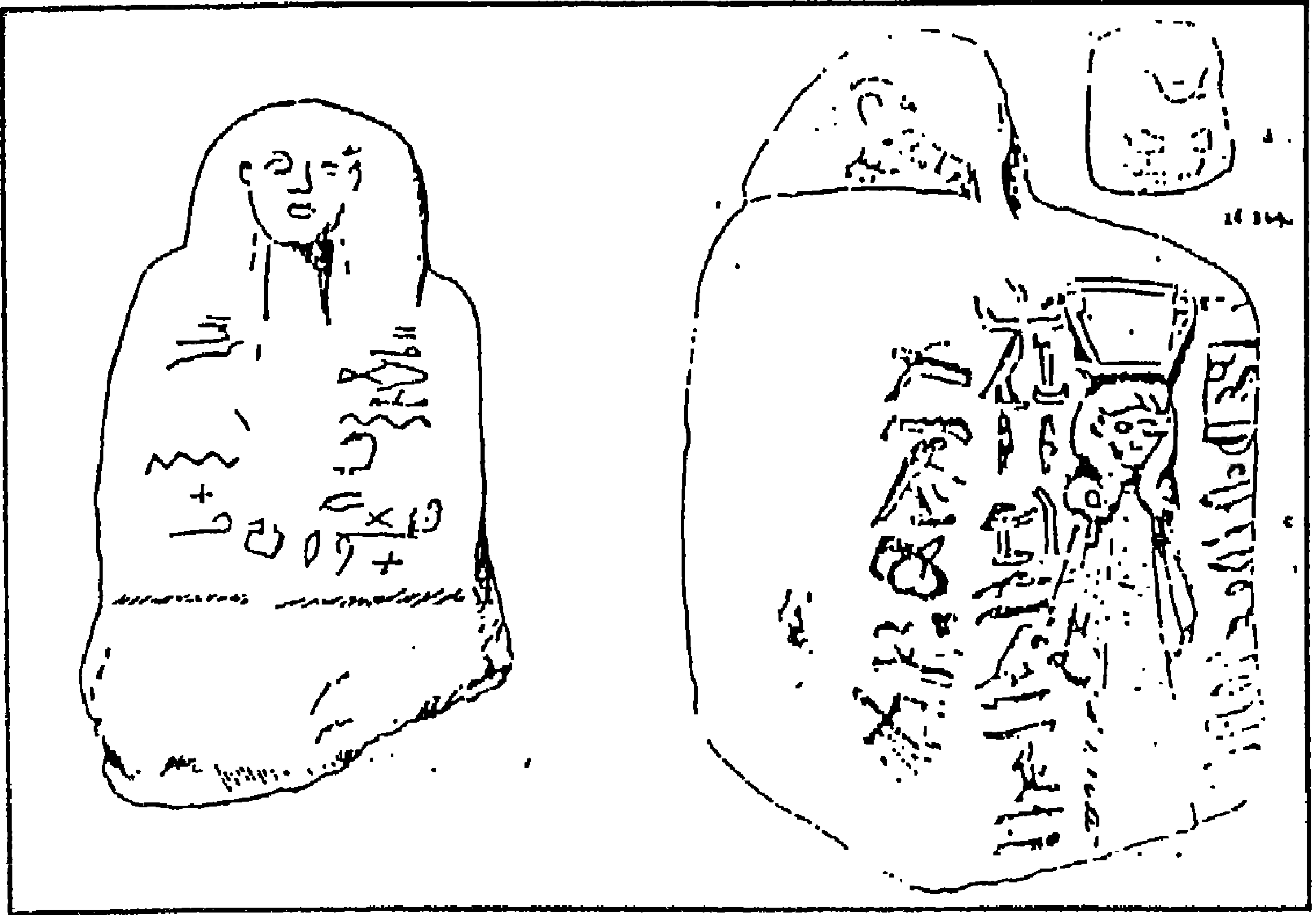
(شكل ٢) خرطوش (اسم) الملك " توت – عنخ – إمن (آمون) " وهو مثال لتوضيح كيفية الجمع بين الحروف الأبجدية وهى الألف (١) ، والنون (٣) ، والتاء (٤ ، ٦) ، والواو (٥) ، وبين العلامات المقطعية الثنائية وهى " من " (٢) والثلاثية وهى " عنخ " (٧) .



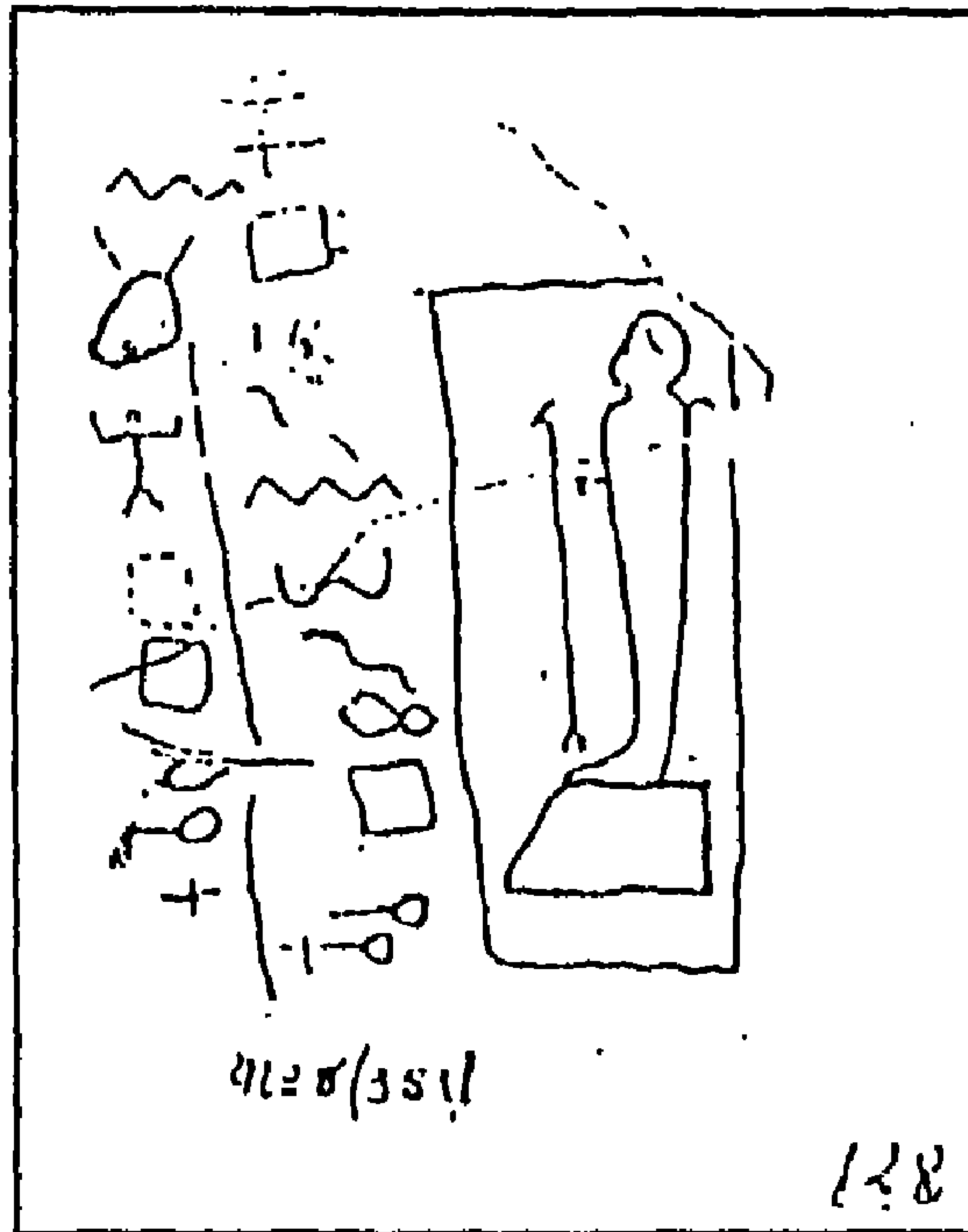
(شكل ٣) العلامة المقطعية الدالة على المنزل ، وتنطق " بر " (أ) رغم إضافة حرف الراء الأبجدى (جـ) أى لا تنطق " برر " ؛ لأن حرف الراء مكمل صوتى أى تكرار للصوت الأخير فى كلمة " بر " .



(شكل ٤) تمثال أبو الهول المؤنث ، وقد دونت عليه كتابتان إحداهما هيروغليفية (شكل الطائر الذى داخل مربع والسطر أسفله) والأخرى سينائية مبكرة (السطر السفلى) وهى ترجمة للنص الهيروغليفى المدون أعلاه . ومن الواضح أن أحد الساميين كرس التمثال لكل من الالهة المصرية "حتحور" والإلهة السامية "عشتارت" لأن ترجمة النص الهيروغليفى هى "محبوب حتحور ربة الفيروز" والنص السينائى يقرأ "ماه بعلت" أى "محبوب بعلت" وبعلت كان لقبا للإلهة السامية "عشتارت" التى عبدها الساميون فى سيناء كمرادفة للآلهة المصرية "حتحور" التى كانت الإلهة الحامية لمناجم الفيروز فى منطقة سيرابيط الخادم (عند المصريين) . وقد مكنت العبارة المصرية وترجمتها السينائية المبكرة العالم "جاردنر" من حل رموز الكتابة السينائية المبكرة .



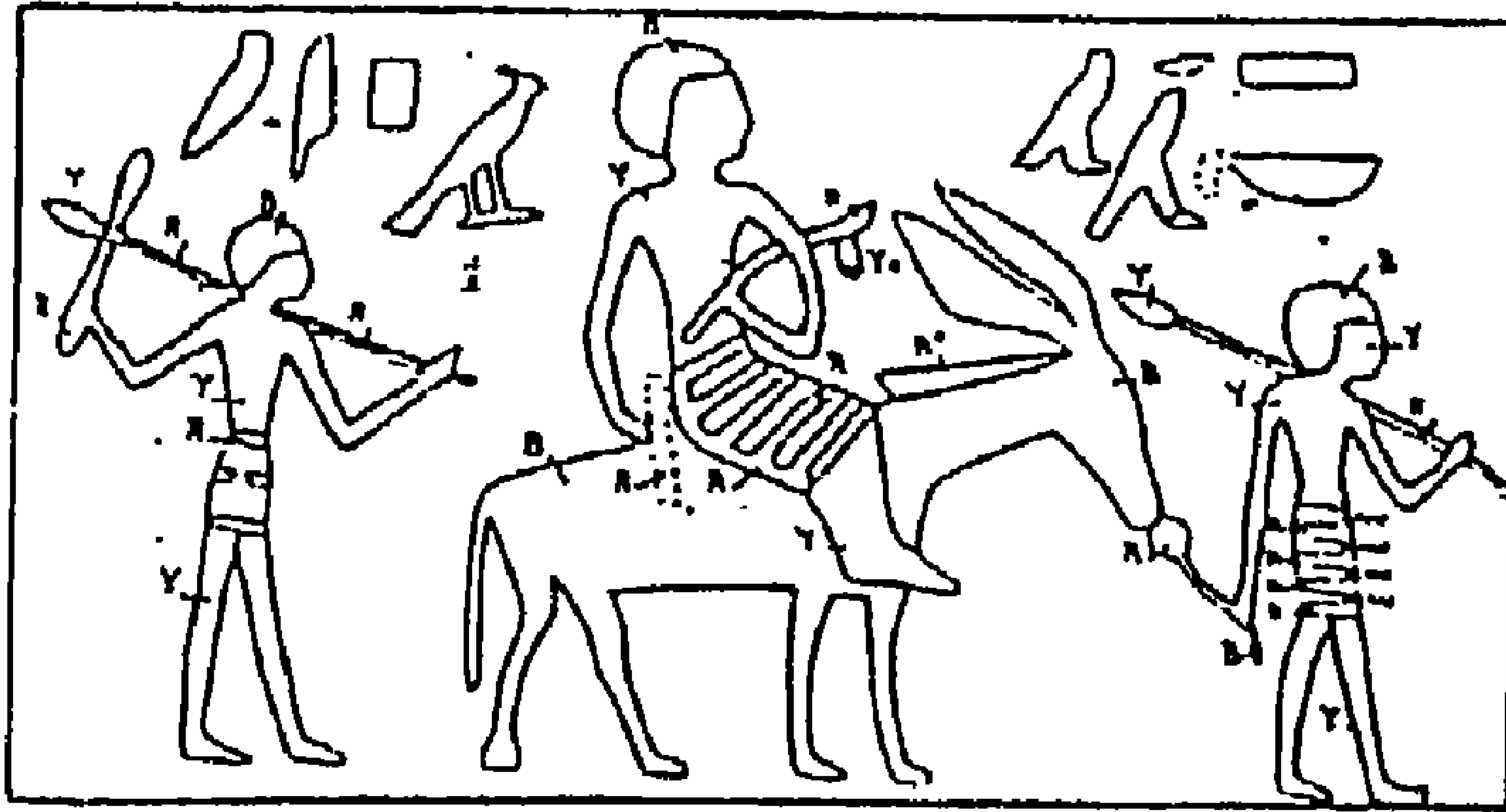
(شكل ٥ أ ، ب) تمثالان على هيئة "الشخص القابع" وجدا فى معبد سيرابيط الخادم وهو طراز مألوف فى التماثيل المصرية القديمة . والتمثال الذى إلى اليمين كرس للإلهة "حتحور" ربة الفيروز كما يدل على ذلك النص الهيروغليفى المحفور على واجهته . أما الذى إلى اليسار للإلهة "عشتارت" السامية كما يدل على ذلك النص السينائى على واجهة التمثال (السطر السفلى) ويقرأ : "ع ل ن ع م ت ل ب ع ل ت" وترجمتها "من أجل نعمة من بعلت" .



(شكل ٦) نقش كان محفورا فوق مدخل أحد مناجم الفيروز فى منطقة سيرابيط الخادم ، ويظهر فيه رسم للإله بتاح المصرى ، وقد عبده الساميون السيناثيون فى صورة إلههم المسمى " ذو جنتتى " وكان إله مـصـورة العشب عندهم . والنص السيناثى المدون يسجل الإهداء المألوف للإلهة " بعلت " (السطر الأيسر) .

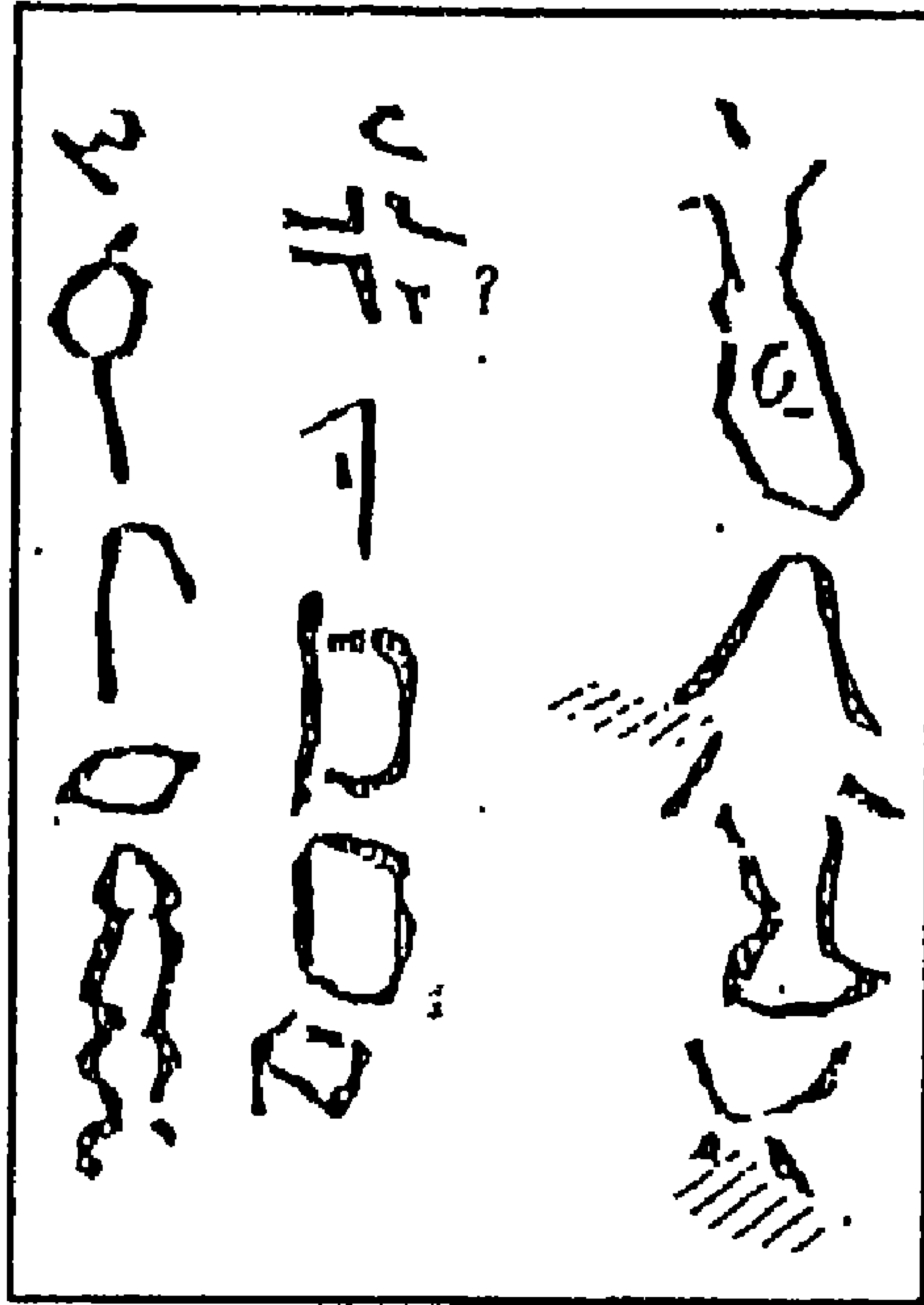
وهذا النقش والنقوش الأخرى المذكورة سابقا (شكل ٤ ، ٥) المدونة على آثار مصرية الطابع (تابع وصف شكل ٥ أ ، ب) تؤكد اتباع الساميين في سيناء للعبادات والعادات الدينية المصرية .



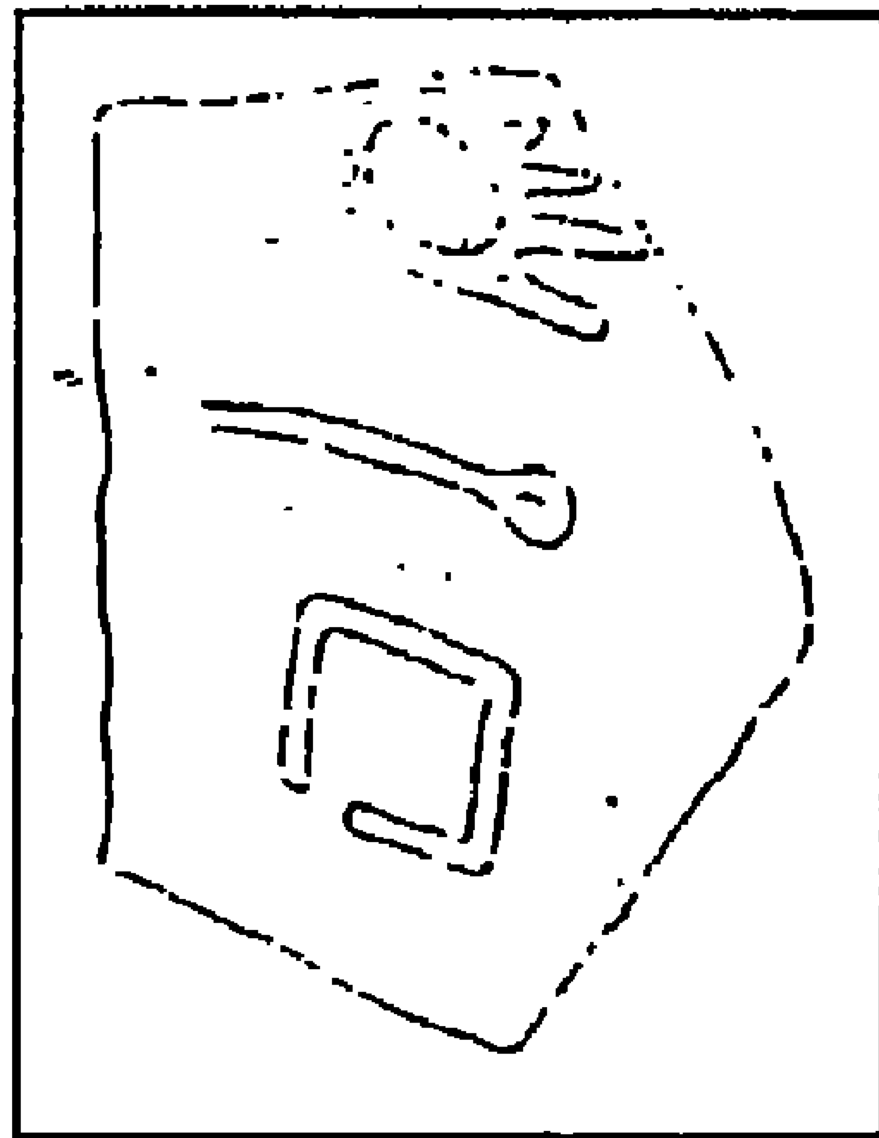


(شكل ٧ أ ، ب) فى الصورة العليا ، الساميون - سكان سيناء بملامحهم المميزة كما صورهم المصريون على الآثار المصرية (على جدران مزار مقبرة الأمير خنوم - حتب فى بنى حسن بالمنيا من عصر الأسرة الثانية عشرة) ، ويتميزون بإطلاق لحاهم وبأرديتهم الطويلة المزركشة ، وهم بذلك يختلفون عن المصريين الذين صوروا أمامهم بالهيئة المصرية المألوفة (حلق اللحية وارتداء النقبة) .

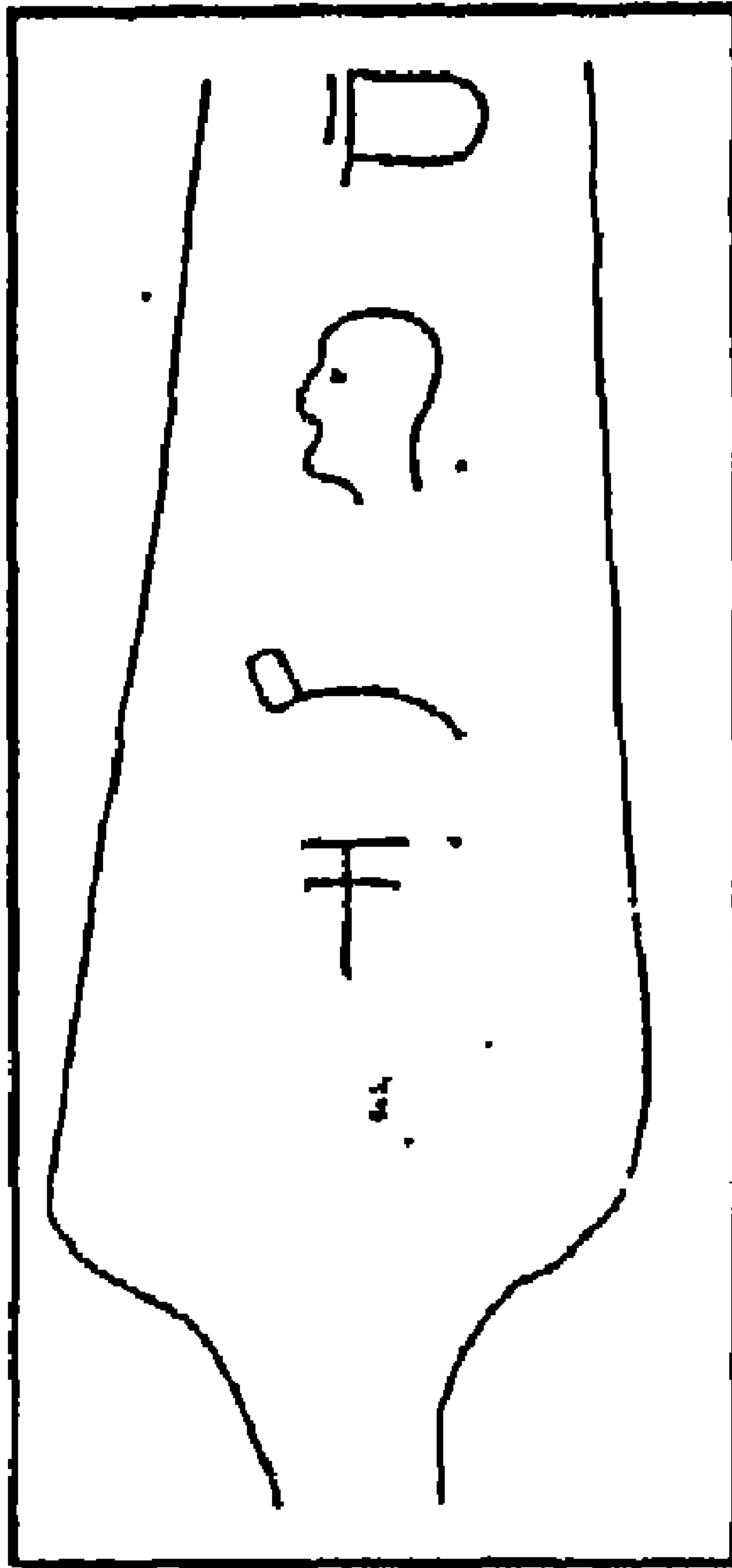
وفى الصورة السفلية يظهر هؤلاء الساميون فى رسوم معبد سيرابيط الخادم بسيناء ، وقد حلقوا لحاهم ، وارتدوا النقبة المصرية القصيرة ، أى اتبعوا العادات المصرية الدنيوية ، وباتباعهم هذه العادات والعادات الدينية المصرية أيضا (كما يتضح من الأشكال السابقة ٤ ، ٥ ، ٦) تغلغلت الحضارة المصرية فى ثقافتهم ، وكان فى مقدمتها الكتابة المصرية الهيروغليفية التى اشتق هؤلاء الساميون أبجديتهم منها بإرشاد المصريين .



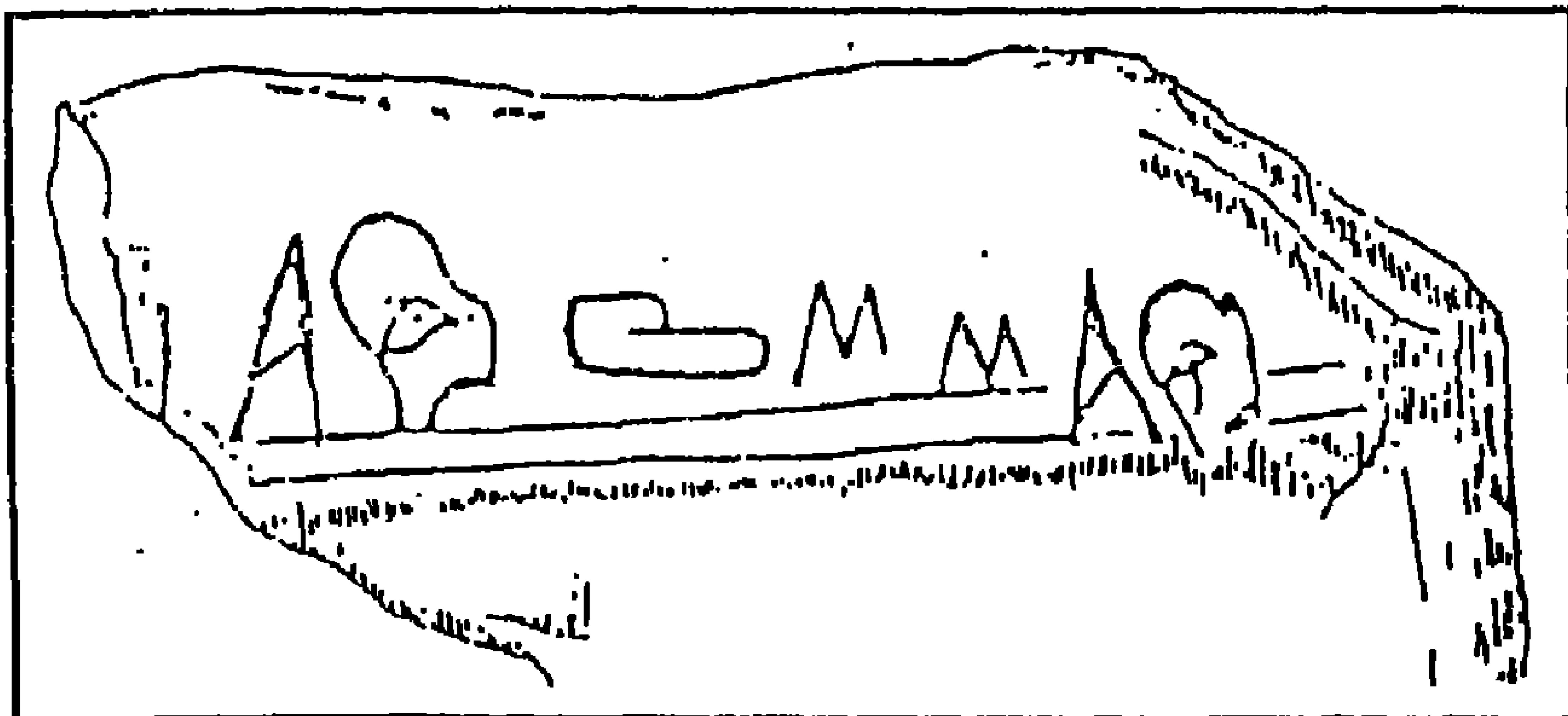
(شكل ٨) النقش السيناتى المبكر فى وادى " نصب " المجاور لاسم الفرعون أمون – محات الثالث ، وهو مكتوب بالطريقة الحلزونية ، فالسطر الأول يقرأ من أعلى إلى أسفل " ادا " والثانى من أسفل إلى أعلى " ربى حوت " والثالث من أعلى إلى أسفل " ويعقب [يعقوب] " .



(شكل ٩) نقش شقفة جازر ، وتقرأ حروفة من أعلى لأسفل " ك ل ب " وربما ينطق " كالب " وهو اسم شخص (من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة) .



(شكل ١٠) نقش نصل خنجر لكيش (تل الدوير) والحروف عليه تقرأ من أعلى إلى أسفل " ط رن ز " وهو من أسماء الأشخاص عند شعب الحوريين (من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة) .



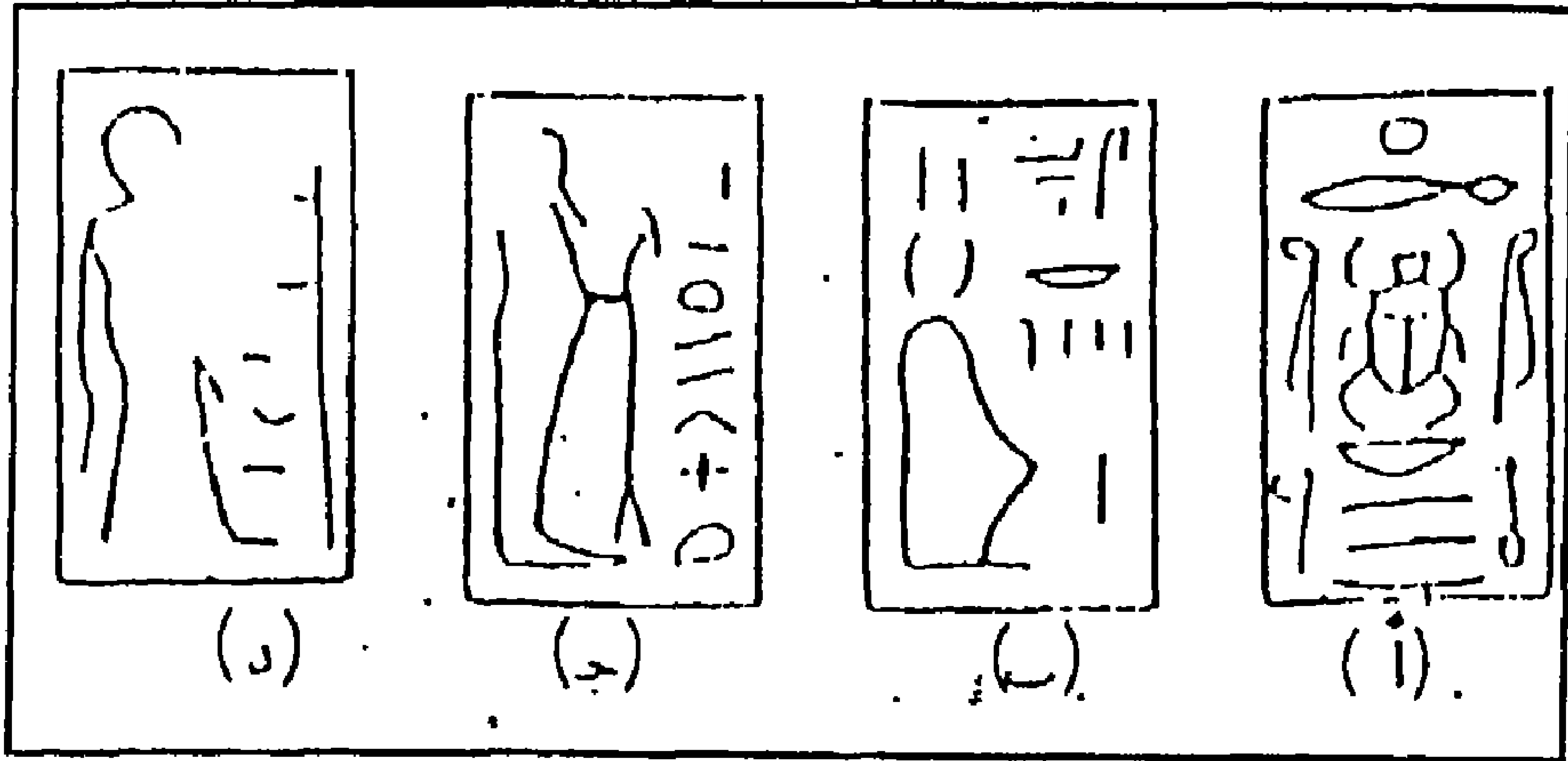
(شكل ١١) نقش رقعة شكيم (تل بلاطة) والحروف الظاهرة منه تقرأ من اليسار إلى اليمين " أ ر غ م م أ ر " . وهو من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة .

(شكل ١٢) مراحل اشتقاق حروف الأبجدية الكنعانية المبكرة (ثم الكنعانية المتأخرة) من الأبجدية السينائية المبكرة .

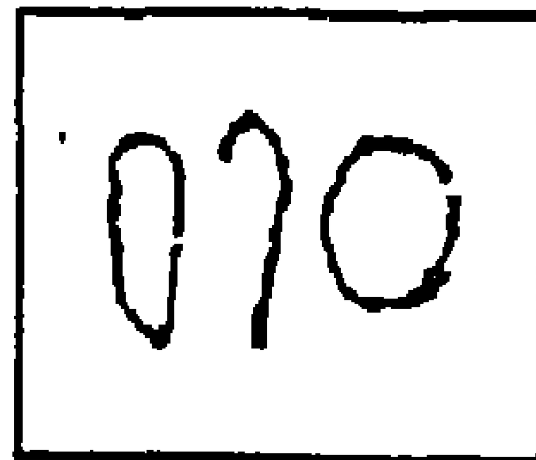
	رقم مسلسل	الحرف	الأبجدية السينائية المبكرة	الكنعانية المبكرة / المتأخرة	الأسماء المبكرة للحروف	معانى هذه الأسماء
x	١	أ		(14th) (13th)	ʾalp-	ox-head
	٢	ب	□	□ (17th) (10th)	bêt-	house
	٣	ج		(15th) (13th)	gaml-	throw-stick
	٤	د		(10th)	digg-	fish
	٥	ذ	=	?	?	?
	٦	هـ		(10th)	hô(?)	man calling
	٧	و		(10th)	wô(waw)	mace
	٨	ز	?	(14th) (10th)	zê(n-)	?
	٩	ح		(12th) (10th)	ḥâ(t-)	fence (?)
	١٠	خ		?	ḫa( )	hank of yarn
	١١	ط	?	(14th) (10th)	ṭê(t-)	spindle ?
x	١٢	ى		(13th) (10th)	yad-	arm
	١٣	ك		(7th) (13th)	kapp-	palm
	١٤	ل	?	(16th) (13th)	lamd-	ox-goad
x	١٥	م		(16th) (13th)	mêm-	water
x	١٦	ن		(16th) (12th)	nahš-	snake
	١٧	ش	?	(10th)	(šamk-?)	?
x	١٨	ع		(12th) (10th)	ʿên-	eye
	١٩	غ		(16th)	ġa( )	?
	٢٠	ف		(10th)	piʾt-(?)	corner?
	٢١	ص		(10th)	ṣa(d-)	plant
	٢٢	ض	?	?	?	?
	٢٣	ق		(16th) (10th)	qu(p-)	?
	٢٤	ر		(14th-16th)	raʾš-	head of man
	٢٥	ش		(13th) (10th)	ṯann-	composite bow
	٢٦	س		?	?	?
	٢٧	ت	+	+ x (13th)	tâ(taw)	owner's mark

ملاحظة : هذه النقطة مقتبسة من القائمة المنشورة فى كتاب (Albright 1969, fig.1) مع تعديل الحروف الكنعانية المبكرة أرقام ١ ، ١٥ ، ١٦ إلى القرن السادس عشر ق.م طبقا لأحدث الدراسات المنشورة فى (Naveh1987, pp.26-27) .

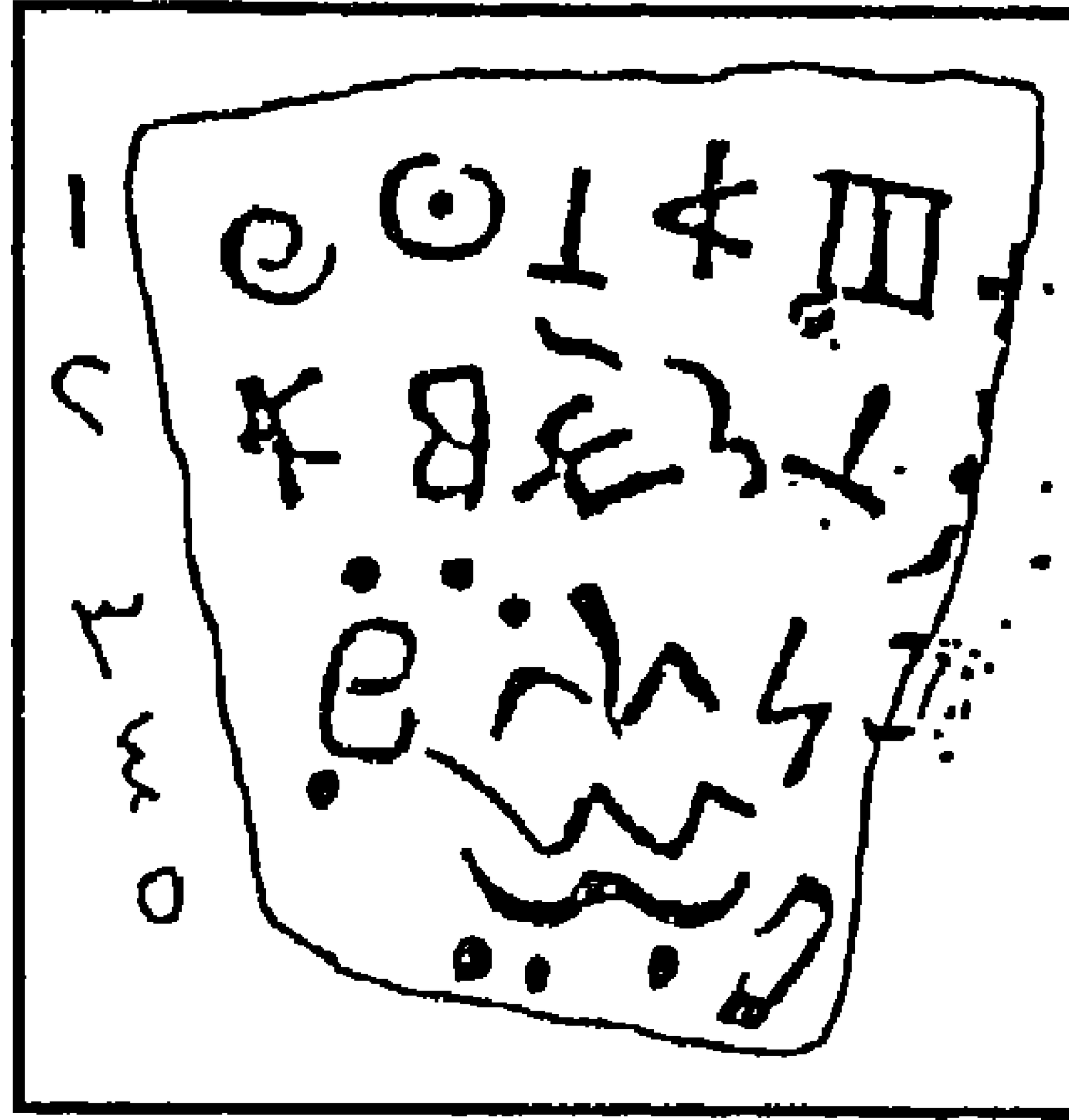
x هذه العلامة تشير إلى الحروف التى تباعدت أشكالها الكنعانية المبكرة عن الصورة الأصلية للحروف الظاهرة فى السينائية المبكرة .



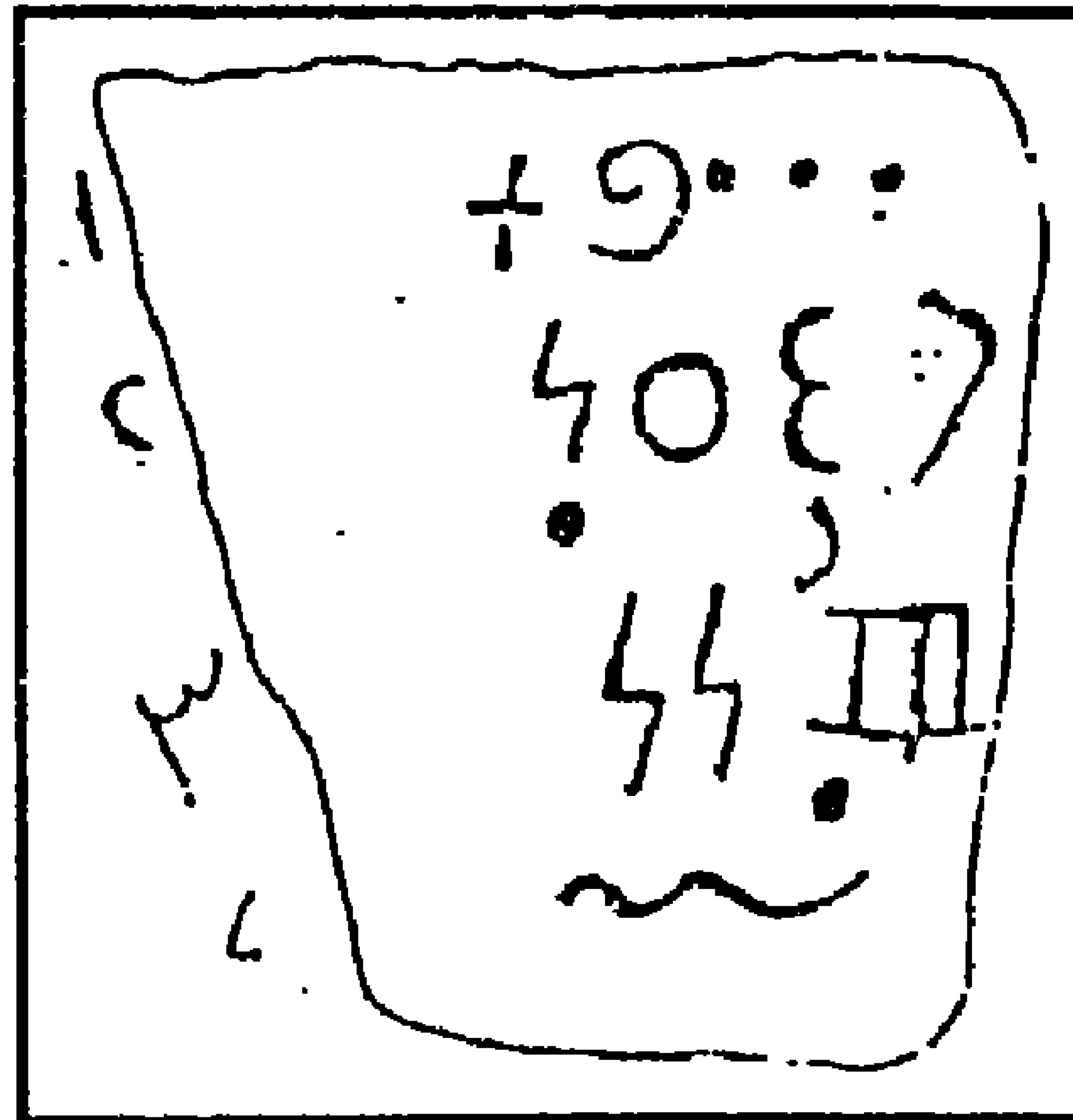
(شكل ١٣) ختم على شكل منشور وجد فى تل الدوير بفلسطين ، وعلى أحد أوجهه (أ) اسم الفرعون امنحتب الثاني الذى عاش حوالى ١٤٠٠ ق.م ، وعلى وجه آخر (ج) كتابة بروتوسينائية ، ووجود الكتابة البروتوسينائية إلى جانب الكتابة الهيروغليفية ، ورسم الشخص الواقف على نمط الشكل المرسوم على اللوحة البروتوسينائية الموضحة فى شكل (٤) بالإضافة إلى وجود هذا الختم فى الشام ، يدل على انتقال الكتابة البروتوسينائية إلى الشام منذ عصر مبكر قبل معرفة الفينيقيين للحروف الأبجدية .



(شكل ١٤) نقش تل الحصى ، ويقرأ من اليمين إلى اليسار " ب ل ع " (من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة) .

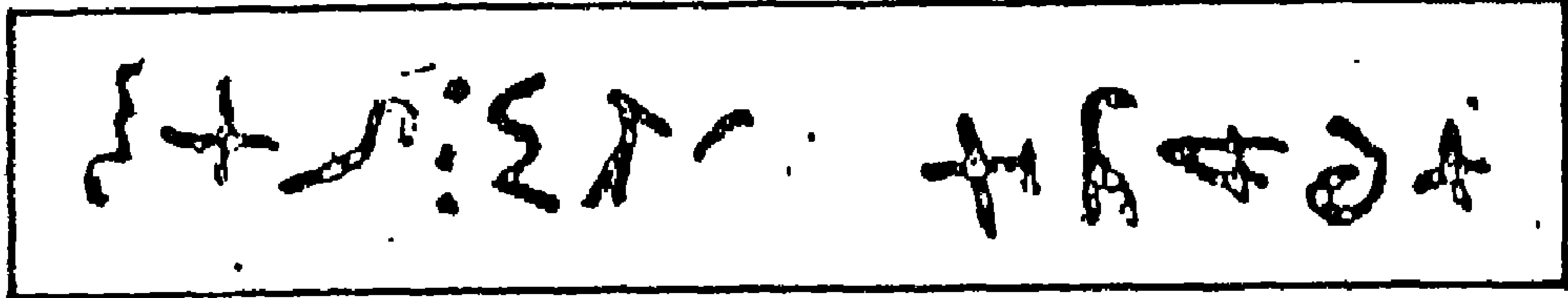


(شكل ١٥ أ) نقش وجه شقفة " بيت شمس " بفلسطين ، وقد كتب بالطريقة الحلزونية ، فالسطر الأول يقرأ من اليسار إلى اليمين " ل ع ز أ ح ت (ت) " وترجمته : " من أجل عزاء حات " والسطر الثاني يقرأ من اليمين إلى اليسار (ش؟) م ز م هـ ر ا " وترجمته : " (شـــ) مزا مهرا " ، والسطر الثالث من اليسار إلى اليمين "ب ى ن ح " ، والسطر الرابع به حرف " م " فقط ، ويكمل السطر الثالث وترجمتها : " أبى ناحوم " ، والسطر الخامس يقرأ من اليمين إلى اليسار " ش ف (ط) " وترجمته : " شاف (ط) " (من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة) .

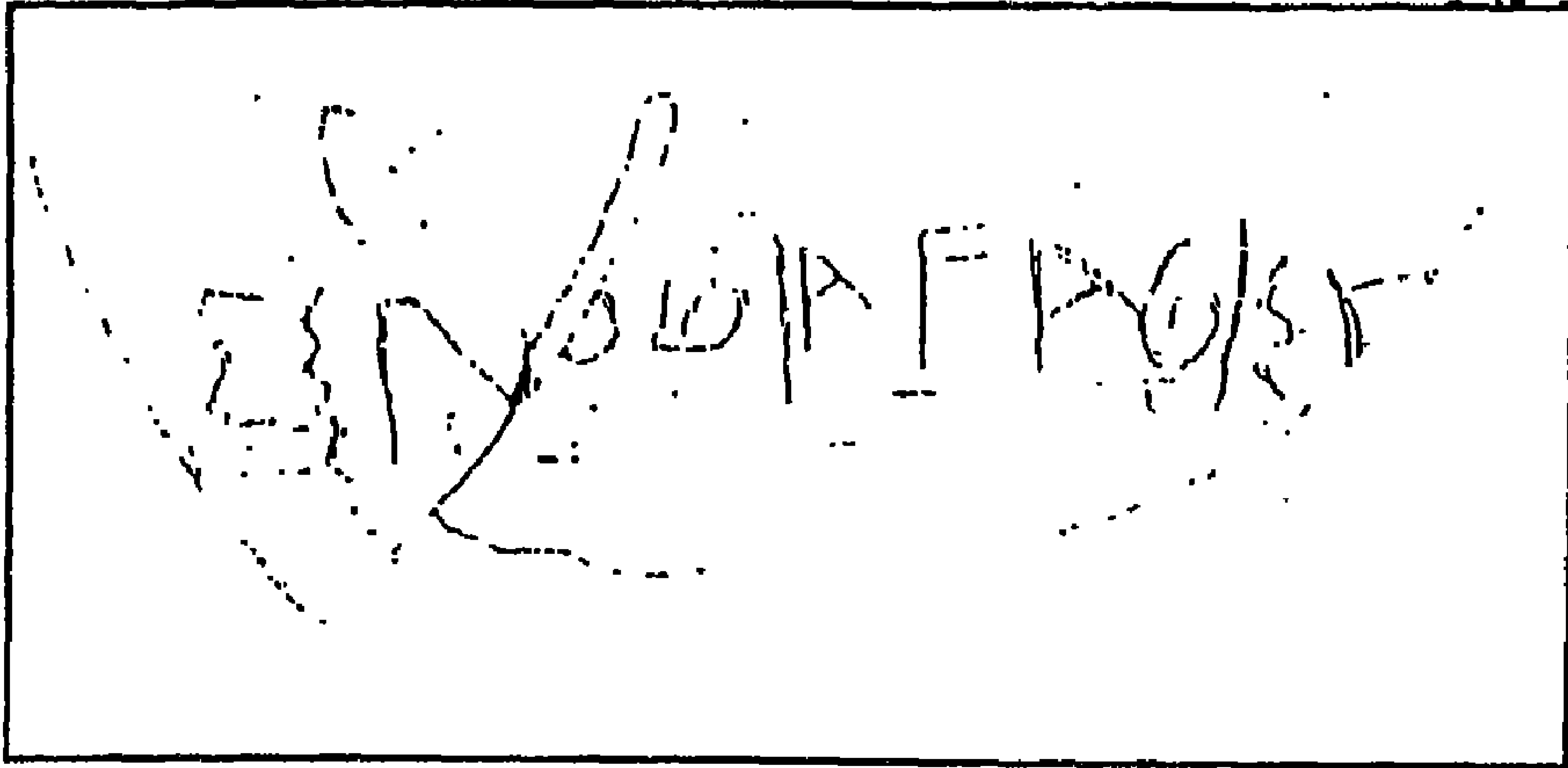


(شكل ١٥ ب) نقش ظهر شقفة " بيت شمس " ، ويقرأ بالطريقة الحلزونية أيضا فالسطر الأول يقرأ من اليمين إلى اليسار " ل ت " ، والسطر الثاني يقرأ من اليسار إلى اليمين " ن ع م / و " ، وترجمة السطرين : " أعط نعمة و " والسطر الثالث يقرأ من اليمين إلى اليسار " ح ن ن " ، والرابع به حرف واحد هو " م "

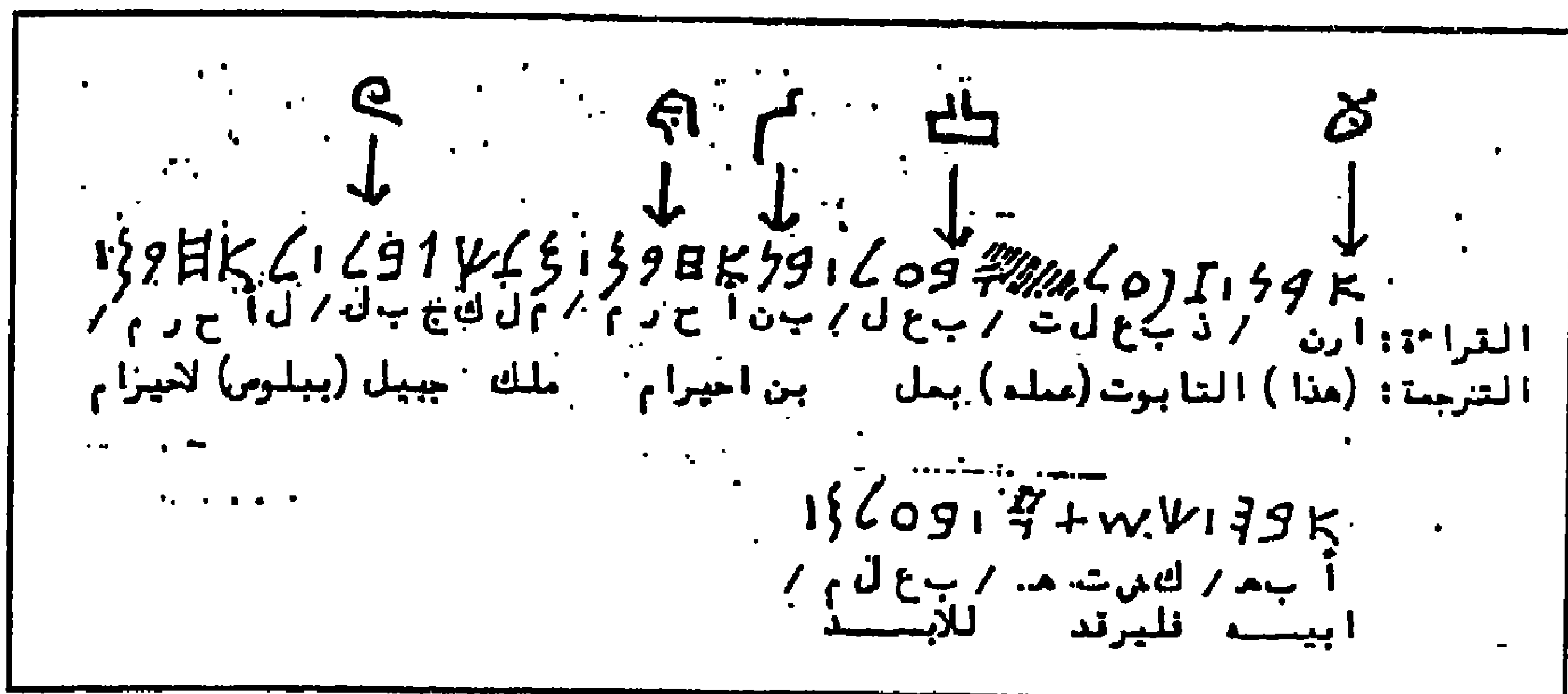
وترجمة السطرين : " وحنانهم " (من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة) .



(شكل ١٦) نقش إبريق لكيش الذى ينتمى إلى المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة ، ويتميز بظهور خاصية ستستمر فى الكتابة الفينيقية فيما بعد وهى الفواصل بين الكلمات ، وقد اتخذت فى أول الأمر شكل نقط رأسية ، والنقش يقرأ من اليسار " م ت ن / ش ى (ل ر ب) ت ى ا ل ت " ، وترجمته : " متان ، قربان لسيدتى ايلات " .

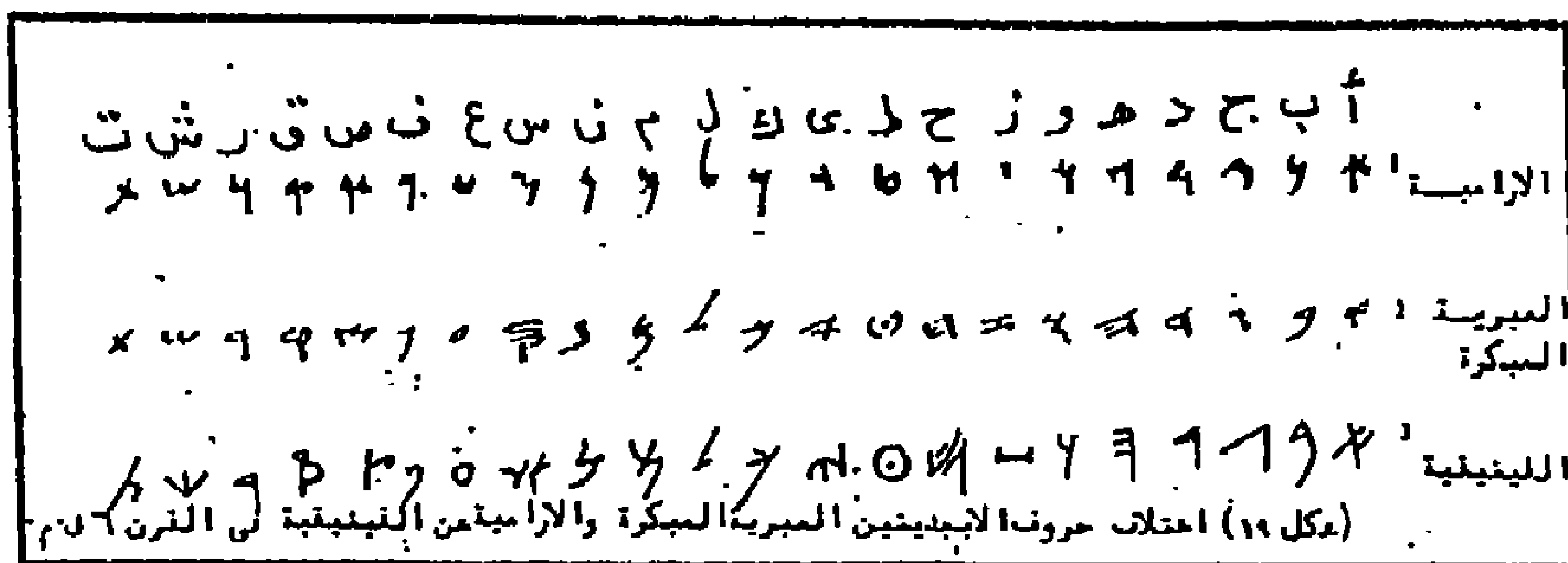


(شكل ١٧) نقش إناء " قبور الوايدة " (فى جنوب فلسطين) الذى ينتمى إلى المجموعة الثالثة من النقوش الكنعانية المبكرة ، ويتميز باختفاء الصفة الصورية من الحروف وبظهور الفواصل بينها على هيئة خط مستمر والنقش يقرأ من اليسار " ش م ب ع ل " / أ ى ا ل / ش ١٠ " وترجمته : " شمى بعل أيا – ايل ١٠ شكل "



(شكل ١٨) نقش تابوت " احيرام " ملك ببلوص الذى يعتبر أقدم نقش وجد على الأرض الفينيقية ، وتتمثل فيه خصائص الكتابة الفينيقية التى ميزتها طوال العصور ، وهى اكتمال الصفة الخطية والاتجاه الأفقى من اليمين إلى اليسار والفواصل بين الكلمات التى على شكل خطوط رأسية .

وقد وضحت فوق بعض الحروف أصولها كما ظهرت بوضوح فى الكتابة السينائية المبكرة ، والتى ظلت أسماؤها مرتبطة بالحروف الفينيقية رغم زوال الشكل الأصلى للحرف نتيجة لاختصاره وابتعاده تماما عن شكله السينائى .



(شكل ١٩) اختلاف حروف الأبجديتين العبرية المبكرة والآرامية عن الفينيقية فى القرن ٦ ق.م .

(شكل ٢٠) النقش الآرامى فى حوران الذى يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد ، وفيه يمكن تتبع الأصل الآرامى لأشكال الحروف النبطية . ويلاحظ أن الأربطة التى ستصبح من خصائص الخط النبطى لم تظهر بعد فى هذا النقش .

وفيما يلى قراءة ، وترجمة للنقش كلمة كلمة طبقا لكلمات النقش :

القراءة : ن ب ش هـ د ى ح م ر ت د ى ب ن هـ ل هـ ا د ى ن ت ب ع ل هـ

الترجمة : قبر (أو شاهد قبر) ل حمرة الذى بناه لها أذينة سيدها .

(شكل ٢١) نقش نبطى محفور على الواجهة الصخرية لأحد أضرحة مدائن صالح (الحجر المذكورة فى القرآن الكريم) وهو نموذج للنقوش العديدة التى من هذا النوع فى مدائن صالح .

والنقش مؤرخ بما يعادل العام الأول قبل الميلاد ، ويتميز بغلبة الأربطة بين حروف كلماته . والنقش يقرأ من اليمين إلى اليسار . وفيما يلى قراءة وترجمة السطر الأول من النقش الذى تم تكبيره ، والفصل بين كلماته لتيسير متابعة أشكال الحروف والأربطة .

القراءة : دنة قبرا دى عبد عيدو بر كهيلو بر

الترجمة : هذا القبر الذى شيده (ه) عايد بن كهيل بن

الصوت	آرامي (القرن الثامن)	آرامي (القرن السادس)	تدمري	نبطي	نبطي	عربي قديم	كوفي
أ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
هـ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ح	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ط	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ى	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ل	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
پ/ف	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ر	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

(شكل ٢٢) قائمة تطور الأبجدية الآرامية فى القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد واشتقاق الأبجديتين التدمرية والنبطية خلال القرون المسيحية الأولى ، ثم تطور النبطية فى مرحلتين متعاقبتين واشتقاق الأبجدية العربية القديمة (أو المبكرة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين) حتى اشتقاق الأبجدية الكوفية أو الخط الكوفى منها فى صدر الإسلام .

الأبجدية السينائية المبكرة (الأبجدية الأولى)
الأبجدية الكنعانية المبكرة (السامية الشمالية)
الأبجدية الفينيقية
السامية الجنوبية
اليونانية
العبرية المبكرة (١)
الآرامية (١)
العربية الجنوبية (السبئية) وسائر أبجديات الخط المسند
الرومانية (اللاتينية)
العبرية المتأخرة (الخط المربع)
التدمرية
النبطية
السريانية
الحبشية القديمة
الصفوية
اللحيانية
الثمودية
الأبجديات الأوروبية
العربية (الخط العربي)
الأثيوبية (الأمهرية)

(شكل ٢٣) شجرة الأبجديات القديمة والحديثة التى تفرعت من الأبجدية السينائية المبكرة ، وانتشرت فى حوض البحر المتوسط والجزيرة العربية والحبشة عبر القرون (وكذلك فى إيران والهند ، وإن كنا لم نوضح أبجديات هذين البلدين فى الرسم) . ويتضح فيها أن الأبجديات التى لم تندثر ، وتعتبر اليوم من تراث حضارة مصر الفرعونية فى الحضارة الإنسانية هى بحسب اتساع انتشارها : الأبجديات الأوروبية ، ثم الأبجدية العربية ، ثم الإثيوبية ، ثم العبرية المتأخرة (الخط المربع) ، ثم السريانية .

(١) هناك رأى ساد فيما مضى مؤداه أن الأبجديتين الآرامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الأبجدية السامية الشمالية مباشرة وليس من الفينيقية (Jensen 1958, p.286) ولكن الرأى الموضح هنا هو الأحدث (Naveh 1987, p. 53) .

(٢) تجمع الأبجديات الثلاث (اللحيانية والثمودية والصفوية) أحيانا تحت مسمى واحد هو " الأبجديات العربية الشمالية " .

القراءة : ك س / ش م ع / ـ ب ن ل أ ...

الترجمة : كأس شمع بن ...

(شكل ٢٤) نقش كنوسوس فى جزيرة كريت ، وهو نقش كنعانى يرجع للقرن ١١ ق.م ، تظهر فيه الشرطة الرأسية كفاصل بين الكلمات كما يظهر فيه الاتجاه من اليمين إلى اليسار .

(شكل ٢٥) نقش جزيرة ثيرا بشكله الأصلى الكامل .

← د ر ش س ا ن ر ر

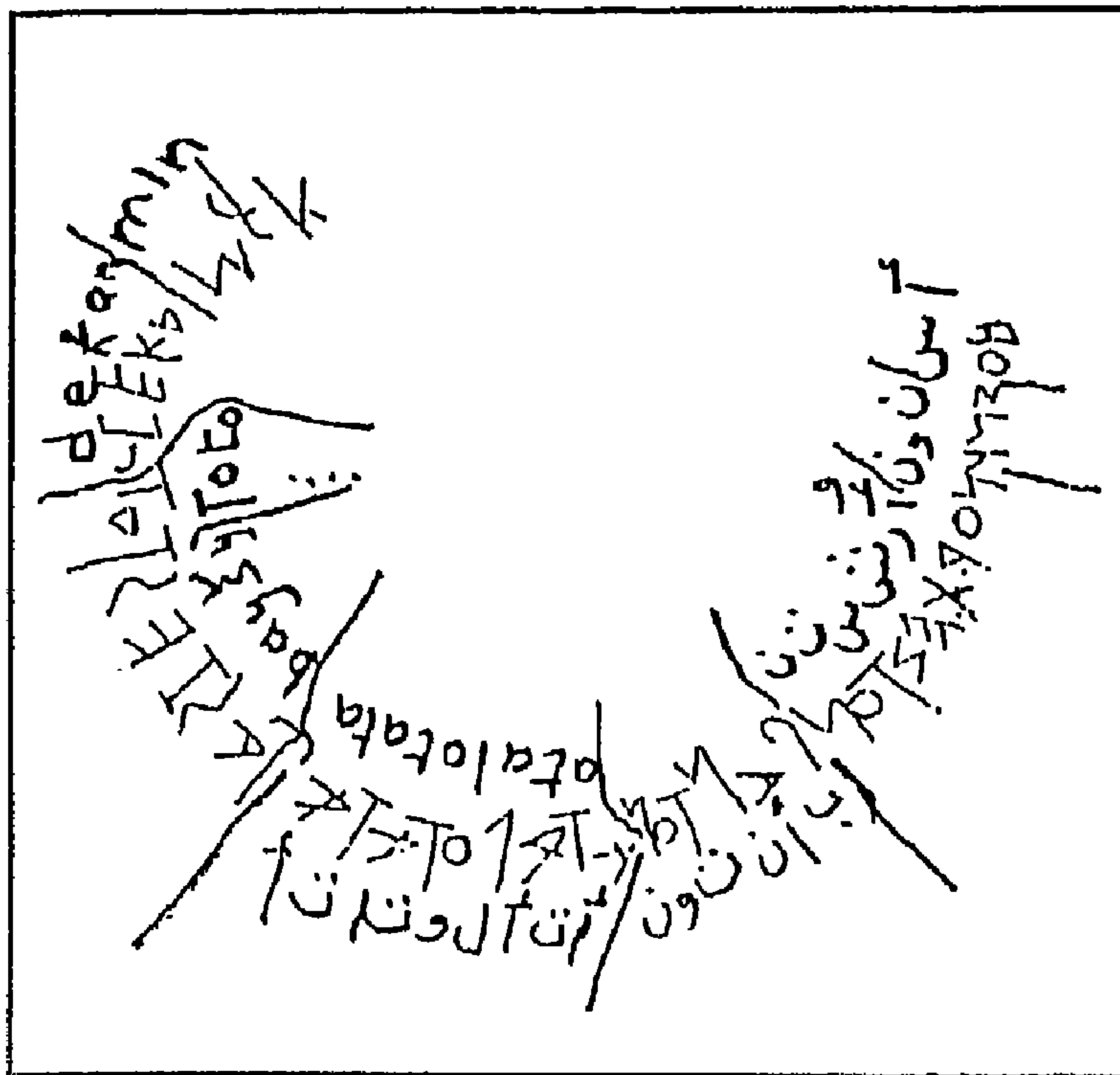
→ a r š h a g e t a s

→ p r o š i h s

Per aieus

← ك ك أ و ر أ س ب ي

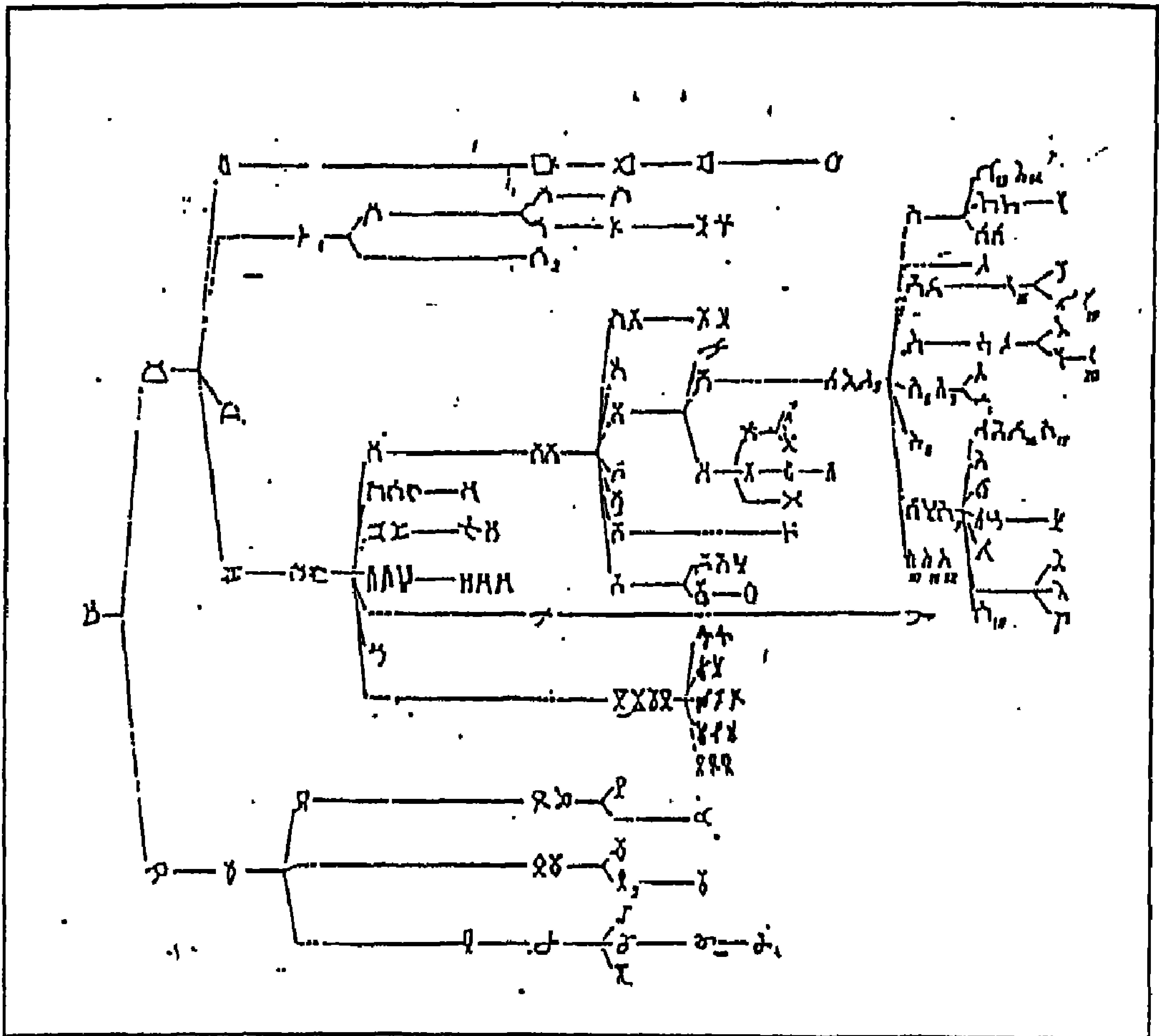
(شكل ٢٥ ب) تفصيل نقش جزيرة ثيرا ، وقد تمت تجزئته لتوضيح الطريقة الحلزونية التى اتبعت فى كتابته ، وقد وضعت قراءته أسفل السطور بالحروف العربية للسطور التى تتجه كتابتها من اليمين إلى اليسار ، وبالحروف اللاتينية للسطور التى تتجه كتابتها من اليسار إلى اليمين .



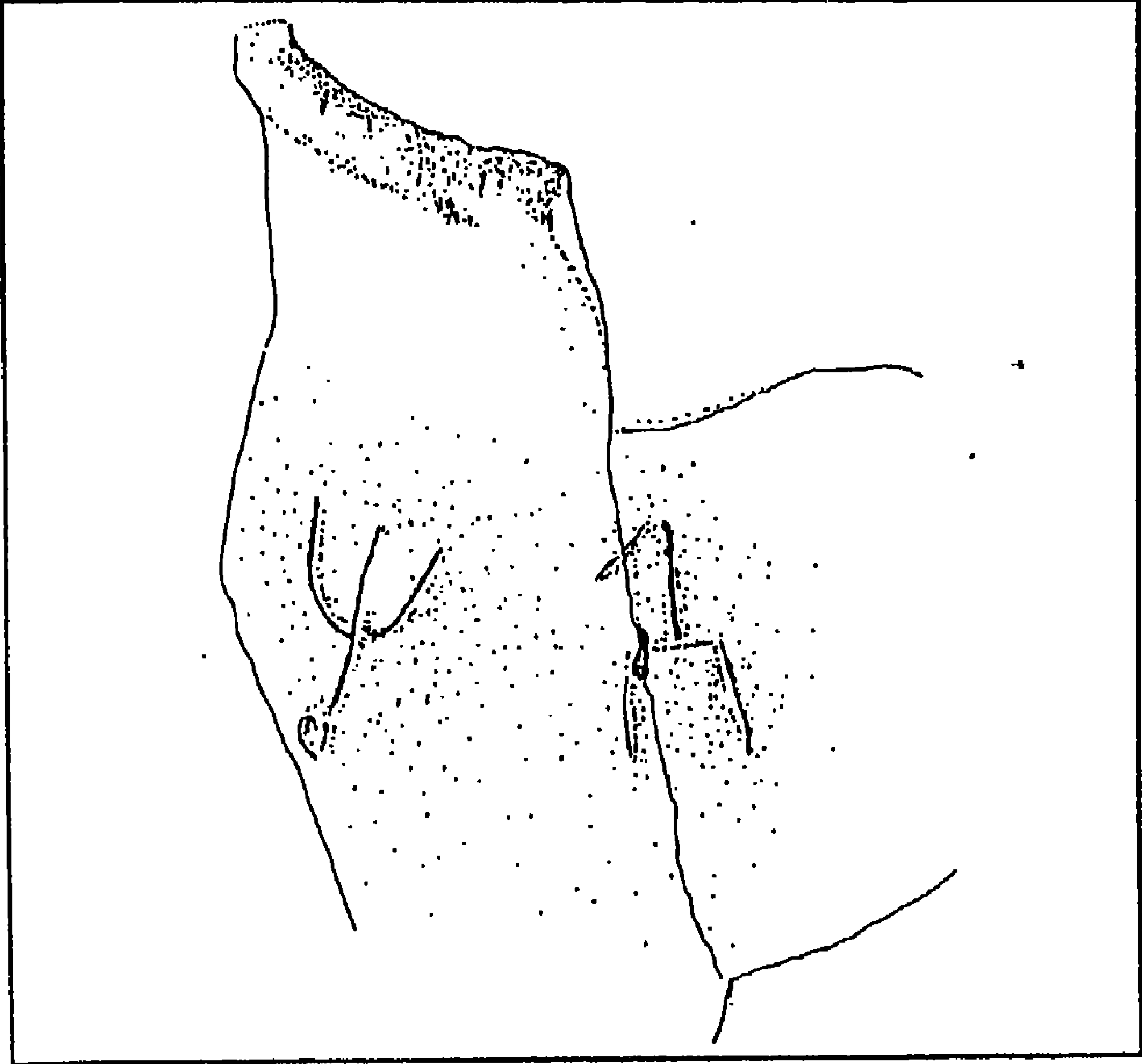
(شكل ٢٦) نقش إناء Dipylon من أثينا ، وهو أقدم نقش يوناني على الأرض اليونانية نفسها ، ويرجع إلى أواخر القرن الثامن ق.م ، وقد كتبت قراءته بكل من الحروف العربية واللاتينية تبعا لاتجاه الحروف .
ترجمة النص : من يؤدي الرقص أكثر رشاقة ، فسوف يتسلم هذا (الإناء – الكأس) .

شكل الحرف					تسمية الحرف		
يوناني				فينيقي	باليونانية	بالفينيقية	
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]				
Α	ΑΑ	ΑΑ	ΑΑ	X	ألفا	ألف	1
Β	ΒΒ	Β	88	9	بيتا	بيت	2
Γ	⌐(	Γ	11	7	جاما	جيمل	3
Δ	ΔD	Δ	◁P	◁	دلتا	دالت	4
Ε:	ΕΕ	ΕΕ	ΕΕ	ℨ	ع ابسيلون X قصيرة	هي	5
Υ	ΥVF	ΥV	ΥV	Υ	ئ ابسيلون X	واو	6
I Z	I	I	I	I Z	دزيتا	زين	7
Η	ΒΗ	Η	ΒΗ	ΗΒ	ع الطويلة ايتا X	حيط	8
Θ	⊕O	⊕O	⊕O	⊕	ثيتا	طيط	9
I	I	I	≷	Z	يوتا X	يد	10
Κ	Κ	ΚΚ	ΚΚ	Ⲩ	كابا :	كف	11
Λ	V	Λ	LΓ	LL	لامدا	لاميد	12
Μ	⌐Η	Μ	⌐7	⌐7	مي	ميم	13
Ν	ΡΝ	ΡΝ	7Ν	Ⴗ	ني	نون	14
Ξ		Ξ		Ξ	كسي KSI	سامك	15
Ο	Ο	Ο	Ο	ο	٥ ميكرون (قصيرة) X	عين	16
Π	ΓΠ	ΓΠ	7Π	)	بي	في	17
			Μ٦	Μ	سجي X	صادي	18
	Ϙ	Ϙ	ϘϘ	ϘϘ	كوبا	قوف	19
P	PR	P	9P	9	رو	ريش	20
Σ	ΣΣ	Σ	ϟ	W	سيجما X	شين	21
/Τ	Τ	Τ	Τ	+x	تاو	تاو	22
Φ	ΦΦ	ΦΦ			في	——	23
Χ	Χ+	Χ			خي	——	24
Ψ	Υ+	Υ+			Psi بسي	——	25
Ω		Ω	Ο		٥ اوميجا (طويلة) X	——	26

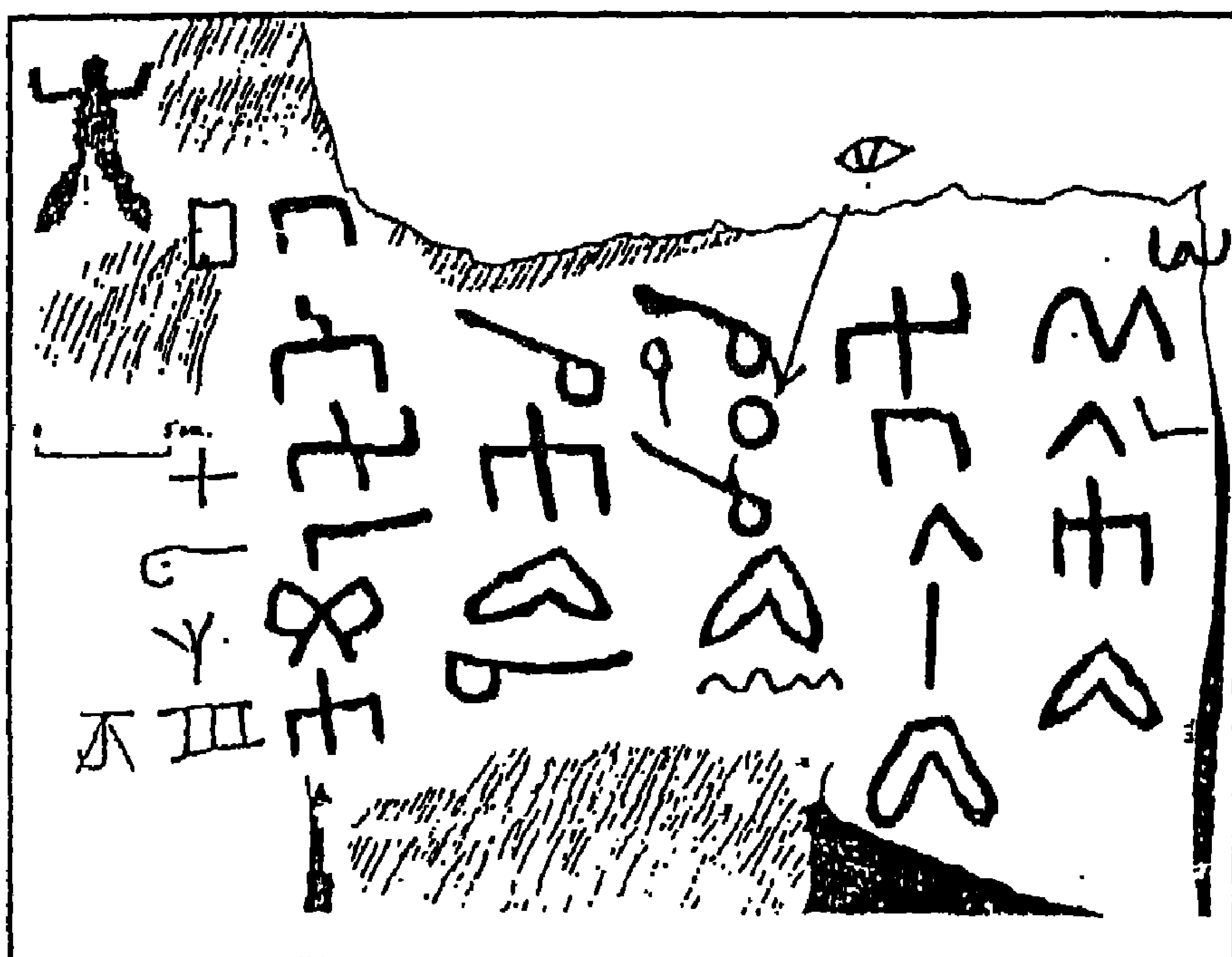
(شكل ٢٧) جدول يوضح التشابه بين الحروف الأبجدية اليونانية وحروف الأبجدية الفينيقية ومراحل تطور الأبجدية اليونانية حتى المرحلة الكلاسيكية .



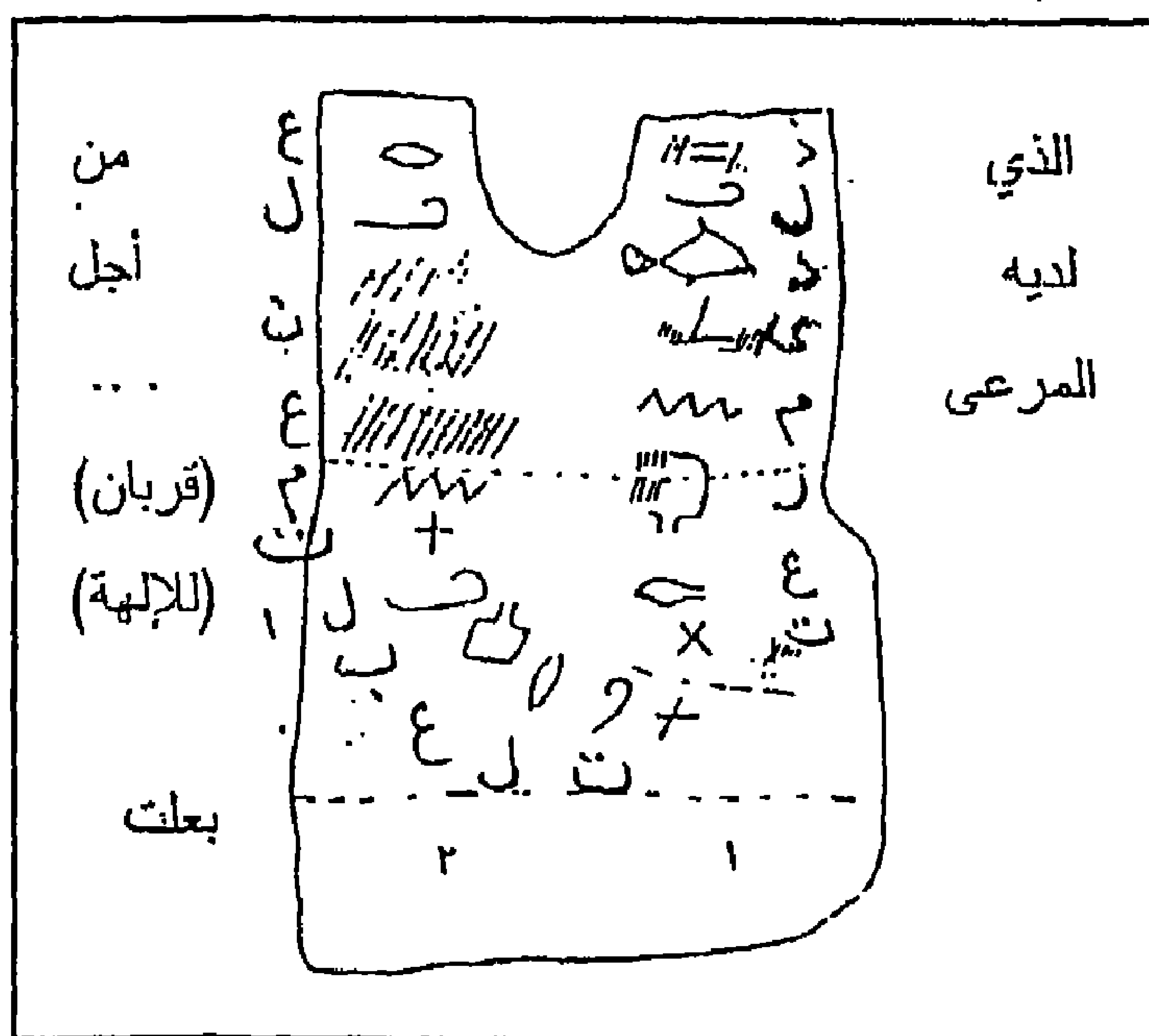
(شكل ٢٨) مراحل تطور حرف الألف البروتوسيناتى إلى حرف الألف العربى الجنوبى (فى الخط المسند) كما وردت فى النقوش المبكرة على صخور اليمن ، وهى من أدلة انتقال الأبجدية البروتوسينائية نحو الجنوب واشتقاق الأبجدية السامية الجنوبية منها .



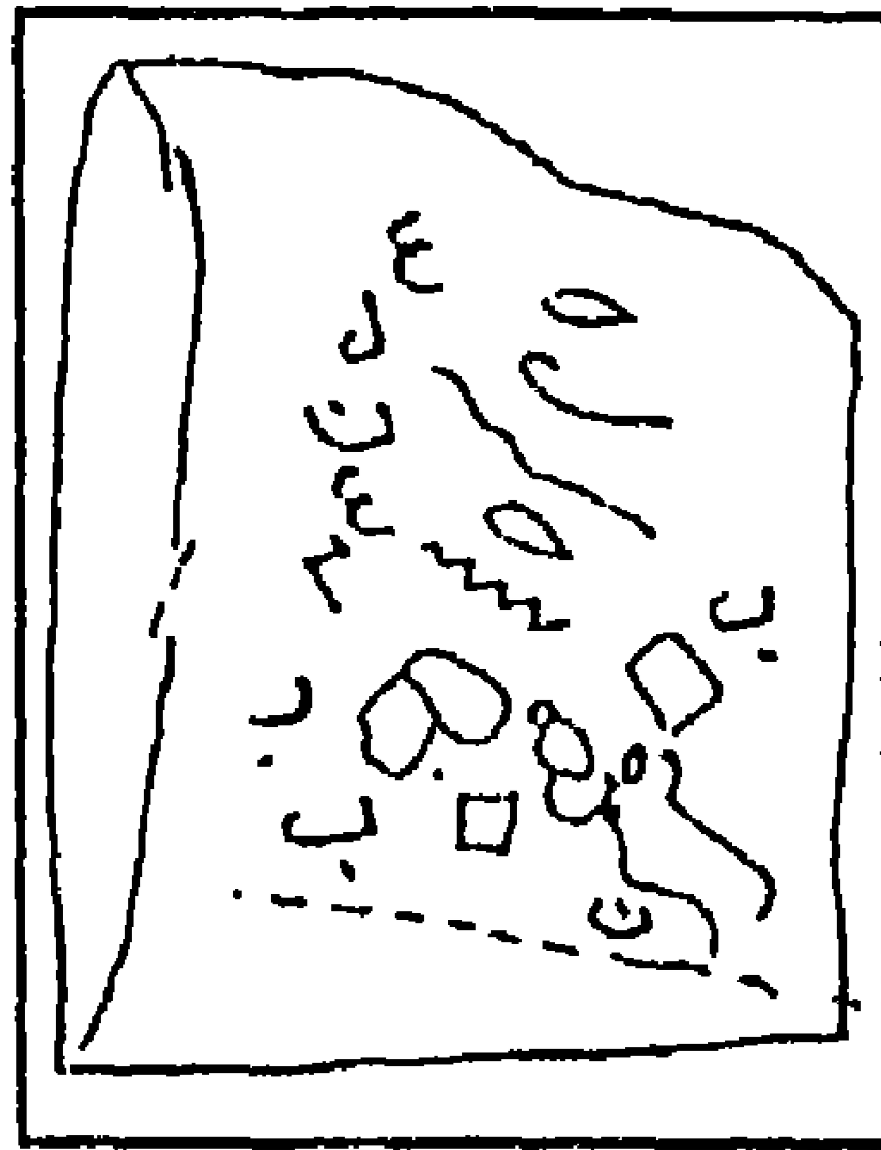
(شكل ٢٩) نقش على بقايا جرة وجدت فى تل الخليفة بالقرب من مدينة العقبة ، ويظهر فيه حرفان من حروف الخط المسند المبكر ، وهما حرف الألف إلى اليمين ، وحرف الحاء أو الصاد المقلوب إلى اليسار . ويدل وجود هذا النقش فى هذه المنطقة بالإضافة إلى وجود حروف سينائية مبكرة فى شمال اليمن (شكل ٢٨) على أن انتقال السينائية المبكرة إلى اليمن حدث عبر الطريق التجارى البرى الذى كان يمتد من جنوب اليمن نحو الشمال مارا بالمناطق المحيطة بمدينة العقبة ومنتهيا فى فرعه الغربى عند مدينة غزة فى فلسطين .



(شكل ٣٠) نقش سبئى مبكر يظهر فيه التشابه بين أشكال بعض حروفه (المكتوبة بالخط الثقيل) وبين حروف الأبجدية السينائية المبكرة (المكتوبة بالخط الرفيع) إلى جانب الحروف السبئية المناظرة لها ، كما تظهر فيه الكتابة فى خطوط رأسية .



(شكل ٣١) نقش سينائى مبكر تظهر فيه الكتابة فى خطوط رأسية وهو فى ذلك يشبه النقش السبئى شكل ٣٠ .



من أجل
نعمة
(قريـان)
رب
الأنصـاب
(أو النقب)
(المتقبين)
عن المعادن
أو الفيروز

(شكل ٣٢) نقش سيناثى مبكر يظهر فيه الاتجاه الحلزونى للكتابة الذى ميز النقوش السينية المبكرة .

رقم السطر	الدلالة الصوتية (النطق)	الترجمة
١	ل ح ى / [ع ث ت / ر]	لحى عثت (اسم شخصي)
٢	[هـ ل ك ا م] / ر / ب	وهلك امر (اسم شخصي)
٣	ن / ع [م ع هـ ر / ا]	أبناء عم عهر
٤	ب ن / ح ى و م	بي حيوم
٥	/ ر ش و / ا ل م	كاهن (الإله) " إيل –
٦	ق هـ / و ذ ت / ح	مقة (الُمقة) "والإلهة ذات
٧	م ى م / و س م	حميم و(الإله) سامع
٨	ع / ذ ظ ب ي ت	ذو ظبية
٩	و ع ث ت ر / س م	و(الإله) " عثتر سامع "
١٠	ع / هـ ق ن ي / س	كرسوا
١١	م ع / ذ ظ ب ي ت	(للإله) سامع ذو ظبية
١٢	/ ع م / ذ ر أ / و	عم ذرأ (أسم شخصي)
١٣	ول د هـ م ي / و	وأولادها
١٤	ق ن ى هـ م ي /	وأملاكهما (أو عبيدهم)

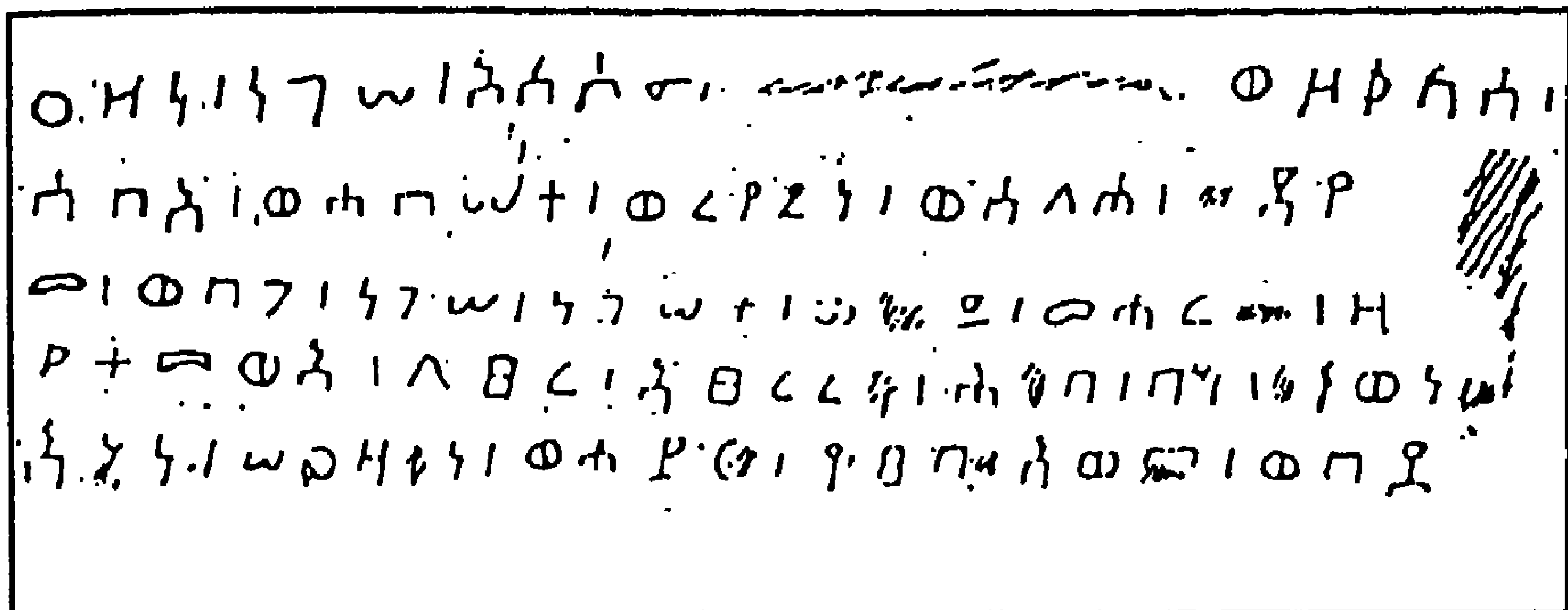
(شكل ٣٣) نموذج لحروف الكتابة السبئية المبكرة (الخط المسند) في نقش محفور على لوحة من المرمر محفوظة الآن في متحف قسم التاريخ بكلية الآداب بجدة ، وقد اتبعت الطريقة الحلزونية في كتابة الأسطر (السطر الأول يبدأ من اليمين والثاني من اليسار والثالث من اليمين وهكذا كما تشير الأسهم) . والكتابة السبئية المبكرة تشبه في ذلك اتجاهات بعض النقوش البروتوسينائية (شكل ٣١) مما يدل على اشتقاق الخط المسند من الخط البروتوسينائي وبجوار النص وضحت قراءته (الدلالة الصوتية أو النطق) وترجمته سطرا سطرا .

الحرف	الأبجدية السينائية المبكرة (البروتوسينائية)	الأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند)
أ		(Jamme)
ب		
ج		
د	?	(Jamme)
ذ		(Jamme)
هـ		
و		(? used for y)
ز	?	
ح		
خ		(Jamme)
ط	?	
ي		(orig. w)
ك		
ل		(Jamme)
م		(ṭḥ) (ṯḥ)
ن		
س	?	
ع		
غ		(Jamme)
ف		
ص		
ض	?	
ق		(Jamme)
ر		
ش		
س		(Jamme)
ت		(Jamme)

(شكل ٣٤)
جدول يوضح اشتقاق حروف الأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند) من الأبجدية السينائية المبكرة (البروتوسينائية)

(شكل ٣٥)
مراحل اشتقاق حروف الأبجدية الحبشية القديمة (التى تطورت إلى الأثيوبية أو الجعزية) من حروف الأبجدية السبئية (الخط المسند)

أ	𐩱	አ	አ
ب	𐩨	በ	በ
ج	𐩴	ገ	ገ
د	𐩵	ደ	ደ
هـ	𐩠	ሀ	ሀ
و	𐩥	ወ	ወ
ز	𐩹		ዘ
ح	𐩢	ሐ	ሐ
ط	𐩷		ጠ
ى	𐩺	የ	የ
ك	𐩫	ከ	ከ
ل	𐩡	ለ	ለ
م	𐩣	መ	መ
ن	𐩬	ነ	ነ
س/ز	𐩪		
ع	𐩲	ዐ	ዐ
ف	𐩰	ፈ	ፈ
ص	𐩮	ጸ	ጸ
ق	𐩤	ቀ	ቀ
ر	𐩧	ረ	ረ
ش	𐩦	ሠ	ሠ
ت	𐩩	ተ	ተ



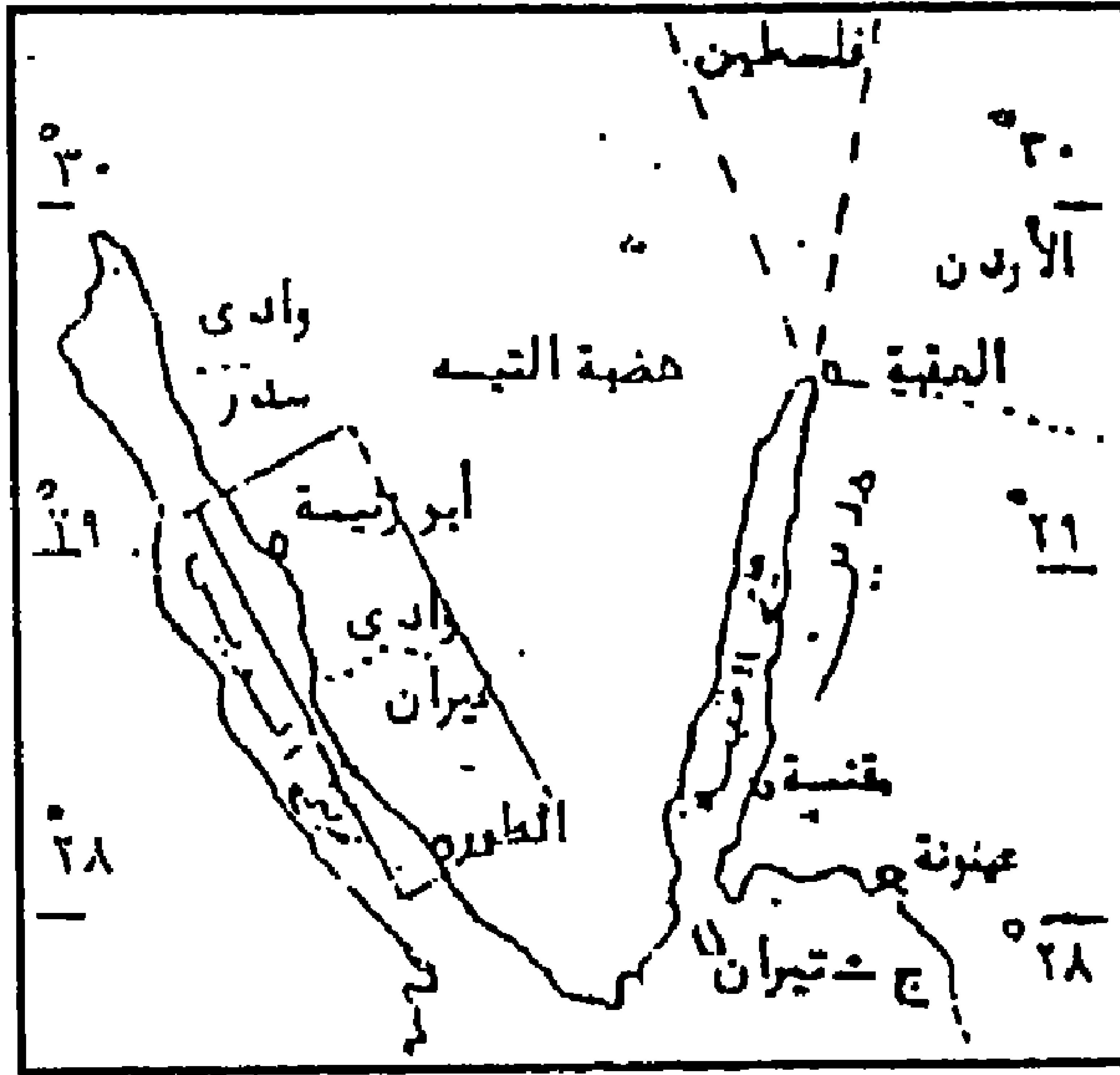
(شكل ٣٦) نقش الملك " عيزانا " ، وهو أقدم نقش بالأبجدية الحبشية القديمة ، ويلاحظ الشبه الكبير بين حروفه وبين حروف الخط المسند .

سينائي مبكر	عربي	مسند (سبئي)	حبشي قديم	أثيوبي (جعز)
	ذ			
	ث			
	خ			
	ض			
	ظ			
	غ			

(شكل ٣٧) جدول يوضح وجود الروادف في كل من الأبجدية السينائية المبكرة والسبئية والحبشية القديمة (الأثيوبية التي تطورت عنها) مما يدل على تسلسل اشتقاق الأبجديات الثلاث .

ቈ	ቊ	ቋ	ቌ	ቍ
qŭă	qŭī	qŭā	qŭē	qŭĕ
ኈ	ኊ	ኋ	ኌ	ኍ
ḫŭă	ḫŭī	ḫŭā	ḫŭē	ḫŭĕ
ኰ	ኲ	ኳ	ኴ	ኵ
kŭă	kŭī	kŭā	kŭē	kŭĕ
ጐ	ጒ	ጓ	ጔ	ጕ
gŭă	gŭī	gŭā	gŭē	gŭĕ

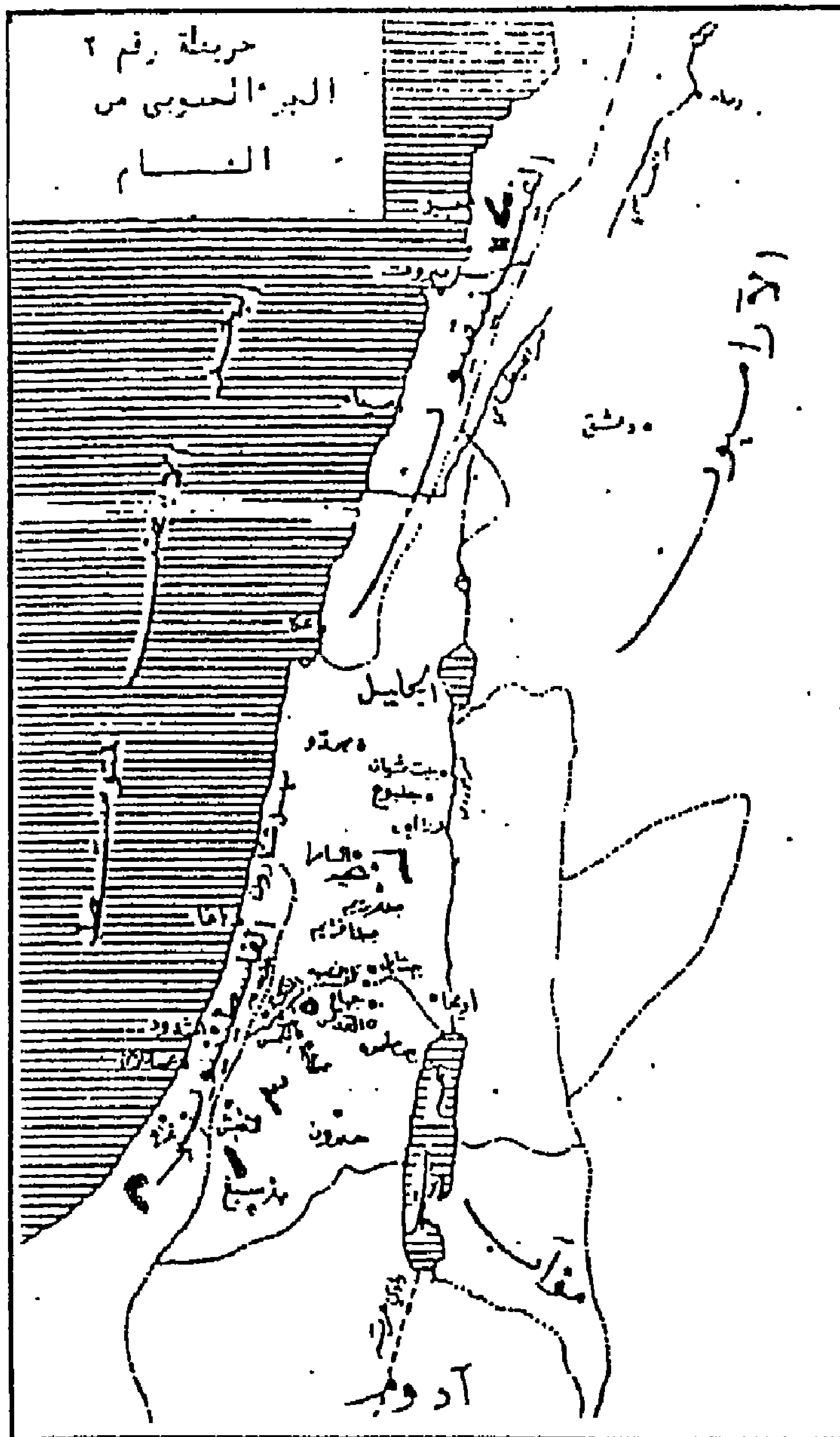
(شكل ٢٨) يوضح طريقة إضافة زيادات إلى شكل الحرف الساكن الواحد في الأبجدية الأثيوبية لتكوين عدة حروف متحركة منه .



(خريطة رقم ١ (أ)) شبه جزيرة سيناء ، والمستطيل الموضح عليها هو المرسوم فى خريطة ١ (ب)* ، وهى لتوضيح موقع منطقة سرابيط الخادم ، حيث نشأت الأبجدية السينائية المبكرة .



(خريطة رقم ١ ب)



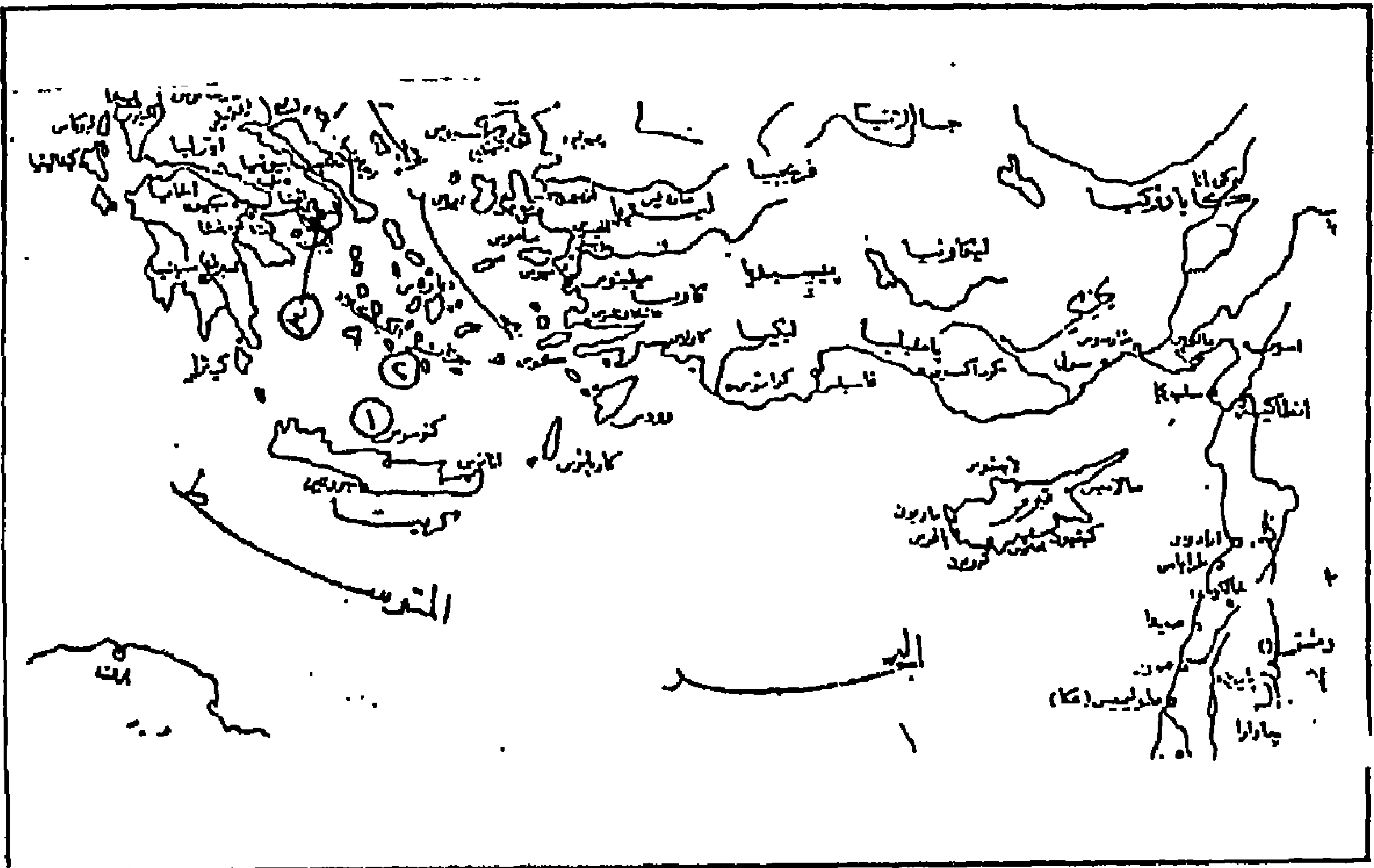
(خريطة رقم ٢)

لتوضيح مناطق انتشار الأبجدية الكنعانية المبكرة ، ومناطق الأبجديات التى تفرعت عنها فى الشام ، وهذه المناطق هى من الجنوب إلى الشمال :

-١- قبور الولايدة -٢- تل الحصى -٣- لكيش (تل الدوير)

-٤- بيت شمس (أو الشمس) -٥- تل جازر -٦- شكيم (تل بلاطة)

-٧- جبيل أو بيلوص



(خريطة رقم ٣) انتشار الأبجدية الكنعانية (التي تطورت عنها الأبجدية الفينيقية) إلى بلاد الاغريق وما يتاخمها من مناطق وهي :

١- نقش كنوسوس في جزيرة كريت .

٢- نقش جزيرة ثيرا في مناطق جزر الكيكلاد .

٣- نقش أثينا في بلاد اليونان .

(خريطة رقم ٤) انتشار الأبجدية السبئية فى بلاد الحبشة ، والخريطة توضح موقع مدينة مأرب عاصمة دولة سبأ وموقع مدينة أكسوم التى أسس فيها السبأيون دولة نقلوا إليها حضارتهم التى لم يتبق منها بمرور القرون سوى الكتابة (الأبجدية) السبئية التى تطورت إلى الكتابة (الأبجدية) الحبشية القديمة ، ثم إلى الكتابة (الأبجدية) الأثيوبية الجعزية .

– المواقع الموضحة بدائرة داخلها نقطة ⊙ تشير إلى أسماء العواصم القديمة .

د. كرم حلمى فرحات (*)

دراسة علمية حول مخطوطة الخلفاء الأربعة للإمام إسماعيل بن محمد التيمى

مقدمة

أحمد الله ، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ...

وبعد ...

فإن لكتاب " الخلفاء الأربعة " للإمام إسماعيل التيّمّى أهمية بالغة ، نظرا لتناوله فترة تاريخية لاكتها ألسنة شتّى ، ولعبت الأهواء فيها دورا خطيرا فى توجيه الروايات . ولكن الإمام إسماعيل انتقى روايات هذا الكتاب ودعمها بالأسانيد وفق منهج المُحدِّثين ، الذين ينتمى الإمام إسماعيل إلى مدرستهم .

وقد أبدى اهتماما بالغا فى أن يتبع منهج أهل السنة والجماعة ، فيما وقع بين صحابة الرسول ص من خلافات وفتن ، وأنفرد بمعلومات أتعبنى البحث فى أن أعزوها إلى مصادرها ، منها ما نوّه عن مصادرها ، ولكنها فُقِدت فاحتفظ بها كتاب الخلفاء الأربعة .

والإمام إسماعيل التيمى مؤلف كتاب الخلفاء الأربعة إمامٌ من أئمة المسلمين ، وهو من شيوخ السمعانىّ صاحب الأنساب ، ومن شيوخ أبى طاهر السلفى ، وأبى موسى المدينى ، وأبى قاسم بن عساكر صاحب " تاريخ دمشق " المشهور " بتاريخ ابن عساكر " .

---

* – مدرس بمعهد الدراسات الأسيوية – جامعة الزقازيق .

وقد تناولت فى هذا البحث عصر الإمام إسماعيل التيمى وما اشتمل عليه من دراسة الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة العلمية .

وتناولت شخصية الإمام إسماعيل التيمى وكيفية طلبه للعلم والشيوخ الذين علموه ، وذكر التلاميذ الذين تعلموا على يديه ، كما تناولت ثقافته المتنوعة ، وتناولت أيضا مؤلفاته العلمية فى شتى المجالات ثم ختمت بوفاته .

وقمت بدراسة المخطوطة " الخلفاء الأربعة " وما اشتملت عليه من تسمية الكتاب وصحة نسبته إلى الإمام إسماعيل التيمى ، والمنهج الذى سلكه فى كتابته ، ومصادره التى استقى منها مادته العلمية .

كذلك عالجت أهمية الكتاب بسبب تعرضه لفترة الفتنة المعروفة ، وتناولها بطريقة بعيدة عن الاتهامات ، قريبة كل القرب من منهج أهل السنة والجماعة فى أحداث تلك الفترة ، واحتوائه على نصوص من كتاب السنة للقاسم ابن محمد الذى فقد . ثم تناولت وصفا للمخطوطة المعتمدة فى التحقيق وصفا دقيقا كنسخة فريدة ليس لها نسخة أخرى تقويها أو تعضدها .

عصر المؤلف

الحياة السياسية :

عاش الإمام إسماعيل الأصبهانى ما بين عام ٤٥٧ وعام ٥٣٥ هـ ، وقضى أكثر أيامه فى إيران ، وتوفى بها ، وكانت تلك الفترة فى ظل الخلافة العباسية ، وتحت سيطرة الدولة السلجوقية ، التى بسطت نفوذها على إيران موطن الإمام إسماعيل ، وكان مؤسسها القائد "سلجوق بن تقاق" ، ظهرت محاولة السلاجقة نتيجة الفرار من الموت على يد ملك الترك "بيغو"(١) أو أنها ظهرت نتيجة هجرتهم من تركستان إلى ما وراء النهر بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم(٢) .

اعتنق السلاجقة الإسلام بحماسٍ بالغٍ ، ملك منهم قرارة النفوس والأرواح ، واجتاحوا بجموعهم الكثيفة إيران والجزيرة وسوريا وآسيا الصغرى ، واستطاعوا بذلك أنْ يوحّدوا البلاد الإسلامية الآسيوية ، وأن يجعلوها تحت حكم واحد ، ودفعوا البيزنطيين إلى ما وراء حدودهم، وأنشأوا جيلا من المحاربين المخلصين(٣) . وكان هدفهم إنقاذ الدولة العباسية ، رجاء أن

يدركوها في ساعاتها الأخيرة ، فصح رجاؤهم ، واستطاعوا أن يوحدوها مرة ثانية تحت حكم واحد بدلاً من مجموعة الدويلات المشتتة المبعثرة[٤] .

بعد تولى " ألب أرسلان " أمر السلاجقة بعامين كان ميلاد الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد الأصبهانى ، وذلك فى عزة وقوة سلطان الدولة السلجوقية ، وسيرتهم فى الناس حسنة، وكان ألب أرسلان شغوفا بالرعية باراً بأهله كثير الصدقات[٥] . حتى ليقال أنه كان يوزع على الفقراء فى نهاية شهر رمضان كثيرا من المال ، وكان محبا لدراسة التاريخ ، يستمع فى شغف ومتعة إلى ما يقرأ له من سير الملوك الغابرين ، وإلى الكتب التى تكشف الغامض من أخلاقهم وقوانينهم وأساليب إدارتهم[٦] .

لقد نشأ الإمام إسماعيل الأصبهانى فى بيئة زخرت بالعلم والعلماء ، تحت قيادة السلطان ألب أرسلان ، الذى هيأ الجو السياسى الذى خدم الدولة من الداخل وخاصة العلم والعلماء ، حيث أمر وزيره نظام الملك أن يبنى أماكن للعلماء ، وأعطاهم النفقات الكافية لهم ، ليتفرغوا لطلب العلم[٧] .

كما كان الوزير نظام الملك يكرم الأدباء ، ويقرب الفضلاء والعلماء ، ولا يضنّ ببذل جهوده فى نشر الدين والتعليم ، وتأسيسه للمدرسة النظامية الشهيرة ببغداد ، وقد ضمت كثيرا من الأساتذة والمدرسين[٨] .

وكما اهتم السلطان " ألب أرسلان " بالسياسة الداخلية للدولة فقد اهتم أيضا بالسياسة الخارجية . فاستطاع بسياسته الاستيلاء على فارس سنة ٤٥٩ هـ[٩] . ثم توجه إلى "كرمان" ومنها إلى " مرو " بعد أن استوثق من رسوخ حكم السلاجقة فى إيران والعراق ، وظل مشغولا بتحقيق الأهداف السياسية .

ثم سار لغزو ملك الروم " رومانوس " الذى أراد غزو بلاد الشام فالتقى به ألب أرسلان فى " ملاذكرد " سنة ٤٦٤ هـ وتمكن السلطان ألب أرسلان بجيشه أن يتغلب على " رومانوس " ووقع أسيرا فى يد جنود السلطان ألب أرسلان[١٠] . ولكن السلطان أطلق سراح الإمبراطور "رومانوس" لقاء فدية كبيرة وعقد معه معاهدة تسرى شروطها مدة خمسين عاما[١١] .

وتولى أمر الدولة السلجوقية السلطان ملكشاه وأقر الوزير نظام الملك على الوزارة[١٢] . ثم صرف أمره إلى توسعة رقعة الدولة السلجوقية ، وإصلاح الشئون الداخلية والخارجية ، وجعل نظام الملك ساعده الأيمن ، يدبر له الأمور ، وإذا تيسر له شئ من فراغ الوقت قضاه فى

الإشراف على المدارس الكثيرة التى بناها فى بغداد وأصفهان ، مستمعا إلى حديث الصفوة من العلماء والفضلاء ، أو مشتغلا بتأليف رسالته الكبيرة عن تاريخ الحكم وفن الحكومة(١٣). هذه الأمور تكشف لنا أن عصر السلطان ملكشاه عصر رواج للعلم والعلماء ، رواج للعلوم المذهبية والأدبية بخاصة ، وعصر انطلاق الحركة المدرسية فى الإسلام ، وكانت طبيعة الظروف السياسية العامة وقتئذ تتطلب تلك السياسة التعليمية . وقد ساعد كل هذا على تهيئة الظروف الملائمة لمثل الإمام إسماعيل وغيره من العلماء ، لكى يصل إلى المرتبة العلمية التى توصل إليها ، فأقام بأصبهان أكثر من ثلاثين سنة قبل الخمسمائة يعلم الناس فنون العلم(١٤).

كانت سيرة السلطان ملكشاه العدل ، وسيرته الإنصاف والفضل ، ولم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ، ولما توجه إلى " الشام " و " إنطاكية " بلغ إلى حد " قسطنطينية " ووضع فى النواحى التى فتحها من الروم خمسين منبرا إسلاميا ، وعاد إلى " الرى " وقصد فتح " سمرقند " ولم تزد مدة هذه الأعمال على شهرين(١٥) .

ويسط السلطان ملكشاه نفوذ السلاجقة على هذا الإقليم ، ثم لم يلبث أن خضع له والى "كشغر" فامتد نفوذ السلاجقة شرقا كما امتد غربا(١٦) .

وفى عام ٤٨٢ هـ هاجم السلطان ملكشاه " بخارى " حتى ضمها إليه ثم حاصر "سمرقند" واستولى عليها بعد قليل ، ثم ألحق بها مدينة " أورجند أو أوزكند "(١٧) . وأصبحت الدولة السلجوقية فى عهد السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك مصدر رعب ، يهدد العالم المسيحى ويخيفه ، بسبب ما احتلت دولته من الاتساع ، من أقصى بلاد الترك ، إلى أقصى بلاد اليمن وراسله الملوك من سائر البلاد والأقطار حتى ملوك الروم والخزر واللاق ، وكانت دولته صارمة(١٨).

ثم لم يلبث السلطان ملكشاه أن توفى فى شوال من عام ٤٨٥ هـ ، ومن قبله بشهر وأيام قتل نظام الملك على يد أحد أتباع الحسن بن الصباح .

وخلف السلطان ملكشاه من الأولاد " بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود " وهو أصغرهم(١٩). وبدأ التنافس على النفوذ والسلطان بعد موت ملكشاه ، مما أدى إلى الصراع المسلح ، وإحراز النصر ، ووقوع الهزيمة بينهم ، مما أدى إلى التفكك والضعف ، وتقسيمها إلى دويلات ، حتى تولى السلطان سنجر بن ملكشاه السلطة فى عام ٥١٣ هـ ، واعترف به الخليفة العباسى سلطانا على السلاجقة ، وأصبح بلا منازع ، له الكلمة العليا ، وبسط نفوذه

على أكثر أجزاء إيران والعراق ، وصارت تضرب له السكة فى أقاليم ما وراء النهر ، وخراسان وطبرستان ، وكرمان وسجستان ، وأصفهان وهمذان والرى وأذربيجان وأرمينية وبغداد ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين(٢٠) . وامتاز عصر السلطان " سنجر " من ناحيته الأدبية والعلمية بكثير من البهاء ، الذى امتاز به عصر السلطان ألب أرسلان وملكشاه ، فقد ازداد عدد الأدباء الإيرانيين من كتاب النثر والشعر ، وتم خلاله تأليف عدد من أمهات الكتب العربية التى أخرجتها إيران(٢١) . مما أعطى انطباعا عن أن النصف الأخير من حياة الإمام إسماعيل الأصبهانى لم يحرم من اهتمام السلطان " سنجر " بالعلم والعلماء ، مما ساعد على وجود الحركة العلمية الدائبة عند الإمام إسماعيل فى التأليف ، وإملاء المجالس ، وعقد مجالس الفتوى . وقد ألف الإمام إسماعيل كتابه " سير السلف " فى عصر السلطان سنجر كما جاء بنسخة الكتاب الموجودة بمكتبة نواب سيد محمد على حسن خان بندوة العلماء بلكنو - الهند بالورقة الثانية أنه أملاه يوم الثلاثاء السابع من شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة .

الحياة الاجتماعية :

اتسم عصر السلاجقة بعدم الاستقرار ، وذلك قبل مولد الإمام إسماعيل الأصبهانى ، وذلك فى بادئ أمرهم ، فقد غلب عليهم طابع التنقل والارتحال ، وذلك قبل سيطرتهم على إيران ، وما جاورهم من البلاد الإسلامية . ولما أصبحت فى أيديهم مقاليد الأمور تركوا آثارا واضحة فى الحياة الاجتماعية ، ففى عهد السلاطين الأوائل " طغرلبك " و " ألب أرسلان " و "ملكشاه" استقرت الأوضاع إلى حد ما ، وبعدها حدث الاضطراب بين الأخوين " بركيارق ومحمد " ولدى " ملكشاه " نزاعا على العرش ، وبعدها جاء عهد السلطان " سنجر " وحمل معه بعض الاستقرار حتى وفاة الإمام إسماعيل الأصبهانى ، فى سنة ٥٣٥ هـ . ونظرا لحاجة السلاجقة إلى إقامة دولة على أسس قوية ، احتاجوا إلى كثير من الموظفين للاستعانة بهم فى مختلف شئون الدولة فعملوا على تشجيع الصناع والإكثار من اختيار الموظفين ، وحفلت كل مدينة بعدد من الفئات أو الطوائف كطائفة العظماء ، وطائفة الصناع وطائفة الموظفين ، وطائفة التجار ، وطائفة أبناء القبائل السلجوقية(٢٢) .

لقد ساعدت الحياة الاجتماعية فى إيران على نشر العلم وإخراج العلماء ، وسار نظام سيرة حسنة عادلة ، فأسقط المكوس والضرائب وأزال لعن الأشاعرة من المنابر(٢٣)، وشجع

على تعمير المدن وإصلاح البلاد وشيد كثيرا من المساجد والمدارس[٢٤] . وكان السلطان ألب أرسلان يجل العلماء ويأخذ برأيهم ، وصار إحسان السلطان ملكشاه بين أهل العلم ميراثا يأخذونه بقدر الفرائض ويأمنون به من النوائب والعوارض[٢٥] . وكان للسلطان ألب أرسلان إمام وفقيه ، لا يقطع أمرا بغير رأيه[٢٦] .

ازدهرت الحياة الاجتماعية بفضل سياسة الوزير نظام الملك ، لأنه أوصى حكام الأقاليم بالعدل بين أفراد الرعية ، وعدم إرهاقهم بالضرائب والامتناع عن أخذها من المعسرين[٢٧] .

وكان يطمئن بنفسه على الضعفاء والعجزة والفتوى ، وأقام كثيرا من مؤسسات البر والخير في بغداد وأصفهان ، وسائر أقطار وأطراف البلاد ، وأوقف على هذه المؤسسات الخيرية مزارع وضياعا عامرة وأسواقا ومستلزمات نافعة[٢٨] .

الحياة العلمية :

أحاط حكام السلاجقة أنفسهم بطائفة من العلماء ، وشجعوا المشتغلين بالعلم ، وأجزلوا لهم المكافآت ، وأكثروا لهم من بناء المدارس وخزائن الكتب الملحقة بها ، ومساكن الطلبة ، ووقفوا عليها الأوقاف الكبيرة ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم ، بنى له نظام الملك مدرسة ، ووقف عليها وقفا ، وجعل فيها دار كتب[٢٩] .

وكان السلطان ألب أرسلان وملكشاه والوزير نظام الملك يجالسون العلماء ، وينفقون عليهم الأموال ، وقد اتخذوا منهم الفقهاء والأئمة ، كالسلطان ألب أرسلان جعل له إماما وفقيها هو محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى[٣٠] . كما كانوا يحبون مجالسة العلماء وكان نظام الملك ملجأ العلماء ، فمن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره ، وتدريس الفضل وذكره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحيى به حقه ويميت باطله[٣١] .

وفى القرن السادس الذى أدرك نصفه الأول إسماعيل الأصبهانى قد تزايد الاهتمام بالمدارس وإنشائها ، التى تسببت فى رواج اللغة العربية ، وخدمة الدين ، ونشر العلوم الدينية وكان على الدارسين قراءة الكتب التى تتناول مجال العلوم الدينية بشتى فروعها ، مما يتطلب منهم إطلاعا كافيا فى ميدان اللغة والأدب ، مما أدى ذلك إلى ازدياد معرفة الدارسين باللغة العربية ، فقويت وقوى أدبها وعظم أثرها ونفوذها فى الأدب الفارسى[٣٢] .

فقد كانت مدارس السنة تفوق مدارس الشيعة بمراحل ، وكانت كل مجموعة منها وقفا على فرقة خاصة كالشافعية أو الحنفية وأمثالها ، فكانت المدارس النظامية من أهم مدارس أهل السنة فى عهد السلاجقة ، وعين نظام الملك راتبا ثابتا للطلاب(٣٣) . وأوقف الأموال الكثيرة لتغطية رواتبهم ورواتب الفقهاء(٣٤) . وأنفق على المبانى بسخاء(٣٥) . وعمت المدارس النظامية ببغداد ونيسابور والبصرة ، وأصفهان وبلخ وهراة ويزد والموصل(٣٦) . ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس شرف عظيم وفخر مخلد(٣٧) .

ولقد كان عصر الإمام إسماعيل الأصفهانى عصر رواج للعلوم المذهبية والأدبية ، وعصر انطلاق للحركة المدرسية فى الإسلام ، وكانت طبيعة الظروف السياسية العامة وقتئذ تتطلب تلك السياسة التعليمية ، كما أن التعليم فى هذه المدارس كان امتدادا لحركة التعليم فى المساجد ، فقد استمرت المساجد فى أداء وظيفتها التعليمية فى العصر السلجوقى . وأملى الإمام إسماعيل فى مسجد أصبهان ما يقرب من ثلاثة آلاف مجلس علم(٣٨) . وكان يحضر مجلس إملائه الأئمة الحفاظ والمسندون(٣٩) .

وقد تأثرت طائفة السلطان وأعوانه من الوزراء بهذا الرقى العلمى ، فكان السلطان ألب أرسلان كثيرا ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم وأحكام الشريعة(٤٠) . وأملى نظام الملك الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما(٤١) .

كما كان للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ت ٥٢٥ هـ معرفة بالشعر والنحو والتاريخ وكان قوى المعرفة بالعربية ، حافظا للأشعار والأمثال ، عارفا بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير(٤٢) .

وفى ظل هذه الحركة التعليمية النشطة ترعرع العلم ، ووجد طائفة من جهابذة العلماء من الرجال والنساء . استفاد منهم الإمام إسماعيل ، وتكونت شخصيته المتميزة الجامعة بين الحديث والفقه والتفسير واللغة ، كما أفادته هذه الحركة العلمية فى نشر علمه ، واستفاد الناس منه ، ومما يعطى أيضا عصر الإمام إسماعيل الأصبهانى صفة الحركة التعليمية النشطة ظهور المؤلفات العلمية فى شتى العلوم ، فكان للإمام إسماعيل نصيب طيب فى هذه المؤلفات فألف فى الحديث والتفسير والتوحيد والتاريخ والسير ، وقد راجت العلوم الشرعية والعلوم العقلية فى عصر الإمام إسماعيل ، مما كان لها أكبر الأثر فى حياته العلمية ، وقد شارك فيها وأسهم بمؤلفات كثيرة ، فكان صاحب المصنفات الحسنة فى العلوم الشرعية(٤٣) .

حيـــاة المؤلـــف

شخصية الإمام إسماعيل

هو الإمـام الحـافظ قـوام السنة أبو القـاسم إسـمـاعـيل بن مـحـمـد بن الفـضل بن على التـيمى(٤٤)، ثم الطلحى(٤٥) الأصبهانى المتوفى سنة خمسمائة وخمس وثلاثين من الهجرة النبوية(٤٦) . ويلقب بألقاب متعددة ، فيلقب بقوام السنة وقوام الدين والجوزى .

كانت مدينة أصبهان مسقط رأس الإمام إسماعيل ، وقد نسب إليها فى تاسع شوال سنة سبع وخمسين وأربع مائة من الهجرة النبوية(٤٧) .

نشأ الإمام إسماعيل فى بيئة عُلمية ، ودرج فى بيت علم يتسم أهله بالصلاح والورع ، وقد حمل القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وسمع العلم وحرص عليه وعلى مجالسه ، وكان أبوه قد أرسله بعد أن ترعرع لسماع الحديث الشريف من العالمة الواعظة المسندة أم الفتح عائشة الوركانية ت ٤٤٦ هـ قال عنها الإمام إسماعيل : وهى أول من سمعت منه الحديث ، فبعثنى أبى إليها وكانت زاهدة(٤٨) .

طلبه للعلم :

بدأ الإمام إسماعيل سماع العلم وهو صبى فقال عن نفسه : " سمعت من عائشة الوركانية"(٤٩) وأنا ابن أربع سنين(٥٠) . وكان والده من العلماء الحاملين كتاب الله ، ولقد عرف بالصلاح والورع والزهد والأمانة .

وقال الإمام الذهبى : وأقدم سماع الإمام إسماعيل من محمد بن عمر الطهرانى صاحب ابن منده فى سنة سبع وستين وأربعمائة وهو ابن عشر سنين(٥١) .

نشأ الإمام إسماعيل فى بيت علم ونشأ على العلم والتعلم ، وقراءة القرآن وسماع الحديث وتعلم الفقه والتفسير والسير واللغة والأدب ، عارفا بالمتون والأسانيد(٥٢) . فقد شَب على العلم واجتهد فيه حملا وأداء حتى توفاه الله .

مضى الإمام إسماعيل عل سنن المحدثين من قبله فرحل فى طلب العلم ولم يكتف بالأخذ عن الشيوخ بأصبهان ، بل كانت له رحلات كثيرة إلى بغداد ونيسابور ، ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى ، والرى وقزوين ومكة ، وعاد إلى أصبهان حتى آخر عمره(٥٣) ، مشتغلا بالتحديث والإملاء والتصنيف والعبادة(٥٤).

شيوخه :

أكثر الإمام إسماعيل من الشيوخ الذين سمع منهم ، وأخذ عنهم سواء كان ذلك ببلده أصبهان أم البلدان الأخرى التي رحل إليها وأخذ عن علمائها ، وكان لمشيخته الأولى أثر في توجيهه هذه الوجهة في تلقي الحديث والتصدي لدراسته وحفظه . وقد زاد عدد شيوخه الذين حصلت لهم على ترجمة تزيد على السبعين شيخا ، أذكر منهم عددا على سبيل المثال وليس الحصر ، مثل :

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني ت ٤٨١ هـ ، وأحمد بن الحسن ابن أحمد البغدادي المقرئ ت ٤٨٨ هـ ، وأحمد بن عبد الرحمن الهمذاني الزكواني ت ٤٨٤ هـ ، وأحمد بن الحسن الطريثيثي ت ٤٩٧ هـ ، وأحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن خلف الشيرازي مسند وقته ت ٤٨٧ هـ ، وأحمد بن عبد الله بن عمر الأسواري ت ٤٩٦ هـ ، وأسعد بن مسعود بن علي العتبي النيسابوري ت ٤٩٤ هـ ، وجعفر بن يحيى بن إبراهيم التميمي المكي ابن الحكاك ت ٤٨٥ هـ ، والحسن بن أحمد بن محمد السمرقندي ت ٤٩١ هـ ، وعبد الله بن يوسف الجرجاني ت ٤٨٩ هـ ، وعبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الروياني الطبري ت ٥٠١ هـ ، وعلي بن محمد بن شعيب الشيباني الأنباري ت ٤٧٨ هـ ، ومحمد بن إبراهيم ابن علي بن أحمد القزويني ، ومحمد بن أحمد بن عبد الباقي الربعي الموصلي ت ٤٩٤ هـ[٥٥]، كما كان يحضر مجلس نظام الملك الحسن بن علي بن الوزير[٥٦] . إن إحصاء شيوخ الإمام إسماعيل والحديث عنهم يحتاج إلى استقصاء واسع ، لأنهم من الكثرة بمكان ، وقد اكتفيت بما ذكرت .

تلامذته :

إن اشتغال الإمام إسماعيل بالعلم تحديثا وإملاء ، جعل له بالضرورة تلامذة كثيرة ، من أهم هؤلاء التلاميذ :

أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني ت ٥١٦ هـ ، والحسن بن أحمد الهمذاني المقرئ ٥٦٩ هـ ، وعبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي ت ٥٦٢ هـ ، وأبو موسى المديني محمد بن أبي بكر ت ٥٨١ هـ ، وهشام بن عبد الرحيم البغدادي ت ٦٠٦ هـ ، ويحيى بن محمود بن سعد الثقفي ت ٥٨٤ هـ[٥٧] ، وغيرهم كثير .

ثقافته :

كان الإمام إسماعيل عميق الثقافة ، متسع المدارك ، خاليا من الشواغل والآفات فأكثر من الكتابة والتصنيف ، وتطالعنا كتب التراجم والسير بأخبار عن العلوم التى تبحر فيها ، وعن الثقافات التى عرف بها ، فهو عالم بالقراءات والتفسير والحديث والتوحيد والأدب واللغة والنحو والتاريخ والسير والأنساب ، فكان إماما فى التفسير واللغة ، وصنف فى التفسير والإعراب كتبا بالعربية والفارسية[٥٨] . وكان فاضلا فى معرفة الرجال ، حافظا للحديث ، عارفا بكل علم من علومه ، وتكلم فى الجرح والتعديل[٥٩] .

وصنف فى علم التوحيد لكي يبين اعتقاد السلف وأهل السنة ، وجمع دلائل التوحيد ومعرفة الله عز وجل على طريقة السلف الصالح[٦٠] .

وكان الإمام إسماعيل إماما فى اللغة والأدب ، فاضلا فى العربية ، ألف كتابا فى إعراب القرآن[٦١] . والمتتبع لمصنفاته التاريخية يجد أنه ضرب بسهم كبير فى علم التاريخ والسير والأنساب ، فقد أملى كتابه الضخم " سير السلف " بالمسجد الجامع . مما يعطينا فكرة واضحة عن الإمام إسماعيل أنه كان موسوعة علمية .

أما إذا أردت أن أتحدث عن مهنة الإمام إسماعيل ، فإننى أجد فيه مثال العالم العامل الدؤوب الجاد فى تحصيل العلم ، الحريص على جمعه وتطبيقه فى المسائل الدينية لاسيما ما يتعلق منها بالأمور الاعتقادية ، ولم أجد بين صفحات كتب التراجم من ذكر له مهنة يمتهنها غير العلم والتعلم واشتغاله بهما فلعله من العلماء الذين لهم ضيعات يأكلون منها ، أو ممن فرض لهم راتبا ، أو مما أوقفت عليه بعض الأوقاف .

لقد نال الإمام إسماعيل مكانة عظيمة بين علماء عصره ، حيث قالوا عنه : " ليس فى وقتنا مثله "[٦٢] وهو إمام أئمة وقته وأستاذ عصره وقدوة أهل السنة فى زمانه ، وهو المبعوث على رأس المائة الخامسة[٦٣] . وكان يملى على البديهة فى مجالس علمه[٦٤] .

ولقد كان للإمام إسماعيل دور مشرف بوقوفه بجانب طلبة العلم ، فقد أخلى دارا من ملكه لأهل العلم[٦٥] ، كما كان له مجلس علم فى داره بأصبهان ، وكان ممن يضرب به المثل في الصلاح والورع[٦٦] .

لقد اشتهر بكلامه ومواقفه واعتقاده ، فنقل عنه السمعاني[٦٧] ، والحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق"[٦٨] ، وابن نقطة في " كتاب التقييد "[٦٩] ، وابن المستوفي في كتاب "تاريخ أربل "[٧٠] ، والحافظ الذهبي في كتابه " تذكرة الحفاظ "[٧١] ، وكتابه " مختصر العلو " الذي اختصره الألباني[٧٢] والإمام ابن القيم الجوزية في كتابه " اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية "[٧٣] .

فقد كانت عقيدته هي عقيدة أهل السنة والجماعة ، عقيدة سلفية بعيدة كل البعد عن علم الجدل والكلام والتأويل ، فكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة ، قليل الكلام[٧٤] ، قدوة أهل السنة في زمانه[٧٥] .

مؤلفاته :

كان الإمام إسماعيل من الموفقين في التأليف والتصنيف لعمق ثقافته وسعة مداركه ، فكان ثمار ثقافته كتبا جيادا اشتغل بتصنيفها ، وأكثر كتبه في التفسير والتاريخ ، مشاركا في علوم القرآن والحديث ، وبجانبها كانت له الأمالي الكثيرة[٧٦] .

التفسير :

١- كتاب " الإيضاح في التفسير " أربعة مجلدات مخطوط لم يعرف مكانه[٧٧] .

٢- التفسير باللسان الأصبهاني ويسمى " الموضح في التفسير " ثلاثة مجلدات لم يعرف مكانه[٧٨] .

٣- " الجامع في التفسير " ثلاثون مجلدا مخطوط لم يعرف مكانه[٧٩] .

٤- " المعتمد في التفسير " عشر مجلدات مخطوط يوجد منه نسخة بمكتبة " كوبرلي باستانبول " تحت رقم (٢١٣)[٨٠] .

٥- " إعراب القرآن " مخطوط ذكره كثير من أصحاب التراجم وهو مفقود[٨١] .

التاريخ :

١- " دلائل النبوة " مخطوط بالمكتبة السعيدية بحيدر أباد الدكن[٨٢] . توجد نسخة بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم (١٦٢٣ تاريخ) .

٢- " سير السلف " وقد تم تحقيقه بمعرفتنا وهو بمكتبة دار الراية بالسعودية[٨٣] .

٣- كتاب " المبعث والمغازى " وهو مجلد كبير[٨٤] ، وبه الجزء الذى يحتوى على "الخلفاء الأربعة " الذى نحن بصدد الدراسة عنه ويشغل الربع الأخير من الكتاب ، وهو بمكتبة (كوبرلى) باستانبول ، ومنه نسخة بمعهد المخطوطات العربية (٧٧٢) تاريخ .

الحديث :

١- شرح الجامع الصحيح للإمام البخارى ، مخطوط وهو مفقود[٨٥] .

٢- شرح الجامع الصحيح للإمام مسلم مخطوط وهو مفقود[٨٦] .

التوحيد :

١- "الحُجَّة فى بيان المَحَجَّة "[٨٧] مخطوط بمكتبة " لاله لى " باستانبول ، وقد طبع مؤخرا بالمملكة العربية السعودية . ومنه ثلاث نسخ بمعهد المخطوطات العربية (٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ توحيد) .

٢- " كتاب السنة "[٨٨] ويرجح أنه هو كتاب الحجة فى بيان المحجة السابق الذكر .

الوعظ والإرشاد :

١- " الترغيب والترهيب " ، مخطوط بمكتبة المدينة المنورة[٨٩] . وقد طبع مؤخرا بالمملكة العربية السعودية .

٢- " كتاب التذكرة " نحو ثلاثين جزءا[٩٠] ، يوجد منه فصول مستخرجة فى مكتبة (أوغلو) تحت رقم (٨٤٧) ومنه نسخة بمعهد المخطوطات العربية[٩١] .

الأمالى :

له " الأمالى فى الحديث " جزء منها مجموع (٤١) (ق ٢٤-٣٧) وجزء آخر (ق ١-٨) بدار الكتب الظاهرية[٩٢] .

وله أحاديث مسلسلات مجموع ٣٤ (ق ١٤٦-١٥٠)[٩٣] .

وله " العوالى الموافقات " نسخة ناقصة من آخرها مجموع ١٠٥ (ق ١١٦-١٣٣)[٩٤] .

بعد البحث عن مصنفات الإمام الأصبهاني ومعرفة أماكن بعضها والظن في فقدان البعض الآخر كانت له الأمالي والمجالس التي انتشر فيها علمه ، كالمجالس التي أملاها في جامع أصبهان قريبا من ثلاث آلاف مجلس ، على حد قول تلميذه أبي موسى المديني[٩٥] ، وتلميذه أبي سعد السمعاني[٩٦] ، الذي قال عنه : " ما فاتني من أماليه شئ ، وكان يملي على في كل أسبوع يوما مجلسا خاصا في داره ، وأقرأ في كل أسبوع يومين "[٩٧] .

وفاته :

قضى الإمام إسماعيل (رحمه الله) حياته في أجل وأسمى وظيفة ، فظل طيلة عمره بين التعلم والتعليم والتصنيف ، في خدمة الكتاب والسنة والدفاع عنهما قولا وعملا ، حتى وافاه الأجل ، ليبقى حيا بيننا بما تركه من مصنفات وإملائيات ومجالس علم كتبت عنه .

توفي الإمام إسماعيل وله من العمر ثمان وسبعون سنة[٩٨] ، في عشرة ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، يوم عيد الأضحى بأصبهان[٩٩] ، وذهب إلى هذا القول تلاميذه الذين سمعوا منه وأدركوه وحضروا جنازته كالإمام أبي سعد السمعاني ، وأبي موسى المديني[١٠٠] .

دراسة المخطوطة

تسمية الكتاب :

إن كتاب الخلفاء الأربعة تابع لكتاب كبير للإمام إسماعيل الأصبهاني ، وقد جعلناه منفصلا عنه نظرا إلى أن الكتاب الكبير ، يتحدث عن سيرة النبي محمد ﷺ ، وذكر ذلك الإمام إسماعيل في أول النسخة المخطوطة حيث قال : " بعد فراغي من كتاب السير اقترحوا على أن أملي كتابا مشتملا على ذكر مولد النبي ﷺ وبيان نشوءه وتربيته إلى حال إرساله وبعثته ، ثم ذكر أحواله في مغازيه ، وذكر سراياه إلى وقت وفاته ، ثم أتبع ذلك بذكر الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم ، وما جرى من الفتوح في أيامهم ، ففعلت ذلك[١٠١] " . فقد ذكر الإمام إسماعيل اسم هذا الجزء في مقدمة الكتاب الكبير الذي سماه " المبعث والمغازي " .

بعد أن قمت بدراسة وافية لكتاب المبعث والمغازي بما فيه القسم الذي يتحدث عن الخلفاء الأربعة ، وأطلعت على مراجع متعددة تبين لي صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف الإمام إسماعيل

وأن كتاب المبعث والمغازى هو الذى ألفه الإمام إسماعيل (رحمه الله) ويمكن تلخيص ذلك فيما يلى :

١- ذكره الإمام ابن الجوزى فى كتابه المنتظم ونسبه للإمام إسماعيل(١٠٢) .

٢- ذكره شمس الدين السخاوى فى كتابه الإعلان بالتوبيخ فقال : فأما السيرة النبوية والمغازى فقد انتدب لجمعها كأبى القاسم التيمى الأصبهانى(١٠٣) ، وذكره أيضا فى كتابه "الجواهر والدرر" ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة صالح العلى فقال : وجمع المغازى أبو القاسم التيمى الأصبهانى ، وآخرون(١٠٤) .

٣- ذكره الحافظ الذهبى فى كتابيه " تذكره الحفاظ " ، و" سير أعلام النبلاء "(١٠٥) .

٤- وذكره صاحب هدية العارفين ونسبه للإمام إسماعيل بعنوان المبعث والمغازى(١٠٦) .

٥- وذكره صاحب التاريخ العربى والمؤرخون ونسبه للإمام إسماعيل بعنوان "المبعث والمغازى " وقال إنه توجد منه نسخة مخطوطة فى كوبريلى فى استانبول(١٠٧) وهى النسخة التى اعتمدت عليها فى الدراسة .

٦- تصريح باسم الكتاب فى الورقة الأولى من المخطوط معزوا إلى الإمام إسماعيل فى نسخة المخطوط .

٧- أسلوب الكتاب المتميز ، فالقارئ فى أى كتاب من كتب الإمام إسماعيل المصنفة فى التاريخ وغيره يعرف ذلك ، فالإمام إسماعيل حافظ محدث كثيرا ما يستخدم الرواية فى كتاباته ، وينقل روايات كثيرة عن الكتب السابقة عليه ، ويملأ الكتب بالأحاديث النبوية ويذكر عن شيوخه الذين أخذ عنهم الرواية وغير ذلك .

الداعى لتأليف الكتاب :

الداعى لذلك استجابة لدواعى العلم ، وما اقترحه عليه أهل العلم من أن يملى كتابا مشتملا على ذكر مولد النبى ﷺ وبيان نشوءه وتربيته وإرساله وبعثته وذكر مغازيه وسراياه إلى وقت وفاته ثم يتبعه بذكر الخلفاء الأربعة وما جرى من فتوح فى أيامهم(١٠٨) .

وهذا دأبه فى أن يذكر الداعى للتأليف فقد ذكره فى كتابنا هذا وفى سير السلف وفى دلائل النبوة .

مادة الكتاب :

مادة الكتاب التى صنعها الإمام إسماعيل هى أيام الخلفاء الأربعة وسيرهم ، بدءا بذكر نسبهم عدا الخليفة الرابع لم يبدأ بنسبه ، بل بدأ بذكر أخبار من سيرته ، ثم يتلو ذلك بالاستخلاف وتولى أمر المسلمين ، ويذكر كثيرا من خطبهم ، ثم ذكر الفتوحات التى تمت فى عهدهم ، وذكر جانبا من الكتب التى أرسلوها إلى أمرائهم فى مكان ولايتهم ، ويذكر خبر وفاتهم .

ثم ختم الكتاب بذكر فصلين من كتاب السنة للقاسم بن محمد .

الأول : فى الحرب التى كانت بين على بن أبن طالب رضى الله عنه وبين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهم ، وقد ذكره باختصار .

والثانى : فى القول فيما كان بين على رضى الله عنه ومعاوية وقد ذكره باختصار أيضا .
ثم ذكر فصلا ثالثا فى فضائل معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .

كما كان يذكر لنا فى بعض الأحايين أبياتا من الشعر يستشهد بها فى موضعها ، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية أمر واضح أيضا فى الكتاب ، على أنها تخص الخليفة الذى يتحدث عنه ويعرض لنا سيرته ومنهجه وأسلوبه . وقبل الحديث عن تفصيلات منهج الإمام إسماعيل نذكر أن الفترة التى كتب عنها يتخللها فترة - أى فترة سيدنا عثمان وسيدنا على رضى الله عنهما - هى من الأهمية بمكان ، لأن كثيرا ممن ينتسبون إلى الإسلام يبغض حتى الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، ويقلب جميع حسناته سيئات .

وإن أحد الذين شاهدوا بأعينهم عدل عمر رضى الله عنه وزهده فى متاع الدنيا ، وإنصافه لجميع الناس ، لم يستطع أن يمنع الحقد الذى فى فؤاده على الإسلام من أن يدفعه إلى طعنه بالسكين دون أن يسئ إليه ، وفى عصر سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ضاقت صدورهم بطيبة ذلك الخليفة الذى خلق قلبه من رحمة الله فاخترعوا له ذنوبا ، وما زالوا يكررونها على قلوبهم حتى صدقوها ، وتفننوا فى إذاعتها ثم استحلوا سفك دمه الحرام

فى الشهر الحرام . كما أن هذه اليد الآثمة لم ينج منه الإمام على رضى الله عنه أيضا فى عصره .

إن أهمية هذه الفترة جعلت الإمام إسماعيل فى عرضه للأحداث والمواقف يسير فيها على منهج قويم بعيدا عن ترديد الخلافات التى عفى عليها الزمن ، مبينا أن هؤلاء الخلفاء كانوا أسمى أخلاقا وأصدق إخلاصا لله وترفعا عن خسائس الدنيا ، رغم الأيدى الخبيثة التى عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه .

فقد درأ الإمام إسماعيل عن سيرة هؤلاء الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلما وعدوانا ، فعرض صورتهم على أنظار الناس نقية صادقة ، تحسن القدوة بهم ، وتطمئن النفوس إلى الخير الذى ساقه الله للبشر على أيديهم .

لقد اعتبر الإمام إسماعيل أن الطعن فى هؤلاء الصحابة طعن فى الدين الذى هم رواته ، وتشويه سيرتهم تشويه للأمانة التى حملوها ، وتشكيك فى جميع الأسس التى قام عليها كيان التشريع فى هذه الملة الحنيفية السمحة .

لقد سلك الإمام إسماعيل فى كثير من كتبه طريقة أهل الحديث وهى ظهور السند فى رواياته ، ولكنه فى هذا الكتاب قليلا ما كان يكتب بطريقة السند وظهوره ، وعندما يظهره كان يجعله فى صلب الكتاب ، وهذا أمر واضح فيه(١٠٩) .

وأحيانا يصرح بأسماء الكتب التى نقل منها بطريقة السند مثل قوله : أخبرنا سعيد بن أحمد الواحدى فى كتابه .... (١١٠)، وعندما نقل لنا الرسم الموضح لمواضع القبور الثالثة ، قبر النبى ﷺ ، وقبر سيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وقبر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه(١١١) .

وأحيانا يذكر المتن ثم يذكر السند فى نهايته فيقول : أخبرنا بذلك ...(١١٢)

كما يذكر أحيانا القول الراجح فى المسألة بأنه الصحيح والمشهور ، كجلوس فاطمة بعد موت أبيها(١١٣) .

كما راعى الإمام إسماعيل فى عرض سير الخلفاء الأربعة الترتيب على حسب سنهم وتوليهم الخلافة .

كثيرا ما يحذف سند الرواية ويذكر من سمع من النبي ﷺ [١١٤]. وكذلك في الحديث المرفوع للصحابي يذكر الصحابي دون السند الموصل إليه[١١٥] .

كثيرا ما يقول : قال أهل التاريخ ونجد من بين هؤلاء الطبري وخليفة بن خياط والواقدي وابن هشام .

كما يذكر لنا أهل اللغة في تفسير بعض المفردات اللغوية[١١٦] . كما يذكر لنا تعليق أهل العلم على خطب الخلفاء كخطبة أبي بكر[١١٧] . ويفسر الإمام إسماعيل أسماء البلدان والأماكن أحيانا[١١٨] .

ومن منهج الإمام إسماعيل الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والحديث النبوي الشريف والشعر العربي .

كما يذكر لنا بعض الفوائد اللغوية[١١٩] ، ويبين لنا بعض الأماكن من حيث الموقع الجغرافي[١٢٠] ، ويفسر لنا بعض القبائل وبطون العرب[١٢١] .

لقد كان للكتابة التاريخية في هذا العصر أسلوب خاص ، تمثل في كتابة الحوليات والتراجم والتواريخ المحلية ، وغلب على المؤرخين مصطلح الحديث والإسناد ، ولم يخرج الإمام إسماعيل عن هذا الإطار ، ويظهر ذلك واضحا في بعض رواياته في المخطوط ، وكذلك في كتابه سير السلف .

كما أنه استعمل في منهجه طريقة الإسناد الجماعي ، سواء من حفظ شيوخه أو من كتبهم إملاءا وغير إملاء .

كما اعتنى الإمام إسماعيل بتاريخ ذكر الوفاة للخلفاء الأربعة ، وتتبع في كثير من الأحايين الكتابة على نظام الحوليات فيذكر لنا أخبارا وفتوحات وغير ذلك سنة بعد سنة .

لم يبتدع الإمام إسماعيل اسلوبا خاصة للكتابة التاريخية ، وإنما جرى التدوين ضمن الأسلوب المرسل الذي كتب به معظم المؤرخين كتبهم منذ الإمام الطبري ، والإمام المسعودي ، والخطيب البغدادي ، وأبي نعيم الأصفهاني .

ولقد تميز أسلوبه الأدبي بالسهولة واليسر ، ولم يعن بالصنعة البيانية والألفاظ الصعبة ، بل يختار العبارة المناسبة ، وإن كان لابد من اللغويات فإنه يفسرها آخر الرواية .

كما أن له أسلوبه المتميز فى الصياغة التاريخية وكيفية عرضها ، فإنه يختلف عن الموارد التى نقل منها ، وأحيانا يتفق ، وقد دفعه هذا الأمر فى أغلب الأحايين إلى إعادة صياغة المادة التاريخية المنقولة عن المؤلفات السابقة عليه بأسلوبه الخاص ، ولم ير فى ذلك ضيرا ، طالما قد توخى الدقة والأمانة فى نقل معانى الأقاويل لاسيما تلك التى تؤثر فى قيمتها إعادة الصياغة .

مصادر الإمام إسماعيل :

اعتمد الإمام إسماعيل على ما رواه بأسانيد عن مشايخ عصره عن طريق السماع ، فيتلقى المؤلف أخباره سامعا من هذا وناقلا عن ذلك ، وكذلك عن طريق الإجازة فيما أجازه له مشايخه مثل أبى عمرو بن منده(١٢٢) .

كما اعتمد على نوع آخر من المصادر يعتبر نوع عام ، وهو معروف متداول بين أيدى طلبة العلم على مدى العصور ، كصحيح البخارى وصحيح مسلم وأمثالهما من كتب السنة .

كما اعتمد على نوع ثالث من المصادر ، يتمثل فى كتب تتصل بموضوع الكتاب ، منها ما هو متداول ، ومنها ما ليس متداولا ، كما يبدو أن اطلاع المؤلف على الكتب المصنفة قبله اطلاع واسع ، وأثره فى كتبه لا يقل عن أثره فى تحصيله الشخصى ، الذى اكتسبه من الرحلات ، ومن صور التحمل التى تلقى بها العلم ودأب فى تحصيله ، وكثيرا ما كان التلقى عن المشايخ يصحب بالكتابة والكتب ، وقد أثبت هذا النوع من المصادر فى متن الكتاب نفسه ، وتعد طريقة من طرق تسجيل المصادر المنقول منها ، كأن يقول على سبيل المثال : أخبرنا سعيد بن أحمد الواحدى فى كتابه .... " وذكر القاسم بن محمد فى كتابه "السنة"(١٢٣) .

أهمية الكتاب :

إن إخراج أى مخطوط إلى حيز الطباعة من كتب علماء الأمة السالفين ، الذين كانوا يتبعون خطة معينة فى التصنيف ، ويلتزمون بما يمكن أن يندرج الآن تحت ما يسمى بالمنهج العلمى ، هذا الإخراج فى ذاته يعد هدفا يجب أن يحرص عليه من يسر الله له أن يعمل فى هذا المجال .

إن استخراج مثل هذه الكتب يلقى الضوء على ماضى الأمة أو ينير السبيل أمام مستقبل أبنائها .

إن هذه الكتبَ التى ألفها العلماء لا يمكن أن تؤخذ مفردة مبتورة عن نسيجها الذى كانت فيه ، مع إخوانها من كتب كتبها العلماء شكلت بنيانا عقليا متكاملا ، فما من كتابٍ مخطوط إلا وهو لبنة فى هذا البنيان ، فإذا ما تتابع إخراج تراثنا على الطريقة العلمية الحديثة مطبوعا بمنهجها مفهرسا على طريقتها ، استطعنا أن نصل ما بين حاضرنا المتوثب وماضينا التليد ، فتبوأنا مكاننا الذى هو لنا والذى حل به أسلافنا فعلموا الدنيا وسبقوا العالم .

ومن أهمية هذا الكتاب أن كثيرا من المراجع التى رجع إليها الإمام إسماعيل واستمد منها مادته التاريخية قد ضاع فيمن ضاع من تراث الإسلام ، ومن هنا يعد كتاب الخلفاء الأربعة وعاء لكثير من النصوص والكتب التى ضاعت وبعثرتها يد الحدثان .

كما تكمن أهميته فى أنه يعكس لنا فترة تاريخية تعكس حالة من حالات الصراع الفكرى الذى كان سائدا خاصة فى فترة خلافة سيدنا عثمان وسيدنا على رضى الله عنهما .

كما أن قيمته تتجلى فى العرض الجيد الذى يحقق مواقف الخلفاء بعد وفاة النبى ﷺ وتبرئتهم مما نسبه إليهم الملاحدة والمفسدون والمضللون .

إن خروج مثل هذا الكتاب وهو يعرض لنا فترة خلافة كل من الخليفة الثالث والخليفة الرابع لإتحاف القراء ليصحح الكثيرون منهم ما تلقوه من معلومات خاطئة .

ولينجوا من الأفكار الخاطئة التى علقت فى أذهانهم بسبب الكتب التى يتداولونها ، والدروس التى يتلقونها فيتخذون من سيرة الصحابة مثلا عاليا يحتذونه ، وشحنة بل شحنات قوية تدفع بهم إلى الأمام ، إلى آفاق العظمة والمجد والسؤدد .

إن الخلفاء الأربعة وطبقتهم من أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم جميعا كانوا شموسا طلعت فى سماء الإنسانية مرة ، ولا تطمع الإنسانية بأن يطلع فى سمائها شمس من طرازهم مرة أخرى إلا إذا عزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الإسلام ويتأدبوا بأدبه من جديد ، فيخلق الله منهم خلقا آخر يعيش للحق والخير ، ويجاهد الباطل والشر ، حتى تعرف الإنسانية طريقها الحقيقى إلى السعادة .

ومما يزيد الكتاب أهمية احتفاظه بكلام القاسم بن محمد صاحب كتاب السنة حول ما حدث بين السيدة عائشة رضى الله عنهار وبين الإمام على رضى الله عنه ، وبين على رضى الله عنه وبين معاوية رضىَ الله عنه .

فقد ذكره القاسم بن محمد فى كتابه " السنة " فى الحرب التى كانت بين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وبين طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم ، اختصرته والذى عند أهل العلم فيما فعل أولئك أنهم تقاتلوا على التأويل ، ولم يقصد أحد منهم إلى باطل ، ولا أثر على دينه الذى فارق عليه نبيه ﷺ شيئا من أمر الدنيا ، بل كل مصيب عند نفسه .

أما على رضى الله عنه فرأى أنه إمام ذلك بأنه قد سبقت بيعتهم له ، فلا يجوز لهم عنده الخروج من بيعته إلا بإبانة حجة عليه أنه غير مستحق للخلافة ، وأما طلحة والزبير رضى الله عنهما فإنهما كانا رجلين من أهل الشورى ، اللذين جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليهم الأمر ، ثم رأيا أن لهما نقض البيعة ورد الأمر إلى الأصلح ، وأما عائشة رضى الله عنها فإنها تأولت أنها زوجة رسول الله ﷺ ولها حق الأمومة فحضرت الجماعة لتصلح بينهم وكل أراد الله بما قصد وفكر ، ومن دخل فيما شجر بينهم فقد تعرض لسخط الله عز وجل .

قال : وكان أولئك يقدمون على ما يقدمون عليه بعلم ، وقد عرفوا من حق الله وحق الرسول وحق القرآن ما لا ينازعهم فيه أحد ، وليس لأحد البحث عما فعلوه ، ولا الدخولُ فيما كان بينهم ، ومن فعل ذلك فقد تعرض لسخط الله .

قال أهل السنة : ومن السنة السكوت عما شجر بين أصحاب الرسول ﷺ ورضى عنهم .

ومن كلام القاسم بن محمد فيما كان بين على رضى الله عنه ومعاوية : أما على رضى الله عنه فقد حل فى الإسلام خطره وأنزله رسول الله ﷺ منزلته إياه وقدمه وولاه ، فما زال هو

كذلك حتى قبض الله الصديق ، وقام الفاروق فأقره على ما كان عليه وأنزله المرتبة التى كان يستحقها وفوض إليه الأعمال الجليلة ويشكره أهل عمله . ولا طعن عليه الناس فى شئ مما تولاه ولا أنكر عمر رضى الله عنه شيئا فى سياساته ولا تدبيراته . حتى قبض عمر رضى الله عنه ، وولى بعده عثمان رضى الله عنه فأقره على ما كان عليه زمان الخليفتين ، وزاده حظوة فلا يزداد على الأيام والليالى إلا جلالة . وإن رجلا يرضاه رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم الأمين حق والجليل كل الجليل ، فلما كان من قضاء الله فى عثمان ما كان وبايع الناس لعلى رضى الله عنه امتنع معاوية من بيعته ، وتأول أن قتلة عثمان فى حيزه وفى عسكره ، وأبى على رضى الله عنه قتاله بامتناعه من الدخول فيما دخل فيه الناس ، ورأى معاوية قتاله لكينونة المتهمين على دم عثمان فى ناحيته ، والذى عليه العلماء أن يحملوا أمور القوم على أوائل شأنهم فى أن ينكروا محاسنهم ، وسكتوا عما شجر بينهم ، وذلك هو الغرض اللازم لهم ويرون أن كل الدماء طاهرة لهم .

وقد قال النبى ﷺ : بحسب أصحابى القتل ، وروى عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها فى الآخرة عذاب ، إنما عذابها فى الدنيا والزلازل والبلايا والفتن .

ومن كلام القاسم بن محمد عن معاوية رضى الله عنه قال : معاوية لا يرد من فضل ولا حلم ولا شرف . وكان من صميم عبد مناف وخالصة قريش وله بأن السيادة فى الجاهلية والإسلام ، قدم على رسول الله ﷺ مهاجرا راعيا فى الإسلام ، فقبل رسول الله ﷺ هجرته وأكرمه إكرام مثله ، وعرف منزله ، وعظم خطره ، وكان أجل ما كان ، ولقد لحق بالله ، والمسلمون كل يوم من الإيمان والخير فى ازدهار ، والله عز وجل رؤوف بالعباد . انتهى كلام القاسم بن محمد .

وصف المخطوطة :

لم يكن بين أيدينا من نسخ هذا الكتاب فى تحقيقنا له سوى مخطوطة واحدة محفوظة بمكتبة (كوبرلى – باستامبول) " برقم ١١٣٨ تاريخ " كتبت خلال القرن السادس – السابع كما هو مدون ببطاقة بيانات المخطوط ، كتبه سبط الإمام إسماعيل ، وهو يحيى بن سعد الثقفى ، المكنى بأبى الفرج ، وقد ثبت ذلك فى أخر ورقة من المخطوط .

ولم أعثر له على نسخ أخرى فى أى مكان . ومدون فى الورقة الأخيرة لأحمد بن يحيى بن محمد بن عمر السهروردى الكاتب تعريفا فى ذى الحجة الحرام المبارك من سنة خمس وعشرين وسبع مائة .

والكتاب كله بلغ عدد { ٢٠١ ورقة } بمقياس ١٩× ١٥ عدد الأسطر ١٦ سطرا أما قسم الخلفاء الذى نحن بصدد تحقيقه فعدد أوراقه { ٤٦ ورقة } من الورقة { ١٥٥ } إلى الورقة الأخيرة { ٢٠٠ } .

وهى النسخة الوحيدة كما سبق أن ذكرت ، كاملة من المقدمة إلى الخاتمة . جاء فى الورقة الأولى من المخطوط الكبير في صفحة الغلاف ختمان أحدهما كبير مستدير والآخر صغير مربع .

أما الختم الكبير فمكتوب فيه " هذا ما وهبه الوزير أبو العباس أحمد بن الوزير عبد الله محمد ... بكوبرلى ... الله " أما الختم الصغير فغير واضح المعالم .

وقد كتب المخطوط بقلم معتاد الإعجام خال من الضبط ، والعناوين فيه بخط أكبر مما يليها

وفى نهاية الكتاب يقول الكاتب : قال الشيخ رحمه الله : هذا آخر ما حضرنى ذكره من الزجر عن الخوض ما يهيج الفتنة ويورث الشبهة ، والحث على الاقتداء بالسلف الصالح فى ذلك .

ومكتوب أيضا على لسان كاتبه : آخر كتاب المبعث والمغازى التى صنفها جدى الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل قدس الله روحه .

رحم الله من دعا لصاحبه بالجنة ، ولكاتبه سبط الملى يحيى بن محمود بن سعد المكنى بأبى الفرج . الحمد الله وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين .

الذي توفي عليه [illegible] ثم دفن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء ونزل في قبره
صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وشقران [illegible]
[illegible] وكان آخرهم عهداً به قثم بن العباس [illegible]
[illegible]
[illegible]
عن القاسم بن محمد قال دخلت على عائشة فقلت يا أماه اكشفي لي عن
قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة
مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء قال فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدماً وأبا بكر
[illegible] عند [illegible] النبي [illegible] وعمر [illegible] عند [illegible] النبي [illegible]
[illegible] النبي صلى الله عليه وسلم إلى القبلة وأبو بكر رضي الله عنه [illegible]
والذي عند رجلي النبي [illegible] عمر رضي الله عنه

قبر النبي صلى الله عليه وسلم

قبر أبي بكر رضي الله عنه

قبر عمر رضي الله عنه

فصل قال أهل التاريخ [illegible] أبو بكر الصديق رضي الله عنه [illegible] الناس [illegible]
[illegible] خطبة [illegible] قال الحمد لله أحمده وأستعينه على الأمر كله سره وعلانيته ونعوذ بالله
مما يأتي به الليل والنهار وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً

الصفحة التي بها بداية استخلاف عمر بن الخطاب

[illegible]

الصفحة التي بها هيئة قبر النبي ﷺ وقبر أبي بكر وقبر عمر رضي الله عنهما

[illegible]

الصفحة التي بها كلام القاسم بن محمد من كتاب السنة

الهوامش

١- صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٢ .

٢- الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ، ص ١٤٥ .

٣- براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة د. إبراهيم الشواربى ص ٢٠٨ .

٤- براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص ٢٠٧ .

٥- بدر الدين العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ص ١٧٣ .

٦- براون : تاريخ الأدب فى إيران ص ٢٢١ .

٧- القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١٤ ، ٤١٣ .

٨- براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص ٢٢٠ .

٩- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥٤/١ .

١٠- الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

١١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٦٧/١٠ .

١٢- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٨٩ .

١٣- براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص ٢٢٩ .

١٤- القزوينى : التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاوى ٣٠٢/٢ .

١٥- صدر الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٧ .

١٦- الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ٢٠٢ .

١٧- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٥٠ ، ٢٥٢ .

١٨- بدر الدين العينى : السيف المهند ص ١٧٥ .

١٩- صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٤ .

٢٠- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٣ .

٢١- براون : تاريخ الأدب فى إيران ص ٣٧٣ .

٢٢- د. أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ص ٢٠٤ .

٢٣- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢٠٦/١٠ .

٢٤- د. عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧٩ .

٢٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦١ .

٢٦- الذهبى : محمد بن أحمد بن عثمان : دول الإسلام ٢٧٢/١ .

٢٧- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٠ ، ٧١ ، وكارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٨٠ .

٢٨- د. حربى أمين سليمان : المؤرخ الإيرانى الكبير غياث الدين خواندمير ص ٢٤٨ .

٢٩- ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤/٤ .

٣٠- الذهبى : محمد بن أحمد بن عثمان : دول الإسلام ٢٧٢/١ .

٣١- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٩ .

٣٢- د. أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ص ٣٧٣ .

٣٣- السبكى : طبقات الشافعية ٣/ ١٣٧ .

٣٤- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ص ٢٨٣ .

٣٥- الطرطوسى : سراج الملوك ص ١٢٨ .

٣٦- د. أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

٣٧- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ص ٢٨٣ .

٣٨- السمعانى : الأنساب ٣/ ٤٠٨ .

٣٩- الداودى : طبقات المفسرين ١/ ١١٣ .

٤٠- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٧٥/١٠ .

٤١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢٠٨/١٠ .

٤٢- ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٧٦/٤ .

٤٣- الصفدى : الوافى بالوفيات ٩/ ٢٠٨ .

٤٤- التيمى : نسبة إلى بنى تيم ، وهم بطن من بطون قريش من بنى مرة بن كعب ، منهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ص ١٧٩ .

٤٥- الطلحى : نسبة إلى الصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله من جهة والدته بنت محمد بن مصعب بن عبد الواحد بن على بن أحمد بن محمد بن مصعب بن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله . الإمام إسماعيل التيمى : " سير السلف الصالحين " الورقة ٨٦ / ب .

٤٦- انظر ترجمته عند السمعاني : الأنساب ٣/٤٠٨ ، ٤٠٩ ، وابن الجوزي : المنتظم ١٠/٩٠ ، وابن نقطة : التقييد ١/ ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، والقزويني : التدوين في أخبار قزوين ٢/٣٠١ -٣٠٣ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١/٨٠ ، وابن الفوطي : تلخيص معجم الآداب في معجم الألقاب ٤ جـ قسم ٤ ص ٧٦٨ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٧ - ٢٩ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٨٠-٨١ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ ، ٢١١ ، والأسنوي : طبقات الشافعية ١/ ٣٥٩ - ٣٦١ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٢٣٣ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٣ ، وطبقات المفسرين ص ٨ ، وبغية الوعاة ص ١٩٩ ، والداودي : طبقات المفسرين ١/١٢٢ - ١٤٤ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/١٠٥ ، ١٠٦ .

٤٧- القزويني : التدوين في أخبار قزوين ٢/٣٠٣ ، والسمعاني : الأنساب ٣/٤٠٩ ، وابن الفوطي ٤ قسم ٤ ص ٧٦٨ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٧ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢١١ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٣ ، والداودي : طبقات المفسرين ١/١١٣ .

٤٨- الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨/٣٠٢ ، ٣٠٣ .

٤٩- هي عائشة بنت الحسن الوركانية ت ٤٦٦ هـ .

٥٠- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٤/٧١ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٨٢ .

٥١- الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٠/٨١ .

٥٢- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٩ ، واليافعي : مرآة الجنان ٣/٢٦٣ .

٥٣- ابن نقطة : كتاب التقييد ١/٢٥٢ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦/٢٧ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ ، والسمعاني : الأنساب ٣/٤٠٨ ، ٤٠٩ ، والذهبي : تذكرة الحفاظ ٤/٧١ .

٥٤- الصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ .

٥٥- انظر ترجمتهم عند السمعاني : الأنساب ٣/٤٠٩ ، ٦/١٨٩ ، ١٩٠ ، وابن الجوزي : المنتظم ٩/٦٤ والقزويني : التدوين في أخبار قزوين ١/١٤٨ ، والسبكي : طبقات الشافعية ٤/١٠٢ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٩/٢٠٨ ، ٢/١٠٥ ، والذهبي : العبر ٢/٣٤٣ ، ٣/٣٤٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٨/٦٢٠ ، ٩/٦٠٥ ، ١٠٣ ، ١٠٠ ، ١٥٨ ، ١٣١ ، ٢٠٢ و ٨١ ، ١٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٠/٨١ ، واليافعي: مرآة الجنان ٣/١٣٣ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٣/٣٨٣ ، ٤٠٥ ، ١٧٣ ، ٣٩٤ ، ٣٠٨ ، ٣٧٩ .

٥٦- السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٣ .

٥٧- انظر كثيرا من تلاميذه عند : ابن نقطة : كتاب التقييد ١/٢٥٢ ، وابن المستوفي : تاريخ أربل ٢/٢١٦ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٠/٨١ ، ٢١/٢٠ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، وتذكرة الحفاظ ٤/٧١ ، والعبر ٣/٦٠ ، ٦١ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٤ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/٢٣٩ ، ٢٥٥ .

٥٨- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٨٣/٢ .

٥٩- الداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٦٧/٥ .

٦٠- انظر ما نقله عن الإمام ابن قيم الجوزية في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص ٦٧ ، ٦٨ ، وكتاب الذهبي الذي اختصره الألباني مختصر العلو ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

٦١- السمعاني : الأنساب ٤٠٨/٦٣ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ .

٦٢- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٨/٢٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٠٦/٤ .

٦٣- السيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٤ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ .

٦٤- السيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

٦٥- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧١/٤ ، ٧٢ ، وسير أعلام النبلاء ٨٢/٢٠ .

٦٦- الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨٥/٢٠ ، والسمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٢ .

٦٧-السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٣ .

٦٨- ابن عساكر : تاريخ دمشق القسم الأول ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

٦٩- ابن نقطة : التقييد ٢٥٣/١ .

٧٠- ابن المستوفي : تاريخ أربل ١٣٧/١ .

٧١- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٥/٤ .

٧٢- الذهبي : مختصر العلو ، اختصار الألباني ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

٧٣- ابن قيم الجوزية : اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٦٧ ، ٦٨ .

٧٤- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ .

٧٥- الذهبي : العبر ٤٤٧/٢ ، وسير أعلام النبلاء ٨١/٢٠ .

٧٦- انظر مؤلفاته عند الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ ، وعند السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٨ .

٧٧- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٦ /٢٩ ، السيوطي : طبقات المفسرين ص ٤٦٤ .

٧٨- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٣/٤ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ١٤٠٩/٢ .

٧٩- الذهبي : العبر ٤٤٧/٢ ، والسيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ ، والبستاني : هدية العارفين ٢ /٢١١ .

٨٠- الأسنوي : الطبقات ٣٦٠/١ ، وحاجي خليفة ، كشف الظنون ٤٤٢/١ ، ١٧٣٢/٢ .

٨١- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٨/٢٦ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ١/١٢٣ .

٨٢- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢٧٣/٤ ، والسيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٤/١ .

٨٣- تم نشر هذا الكتاب بتحقيقنا طبعة دار الراية السعودية سنة ١٩٩٩ .

٨٤- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٣/٤ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٤/١ .

٨٥- السيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٤/١ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ٥٥٧/١ .

٨٦- السيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٤/١ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ٥٥٧/١ .

٨٧- حاجي خليفة : كشف الظنون ٦٣١/١ ، والبستاني : هدية العارفين ٢١١/٢ .

٨٨- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٣/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٨٤/٢ ، والداودي : طبقات المفسرين ١٤٤/١ ، والبستاني : هدية العارفين ٢١١/٢ .

٨٩- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٩/٢٦ ، السيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٤/١ ، والبستاني : هدية العارفين ٢١١/٢ .

٩٠- ابن العماد : شذرات الذهب ١٠٦/٤ ، والزركلي : الأعلام ٣٢٢/١ ، ٣٢٣ .

٩١- فهرس التصوف والآداب الشرعية بمعهد المخطوطات العربية ١٧٥/١ .

٩٢- فهرس مخطوط دار الكتب الظاهرية ، وضعه محمد ناصر الدين الألباني ص ١٩٢ .

٩٣- عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس ٦٥٧/٢ ، رقم ٣٥٧ .

٩٤- الألباني : محمد ناصر الدين : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص ١٩٢ .

٩٥- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤، السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٤٦٤ .

٩٦- السمعاني : الأنساب ٤٠٨/٣ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٩/٢٦ .

٩٧- السمعاني : الأنساب ٤٠٨/٣ .

٩٨- الذهبي : دول الإسلام ٥٥/٢ .

٩٩- السمعاني : الأنساب ٤٠٩/٣ ، وابن الجوزي : المنتظم ٩٠/١٠ ، وابن نقطة : كتاب التقييد ٢٥٢/١، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨٠/١١ .

١٠٠- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧١/٤ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٨١/٢٠ .

١٠١- الورقة الأولى من مخطوط المبعث والمغازي للإمام إسماعيل التيمي .

١٠٢- ابن الجوزى : المنتظم ١٠/٩٠ .

١٠٣- السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، تحقيق روزنثال ص ١٥٧ .

١٠٤- السخاوى : الجواهر والدر ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ص ٧٢٨ .

١٠٥- الذهبى : تذكرة الحفاظ ٤/٧٣ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٨٤ .

١٠٦- البستانى : هدية العارفين ٢٠/٢١١ .

١٠٧- د. شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ٢/١٢٧ .

١٠٨- الورقة الأولى من مخطوط المبعث والمغازى للإمام إسماعيل التيمى .

١٠٩- انظر ظهر الورقة (٢) وظهر الورقة (١٢) وظهر الورقة (١٦) من المخطوطة .

١١٠- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة .

١١١- انظر هامش الرسم والتخطيط بظهر الورقة (٢) بالمخطوطة .

١١٢- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة .

١١٣- انظر ظهر الورقة (٩) من المخطوطة .

١١٤- انظر ظهر الورقة (٢) من المخطوطة .

١١٥- انظر ظهر الورقة (٢) من المخطوطة .

١١٦- انظر وجه الورقة (٥) ووجه الورقة (٩) وظهر الورقة (١٠) ووجه الورقة (١٣) من المخطوطة .

١١٧- انظر ظهر الورقة (٤) من المخطوطة .

١١٨- انظر ظهر الورقة (٩) من المخطوطة .

١١٩- انظر وجه الورقة (١١) وظهرها ، وظهر الورقة (١٢) من المخطوطة .

١٢٠- انظر وجه الورقة (١٢) وظهرها ، والورقة (١٠) من المخطوطة .

١٢١- انظر الورقة (٢٩) من المخطوطة .

١٢٢- انظر ظهر الورقة (٤٥) من المخطوطة .

١٢٣- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة ، وكذلك ظهر الورقة (٤٤) .

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن أيبك : صلاح الدين خليل ت ٧٦٤ هـ : الوافى بالوفيات ، الطبعة الثانية ، دار النشر فرنزشتاين،١٩٨٢ .

٢- ابن الأثير : على بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠ هـ : الكامل فى التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت١٩٧٩ .

٣- د. أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، طبعة دار البحوث العلمية ، الكويت١٩٧٥ .

٤- الأسنوى : جمال الدين عبد الرحيم ت ٧٧٢ هـ : طبقات الشافعية ، تحقيق عبد الله الجبورى ، طبعة بغداد سنة ١٣٩٠ هـ .

٥- الأصفهانى : الفتح بن على بن محمد البندارى : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، طبعة دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠ .

٦- براون : إدوار جرنفيل : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة د. إبراهيم الشواربى ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٤ .

٧- البستانى : إسماعيل باشا البغدادى ت ١٣٣٩ هـ : هدية العارفين ، طبعة وكالة المعارف الجلية استامبول ، ط ٣ لسنة ١٩٥١ م .

٨- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٩ هـ .

٩- ابن جبير : محمد بن أحمد ت ٦١٤ هـ : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ، طبعة مكتبة مصر سنة ١٩٩٢ .

١٠- ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ت ٥٢٧ هـ : المنتظم ، طبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٥٧ هـ .

١١- حسنين : د. عبد النعيم محمد : سلاجقة إيران والعراق ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ .

١٢- الحسينى : صدر الدين أبى الحسن على بن ناصر بن على ت ٥٧٥ هـ : أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح محمد إقبال ، من منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٤ .

١٣- خليفة : حاجى خليفة ت ١٠٦٧ هـ : كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون ، طبعة وكالة المعارف الجلية استامبول سنة ١٩٤١ .

١٤- الداودى : محمد بن على بن أحمد ت ٩٤٢ هـ : طبقات المفسرين ، تحقيق على محمد عمر ، نشر مكتبة وهبة ، مركز تحقيق التراث بدار الكتب ، بدون تاريخ .

١٥- الذهبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ٧٤٨ هـ : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير ، تحقيق لجنة دار الغد العربي ، طبعة دار الغد العربي ، القاهرة ١٩٩٦ .

وتذكرة الحفاظ ، الطبعة الثانية ، دائرة المعارف النظامية ، الهند ١٣٣٣ هـ .

ودول الإسلام ، تحقيق فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٧٤ .

وسير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت١٩٨٥ .

والعبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد السعيد بسيوني ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٦- الراوندي : محمد بن علي بن سليمان (ت) أوائل القرن السابع : راحة الصدور وآية السرور ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد الصياد ، طبعة القاهرة ١٩٦٠ .

١٧- السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ٧٧١ هـ : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو ، ومحمود محمد الطناحي ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، مصر١٩٦٤

١٨- السخاوي : محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٩ هـ .

والجواهر والدرر ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ، ترجمة صالح العلي . طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٩- سليمان : د. حربي أمين : المؤرخ الإيراني خواندمير ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

٢٠- السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢ هـ : أدب الإملاء والإستملاء ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٨١ .

والأنساب : طبعة وزارة المعارف ، الهند سنة ١٩٦٣ .

٢١- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، طبعة مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

وتاريخ الخلفاء ، طبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٩ .

وطبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، طبعة مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة ، بدون تاريخ .

وطبقات المفسرين ، طبعة ليدن ، بدون تاريخ .

٢٢- الطرطوسي : أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسي ت ٥٢٠ هـ : سراج الملوك ، طبعة المطبعة الخيرية ، القاهرة بدون تاريخ .

٢٣- عباس إقبال الاستيامي ت ١٣٧٦ هـ : تاريخ إيران بعد الإسلام ، نقله عن الفارسية ، د. محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة القاهرة ١٩٨٩ .

٢٤- ابن عساكر : الحافظ أبو القاسم على بن الحسن ت ٥٧١ هـ : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق الدكتور شكرى فيصل ، طبعة سورية ، بدون تاريخ .

٢٥- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ١٠٨٩ هـ : شذرات الذهب ، طبعة (٢) دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ .

٢٦- العينى : بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة ، طبعة دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧ .

٢٧- ابن الفوطى : أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد ت ٧٢٢ هـ : تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب ، تحقيق د. مصطفى جواد ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى سنة ١٩٦٧ .

٢٨- القزوينى : زكريا بن محمود ت ٦٨١ هـ : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبعة دار صادر ، بيروت بدون تاريخ .

٢٩- القزوينى : عبد الكريم بن محمد الرافعى من أعلام القرن السادس : التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق الشيخ عزيز الله العطاردى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ .

٣٠- القلقشندى : أحمد بن على بن أحمد ت ٨٢١ هـ : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٤ .

٣١- ابن القيم أبو عبد الله بن أبى بكر ت ٧٥١ هـ : اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، طبعة دار الفكر مصر ، سنة ١٤٠١ هـ .

٣٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .

٣٣- ابن كثير : الحافظ إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ : البداية والنهاية ، تحقيق نخبة من الأساتذة ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٥ .

٣٤- كحالة : عمر رضا : معجم المؤلفين ، طبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٥٧ ، وطبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٣ .

٣٥- ابن المستوفى : أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمى ت ٦٣٧ هـ : تاريخ أربل ، تحقيق سامى بن السيد الصقار ، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق سنة ١٩٨٠ .

٣٦- ابن نقطة : محمد بن عبد الغنى ت ٦٢٩ هـ : التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد ، طبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٨٣ .

٣٧- اليافعى : أبو محمد عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨ هـ : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٠ م .

د. نعمة علي مرسي محمد(*)

المستوفى والاستيفاء فى العصر السلجوقى

تمهيد :

تعددت الوظائف الإدارية فى الدولة السلجوقية ، ومنها وظيفة المستوفى(١) ، التى تلى مكانته الوزير فى الدواوين الحكومية ، ومهمته أشبه بوظيفة وزير المالية فى وقتنا الحاضر . وتشمل إدارته ديوان الاستيفاء والإشراف على تنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها(٢) ، فالمستوفى موظف من موظفى الأموال بالدولة ، وعليه التنبيه على ما فيه مصلحتها من استخراج الأموال ونحو ذلك(٣) .

ومن أهم الخطوات المتبعة فى تعيين المستوفى فى رئاسة ديوان الاستيفاء صدور مرسوم من السلطان القائم فى الحكم يحدد فيه المهام التى يقوم بها المستوفى ، كالمرسوم الصادر "لأبى العلاء صاعد بن حسين المستوفى" فى عهد السلطان "سنجر"(٤) ، والمرسوم الصادر فى شوال سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٧ م ، فى عهد السلطان أرسلان شاه ، بتعيين " نظام كيخسرو بن مجد الدين " فى وظيفة مستوفى(٥) .

أدرك السلاجقة منذ وقت مبكر أن الواجب يحتم عليهم أن يبذلوا جهدهم للمحافظة على مكاسبهم والإبقاء على الصرح الذى شيدوه ، فرأوا أنهم فى حاجة إلى إقرار نظم إدارية ،

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة المساعد بكلية دار العلوم – جامعة المنيا .

وإلى تعيين موظفين وعمال ينجزون حوائجهم وينظمون متطلباتهم ويساعدونهم فى الاحتفاظ بدولتهم الفسيحة ؛ لذا احتفظوا بنفس التشكيلات[٦] ، كما كانت سائدة فى المشرق الإسلامى ، ولم يستحدثوا وظيفة المستوفى ، بل عرفت قبلهم فى العصر السامانى[٧] والغزنوى .

وفى حقيقة الأمر فإن السامانيين فى بداية عهدهم استمدوا النظم الإدارية ورسوم البلاط من الخلافة العباسية وغيرها من البلاد ونقلوها إلى دواوينهم ، وقد أشار عباس إقبال[٨] إلى أن الوزير أبا عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى وزير الأمير نصر بن أحمد السامانى[٩] ، أرسل الكتب إلى كل بلاط وديوان لكئ تنسخ له نسخة مما لديها من مرسوم البلاط والديوان فأرسل إلى بلاد الروم والتركستان والهند والصين والخلافة العباسية .... وغيرها ، ثم نظر فى تلك النظم وأخذ بأفضلها ، وأمر بأن يسير كل أهل البلاط والديوان فى بخارى وفق تلك المراسيم .

ومن ذلك نستخلص أن ديوان الاستيفاء ونظمه كان خلاصة تجارب سابقة ، وأن الفضل يعود للسامانيين ووزيرهم فى نقله إلى المناطق الشرقية من الخلافة العباسية . وقد انتقلت نفس التشكيلات الإدارية من السامانيين إلى خلفائهم الغزنويين والسلاجقة وملوك خوارزم ، وظلت حتى عهد المغول . وكانت طبقة المستوفيين تتوارث حفظ وتنفيذ هذه الأوضاع جيلا بعد جيل[١٠] .

أما عن أشهر المستوفين فى العصر السامانى ، فكان أبو الحسين المزنى ، الذى عمل فى بداية حياته مستوفيا فى ديوان الأمير نوح السامانى ، وأثبت جدارة فائقة فى إدراة أمور الدولة ، وترقى إلى منصب الوزارة بعد استشهاد الوزير أبى الحسن العتبى[١١] .

كذلك اشتهر عبد الرحمن الخازن صاحب الاستيفاء فى عهد الأمير نوح السامانى ، وهو الذى قام بدور الوساطة والصلح بين هذا الأمير والثائر عليه أبى على سيمجور . وتميز هذا المستوفى بالميل إلى الفكر والثقافة ، فصنف عددا لا بأس به من الكتب من ضمنها كتاب سماه " زيج الصفائح " فى العلوم الرياضية[١٢] .

كذلك عرفت وظيفة المستوفى فى العصر البويهى ، إذ عهد عضد الدولة بن بويه[١٣] إلى مسكويه أبا على الخازن بذلك المنصب ، فسير شئون الديوان على خير وجه ، وألف مناظرات ومحاضرات وتصنيفات فى شتى علوم المعرفة[١٤] .

أما فى العصر الغزنوى فقد عين السلطان محمود بن سبكتكين فى منصب الاستيفاء أحمد ابن حسن الميمندى ، الذى تدرج فى عدد كبير من الوظائف الديوانية ، فأبدى مهارة فائقة فى إدارة شئون الجند وتنظيم جمع أموال خراسان[١٥] ، كما عين السلطان محمود فى ديوان الاستيفاء بغزنه[١٦] ، طاهر المستوفى[١٧] ، الذى استمر فى الوظائف الديوانية حتى رقى إلى منصب الوزارة فى عهد السلطان مودود[١٨] .

وفى بعض عهود سلاطين الغزنويين عين مستوفى خاص على الأقاليم الكبرى ، فأسند السلطان محمود إلى أبى إسحاق مهمة الاستيفاء على إقليم خراسان[١٩] ، وأسند السلطان مسعود الغزنوى على بلاد الهند مستوفيا يسمى سعد سليمان ، وعلى خراسان مستوفيا أخر[٢٠] ، وفى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨-١٠٣٩ م أقر السلطان على غزنة مستوفيا هو أبو منصور المستوفى ، أوكل إليه مهمة إعداد جهاز وقائمة العرس لابنه الصغير مردان شاه الذى لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره على ابنة الأمير بكتغدى[٢١] ، وقد لعب أبو منصور المستوفى هذا دورا بارزا فى حياة السلطان مسعود عندما قرر الذهاب إلى بلاد الهند عقب هزيمته فى موقعة داندانقان أمام السلاجقة ، فقام بتحميل جميع خزائن غزنه وما بها من الذهب والجواهر على جمال فى سرية تامة ونقلها إلى الهند[٢٢] . وفى عهد السلطان مودود تولى رئاسة ديوان الاستيفاء فترة قصيرة رجل يدعى طاهر المستوفى[٢٣] ، الذى ترقى بعد ذلك إلى منصب الوزارة .

وممن تولى منصب الاستيفاء فى الدولة الغزنوية أيضا أبو الحسن الخازن فى عهد سبكتكين[٢٤] وتكين الخازن فى عهد محمود[٢٥] ، وقد صادره السلطان مسعود وحصل منه على أموال طائلة[٢٦] ولم تكن هذه الحالة الأولى التى تشدد فيها السلطان على المستوفى ، فقد كان المستوفى دائما موضع محاسبة ويعاقب إذا أخطأ . والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما أوقعه السلطان محمود على أحمد بن حسن الميمندى من عقاب فقد صادر أمواله وعزله ، وأغرمه ما قيمته ألف ألف دينار[٢٧] ، كما عوقب أبا العباس الفضل بن أحمد ، الذى كان يتولى الشئون المالية فى الدولة إلى جانب الوزارة ، نتيجة لعجزه عن دفع المبالغ المعتادة لخزانة الدولة ، وقيل إنه دخل السجن بمحض إرادته ، وظل فيه حتى وفاته سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣م[٢٨] .

١- الشروط الواجب توافرها فى المستوفى :

اهتم سلاطين السلاجقة بالاحتفاظ بحق تعيين المستوفى فى السلطنة ، وكذلك عزله من منصبه ، ولما كان من حق الوزير الأعظم الإشراف على الدواوين باعتباره منفذا لسياسة السلطان السلجوقى ، فإن ديوان الاستيفاء كان من أهم مهامه . ومما يجدر الإشارة إليه أن تعيين المستوفى فى منصب رئيس ديوان الاستيفاء ، كان لابد وأن يصدر به مرسوم من السلطان ، وهناك عدد من المراسيم السلطانية منها مرسوم باسم " نظام الدين كنجرو بن مجد الدين " بتاريخ شوال سنة ٥٦٣ هـ/ سنة ١١٦٧ م(٢٩) ، ومرسوم آخر أصدره السلطان سنجر باسم " زين الدين أبو العلاء صاعد بن حسين " مستوفيا على مدينة مرو(٣٠).

وقد حدد هذان المرسومان أهم الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب ، بأن يكون معروفا بحسن السيرة والسداد فى الرأى ، على قدر كبير من التدين والخلق الكريم ، عارفا بأسرار المعاملات المالية ونظمها ، لا يفوته ضبط الجزء من حساباتها ، موصوفا بأنواع من الكفاءات والخبرات التامة بالشئون المالية وأصول التعامل بها ، خاصة فى أعمال الضرائب ويفصل المحاسبات ويجلبها ويراجعها ، عارفا بضبط الخراج والزيادات والعلاوات(٢٥).

ومن الواضح أن تعيين المستوفى يخضع لنظم معينة من التوقير والاحترام والخلع السلطانية ، وجلوس المجلس العام تقديرا وتعظيما له ، مع إلزام عمال الوزارة بمراعاة قدر المستوفى واحتشامه ، وإدراك منزلته الكريمة ، وأن يرفعوا إليه فى كل شأن يتعلق بديوان الاستيفاء مع توقير مرسومه ، وذلك بأمر من السلطان نفسه(٣٢) .

هذا بالإضافة إلى ارتباط عمله بالشئون المالية والحسابات وضبط الدخل والمنصرف ، وحفظ القوانين وتدبير الدواوين ، وجمع الضرائب وتنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها ، وتحصيل الخراج لذا كان عليه أن يكون على رأس الديوان ويتولى رئاسته(٣٣) ، وأن عليه تعيين نوابه ومحاسبتهم إذا أخطئوا(٣٤) .

٢- مهام المستوفى واختصاصاته :

تعددت مهام المستوفى واختصاصاته فى الدولة السلجوقية ، فشملت العديد من الأعمال التى أوكلها السلاطين لهم ، ما بين الإشراف على الخراج وتوزيع أرزاق الجند ، ومصاحبة الجيش فى تحركاته ، والقيام بالإنشاءات الخيرية كالمدارس وغيرها ، ومن أولى هذه الاختصاصات الإشراف على خزائن الدولة ، ولذا لقب بالخازن أو خزانه دار ، فقد عرف عن السلاطين السلاجقة أن لهم خزانتين دائما ، إحداها الخزانة الأصلية ، والأخرى خزانة الإنفاق، وكان معظم المال يوضع فى الخزانة الأصلية ، أما خزانة الإنفاق ففيها الشئ اليسير ولم يكن السلطان يأمر المستوفى بالإنفاق من الخزانة الأصلية إلا إذا ألجأتهم الضرورة إلى ذلك(٣٥) .

وقد اشتملت الخزائن فى العصر السلجوقى على العديد من الأشياء القيمة ، مثل السلاح بأنواعه والخيول الأصلية ، والغلمان والجوارى ، بالإضافة إلى الأموال والجواهر والتحف الثمينة وغيرها من الأشياء(٣٦) .

ومن متطلبات منصب المستوفى الوظيفية المحافظة على خزائن الدولة ، وإضافة الأموال إليها ، ففى عهد السلطان ملكشاه(٣٧) قام أبو الرضا المستوفى فى أثناء محاسبة الملك "قاوورد" وحبسه فى خيمة الأمير " سوتكين " بلور بارز عندما دخل عليه مطالبا أياه بمفاتيح الخزائن وعلامات الدفائن ، حتى استخلصهما منه قبل قتله(٣٨) .

وكان من واجب المستوفى الاهتمام بالخزانة فى أثناء تحرك السلاطين من مكان إلى آخر ومصاحبتهم ، حتى يكون تحت يده ما يطلب من أموال ، فنرى السلطان ألب أرسلان يهتم أثناء تحركه من خراسان إلى العراق وبالعكس بالاستعانة بأموال خزائنه ، حتى يكمل النقص فى استعدادات جيشه وأرزاق جنده(٣٩) .

وعندما فرض ألب أرسلان على الإمبراطور " رومانوس ديوجين " - عقب انتصاره فى موقعة ملازكرد- دفع جزية كبيرة للمسلمين تقدر بحوالى ٣٦٠ ألف دينار سنويا ، بالإضافة إلى فدية عن الإمبراطور - الذى أسر فى الحرب - تبلغ مليونا ونصف المليون دينار ، قدم رسول الإمبراطور بأموال ناء بثقلها عمال الاستيفاء ، واغتص بحسابها ديوان الاستيفاء من كثرتها(٤٠) .

ويبرز بوضوح دور المستوفى فى الاهتمام بالخزائن وجمع الأموال بها ، وضبط حساباتها عندما قام الخازن فى عهد ملكشاه بجمع عدد كبير من الخزائن على مدى سنتين ، تقدر بأربعين خزنة ، جعل لكل خزنة صنف لا يشبهه الآخر من جميع أنواع الجواهر والأوانى الذهبية والفضية والأقمشة المثمنة الملوكية(٤١) .

وفى أثناء الحروب كانت الخزائن تعد هدفا حربيا يسهل الاستيلاء عليه فى حالة الانتصار ويظهر ذلك بوضوح عند هزيمة السلطان سنجر على يد الخطا(٤٢) فإن علاء الدين أتسر بن محمد خوارزم شاه انتهز الفرصة ودخل مرو عاصمة السلطان عنوة ، واستولى على خزائنه ونقلها إلى خوارزم(٤٣) . فلما أطلق سراح سنجر وعاد إلى الحكم ، زحف على علاء الدولة وأعاد خزائنه ، وقد قيل أنها كانت بنفس الختم آلسنجرى(٤٤) ، مما يدل على أن السلاطين السلاجقة كانوا يختمون بخاتمهم الخاص على صناديق الأموال والجواهر .

ومن المهام الموكلة للمستوفى ، والتى اضطلع بها وغلبت على غيرها من الاختصاصات مرافقة تحركات الجيوش وتنقلاتهم ، وذلك لتقديم الإنفاق وتوزيع الأرزاق والمرتبات على الجند، وبناء على ذلك فإن المستوفى لتواجده فى صفوف الجيش فربما يقع أسيرا بين يدى الأعداء ويضطر لفداء نفسه بالأموال ، ففى سلطنة طغرل بن محمد طير ، قامت الحرب بينه وبين الملك داود عند مدينة همذان(٤٥) ، فأسر صفى الدين المستوفى ، وفدى نفسه بمبلغ مائتى ألف دينار ، وذلك فى رمضان سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م(٤٦) .

ومما يؤكد صحة قيام المستوفى ونائبه بمرافقة جيوش السلطان فى تحركاته العسكرية ما حدث فى سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ، من مسيرة رئيس ديوان الاستيفاء رضى الدين أبو سعد الخوافى ، ونائبه كمال الدين أبو الريان فى صحبة جيش السلطان محمد لمحاصرة بغداد فى عهد الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى(٤٧) .

ولا يفهم من كلامنا السابق أن اصطحاب المستوفى ونائبه برفقة الجيش كان بغرض المشاركة فى العمليات الحربية والقتال ، وإنما كان بهدف توزيع الأرزاق وترتيب الإنفاق على الجيش وخدماته ، فقد كان يثبت أسماء الجنود فى الجرائد الديوانية ، ويخصص لكل منهم رزقا معلوما ، ففى عهد ملكشاه وزع على قادة الجيش إقطاعات معينة فى سائر بلاد المملكة ، حتى إذا نزلوا بأيه ناحية منها كانت نفقاتهم وعلوفة دوابهم معدة مهيأة ، وقد بلغ عدد أسمائهم فى الديوان ستة وأربعين ألف فارس ، وانحصرت مهمة المستوفى هنا فى الإشراف على توزيع هذه الأرزاق(٤٨) .

وكثيرا ما غضب قادة الجيوش والأمراء على المستوفى عندما يكون شحيحا بخيلا معهم فى توزيع مؤنتهم وأرزاقهم ، مما يترتب عليه عزله أو قتله ، ففى سلطنة مسعود سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م ، تولى منصب رئاسة الاستيفاء كمال الدين محمد بن على الخازن ، الذى اتصف بالتهور والبخل ، وكان لا يترك الأمراء يتصرفون بحريتهم ، ولا يراعى جانبهم ، ويعطى الجند مؤنا بقدر وحساب ، ومن ثم اشتكى الأمراء للأتابك قراسنقر ، الذى تدخل عند السلطان مسعود ، فدارت الدائرة على كمال الدين وانتهت حياته بالقتل وقطع يده ورأسه وإرسالها إلى الأتابك قراسنقر(٤٩) .

وفى كثير من الأحيان عند تأخر الأرزاق على الجند ، يحدث اضطراب بينهم ، ويصل الأمر إلى الهجوم على الخزانة السلطانية ، كما حدث ذلك فى رئاسة مجد الملك المستوفى لديوان الاستيفاء فى عهد السلطان بركيارق بن ملكشاه(٥٠) .

ومن اختصاصات المستوفى أيضا تقديم الهبات والعطايا بأمر من السلطان للأمراء والعلماء والرسل ، ففى عهد ملكشاه ، قام أبو سعد محمد بن منصور المستوفى ، بتقديم جائزة سنية للشاعر أبو جعفر منصور(٥١) ، كما أمر السلطان ملكشاه خازنه بتوزيع العطايا والخلع على ستمائة زعيم من أمراء البلاد ، تقربا ومودة ، مما يدل على امتلاء الخزائن بالأموال فى ذلك الوقت(٥٢) .

وفى بعض أوقات الضعف كان المستوفى يتدخل فى شئون توزيع الميراث فقد قرر مجد الملك القمى المستوفى فى عهد محمود بن ملكشاه وأمه تركان خاتون أن يهب بركيارق من خزانة الدولة مبلغ خمسمائة ألف دينار من ميراث أبيه ، حتى يفك حصار أصفهان ويرحل عنها(٥٣) .

وفى عهد السلطان سنجر قام رئيس ديوان الاستيفاء بتنفيذ أوامر السلطان بتوزيع العطايا ، التى بلغت سبعمائة ألف دينار من العين ، وألف ثوب من الأطلس الأحمر وغيرها من الخيل والخلع ، وكان المستوفى فى ذلك الوقت هو ظهير الدين الخازن(٥٤) .

ومن المهام الموكلة للمستوفى الإشراف على نفقات بناء المؤسسات الخيرية فى الدولة ، كبناء المدارس والأربطة والمساجد وغيرها ، فقد قام شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى المستوفى فى عهد ملكشاه ببناء مدرسة كبيرة فى مدينة مرو ، وأوقف عليها كتبا نفسيه ، وبنى أربطة فى المفاوز(٥٥) .

وقد تعدت سلطة المستوفى شرف الملك أبو سعد الإشراف على بناء المؤسسات الخيرية فى حاضرة السلطنة ، إلى الإشراف على تشييد مبان فى حاضرة الخلافة العباسية نفسها ، فقد قام ببناء مدرسة كبيرة لأصحاب المذهب الحنفى بباب الطاق ببغداد على مقربة من قبر الإمام أبى حنيفة النعمان(٥٦) ، كما أقام مشهدا على القبر ، ولما فرغ المستوفى من تلك العمارة ، دعا العلماء والأعيان لمشاهدة هذه المنشآت المعمارية ، فأنشد الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياض الشاعر أبيات منها :

ألم تر أن العلم كـــان مبـــددا   فـجـمـعـه هذا المغيب فى اللحـد(٥٧)

ومما يسترعى النظر أن هذا المستوفى وصل إلى درجة كبيرة من الثراء ، والتنعم فى مطعمه ومشربه ومركبه ، حتى أنه كان يشرب ماء خوارزم بأصفهان ، ويزعم أنه يمرئه وأنه عليه نشأ ، وكان يأكل حنطة مرو ببلاد الشام ، ولا يبخل على نفسه بأجود الأطعمة فيجلبها من مواطنها الأصلية إلى أى مكان يكون فيه . وفى آخر أيامه ترك العمل فى ديوان الاستيفاء، ولزم قصره ، فكانوا يرجعون إليه فى بعض أمور الدولة المالية ، حتى توفى فى مدينة أصفهان فى المحرم من سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧١ م(٥٨) .

كذلك قام المستوفى تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فى سلطنة ملكشاه ببناء مدرسة بباب أبرز ببغداد فى سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م – قبل أن يصل إلى منصب الوزارة – خصصها لأصحاب المذهب الشافعى ، وأطلق عليها اسم المدرسة التاجية نسبة إلى اسمه(٥٩). وقد قيل إن تاج الملك أبو الغنائم ابتاع عدة أماكن كبيرة مثل دار الهمام وما يليها بقصر بنى المأمون ، ودار ختلع أمير الحاج ، لكى يقيم عليها تلك المدرسة ، وقام بتشييدها وعمارتها شخص يدعى أبو طاهر بن الأسباغى(٦٠) ، وعلى الرغم من أعمال هذا الرجل الخيرية إلا أنه قتل فى عهد بركيارق سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م نتيجة تدخله فى الصراع القائم بين الأخوين محمود وأمه تركان خاتون وبركيارق وأمه زبيدة خاتون(٦١) .

أما عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد المستوفى فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه فقد شيد بيمارستانا – مستشفى – متنقلا ، يشتمل على الآلات الطبية والأدوات والخيم والأطباء المرافقين . وكان هذا البيمارستان مخصصا لجند السلطان وقادته ، ويكون المستوفى مسئولا أمام السلطان عن أى نقص فى أدواته وأعماله(٦٢) . ومن جملة أعمال هذا المستوفى المعمارية بناء ملجأ للأيتام فى بغداد ، ورصد الأوقاف عليه وتخصيص من يكفل الأيتام حتى

يبلغوا الحلم ، فقد قام عزيز الدين المستوفى بتقرير نفقة هؤلاء الأيتام فى ديوان الاستيفاء وعمل ما يلزم لتجهيز أماكن إقامتهم ومعيشتهم ، وأحضر المشايخ لتدريسهم الأدب وحفظ القرآن وغيرها من العلوم(٦٣) .

كذلك قام معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاش المستوفى فى سلطنة محمود بن محمد بن ملكشاه الذى انتقل إلى خراسان في بلاط السلطان سنجر ببناء المدارس والأربطة والمؤسسات الخيرية فى عدة أقطار ، وأوقف عليها القرى العامرة والمزارع الوافرة التى اشترى معظمها من ماله الخاص(٦٤) .

ومن جملة اختصاصات المستوفى أن يكون سفيرا ورسولا من قبل السلطان إلى دار الخلافة ببغداد ، لنقل الهدايا والرسائل ، من ذلك أن أبا سعد محمد بن منصور المستوفى فى عهد السلطان ألب أرسلان فى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦ م قام بحمل هدايا قيمة منها مصحف جليل وياقوتة نادرة للخليفة بالعراق(٦٥) .

ومن مهامه أيضا القيام بتقديم بيانات بالأموال المتوافرة ووجوه إدخالها وإخراجها ، ويظهر هذا بصورة واضحة عند عزل أو تعيين أحد رجالات الدولة كالوالى أو الوزير أو من فى منزلتهم(٦٦) . وعندما أساء السلطان محمد بن ملكشاه الظن بمختص الملك الكاشى ، أمر بمصادرة أمواله وعزله ، وأسند إلى محمد الجوزجانى مهام منصبه ، لذا لابد من جرد هذه الأموال وعدها ، وكتابتها فى سجلات ديوان الاستيفاء(٦٧) .

وفى مقدمة مهام المستوفى واختصاصاته مصادرة أموال المغضوب عليهم من الولاة والوزراء والأمراء ، ومنحه سلطة تقصى الحقائق والتجسس على ذوى الأمر ففى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م ، عهد السلطان ملكشاه إلى مستوفيه بتقصى الحقائق نتيجة لتجمهر عريف الصناع والفعلة ومن معهم من العمال أمام دار الخلافة ، نتيجة لما تعرضوا له من مصادرات من قبل والى مدينة " واسط " المسمى ابن رزق ، وعندما اتضح صدق أقوالهم ، قام المستوفى بمصادرة أموال الوالى ومعاقبته بالعزل عن ولايته ورد مال الصناع إليهم(٦٨) .

كذلك قام صاحب الاستيفاء المسمى أبو القاسم بن الفقيه فى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بمصادرة أموال وزير بغداد المعزول المسمى بأبى القاسم على بن جهير ، وأحصى ما بداره من أموال وأمتعة ، وأدخلها إلى ديوان الاستيفاء(٦٩) .

وأوكل إلى المستوفى مهمة الإشراف على شراء غلمان السلطان والإشراف على تدريبهم وإعدادهم للمهام المنوطة إليهم ، فقد أمر السلطان سنجر صاحب الاستيفاء المسمى ظهير الدين عبد العزيز بشراء غلام بمبلغ معلوم ففعل(٧٠) .

ومن المهام الرئيسية للمستوفى ونوابه فى الدولة السلجوقية الإشراف على إعداد جهاز العروس ومستلزمات الأفراح ، وإعداد بيت الزوجية ، خاصة إن كان هذا العرس يخص أحد أبناء أو بنات السلطان ، وقد انتقلت هذه المهمة من الدولة الغزنوية إلى السلاجقة ، فإننا نرى قيام أبى منصور المستوفى فى عهد مسعود الغزنوى بتجهيز متطلبات جهاز الأمير مردانشاه على ابنة الأمير بكتغدى ، وإعداد قائمة بجهازهما ، اشتملت على أربعة تيجان ذهبية مرصعة بالجواهر ، وعشرين طبقا من الذهب فيها فواكه من مختلف أنواع الجواهر ، وعشرين صندوقا للمغازل من ذهب مرصع بالجواهر ، ومكنسة من الذهب نظمت أليافها باللؤلؤ وغيرها من الأمتعة(٧١) .

وفى العصر السلجوقى قام عزيز الدين المستوفى بإعداد جهاز عرس ابنة السلطان سنجر ابن ملكشاه على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٧٢).

وعند حدوث خلاف بين العروسين أو وفاة أحدهما كان يخشى من المستوفى الذى قام بإعداد الجهاز لأنه أعلم بما حوى ، فيتعرض للعقاب أوالقتل نتيجة لذلك ، فعندما توفيت ابنة سنجر ، طالب أبوها بجهازها ، وما حملت معها من أنواع التحف والجواهر ، فرفض محمود إعادته مرة أخرى ، وخشى من عزيز المستوفى أن يشهد عليه ، لأنه قد أعد هذا الجهاز ، ورتبه وعرف ما حوى من جواهر لا توجد فى كثير من خزائن الملوك ، ومن ثم قبض عليه وأودعه السجن فى قلعة تكريت(٧٣) ، ثم أمر بقتله فى سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠ م(٧٤) .

ومن منطلق الزيجات والمصاهرات التى تمت بين البيت الخلافى والبيت السلجوقى ، فإن دور المستوفى يظهر بصورة واضحة لمرافقته للعروس إلى دارها ، فقد كان السلاجقة يبعثون ببناتهم إلى بغداد لإتمام مراسم الزواج وعقد القران ، مع إرسال الهدايا الفاخرة والتحف ، يصحبها قاض القضاة ومستوفى السلطنة ، فقد أرسل السلطان ألب أرسلان مع ابنة الخليفة القائم بأمر الله المسماة سيدة خاتون زوجة السلطان طغرلبك المتوفى ، نفقتها وقيمتها خمسة آلاف دينار ، مع صحبة المستوفى إلى بغداد(٧٥) .

وفى أثناء زواج أرسلان خاتون ابنة ملكشاه بالخليفة العباسى المقتدى بالله ظهر دور مستوفى السلطنة عندما ذهب إلى والدتها ، لكى يستأذن فى اصطحاب العروس إلى دارها الجديدة ، حيث تقدم الوزير نظام الملك الطوسى وأبو سعد المستوفى إلى السيدة تركان خاتون وكل واحد منهما معه هدايا قيمة ، لتقديمها لوالدة العروس(٧٦) .

ومن الأمور الهامة التى تقع تحت نفوذ واختصاص المستوفى الإشراف على دار ضرب العملة ، حتى يكون على علم بالنفقات العامة ، وكمية العملة الذهبية والفضية فى دار الضرب ، ومتابعة العمال والصناع بها ، والتأكد من قيمة الصرف ، لاستعمال الدنانير الذهبية فى جباية الخراج والضرائب الأخرى(٧٧) .

٣- أشهر من تولوا منصب الاستيفاء ومكانتهم فى الدولة :

اشتهر عدد كبير من المستوفين بعلو الهمة والمكانة الرفيعة فى الدولة السلجوقية منهم "شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى" الذى تولى منصب رئاسة الاستيفاء فى عهد كل من السلطان طغرل وألب أرسلان وجزء من سلطنة ملكشاه ، اتصف بجلالة القدر ، وكان على المذهب الحنفى ، لذا شيد مدرسة فى باب الطاق ببغداد لأصحاب هذا المذهب(٧٨) ، وتمتع بالثراء الفاحش(٧٩) ، وكان مقربا من الوزير نظام الملك الطوسى مؤيدا منه ، أشار عليه بالمسير إلى نيسابور(٨٠) والمقام بها مع السلطان ملكشاه فى بداية سلطنته ، وذلك سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢م ، وبالفعل نفذ السلطان ووزيره هذه النصيحة فعادت بالخير على الدولة نتيجة لاستخراج أموال كبيرة من قهندز بنيسابور ، استخدمت فى استمالة قلوب الأمراء وقادة الجند(٨١) ، توفى شرف الملك المستوفى فى سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠ م بعد أن استقال من منصب الاستيفاء بفترة قصيرة(٨٢) .

وممن اشتهر فى منصب الاستيفاء " سعد الملك بن محمد الآبى " ، الذى اتصف بالتدين وحسن التدبير(٨٣) ، عمل بداية حياته كاتبا فى ديوان السلطان محمد طبر(٨٤) ، ثم رفع إلى منصب الاستيفاء(٨٥) ، وانتهت حياته بالتآمر عليه من قبل أعدائه .

وعندما رقى سعد الملك الآبى إلى منصب الوزارة فى سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٤ م أسند السلطان محمد طبر إلى شمس الدين أبى سعد هندو بن محمد بن هندو القمى " منصب رئاسة ديوان الاستيفاء ، ولقبه بزين الملك(٨٧) ، وقد عرف بميله الشديد للمال والإسراف فى جمعه وتحصيله ، ومن ثم جاءت نهايته بالقتل على يد الأمير التونتاشى كامبار(٨٨) .

وممن اشتهر فى عهد السلطان محمد طبر " خطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميبذى[٨٩] ، الذى ولد فى بلخ ونشأ فى أصفهان ، وامتاز بحسن الخط ، واستمر فى الأعمال الديوانية قرابة الخمس والأربعون عاما ، متنقلا بين رئاسة عدة دواوين منها ديوان الرسائل وديوان الإشراف وديوان الاستيفاء "[٩٠] .

كما تولى ديوان الاستيفاء " مختص الملك أبو النصر أحمد بن فضل بن محمود الكاشى "، الملقب بمعين الدين نصير الدولة ، الذى عمل فى بداية حياته كاتبا للرسائل ومحررا فى ديوان السلطان بركيارق ، وفى سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م أسند إليه منصب ديوان الإنشاء حيث انتزع الوزير سعد الملك الآبى هذا المنصب من يد نصير الملك بن مؤيد الملك وأسنده إليه ، ومنذ ذلك التاريخ دخل مختص الملك الكاشى فى مصاف أصحاب المناصب الديوانية[٩١] .

وتولى " مختص الملك الكاشى " رئاسة الاستيفاء فى عهد السلطان سنجر[٩٢] ، وامتاز بالخبرة الواسعة والأسلوب السليم فى تحصيل الأموال من الرعية ، فجمع أموالا طائلة وتقرب من رجالات الدولة والأمراء بالهدايا والتحف[٩٣] ، وفى نهاية حياته رفع بأمر من السلطان إلى مصاف الوزراء ، الذى استمر فيه حتى قتله[٩٤] .

كذلك اشتهر " معين الساوى " مستوفى السلطان طغرل وأرسلان ، وهو يمتاز بحسن الخط والميل إلى الأدب والعلم[٩٥] ، كما اشتهر أبو نصر بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله الملقب بعزيز الدين المستوفى – عم العماد الأصفهانى الكاتب – بعلو القدر والرئاسة ، تولى أمر الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه[٩٦] ، وقتل فى سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١ م[٩٧] .

وممن اشتهر من المستوفين " كمال الدين محمد بن على الخازن الأزدى " ، الذى عمل فى بداية حياته خازنا للسلطان سنجر ، الذى رفعه إلى مصاف الولاة فعينه على ولاية الرى[٩٨]، وفى عهد السلطان مسعود ارتفع شأنه بإسناد منصب الاستيفاء[٩٩] ، حيث أثبت كفاءة وخبرة كبيرة ، واتصف بالشجاعة والعدل وأزال المكوس ورفع المظالم ، وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق[١٠٠] ، وفى نهاية حياته حدث خلاف بينه وبين الأمراء والقادة وعلى رأسهم الأمير قراسنقر ، ومن ثم انتهت حياة كمال الدين بالقتل فى شوال سنة ٦٣٣ هـ/ ١١٣٨ م[١٠١] .

كذلك اشتهر محمد بن عبد الكريم الأنبارى الملقب بسديد الدولة بمعرفة كبيرة فى تسيير شئون الاستيفاء ، وانفرد بإنشاء المكاتبات ، حتى وفاته فى سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م فى بغداد(١٠٢) .

ولا يفوتنا فى نهاية الحديث عن أشهر المستوفين أن نشير إلى أن بعضهم وصل إلى مكانة عالية فى الدولة ، ومنزلة رفيعة وازداد نفوذه حتى تمكن من التآمر على الوزراء وإقصائهم من مناصبهم ، فعلى سبيل المثال تمكن مجد الملك القمى المستوفى فى عهد بركيارق من إقصاء الوزير مؤيد الملك من منصبه ، والتغلب عليه ، وإبقاءه صورة بلا معنى ، لدرجة أنه اشتكى حاله عن طريق كتابة الشعر باللغة الفارسية ، يستعطف السيدة زبيدة خاتون ومستوفيها أن يطلق سراحه من سجنه(١٠٣) .

كما لعب " معين الدين الساوجى " المستوفى فى عهد السلطان أرسلان بن طغرل دورا بارزا فى التآمر مع الأمير " أمير بن على بار " حاكم ولاية الرى ، ضد الأتابك شمس الدين أيلدكز ، وتمكنا من الدس للأتابك ، لولا تدخل الوزير " فخر الدين الكاشى " وتوضيحه المؤامرة للسلطان ، وبذلك قبض على أمير بن على بار وأودع قلعة نخجوان ، وعنف المستوفى وأبعده عن مهام منصبه(١٠٤) .

وكثيرا ما قدم المستوفون المشورة والرأى إلى السلاطين ، خاصة إذا ازدادت مكانتهم فى الدولة ، وكانوا على درجة من الدهاء والكفاءة فى العمل ، فإننا نرى أن أحد المستوفين فى سلطنة مسعود يتدخل فى السياسة العامة ، ويوغر صدر السلطان على الخليفة الراشد وينصحه بخلعه وتولية أبو عبد الله محمد بن المستظهر ، وبالفعل يعزل الراشد ويتولى المقتفى لأمر الله فى ذى القعدة سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م(١٠٥) .

وفى سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م ، قام المستوفى أبو نصر بإبداء الرأى فى وزير السلطان محمود بن محمد ، المسمى شمس الدين عثمان نظام الملك ، وتخوف السلطان من مغبة إطلاق سراحه ، خشية أن ينضم إلى عمه السلطان سنجر فى خراسان ، وبالفعل يأمر محمود بإعطائه لسيافه عنتر الخادم ليقتله(١٠٦) .

٥- المستوفى والعلم والعلماء :

مال عدد كبير من المستوفين إلى العلم والتقرب من العلماء وتشجيع الشعراء والأدباء وبذل الهدايا والأموال لهم ، ومنهم من صنف التصانيف والمؤلفات العلمية ، وصار من المشاهير فى فروع المعرفة .

ومن هؤلاء أبو الفوارس الحسين بن على بن الحسين المعروف بابن الخازن الكاتب الذى امتاز بجمال الخط وحسنه فكتب خمسمائة نسخة من كتاب الله العزيز ، وكتب الشعر ونظمه ، وعاش حتى سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ م .

وممن اشتهر بميله للآداب والشعر " أبو الفضل بن الخازن " ، الذى نظم الشعر وأبدع فيه ومن أشعاره :

وافيت منزله فلم أر صاحبا إلا تلقانى بوجه ضاحك

والبشر فى وجه الغلام نتيجة لقد مات ضياء وجه المالك

ودخلت جنته وزرت جحيمه فشكرت رضوانا ورأفة مالك

وممن صنف فى العلوم المختلفة من المستوفين أبى طاهر الخاتونى مستوفى السيدة جوهر خاتون – زوجة السلطان محمد بن ملكشاه – الذى ألف فى التاريخ فصنف كتاب تاريخ آل سلجوق[١٠٩] ، وله شعر جيد مختار حيث تعلم مجموعة من قصائد الشعر تحت عنوان مناقب الشعراء[١١٠] ، كما ألف كتابا فى الصيد أسماه سكارنامه ، أهداه إلى السلطان ملكشاه[١١١] .

كذلك نبغ مستوفى آخر فى الشعر والأدب وهو طاهر المستوفى ، الذى نظم قصيدة فى الوزير أبو سعد الآبى[١١٢] ، جاء فيها :

أنا فى المنزل وحدى وكذلك الشيخ وحده

وسواء كان عندى وسواء كنت عنده[١١٣]

وكذلك شجع بعض المستوفين الشعراء وأجزلوا لهم العطايا ، فارتادوا قصورهم ، ومدحوهم فى قصائدهم ، ومنهم الشاعر المغربى – شاعر السلطان سنجر – الذى مدح " أبو سعد هندو المستوفى "[١١٤] .

وبرز نور عزيز الدين المستوفى فى تشجيع الشعراء ، فى هباته للشاعر زين الدين الذى نظم رباعية باللغة العربية فى مدحه ، فى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م فأكرمه ، وشرفه وألبسه خلعة فاخرة من ثيابه الخاصة[١١٥] ، وقد وصل هذا الشاعر زين الدين إلى مكانة عالية ، وبرع فى استخدام اللغة العربية والنظم بها ومعظم قصائده بها ، فقد أنشد قصيدة أخرى فى حضرة معين الساوى المستوفى لاقت استحسان الفضلاء والحاضرين جميعا[١١٦] .

واشتهر من مدينة كاشان عددا ممن تولوا ديوان الاستيفاء ، وامتازوا بالميل إلى الأدب والشعر وحسن الخط وجماله ، من أمثال " حميد الدين بن الحسين المستوفى الكاشانى[١١٧] وحميد الدين الجوهرى المستوفى " فى ديوان الاستيفاء ببلاد ما وراء النهر[١١٨] .

ويعتبر مؤيد الدين منتخب الدين بديع أتابك الجوينى ، الذى تولى الاستيفاء ورئاسة ديوان الرسائل ما بين عامى ٥٢٨ هـ/ ١١٣٣ م إلى ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م فى عهد السلطان سنجر من العلماء فقد قام بتجميع مجموعة من المراسلات الديوانية في كتابه " عتبة الكتبة " باللغة الفارسية ، على مدى عشرين عاما ، حوت مراسيم مختلفة فى تعيين الوزراء والمستوفين والمشرفين وولاة الأقاليم ، والمصنف يعتبر قطعة أدبية كبيرة القيمة[١١٩] .

٥- أشهر من تولى الاستيفاء لنساء القصور :

من مظاهر سيادة المرأة السلجوقية امتلاك الإقطاعات والأراضى الزراعية ، واستعانتها بموظفين خصوصيين لإدارة شئون إدارتها مثل موظفى الدولة ، ويأتى على رأس هؤلاء الموظفين المستوفى ومهمته إدارة شئون النساء الخاصة ، وتيسير تعاملاتهن المالية والمحافظة على ممتلكاتهن الخاصة ، وتنظيم أساليب وحجم هذه التعاملات ، والإشراف على دفع رواتب باقى موظفى إدارة هذه الأجهزة ومن أشهر من تولى هذا المنصب تاج الملك أبو الغنائم بن المرزبان[١٢٠] ، الذى تولى الاستيفاء للسيدة تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه ، ويعتبر من الشخصيات البارزة فى السلطنة ، عين أولا على خزائن السلطان ، والإشراف على دور الحريم السلطانى ، ثم فى وزارة أولاده مستوفيا للإشراف على إدارة أراضيهم وضياعهم[١٢١].

وعملت السيدة تركان خاتون على رفع مستوفيها إلى كرسى الوزارة العامة فى سلطنة ابنها محمود بأصفهان ، وأحلت محله فى الاستيفاء موظف آخر هو مجد الملك أبو الفضل القمى المستوفى[١٢٢] ، الذى ما لبث أن انضم إلى معسكر ضرتها ومنافستها على العرش السيدة زبيدة خاتون - زوجة ملكشاه الثانية - وابنها بركيارق ، خوفا من تآمر القادة عليه من أمثال الأمير اينانج بيغو والأمير برسق[١٢٣] ، وذلك بسبب ميل مجد الملك المستوفى لإعطاء بركيارق مبلغا من المال يقدر بخمسمائة ألف دينار من ميراث والده ، لكى يفك الحصار عن أصفهان ويرحل[١٢٤] .

وبناء على ذلك عينت تركان خاتون فى هذا المنصب مستوفيا ثالثا هو محمد بن منصور أبو سعد المستوفى ، ولكن لم يبق كثيرا فى هذا المنصب فسرعان ما عزل وصودرت أمواله(١٢٥) .

كذلك تولى عدد من المستوفين للسيدة زبيدة خاتون ، التى زاد نفوذها واتخذت لنفسها إدارة خاصة لتسيير شئونها الإدارية وممتلكاتها وخزانة أموالها ، فعينت الأستاذ على فى الاستيفاء ، وعز الملك أبو عبد الله الحسين بن نظام الملك فى الوزارة ، واستعانت بأخيه الأصغر عبد الرحيم فى منصب الطغراء(١٢٦) .

ومن أوائل المستوفين الذين باشروا العمل للسيدة زبيدة خاتون ، " مجد الدولة أبو الفضل القمى " ، الذى استرضى الخاتون ، فارتفع شأنه بفضلها فى الدولة ، وساندته فى كل خطواته الإدراية ، فتمادى فى نفوذه وتجبر لدرجة أنه قبض على الأستاذ على المستوفى ، فى محاولة أن يحل محله فى إدارة الأملاك الخاصة بزبيدة ، وسمل عينه وتولى بدلا منه ، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه السيدة كانت إلى جانب مستوفيها مجد الدولة تسانده فى كل صغيرة وكبيرة وتعاونه فى تحركاته ، كما وقفت معه أيضا ضد الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك(١٢٧) .

وهناك سيدة ثالثة من نساء القصر السلجوقى ، استعانت بمستوفى خاص فى إدارة شئونها المالية ، هى السيدة جوهر خاتون التى استخدمت كمال الملك السميرمى فى منصب الاستيفاء ، الذى تمكن من الارتقاء بمكانه إلى درجة عالية فى السلطنة ، فقد كان فى بدء حياته يعمل بالزراعة فى أرض الخاتون بمدينة سميرم بأصفهان ، ثم اختاره الوزير محمد العميد الطغرائى نائبا عنه فى إدارة أملاك الخاتون الشخصية ، وعندما لمس فيه الكفاية اتخذه كاتما لأسراره ، وشيئا فشيئا سيطر على عقل السيدة ، بعد أن رأت أنه يفوق الأمراء أمانة وخبرة(١٢٨) ، ومن ثم أسندت إليه شئون أراضيها وأملاكها ، فذاعت ، شهرة كمال الملك السميرمى إلى حد كبير حتى استعان به السلطان محمد ، فأسند إليه منصب الاستيفاء العام فى الدولة السلجوقية(١٢٩) .

وقد لعب كمال الدين السميرمى دورا سياسيا بارزا فى تقريب وجهات النظر بين السلطان محمود وعمه السلطان سنجر ، وأنهى الخلاف الناشب بينهما ، فاعترف سنجر بسلطنة محمود فى العراق ، فصار هناك سلطانان فى الدولة السلجوقية لأول مرة فى تاريخها (١٣٠).

كذلك تمتع هذا المستوفى بالمكانة والثروة العالية ، لدرجة أن زوجته كانت تخرج للتنزه فى موكب كبير من الجوارى يقدر عددهم بمائتى جارية فى زى فاخر ، متشحات بالجواهر والمجوهرات ، بالإضافة إلى عدد كبير من الخدم(١٣١) .

استعانت السيدة جوهر خاتون بعدد لا بأس به من الرجال فى إدارة أعمالها ، فأنشأت ديوان خاص لإدارتها ، وعينت فيه موفق الدولة أبو طاهر المستوفى ، الذى اتخذ تخلصه من اسمها فنسب إليها وعرف باسم الخاتونى(١٣٢) . ارتفع شأن الخاتونى على جميع موظفى الإدارة ، ولم يمنعه رادع أو مانع من هجاء الوزير أبى منصور الميبذى – وزير محمد طبر – فوصفه بالجهل وعدم الكفاءة ، وهجاه بقوله :

كان حمارا وزيرنا ومضى فما يملك السلطان من خلل(١٣٣)

والملاحظ أن أبا طاهر المستوفى جعل لهذه القصيدة الهجائية عنوانا بارزا هو " تنزين الوزير الزير الخنزير " .

وعلى ذلك فإن سيدات القصور السلجوقيات استخدمن فى إدارة أملاكهن الخاصة ، والإشراف على اقطاعتهن ، هؤلاء المستوفين الذين تميزوا بالأمانة والخبرة وحسن المعاملة ، وحققوا نجاحات كبيرة فى الإدارة .

٦- منصب الاستيفاء خطوة للارتفاع إلى مناصب أعلى فى الدولة :

لم يكن منصب صاحب ديوان الاستيفاء هو أعلى المناصب الإدارية التى يرتفع شأن المستوفى ونائبه إليها فى الدولة السلجوقية ، فكثيرا ما تخطوه إلى منصب الوزارة سواء فى السلطنة أم فى الخلافة العباسية نفسها ، فعلى سبيل المثال فإن أبا المعالى النحاس الأصفهانى ، الذى عمل فى بداية حياته نائبا " لمحمد بن غيلان " عارض ديوان السلطان ملكشاه ، ثم مستوفيا فى عهد السلطان بركيارق ، يصل إلى منصب الوزارة فى الخلافة العباسية ببغداد وذلك عندما ذهب إلى صاحب الحلة ، " سيف الدولة صدقه " الذى رشحه لهذا المنصب فى خلافة المستظهر بالله(١٣٤) .

أما عن المستوفيين الذى رقوا إلى منصب الوزارة فى داخل السلطنة ، فنجد منهم " سعد الملك بن محمد الآبى فى سلطنة محمد بن ملكشاه " ، الذى عمل فى بداية حياته نائبا وكاتبا ومدير شئون ولى عهد السلطنة ، ثم ارتفع شأنه بالوزارة إلا أنه اتهم بالانتماء إلى طائفة الإسماعيلية ، فأمر السلطان بقتله(١٣٥) .

كذلك ارتفع شأن " خطير الملك أبو منصور اليزدى " من رئاسة ديوان الاستيفاء إلى منصب الوزارة فى عهد السلطان محمود بن محمد ، وقد قيل أنه مكث فى الدواوين وأعمالها ما يقرب من خمسة وأربعين عاما بين ديوان الرسائل والإشراف والاستيفاء(١٣٦) .

ومن الجدير بالذكر أن " شمس الملك عثمان بن نظام الملك " ، الذى تولى فى بداية حياته المناصب الإدارية ورئيس ديوان الاستيفاء فى عهد محمود بن محمد ، وصل إلى دست الوزارة واستمر فيه ، حتى قتل ، وذلك نتيجة لتآمر أعيان العراق عليه وإرسالهم عددا من الشكاوى إلى السلطان سنجر بخراسان يتضررون من ظلم وتعسف الوزير فى جباية الأموال ، ومن ثم خاطب سنجر ابن أخيه محمود فى القضاء على وزيره وقتله(١٣٧) .

وفى عهد السلطان طغرل بن أرسلان ارتفع شأن عزيز الدين المستوفى من رئاسة الديوان إلى منصب الوزارة(١٣٨) ، كذلك كان " نصير الدين المظفر الخوارزمى " مستوفيا فى بلاط السلطان سنجر ، يفتخر ويتباهى بمعرفته التامة بفن الاستيفاء ، حيث عمل فى بداية حياته فى مهمة الإشراف على مطبخ واسطبل السلطان ، ثم رقى إلى الإشراف على جمع وإخراج أموال الولايات ثم تولى ديوان الاستيفاء ومنها أصبح وزيرا للسلطنة(١٣٩) .

وفى بعض الأحيان كان المستوفين يتنازلون عن مناصبهم ، خشية من المؤامرات والدسائس التى تحاك من قبل الوزراء ضدهم ، ويكتفون بالقرب من السلاطين والتودد إليهم ، ففى وزارة الدركزينى فى سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، تنازل عزيز الدين المستوفى عن منصبه فى رئاسة ديوان الاستيفاء ، بسبب عداوة الوزير له ، وفضل الإقامة فى البلاط مستشارا للسلطان محمود بن محمد ، ومن ثم عين صفى الدين أبو القاسم الجنزى مكانه فى الديوان(١٤٠) .

وفى بعض الأحيان عجز بعض الوزراء فى إدارة مهام منصبهم وفشلوا فى تحقيق مهامهم، ومن ثم يعادوا إلى منصب الاستيفاء من جديد ، ويظهر هذا بصورة واضحة فى حالة

نصير الدين المظفر الخوارزمي ، الذى أعفاه السلطان من الوزارة وأعاده مرة أخرى إلى مهمة الإشراف على جمع الخراج والاستيفاء(١٤١) .

وفى حقيقة الأمر فإن منصب الاستيفاء كان يغرى فى كثير من الحالات الأمراء وبعض وزراء الأتابكيات فيتطلعون إليه بشغف ، نظرا للمكاسب المالية الكبيرة التى يحققها صاحب هذه الوظيفة ، وبالتالى يتركون وزارة الأتابكية ويتولون رئاسة ديوان الاستيفاء فى عاصمة السلطنة ، فقد قام " بهاء الدين أبو طالب وزير آقسنقر الأحمديلى " بالتنحى عن منصب الوزارة ، وتولى الاستيفاء للسلطان طغرل فى وزارة الدركزينى(١٤٢) .

والواقع أن منصب الاستيفاء كان خطوة هامة على سلم المناصب الإدارية ، ودعوة للترقى إلى منصب صاحب الولاية أو عامل الولاية ، فقد أسند منصب حاكم الرى فى عهد السلطان سنجر إلى " معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاشى " الذى كان مستوفيا فى الديوان ، وبالفعل حقق معين نجاحا كبيرا فى إدارة شئون الولاية ، وذلك لأنه صاحب خبرة كبيرة وأسلوب سليم فى تحصيل الأموال من الرعية ، فإنه نجح فى جمع الأموال والأمتعة والهدايا ، وأرسلها إلى خزانة السلطان ، وجذب إليه نساء القصر والأمراء بإرسال التحف القيمة إليهم(١٤٣) .

كذلك تكرر الأمر مع " كمال الدين محمد " المستوفى ، الذى كان يعمل فى بداية حياته خازنا للسلطان سنجر فقد أسند إليه حكم ولاية الرى إلا أنه لم يستمر طويلا فى هذا المنصب حيث وقع أسيرا فى يد السلطان مسعود السلجوقى عند زحفه على تلك المناطق ، فقضى كمال الدين فترة أسيرا فى قلعة " سرجاهان " ، ومع معرفة السلطان مسعود بذكائه وقوة شخصيته، فإنه أمر بإطلاق سراحه ، وإعادته إلى دواوين الحكومة والرفع من قدره بإسناد منصب الوزارة إليه(١٤٤) .

ونلحظ أنه بالرغم من انتشار شهرة العديد من الرجال فى الأعمال الإدارية ، فإن بعضهم لم يستمر أكثر من فترة وجيزة فى منصب الاستيفاء ، وفضلوا الابتعاد نهائيا عن الحياة الإدارية خشية القتل ، فقد مكث " المهذب أبو طالب بن أبو البدر " فى الاستيفاء شهرا واحدا ، وأعفاه السلطان وولى بدلا منه الكمال أبو الريان الأصفهانى(١٤٥) .

ومن منطق الترقى فى الوظائف الإدارية والتطلع إلى المناصب الأعلى ، فإننا نجد أن نواب المستوفى يحتلون مكانة أسيادهم عند وفاتهم ، فقد كان أبو أسعد محمد بن موسى البرادستانى القمى يعمل نائبا للمستوفى فى عهد السلطان ملكشاه فلما توفى شرف الملك المستوفى احتل منصبه ، فوصل بذلك إلى رئاسة ديوان الاستيفاء ، وأطلق عليه لقب مجد الملك(١٤٦) .

٧- معاونو المستوفى :

عين المستوفى نوابا ووكلاء عنه فى إدارة المدن والأقاليم التابعة للسلطنة السلجوقية ، عرف أصحابها باسم وكيل المستوفى أو نائب المستوفى(١٤٧) كما عين فى عاصمة الخلافة موظفا يعرف " بجابى الأموال "مهمته جمع الضرائب والخراج وحملها إلى خزانة السلطان السلجوقى فى عاصمته ، وكثيرا ما قام المستوفى بزيارات تفقدية لنوابه وموظفيه ببغداد للاستطلاع على سير العمل ، ففى سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م ، قام شرف الملك أبو سعد المستوفى بزيارة بغداد، والقيام بعدة أعمال خيرية وبناء منشآت معمارية بها(١٤٨) .

وقد وجب على معاونى المستوفى أن يكونوا مثل رئيسهم ، مشهودا لهم بحسن الخلق والسيرة الحسنة وتمام الدين وحفظ القوانين وعلى معرفة بتنظيم الإيرادات والمصروفات(١٤٩) وعليهم أن يتوخوا الحذر ويعملوا بالأمانة والصدق فى ضبط الخراج ، وألا يتركوا للقلم سبيلا إلى الخطأ ، وأن تتسم حسابتهم بالوضوح والدقة ، ليتمكن المستوفى بدوره من إرسال نسخة منقحة إلى ديوان الاستيفاء ، يوضح فيها كيفية سير العمل فى السلطنة بوجه عام ، ويسجل فيها الدخل والمنصرف ، ويتدارك الأمر إذا ما حدث خطأ كتابى(١٥٠) .

ومن أهم نواب المستوفى فى مدن السلطنة ، نائب مدينة مرو ، ونائب مدينة كركان ، الذى صدر بحقهما مناشير بتولية الاستيفاء ، وذلك فى عهد السلطان أرسلان شاه ، أصدر منشور خاص بزين الدين أبى العلاء صاعد بن حسين يوضح فيه أنه نائب للمستوفى فى مدينة مرو ومدنها وقراها ونواحيها ، فيما يتعلق بالأملاك والأموال ، وأنه أنيط إليه بتحصيل الخراج عن عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م(١٥١) ، وأطلق له الحرية فى تحصيل ذلك بالأسلوب اللائق ، كما وضح له المنشور الطريقة التى يتبعها فى تنظيم الحسابات وضبطها(١٥٢) .

ومن أشهر نواب المستوفى فى الدولة السلجوقية " على بن الحسين الأردستانى " ، المشهود له بحسن الخط وحسن السمعة ، كثير الأدوات موصوفا بالثبات ، فكان أوحد عصره(١٥٣) . كما عمل " مختص الملك الكاشى " نائبا للاستيفاء في وزارة الخطيبى ، ثم رفع بعد ذلك إلى رئاسة الاستيفاء فى وزارة خطير الملك سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠(١٥٤) ، مما يوضح أن من حق نائب المستوفى الترقى إلى منصب الاستيفاء وتولى رئاسة الديوان .

وفى عهد السلطان محمد طبر ، عندما حاول محاصرة بغداد سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م فى عهد الخليفة المقتفى لأمر الله ، كان رئيس الاستيفاء رضى الدين أبو سعد الخوافى ونائب الاستيفاء كمال الدين أبو الريان(١٥٥) .

كما كان لشرف الملك أبو سعد المستوفى نائبا كبيرا هو أبو غالب البراوستانى(١٥٦) وإلى جانب نواب المستوفى ، كان هناك عدد من الموظفين والعمال للمساعدة ، يأتى فى مقدمتهم موظف يطلق عليه اسم " المعين " ، " والناسخ " وكانت مهمته نسخ التوقيعات والمكاتبات الصادرة والواردة ، " والخازن " ، وهو الكاتب المتولى قبض الغلات وخزنها وإخراجها وقت الطلب(١٥٧) .

وكان لعزيز الدين أبو حامد المستوفى – فى عهد السلطان سنجر – خازنا لخزانة الأموال أطلق عليه اسم سابور الخادم الخازن(١٥٨) كذلك كان " شهاب الدين أسعد " كاتبا للاستيفاء أثناء رئاسة كمال الدين السميرمى فى سلطنة محمد(١٥٩) .

٨- العقوبات السياسية :

لم تشفع مكانة المستوفى ومنزلته الرفيعة فى الدولة من محاسبته وإنزال العقاب به إذا أخطأ ، فظهرت عدة حالات تعبر عن استياء السلاطين والوزراء منه ، وقد تراوحت العقوبات ما بين العزل أو السجن أوالقتل وفى بعض الأحيان يعاقب المستوفى بمصادرة الأموال والممتلكات، وتصفية مدخراته ، واستنزاف عائلته وأقاربه ، وفى البعض الاخر يكتفى بالعزل من منصبه ، وإبعاده عن المناصب الإدارية .

فمن المستوفيين الذين صودرت أموالهم وأبعدوا عن مناصبهم ، "صفى الدين المستوفى " ، حيث صودر منه مبلغ مائتى ألف دينار(١٦٠) وذلك فى رمضان سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١م.

وعندما غضب السلطان محمد على مستوفيه " مختص الملك الكاشي " أمر بعزله وعين بدلا منه الأمير محمد الجوزجاني العميد(١٦١) .

أما عز الدين الأصفهاني المستوفي ، فقد عزل من منصبه وأمر الوزير قوام الدين الدركزيني بإيداعه السجن ، الذى ظل فيه حتى وفاته ، ولم تجد نفعا الأشعار الاستعطافية التى نظمها وأرسلها لهذا الوزير(١٦٢) .

كذلك كان نصيب " شمس الدين أبو سعد زين الملك هندو بن محمد هندو المستوفى " فى عهد محمد بن ملكشاه العزل والإيداع فى السجن فترة من الوقت ، ومن منطلق شفقة السلطان بمستوفيه ، فقد عفا عنه وأعاده من جديد إلى منصب الاستيفاء(١٦٣) .

وكان حظ محمد بن منصور أبو سعد المستوفى أفضل حالا من سابقيه ، فعندما غضبت عليه السيدة تركان خاتون وعاقبه ملكشاه بمصادرة أمواله ، فإنه استنجد بالسيدة تركان خاتون ، موضحا موقفه وأنه خادم فى الدولة وأن ماله من بين أيديهم ، حتى رضيت عنه ، فنحاه السلطان عن منصبه ، وبقى بعيدا عن الحكم ، يقيم فى منزله بأصفهان ، حتى وفاته سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠ م(١٦٤) .

وبالرغم من الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى منصب الاستيفاء ، وأهمها أن يكون الشخص حسن السيرة سديد الرأى متدينا موصوفا بالكفاءة والخبرة التامة معروفا عنه حسن الفصل بين الخير والشر ، والخبرة الطويلة فى أعمال جمع الضرائب والخراج ، إلا أنه كثيرا ما وقعت مغالطات مالية فى ديوان الاستيفاء ، سواء كانت بقصد يهدف المستوفى من ورائه الثراء السريع ، أم بدون قصد ، ومن ثم كان السلاطين يواجهون هذه الحالات بالقتل والمصادرة ، مثلما حدث لأبى المحاسن بن أبى الرضا المستوفى الملقب بسيد الرؤساء ، الذى عمل فى بلاط ملكشاه وخدم والده طويلا فى ديوان الطغراء(١٦٥) .

وعلى ذلك فقد سنحت لبعض رجال البلاط الفرصة بتلفيق التهم والافتراءات على المستوفين ، وراح ضحيتها العديد منهم ، فترى " مجد الملك المستوفى " فى عهد السلطان بركيارق يتهم بالتآمر عليه من قادة الجند ، الذى أغروا السلطان بقتله ومصادرة أمواله ، بدون أن يفعل جريرة بينه(١٦٦) .

وفى سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م ، عـذب وشنق شـمس الدين أبو سـعـد زين الملك هندو المستوفى القمى فى سلطنة محمد بن ملكشاه ، بالرغم من محبة العديد من رجالات البلاط ، ومنهم الشاعر المغربى ، الذى كان من ممدوحيه ، فيقول عنه فى أول القصيدة :

يجئ الآن رستم من مـازندران ويجئ الآن زين الملك من أصفهان (١٦٧)

أما عن سبب قتل زين الملك هندو فهو إتهام بعض رجالات الدولة له بكثرة أخذ الأموال وجمع الثروات والإساءة بالقول فى حق السلطان والخليفة العباسى ، مما أوغر قلب السلطان عليه كما أبدوا استعدادهم بنقل مبلغ كبيرا من أمواله إلى خزانة السلطان ، لذا سلم المستوفى إلى الأمير ألتونتاش كاميار(١٦٨) ، الذى استخدم الحيلة لجمع الأموال من أهله بإركابه دابة مزينة بالذهب ، زاعما أن السلطان خلع عليه ورفع من قدره على مال قرره عليه ، فحصل بذلك مبلغا كبيرا من أقربائه ومن أهل بلدته قم ، ثم ما لبث أن صادر هذا المال وسلمه للسياف تاج الدولة الديلمى ، الذى قام بشنقه(١٦٩) .

وفى سنه ٥١٧هـ / ١١٢٣ م ، تآمر المستوفى أبو نصر على الوزير شمس الدين عثمان ابن نظام الملك ، الذى عمل فى بداية حياته مستوفيا فى ديوان محمود بن ملكشاه ، وحرض السلطان ضده ، واتهمه بكثرة الحرص على جمع المال لنفسه ومصادرة أموال الأغنياء والتجار لصالحه ، ومع تقدم أعيان العراق بالعديد من الشكاوى للسلطان سنجر فى نفس هذا الغرض ، أمر السلطان محمود بتسليم شمس الدين ، إلى السياف عنتر الخادم لقتله ، ولكن لم تلبث الحقيقة أن اتضحت ، وظهرت للعيان ومن ثم نفذ السلطان نفس الشئ فى أبى نصر المستوفى(١٧٠) .

وفى سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م قبض الوزير الأنسـاباذى فى عـهـد السلطان طغرل بن أرسلان على " أحمد بن حامد بن محمد أبو نصر المستوفى " الملقب بعزيز الدين ، وسلمه إلى بروز الخادم ، الذى أودعه السجن فى قلعة تكريت ، وقام بتعذيبه بوحشية حتى الموت(١٧١) .

ونتيجة لتآمر رجال الجيش وقادته على " كمال الدين محمد الخازن " ، فى عهد السلطان مسعود بن محمد الذى تشدد معهم فى تقديم المؤن والعتاد ، ولم يراع حريتهم ولم يترك لهم مجالا للتصرف فى أموال الدولة ، فتآمروا ضده مع الأتابك قراسنقر ، الذى أصر على قتله وقطع يده اليمنى ، فقام السلطان بتنفيذ رغبة الأتابك وأمر بقطع رأس محمد الخازن ويده ، فى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨ م(١٧٢) .

ولابد أن نشير هنا إلى أن منزلة الوزير كانت أعلى من منزلة المستوفى فى الديوان والوزير الحق في محاسبة المستوفى وإنزال العقاب به إذا أخطأ أو قصر فى تقديم الأموال ، أو استحوذ على شئ منه كثيرا كان أو قليل ، ففى سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م أنزل الوزير البروجردى العقاب " بثابت بن حميد المستوفى " وأمر بحسبه فى سرداب فى مدينة همذان فى فصل الشتاء دون أن يمنحه ملابس أو أغطية يتدثر بها ، فتوفى المستوفى من شدة البرد ، ومما زاد الأمر سوءا أن هذا الوزير أمر بمصادرة أموال وممتلكات المستوفى ، وتصفية كل مدخراته ، واستنزف من عائلته قرابة ثلاثمائة ألف دينار ، ولم يترك لأولاده شيئا(١٧٣) .

ومن منطلق عقاب المستوفين واتهامهم بعدم الأمانة فإننا نجد أن بعض الوزراء كانوا يسندون تهمة اعتناق المذهب الإسماعيلى إليهم كى يتخلصوا من نفوذهم ، لأن تلك التهمة لا تنفع فيها شفاعة ولا استعطاف ، بل مصير صاحبها القتل لا محالة ، وعلى ذلك اتهم قاضى القضاة عبيد الله الخطيبى وصدر الدين الخجندى حاكم أصفهان ، المستوفى سعد الملك الآبى في سلطنة غياث الدين محمد طبر ، باعتناق الباطنية ، واتصاله بأحمد بن عطاش(١٧٤) فى قلعة الإسماعيلية بأصفهان ، لذا أمر السلطان بقتله ، وعين بدلا منه خطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميبذى فى منصب الاستيفاء(١٧٥) .

ومن الملاحظ أن الصراع بين الدولة السلجوقية والإسماعيلية أصحاب الحسن الصباح(١٧٦) ، فى قلعة شاه دز بمدينة أصفهان كان على أشده فى تلك الفترة ، لذا لجأ الشيعة الإسماعيلية إلى القضاء على منافسيهم من رجالات الدولة السلجوقية ، ونرى ذلك بوضوح فى قيامهم بقتل كمال الدين السميرمى فى سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م ، الذى عمل مستوفيا للسيدة جوهر خاتون(١٧٧) ووصل ألى منصب الوزارة العامة فى عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه مرورا بمنصب الاستيفاء ، وقد قيل أن هذا الرجل قتل فى السوق العام ببغداد عند المدرسة النظامية على يد عبد أسود(١٧٨) .

٩- ديوان الاستيفاء :

من الدواوين الهامة فى الدولة السلجوقية يطلق عليه اسم ديوان الجبايات أو جباية الأموال، ويتم فيه الاحتفاظ بسجلات يدون فيها قيمة الخراج على المناطق التابعة للدولة والتعديلات التى قد تطرأ عليها ، فهذا الديوان يختص بتنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها ، ويعرف رئيسه

والقائم على شئونه باسم المستوفى ويصدر بتعينه مرسوما خاصا من السلطان يحدد فيه المهام المنوطه إليه ، وسياسة الدولة العامة .

وللمستوفى نواب فى جميع أقاليم ومدن السلطنة ، ويطلق عليهم اسم نواب المستوفى أو وكلاء المستوفى ، يشترط فيهم حسن السيرة والخبرة والمعرفة بأسرار المعاملات وأساليبها(١٧٩) ، كما يعين له نائب فى عاصمة الخلافة العباسية يطلق عليه اسم جابى الأموال .

يقيم صاحب الاستيفاء فى حاضرة السلطنة ، لأن الدواوين الحكومية كانت مركزة فى العاصمة ، والشئون المالية تدار فيها ، لذا كان ديوان الاستيفاء فى مدينة الرى فى عهد السلطان طغرلبك(١٨٠) ، بينما كان ديوان الاستيفاء فى أصفهان فى عهد كل من ملكشاه وفترة حكم محمود وأمه تركان خاتون ، وبركيارق بعد أن انفرد بالسلطة ، والجزء الأكبر من سلطنة محمد طبر(١٨١) ، ونقلت الدواوين إلى مدينة همذان ومنها ديوان الاستيفاء فى عهد سلطنة محمود بن ملكشاه(١٨٢) ، بينما أقام السلطان سنجر دواوينه فى مدينة مرو بخراسان (١٨٣) .

ومن البديهى أن يشترط فيمن يعين فى منصب رئيس ديوان الاستيفاء أن يكون مقربا من السلطان السلجوقى ، فيصبغ عليه الألقاب التكريمية ، مثل لقب " الأجل الأوحد " سيد الرؤساء ، " وزين الملك " و غيرها من الألقاب ، ومن أفضل الشخصيات التى تولت ديوان الاستيفاء " شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور المستوفى " فى عهد السلطان طغرلبك وألب أرسلان وجزء من سلطنة ملكشاه(١٨٤) .

وكان مجد الملك القمى من أفضل من تولى المنصب فى عهد بركيارق(١٨٥) ، وتميز عز الدين الأصفهانى المستوفى فى سلطنة محمد بن ملكشاه(١٨٦) ، كما كان أبو سعد هندو فى سلطنة محمد طبر ، الذى ساءت أحواله وانتهى أمره بالقتل فى سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م .

ولرئيس ديوان الاستيفاء وكلاء ونواب فى المدن الكبرى ، وفى الإمكان أن يحتل هذا النائب محل سيده فى هذا المنصب ، فقد تولى أبو الفضل أسعد محمد بن محمد براوستانى القمى نائب المستوفى شرف الملك فى عهد ملكشاه ، محل أستاذه فى الديوان ، وتلقب بلقب مجد

المـلـك(١٨٧) ، وفى هذا دليل على أهميـة هذا المنصب وخطوة للارتقـاء إلى أعلى المناصب وأرفعها فى الدولة السلجوقية .

وصفوة القول أن المستوفى كانت له حرية العمل مفوضـا من السلطان فى إدارة حسـابات الدولة ومقابلة الوارد بالمنصرف وضبطه ، وإذا ما وجد اختلالا يعيد ضبط الأمور إلى نصابها، ذلك لأهمية العامل المالى فى استقرار الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى الدولة وتنفيذ سياسة الدولة العامة وتجهيز الجيوش وبناء المنشآت الخيرية ، مع وضع ضوابط كثيرة منها الأمانة لاختيار هؤلاء المستوفين ، وبالرغم من ذلك فقد وجدت العديد من الحالات التى عوقب فيها المستوفى بالسجن والمصادرة أو القتل أو الإعفاء من وظيفته فى الديوان ، وهناك عدد لابأس به من المستوفين رفعت أقدارهم وارتقوا إلى مناصب أعلى كالوزارة أو حكم أحد الأقاليم السلجوقية .

ولم يصل إلى أيدينا ما يمدنا بمقدار قيمة أجر المستوفى ونوابه ، وهل هو إقطاع أو أجر سنوى أو شهرى .

الهوامش

١- كلمة مستوفى من وفى بمعنى الوفاء ضد الغدر ، فيقال وفى بعهده ، وأوفى بمعنى الموافاة التى يكتبها كتاب دواوين الخراج فى حساباتهم فهى مأخوذة من قولك أوفيته حقه ووفيته حقه ووافيته حقه .

(ابن منظور : لسان العرب ، جـ٦ ، ص ٤٨٨٦ ، تحقيق عبد الله على الكبير ، طبعة دار المعارف ، الزبيدى : تاج العروس ، جـ١٠ ، ص ٣٩٤ ، المطبعة الخيرية بالجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ) .

٢- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ ، بتصحيح واهتمام محمد قزوينى وعباس إقبال ، ١٣٢٩ ، هـ . ش .

حسن أنورى : ديوان استيفاء درحكومت غزنويان وسلجوقيان ، ص ٣١ ، ٣٢ ، مجلة بررس هاى تاريخى، العدد ٦ لسنة ٨ بهمن اسفند ١٣٥٢ شماره .

٣- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٩١ م ، فإذا قيل مستوفى الديوان أو رئيس ديوان الاستيفاء فإن ذلك يعنى الشخص المكلف بالإشراف على الشئون المالية ، العارف بأسرار المعاملات وأساليبها ، والخبير بالرسوم وأصولها ، المفوض إليه شئون التدابير التى تتضمن أموال الدولة ، والتى تتعلق بمصالح الجيش ، فهو كاتب وصاحب مجلس فى الديوان ، وهو يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحسابات فى أوقاتها ، وينبه متولى الديوان على ما يجب استخراجه من المال فى وقته وحينه .

٤- الجوينى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦ إلى ص ٤٨ .

السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، تولى فى بادئ الأمر حكم خراسان لمدة عشرين عاما ، ثم صار سلطانا للسلاجقة مدة أربعون عاما وأربعة أشهر ، قامت بينه وبين خوارزم شاه أتسز عدة حروب ، وأسر هو وزوجته تركان خاتون على يد الخطا .

(القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ترجمة محمود محروس قشطه ضمن رسالة الماجستير).

٥- عباس إقبال :الوزارة فى عهد السلاجقة ، ص ٤٨ ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمى ، طبعة الكويت ، سنة ١٩٨٤ م .

تولى السلطان أرسلان شاه بن طغرل السلطنة عقب وفاة عمه ، وتزوج من ابنة الخليفة العباسى المسماة كرمان خاتون ، وصار الأتابك أيلدكز زوج والدته ومدبرا لملكه .

(القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٤٤) .

٦- أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، الطبعة الأولى ، الكويت سنة ١٩٧٥ م .

٧- قام الأمير إسماعيل الساماني بإرساء قواعد الحكم في بلاد ما وراء النهر ، واتخذ من مدينة بخارى حاضرة للملكه ، واتجه إلى توسيع مملكته بالتوسع في طراز وأغار على الأتراك الوثنيين .
(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 137, (Cambridge, 1976)

٨- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٦٥ ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة والنشر والتوزيع .

٩- الأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني ، الذي تولى عرش بخارى وهو طفل صغير وسانده في ذلك والي بخارى أحمد بن محمد بن الليث ، وقام الوزير أبو عبد الله محمد بأمور الملك وضبط المهام حتى بلغ سن الرشد . (مير خواند : روضة الصفا ، ص ٨٦ ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي ، طبعة الدار المصرية للكتاب سنة ١٩٨٨ م) . فقد كان الأمير إسماعيل قد درأ الأخطار الخارجية وأصلح مرافق البلاد ، ووجه حملات للشمال لتأمين حدود البلاد وشيد القصور والرياض .
(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 137)

١٠- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٦٦ .

١١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢١٥ ، ترجمة حربي أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

١٢- ميرخواند : روضة الصفا ، ص ٩٣ .

يعتبر أبو علي سيجور أحد قادة الجيش الساماني ، انضم إلى كبير الحجاب المسمى تاش ، ضد الأمير نوح الساماني .

(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 156)

١٣- عضد الدولة بن بوية : هو أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة ، تولى الحكم سنة ٣٣٨ هـ/ ٩٤٩م بوصية عمه عماد الدولة على فارس وكرمان .

(ميرخواند : نفس المرجع السابق ، ص ١٨٨) .

١٤- ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١٧ ، مكتبة المتنبي بالقاهرة .

١٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٦ ، حسن أنورى : ديوان استيفاء درحكومت ، ص ٣٢ .

تدرج أحمد بن الحسن الميمندي في شغل عدة مناصب إدارية قبل أن يصير وزيرا منها جباية الضرائب ورئاسة ديوان الرسائل ، والاستيفاء العام (نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ١٥٣ ، تهران سنة ١٣٣٧ هـ.ش ، حسن أنورى : نفس المرجع السابق ، ص ٣٢)

Nazim: The life and the time of Mahmoud of Ghazn, p. 134 (Cambridge, 1931).

١٦- غزنة : بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء غزنين

ويعربونها فيقولون جزنة ، غزنة قصبة الإقليم ، وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان ، وهى الحد بين خراسان والهند فى طريق فيه خيرات واسعة ، إلاّ أن البرد فيها شديد .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٠١ ، طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٨٤ م) .

١٧- كرمانى : نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء ، ص ٤٥ ، بتحصيح ومقدمه مير جلال الدين حسين جانجاه دانشكاه ، انتشارات دانشكاه تهران .

١٨- البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣٩٠ ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٤٠ .

١٩- العتبى : تاريخ اليمينى ، ص ١٠٢ ، بهامش كتاب ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩ م .

١٢- البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٩ .

٢١- البيهقى : نفس المصدر السابق ، ص ٥٧٠ .

٢٢- البيهقى : نفس المصدر السابق ، ص ٧٢٦ .

٢٣- كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٤٥ .

٢٤- ميرخواند : روضة الصفا ، ص ١٢٩ .

سبكتكين هو مؤسس الدولة الغزنوية ، وكان فى بداية حياته عبدا لألبتكين ، الذى كان بدوره عبدا لدى نصر بن أحمد السامانى ، الذى أسند إليه قيادة الجيش فى عهد نوح بن منصور ، ثم تولى منصب الحجابة فى القصر ، فاكتسب مكانة عالية ، خاصة فى عهد عبد الملك بن نوح .

(Nazim: The life and the time of Mahmoud, p. 24.)

(خليل الله خليلى : سلطنة غزنويان ، ص ٣ ، طبعة كابل ١٣٣٣ هـ . ش) .

وقد تمكن سبكتكين عقب عقب وفاة البتكين من الوصول إلى حكم غزنة سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦ م .

٢٥- الكرديزى : زين الأخبار ، ص ٢٨٩ ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٢م.

٢٦- الكرديزى : نفس المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

٢٧- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٧ .

٢٨- نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

Nazim: The life and the time of , p. 135.

٢٩- عباس إقبال : الوزارة فى عهد السلاجقة ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

٣٠- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ إلى ٤٨ .

مرو : مدينة من مرو الشاهجان ، وهى على نهر عظيم ، وتعتبر من أشهر مدن خراسان وهى قصبتها (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١١٢) .

٣١- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

٣٢- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤١٨ .

٣٣- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، أحمد كمال الدين أحمد : السلاجقة ، ص٢١٠ .

٣٤- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٨ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ .

٣٥- نظام الملك الطوسى : سياسة نامه ، ص ٢٩٧ ، ترجمة السيد محمد العزاوى ، طبعة دار الرائد العربى ، القاهرة سنة ١٩٧٥م .

٣٦- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٥٢ ، طبعة لاهور سنة ١٩٣٣ م .

٣٧- ملكشاه هو ابن ألب أرسلان بن جغر بيك بن ميكائيل بن سلجوق ، تولى الحكم عقب وفاة والده ألب ارسلان مع وجود عدة اخوة أكبر منه ، وذلك بسبب مساندة وجهود الوزير نظام الملك الطوسى له ، وقد ثار عليه أخوه الأكبر تكش ، وعمه قاورد (القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٠١) .

٣٨- الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٣٢ ، تحقيق محمد نور الدين ، طبعة دار اقرأ سنة ١٩٨٥ م .

٣٩- نظام الملك الطوسى : سياسة نامه ، هامش ١ ، ص ٢٩٧ .

٤٠- الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٣٢ .

٤١- ابن أيبك الدوادارى : كنز الدر وجامع الغرر ، جـ٧ ، ص ٢٤٥ ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م .

٤٢- الخطا : تنسب دولة القره خانيين إلى مجموعة القبائل التركية الوثنية التى تدين بالبوذية ، قامت على حدود تركستان فى عهد السلاجقة ، واستطاعت أن تثبت أقدامها فى تلك المناطق ، وتؤسس لها دولة فى حدود سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، وقد اتسعت دولتهم فشملت المنطقة ما بين مملكة الخوارزميين فى الغرب ، ومساكن المغول فى الشرق ، وأطلق على ملوكهم لقب كورخان .

(نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص ١٠٨ ، طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤٩م) .

٤٣- خوارزم : خوارزم ليس اسما للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها فأما القصبة العظمى يقال لها اليوم الجرجانية ، وأهلها يسمونها كركانج .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣٩٥م) .

علاء الدين خوارزمشاه محمد بن تكش ، كان أبوه أحد مماليك الملك العادل ألب أرسلان ، استولى على خراسان والعراق العجم وبلاد ما وراء النهر ، وطمع فى الاستيلاء على بغداد .

(ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر ، جـ٧ ، ص ٢١٧) .

٤٤- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

٤٥- همذان : فى الإقليم الرابع ، طولها من جهة الغرب ثلاث وسبعون درجة ، بها المياه العذبة وهواءها طيب ، فتحها المغيرة بن شعبة سنة ٢٤ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٤١٠ ، ٤١١) .

٤٦- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، الطبعة الثالثة ، لجنة إحياء التراث .

المقصود بصفى الدين المستوفى هذا والد عماد الدين الأصفهانى ، صاحب كتاب تاريخ دولة آل سلجوق .

٤٧- عماد الدين الأصفهانى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

٤٨- الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، طبعة المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٠ .

نظام الإقطاع الذى اتبعه السلاطين السلاجقة فى توزيع الأرزاق على الجند ، نوعان إقطاع وتمليك ويمنح من الأراضى التى ليس لها صاحب ، ولها حق الإقطاع حق التصرف فيه بالبيع والإيجار والتوريث ، والثانى إقطاع استغلال ، وليس لصاحبه إلا حق استغلاله فقط ، ويعود للدولة بعد انتهاء مدة إقطاعه، وهو الذى يمنح بدلا من الأرزاق .

(الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٩٠ - ١٩٢ ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٧ م ، نظام الملك الطوسى : سياست نامه ، ص ٦٧ ، ٧٤ ، ١٣٩) .

٤٩- الراوندى : نفس المصدر السابق ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١

٥٠- الراوندى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

٥١- ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، جـ٥ ، ص ٤١٤ ، طبعة دار صادر بيروت لبنان سنة١٩٨٢ م .

٥٢- ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ، ص ٢٤٦

٥٣- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢١٨ .

٥٤- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٢٥ .

٥٥- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٥ .

٥٦- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٨ هـ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنة ١٩٩٢ م .

٥٧- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٥٩ هـ ، ص ٥٤ ، طبعة دار صادر بيروت سنه ١٩٨٢ م ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٥ .

٥٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦ .

٥٩- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٢ هـ ، ص ١٨٠ .

٦٠- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٦١ .

٦١- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٢ هـ ، ص ٢١٦ .

٦٢- عباس إقبال : الوزارة فى العهد السلجوقى ، ص ٢٧ .

٦٣- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

٦٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ١٨٢ .

٦٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ .

٦٦- حسن أنورى : ديوان استيفاء دور حكومت ، ص ٣١ ، ٣٢ .

٦٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٤ .

٦٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٧ .

٦٩- ابن الجوزى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٩ .

٧٠- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٢ .

٧١- البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٧٠ .

٧٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٨٨ .

٧٣- قلعة تكريت : تقع بين بغداد والموصل ، وهى قلعة حصينة فى غرب نهر دجلة ، أول من بنى هذه القلعة سابور بن أردشير بن بابك ، افتتحها العرب فى عهد عمر بن الخطاب ، حيث أرسل إليها سعد ابن أبى وقاص جيشا على رأسه عبد الله بن المعتم ، ففتحها عنوة ، (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣٨ ، ٣٩) .

٧٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٨٩ .

٧٥- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٣٤ .

٧٦- ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٣٦ .

٧٧- Miles Gearge: The Numismatic History of Rayy, p 90, (New York, 1938).

٧٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٥٩ هـ ، ص ٥٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦ .

٧٩- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٣ .

٨٠- نيسابور : مدينة عظيمة خارجة من الإقليم الرابع إلى الإقليم الخامس ، فتحت فى خلافة عمر بن الخطاب .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٣٣١) .

٨١- الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

٨٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦

٨٣- الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٧٢ .

٨٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٧١ .

٨٥- نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٥٤ .

٨٦- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

٨٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٩ .

٨٨- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص ١٣٠ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ .

٨٩- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ الدولة ، ص ٩٤ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٣٤ .

٩٠- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٠ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

٩١- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

٩٢- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٥٥ .

٩٣- نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٨٨ .

٩٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ١٨٢ .

٩٥- الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٠ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٨ .

٩٦- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ الدولة ، ص ١٢٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٧٥ .

٩٧- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠ ، ص ٢٨ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٩٢ .

٩٨- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٣ .

٩٩- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٣٣ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

١٠٠- الحسينى : زبدة التواريخ ، هامش ٣ ص ٢١٤ .

١٠١- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، أحداث سنة ٥٢٣ هـ ، ص ٧٠ .

١٠٢- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠ ، ص ٢٠٦ .

١٠٣- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ الدولة ، ص ٨٤ .

١٠٤- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩٨ .

قلعة نخجوان : بالفتح ثم السكون وجيم مضمومة وآخره نون ، وهى قلعة بأقصى أذربيجان (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٧٦) .

١٠٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٧٠ .

١٠٦- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩١ .

١٠٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ١٩٨ .

١٠٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٠٤ .

١٠٩- بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ص ٩٤ ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

١١٠- براون : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ، ص ٤١١ ، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٥٤ م ، بارتولد : تركستان ، ص ٩٤ .

١١١- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ .

١١٢- الباخرزى : دمية القصر وعصرة أهل العصر ، جـ١ ، ص ٦٥٠ ، تحقيق محمد ألتونجى ، بدون تاريخ .

١١٣- الباخرزى : نفس المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦٥٠، ٦٥١ .

١١٤- نظامى عروضى السمرقندى ، جهار مقاله ، ص ١٣٠ .

١١٥- الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٣ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٧٥ .

ولقد نبغ مسكوية أبو على الخازن فى الطب فى عهد عضد الدولة البويهى .

(ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١٧) .

١١٦– الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٠٠ .

١١٧– محمد عوفي : لباب الألباب ، جـ١ ، ص ١٠٨ ، تصحيح أدوار ديروز أنكليش ، طبعة ليدن سنة١٩٠٣ م .

١١٨– محمد عوفي : نفس المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٠٨ .

١١٩– الجويني : عتبة الكتبة ، ص ١–١٧٠ .

١٢٠– ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٥ هـ ، ص ٢١٦ .

١٢١– الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٣ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢١٦ .

تركاني خاتون ابنة طمغاج خان بن بغراخان من بنات ملوك الخانية في تركستان وبلاد ما وراء النهر، (القزويني : تاريخ كزيده ، ص ١٠٢) .

١٢٢– عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ٨٥ .

١٢٣– الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ .

١٢٤– الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٧ .

١٢٥– ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ .

١٢٦– عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٨٢ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢١٦ .

الطغراء : كلمة تركية استعملها أصحاب الديوان منذ قيام الدولة السلجوقية ، والطغراء نسبة إلى من يكتب فوق البسملة بالقلم الجلي تتضمن اسم الحاكم وألقابه ، وهي كلمة أعجمية محرفة من الطرة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ١٩٠) .

١٢٧– الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ٥ ، ص ١٦٠ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢١٨ .

١٢٨– كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٢٩– عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٠٧ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٥٧ .

١٣٠– خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٨٩ .

١٣١– ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٥١٦ هـ ، ص ٦٠١ .

١٣٢– الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣٥ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٧٦ .

١٣٣– براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٤١١ ، ٤١٢ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٢٤ .

١٣٤- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ١٩٩ .

١٣٥- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٧ .

١٣٦- الحسينى : أخبار الدولة ، ص ٧٨ ، خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩٠ ، عباس إقبال : الوزارة ص ٢٤٧ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

١٣٧- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٣٤ ، خواندمير : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٥٨ .

١٣٨- الراوندى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .

١٣٩- خواندمير : دستورالوزراء ، ص٢٨٣ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٧٥ .

١٤٠- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ١٣٨ .

١٤١- خواندمير : دستور ، ص٢٨٣ .

١٤٢- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ١٤٩ .

١٤٣- خواندمير : دستورالوزراء ، ص٢٤٨ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٤٨ .

١٤٤- خواندمير : نفس المصدر السابق ، ص٢٩٣ .

١٤٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ١٧٤ .

١٤٦- عباس إقبال : الوزارة ص ٨٥ .

١٤٧- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٧ .

١٤٨- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٤ .

١٤٩- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ .

١٥٠- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ .

١٥١- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦-٤٨ .

١٥٢- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ ، ٥١ .

١٥٣-عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٥٨ .

١٥٤- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٣٧٣ .

١٥٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٦٢ .

١٥٦- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ .

والخازن هو الذى يحفظ السر ويكتمه ، ويخزن السلع لوقت الحاجة ، وخازن جمع خزنه وهو مسئول الخزن .

١٥٧- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

١٥٨- الحسينى :زبدة التواريخ ، هامش ٣، ص ١٩٢ .

١٥٩- الحسينى : أخبار الدولة ، ص ١٠٢ .

١٦٠- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٤ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٨٨ .

١٦١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

١٦٢- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٩٧ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٩ .

١٦٣- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ .

١٦٤- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٧٦ هـ ، ص ١٣١ .

١٦٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

١٦٦- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص ٤١ .

١٦٧- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ١٠١ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٠ .

١٦٨- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٥٠٦ هـ ، ص ٤٩٢ .

استمر تاج الدولة الديلمى الذى عذب أبو سعد هندو المستوفى فى منصبه حتى عهد السلطان محمود، وقد غضب عليه الوزير قوام الدين أنسابادى ، فأمر بشنقه بنفس الطريقة التى اتبعت مع أبى سعد المستوفى .

(عباس إقبال : الوزارة ، هامش ١ ، ص ٢٥٠)

١٦٩- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٤٥-٢٤٨ ، خواندمير : دستور ، ص ٢٩١ .

١٧٠- ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ٥ ، ص ٢٤٣

١٧١- الراوندى : راحة الصدور، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، الحسينى : زبدة التواريخ ص ٢١٢ ، ٢١٥ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

١٧٢- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠ ، ص ٨٧ .

١٧٣- أحمد بن عطاش : كان أبوه من مقدمى الباطنية ، فر مع أبيه من أصفهان إلى الرى ، كان يعمل سرا من أجل القضية الإسماعيلية .

١٧٤- الراوندى : راحة الصدور، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، خواندمير : دستور ، ص ٢٧١ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ .

١٧٥- الحسن الصباح : هو الحسن بن على بن على الحميرى ، يرجع نسبه إلى قبيلة حمير ، قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة ثم إلى قم فالرى ، الذى استوطنها ، وولد الحسن الصباح بها ، اعتنق مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، وتعلم المذهب على يد رجل يطلق عليه اسم مؤمن .

(عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ص ١٨٤ ، ١٨٦) .

ترجمة محمد جمال الدين .

١٧٦- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ١٠٧ .

١٧٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ١٩٠ .

١٧٨- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٤٨ ، أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة ، ص ٢٠١ .

١٧٩- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٧ .

١٨٠- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٠ .

١٨١- عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٣٠٦ .

١٨٢- الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٨٤ .

١٨٣- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص ١٠١ .

١٨٤- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ .

١٨٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

١٨٦- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقالة ص ١٣٠ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

١٨٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٨٥ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية :

١- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) : عز الدين أبو الحسن على بن أبو الكرم محمد " الكامل فى التاريخ " ، جـ١٠ ، جـ١١ ، طبعة دار صادر بيروت ، سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م .

٢- أحمد كمال الدين حلمى : " السلاجقة فى التاريخ والحضارة " ، الطبعة الأولى ، دار البحوث العلمية، الكويت سنة ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م .

٣- ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) : أبو بكر بن عبد الله " كنز الدرر وجامع الغرر " ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، جـ٧ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م .

٤- الباخرزى (ت ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤م) : على بن الحسن بن على بن أبو الطيب " دمية القصر وعصرة أهل العصر " جـ١ ، تحقيق ودراسة محمد ألتونجي ، بدون طبعة وتاريخ نشر .

٥- ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) : أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد " المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم " ، جـ٨ ، جـ٩ ، جـ١٠ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدر أباد الدكن ١٣٥٨ هـ .

٦- ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " ، جـ١ ، جـ٢ ، جـ٥ ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار صادر بيروت.

٧- الزبيدى : محمد مرتضى " تاج العروس " الجزء العاشر ، المطبعة الخيرية ، المنشأة بجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ .

٨- ابن القفطى (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م) : جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف " أخبار العلماء بأخبار الحكماء " ، مكتبة المتنبى بالقاهرة .

٩- الماوردى (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى " الأحكام السلطانية والولايات الدينية " ، طبعة دار الكتاب العلمية ، بيروت سنة ١٩٧٨ م .

١٠- أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) : جمال الدين تغرى بردى الأتابكى " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " ، جـ٥ ، الطبعة الأولى ، تعليق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٢ م .

١١- ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) : الوزير أسعد الأيوبى " كتاب قوانين الدواوين " ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

١٢- ابن منظور (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم " لسان العرب " ، جـ٦ ، تحقيق عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله هاشم الشاذلى ، طبعة دار المعارف .

١٣- ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م) : شهاب الدين أبو عبد الله " معجم البلدان " ، ٥ أجزاء ، طبعة دار صادر بيروت ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م .

ثانيا : المصادر والمراجع الفارسية :

١٤- البيهقى (ت ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٠م) : أبو الفضل محمد بن حسين " تاريخ البيهقى " ، ترجمة يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية .

١٥- الجوينى (ت ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م) : علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد " تاريخ جهانكشاى "، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ضمن كتاب دولة الإسماعيلية فى إيران ، طبعة مؤسسة سجل العرب ١٣٨٤هـ/ ١٩٧٥ م .

١٦- الجوينى (عاش فى عهد السلطان سنجر السلجوقى : مؤيد الدولة منتخب الدين بن بديع " عتبة الكتبة " ، مجموعة مراسلات ديوان السلطان سنجر ، بتصحيح واهتمام محمد قزوينى وعباس إقبال ، أول مرداد ١٣٢٩ شمس) .

١٧- حسن أنورى : " ديوان استيفاء در حكومت غزنويان وسلجوقيان " ، مجلة بررس هاى تاريخى ، العدد ٦ لسنة بهمن اسفند ١٣٥٢ شاره .

١٨- الحسينى (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥ م) : صدر الدين الحسن على بن ناصر " أخبار الدولة السلجوقية " ، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال ، طبعة لاهور سنة ١٩٣٣ م .

١٩- ـــــــــــ : " زبدة التواريخ المعروف بأخبار الأمراء والملوك السلجوقية " ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد نور الدين ، طبعة دار إقرأ ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م .

٢٠- خليل الله خليلى : " سلطنت غزنويان " ، طبعة كابل ١٣٣٣ هـ. ش .

٢١- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥م) : غياث الدين بن همام الدين " دستور الوزراء " ، ترجمة حربى أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

٢٢- الراوندى (ت ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢م) : محمد بن على بن سليمان " راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية " ، نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربى ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد عبد المعطى الصياد ، طبعة المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٠ م .

٢٣- عباس إقبال : " تاريخ إيران بعد الإسلام " ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة والنشر والتوزيع بالقاهرة .

٢٤- ــــــــــــــ : " الوزارة فى عهد السلاجقة " ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمى ، طبعة الكويت١٩٨٤ م .

٢٥- العتبى (ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦م) أبو نصر محمد بن عبد الجبار "تاريخ اليمينى" ، بهامش كتاب ابن الأثير : " الكامل فى التاريخ " ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩ م .

٢٦- عماد الدين الأصفهانى (ت ٥٩٧ هـ/ ١٠١٧م) : محمد بن محمد بن حامد " تاريخ دولة آل سلجوق " ، الطبعة الثالثة ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة ، بيروت سنة١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .

٢٧- الكرديزى (ت ١٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م) : أبو سعد عبد الحى بن الضحاك " زين الأخبار " ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م .

٢٨- كرمانى : " نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء " ، بتصحيح ومقدمة مير جلال الدين حسين ، جابجاه دانشكاه انتشارت دانشكاه تهران .

٢٩- القزوينى : (ت ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م) : حمد الله مستوفى " تاريخ كزيده " المعروف بالتاريخ المختار ، ترجمة محمود محمود قشطه ، ضمن رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب جامعة عين شمس سنة١٩٦٨ م .

٣٠- محمد عوفى (توفى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى/ القرن ١٣ الميلادى) : محمد نور الدين " لباب الألباب " ، جـ١ ، جـ٢ ، تصحيح أدوار دبروز انكليش ، طبعة بريل فى مدينة ليدن سنة١٩٠٣ م .

٣١- ميرخواند (ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) : محمد بن خاوند شاه " روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء " الطبعة الأولى ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، الدار المصرية للكتاب القاهرة سنة١٩٨٨ م .

٣٢- نظام عقيلى (توفى فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى . القرن ١٥ الميلادى) : سيف الدين حاجى " آثار الوزراء " ، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسينى تهران ، ١٣٣٧ هـ. ش .

٣٣- نظام الملك الطوسى (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) : الحسن بن اسحق بن العباس " سياست نامه " ، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوى ، طبعة دار الرائد العربى بالقاهرة ١٩٧٥ م .

٣٤- نظامى عروضى السمرقندى (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) : الحسن بن عمر " جهار مقاله " ، عليه خلاصة حواش العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩ م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

٣٥- بارتولد : " تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى " ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

٣٦- براون : "تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى " ، مطبعة السعادة بالقاهرة سنة١٩٥٤م.

37- Cambridge: History of Iran, Vol 4 , (Cambridge, 1975).

38- Miels Gearge: The Numismatic History of Rayy (New York, 1938).

39- Nazim: The Life and the time of Mahmoud of Ghazn, eith of areward by the late sir Tomes Arnold, (Cambridge, 1931).

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الإرهاب فى عصر الحروب الصليبية

جاء فى لسان العرب لابن منظور أن لفظ رهب بكسر ثانيه يرهب رهبة ورهبا، أى خاف . ورهب الشئ رهبا ورهبة ، أى خافه (١). ومن هذا الجذر اشتق لفظ أرهب بمعنى أخاف، وإرهاب بمعنى إثارة الخوف والفزع . وقد شاع استخدام اللفظ الأخير فى عصرنا الحديث، بمعنى بث الخوف تحت تأثير التهديد بالقتل والاغتيال غدراً ، وصار مصطلحاً لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء ، وصار مصطلحاً لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء والمخالفين ، عن طريق الاغتيال والقتل غدراً مع سبق الترصد والإعداد.

وفى إطار هذا المعنى تميز الإرهاب بطابع خاص وصارت له ملامح محددة، منها أنه اتخذ صورة حركات تعبر غالبًا عن تنظيم جماعى . وبعبارة أخرى فإن حوادث القتل الفردية الناجمة عن الخلافات الشخصية والتحاسد أو التنافس والرغبة فى الانتقام أو السرقة ... لا تعتبر فى المصطلح الحديث حوادث إرهابية . ومن المعروف أن أول حادث قتل فى تاريخ البشرية كان عندما قتل قابيل - ابن آدم عليه السلام- أخاه هابيل حسداً وسخطًا . ولم يكن قابيل عندما اقترف ذنبه مدفوعًا بقوة خارجية وإنما: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ (٢). ولا يمكن بمفهومنا الحديث أن نصف قابيل بأنه إرهابى وأن عمله كان إرهابا. وكذلك عندما

١- ابن منظور لسان العرب ، مادة رهب.

٢- المائدة ، آية ٣٠ .

نقرأ فى الكتب السماوية أن موسى عليه السلام دخل مدينة على حين غفلة من أهلها فوكز بعصاه رجلاً فقضى عليه وقتله ، فإننا لايمكن أن نعتبر هذا عملاً إرهابياً ، بدليل أن موسى سارع إلى استغفار ربه معاهداً إياه- عز وجل- على ألا يكون «ظهيراً للمجرمين»(١).

والإرهابى بمفهومنا الحديث لايعمل غالبًا بمفرده، وإنما تقف وراءه جماعة ، ينتمى إليها ، ويدين بفكرها وآرائها، ويمتثل لأوامرها ويخضع لإرادتها ويرتزق من ورائها. إنها بمثابة الرئاسة التى تخطط له وتحدد له دائرة نشاطه الذى يتصف غالبا بمسحة إجرامية . وفى مقابل كل ذلك فإنها تقدم له الوعود المعسولة ، وتتعهد بمساندته بعد تنفيذ الجريمة التى تحدد له أسلوبها ومكانها وتوقيتها.

وباستعراض العديد من الحركات الإرهابية عبر عصور التاريخ نجد أن معظمها يتمسح بالدين، ويتخذ منه ستاراً يخفى وراءه أهدافًا وتطلعات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية . وكثيراً ما تستخدم بعض المؤسسات الدينية ودور العبادة مراكز لنشاط الإرهابيين بل ربما ساحة لتنفيذ جرائمهم . فالدين بحكم ما له من سطوة على القلوب والنفوس، صار فى نظر الإرهابيين أصلح حجاب يمكنهم أن يستتروا خلفه لتبرير جرائمهم ضد المجتمع، والتخطيط للتخلص من القوى التى يعتقدون أنها تشكل حاجزاً يحول بينهم وبين تطلعاتهم وأهدافهم الهدامة المستترة . وقد تكون هذه الأهداف التعطش للوصول إلى الحكم لمجرد الرغبة فى فرض السيادة بدعوى الإصلاح ، أو الرغبة فى التحكم فى الثروات لنهب الأموال، أو غير هذا وذاك . وفى جميع الحالات يكون الاغتيال والقتل غدراً هو السلاح الرهيب الذى يعمل به الإرهابيون لنشر الرعب بين الناس، وإرغامهم على الخضوع لإرادتهم والرضوخ لسيادتهم والاستسلام لآرائهم ، بوصفهم «الأمراء» الذين يمسكون بأيديهم مفاتيح الحياة والموت ويتحكمون فى أبواب الجنة والنار.

وفى ضوء ما سبق يبدو أن الحركة الإرهابية يكون لها عادة ركنان أساسيان :

(أ) رئيس أو جهاز من الرؤساء يدبر ويرسم ويخطط ويوجه ، ويقدم المساعدات ويوفر الإمكانات ، ويختلق الوعود . وقد يتمثل هذا الجهاز فى حكومة من حكومات الدول التى تتخذ من الإرهاب وسيلة لفرض زعامتها على مجموعة من الدول التى تنافسها فى مجالات السياسة والرئاسة والاقتصاد.

١- القصص، آية ١٧ .

(ب) خلايا مأجورة من الأتباع والعملاء المخدوعين ، يراعى فيهم أن يكونوا فى حالة ضياع فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهؤلاء تجرى لهم عمليات غسيل مخ- تحت ستار الدين غالبًا - لاحتوائهم فكريًا وعقائديًا ، واستثارة مشاعرهم وحماستهم، وتقدم لهم الوعود المعسولة بأنهم هم المرشحون لحكم البلاد والعباد. ويمثل هذا الفريق أداة تنفيذ الجريمة، فيمضى الواحد منهم ليقترف ما يكلف به من عمليات الاغتيال وقتل الأبرياء ، وتخريب المنشآت ، إما رغبة فى الحصول على مكاسب دينية ودنيوية، وإما خوفًا من الوقوع تحت طائلة العقاب من رؤسائه ومحرضيه ، بعد أن تورط معهم وصار فى وضع لاينفع معه الندم ويصعب فيه التراجع عنه والانسحاب منه .

هذان الجهازان هما الركنان الأساسيان لأية حركة إرهابية . وإذا كان الجهاز الأول هو المدبر والمخطط والمحدد للجريمة ، فإن الجهاز الثانى هو التابع المنفذ . وقد تكون الصلات بين هذين الركنين أو الجهازين غير مباشرة ، وإنما تتوسط بينهما حلقات وكوادر أخرى من الدعاة والوسطاء ، وذلك رغبة فى التستر وزيادة فى الحرص والحيطة . ذلك أن رؤساء الحركات الإرهابية والمخططين لها، غالبًا ما يكونون على درجة من الجبن والحرص على الحياة بقدر ما يتطلبونه فى العملاء المنفذين للجريمة من جرأة وشجاعة وتضحية وفداء .

* * *

ولم تسلم الدولة الإسلامية عبر عصور التاريخ من ظهور بعض الحركات الإرهابية التى ذهب ضحيتها العديد من الأبرياء والمصلحين ، بل من الصالحين والمجاهدين . وفى هذه الحركات أمعن الإرهابيون فى ارتكاب جرائمهم، مدعين أنهم يعملون لخدمة أهداف يلصقونها بالدين لصقًا زائفًا مفتعلاً ، متناسين قوله تعالى : ﴿ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين﴾[1]، وقوله سبحانه : ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾ [2]، وقوله عز وجل : ﴿ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها﴾ [3].

وثمة ظاهرة تسترعى نظر المؤرخ اليقظ ، ولاسبيل لإنكارها لأنها حقيقة تاريخية، هى أن معظم الحركات الإرهابية الكبرى التى برزت فى تاريخ الدولة الإسلامية، ونخرت بنيانها فى

١- المائدة، آية ٨٧ .

٢- الإسراء ، آية ٣٣ .

٣- النساء ، آية ٩٣ .

كثير من حلقات التاريخ كان مصدرها بلاد فارس أو إيران الحالية، فمن هذه البلاد صدر العديد من الآراء الهدامة وانطلق الكثير من الدعاوى الباطلة التى تتمسح بالإسلام وتتخذ منه قناعًا تخفى وراءه اتجاهات هى أبعد ما تكون عن جوهر الإسلام وآفاقه . ومن فارس انطلقت هذه الحركات الهدامة إلى كثير من بلاد الدولة الإسلامية – شرقًا وغربًا ، تحاول نشر فكرها عن طريق إثارة الذعر واغتيال المخالفين والمعارضين .

وفى تعليل هذه الظاهرة رأى بعض الباحثين والمفكرين ، أن الفرس– وهم أصحاب سيادة قديمة وحضارة عريقة– صدموا لما حدث فى صدر الدولة الإسلامية من نجاح العرب فى فتح بلادهم وفرض السيادة العربية عليهم. وكان الفرس– قبل الإسلام– يحتقرون العرب ويقللون من شأنهم ، ولايرون فيهم إلا قبائل بدوية ، لاحضارة ولاجذور لها. وإذا كانت الظروف قد اضطرت الفرس إلى الرضوخ لحكم العرب تحت مظلة الإسلام ، فلا أقل من أن يستغلوا الإسلام لتصحيح الوضع، وإعادة بناء الهرم– من وجهة نظرهم– إلى وضعه الطبيعى، بحيث تكون السيادة للفرس، حتى ولو أدى ذلك إلى هدم العرب والعروبة. وما دامت سيادة العرب– فى نظرهم ارتبطت بالإسلام ، فليحاول الفرس– وهم قادرون بحكم جذورهم الحضارية – تفسير تعاليم الإسلام تفسيرات دخيلة تتفق وأهدافهم ، واستخراج فرق ومذاهب وطوائف ذات آراء ومعتقدات بعيدة عن روح الإسلام ، لهدم الأمة العربية ونقل السيادة على العالم الإسلامى للفرس.

ومن أبرز المفكرين الذين أدركوا هذه الحقيقة وعبروا عنها تعبيرًا دقيقًا ، المؤرخ أحمد بن على المقريزى – شيخ المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد– إذ كتب يقول ما نصه :

[واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر على أنفسها ، بحيث كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدًا لهم].

[فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب– وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرًا– تعاظمهم الأمر، وتضاعفت عليهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى. وفى كل ذلك يظهر الله الحق . وكان من قائميهم (زعماء الحركات الإرهابية) شنفاد، وأشنيس ، والمقنع، وبابك ، وغيرهم... فرأوا أن كيده (كيد الإسلام) على الحيلة أنجع ...] .

* * *

وقد حفلت المرحلة النشطة فى تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق الأوسط، وهى الفترة الواقعة بين أواخر القرن الحادى عشر وأواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، (الخامس والسابع للهجرة) بالعديد من حوادث القتل والاغتيال ، سواء فى الجانبين الإسلامى والمسيحى. ولكن الغالب على هذه الحوادث أنها لم تستند إلى حركات إرهابية أو تنظيمات خططت لها لتحقيق أهداف معينة، وإنما كانت حوادث فردية ، ناجمة عن خصومات شخصية أو منافسات فردية، معظمها حركته أطماع سياسية ، ويستثنى من ذلك جماعة إرهابية كبرى انبعثت من بلاد فارس، وانطلقت إلى العديد من بلاد الشرق الأوسط، لتلعب دوراً خطيراً فى عصر الحروب الصليبية . ونعنى بهذه الجماعة فرقة الإسماعيلية التى أطلق عليها أيضاً اسم الباطنية واسم الحشيشية .

والإسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق . يقول الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) إن من أشهر ألقابهم الباطنية، و«إنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً» . وبعبارة أخرى، فإنهم استباحوا لأنفسهم تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل حكم من أحكام الشريعة باطناً يتفق وأهدافهم ، ولايحيط به إلا أهل العلم منهم . ويرد المقريزى على ذلك قائلاً «والحق الذى لاريب فيه هو أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجوهر لا سر تحته» .

ولعله من المناسب هنا أن نؤكد عدم الربط بين مصطلحى الشيعة والباطنية ، بمعنى إنه إذا كان الباطنية قد انحرفوا عن المذهب الشيعى ، فليس معنى ذلك أن كل شيعى باطنى. وبعبارة أخرى، إذا كان الباطنية قد تفرعوا عن الشيعة إلا أنهم يمثلون جناحاً متطرفاً ، ليس له من التشيع إلا الاسم والطلاء الخارجى. أما الشيعة المعتدلون فهم أبعد ما يكونون عن سياسة التطرف التى انتهجها الباطنية . ويعبر عن هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير عندما يشير فى حوادث سنة ٥٠١هـ إلى الأمير العربى سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس ، فيقول ما نصه :

(وقد طعن فى اعتقاده ، ونسبه بعض خصومه إلى مذهب الباطنية، وكذب ، وإنما كان مذهبه التشيع لا غير) .

وقد برز من رؤساء الباطنية اسم الحسن بن الصباح (ت ٥١٨هـ) الذى وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ، ذكياً ، عالماً بالهندسة والحساب والنجوم. وكان أن ادعى أنه مصدر العرفان، فأول القرآن تأويلاً يتفق وأهدافه السياسية، ونشر دعاته فى البلاد والأقاليم . ولم يلبث أن

اشتد ساعده فى فارس وبلاد المشرق ، فاستولى على العديد من القلاع والحصون ، منها قلعة اصبهان ، وقلعة الموت من نواحى قزوين ، وقلعة وسنمكرة، وقلعة خالنجان ، وقلعة أستوناوند ، وقلعة أردهن ، وقلعة الناظر ، وقلعة الطنبور، وقلعة خلادخان ... وغيرها .

ثم إن الحسن بن الصباح نظم جماعته على درجات ، وجعل نفسه رئيسًا للدعوة، وهو ما أطلق عليه اسم (شيخ الجبل) . ويعنينا فى هذه الدرجات تلك الفئة التى أطلق على أفرادها اسم الفداوية، أو الفدائيين ، وهم يمثلون المرتبة الخامسة فى درجات التنظيم .. وكان يراعى فى اختيار هؤلاء الفدائيين صفات خاصة، أهمها الجرأة والذكاء والمرونة فى الحركة . ولم يشترط فى الفدائى الإلمام بأصول الدين وأحكامه ، أو الدراية بأسرار المذهب وتعاليمه ، وإنما اشترط فيه الطاعة العمياء لرؤسائه ، وتنفيذ كل ما يصدر إليه من أوامر وتعليمات خاصة ما يتعلق باغتيال من توكل إليه مهمة اغتيالهم. وبذلك تحولت جماعة الباطنية الاسماعيلية إلى تنظيم إرهابى خطير أثار الذعر فى جوف الدولة الإسلامية .

يذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م) أن رئيس الدعوة - شيخ الجبل- أنشأ قرب قلعة الموت- فى إقليم قزوين- بستانًا حرص على أن يزوده بكل أوصاف الجنة، من خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى، وفاكهة مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون... فإذا وقع الاختيار على أحد الفتية لينخرط فى سلك الفداوية ، فإنه يسقى جرعة من مشروب مخدر - لعله من نبات الحشيش- مما جعل اسم الحشيشية يلصق بهذه الجماعة. وعندما يفقد المخدَّر وعيه ، يُحمل إلى تلك الجنة المصطنعة ، حتى يفيق ، فتترك له حرية الاستمتاع بما فى جنته من ألوان المتعة . وبعد عدة أيام يعاد تخديره ليحمل وهو فاقد الوعى إلى موضعه الأول، حتى إذا ما أفاق أخذ يحلم بالعودة إلى الجنة، وعندئذ تقدم له الوعود بإعادته بشرط أن ينفذ جريمة الاغتيال فى فلان من خصوم الباطنية. وهكذا يمضى الفدائى لا يلوى على شئ محاولاً تنفيذ الجريمة، ربما دون وعى بأبعادها وأسبابها وعواقبها .

ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن شوكة الباطنية أخذت تشتد منذ أيام السلطان السلجوقى ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) . وكان الباطنية قد دعوا مؤذنًا مقيمًا بأصبهان للدخول فى دعوتهم ، فلم يستجب لهم فقتلوه . وعندما أمر نظام الملك- وزير السلطان ملكشاه- بقتل القاتل، انتقم الباطنية باغتيال نظام الملك ، وهو من أعلام رجال السنة البارزين. وقد حزن جمهرة المسلمين حزنًا شديداً لمقتل نظام الملك سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) «لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن»

على قول ابن القلانسى . أما عن كيفية اغتيال نظام الملك، فقد قتل بنفس الأسلوب الذى شاع بين الباطنية فى اغتيال ضحاياهم، إذ يقترب الباطنى الإرهابى من فريسته فى صورة مستغيث ، حتى إذا ما تمكن منه أخرج سكينًا يخفيه فى طيات ردائه وطعنه عدة طعنات حتى يخر قتيلاً. فاذا لم تتم عملية الاغتيال وظهر أن الفريسة ما زالت على قيد الحياة ، برز باطنى ثان، وربما ثالث حتى يتم الإجهاز على الضحية .

وهكذا تعرض الباطنية فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الشرق الأوسط لعدد من حكام المسلمين وأمرائهم- وبخاصة من أهل السنة- بالاغتيال يذكر المؤرخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٠هـ أن الأمير أقسنقر - بهمدان - «كان كثير الغزو إليهم، والقتل فيهم، والتخريب لبلادهم، فوثب عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه» . ولعل هذا مما جعل الأمراء فى ذلك العصر ، يبالغون فى الحيطة ولبس الدروع، حتى فى ذهابهم إلى الجامع للصلاة ، خوفًا من أن يتعرضوا للاغتيال على أيدى تلك الجماعة الهدامة . من ذلك ما جاء فى المصادر المعاصرة عن الأمير بلكابك سرمز، من أمراء السلطان محمد السلجوقى ، إذ «كان كثير الاحتياط من الباطنية ، لايفارقه لبس الدرع». وعندما أغفل فى أحد الأيام لبس درعه «قتله الباطنية» (سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠م) .

ولم يقف سلاطين السلاجقة- وهم من أهل السنة- موقف المتفرج على نشاط الباطنية. من ذلك أن جاولى سقاووا- حاكم الموصل من قبل السلطان محمد السلجوقى - حارب الباطنية سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م) «وقتل خلقًا كثيرًا منهم» . وفى نفس تلك السنة «فتك السلطان بركياروق بالباطنية، بعد أن اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم وقتلوا جماعة من الأمراء الأكابر...، وصاروا يتهددون من لايوافقهم بالقتل .. فأشار بعض خواص السلطان عليه أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم...».

وفى سنة ٤٩٧هـ (١١٠٤م) أمر السلطان سنجر أحد أمرائه بقتال الباطنية، (فأكثر فيهم القتل والنهب والسبى ، وفعل بهم الأفعال العظيمة...) . على أنه يبدو أن السلطان سنجر تخوف من الإمعان فى معاداة الباطنية، فصالحهم وأمنهم، بعد أن اشترط عليهم «أن لايبنون حصنًا ولايشترون سلاحًا ولايدعون أحدًا إلى عقائدهم ...» وكان أن غضب رعايا السلطان من ذلك الصلح ، مما يدل على استياء جمهور المسلمين من تلك الفرقة الإرهابية الهدامة «فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونقموا على سنجر» .

وكان جمهور الناس على حق فى نقمتهم على تلك الفرقة الإرهابية إذ تشجع الباطنية فى خراسان، وأغاروا فى العام التالى - ٤٩٨ هـ / ١١٠٥م- على عديد من النواحى (وأكثروا القتل فى أهلها، والنهب لأموالهم ، والسبى لنسائهم حتى اشتد أمرهم ، وقويت شوكتهم...) حتى حجاج بيت الله الحرام لم يسلموا من عبث هؤلاء الإرهابيين، مما يدل على إنعدام الوازع الدينى عندهم، وبعدهم عن الإسلام وأركانه وروحه وأحكامه ، فأغاروا فى نفس السنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م) على قافلة كبيرة للحجاج (فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا، وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئًا ....)

* * *

ثم إن الباطنية الاسماعيلية الذين انطلقت حركتهم الإرهابية من بلاد فارس مدوا نشاطهم إلى مصر وبلاد الشام، وذلك منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى. وفى ذلك الحين كانت تقوم للمذهب الإسماعيلى دولة فى مصر، هى الدولة الفاطمية. ومع أنه لايوجد أى دليل على أن الفاطميين انغمسوا فى المسار المنحرف الذى سلكته الباطنية ، إلا أن هناك ما يشير إلى أن الباطنية حاولوا توثيق الروابط مع الفاطميين ، ربما للحصول على تأييدهم، ففى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م) «وصل الحسن بن الصباح الاسماعيلى فى زى تاجر إلى المستنصر بالله (الخليفة الفاطمى عندئذ بالقاهرة) وخاطبه فى إقامة الدعوة له بخراسان وبلاد العجم». ثم أخذوا يعملون لنشر الدعوة للفاطميين فى المشرق، إذ «قصدوا ما وراء النهر، ودعوا إلى طاعة المستنصر بالله العلوى صاحب مصر ، فتبعهم جمع كثير، وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد».

ومع ذلك فإن الدولة الفاطمية فى مصر لم تسلم من شرور الباطنية الذين لم يترددوا سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) فى اغتيال الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالى «صاحب الأمر والحكم بمصر ... وكان الاسماعيلية يكرهونه لأسباب منها تضييقه على إمامهم ، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها ترك معارضة أهل السنة فى اعتقادهم ، والنهى عن معارضتهم...». وكان أن انقض عليه ثلاثة من الإرهابيين الباطنية، وهو فى طريقه إلى خزانة السلاح، وطعنوه بالسكاكين فى خاصرته «فسقط عن دابته» . وبعد ذلك بسنوات قليلة- سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ - اغتال الباطنية الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله صاحب مصر «وثب عليه الباطنية فقتلوه».

أما بلاد الشام فقد تسرب نفوذ الباطنية إليها أيضًا فى أواخر القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر للميلاد– بحيث لم يستهل القرن التالى إلا وكانت لهم سطوة فى تلك البلاد وعندما نقول أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للهجرة – الحادى عشر والثانى عشر للميلاد – علينا أن نتذكر أن تلك الفترة تمثل المرحلة التى غزا فيها الصليبيون الغربيون بلاد الشام وأقاموا لأنفسهم مملكة قوية فى بيت المقدس، فضلاً عن بعض الإمارات فى المدن الكبرى، وهكذا جاء استفحال خطر الباطنية فى بلاد الشام فى تلك المرحلة الحرجة ليزيد من سوء الأوضاع التى تعرضت لها الجبهة الإسلامية، مما أضر بحركة الجهاد الإسلامى أبلغ الضرر.

وقد اتخذ نشاط الباطنية الحشيشية فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية اتجاهين: أولهما– وهو الاتجاه الرئيسى الذى استهدف مقاومة المذهب السنى واغتيال زعمائه وقادته . وثانيهما – وهو الاتجاه الفرعى وقد استهدف اغتيال بعض الزعماء الصليبيين– لا لأنهم صليبيون، ولكن لأنهم وجدوا فيهم خطراً يهدد– أو على الأقل يعوق– نشاطهم ويقف عقبة فى طريق تحقيق طموحاتهم.

ولم يتحرج الباطنية فى بلاد الشام من محالفة الصليبيين حينًا، أو مساعدة بعض زعماء السنة ضد خصومهم أحيانًا ، مما جعل منهم عصابة من الارهابيين المأجورين ، يعملون لحساب هذا الجانب أو ذاك ، وفقًا لما تتطلبه مصالحهم أو لما يعود عليهم من كسب.

واتخذ الباطنية عدة قلاع وحصون ببلاد الشام مراكز لنشاطهم منها حصن القدموس الذى اشتروه سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) من صاحبه ابن عمرون، «وصعدوا إليه ، وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم ». وحصن مصيات (مصياف أو مصياب)، «وكان مملوكًا لبنى منقذ– أصحاب شيزر ، فاحتالوا عليه (على صاحبه) ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م) . وفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) ملكوا بانياس ، «فجلت المحنة واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين لاسيما أهل السنة...» وندرك من هذه العبارة الأخيرة أن الباطنية كانوا سوطًا مسلطًا على الدين وأهله، وإن تظاهروا بالتمسح بالدين. ذلك أن الاغتيال كان السلاح الرهيب الذى استغله الباطنية فى التخلص من خصومهم ، مما أثار فى تلك الحقبة جواً من الإرهاب والخوف فى الشام ومصر ، فضلاً عن خراسان وبلاد المشرق.

وقد بلغ من تطرفهم أنهم كانوا يختارون وقت الصلاة لاغتيال ضحاياهم ، مما جعل العديد من الشهداء يتعرضون للقتل فى المساجد والجوامع وربما وهم يؤدون الصلاة. من ذلك ما حدث سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) من اغتيالهم جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وكان قد «نزل من القلعة إلى الجامع لصلاة الجمعة ، وحوله خواص أصحابه بالسلاح التام، فلما حصل بموضع مصلاه على رسمه، وثب عليه ثلاثة نفر عجم من الباطنية ، فضربوه بسكاكينهم ، وقتلوه ، وقتلوا معه جماعة من أصحابه ...». وبعد ذلك بثلاث سنوات، قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية «قتله قوم من الباطنية».

وزاد من سطوة الباطنية فى بلاد الشام فى أوائل القرن السادس الهجرى- الثانى عشر للميلاد - عطف رضوان ملك حلب عليهم، بعد أن وجد فيهم أداة صالحة للتخلص من خصومه ، ويقول المؤرخ ابن الأثير أنه عندما قتل الباطنية جناح الدولة حسين صاحب حمص ، فإن ذلك «كان بأمر رضوان ورضاه».

ومن ناحية أخرى، استغل طغتكين أتابك دمشق الباطنية فى اغتيال المجاهد الكبير مودود أتابك الموصل، الذى أتى إلى الشام نجدة للمسلمين فى حربهم ضد الصليبيين . فلما كان يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) وبعد أن فرغ مودود من أداء صلاة الجمعة فى جامع دمشق وبصحبته طغتكين - اقترب رجل من الباطنية من الأمير مودود «كأنه يدعو له ويتصدق ... وضربه بخنجره أسفل صرته » فقتله . ويقال إن ملك بيت المقدس الصليبى كتب إلى طغتكين بعد مقتل مودود كتابًا جاء فيه : «إن أمة قتلت عميدها ، يوم عيدها (يوم الجمعة) ، فى بيت معبودها (المسجد) ، لحقيق على الله أن يبيدها».

وهكذا مضى الباطنية فى تنفيذ مخططهم الإرهابى فى بلاد الشام فذهب ضحيتهم جماعة من خيرة المجاهدين فى وقت كان المسلمون فى حاجة ماسة إلى جهودهم، الأمر الذى أثار استياء جمهرة المسلمين- وخاصة من أهل السنة- بالشام . وما كاد رضوان صاحب حلب يموت سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، حتى استثار أهل حلب ابنه وخليفته- ألب أرسلان، الملقب بالأخرس - ضد الباطنية. وكان أن أمر ألب أرسلان بالإيقاع بهم فى حلب، مما أدى إلى مقتل مقدمهم أبى طاهر الصائغ ، هو وجماعة من أعيانهم، فى حين فر الباقون «فمنهم من قصد الفرنج، وتفرقوا فى البلاد» .

وهؤلاء الباطنية الذين فروا من حلب عقب وفاة رضوان سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، واتجهوا إلى الصليبيين صاروا عونًا لهم ضد المسلمين وأداة فى أيديهم لاغتيال قادة حركة الجهاد

الإسلامى. يذكر المؤرخ ابن الأثير أن الباطنية عندما ازداد نفوذهم فى دمشق، راسلوا الفرنج، سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩م) ليسلموا دمشق للصليبيين مقابل تنازل هؤلاء الأخيرين عن مدينة صور للباطنية . ولكن تاج الملوك بورى صاحب دمشق اكتشف المؤامرة ، فقتل المزدقانى زعيم الباطنية بدمشق، وعلق رأسه على قلعة المدينة، وأخذ يطارد الباطنية حتى قتل منهم ستة آلاف. وقد أثار ذلك الوضع مخاوف اسماعيل الباطنى والى بانياس ، «فراسل الفرنج، وبذل لهم تسليم بانياس والانتقال إلى بلادهم (لاجئًا) ، فأجابوه ، فسلم القلعة إليهم، وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم ، ولقوا شدة وذلة وهوانًا ...».

وهكذا تحقق أكثر من تحالف بين الباطنية والصليبيين فى بلاد الشام فى تلك الحقبة ، ضد الخصم المشترك، ممثلاً فى أمراء المسلمين وقادتهم من أهل السنة . ولا أدل على قوة الرابطة بين الباطنية فى الشام والصليبيين فى تلك المرحلة، من مدى تأثر الصليبيين وغضبهم لمقتل المزدقانى زعيم الباطنية فى دمشق ، إذ كانوا يبنون عليه آمالاً كباراً فى الاستيلاء على هذه المدينة . لذلك ما كادوا يسمعون خبر مقتله حتى «تأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها...».

ونخرج مما سبق بنتيجة واضحة، هى أن هؤلاء الإرهابيين الذين تمسحوا بالدين كانوا أبعد ما يكونون عن الإخلاص للدين. لقد اتخذوا الإسلام ستاراً يخفون من ورائه سياستهم الإجرامية فى اغتيال الأبرياء ، وسفك دماء المجاهدين ، والتخلص من المعارضين لهم. ولا مانع لديهم من تسليم البلاد وأهلها إلى الغزاة المعتدين، من الصليبيين الغربيين.

ولم يغفر الباطنية لتاج الملوك بورى صاحب دمشق قتل زعيمهم المزدقانى ، فدبروا مؤامرة لاغتياله سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) «وجرحوه جرحين، برأ أحدهما ، وبقى الآخر حتى اشتد عليه، وتوفى بسببه بعد قليل...».

ومضى الباطنية فى سياستهم الإرهابية ، بحيث يضيق المقام عن ذكر كافة ضحاياهم من الأبرياء . وفى النصف الأخير من القرن السادس الهجرى- الثانى عشر للميلاد - لم يسلم صلاح الدين الأيوبى- بطل الجهاد الذى وهب نفسه لتخليص قلب العالم الإسلامى من خطر الغزاة - من محاولة اغتياله على أيدى تلك الفرقة الإرهابية التى ادعت نسبتها إلى الإسلام. وقد حدث سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م أن دبر جماعة من أتباع الدولة الفاطمية فى مصر مؤامرة لاغتيال صلاح الدين . ولما وجدوا أنهم فى حاجة إلى مساعدة خارجية، بادروا بالاتصال

بالفرنج فى الشام وصقلية ، كما كاتبوا سنان مقدم الحشيشية فى الشام ليبعث إليهم أحد رجاله المدربين لاغتيال صلاح الدين «ويثب عليهم مكيدة وصيلة». ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة وتخلص من مدبريها .

ولم يصرف الباطنية نظرهم عن صلاح الدين بعد ذلك، أصروا على اغتياله. فبينما كان صلاح الدين يخوض معركته الضارية ضد الصليبيين فى بلاد الشام، إذا به يفاجئ وهو يحاصر قلعة إعزاز سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) بأحد الباطنية يثب عليه. «فضربه بسكين فى رأسه فجرحه ، ولولا أن المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله». وتعاقب بعد ذلك ثلاثة من الباطنية– الواحد بعد الآخر – يهاجمون صلاح الدين، ولكنهم قتلوا جميعًا، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لايصدق بنجاته».

ولم تكن هذه المحاولة الأخيرة لاغتيال صلاح الدين على أيدى الباطنية، إذ تعددت محاولاتهم ، لا لسبب سوى أن صلاح الدين سنى يشكل عقبة فى وجه نشاطهم . ومن ناحية أخرى فإن صلاح الدين لم يغفر للباطنية عدوانهم، فهاجم حصونهم بالشام، «وحصر قلعة مصياب – وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم– فنصب عليها المجانيق ، حتى توسط شهاب الدين الحارمى– خال صلاح الدين فرحل عنهم». ويبدو أن صلاح الدين كان راغبًا عندئذ فى توجيه كل طاقته ضد خصومه من الصليبيين ، ولنا أن نتخيل صورة التاريخ لو كان هؤلاء الإرهابيون قد نجحوا فى تنفيذ خططهم التى استهدفت قتل صلاح الدين. فلو تحقق ذلك ، ما كانت حطين، وما كان استرداد «بيت المقدس– على الأقل فى تلك المرحلة– من الغزاة الغربيين، ولتعرض المسلمون فى الشرق الأدنى لمزيد من الضربات ، نتيجة لأعمال عصابة من المجرمين يدعون الانتماء إلى الإسلام .

وفى تلك الأثناء ، كان هؤلاء الملاحدة من الإرهابيين يواصلون نشاطهم الهدام فى المشرق الإسلامى. ولم تتوقف هجماتهم العدوانية على قوافل الحجاج ، فانقضوا على قافلة لهم سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) وأبادوهم ، «وقتل منهم من الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير . وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام وخصت خراسان، ولم يبق بلد إلا وفيه مأتم ...» ولم يستسلم سلاطين السلاجقة أمام خطر الباطنية ، فاستمروا يواصلون جهودهم لمطاردة الإرهابيين والعمل لاستئصال شأفتهم. وساعدهم فى جهودهم عامة الناس والأهالى الذين كانوا «يكرهون مجاورتهم».

* * *

ومنذ أواخر القرن السادس وأوائل السابع للهجرة (الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) أخذ تيار تلك الجماعة الإرهابية يضمحل ، بعد أن لمسوا أنهم مكروهون من كافة الناس، وأن المجتمع الإسلامى ضاق بجرائمهم ذرعًا .

وكفى أن الناس أحسوا بأن أولئك الإرهابيين حرموهم من نعمة الأمن التى هى أساس بقاء أى مجتمع ، والتى تعتبر من أبرز خصائص المجتمع الإسلامى.

وكان أن اضطر الباطنية إلى التراجع والعودة إلى طريق الله ونبذ الإرهاب . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذت أعدادهم تتناقص مما أضعف من قوة نشاطهم . وفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) أعلن مقدم الباطنية التوبة «وأظهر الانتقال عن فعل المحرمات وإستحلالها، وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام. وأرسل مقدمهم رسلاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج ، فأكرمت ببغداد إكرامًا عظيمًا وكذلك بطريق مكة ...».

وإذا كانت قد تبقت للباطنية بعض الحصون ببلاد الشام حتى منتصف القرن السابع الهجرى- الثالث عشر للميلاد- فإن السلطان الظاهر بيبرس- سلطان دولة المماليك (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) استولى على تلك الحصون واحداً بعد آخر ، وبذلك عادت ممتلكات الباطنية إلى رحاب الإسلام الحق «فأقيمت هناك الجمعة وترضى عن الصحابة بها ، وعفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره»، على قول المؤرخ المقريزى.

وهكذا انطوت صفحة قاتمة من صفحات الإرهاب التى لوثت التاريخ الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية.

لقد اتضح أن أعضاء الحركات الإرهابية الذين يستترون خلف رداء الإسلام هم أشد خطراً على الإسلام من خصومه . إنهم وباء يصيب المجتمع ، يجتاح البلاد ويعصف بالعديد من أبرياء العباد...

ومن الواضح أن الصعوبة الكبرى التى واجهتها وتواجهها الحركات الإرهابية هى افتقارها إلى ركيزة تستند إليها من أهالى البلاد، فالإنسان النقى النفس يرفض الغدر وينفر بطبيعته من ظاهرة اغتيال الأبرياء وسفك دماء الآمنين. وتشتد هذه المشاعر وتقوى فى ظل الأديان السماوية التى نهت جميعًا عن ظاهرة قتل الإنسان أخيه الإنسان دون ذنب جناه .

هناك أركان أساسية لاستقرار المجتمع البشرى وازدهار الحضارة الإنسانية ، أهمها الإحساس بالأمن والطمأنينة مما يحقق للمجتمع وللفرد قدراً من الاستقرار وهدوء البال يمكنه من العمل والإنتاج من جهة ، والاستمتاع بما هيأه الله له من أسباب المتعة الحلال من جهة أخرى . لذلك رفض الناس فى كل زمان ومكان ظاهرة الإرهاب ، ولم يروا فى الإرهابيين إلا أعداء لله وللبشر . ولم ينفع الإرهابيين تمسحهم بالدين ومحاولتهم التستر خلفه ، وإنما كانت الصخرة التى تحطمت عليها حركاتهم الإرهابية عبر العصور هى عدم وجود ركيزة من أهل البلاد تبارك- أو على الأقل- تقر جرائمهم فى حق البلاد والعباد. ومهما يشيع الإرهابيون من ذعر وخوف ، فهم فى نظر المجتمع عصابة من الأشرار المخربين الذين جلبوا على الشر والغدر، والتعطش لسفك دماء الأبرياء وهؤلاء «مأواهم النار وبئس مثوى الظالمين» .

د. حسن أحمد يوسف نصار (*)

الشيخ عز الدين القسام
رائد الحركة الوطنية الفلسطينية المسلحة

نشأة الشيخ القسام:

هو عز الدين عبد القادر القسام ولد فى عام ١٨٨٣ فى إحدى قرى قضاء اللاذقية شمال سوريا تسمى «جبلة» يرجع نسبة إلى أسرة الكيلانى المعروفة بنزعتها الدينية الغيورة لدرجة التزمُّت ، تلقى تعليمه الدينى الأولى فى تلك الأسرة فحفظ ثلثى القرآن الكريم واطلع على التفاسير المختلفة للأحاديث النبوية الشريفة ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى انتقل إلى القاهرة ليلتحق بالجامع الأزهر والدراسة به على يد كوكبة من أبرز العلماء فى مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

ومما لاشك فيه أن عز الدين القسام فى هذه المرحلة من صباه تأثر إلى حد بعيد بالاتجاهات الوطنية التى سادت مصر آنذاك ضد الاحتلال البريطاني، وقد اصطبغ بالصبغة التى سادت معظم الطبقة المتوسطة من المثقفين المصريين وهى النبوغ فى الخطابة هذا بالإضافة إلى تحصيله العلمى الغزير وحسن معشره وطيب أخلاقه ، وبعد أن انتهى القسام من دراسته فى الأزهر عاد إلى سوريا واشتغل بالوعظ والإرشاد فى جامع السلطان إبراهيم أدهم لفترة طويلة أصقلت من مواهبه الشخصية وأكسبته خبرة بأفئدة البشر وطبائعهم(١) .

---

* مدرس بكلية الآداب – جامعة جنوب الوادى .

لم يكتف القسام فى سوريا بنشر العلم بل شارك فى حركة الجهاد التى اندلعت فى كافة ربوع بلاد الشام أثر اتفاقيات التقسيم بين الدول الاستعمارية فى عام ١٩٢٠ وكان كغيره من أبناء سوريا يأمل تحقيق أهداف الحركة الوطنية العربية التى تحالفت مع الحلفاء فى ظروف الحرب العالمية الأولى غير أن تراجع الحلفاء عن وعودهم وقيام كل من بريطانيا وفرنسا بتقسيم منطقة المشرق العربى بينهما أدى بطبيعة الحال إلى ردود فعل وطنية فى سوريا بوجه عام وعلى الأخص فى الأجزاء الشمالية واشتعل هذا الجزء بحركات ثورية ابتداء من عام ١٩١٩ لمواجهة قوات الاحتلال الفرنسى ، وسارع القسام بالانضمام لصفوف الثوار وشارك فى قيادة حرب العصابات مع «عمر البيطار» فى جبل صهيون .

فى هذه الفترة أخذت منطقة جبل العلويين تشهد قيام ثورة كبيرة بقيادة الشيخ «صالح العلى» ١٩٢٠-١٩٢١ فانضم القسام مع بعض إخوانه من قرية (جبلة) من أمثال «محمد الحنفى» و«على الحاج عبيد» إلى هذه الثورة وظلوا يحاربون فى صفوفها وقد أبلوا بلاء حسنا وكان لهم الفضل فى استمرار عنف ثورة جبل العلويين لدرجة أن السلطة العسكرية الفرنسية أرسلت رسولا إلى القسام يعده بتولية منصب القضاء وبذل العطاء له إذا ما تخلى عن مؤازرته للثورة ولكن القسام رد الرسول خائبًا . وبعد أن تمكنت القوات الفرنسية من إخماد ثورة جبل العلويين حكم عليه الديوان العرفى فى اللازقية بالإعدام(٢).

اضطر عز الدين القسام ورفيقاه إلى الاختفاء مع مجموعة من الذين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام ومن جهتها تابعت السلطات الفرنسية ملاحقة المحكوم عليهم، عندئذ لم يجد القسام بدًا من مغادرة المنطقة الشمالية التى سيطر عليها الفرنسيون فى سرية تامة إلى المنطقة الجنوبية (فلسطين) والتى تحت السيطرة الإنجليزية ، وتقول ابنة الشيخ القسام نقلاً عن والدها إنه أحاط لجوءه مع زميليه بالكتمان الشديد حيث كانوا يختبئون نهارًا ويسيرون ليلاً حتى وصلوا الأراضى الفلسطينية عن طريق «رأس الناقورة» بعد رحلة شاقة زحفًا على البطون فوصلوها وكأنهم هياكل عظيمة من شدة المتاعب التى صادفتهم(٣) واستقر بهم المقام فى حيفا فى ٢٥ / ٢ / ١٩٢٢م.

كانت حيفا عندما هبط إليها الشيخ القسام سريعة النمو فى عمرانها فهى مرفأ فلسطين الأول وأقرب مدنها إلى لبنان وبيروت ودمشق وهى بلدة مختلطة ومتعددة الأقوام والجنسيات هذا إلى جانب أنها قاعدة من قواعد التهويد مما أسبغ عليها حساسية خاصة ، ويبدو أن

وجود الزعيم الوطنى السورى الشيخ «كامل القصاب» فى حيفا آنئذ من بين الأسباب التى جعلت القسام يتخذ منها مقراً ومقاماً إذ أن «القصاب» كان يعمل مديراً للمدرسة الإسلامية الأهلية التى أسستها الجمعية الإسلامية فى حيفا وقد تمكن القسام نظراً لمؤهلاته العلمية وخبرته فى التدريس ومساعدة الشيخ القصاب من الحصول على وظيفة مدرس فى تلك المدرسة[٤] وإلى جانب وظيفته الرسمية فى المدرسة الإسلامية قام بالتدريس مجاناً فى جامع النصر.

لم يكن حكم الإعدام الذى صدر ضد الشيخ القسام ولجوئه إلى فلسطين ليحول دون احتفاظه بمبادئه الوطنية بل أن وصوله إلى فلسطين حيث الاستعمار البريطانى قد زاد من قناعته الثورية ضد الاستعمار[٥] من هنا رأى أن يتخذ لنفسه منهجا قام بتنفيذه دون إثارة الشبهات حوله فابتدأ أولا فى نطاق المدرسة التى عمل بها انطلاقا من اعتقاده بأهمية توعية العناصر الطلابية الشابة بالكفاح المقبل وأدرك القسام بثاقب بصره أن الطلاب أكثر من غيرهم فهما لما يريده ، وأعمق وعيا لمخططات الاستعمار البريطانى الذى أراد فصل فلسطين عن بقية بلاد الشام وتهويدها . وهكذا شرع القسام فى تأسيس حلقات سرية من المخلصين له وذلك للإعداد النفسى للثورة وكانت تلك الحلقات فى ازدياد مستمر[٦].

تزايدت مشاعر القسام القلقة مع تزايد الأخطار الصهيونية التى تعرضت لها البلاد والتى كان من أبرزها دخول المستوطنين الصهاينة بأعداد هائلة، ففى عام ١٩٢٤ دخل إلى أرض فلسطين ١٢,٨٥٦ من العنصر الصهيونى، ثم ازداد العدد العام التالى ١٩٢٥ إلى ٣٣,٨٠١ وبذلك أصبح عددهم ١٢١,٧٢٥ بعد أن كانوا عام ١٩١٨ حوالى ٥٦ ألف فقط. كما ازدادت مساحة الأراضى التى أصبحت فى حوزتهم من ٤٢٠,٥٠٠ دونم عام ١٩١٤ إلى ما يقرب من ٩٠٠,٠٠ دونم حتى بداية عام ١٩٢٥ كما ارتفع عدد المستوطنات اليهودية من ٤٧ إلى ٩٦ خلال هذه الفترة[٧] وكان كل ذلك بتسهيل من المندوب السامى البريطانى الصهيونى الأصل «هربرت صموئيل» .

استمر القسام يركز فى دروسه على الروح والأخلاق الوطنية السليمة وكان سبيله إلى ذلك انتقاء العناصر الوطنية بإحساسه الغريزى إذ كان يراقب المصلين وهو يخطب فيهم فوق المنبر ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد لزيارته فى منزله ثم تتكرر تلك الزيارات إلى أن ينخرط هذا التلميذ فى مجموعة سرية صغيرة لايزيد عددها من خمسة أفراد[٨] وعن طريق تلك الخلايا العنقودية بدأ فى ممارسة ما كانت نفسه تصبو إليه وهو تكوين عصابات إيمانية

ثورية مدربة شروطها الأساسية أن يقتنى العضو السلاح على نفقته الخاصة وأن يتبرع بما يستطيع للعصبة التى ينتمى إليها [٩].

ولم يكد الشيخ القسام يشعر بأن دعوته بدأت تؤتى أكلها بين قطاعات الشباب حتى أخذ يشجعهم سراً على تأسيس جمعية لهم أطلق عليها جمعية الشبان المسلمين (فى حيفا) ولما اشتد ساعد تلك الجمعية أسرع بالانضمام إليها[١٠] ليتخذ من عضويته فيها ستاراً لتغطية أعماله الوطنية من الإعداد والتنظيم [١١]. وتذكر ابنة عز الدين القسام نقلا عن والدها أنه استطاع من خلال جمعية الشبان المسلمين إلى أن يضيف إلى مهمتها الدينية مهمة أخرى اجتماعية قد يفتقد إليه المجتمع العشائرى فى جنوب بلاد الشام حينذاك مثل تقديم العون للمحتاجين وإمداد المرضى بالعلاج على نفقتها الخاصة والاحتفال بالمناسبات الدينية والاجتماعية . وقد نجح القسام فى أن يضم إلى جمعيته أكبر عدد من الشباب حتى وصل عدد أعضائها إلى ٦٠٠ عضو خلال عامين فقط ، فكان يوكل إلى كل مجموعة أو عصبة بعض المهام الإدارية والواجبات العامة وحتى لاتخرج تلك التكليفات عن نطاق السرية وتصل إلى عيون السلطة البريطانية أو العصابة الصهيونية ، وكانت الأوامر تدون على جدران الجمعية أو المساجد التى يخطب فيها وذلك على شكل رموز[١٢] ومن هنا يمكن أن نقول إن هذا الشيخ الأزهرى فطن مبكراً إلى أهمية التخطيط لحرب العصابات التى تعتمد اعتمادا كليا على الكتمان، وكان يردد دائما قول الرسول الكريم «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» كما فطن أيضا إلى أهمية الشفرة أو الرموز فى إبلاغ ما تعده القيادة العليا لهذا التنظيم إلى أفراد الخلايا القسامية المتناثرة.

أدى النجاح الذى حققته جمعية الشبان المسلمين فى حيفا إلى الدفع بكثير من الشباب المسلم فى بقية المدن الفلسطينية إلى تكوين جمعيات على غرارها وكانت مدينة نابلس من أسبق المدن فى هذا المجال وتكللت جهود مجموعة من أولئك الشباب كان من بينهم «محمد عزة دروزه» إلى وضع دستور لجمعية الشبان المسلمين بها ودعوة جميع طوائف الأمة لمناصرة الجمعية[١٣] ثم تلى تلك الخطوة إنشاء جمعيات مماثلة فى كافة مدن فلسطين.

بدأ نطاق دعوة القسام يتسع منذ عام ١٩٢٩ عندما عُين مأذوناً شرعياً من قبل المحكمة الشرعية فكان يخرج إلى القرى ويحضر حفلات الأعراس مما هيأ له فرصة لدراسة نفسية الجماهير وكان يتصل بسائر طبقات الشعب لا فرق بين متدين وغيره إيمانا منه بأن إصلاح

المستهترين أولى من إصلاح غيرهم وكان هذا الأسلوب قد جعله محل انتقاد من قبل بعض الشخصيات بل أدى فى كثير من الأحيان إلى عقد مناظرات بينه وبين أصحاب الرأى المعارض مثل «صالح الحورانى» ، وكان القسام فى دعوته للثورة الوطنية الفلسطينية يتكتم ما يعده من إجراءات أو استعدادات للوقوف فى وجه الصهيونية ومنع إقامة وطن قومى يهودى ولم يبح به إلا لأشخاص قلائل بعد دراسة مستفيضة لهؤلاء الأشخاص قد تطول لعدة سنوات ومن هذا المنطلق ظل يعمل بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين لكى يهيئهم فى الوقت المناسب للانطلاق نحو الثورة (١٤). أدرك القسام أن نشاطه يجب ألا يقتصر على المدرسة التى يعمل بها أو الجمعية التى ينتسب إليها ذلك أنه لابد من توعية الجماهير داخل أماكن تجمعات تصطبغ بالصبغة الدينية الشرعية فلم يكن أمامه سبيل إلا حصوله على وظيفة إمام لأحد المساجد فى حيفا وهو مسجد النصر(١٥) ووضع برنامجًا لذلك يقوم على إلقاء دروس يومية عقب كل صلاة بالإضافة إلي خطبة أيام الجمعة ، وأخذ القسام رويداً رويداً يكتسب شهرة واسعة بين سكان حيفا بشكل عام ، وفى هذه الفترة كان قد تم إنشاء أكبر مسجد فيها وهو جامع الاستقلال فسعى حتى انتقل إليه(١٦) ليصبح فى استطاعته الاتصال بأكبر قدر من المصلين.

كانت الفترة السابقة من عام ١٩٢٢-١٩٢٦ بمثابة مرحلة التجهيز والإعداد فى تاريخ التنظيم القسامى إذ اقتصرت على إجراء دراسات ميدانية لما يجرى فى الساحة الفلسطينية كأساس لابد منه قبل التخطيط الثورى ولاشك أن تجارب القسام السابقة فى الثورات السورية قد أكسبته الكثير من الخبرة فأدرك أهمية العمل السرى فى نجاح أى تنظيم، وتقول ابنة القسام إن والدها اتفق مع بعض المخلصين من أصدقائه على حمل راية الثورة وتعاهدوا على أن يقدموا حياتهم فداء على مذبح الوطن ليعطوا لأبناء أمتهم درسًا بليغًا فى التضحية ، فكان ينتقى أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة ويقوم بتدريبهم فى رحلات ليلية كما كانوا يقومون برحلات استطلاعية يتمرنون فى أثنائها على إصابة الهدف(١٧).

ومما لاشك فيه أن الشيخ القسام «رغم تعليمه الدينى الذى يبتعد كل البعد عن التكتيك العسكرى إلا أنه كان واسع الأفق خلقت منه أحداث شمال بلاد الشام قائدًا عسكريًا متمرسًا على فنون حرب العصابات فكان يقسم إخوانه إلى وحدات عسكرية منظمة ، ووحدة خاصة بشراء السلاح ووحدة أخرى للتدريب العسكرى ووحدة للتجسس على الإنجليز والصهيونية

ووحدة للدعاية للثورة فى المساجد والمجتمعات ووحدة للاتصالات السياسية وهذا كله رغم إمكانياته المحدودة ورغم مراقبة السلطة لكافة تحركاته هو وأعوانه (١٨).

كانت جموع الفلاحين تزداد فى حيفا بعد تزايد عمليات الطرد الجماعية التى تقوم بها السلطة البريطانية أو نتيجة اغتصاب الشرائم الصهيونية لأراضى الفلسطينين ولاشك أن هذه الطبقة كانت أكثر من غيرها استعدادا للتضحية والعمل، ولقد أدرك القسام هذه الحقيقة فأخذ يكثر من الاتصال بهم داخل المسجد فيحدثهم ويستمع إلى شكاواهم ويحس بآلامهم ويتردد عليهم فى أحيائهم التى اتخذوها مستقراً لهم وكانت هذه الأحياء تتألف فى أغلب الأحيان من أكواخ من التنك والخشب(١٩) ثم جعل من بيته مدرسة ليلية خاصة يستقبل فيها تلك الطبقات بهدف تعليمهم وتوعيتهم(٢٠).

تعتبر الفترة من ١٩٢٦-١٩٢٨ هى بداية المرحلة الثانية فى تاريخ التنظيم القسامى إذ بدأ القسام فى تنظيم أولئك الأوائل من الذين استجابوا للدعوة وكان فى مقدمتهم : العبد قاسم، محمد زعروره ، محمد صالح ، وخليل محمد عيسى(٢١) ثم تزايد عدد التنظيم القسامى بعد انضمام أكثر من أربعين شخصًا يرتبطون ببعض عن طريق حلقات محدودة العدد على كل حلقة أو مجموعة نقيب يقوم على قيادتهم وتوجيههم، وكل خلية من تلك الخلايا لاتعرف غيرها من الخلايا السرية التى تنتمى إلى التنظيم ، وكان على كل من يتطوع أو يشترك فى إحدى هذه الخلايا الثورية أن يدفع اشتراكًا شهرياً بحسب طاقته على ألا يقل عن عشرة قروش(٢٢) وحتى يزيد القسام من دخل التنظيم فى هذه المرحلة فقد أعلن قبوله للتبرعات، وبدأت تفد إليه طوائف الشعب الفلسطينى تمد له العون رغم شظف العيش بين أغلبية السكان.

كان التنظيم القسامى فى خلال هذه الفترة ينمو ببطء وسط إجراءات بالغة من الحذر والسرية وقد اقتصر نشاط القسام فيها على كسب الأنصار وإعدادهم عقائديًا وتدريبهم على استعمال السلاح فى السر(٢٣) ولعل هناك من الحوادث المواكبة لتلك الفترة ما جعل القسام وأعوانه يعمدون لاستعمال النفس الطويل إذ شهدت السنوات الثلاث ١٩٢٦ -١٩٢٨ تراجعًا فى الهجرة الصهيونية وفى انتقال الأراضى العربية لليهود إذ بينما كان عدد المهاجرين الصهاينة عام ١٩٢٥ قد بلغ ٣٣,٨٠١ إذ به يتناقص فى عام ١٩٢٦ إلى ١٣,٠٨١ ثم انخفض فجأة عام ١٩٢٧ إلى ٢٧١٣ ثم فى العام التالى ١٩٢٨ إلى ٢١٧٨(٢٤) ولعل هذه الظاهرة أدت إلى التفاؤل بزوال الخطر الصهيونى وخاصة أن أعداداً كبيرة منهم بدأت فى

مغادرة فلسطين، وكان من الطبيعى أن يرافق هذا التراجع فى أعداد المهاجرين تراجعًا فى عمليات انتقال الأراضى العربية إلى اليهود لدرجة أن البعض أصبح يعتقد أن فكرة إنشاء وطن قومى يهودى توشك على الفشل(٢٥) لهذا سارعت الحركة الصهيونية إلى التحرك فى داخل فلسطين وخارجها لنفض الجمود الذى أصيبت به فتعمدت افتعال أحداث داخل فلسطين بهدف جذب اهتمام يهود العالم وكان سبيلها إلى ذلك العنصرية الدينية ففى النصف الثانى من عام ١٩٢٨ قام الصهاينة بنصب ستار عند حائط المبكى مخالفين بذلك العرف المتبع، هذا الإجراء أدى إلى اندلاع توتر بين أوساط المسلمين وحرصت الحكومة البريطانية من جانبها على تصعيد تلك الأزمة بوسائل غير مباشرة وشهدت البلاد حملات متبادلة من خلال بيانات الاحتجاج التى تنشر فى الجرائد وامتد هذا الصراع خارج فلسطين آخذا شكل تأليب القوى الصهيونية العالمية لمناصرة إخوانهم وتخليصهم من براثن العرب، ولقد أثمرت هذه الادعاءات لتحقيق بعض أهداف الصهيونية إذ استؤنفت الهجرة من جديد ففى عام ١٩٢٩ دخل إلى فلسطين ٥٢٤٩ كما استؤنفت عمليات الاستفزاز فانفجر الموقف فى أغسطس (آب) ١٩٢٩م .

كان من نتيجة استئناف نشاط الحركة الصهيونية منذ أواخر ١٩٢٨ واستمرار الاستفزازات الاقتصادية والدينية أن ساد البلاد جوًا من التوتر دفع بعض أعضاء التنظيم القسامى إلى مطالبة القسام بضرورة البدء فى مرحلة العمل المسلح ضد تلك الأخطار المتزايدة، غير أن القسام الذى امتاز بعمق الفكر والتريث رفض الاشتراك العلنى فى ثورة ١٩٢٩ وذلك لاقتناعه بأن حجم الاستعدادات التى اتخذت حتى ذلك الوقت لم تكن كافية لإعلان الثورة إذ أن التنظيم لايزال محدودا من حيث التدريب والعدد والتمويل، ومع ذلك فقد شارك بعض أعضاء التنظيم فى ثورة ١٩٢٩ بصورة انفرادية(٢٦).

لما كان القسام يسعى جاهداً لنشر دعوته الثورية فى سائر أنحاء فلسطين فقد طلب من الحاج «أمين الحسينى» رئيس المجلس الإسلامى الأعلى حينذاك أن يعينه واعظًا متنقلاً ليستطيع الاتصال بجميع طوائف الشعب غير أن الحاج أمين اعتذر له معللا ذلك بالسير فى طريق الحل السياسى(٢٧) ويبدو أن فريقًا ممن يميلون إلى فكرة الحل السياسى ولايؤيدون الثورة العنيفة قد بدءوا يروجون لتلك النظرية مما دعى القسام إلى إلقاء اللوم عليهم وأخذ عليهم تهاونهم فى الدعوة للجهاد بل حملهم مسئولية الوضع السئ الذى يكتنف الأراضى الفلسطينية. وكان فى كل مناسبة يردد آيات من كتاب الله تتعلق بالقتال والاستشهاد(٢٨).

كانت معظم الدول العربية حتئذ مهمومة إما بمشاكل الاستعمار الجديد أو بالإرهاصات الدولية التى من شأنها الارتباط فى فلك إحدى المعسكرات الداخلة فى نطاق الحرب العالمية الثانية والتى بدأت نذرها على الأبواب مبكرا ومن هذا المنطلق لم يعول هذا المناضل الثورى كثيراً على أية معونات من الدول العربية وكان يؤمن بأن عرب فلسطين إذا شاءوا أن يحيوا فى بلادهم ويصدوا عنها الخطر الصهيونى فعليهم الاعتماد على أنفسهم غير منتظرين أن تهبط عليهم النجدات من السماء أو تأتى إليهم من وراء الحدود(٢٩) من هنا تجاوزت شهرة القسام حدود مدينة حيفا إلى القرى المجاورة مما جعل العديد من قاطنيها يواظب على صلاة الجمعة فى مسجد الاستقلال ولما رأت السلطة البريطانية هذا التأثير الواضح من القسام على نفوس مستمعيه وشكها الدائم في مشاركة بعض أفراد التنظيم القسامى فى ثورة ١٩٢٩ فقد وضعته تحت المراقبة(٣٠).

بدأ الشيخ القسام يجدد مساعيه لدى المحكمة الشرعية التابعة للمجلس الإسلامى لتعيينه مأذونًا شرعيًا لعقود الزواج بين قرى شمال فلسطين ليتخذ من تلك الوظيفة وسيلة للاتصال بالطبقات الشعبية وقد نجح القسام فى مسعاه وأخذ يتردد باستمرار على تلك القرى تحت ستار إتمام عقود النكاح وكان يركز فى أحاديثه بين جموع الفلاحين على أخطار الخلافات العائلية المتوارثة منذ الحكم العثمانى والتى كانت تزكيها حكومة الانتداب البريطانى وتعمل على الاستزادة منها وتعميقها بهدف تصدع الجبهة الداخلية وكثيراً ما يتطرق به الحديث إلى أخطار بيع الأرض والهجرة والصهيونية ولقد نجح القسام فى تحقيق أهدافه فى أوساط تلك الطبقات الشعبية بما أوتى من موهبة فى حسن الحديث وقوة التأثير(٣١).

تزايدت شكوك السلطة البريطانية تجاه القسام فى هذه الفترة ولذلك حاولت بطرق غير مباشرة تحديد نشاطاته فعرضت عليه الانتقال إلى القدس ليعمل بوظيفة مدرس فى دار المعلمات براتب قدره ٢٥ دينار وهو من أعلى الرواتب حينذاك هذا بالإضافة إلى امتيازات سكنية مجانية وتعليم بناته الثلاثة فى نفس المعهد(٣٢) غير أن القسام اعتذر عن عدم قبول هذا العرض بطريقة لبقة ليتمكن من الاستمرار فى المهمة التى نذر نفسه من أجلها.

صدقت توقعات القسام بالنسبة للثورة الشعبية العارمة إذ سرعان ما تخاذلت القيادات التقليدية أمام لجان التحقيق البريطانية فرحبت بما أسمته بريطانيا بالكتاب الأبيض وما جاء فى هذا الكتاب من بنود رغم افتئاتها على حقوق الفلسطينين ومع ذلك فقد تراجعت بريطانيا

عن تحقيق هذه المكاسب الضئيلة بالنسبة للشعب الفلسطيني وكان رد الفعل أن هيأت للحركة الصهيونية استئناف نشاطها بتقديم مزيد من الامتيازات الاقتصادية وفتح أبواب البلاد عن آخرها للهجرة الصهيونية وانتقال الأراضى إليهم فأصبحوا يملكون فى عام ١٩٣١ ما يزيد على ١,٠٥٨,٥٠٠ دونم معظمها فى أخصب الأراضى كما ازداد عددهم إلى ١٧٤,٦٠٦ ، كما قامت السلطة البريطانية فى عام ١٩٣١ بتسليح المستوطنات الصهيونية التى ارتفع عددها إلى ١١٠ مستوطنة[٣٣].

كان من الطبيعي أن يزداد عدد الفلاحين المطرودين من أراضيهم نتيجة اغتصاب الصهاينة لتلك الأراضى وكانت حيفا هى الملجأ والملاذ لأولئك العاطلين عن العمل ولم يكن بوسعهم إلا الانضمام للتنظيم القسامي باعتباره التنظيم الثورى الحقيقى وبرز من بين صفوف هؤلاء الفلاحين نماذج ثورية أقضت مضجع السلطة العسكرية البريطانية مثل الشيخ «فرحان السعدى» وهو من قرية «المزار» بقضاء «جنين» والذى شارك فى كل المظاهرات الوطنية السابقة كما شارك أيضا فى ثورة ١٩٢٩ مما جعل السلطة البريطانية تحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام قضى بعضها فى سجن (عكا) والبعض الآخر فى سجن نور شمس وبعد خروجه انتقل إلى حيفا حيث اتصل بالقسام وانضم إلى حركته[٣٤] وكذلك «يوسف سعيد أبو درة» من قرية «سبلة الحارثية» قضاء جنين وقد هاجر إلى حيفا وعمل فى دائرة السكة الحديد وتعرف على القسام وتتلمذ على يديه ودخل فى تنظيمه [٣٥].

لما اتسعت دائرة القطاعات التى أخذ يعمل فيها القسام وقام بإعادة تنظيم الخلايا الثورية بهدف تشكيل اللجان المتخصصة فقسم أتباعه إلى مجموعات رئيسية تتفرع إلى حلقات صغيرة وكان من بين هذه التقسيمات الرئيسية: الوحدات العسكرية والتى انبعثت منها وحدة لشراء الأسلحة ومن قادتها البارزين الشيخ حسن الباير والشيخ نمر السعدى ووحدة للتدريب العسكرى يشرف عليها عدد من ذوى الخبرة من أمثال محمد أبو العيون [٣٦]. كما كانت هناك وحدة للتجسس على اليهود والإنجليز لمعرفة خططهم السرية ومن أفرادها الشيخ ناجى أبو زيد مع مجموعة أخرى من العمال الذين يعملون فى الدوائر الحكومية وخاصة البوليس ، كما كان قسم منهم يعمل مع اليهود للوقوف على نشاطهم السرى بالإضافة إلى وحدات خاصة للدعاية فى المساجد والمجتمعات وأوكل هذه المهمة لعدد من العلماء .

وكان الشيخ «كامل القصاب» أستاذه الحميم وصديقه القديم موجهًا ومستشارًا فى هذه التنظيمات كما أسس الشيخ القسام وحدات خاصة للاتصالات الخارجية والسياسية ومن أبرز

رجالها الشيخ «محمود سالم المخزومى» والذى روى لصبحى ياسين أن عدد الذين أعدهم القسام للقيادات الجهادية وصل إلى ٢٠٠ شخص أشرف أكثرهم على خلايا رئيسية للحركة القسامية[٣٧] أما التمويل فقد أنشأ له وحدة خاصة تقوم بجمع الاشتراكات والتبرعات وقد استمر القسام عند حسن ثقة الناس به . ويشترط على العضو الذى يتم التحاقه بالتنظيم ضرورة تدبيره السلاح على حسابه الخاص[٣٨] وقد ضرب القسام مثلاً عملياً فى التضحية عندما وكل عنه أحد أقاربه فى قرية (جبلة) ليبيع أملاكه الخاصة وخصص أثمانها لشراء الأسلحة وكان الشيخ القسام يشترى بعض هذه الأسلحة من تركيا عن طريق بعض الموردين وتتذكر ابنة القسام أن أحد هؤلاء الموردين كان صحفى من بولونيا التقى بها أثناء المؤتمر النسائى العربى فى القاهرة عام ١٩٣٨ وتعرف عليها وأكد لها أنه كان من بين الذين عملوا على تهريب السلاح للحركة القسامية حيث كان يتم تسليمها فى المناطق الجبلية الشمالية من فلسطين[٣٩].

لم يكن نضال القيادات التقليدية الفلسطينية يتجاوز حدود تقديم الاحتجاجات إلى فخامة المندوب السامى البريطانى أو الدعوة إلى الإضراب على أكثر تقدير عند اكتشاف أية أعمال خطيرة للعناصر الصهيونية بينما استطاع التنظيم القسامى رغم قلة عدده أن يقوم بتشكيل عصابات ثورية من الفلاحين لمهاجمة المستوطنات الصهيونية منذ عام ١٩٣٠ وكانت أخطار الصهيونية قد تفاقمت ابتداء من مطلع عام ١٩٣٣ إذ قفز عدد اليهود فى نهايته إلى ٣٠٠,٣٢٦ هذا عدا آلاف الصهاينة الذين كان يتم تهريبهم كما تم فى نفس العام اغتصاب ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ دونم من أجود الأراضى العربية وكان طبيعياً أن يواكب هذا الاغتصاب فى الأرض إجلاء الفلاحين واستخدام العنف والتصفية الجسدية ضد الكثير منهم[٤٠].

بعد اضطرابات عام ١٩٢٩ حدث انقسام داخلى فى التنظيم القسامى إذ انشق عليه بعضاً من إخوان القسام كان على رأسهم «إبراهيم الكبير» المعروف بـ «خليل محمد عيسى» وذلك نتيجة لعاملين «العامل الأول»: هو أنهم رأو أن الوقت قد حان لإعلان الثورة بينما يرى القسام أن الإعداد للثورة لم يكن قد اكتمل بعد «أما العامل الثانى» فهو رغبة المنشقين فى جباية الأموال اللازمة للثورة من الشعب بكل الوسائل الممكنة بينما كان القسام يصر على عدم فرض أية مبالغ نقدية تزيد من الحالة المادية المتدهورة لجماهير الشعب الفلسطينى ، رغم هذا الانشقاق الداخلى إلا أن ثمة روح من الود والتراحم كانت تسود بين كل من الأصل والفرع وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على مدى تقدير أولئك الثوار لرسالتهم حتى وإن اختلفوا فى الوسائل والتفاصيل بل ظل المنشقون بعد ذلك يعملون سراً ضمن مخطط القسام الثورى.

انتقلت الحركة الثورية القسامية فى السنوات التى تلت عام ١٩٢٩ إلى مرحلة جديدة من النضال ضد الصهيونية وضد الإمبريالية المتمثلة فى الكيان البريطانى ولعل زعيم التنظيم رأى أن الوقت يسمح الآن بالعمل العلنى ولكنه حرص فى نفس الوقت على اتخاذ الصفة الفردية حتى لاينكشف أمر أعوانه من المجاهدين والثوار. وشهد عام ١٩٣٢ موجة من التهويد حل فيها الصهاينة محل العمال والفلاحين العرب من دوائر الحكومة مما أدى بمجموعة من التنظيم القسامى إلى التعبير عن شعور السخط تجاه سياسة التهويد بأسلوب عملى إذ تمكن فى ذات العام أحد أعضاء التنظيم ويدعى «أحمد الغلايينى » من صنع قنابل ألغام فى معمله فى حيفا وسلم بعضا منها إلى زميل له يدعى «صالح أحمد طه» فذهب مع بعض إخوانه ووضعوا إحدى هذه القنابل فى مسكن به أربعة حراس مُن اليهود فى مستوطنة«نهلال» الواقعة بين حيفا والناصرة فقتلت اثنين وجرحت الآخرين ، كما قامت مجموعة أخرى مكونة من الشيخ «أحمد التوبة ومصطفى على أحمد» برفقتهم الشيخ صالح طه أيضا بمهاجمة المستوطنات الصهيونية فى منطقة «مرج بن عامر» وعلى الرغم من اكتشاف السلطة البريطانية لتلك الحركة الفدائية واعتقال أفرادها لمدة تسعة أشهر وإعدام «مصطفى على أحمد» والحكم على أحمد الغلايينى بخمسة عشر عاما من السجن(٤١) إلا أن الحركة القسامية لم توقف نشاطها الفدائى ضد المستوطنات اليهودية حيث قامت مجموعة من أفراد التنظيم بأعمال فردية ليلية سريعة كان من بينها شن هجوم على مستوطنة «العفولة» وقتل مختارها اليهودى، كما تعرضت مستوطنة «عتليت» لهجوم آخر وكذلك السيارات التى كانت تنقل العمال اليهود إلى المستوطنات القريبة من قرية «الياجور»(٤٢).

وفى بداية عام ١٩٣٤ شعر القسام بأن ثمة مزيد من الخطر يهدد الحركة الوطنية الفلسطينية وذلك إثر الصراع العائلى الذى أصاب القيادات التقليدية على رئاسة اللجنة التنفيذية التى من المفترض أنها تشكلت من أجل انتزاع الحقوق الفلسطينية السليبة من السلطة البريطانية ومن شرائم الصهيونية، ثم لم تلبث تلك القيادات أن انشغلت بمهزلة انتخابات البلدية وتبادل الاتهامات والانصراف إلى تشكيل تكتلات حزبية عائلية بعيدة عن جماهير الشعب وأدرك القسام أن هذا الانقسام قد استنزف جزءًا كبيراً من طاقة الشعب التى كان من الواجب توجيهها لمقاومة الانتداب البريطانى وعصابات اليهود، ومما زاد فى قلقه ما كانت تقوم به تلك القيادات من تقارب مع السلطات البريطانية فى صورة التماسات تقليدية

واعتبر أن ذلك مضيعة للوقت لاتستفيد منه إلا الحركة الصهيونية لاسيما أن مزيدا من الهجرة الصهيونية قد عرفت طريقها إلى داخل البلاد إذ بلغ عدد اليهود الذين وصلوا فى نفس العام ١٩٣٤ إلى ٤٣,٣٥٩ مهاجرا . وفى المقابل فإن القسام كان يرى أن جموعًا جديدة من الفلاحين قد طردت من أراضيها بعد أن تمكن اليهود من شراء ١٦٠,٠٠٠ دونم بل بلغ الأمر بالصهاينة إلى حد الاعتداء العلنى على بعض العمال العرب لحرمانهم من فرص العمل القليلة المتبقية أمامهم (٤٣).

إزاء هذا الوضع المتردى أخذ عز الدين القسام يكثف نشاطه الثورى فى اتجاهين متوازيين الأول هو تأليب الرأى العام وتعبئة طاقات الأهالى ضد الاستعمار والصهيونية بكافة السبل والوسائل المشروعة وغير المشروعة ، أما الاتجاه الثانى فهو الكفاح المسلح ضد ما أسماهم المارقين وعصابات الكفر والإلحاد . وشهد عام ١٩٣٥ أحداثًا مؤسفة فى داخل الأراضى الفلسطينية مما أدى إلى تفاقم الحالة بوجه عام منها استخدام الصهيونية للفتيات اليهوديات فى التأثير على بعض شباب العرب والتلويح بورقة الجنس فى سبيل جذب هؤلاء إليهم واغتصاب المزيد من الأراضى الفلسطينية أو الانضمام إليهم والعمل فى صفوفه بإغرائهم بشتى الوسائل المادية ، وتعمد القسام أن يذهب مع مجموعة من رفاقه إلى المدن الفلسطينية المطلة على البحر المتوسط والتى عن طريقها يتم تهريب اليهود ليلقى بالزيت على الوقود المشتعل وكان من نتيجة تلك السياسة إضراب جميع العمال فى مدينة يافا عن الطعام كرد فعل لقيام السلطة البريطانية بطرد بعض إخوانهم من العمل(٤٤) وذلك فى ٥ مارس ١٩٣٥م.

بدأت الاستفزازات الصهيونية والبريطانية ضد الحركة الوطنية الفلسطينية تتخذ الشكل العلنى الصريح وذلك بوضع العراقيل أمام الحجاج المسلمين والمسيحيين الراغبين فى زيارة الأماكن المقدسة ومنعهم بالقوة من الوصول إليها وإمعانا فى الاستخفاف من تقاليد سكان البلاد وعقائدهم وإيمان الصهيونية العالمية بما للجنس الناعم اليهودى من أثر فعال فى صراع يقوم فى الكثير منه على الأسس الدينية والأخلاقية فقد لجأت تلك العصابات إلى تهريب كثير من اليهوديات فى زى مسلمات عن طريق جسر يصل بين البحر الميت وسوريا كما اتخذت من طريق (مخاضتى أم الشرب والمقدسة) الواقعتين بأريحا سبيلاً للتسلل إلى البلاد لاسيما أن المتسللات كن يجدن المساعدة من أبناء جلدتهم فى مستعمرة «غور الصافى» بعد أن تقوم اللنشات بحملهم إليها(٤٥).

كانت المقاومة السلبية لقيادات فلسطين التقليدية كما سبق القول- سبباً غير مباشر فى الجهر بالحركة القسامية بل ورميها بعدم الشرعية من قبل هذه القيادات التى اكتفت بالولولة والعويل والوقوف موقف المتفرج من تدنيس الأرض والعقيدة ففى بيان لمكتب الحزب العربى الفلسطينى جاء فيه «لقد أمَّ فلسطين لحضور حفلات (المكابياد) الرياضية هذه السنة عشرات الألوف من اليهود وأخذوا يستعرضون قواهم العسكرية المتسترة بستار الرياضة البدنية ... واليوم وقد انتهت حفلاتهم فقد أخذت جموعهم تجوس خلال الديار وانتشروا فى كل مكان وظهروا للناس بعادات تردَّت فيها الأخلاق الرياضية وتصرفات تنهى عنها الأديان السماوية وأماطوا لثام الحياء فى هذه البلاد المقدسة، وما قصدوا من ذلك إلا غزو الأخلاق العربية والفضائل الإسلامية كما غزوا الأراضى المقدسة(٤٦).

لم يعد أمام التنظيم القسامى إلا تكثيف جهوده فى مواصلة العمل الفدائى المسلح ضد كل ما هو معادى للحركة الوطنية الصادقة وقوبلت قرارات الاحتجاج والتنديد التى أصدرتها القيادات الرسمية الفلسطينية بالمزيد من الضربات المؤثرة فى جسد الكيان الصهيونى ولم يبال القساميون بالتشنجات المعادية ممن آثروا الاستكانة والاستسلام وإلصاق الصفات المشينة بهم وساروا فى الطريق الذى رسمه لهم زعيمهم حتى التحمت بهم كافة طوائف الشعب الفلسطينى وقد ازداد وعى أولئك البسطاء بمدى أهمية استرجاع حقوقهم الاقتصادية والانخراط فى العمل السياسى المنظم تحت مظلة القسام أيضا لمواجهة تلك الأحزاب الهزيلة التى تشكلت ولم يكن لها من هدف سوى استعطاف المندوب السامى البريطانى لمباركة تنظيماتها التى عبرت فقط عن رغبات فى تصفية الخلافات العائلية القديمة وجاء أول تعبير عن الاحتجاج الوطنى ضد الإمبريالية فى شكل إضراب للسائقين فى كافة المدن الفلسطينية الرئيسية والتى أصيبت بالشلل نتيجة توقف المواصلات وعلى الرغم من انعدام وجود رابطة أو هيئة يجتمع تحت لوائها تلك الطائفة المهنية إلا أن دقة التوقيت الذى أعلن فيه الإضراب يشير إلى وجود قيادات على وعى كبير بالعمل الثورى هى التى تخطط وتوجه هذه الانتفاضات(٤٧) وأشارت أصابع الاتهام إلى الشيخ القسام.

لم يكن فلاحو فلسطين أقل وعياً من بقية الطوائف الشعبية بحقوقهم السياسية ورأوا أن الموقف الوطنى يحتم عليهم - إزاء هذا الصراع الحزبى- الانضواء تحت راية واحدة تعمل من أجل صالحهم. وتقول جريدة «مرآة الشرق» «أن هناك حركة بين الفلاحين ترمى إلى استبدال

الأحزاب السياسية الحاضرة بهيئة وطنية مستقلة وقالت إن هناك أكثر من ألف فلاح سيجتمعون قريباً فى «بيت جبرين» بالقرب من الخليل ... وأن هؤلاء الفلاحين يعتزمون تشكيل حزب جديد إذا رفض الزعماء تأييد خطتهم ... كما أن هناك بعض الفلاحين من نابلس وجنين وطولكرم قرروا تكوين حزب للفلاحين باسم «حزب الزراعة» للدفاع عن مصالحهم(٤٨).

وفى خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٣٥ شهدت المناطق الشمالية من فلسطين مزيداً من عمليات الكفاح المسلح فى صورة فردية وتركز معظم تلك العمليات فى منطقة المثلث العربى جنين– نابلس – طولكرم حيث تكررت حوادث اغتيالات الضباط الإنجليز ونسف القطارات(٤٩) وقد أشار التقرير السنوى لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ إلى أن الحكومة كان لديها شك كبير فى أن لعصابة الشيخ القسام علاقة بالأعمال الإرهابية التى حدثت خلال السنوات السابقة(٥٠). وكان القسام يهدف من وراء تصعيد عملياته الفردية تهيئة الجماهير الشعبية وإعدادها لمساندة الثورة عند إعلانها هذا من جهة ومن جهة ثانية لإحراج القيادات الفلسطينية ودفعها للتخلص من سياستها السلبية فى مقاومة الاستعمار.

لقد ظل القسام مقتنعا بضرورة توجيه كل الصفوف وتوجيه كل الطاقات لمكافحة العدو وفى سبيل ذلك كان يجرى الكثير من المناظرات مع مؤيدى سياسة الملاينة والمهادنة وكان من أبرزهم الشيخ صالح الحورانى الذى لم يكن يؤمن بالثورة(٥١) أما بالنسبة للحاج أمين الحسينى فقد ظل القسام يقدر أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه فى مقاومة الاستعمار خاصة أنه أصبح بعد عام ١٩٣٣ ووفاة موسى كاظم وفشل راغب النشاشيبى فى انتخابات بلدية القدس وتشكيل الحزب العربى الفلسطينى هو الرجل الأول من الناحية الفعلية وأنه القادر على تحريك البلاد كلها ناحية الكفاح العملى ولذلك كان القسام يسعى دائما لدى الحاج أمين لإقناعه بأن يلقى بثقله إلى جانب الحركة الوطنية بشكل عملى وكان من بين هذه المساعى محاولاته لإقناعه بتخصيص قسماً من ميزانية «الأوقاف الإسلامية» الضخمة والتى كانت تزيد عن نصف مليون جنيه لإعداد الشعب للجهاد على اعتبار أن ذلك أفضل من إنفاقها على تشييد الأبنية (مثل فندق الأوقاف بالقدس) وتزيين المساجد حتى وإن وصل الأمر إلى المسجد الأقصى(٥٢).

أدرك القسام أن مهمته فى الإعداد والتهيئة قد نجحت إلى حد كبير وخاصة فى الأجزاء الشمالية من فلسطين وأن سكانها على استعداد للتضحية ونظراً لأنه كان يؤمن بالثورة

الشـاملة وأن الحـاج أمـين الحـسـينى له من المكانة فى نفـوس الأهـالى فى القطاعين الأوسط والجنوبى من فلسطين فـقد سـعى لديه للقيام بتهيأة النفوس فى تلك المناطق للثورة وأرسل القسام أحد إخوانه وهو «محمود سالم المخزومى» إلى الحاج أمين ليخبره بعزمه عن القيام بثورة فى فلسطين للقضاء على فكرة إنشاء وطن قومى لليهود غير أن الحاج أمين أجاب بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل وأن الجهود السياسية التى تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقهم(٥٣).

لاشك أن موقف الحاج أمين الحسينى المهادن للإنجليز الرافض لدعوة الشيخ القسام كان له ما يبرره وهو خوفه من إقالته من منصبى الإفتاء ورئاسة المجلس الإسلامى الأعلى إذا ما أبدى اعتراضًا على السياسة البريطانية ، وهذان المنصبان من أهم ركائز نفوذ الحاج أمين والمحافظة عليهما يتطلب عدم مواجهة الإنجليز والاكتفاء بالمساومة عن طريق الاحتجاجات والاتصالات ولم يكن القسام وحده هو الذى طلب من الحاج أمين الحسينى هذا المطلب ولكن طالبه أيضا بعض الشباب الفلسطينى الذين كونوا تنظيمًا سريًا موازى للتنظيم القسامى ورفض الحسينى أيضا مطلبهم بنفس الحجة(٥٤).

ومهما يكن من الأمر فإن الموقف السلبى للحاج أمين لم يثن القسام عن مواصلة نشاطه فى المناطق الشمالية وكان يبعث ببعض رفاقه من قادة الخلايا الثورية إلى مسقط رأسهم ليعبئوا السكان معنويًا ويقوموا بتوجيه وتدريب أعضاء التنظيم فى تلك المناطق، وظل هذا التوسع القسامى شمالاً حتى مدينة صفد وتقول نشرة فلسطين الدورية أن أحد أفراد التنظيم ويدعى «عبد الله الأصبح» وهو من قرية «الجاعونة» شرق صفد قد تولى قيادة الفدائيين فى هذا الجـزء(٥٥) كما توسع القسام فى تدبير الأسلحة لدرجة أصبحت تكفى ألف مقاتل هذا بالإضافة إلى الأسلحة التى اشتراها أفراد آخرين من خارج التنظيم وتبرعوا بها للفدائيين وتذكر بعض المصادر أنه توفر لزعيم الحركة ما يقرب من ٨٠٠ عضو للاشتراك فى الثورة إلى جانب ٢٠٠ آخرين من العناصر القيادية فى الخلايا العنقودية (٥٦).

ازدادت الانقسامات العائلية تفاقما منذ عام ١٩٣٥ ومما زاد الأمر سوءًا حملات الاتهام المتبادلة بين أفراد هذه الأسر ومن جهة ثانية واصل الصهاينة عمليات إجلاء الفلاحين عن أراضيهم بالقوة وازداد أعداد العرب المعدمين ويقول Jeffries إنه كان فى مدينة حيفا وحدها نحو ١١,٠٠٠ من العرب الذين يعيشون فى ٢٥٠٠ من أكواخ التنك أى بمعدل أكثر من أربعة

أفراد فى الكوخ الواحد وكذلك كان الحال فى يافا وبقية المدن، وازدادت المخاوف العربية بعد انعقاد المؤتمر الصهيونى التاسع عشر فى مدينة لوسيرن Lucerne فى شهر آب ١٩٣٥ وأعلن أن فلسطين هى البلد الوحيد المفتوح للهجرة اليهودية على أوسع نطاق وأن المنظمة الصهيونية سوف تركز جميع طاقات الشعب اليهودى لإعادة توسيع توطينه والإسراع فيه[٥٧].

ولكى توضع توصيات المؤتمر اليهودى موضع التنفيذ فقد وصل إلى فلسطين خلال هذا العام وبموجب الأذونات الحكومية ٦١,٨٥٤ صهيونيًا عدا آلاف المهربين وبذلك أصبح مجموعهم ٣٥٥,١٥٧ أى ما يعادل ٢٧,١٪ من مجموع السكان[٥٨] كما ازدادت عمليات بيع الأراضى هذا إلى جانب تعاظم الخطر الاقتصادى حيث تزايدت المؤسسات الاقتصادية الصهيونية التى كان عددها فى عام ١٩٢٣ حوالى ٣٣٨٨ مؤسسة يعمل بها ١٠,٥٩٥ مستخدما وقفز هذا العدد إلى ٣٥,٨٣٠ مستخدما يعملون فى ٤٦١٥ مؤسسة[٥٩] .

من جهتها لم تكتف السلطة البريطانية بالتأييد المادى والمعنوى للعصابات الصهيونية بل راحت تسعى جاهدة لإمدادهم بالأسلحة سراً وكانت الطامة الكبرى بالنسبة للعرب حينما اكتشف هذا المخطط فى ١٦ / ١٠ / ١٩٣٥م ليزيد من مشاعر السخط[٦٠] إذ كان من بين هذه الأسلحة ٨٠٠ بندقية و ٤٠٠,٠٠٠ خرطوشة [٦١]. وكان القسام ينتظر أن تحرك هذه الأحداث القيادات الفلسطينية فتبادر إلى اتخاذ مواقف وطنية عملية غير أنها اكتفت بشن الحملات الصحفية فى الداخل واستجداء العون من بعض الدول الشقيقة كمصر التى كانت تئن تحت وطأة الاستعمار البريطانى[٦٢] فلم تملك إلا تقديم الاحتجاجات لدى المندوب السامى البريطانى .

لم تسفر جهود القيادات الفلسطينية للرد على حادث تهريب الأسلحة لليهود إلا على موافقة الجانب البريطانى على تنظيم إضراب عام وذلك يوم ٢٦ / ١٠ / ١٩٣٥م[٦٣] مما أدى إلى إصابة القسام بخيبة أمل جديدة لاسيما بعد أن لمس ترددهم فى إقراره ، وكان من نتيجة هذا الوضع المتردى وازدياد قناعته بضرورة الإسراع فى التصدى لتلك الأخطار قبل وقوع المزيد أو فوات الآوان خاصة وأن القساميين أصبحوا فى بؤرة المراقبة من قبل السلطات البريطانية، ولاشك أن اكتشاف حادث تهريب الأسلحة لليهود دفع بالقسام إلى البدء فى عمليات الاستنفار بين صفوف التنظيم فأعاد توزيع الأدوار بحيث أبقى قسمًا منهم فى حيفا وأرسل قسما آخر إلى القرى الشمالية ليقوموا بإنذار الناس وتنبيههم لدعم الثورة عند نشوبها ، وفى الذكرى

السنوية لوعد بلفور فى ٢ / ١١ / ١٩٣٥ م كان يتوقع القسام على الأقل حدوث إضراب مماثل للإضراب السابق ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بعد أن رفض رؤساء الأحزاب الفلسطينية هذا الإجراء.

واصلت جماعة القسام أعمالها الفدائية وبالذات فى المناطق الشمالية من فلسطين فتمكنوا فى ٧ / ١١ / ١٩٣٥ من قتل أحد أفراد البوليس البريطانى برتبة (جاويش) وتعمدت السلطة الإعلان فيما بعد إلى أن مقتله جاء على يد أحد اللصوص أثر تعقبه لمجموعة منهم من أجل السرقة فى هضاب الناصرة(٦٤) حيث دأبت السلطة على وصف الأعمال الفدائية بأنها أعمال قرصنة ونهب، وقد اضطر هذا الحادث الأجهزة المعنية فى البوليس إلى تكثيف أعمال المراقبة والتجسس ووظفت بعض الخونة كعيون لها راحت تدسهم فى صفوف القساميين من أمثال «حليم بسطة» و«أحمد نايف» ، وقد أحس القسام بمدى خطورة اكتشاف التنظيم وإلقاء القبض على أعضائه فأسرع فى خطته لإعلان البدء فى تفجير الثورة المسلحة وأعلن حالة الطوارئ فى صفوف إخوانه وطلب منهم توديع أهاليهم وعقد خلال يومى ١٠ ، ١١ من نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٣٥ عدة اجتماعات فى أماكن مختلفة كان أحدها فى بستان «يوسف الزيباوى» وآخر فى منزل «محمود سالم المخزومى» حيث تقرر الخروج إلى القدس الشمالية لبدء العمليات الجماعية(٦٥) كما ترك القسام رسالة لصديقه الأوفى وخليفته فى حيفا «رشيد الحاج إبراهيم» يقول له فيها «إنى واثق من نفسى وأن صوتى سيجد صداه فى كل مكان عند أول صيحة ، ونستودعك الله راجين من المولى أن يوفقنا فى أعمالنا فى سبيل الوطن»(٦٦).

الجهر بالحركة الفدائية القسامية :

كان أتباع القسام قد باع كل منهم حلى زوجته وبناته بالإضافة إلى بعض الأثاث واشتروا بأثمانها رصاصاً لبنادقهم وقصدوا الجبال القريبة من حرس الأسطول البريطانى ومن معسكرات الإنجليز وهذا دليل على أن هؤلاء القوم كانوا يدركون مصيرهم وأن بغيتهم هى الشهادة فى سبيل الله(٦٧) ويؤثر عن رجال القسام أن كل واحد منهم كان يحمل فى جيبه نسخة من القرآن الكريم الذى اتخذوه قدوة لهم(٦٨) وكان إيمانهم بأن السعادة تكمن فى بلوغهم مرتبة الشهادة والانتقال إلى الحياة الأخرى للاستمتاع بما أعده الله للمجاهدين والشهداء من نعيم(٦٩).

خرجت المجموعة الفدائية الأولى للتنظيم القسامى فى يوم ١٢ / ١١ / ١٩٣٥ م وكانت تقدر بحوالى ٢٥ شخصاً يرأسهم القسام نفسه فتوجهوا إلى منطقة جنين التى تم اختيارها

منطلقًا لأعمالهم الثورية وذلك لطبيعتها الجبلية ذات المسالك الوعرة ولاكتساءها بالأحراش الكثيفة ثم إلى جانب ذلك كله مدى ما يتمتع به القسام من تأييد شعبى فى قرى هذه المنطقة.

وكان القسام قد عين لكل منهم مهمة خاصة فى منطقة معينة وبعد وصولهم انتشر قسم منهم فى يعبد، اليامون، برقين ، كفردان ، فقوعة ، وصندلة وذلك لإبلاغ الأهالى بالمشاركة فى العمليات الفدائية فى الوقت المحدد الذى سيعلن عنه . أما القسام فقد تمركز مع مجموعة من أصحابه فى إحدى المغارات القريبة من قرية فقوعة وهم، يوسف عبدالله ، مصطفى الزيباوى، حنفى عطيه أحمد ، حمد بوقاسم خلف ، نمر السعدى، داود الخطاب ، محمود الزرعينى ، أسعد المفلح ، أحمد جابر، محمد يوسف ، محمد الحلحولى ، ومعروف جابرى وكان مع كل واحد من المجاهدين بندقية ومبلغ ضئيل من المال لشراء ما يقيم أوده ، وقد روى سكان قرية «يعبد» حيث كان القسام يرابط مع جماعة بالقرب منها «أنهم لم يسألوهم أو يطلبوا منهم شيئا فى يوم من الأيام وأنهم كانوا بالنهار يأوون إلى كهوفهم يصلون ويقرءون القرآن وفى الليل يخرجون إلى القتال »(٧٠) ولم ينس القسام حتى وهو فى ميدان القتال أن يبصر الأهالى بأخطار العصابات الصهيونية فتقول جريدة فلسطين إنه ألقى على أهالى قرية فقوعة خطبة تحدث فيها عن تهريب اليهود للسلاح(٧١).

وفى يوم ١٤ / ١١ وبينما كان «محمود سالم» و«يوسف الزيباوى» يقومان بالمراقبة والحراسة وإذا بدورية بوليس يهودية قادمة من مستوطنة «عين حارود» بهدف البحث عن آثار مجهولين شنوا هجوما فى الليلة السابقة على المستوطنة ولما أصبحت الدورية قريبة من مكان المجاهدين سارع «محمد سالم » بإطلاق النار على الدورية فأصاب منها أحد أفرادها وهو برتبة جاويش وفر الباقون وتمكنوا من الوصول إلى أقرب مركز للبوليس بالمنطقة وقد أرسل المركز مجموعة من الجنود اليهود لتمشيط الموقع بهدف الوصول إلى قاتل الجاويش ولكنهم اصطدموا مع مجموعة من المجاهدين القساميين عند قرية «البارد» وأسفر هذا الاصطدام عن استشهاد «محمد الحلحولى» ومقتل اثنين من البوليس(٧٢).

أدى هذا الحادث إلى تطور خطير فى الحركة القسامية إذ اضطرت السلطة البريطانية إلى الإسراع فى اتخاذ المزيد من التدابير العسكرية وبدأت بمراقبة المنطقة مراقبة دقيقة بغرض تحديد البؤرة التى يتمركز بها المجاهدون وكانت مجموعة من المباحث بقيادة أحمد نايف قد نجحت فى تعقب القسام ومجموعته التى كان قد اضطر فى أعقاب الأحداث الأخيرة إلى

الانتقال من قرية «فقوعة» إلى قرية الشيخ «زيد» عبر المنعطفات الجبلية وقد وصلها فى يوم ١٩ / ١١ / ١٩٣٥م ولم تتوان السلطة البريطانية فى تجريد قوة كبيرة تقدر ما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ جندى وأحكمت حصاراً شديداً حول قرى المنطقة بهدف الحيلولة دون وصول أية نجدات للمجاهدين(٧٣) .

وبدت المنطقة وكأنها ساحة حرب(٧٤) وفى صباح اليوم التالى ٢٠ / ١١ / ١٩٣٥م وبمساعدة الطائرات الاستكشافية فى القوات البريطانية بدأت معركة حامية استمرت إلى ما بعد الظهر وتصف جريدة كوكب الشرق تلك الحرب الخاطفة بين القسام وأعوانه من جهة والقوات البريطانية من جهة ثانية فتقول «زحفت قوات هائلة من البوليس العربى والبوليس الإنجليزى إلى قرية يعبد ثم أخذت تصعد إلى أطراف الجبال وقممها وتحيط بالمكان من كل الجهات وكان الضباط والجنود يلتفتون هنا وهناك خوفا من أن يفاجئوا بالرصاص.. وبعد أن أتموا الاحتياطات رتب القائد الإنجليزى خطة الهجوم فى ثلاثة صفوف طويلة من أفراد البوليس العرب فى الأمام وجعل الجنود الإنجليز وراءهم ... وفوجئ الثوار بإطلاق الرصاص عليهم بشدة من أعالى القمم وهم فى الوادى، وقد بلغ ما أطلقه الجنود من رصاص فى الدقيقة الواحدة ما يقرب من ستمائة رصاصة(٧٥).

كان القسام شديد الحرص على عدم إراقة الدماء العربية بيد عربية مهما تكن الظروف والملابسات فلما رأى أن الجند العرب الملحقين بالقوات البريطانية هى التى تحارب جماعات القسام برز من بين الأحراش غير مبال بالخطر المحدق به مناديا أبناء جلدته بالتقهقر خلف صفوف الإنجليز وارتفع صوت القسام مرددا «يا أبناء العرب اتقوا الله فى وطنكم وأنفسكم لانريد أن نطلق الرصاص عليكم .. يا أبناء العرب إنكم تصوبون الرصاص إلى صدوركم وإلى بلادكم وتبيعون شرفكم بثمن بخس»(٧٦) ويبدو أن هؤلاء الجنود العرب إما استجابوا لتلك العاطفة العربية أو خشوا أن يقعوا صرعى فى المعركة الدائرة فبدءوا يتقهقرون مما اضطر القائد البريطانى أن يأمر أتباعه بالتقدم، واشتد إطلاق الرصاص بين الطرفين وسقط من المعسكر البريطانى جندى قتيلاً وأصيب ستة آخرون بجراح ، وظل القسام يحمس إخوانه بالتكبير والنداء بعدم الاستسلام حتى وهو فى ظل الرصاص المنهمر وتهديد العدو له بالاستسلام وقد أجاب على ذلك بأننا لن نستسلم وأن هذا الجهاد فى سبيل الله والوطن والتفت إلى زملائه قائلا «موتوا شهداء»(٧٧) وبعد قتال شرس استمر عدة ساعات انتهت

المعركة باستشهاد عز الدين القسام مع أربعة من رفاقه وهم : يوسف عبدالله ، مصطفى الزيباوى، حنفى عطية أحمد وحمد بو قاسم خلف، كما جرح نمر السعدى وأسعد كلش وحسن الباير (٧٨).

يروى التقرير السنوى لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ أنه فى القتال الذى دار بين القوات البريطانية وعصابة الشيخ القسام قتل أربعة وتم أسر خمسة آخرون ثم قبض على أحد أفراد العصابة بعد ذلك ، وأن العصابة كانت مسلحة تسليحًا جيدًا بالسلاح والذخيرة(٧٩) وقد أثارت هذه المعركة عواطف عرب فلسطين وألهبت مشاعرهم فقابلوها بمظاهر جياشة من التهليل والتكبير ، وخشيت السلطة من أن يتحول تظاهر الجماهير إلى اضطراب يخل بالأمن فسلمت جثث الشهداء لذويهم وأغمضت عينها عن الاحتفال بدفنهم(٨٠) ومما يذكر أن جنود السلطة البريطانية وهم يفتشون ملابس الشهيد القسام وجدوا حجابًا فى عمامته كتب به هذا النص «أعوذ بالله من كيد الشيطان الرجيم فى كل ما أنا عازم عليه ، أعوذ بعزة الله وقدرته على قدرة الكافر وآلاته النارية وما يقدرون ، أعوذ بالله وقدرته من كل قدرة تعادينى، سبحانك رب العزة عما تصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»(٨١).

تحولت جنازة القسام إلى عرس وطنى قصده آلاف المواطنين وراحت الصحافة الوطنية تدلى بدلوها فى رثاء فقيد العروبة والثورة وأغلقت مدينة حيفا فى ذلك اليوم حدادا على الشهداء وبعد انتهائها من صلاة الغائب على أرواحهم الطاهرة فى المسجد الكبير انقلبت الجنازة إلى مظاهرة وطنية هاجمت فيها الجموع دائرة الشرطة فحطمتها كما حطمت نوافذ المحطة وأصيب عدد من رجال الشرطة الإنجليز ولولا أن جنود البوليس البريطانيين التزموا الصمت لتطور الأمر إلى درجة كبيرة(٨٢) وأبت الجماهير إلا أن تشيع جثمان الشهيد القسام إلى مثواه الأخير فى قرية «الياجور» التى تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلو مترات سائرة على الأقدام تحمل نعش الشهيد (٨٣)، وفى الخامس من يناير سنة ١٩٣٦ احتفلت «حيفا» بتأبينه وتأبين رفاقه بمناسبة مرور اربعين يوما على استشهادهم احتفالاً وطنيًا رائعًا، وساهم شعراء العروبة فى تلك المناسبة وقد وقف صادق عرنوس متحدثا وشاعر فقال:

من شــاء فليــأخــذ عن القســام | أنموذج الجندى فى الإســـــلام
وليـــتـــخـــذه إذا أراد تخلصًـــا | من ذلة الموروث خـــيـــر إمـــام
ترك الكلام ورصــفـــه لهواتـــــه | وبضاعة الضعفاء محض كلام

أو مـا ترى زعمـاءنا قـد اتخـمـوا ال ... آذان قـــولا أيــا اتخـام

كنا نظن حـقـيـقـة مـا جـبـروا ... فـإذا به وهمـا من الأوهـام[٨٤]

وتحولت فروع جمعية الشبان المسلمين إلى مكان لتقبل العزاء فى شهداء الوطنية وتوالت برقيات العزاء والتنديد بالاستعمار من كافة الدول العربية مع التمنيات للشعب الفلسطينى برأب الصداع والتكتل والصمود[٨٤].

وكان من المدهش حقا أن بعض المؤسسات الدينية ووجهاء القوم من القيادات التقليدية الفلسطينية الذين ناصبوا القسام العداء فى حياته وكانوا يدسون له لدى السلطة البريطانية راحوا يتباكون عليه بعد مماته وتسابقوا من أجل تقديم العون لأسر الشهداء وهم ينعتون الشهيد بالمناضل الثورى بعد أن كان زعيما لعصابة لا هم لها سوى النهب والسلب والقتل ووصل النفاق ببعض أولئك الزعماء إلى أن نذروا أنفسهم للحركة القسامية فقد قدم المجلس الإسلامى الذى يتزعمه الحاج أمين الحسينى لأسرة القسام عشرة جنيهات كتعويض عن فقدها لعائلها كما قدم أيضا خمسة جنيهات لعائلة كل من الشهداء الآخرين، أما (محمد عزة دروزه) مدير عام أوقاف فلسطين فقد اقترح أن تتبنى إدارة الأوقاف تعليم أبناء الشهداء بمدينة (دار الأيتام) بالمجان[٨٥] ونشط الحزب العربى الفلسطينى تحت رئاسة جمال الحسينى فى جمع التبرعات وإرسال المكاتبات إلى مكاتب الحزب فى داخل فلسطين وخارجها يحثها على إرسال تبرعات بأسرع ما يمكن للجنة العليا المختصة بشهداء التنظيم القسامى[٨٦].

صمم رجال القسام على الثأر لشهدائهم ومواجهة الخونة الذين وشوا بهم عند السلطة وتحقق لهم ذلك قبل إلقاء القبض عليهم فقد تم اغتيال (أحمد نايف)[٨٧] أما الذين ساعدوا فى القبض على المجاهدين أو شهدوا زوراً أثناء محاكمتهم فقد اغتالهم المجاهدون فى أوائل عام ١٩٣٧[٨٨] وكان القساميون قد لجأوا فى تلك الفترة إلى سياسة الاغتيال الفردى لإرهاب الجواسيس وسماسرة الأراضى فتخلصوا من الكثيرين فى مقدمتهم الضابط (حليم بسطة) مدير القلم السياسى فى شرطة حيفا ، وكانوا قد هاجموه فى بادئ الأمر فلم يصبه هذا الهجوم إلا بجروح ثم أعادوا الكرة وأطلقوا عليه سبع عشرة رصاصة استقرت فى جسده ولم يبرحوا المكان حتى تأكدوا إنه أصبح جثة هامدة وانصرفوا دون أن يتعرض لهم أحد أو التعرف على هويتهم[٨٩] ومن جانبها لجأت إدارة الأمن العام إلى التقليل من شأن الحركة القسامية بين صفوف رجالها واعتقدت أنه بالقضاء على القسام وشطر من رفاقه والقبض على

بعض الفلول الهاربة تكون هذه الحركة قد انتهت دون مخاوف من أية روح وطنية حتى بين أولئك الذين يمكن أن يطلق عليهم الصف الثانى من القساميين وراحت السلطة تغدق على رجالها الذين اشتركوا فى ملاحقة المجاهدين فى جبال (جنين) وقد رصدت من أجل هذا الغرض مبلغ خمسمائة جنيه (لينال منهم كل واحد بحسب نشاطه فى مقاومة تلك العصابة والقضاء عليها[٩٠]).

الحركة القسامية بعد استشهاد القسام:

بعد استشهاد عز الدين القسام قامت السلطة البريطانية بتمشيط مواقع الحادث فتم القبض على بعض الجرحى واعتبرتهم من الأسرى وعوملوا معاملة سيئة للغاية فعلى سبيل المثال الشيخ «نمر السعدى» والذى كانت حالته خطيرة. وامتنع الجنود البريطانيون عن تقديم الماء والطعام إليه بل حالوا بينه وبين اتصال أى من ذويه أو الجمهور به ولما كان الشيخ «نمر» يعتبر خليفة للشيخ القسام فقد راحت الجماهير تتبع أخباره باهتمام شديد وبالذات ما كان يتحلى به من بسالة نادرة إذ على الرغم من إصابته البالغة الخطورة ونزيفه المستمر فقد ظل يقاوم حتى آخر طلقة من ذخيرته[٩١] أما الشيخ «فرحان السعدى» وهو أحد مريدى القسام فقد خرج مع جماعة من الأنصار إلى جبال صفد متسللا من مخبئه داخل الأحراش الكثيفة ورابط هناك حتى إذا ما توصلت إليه القوات البريطانية بادر بمنازلتهم نزالا عاتيا وألقى القبض عليه وعلى مجموعة من الذين سلكوا طريق الجهاد على يديه فى الآونة الأخيرة.

وفى ظل الصراع غير المتكافئ بين قوات مدججة بأحدث الأسلحة وجماعات فدائية تسليحها البنادق فقط بينما قلوبهم محشوة بالإيمان كانت الجماهير تترقب ريثما تنجلى المعركة عن مكاسب سياسية ولم يعد للمواطن العادى من اهتماما سوى ما سيتمخض عنه هذا الصراع بعد شهور من استشهاد الزعيم ففى بيان من اللجنة العربية العليا تقول فيه «أن السلطة عندما قبضت على الشيخ فرحان السعدى فى قرية المزار قبضت عليه وعلى عدد من أهالى القرية ومع أن الحكومة أعلنت فى بلاغها بأنها ستقدم الشهيد وجماعته إلى المحكمة العسكرية فإنها قدمت الشهيد وحده وأخذت الجماعة إلى سجن القدس حيث لايزالون فيه دون محاكمة والسلطة تعذبهم كثيرا بقصد أخذ شئ منهم بشتى الطرق الإرهابية والتعذيب .. والسياسة أحيانا .. ويظهر أن بعض الجماعة صرح ببعض أسماء يقال أن الشهيد كان يعرفهم فقبض على نحو ثلاثين عربيا بموجب أنظمة الطوارئ وحكموا عليهم بالسجن ما بين

٣ إلى ٦ أشهر بتهمة معرفة الشيخ (فرحان السعدى)[٩٢] وكان من الطبيعى أن من يهب روحه فى سبيل الله والوطن أن يتسلح بجرأة منقطعة النظير فقد أعلن هؤلاء الفدائيون أمام المحكمة التى تشكلت لمحاكمتهم برئاسة أحد القضاة البريطانيين أنهم خرجوا لقتال الإنجليز قبل اليهود الذين دنسوا أرضهم الطاهرة[٩٣].

وفى الخامس عشر من أبريل سنة ١٩٣٦ قام جماعة من إخوان القسام وعلى رأسهم (السيد محمود ديراوى) بالهجوم المسلح على سيارات اليهود بطريق نابلس طولكرم وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا آخرين واختفوا عن الأنظار ليعيدو الكرة من جديد ، وأخذ كل فرد يفكر فى الثورة المسلحة وبدأ إخوان القسام من العلماء يحرضون الشعب على القتال وكان للعالم الشيخ (كامل القصاب) وزملاءه دورا بارزا فى هذا الصدد [٩٤].

راحت السلطة البريطانية – كما رأينا سابقا- تلقى القبض جزافا على المواطنين سواء من كان ينتمى إلى التنظيم القسامى من عدمه دون تفرقة ووجهت إليهم التهم الكاذبة بعد إلقائهم فى السجون وتعذيبهم بشتى الوسائل وذلك لإجبارهم على انتزاع اعترافات تشفى غليلهم ، وإزاء هذا التعذيب الوحشى كان بعض البسطاء يضطر إلى الادعاء بمعرفة بعض أعضاء التنظيم كى ينجو مما هو فيه ويذكر (أحمد الشقيرى) أنه كان من بين المحامين الذين حاولوا الدفاع عن هؤلاء البسطاء الذى يصفهم بأنهم من الكادحين المنفيين إلى حيفا ومنهم الحمال والبقال المتجول والعامل [٩٥].

ومهما يكن من الأمر فإن التنظيم القسامى كحركة ثورية منظمة لم ينته بمجرد قضاء السلطات البريطانية السريع على قائد التنظيم وبعض إخوانه واعتقال عدد آخر منهم فى أعقاب معركة غير متكافئة ذلك أن عددا من إخوان القسام الذين لم يشاركوا فى المعركة الأخيرة من أمثال (معروف حجازى وتوفيق الزبيرى وناجى أبوزيد) قد تمكنوا من الإفلات من الحصار المضروب عليهم وقاموا مع بقية أعضاء التنظيم الذين لم يكتشف أمرهم بإتمام المهمة الوطنية الثورية التى رسمها لهم القسام[٩٦] ولاشك أن استمرار أتباع القسام فى تلك المهمة الانتحارية كان من أبرز العلامات لهذه المنظمة الثورية التى يصفها «إميل الغورى» بأنها اخطر منظمة سرية وأعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية[٩٧] ذلك أن الحركة القسامية منذ بداية التفكير فى إنشائها اعتمدت على التخطيط المنظم البعيد عن الارتجال كما أن من أهم خصائص هذه الحركة هى اهتمامها بالطبقات الكادحة فى الوقت

الذى ظلت فيه هذه الطبقات موضع الإهمال المتعمد بل وقع عليها الظلم والاستغلال من قبل القيادات الوجيهة التى كانت تنظر إلى جماهير الشعب على أنها مناطق نفوذ تتقاسمها هذه الوجاهات فيما بينها حتى أن حزب الاستقلال الذى اعتبر أكثر الأحزاب تنظيما ظل عاجزا عن الوصول إلى التشكيلات الحزبية الفعلية وذلك لعدم اتصاله بالجماهير محافظة من زعمائه على نقائهم الطبقى واكتفت هذه الوجاهات بالصراخ والعويل واستجداء ضغط السلطة البريطانية على العصابات الصهيونية كى تتوقف عن اعتداءاتها المستمرة وليس أدل على ذلك من وقوفها مكتوفة الأيدى أمام الاستيلاء على شرق الأردن وفتح أبوابها للهجرة وشراء الأراضى(٩٨) مثلما حدث فى الحركة القسامية وتراجع هذا المخطط الاستعمارى الجديد كما لم يحرك هؤلاء ساكنا بعد انطفاء جذوة الشعلة القسامية وتعاظم الخطر الصهيونى وهم الذين ذرفوا عليه الدموع الساخنة أمام جماهيرهم ولم يكلفوا أنفسهم مشقة الرد على الحاخام اليهودى «عميئيل» الذى قال على الملأ إن فلسطين لاتتسع لشعبين وأن اليهود لايقبلون أن يشاركهم أحد فى ملكيتها ولذلك على العرب أن يرحلوا منها(٩٩) بل الأدهى من ذلك كله أن هؤلاء الزعماء غضوا الطرف عما لحق بأعراضهم فى سبيل مصالحهم الشخصية ، وما حدث فى قرية صفورية من أعمال الناصرة لهو خير دليل على ذلك حيث اعتدى خمسة عشر جنديا بريطانيا على عفاف فتاة عربية صغيرة لايتجاوز عمرها عشر سنوات وفضوا بكارتها بالإكراه ثم تعاقبوا عليها حتى مزقوا جسدها وانتهت بهم وحشيتهم إلى موت الفتاة وللأسف جاءت صيحات الاستنكار لهذا الحادث الإجرامى من شعب مصر الشقيق(١٠٠) الذى ظل يواسى إخوانه الفلسطينيين على طول الخط.

كان من بين الآثار الهامة التى ترتبت على ثورة الشيخ القسام المسلحة إنها وضعت بذور الإيمان الوطنى الصحيح الذى كان مبعثه القلب والعقيدة لا البرامج الحزبية والمشادات العقائدية فاستيقظت فلسطين على استشهاده ، وعلى الرغم من أن المعركة لم تستمر وقتا طويلا لكن لاشك أن أثرها الروحى كان أكبر من أثرها الكمى وضرب القسام للجماهير القدوة الحسنة والأسوة الصالحة إذ خرج بنفسه فى أول معركة ليحيى فى النفوس روح الثورية ، كان ما فعله القسام أبلغ رد على سياسة زعماء فلسطين إذ ثقف ونظم وقاتل حتى مات شهيدا غير متطلع لجاه أو زعامة ، كما أن المنهج والطريق الذى رسمه القسام ظل شبحا يخيف تلك الزعامات لأنه لايكشفها فقط بل يهددها بفقدان هذه الزعامة ومن هنا حرص وجهاء القوم على

أن يديروا ظهورهم للجو المتوتر الذى تولد عن بدء المقاومة فضلا عن أنهم لم يشاركوا فى جنازة الشهيد على الرغم من أن «أكرم زعيتر» وهو من أبرز وجهاء حزب الاستقلال دعا زملاءه إلى الاشتراك فى تشييع الجنازة إلا أنهم صموا آذانهم عن تلك الدعوة حتى برقيات التعزية التى أرسلوها جاءت باردة باهتة ، مع أنهم تباكوا على القسام بعد وفاته ونعتوه بالألقاب الثورية الرنانة إلا أنهم سرعان ما اجتمعوا بالمندوب السامى البريطانى قبل مضى أسبوع واحد على استشهاد الزعيم وقدموا له مذكرة جددوا فيها مطالب البلاد فى صورة استجداء(١٠١).

وعلى كل حال فإن استشهاد القسام أدى بكل من القيادات التقليدية والجماهير الكادحة إلى السير فى طريقين متوازيين أخذ كل واحد منهما يعمل على ضم الآخر إليه فالقيادات التقليدية وقد رفضت الحركة الثورية القسامية وامتنعت عن الاشتراك فى تشييع الجنازة ثم لقائها بالمندوب السامى بعد موته بقليل أرادت أن تنبه السلطات إلى التدهور السريع الذى يمكن أن يطرأ على البلاد إذا لم ترد بريطانيا على المطالب التى قدمت إليها أما جماهير الفلسطينيين فقد ظلت متمسكة بالمنهج القسامى وصار الناس ينظرون إلى القسام وإخوانه نظرة تقدير واحترام وبالذات فى الأوساط القروية التى ساد فيها الحقد على السياسة البريطانية وأخذت تبد استعدادها للتجاوب مع أى نداء للثورة(١٠٢) كما أن العمال فى المدن بلغت حالتهم حدا لايمكن السكوت عليه إذ حاولوا القيام بمظاهرات فى يافا بعد استشهاد القسام غير أن السلطات رفضت منحهم إذن للقيام بالتظاهر مما اضطر «جمعية العمال العرب» أن ترد على ذلك ببيان أصدرته فى ٦ / ١٢ / ١٩٣٦م قالت فيه (إنه إذا لم تقم الحكومة بحل المشكلة فإن الأيام المقبلة ستضطرنا إلى إطعام العمال خبزا أو رصاصا)(١٠٣) ومن ناحية أخرى فقد كانت جماهير الشعب الفلسطينى تراقب ما يجرى فى مصر حيث بدأت الانتفاضات الجماهيرية منذ ديسمبر سنة ١٩٣٢ على شكل مظاهرات اجتاحت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى أدت إلى مصادمات مع قوات الأمن وسقوط قتلى وجرحى وإضراب عام فى القاهرة أجبر الأحزاب على تأليف جبهة وطنية فى ١٠ / ١٢ / ١٩٣٥ طالبت بإعادة دستور ١٩٢٣ والاعتراف عَمَلِيًا باستقلال مصر (١٠٤).

فى الوقت الذى سارع فيه القساميون إلى إعادة تنظيم أنفسهم من جديد إذا بالعناصر المثقفة فى المدن تبدى رفضها لما تقوم به القيادات التى ما تزال تلهث وراء السلطات

البريطانية من أجل الحصول على تنازلات بسيطة لاتحقق للحركة الوطنية أهدافها الأساسية ومن ثم ظهرت تشكيلات جديدة فى المدن الكبيرة بقيادة عناصر شبابية سارت على درب التنظيم القسامى من حيث إيمانها بضرورة التخلص من العناصر البريطانية والصهيونية وكان من أبرزهم «أكرم زعتير» على رأس كتلة نابلس وحمدى الحسينى ومشيل مترى من زعماء جمعية «العمال العرب» فى يافا ، وفى قلقيلية تشكلت لجنة من الشباب الثورى وفى طولكرم تولى سليم عبد الرحمن وقادة الكشافة العرب زعامة كتلة جديدة أخرى ، وفى حيفا تولى «عاطف نور الله» حركة مماثلة ، وكان يساند هذه الكتلة عزة دروزة وعجاج نويهض من زعماء حزب الاستقلال ، وقد اتهمت هذه الكتل بارتكابها أعمال التحريض السياسى ضد كل من السلطات البريطانية والصهيونية بل حملت سلطات الانتداب زعماء تلك الأحزاب مسئولية الامتناع عن دفع الضرائب وإثارة الاضطرابات (١٠٥).

انتهز الشباب الوطنى الذى تأثر بالمنهج القسامى فرصة الذكرى السنوية لاحتلال القوات البريطانية لمدينة القدس والتى تصادف يوم ٩ / ١٢ / ١٩٣٥ ، فعقدوا اجتماعا وطنيا فى يافا تحدث فيه «محمد عزة دروزة» وميشل مترى وجورج مطر وحمدى الحسينى وعيسى السفرى اكرام زعتير وعجاج نويهض وأصدروا فى أعقاب المؤتمر بيانا حملوا فيه السلطات البريطانية مسئولية ما حدث بفلسطين من نكبات وأعلنوا فيه تأييدها لأى حركة ترمى إلى مكافحة الاستعمار فى الأقطار العربية والاستعانة بجيران فلسطين العرب من أجل تأليف جبهة واحدة ضد الاستعمار البريطانى (١٠٦).

لاشك أن استشهاد القسام كان بداية لمرحلة جديدة من الكفاح الوطنى السياسى ضد الإمبريالية وهو وإن لم يتخذ الصفة الثورية الفدائية إلا أنها تعتبر خطوة من أجل حصول الفلسطينيين على بعض حقوقهم السياسية والتشريعية ولم تكن انتفاضه ١٩٣٦ إلا باكورة تلك الأعمال التى خرجت من تحت عباءة الشيخ القسام الذى أزعج السلطة المنتدبة حتى بعد وفاته إذا استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها وحظر عليهم كتابة أى شئ عن القسام وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم ولكن السلطة رأت أن روح القسام انتشرت سريعا فى الشعب كله خلال الإضراب الكبير الذى حدث بعد استشهاده بعدة أشهر والذى دام ستة أشهر كاملة ، ويبدو أن السلطات البريطانية فى فلسطين قد أحست بخطورة الوضع ولهذا حاولت إقناع الزعماء بإمكانية دراسة مطالبهم وذلك لمساعدتهم فى الاحتفاظ بما يملكون

من نفوذ وخوفا من أن يؤدى ذلك إلى عدم إمكانية تهدئة الحالة الحاضرة بالوسائل المعتدلة التى اقترحها المندوب السامى البريطانى والتى كانت فى معظمها مبادئ عامة حول إعادة فكرة تشكيل المجلس التشريعى (١٠٧).

والذى يستوقف المرء فى دعوة الشيخ القسام أنها اقتصرت على طبقتى العمال والفلاحين فلم تتجاوزهم إلى الأفندية والضباط وحرص على أن تكون حركة دينية خالصة من الشوائب ويرى البعض أن القسام كان بعيد النظر فى ذلك حيث أن هاتين الطبقتين هما أخلص الطبقات وأكثرهما انقيادا واستعدادا للبذل والتضحية (١٠٨).

هناك قضية هامة بالنسبة للحركة القسامية وهو عبارة عن سؤال يطرح نفسه دائما هل حركة الشيخ القسام ارتبطت بحزب معين من عدمه وهناك اختلافات فى هذا الشأن فيذكر البعض أن القسام كان منتسبا إلى حزب الاستقلال فى حيفا وأنه كان على صلة وثيقة ببعض أركانه(١٠٩) بينما ذكرت مصادر الهيئة العربية العليا أن القسام كان عضوا فى لجنة الحزب العربى التنفيذية وأنه كان أكثر رجال هذا الحزب اتصالا بالمفتى وتعاون معه وأنه انصرف إلى حركته بناء على اتفاق مع رجال الحركة الوطنية وتأييدهم له(١١٠) وأشارت مصادر أخرى إلى أن القسام لم يكن مؤمنا بأى حزب ولم يكن مرتبطا بأى جهة على الإطلاق (١١١).

ومهما يكن الأمر فإن المدقق فى شخصية عز الدين القسام وما مرت به هذه الشخصية من أطوار تاريخية ليصعب معه القول ارتباطه بأى من الأحزاب القائمة، ومن الطبيعى أن يكون للقسام علاقات طيبة بغالبية تلك الأحزاب إلا أن الاختلاف بينه وبين بعض القادة كان نابعا من استخدام الوسائل التى يمكن بشأنها تحرير الأرض الفلسطينية وأوجه إنفاق أموال الأوقاف الإسلامية التى يرى القسام أن تسليح المجاهدين عن طريقها هو أجدى للمسلمين وأنفع من إنفاقها على تزيين وترميم المساجد حتى وإن كان المسجد الأقصى نفسه .

وكان على رأس هؤلاء الذين اختلف معهم القسام الحاج «أمين الحسينى» رئيس المجلس الأعلى الإسلامى الذى يكن له كل تقدير واحترام باعتباره أحد الرموز الإسلامية الهامة والذى كان يرى القسام أنه بإمكانه أن يوجه فصائل الفلسطينين وقواهم الثورية المتباينة إلى الوجهة الصحيحة ، إلا أن عوامل اليأس والإحباط التى تجمعت لدى القسام من موقف الحاج «أمين الحسينى» دفعته لإلقاء آخر ورقة كان يحتفظ بها فى جعبته وذلك عندما أرسل إليه أحد إخوانه «محمود سالم» الملقب بأبى أحمد القسامى ينبئه عن عزمه بالقيام بثورة فى فلسطين للقضاء

على فكرة إنشاء وطن قومي لليهود وكان ذلك قبل نشوب الثورة القسامية بأشهر قليلة وكان الوسيط بين رسول القسام والحاج أمين الحسيني هو الشيخ «موسى العزراوى» أحد أعوان الحاج أمين ، وجاءت إجابة مفتى فلسطين بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ويبدو أن الحسيني قد فطن إلى أن القسام بدأ يرفع راية العصيان ضده بل يمكنه أن يكون أداة من أدوات هدم نفوذه فى مواجهة السلطة البريطانية . وتذكر ابنة القسام- أنه إزاء هذا الاختلاف فى الرأى بين المفتى والشيخ القسام لجأ المفتى إلى خلع الشيخ عز الدين من وظيفة المأذونية وتجريده من بعض الامتيازات الأخرى التى حصل عليها فى الآونة الأخيرة (١١٢). مثل مجانية التعليم لأبناء القسام وذلك قبيل الثورة بأيام قليلة.

كان ثمة تناقض واضح يمنع التقاء الحركة القسامية بغيرها من الحركات الوطنية الأخرى إذ أن الحركة الأولى تقوم على فكرة الجهاد المسلح ضد الاحتلال وأن القوة وحدها هى التى عن طريقها يمكن إخراج بريطانيا والقضاء على شراذم اليهود ومن هنا لم تكن الحركة القسامية نابعة من حزب معين بل كانت منبثقة من إحساس عميق من رجال القسام – وكلهم من الفلاحين والعمال- بالخطر الذى يهدد حياتهم من جراء استمرار الهجرة الصهيونية المتدفقة ، وأن الوسائل السلمية والطرق المشروعة لم تعد تجدى فتيلا، وذلك هال الإنجليز أن تقوم فى فلسطين ثورة وطنية ضدهم وراعهم أيضا ما خلف استشهاد القسام من أثر فى نفوس أهالى فلسطين فعادت بريطانيا إلى سياسة تهدئة الأوضاع وأعلنت فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ عن عزمها على إشراك العرب فى الإدارة والتشريع ووضعت مشروع تأليف مجلس تشريعى يضم مختلف طبقات الشعب الفلسطيني.

الهوامش

١- من حديث للسيدة ميمنة عز الدين القسام ابنة صاحب الدراسة للباحث فى مدينة «تعز» بجمهورية اليمن الشمالية وقد جرى هذا الحديث فى معهد المعلمين العام فى ٢٥ مارس عام ١٩٨٢ ، وكانت صاحبة الحديث تشغل منصب ، موجهة فى إدارة التفتيش العام بادارة التربية والتعليم بمدينة الزرقا بالأردن. ومبعوث من قبل وزارة التربية والتعليم الأردنية إلى وزارة المعارف بالجمهورية العربية اليمنية وتقول السيدة ميمنة أنها من مواليد ١٩٢٠ وكان عمرها وقت استشهاد والدها فى عام ١٩٣٥ خمسة عشرة عاما.

* تنتسب فصائل عز الدين القسام وهو الجناح العسكرى فى حركة حماس الفلسطينية إلى صاحب الدراسة الشيخ عز الدين القسام وقد بدأت هذه الحركة فى مواجهة الحركة الصهيونية منذ عام ١٩٦٧ تحت زعامة الشيخ أحمد ياسين وحتى اليوم.

٢- صبحى ياسين : الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ، من ١٩٣٦-١٩٣٩ ص١٩-٢٠ دار الهنا للطباعة.

٣- من حديث ميمنة القسام للباحث .

٤- الهيئة العربية العليا لفلسطين العربية ، نشرة فلسطين ، العدد ٩٤ ، كانون الثانى ١٩٦٩ ، ص١٧ .

٥- أحمد طربين: محاضرات فى تاريخ قضية فلسطين منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ ، ص٨٩ ، القاهرة معهد الدراسات العربية العليا ١٩٥٩م.

٦- صبحى ياسين : المرجع السابق، ص٢٠ .

7- Government of Palastint: Asurvey of palestine, vol 1. p. 141-142 .

٨- صبحى ياسين : المرجع السابق ص٢١ .

٩- المرجع السابق ، ص٢٠ .

١٠- نشرة فلسطين ، العدد ٩٤ ، ص١٧ .

١١- صبجى ياسين : المرجع السابق ص٢١ .

١٢- من حديث ميمنة القسام للباحث.

١٣- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الحربية ، ملف رقم ١٧٦ ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطانى والصهيونى ص٩-١٠ .

ـعة عيسى الحلبى بمصر سنة

١٦- نشرة فلسطين - العدد ٩٤ ص١٧ .

١٧- من حديث ميمنة القسام للباحث.

١٨- صبحي ياسين : المرجع السابق، ص٢٣ .

١٩- عبد الكريم الكرمي: كفاح عرب فلسطين ، ص٥٩ ، دمشق ١٩٦٤ .

٢٠- صبحي ياسين : نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، ص٧٧ ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢١- خليل محمد عيسى (الملقب بأبي إبراهيم الكبير) مقال في نشرة الثورة الفلسطينية (فتح) تحت عنوان «الثورة الفلسطينية الكبرى» ص٢٥ ، ٢٦ دمشق ١٩٦٩ .

٢٢- فيما يلي أسماء البارزين من أتباع عز الدين القسام: الشيخ محمد الحنفي والشيخ علي الحاج عبيد (جبلة / سوريا) عطية أحمد عوض (قرية الشيخ قرب حيفا) يوسف الزيباوي (الزيب / حيفا) محمد الحنفي أحمد (مصر) حسن الباير (برقين) فرحان السعدي (المزار) نمر السعدي (شفا عمرو) صالح طه - أحمد التوبة- نايف المصلح- أبو محمود الصفوري- علي إبراهيم زعروره (صفورية) محمود سالم المخزومي (قرية زرعين) ناجي أبوزيد (حيفا) يوسف أبودرة (السيلة الحارثية) محمد الصالح- عبد الفتاح أبو عبدالله (سيلة الظهر) عارف الحمدان (قضاء جنين) محمد الحلحولي (حلحلول) محمد الخالدي وأخوه خالد (حيفا) أحمد جابر (حيفا) السيد عرب بدوي (قضاء جنين) السيد أبو علي مزرعاوي (المزرعة / القدس) عبدالله يوسف (قرية عرابة) الشيخ عبدالله (كفروان) معروف حجازي (قرية يعبد) توفيق الزيري (عرابة) محمود ديراوي (دير أبو ضعيف) نايف الزغبي (قرية سويلم) محمد أبو حصب (قباطية) عبد القادر علي (عرعرة) خليل محمد عيسى (شفا عمرو) حسنين حمادة (اجزم) عبدالله عقلية (قرية عبلين) محمد العبد موسى (كوكب أبو الهيجاء) الشيخ سليمان ؟ (سمسم / غزة) السيد سرور برهم (حيفا) رشيد عبيد الشيخ (طيرة / حيفا) محمود الخضري (؟) داود خطاب (؟) .

٢٣- صبحي ياسين : المرجع السابق ، ص٢٤ ، ٢٥ .

٢٤- دار الوثائق - جامعة الدول العربية ، الهجرة اليهودية إلى فلسطين ص٢٠ ، ٢١ .

٢٥- كريستوفر سايكس : مفارق الطرق إلى إسرائيل ، ص٢٥٥ ، ترجمة خيري حماد، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٦ .

٢٦- عرفات حجازي: أرض الثورات فلسطين ص٥٤ ، بيروت سنة ١٩٥٩ .

٢٧- صبحي ياسين : المرجع السابق ، ص٢١ .

٢٨- الرابطة العربية ، ص٢٤ ، السنة الأولى، العدد ١٧ ، في ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ م.

٢٩- جريدة الأنوار : ص١٣ ، العدد ٦٠٩ ، ٦ آب (أغسطس) ١٩٦١ مقال بقلم عجاج نويهض .

٣٠- ايميل الغوري : فلسطين عبر ستون عاماً، ص٢٥٠ ، دار النهار، بيروت ١٩٧٣ .

٣١- د. عبد الوهاب الكيلاني: تاريخ فلسطين الحديث، ص٢٩٢ ، بيروت ١٩٧٣ .

٣٢- من حديث ابنة القسام للباحث .

٣٣- دار الوثائق : وثائق عابدين، وزارة الخارجية ، ملف رقم ٣ ، دوسيه (ب) تقرير الحالة فى فلسطين من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١ .

٣٤- نشرة فلسطين ، العدد ٧ ص١٥ ، سنة ١٩٦١ .

٣٥- المصدر السابق، العدد ٩، ص٢٢ ، ١٩٦١ .

٣٦- خليل محمد عيسى: المرجع السابق، ص٢٤ ، ٢٥ .

٣٧- صبحى ياسين : المصدر السابق، ص٢٣ .

٣٨- عبد الكريم الكرمى: المرجع السابق، ص١٠٦ .

٣٩- من حديث ميمنة القسام للباحث .

٤٠- دار الوثائق : مجلس الوزراء ، وزارة الحربية / ملف رقم ٣٥ / ح ، خطاب من بعض شباب فلسطين إلى صاحب الجلالة فى مصر يناشده فيه التدخل من أجل إنقاذ «أرض الأنبياء» عن الحالة فى فلسطين من ١٩٢٢-١٩٣٢ .

٤١- صبحى ياسين : المرجع السابق ، ص٢٦ .

٤٢- عبد الكريم الكرمى: المرجع السابق ، ص١٠٧-١٠٨ .

٤٣- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، محفظة رقم ٤٥ / ج . وزارة الخارجية / شئون فلسطين ، عن الحالة الراهنة فى فلسطين ١٩٣٤-١٩٣٥ .

٤٤- جريدة كوكب الشرق / السنة (١١) عدد ٢٠٣٥ ، ٩ مارس ١٩٣٥ .

٤٥- المصدر السابق : القدس فى ٨ أبريل ١٩٣٥ .

٤٦- دار الوثائق ، وثائق عابدين ، تقارير، تقرير من مكتب الحزب العربى الفلسطينى فى ١٥ أبريل ١٩٣٥ .

٤٧- المصدر السابق : اضراب السائقين فى ٤ أغسطس سنة ١٩٣٥ .

٤٨- جريدة مرآة الشرق: العدد ٢٧١ السنة الرابعة ، ٥ أغسطس ١٩٣٥ القدس، تحت عنوان «حزب الفلاحين الفلسطينيين».

٤٩- صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ص١٧٧ ، دار الفتح بيروت ١٩٦٨ .

50- Report by his Majests Government on the Adiministration of Palestine and trans - Jordan for the Year 1935, p. 5 .

٥١- صبحى ياسين : المرجع السابق ، ص٢١ .

٥٢- المصدر السابق ، نفس الصفحة.

٥٣- المصدر السابق ، ص٢٢ .

٥٤- إميل الغورى، المرجع السابق ، ص٢٣٨ ، ٢٣٩ .

٥٥- نشرة فلسطين : الإعداد ٦٥ ، ٦٦ ، ص٥٩ ، أشهر تموز وآب ١٩٦٦ .

٥٦- صبحى ياسين : نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، ص٧٩ .

٥٧- Jeffries : Palestine, the Reality p. 651 .

٥٨- Survey of Palestine , vol . 7 , p. 141-142 .

٥٩- عيسى السفرى: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، ص٢٥٥ ، الكتابان الأول والثانى ، ترجمة عبد الوهاب الكيالى ، بيروت سنة ١٩٦٥م.

٦٠- جريدة شئون فلسطين ، ص٤٧ ، العدد ٦، بيروت ، يناير ١٩٧٢م.

٦١- بريارة كالكاس : ثورة ١٩٣٦ ، ص٢٥٨ ، مقال فى كتاب «تهويد فلسطين» إعداد إبراهيم أبو لغد ترجمة أسعد رزوق، مركز الأبحاث الفلسطينية ١٩٧٢ .

٦٢- دار الوثائق : وثائق عابدين، ملف (١) ، فلسطين ١٩٣٥ ، بيان إلى العالمين العربى والإسلامى من جمال الحسينى رئيس الحزب العربى الفلسطينى.

٦٣- خليل السكاكينى: كذا أنا يا دنيا (يوميات خليل السكاكينى) ص٢٧ ، أعدها للنشر هالة السكاكينى، القدس ١٩٥٥م.

٦٤- عمر أبو النصر : المرجع السابق ، ص٢٧٢ .

٦٥- من حديث ميمنة القسام للباحث .

٦٦- عبد الكريم الكرمى: المرجع السابق، ص١٠٨ .

٦٧- اللجنة الفلسطينية العليا بالقاهرة ، المرجع السابق ، ص٥١ .

٦٨- الرابطة العربية ، مقال بقلم عبد الله مخلص ، ص٢٢ ، السنة الأولى، العدد (٢٤) فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦ .

٦٩- المرجع السابق، مقال بقلم أمين سعيد ، ص٢٤ ، السنة الثانية ، العدد ٩٦ ، فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٨ .

٧٠- المرجع السابق : ص٢٩ ، السنة الأولى ، عدد ١٧ ، ٦ سبتمبر ١٩٣٦م.

٧١- جريدة فلسطين : يافا ، ١ / ٣ / ١٩٣٦م.

٧٢- نشرة فلسطين (الهيئة العربية العليا لفلسطين) العدد ٩٤ ، ص١٩ سنة ١٩٣٥ .

٧٣- صبحى ياسين : الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ، ص٢٧-٢٨ .

٧٤- جريدة فلسطين ، يافا ٢٠ / ١ / ١٩٣٥ .

٧٥- جريدة كوكب الشرق، غرة رمضان ١٣٥٤ هـ / ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، مقال تحت عنوان ثورة فلسطين الدامية كيف وقعت ومن هو زعيمها .

٧٦- نفس المصدر السابق.

٧٧- ناجى علوش : المقاومة العربية فى فلسطين ، ص١٠٢ ، من ١٩١٧ إلى ١٩٤٨ ، بيروت ١٩٦٧ .

٧٨- أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٩٨ ، القاهرة ١٩٥٥ .

تقول جريدة كوكب الشرق أنه قتل شاب من قرية (يعبد) يدعى أحمد الشيخ سعيد لم يكن من جماعة المجاهدين وهو فلاح كان يسكن بيتًا مجاور المعركة ... كوكب الشرق، المرجع السابق، نفس الصفحة.

٧٩- Hymson K. A. m; Palestine under the Mandate (1920-1948) p. 6 London 1950 .

٨٠- جريدة الأنوار : نوفمبر ١٩٣٥ .

٨١- كوكب الشرق، ص١١ فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

تم محاكمة الأسرى فى ١٦ / ١٠ / ١٩٣٦ وهم : أحمد الحاج عبد الرحمن وحسن باير وعرابى بدوى بالسجن ١٤ سنة مع الأشغال الشاقة - أسعد المفلح ونمر السعدى وداود الخطاب ومعروف الحاج جابر بالسجن سنتين. تنفى جريدة كوكب الشرق مزاعم السلطة البريطانية بشأن وجود مثل هذا الحجاب ولكن ابنة الشيخ القسام تؤكد نقلاً عن الشيخ فرحان السعدى أن والدها كان من أشد المؤمنين بالغيبيات وبالقضاء والقدر ومن هنا لاتستبعد وجود مثل هذا الحجاب إلى جانب حملة لنسخة من القرآن الكريم بصفة دائمة- حديث ميمنة القسام للباحث.

٨٢- جريدة فلسطين : يافا ص١٨ ، ديسمبر سنة ١٩٣٥ .

٨٣- اللجنة الفلسطينية العربية، القاهرة، ص١٣ (عن ثورة فلسطين) سنة ١٩٣٦ .

٨٤- كوكب الشرق ، المرجع السابق ، ص١١ برقية من دولة مصطفى باشا النحاس رئيس وزراء مصر إلى جمعية الشبان المسلمين بحيفا.

٨٥- المصدر السابق ، نفس الصفحة.

٨٦- كوكب الشرق ، ص٩ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥، مقال تحت عنوان (مساعدة عائلات الشهداء) .

٨٧- مجل العرب ، ص٢٥ ، العدد ٤٥ ، القدس سنة ١٩٣٦ .

٨٨- اللجنة العربية الفلسطينية بمصر، ص٦ ، بيان إلى العالم الإسلامى عن حالة المعتقلين بسجن عكا.

٨٩- جريدة الثورة الفلسطينية (فتح) ص١٤ دمشق سنة ١٩٦٩ .

٩٠- كوكب الشرق ، ص٩ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ مقال تحت عنوان (مكافأة ذبح الشهداء) .

٩١- كوكب الشرق ، المصدر السابق، ص١١ .

٩٢- دار الوثائق ، القضية الفلسطينية، محفظة رقم ٥٨٦ من بيان اللجنة العربية العليا بتاريخ ١٦ / ١ / ١٩٣٧م.

٩٣- جريدة لسان العرب، ص٥ سنة ١٩٥٢ .

٩٤- عمر أبو النصر وآخرون ، المرجع السابق ص٢٧٣-٢٧٥ .

٩٥- أحمد الشقيرى: ٤٠ عاما فى الحياة العربية والدولية، ج١ ، ص١٩٩-٢٠٤ ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ .

٩٦- صبحى ياسين : الثورة العربية الكبرى فى فلسطين، ص٢٨ -٢٩ .

٩٧- إميل الغورى: المرجع السابق ، ص٢٤٨ .

٩٨- وثائق عابدين : شئون فلسطين ، تقرير رقم (١) بيان إلى العالمين العربى والإسلامى من الحزب العربى الفلسطينى برئاسة جمال الحسينى .

٩٩- جريدة الرابطة العربية ، ١٨ رمضان ١٣٥٥ ، ٢ ديسمبر ١٩٣٦، ص٨٧ ، السنة الأولى، العدد ٢٨ .

١٠٠- دار الوثائق ، وثائق عابدين تقارير ، تقرير رقم ١ عن القضية الفلسطينية من ١٩٣٧ - ١٩٤٨ مقال بعنوان فلسطين تحترق فانتبهوا أيها المسلمون (لجنة مساعدة فلسطين) دار الإخوان .

١٠١- Hymson A. M; Palestine under the Mandate (1920-1948) p. 215 , London 1950 .

١٠٢- فـ م ، سيتون وليامز : بريطانيا والدول العربية ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ص١٤٨ ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥ .

١٠٣- نشرة المكتب العربى: مشكلة فلسطين ج٢ ، ص١٣٨ ، القدس سنة ١٩٤٦ .

١٠٤- جريدة المقطم ، ٢٣ / ١٢ / ١٩٣٥ .

١٠٥- د. عبد الوهاب الكيالى : المرجع السابق ص٢٩٧ .

١٠٦- المقطم، ١١ / ١٢ / ١٩٣٥ .

١٠٧- د. الكيالى : المصدر السابق ، ص٩٦ .

١٠٨- أمين سعيد : المرجع السابق، ص٦٥ .

١٠٩- سعدى بسيسو : الصهيونية نقد وتحليل ، ص١٧٣ ، حلب ١٩٥٧ .

١١٠- ناجى علوش : المرجع السابق، ص١٣٢ .

١١١- نجيب صدقة : قضية فلسطين ، ص٥٦ الطبعة الأولى، دار الكاتب ، بيروت سنة ١٩٤٦ .

١١٢- من حديث ابنة الشيخ القسام للباحث.

مصادر البحث

أولا : الوثائق :

١- جامعة الدول العربية ، الوثائق العربية فى قضية فلسطين ، المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦ ، القاهرة ١٩٥٦ .

٢- الوثائق القومية : وثائق عابدين، تقارير ، تقرير رقم (١) عن القضية الفلسطينية ١٩٢٧-١٩٤٨ .

٣- دار الوثائق : تقارير، تقرير من مكتب الحزب العربى الفلسطينى فى١٥ أبريل ١٩٣٥ .

٤- دار الوثائق : عابدين ، شئون فلسطين ، الفترة من ١٩٣٢-١٩٤٧ .

٥- دار الوثائق : وثائق عابدين القضية الفلسطينية، محفظة رقم ٥٨٦ بيان اللجنة العربية العليا فى ١٦ / ١ / ١٩٣٧ .

٦- دار الوثائق ، وثائق عابدين، ملف رقم (١) عن فلسطين سنة ١٩٣٥ .

٧- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء، محفظة رقم ٤٥ / ج (وزارة الخارجية) شئون فلسطين ، عن الحالة الراهنة فى فلسطين ١٩٣٤-١٩٣٥ .

٨- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الحربية ، ملف رقم ٣٥ / ج الحالة فى فلسطين ١٩٢٢-١٩٣٥ .

٩- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء، وزارة الحربية، ملف رقم ١٥٦ عن المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطانى والصهيونى .

١٠- دار الوثائق : وثائق عابدين، وزارة الخارجية ملف رقم (٣) دوسيه (ب) من عام ١٩٢٩-١٩٣٦ .

ثانيا: المراجع العربية :

١- أحمد الشقيرى: أربعون عاما فى الحياة العربية والدولية، ج١ ، دار العودة بيروت، ١٩٧٣ .

٢- أحمدطربين : محاضرات فى قضية فلسطين من نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ ، معهد الدراسات العربية العليا سنة ١٩٥٩ .

٣- اكرم زعيتر : القضية الفلسطينية، القاهرة ١٩٥٥ .

٤- اميل الغورى : فلسطين عبر ستون عاماً ، دار النهار، بيروت سنة ١٩٧٣ .

٥- أمين سعيد: ثورات العرب فى القرن العشرين ، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبى بمصر سنة ١٩٣٥ .

٦- بربارة كلكاس : ثورة ١٩٣٦، مقال فى كتاب «تهويد فلسطين» إعداد إبراهيم أبو لغد ، ترجمة اسعد رزوق، مركز الأبحاث سنة ١٩٧٢ .

٧- خليل السكاكينى : كذا أنا يا دنيا، يوميات خليل السكاكينى، أعدتها للنشر هالة السكاكينى ، القدس سنة ١٩٥٥ .

٨- خليل محمد عيسى: الثورة الفلسطينية الكبرى (مقال فى نشرة الثورة الفلسطينية) فى دمشق ١٩٦٩ .

٩- سعدى بسيسو : الصهيونية ، نقد وتحليل، حلب سنة ١٩٥٧ .

١٠- صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح بيروت سنة ١٩٦٨ .

١١- صبحى ياسين : أ- الثورة العربية الكبرى فى فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) دار الهنا للطباعة.

ب- نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٢- عبد الكريم الكرمى: كفاح عرب فلسطين الحديث، بيروت ، سنة ١٩٦٤ .

١٣- عبد الوهاب الكيالى: تاريخ فلسطين ، بيروت سنة ١٩٧٣ .

١٤- عرفات حجازى : أرض الثورات فلسطين ، بيروت سنة ١٩٥٩ .

١٥- عمر أبو النصر وآخرون: جهاد فلسطين العربية ، بيروت سنة ١٩٣٦ .

١٦- عيسى السفرى : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، ترجمة عبد الوهاب الكيالى، بيروت ١٩٦٥ .

١٧- ف.م. سيتون وليامز : بريطانيا والدول العربية ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى مكتبة الأنجلو المصرية.

١٨- كريستوفر سايكس : مفارق الطرق إلى إسرائيل ، ترجمة خيرى حماد، دار الكاتب العربى بيروت سنة ١٩٦٦ .

١٩- محمد صادق عرنوس : صوت الشعر فى قضية فلسطين ، القاهرة ١٩٣٦ .

٢٠- ناجى غلوش: المقاومة العربية فى فلسطين ، ١٩١٧-١٩٤٨ ، بيروت ١٩٦٧ .

٢١- نجيب صدقة : قضية فلسطين ط١ ، دار الكاتب ، بيروت سنة ١٩٤٦ .

ثالثا : المراجع الأجنبية:

1- Government of Palestine: A Survey of Palestine, prepared in December 1945 and January 1946 for the Anglo American Commisson of inquary , 2 vols.

2- Hymson , A. M: Palestine under the Mandate (1920-1948) London 1950 .

3- Jeffires , J. M. N : Palestine the Reality , London 1939 .

4- Report By His Majests government on the Adiminstration of Palestine and Trans - Jordan for the Year 1935 .

رابعا : الدوريات :

١- الأنوار عدد ٦٩ ، آب (أغسطس) ١٩٦١ .

٢- جريدة فلسطين (يافا) ، نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، ديسمبر ١٩٣٥ ، مارس ١٩٣٦ .

٣- الرابطة العربي سبتمبر ١٩٣٦-نوفمبر ١٩٣٦ - أبريل ١٩٣٨ .

٤- شئون فلسطين : يناير سنة ١٩٧٢ .

٥- كوكب الشرق : مارس ١٩٣٥ - أغسطس ١٩٣٥- نوفمبر ١٩٣٥ .

٦- مجلة العرب : العدد ٤٥ ، القدس سنة ١٩٣٦ .

٧- مرأة الشرق : اغسطس سنة ١٩٣٥ .

٨- نشرة فلسطين : (الهيئة العربية العليا) ١٩٣٥- تموز وآب سنة ١٩٦٦ .

خامسا : الأحاديث الشخصية:

حديث شخصى مع السيدة ميمنة عز الدين القسام وذلك فى مبنى معهد المعلمين العام بتعز بجمهورية اليمن الشمالية (الجمهورية العربية اليمنية) فى عام ١٩٨٢ .

د. حسين علي المسري(*)

مدينة الري في تاريخها السياسي من العصر العباسي الثاني حتى سقوط بغداد

ملخص البحث

إن مدينة الرى تعد واحدة من المدن الفارسية القديمة التى تمتاز بعراقة تاريخها الحضارى القديم، فقد كانت من مراكز الحضارة والثقافة القديمة عند الفرس، وظلت محافظة على هذا التراث متمسكة به، وفى العصر الإسلامى فتحت هذه المدينة ولكن بعد محاولات قام بها الفاتحون.

أما مدينة الرى فى الوقت الحاضر فليس لها شأن يذكر، فقد أفل نجمها وانطفأ دورها الحضارى، وتحولت إلى قرية متواضعة بسيطة معظم سكانها من الفقراء ، وقد سلبت أضواء هذه المدينة العريقة مدينة طهران العاصمة الحالية لجمهورية إيران، التى أنشأت على بعد (٨) كيلو مترات من مدينة الرى. وفى مدينة الرى ضريح يسمى شاه عبد العظيم ، وهو من أحفاد الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ويعتبر من المزارات الهامة فى جمهورية إيران .

لقد استفادت مدينة الرى فى الإسلام من الرصيد الحضارى الذى كانت تمتلكه ، فقد كان لهذه المدينة دور سياسى واقتصادى وثقافى واضح فى العصر العباسى مع ما مرت به من عوائق ، ويعود الفضل فى ذلك إلى موقعها الجغرافى الهام والمميز فى النواحى الاقتصادية والسياسية والعسكرية، لذلك حرصت كل القوى التى ظهرت على الساحة

* قسم التاريخ - جامعة الكويت .

السياسية السيطرة على هذه المدينة، وكان هذا النشاط السياسى والعسكرى فى السيطرة على مدينة الرى متزامنا مع ضعف الخلافة العباسية، فإن ضعف الخلافة قد أفسح المجال أمام هذه القوى على التنافس فى السيطرة على مدينة الرى.

لذلك فإننا نلاحظ من سير الأحداث، أن التاريخ السياسى لمدينة الرى ، لاسيما فى العصر العباسى الثانى، يمتاز بعدم الاستقرار، فقد مرت على مدينة الرى فترات ذات طابع سياسى مضطرب وغير مستقر يمتاز بأحداث سياسية سريعة الحدوث متلاحقة متشابهة فى أسباب حدوثها حتى إنك لاتكاد تميز بين عدوان وآخر على مدينة الرى من حيث الأسباب والدوافع.

وربما كانت بداية هذا الاضطراب وعدم الاستقرار فى تاريخ مدينة الرى فى أواخر العهد الطاهرى، فقد أساء نواب الطاهريين على مدينة الرى إلى أهلها واعتدوا على أملاكهم ، فاستعان أعيانها بالعلويين ولم يتردد العلويون فى قبول هذه الدعوة، وقد قاد هذه الحركة الحسن بن زيد بن محمد الطالبى، واستطاع العلويون بسط نفوذهم على الرى وأعمالها.

ولما انتهى العهد الطاهرى جاء السامانيون وتمكنوا من إخضاع مدينة الرى لنفوذهم لاسيما بعد أن ضعف النفوذ العلوى على الرى. لكثرة الصراعات والمنافسات بين القوى ، ويبدو أن السامانيين عجزوا عن الاحتفاظ بسيطرتهم على الرى، فقد استطاع (أسفار بن شيرويه) المتمرد على السامانيين انتزاع مدينة الرى من أيديهم.

وظلت مدينة الرى بعد ذلك تتجاذبها القوى إلى أن جاء البويهيون الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على بلاد فارس ومدينة الرى وأعمالها بعد حروب تكاد تكون مستمرة خاضوها ضد السامانيين والقوى المناوئة الأخرى، وامتد نفوذ البويهيين من بغداد العاصمة إلى سائر مدن العراق، لاسيما فى عهد الأخوة الثلاثة وهم: ركن الدولة الذى يحكم مدينة الرى وأعمالها وعماد الدولة على بلاد فارس ومعز الدولة على بغداد.

وقد زال النفوذ البويهى عن الرى بسبب الصراعات التى وقعت بين أبناء البيت البويهى الحاكم ، وقد هيأ هذا الوضع الظروف لمجيئ الغزنويين وسيطرتهم على مدينة الرى وسائر أعمالها.

أن الفساد الإدارى الذى مارسه نواب السلطان مسعود الغزنوى على الرى كان سببا فى الإسراع بضياع النفوذ الغزنوى عن مدينة الرى، ولم تنفع المحاولات التى بذلها السلطان مسعود لعلاج هذا الفساد .

هذا المناخ السياسى المضطرب غير المتوازن الذى يخيم على مدينة الرى قد أفسح المجال أمـام الأتراك السـلاجقـة فى عـهـد السلطان طغـرلبك من السـيطرة على مـدينة الرى. ولكن الصراعات المتكررة بين الأتراك أنفسهم، بالإضافة إلى القوى الطامعة فى السيطرة على مدينة الرى، نجم عنه إضعاف نفوذ الأتراك، وقد حببت هذه الأجواء للدولة الخوارزمية الفتية القوية غزو مدينة الرى ثم السيطرة عليها.

وأخيراً فإن مدينة الرى لم تسلم من خطر المغول التتار، شأنها فى ذلك شأن سائر المدن المجاورة لها والبعيدة عنها، فقد لحق بها الدمار من جراء هجمات التتار المتكررة ، فتضررت بذلك حياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، فكان لذلك تأثير واضح على النشاط الحضارى لمدينة الرى.

وفيما يتعلق بالمصادر التى استعنا بها فى تحقيق هذا البحث ، فجميعها مصادر تاريخية، لعل من أبرزها وأهمها بالنسبة لهذا البحث كتاب (تجارب الأمم) لابن مسكويه والكتاب المذيل عليه ، لأبى شـجاع ظهير الدين الروذراورى ، فقد عُرِضتْ الأحداث فى هذين الكتابين بدقة وبتفصيل أكثر من المصادر الأخرى؛ ومن المصادر التاريخية التى أفادتنا كثيرا : كتاب (تاريخ البيهقى) ، لأبى الفضل محمد بن حسين البيهقى، من أهل خراسان ولد فى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، وكان يعمل كاتبا للسلطان مسعود الغزنوى، فهو الذى يحرر الرسائل المتبادلة بين السلطان مسعود وبين نوابه على مدينة الرى، فكان معاصرا وقريبا من الاحداث ، لذلك فإن ما حرره من رسائل تعتبر وثائق وشاهد عيان على الأحداث إبان هذه الفترة من تاريخ مدينة الرى. وأخيرا كتاب (الكامل فى التاريخ)، لابن الأثير الذى ظل ملازما لنا بأحداثه التاريخية الهامة طوال الفترة الزمنية المقررة لهذا البحث ، فأفدنا منها كثيرا.

مدينـــة الـــرى فـــى تاريخهـــا السياســـى
من العصر العباسى الثانى حتى سقوط بغداد

مـدينة الرى من المدن الفارسيـة القـديمة والعريقـة ، حـتى أن التـاريخ لـم يدرك على وجـه التحديد بداية بنائها ، وقد وصل إليها الفتح الإسلامى ودخلت فى الإسلام ولكن بعد مـحاولات عديدة من الفاتحين حتى تم إخضاعها . وقد تأثرت مدينة الرى بالأحداث السياسية المحيطة بها، وقد تفاعلت معها وكان لها الدور الفاعل .

ولم تعد مدينة الرى فى الوقت الحاضر ذات قيمة سياسية أو ثقافية كما كانت فى الفترة التى نريد أن نتحدث عنها، فقد أفل نجمها وحلت محلها مدينة طهران العاصمة الحالية* لجمهورية إيران ، والتى تبعد عنها بحوالى (٨) كيلو مترات .

وحديثنا عن مدينة الرى كما جاء فى عنوان هذه الدراسة، يبدأ من العصر العباسى الثانى وحتى سقوط بغداد فى سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وقد خصصت هذه الدراسة للجانب السياسى لهذه المدينة.

وكما هو معلوم ومتعارف عليه عند المؤرخين أن العصر العباسى الثانى يبدأ بعهد الواثق ، أبوجعفر هارون بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) ، ثم الخلفاء الذين أعقبوه، وهو عصر يتميز بالضعف والتمزق والانقسام فى جسم الدولة العباسية بسبب ضعف الخلفاء العباسيين وتسلط العناصر الأجنبية.

هذا الوضع السياسى السيئ المتهالك الذى يعيشه الخلفاء آنذاك، كان له انعكاساته الإيجابية عند العناصر المناوئة للخلافة والتى تختلف معها سياسيا وفكريا ومذهبيا ، فراحت تحيك المؤامرات وتؤلب الأقاليم وتحرك المعارضين، فعمت الفوضى السياسية والعسكرية فى هذه الولايات والمدن، لاسيما البعيدة عن مقر الخلافة. وقد تأثرت مدينة الرى بهذا المناخ السياسى والمذهبى والثقافى المضطرب فراحت تتفاعل معه فكان لها الدور الواضح والفعال ، وهذا ما سوف نرصده ونبحثه فى هذه الدراسة وما تتضمنه من أحداث .

النزاع بين الطاهرية والزيدية فى السيطرة على الرى وحوادث أخرى:

عندما تولى هارون الواثق الخلافة، كانت مدينة الرى وخراسان وكرمان وطبرستان والسواد وما والاها يتولاها عبدالله بن طاهر[1] وكان على درجة كبيرة من الكفاءة فى القيادة

والإدارة، فقد ضبط هذه الولايات ، وكان على مقدار ما يقدمه من خراج فى كل عام لمدينة الرى وسائر هذه المدن يصل إلى ٤٨ ألف ألف درهم أى ما يساوى ٤٨ مليون درهم . ولما توفى الوالى عبدالله بن طاهر فى سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) أسند الواثق أمر هذه الولايات بما فيها مدينة الرى إلى ابنه طاهر(٢).

وعند وفاة الواثق تولى بعده أخوه المتوكل، جعفر بن المعتصم فى سنة (٢٣٢هـ - ٢٤٧ / ٨٤٧-٨٦١م)، وقد أحدث المتوكل تغييرات إدارية ، ففى سنة (٢٣٥هـ / ٨٤٩م) قسم الولايات الإسلامية بين أبنائه الثلاثة، وهم : محمد المنتصر بالله وطلحة المعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله، فكان نصيب طلحة مدينة الرى وطبرستان وخراسان وأرمينية وأذربيجان وكور فارس(٣).

وكان العامل على مدينة الرى إبان هذه الفترة، السرى بن معاذ الشيبانى، وكان تعيين العمال يتم ضمن إدارة الأمير طلحة المعتز بالله وهو المسئول عن هذه الجهات تحت مظلة الإدارة الكلية للخليفة المتوكل، وقد توفى عامل الرى فى سنة (٢٤٦هـ / ٨٦٠م) ودفن بمدينة الرى(٤).

وكثيرا ما كانت مدينة الرى تتعرض إلى بعض الكوارث المدمرة ، مثل الزلازل ففى سنة (٢٤١هـ / ٨٥٥م)، ضربت مدينة الرى زلازل مُدمرة راح ضحيتها العديد من الناس، ولانستبعد أن يكون لمثل هذه الزلازل والكوارث آثارها السلبية على الوضع السياسى والاجتماعى لهذه المدينة(٥).

بداية ضعف النفوذ العباسى على مدينة الرى وظهور الحركات الانفصالية:

حركة الحسن بن زيد بن محمد الطالبى (٦):

كانت بداية حركة الحسن بن زيد فى مطلع سنة (٢٥٠هـ- ٨٦٤م) وهو من سكان مدينة الرى، وكانت مدينة الرى تتأثر كثيرا بالأوضاع السياسية المحيطة بها التى تمر بها المنطقة، فى طبرستان وخراسان والديلم، وقد تهيأت الظروف فى مدينة الرى لهذه الثورة، وذلك لما كان من استبداد الأمراء الطاهريين ومن ينوب عنهم فى هذه المقاطعات والمدن، ومن أمثلة ذلك ما كانوا يقومون به من اعتداءات متكررة على حقوق الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ من مزارع وأراضٍ (٧).

هذه الأوضاع السيئة أثارت حفيظة الأعيان وأهل الرأى فى هذه المدينة، وأثارت غضبهم على هؤلاء العمال، فتحرك هؤلاء الأعيان، وكان يمثلهم: محمد وجعفر ، وهما أبناء (رستم إخوان) طلبا مساعدة العلويين؛ وهم الأعداء التقليديون للعباسيين وسبب توجههم للعلويين هو لإعطاء هذه الحركة صفة وثقلا شرعيا حتى تكسب التأييد من العامة والخاصة.(٨)

وهكذا فإنهما إتصلا بمحمد بن إبراهيم ؛ أحد الطالبيين، وكان يسكن بطبرستان يدعونه ويبايعونه على الثورة ضد هؤلاء العمال المستبدين، ولكن محمد بعد أن فكر فى الأمر اعتذر عن قبول هذه الدعوة ، حيث لم يجد فى نفسه الهمة والعزيمة للقيام بمثل هذا الأمر وتحمل هذه المسئولية ، لكنه أرشدهما إلى غيره من العلويين ، فقال لهما : (لكنى أدلكم على رجل منا هو أقوم بهذا الأمر منى) (٩).

أرشدهم إلى الحسن بن زيد سالف الذكر، وهو من العلويين، فحملوا إليه رسالة من محمد ابن إبراهيم يدعونه فيها المجيئ إلى طبرستان حتى يتيسر لهم التخطيط بهدوء لهذه الثورة ، فقدم إليهم الحسن بن زيد من الرى، وكان للحسن من الطموح والتطلع السياسى ما دفعه لقبول مثل هذه الدعوة دون تردد، بل والترحيب لها (١٠).

وقد قامت هذه الثورة بقيادة الحسن بن زيد ، وكتب لها النجاح لأنها قامت على أسس مدروسة ولأن التهيؤ الكبير الذى قد صاحبها شمل القاعدة من العامة والخاصة فى هذه المدن، وما تم من تلاحم كبير بين المدن الثلاث وهى : الرى وطبرستان والديلم، وهذا الموقف المتعاون المتحد مع هذه الثورة يعطينا مؤشرا واضحا عن مدى غضب العامة والخاصة وكراهيتهم للعمال الطاهريين (١١).

وقد تمكن الحسن بن زيد بعد معارك عنيفة وطاحنة مع سليمان بن عبدالله بن طاهر ونوابه على هذه المدن من طرد عمال الخليفة المستعين عن هذه المدن، وعين عليها عمالا من أتباعه . أما مدينة الرى فإنه بعث إليها واحدا من أهل بيته لينوب عنه ويذكر الطبرى وكذلك ابن الأثير، أن اسمه حسن بن زيد أيضا ، ولكن حسن هذا ترك مدينة الرى، وأناب عنه أحد العلويين، واسمه محمد بن جعفر (١٢).

وكانت الخطبة والدعاء فى مدينة الرى للحسن بن زيد الذى اتخذ من طبرستان مقرا لحكومته ، ولكن محمد بن جعفر لم يكن مؤهلا للحكم والقيادة وإدارة المدينة، فقد أساء إلى جماعات من أهل خراسان كانت تسكن مدينة الرى، ولانعرف على وجه الدقة لماذا تعرض لهم بالإساءة ، ويحتمل أنهم كانوا متعاطفين مع بنى طاهر حكام خراسان(١٣).

كما أساء فى ذات الوقت إلى أهل مدينة الرى على حد قول ابن الأثير، يقول : (ظهرت منه أمور كرهها أهل الرى) (١٤). هذه الأوضاع التى تمر بها مدينة الرى قد لفتت انتباه الطاهريين، فأسرع محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر وبعث قائده. محمد بن ميكال ، على رأس قوة عسكرية تمكن بها من احتلال مدينة الرى، فعادت المدينة إلى النفوذ الطاهرى، ولكن الحسن بن زيد – وهو ليس بحسن بن زيد الذى ترك مدينة الرى– لم يتوان فقد أعد جيشا بقيادة شخص يقال له (واجن) (١٥)، والتقى الجيشان، فكان النصر حليف القائد (واجن) وقتل القائد محمد بن ميكال، وعادت الرى مرة أخرى إلى نفوذ الحسن بن زيد (١٦).

وهكذا استطاع الحسن بن زيد فى أواخر سنة (٢٥٥هـ) أن يحقق هذا النجاح الكبير ويخضع هذه المنطقة لنفوذه ، ويمكننا القول: أن من نتائج هذه الثورة التى أججها الحسن بن زيد أبعاد ثلاثة : سياسية ودينية واجتماعية.

ففى الجانب السياسى، شمل نفوذ العلويين بقيادة الحسن بن زيد فى هذه المناطق مدينة الرى وطبرستان والديلم (١٧)، وعلى المسار الروحى الدينى فإن أكثر أهل طبرستان قد اعتنقت المذهب الشيعى الزيدى الذى أسسه الحسن بن زيد، وقد انتشر المذهب الزيدى بمدينة الرى أيضا(١٨). ومن نتائج هذه الثورة على الصعيد الاجتماعى، أن العلويين أصبحوا يشكلون طبقة مميزة فى المجتمع لاسيما فى مدينة الرى(١٩).

إلا أن نفوذ الحسن بن زيد السياسى والعسكرى قد أثار حفيظة الأمراء الطاهريين ، فقرروا التخلص من نفوذ الطالبيين ليس فقط من الرى وإنما من جميع المدن التى يسيطر عليها الحسن بن زيد ، فقد تمكنوا من السيطرة على طبرستان واعتقال الحسن بن زيد مع جماعة من زعماء العلويين، مثل إدريس بن موسى بن عبدالله الذى يتصل نسبه بعلى بن أبى طالب، وأعاد الطاهريون نفوذهم على سائر المدن، ولكن الحسن بن زيد تمكن من الهرب (٢٠).

ويذكر المسعودى أن هناك حركة أخرى قام بها العلويون بمدينة الرى، قام بها أحمد بن عيسى بن حسن بن على ، الذى يتصل نسبه بعلى بن أبى طالب، وقد ظهرت هذه الحركة بعد القضاء على حركة الحسن بن زيد، وكان أحمد بن عيسى يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد اصطدم مع محمد بن طاهر فانهزم الأمير الطاهرى إلى بغداد(٢١).

وفى عهد الخليفة المعتز، وهو الزبير بن جعفر المتوكل، كان المتولى على مدينة الرى موسى ابن بغا ، وقد اجتهد موسى بن بغا فى محاربة الحسن بن زيد (٢٢)، وفى ذات الوقت كان

للأتراك نفوذ قوى وتسلط على الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم ، فأصبح الخليفة معهم مسلوب الإرادة لاحول له ولا قوة والأمر كله بيد الأتراك، وكان بيدهم عزل وتولية الخلفاء وإذا لزم الأمر- فى بعض الأحيان- عمدوا إلى قتله كما صنعوا مع الخليفة المعتز فى سنة (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) ، فلما أحست قبيحة وهى أم المعتز أن ابنها فى خطر استنجدت بموسى بن بغا أمير مدينة الرى، ولكن موسى وصل بعد فوات الأوان، إذ أجهز عليه الأتراك وقتلوه وبايعوا المهتدى بالله، وهو محمد بن هارون الواثق بن المعتصم، وباشر أعماله فقد أمر موسى ابن بغا بالعودة إلى مدينة الرى ولكن موسى رفض الذهاب متعللا بأن جنوده يرفضون الذهاب ويصرون على البقاء فى سامراء، ولكن الحقيقة أن موسى كان يضمر الشر فكان ينوى الايقاع بالخليفة، فقد وصلت عساكره إلى العراق فى مطلع سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) ، فاعتقلوا الخليفة المهتدى ونهبوا أمواله(٢٣). وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها ظهر صاحب الزنج، واسمه على بن محمد بن عبد الرحيم، ويقول أنه من قرية ورزنين من أعمال الرى، ويدعى أن نسبه يتصل بعلى بن أبى طالب (٢٤).

وقد تمكن الحسن بن زيد العلوى الهارب من الطاهريين أن يكون له الأتباع ويستجمع قوته زمن الخليفة العباسى المعتمد على الله، وهو أحمد بن جعفر المتوكل، فتمكن الحسن من السيطرة على خراسان وجرها من بنى طاهر (٢٥)، كما استولى على طبرستان وتحصن بها، ومنها أخذ يشن هجماته على المدن المجاورة ، ففى سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) توجه نحو الرى واستولى عليها فى شهر رمضان من هذه السنة، ولكنه عاد أدراجه إلى طبرستان بعد أن علم باستعداد موسى بن بغا لمحاربته (٢٦)، وقد تم لموسى بالفعل السيطرة على مدينة الرى فى شوال (٢٧).

وفى سنة (٢٥٧هـ / ٨٧٠م) عاد الحسن مرة أخرى إلى الرى، وقد كان الأمير عليها من قبل الخلافة العباسية، عبد العزيز بن دلف ، فلما علم بقدوم الحسن بن زيد واستعداده التام للحرب والنزال، تركها فى الحال ودخل الحسن المدينة وعين قائده القاسم بن القاسم بن على العلوى عاملا عليها، وكان أهل الرى يكرهونه لعلمهم بسوء أخلاقه ، فمن ضمن ما قام به من أعمال، إقتلاعه لأبواب المدينة الحديدية وبعثه بها إلى الحسن بن زيد ، وظل أميرا على مدينة الرى من قبل الحسن لمدة ثلاث سنوات (٢٨).

إن تعاظم نفوذ الحسن بن زيد باستيلائه على المدن الفارسية قد سبب انزعاجا للسلطة العباسية ، فأخذت تفكر فى اقتلاعه والتخلص منه، ففى سنة (٢٥٨هـ / ٨٧١م) توجه إليه موسى بن بغا على رأس قوة عسكرية وتمكن من طرده من بعض المدن التى كان يسيطر

عليها[٢٩]. وفى سنة (٢٥٩هـ / ٨٧١م) أرسلت الخلافة العباسية يعقوب بن ليث الصفار الذى تمكن من احتلال مدينة طبرستان ومدينة الرى، فانهزم على أثرها الحسن بن زيد ، وقد عين يعقوب على الرى شخصاً يدعى (الصلانى) [٣٠].

وقد أجرى الخليفة العباسى المعتمد تقسيمات إدارية فى الدولة الإسلامية فى سنة (٢٦١هـ/ ٨٧٤م) بين ابنيه : جعفر ولى عهده الملقب بالمفوض إلى الله، فقد ولاه على الأجزاء الغربية من الخلافة ، وبين ابنه الثانى أبى أحمد ولقبه الناصر لدين الله وولاه مشرق الدولة الإسلامية، ومن ضمن ولاياتها مدينة الرى[٣١].

ويبدو أن حركات الحسن بن زيد لم تتوقف ، فقد قام بمحاولات لإعادة نفوذه ، ففى سنة (٢٦١هـ / ٨٧٥م) استطاع استرجاع مدينة طبرستان من أصحاب يعقوب بن ليث الصفار[٣٢]. إلا أن مدينة الرى كانت تحت النفوذ العباسى وأميرها (الصلانى) الذى توفى سنة (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) وعين مكانه شخصا يدعى (كيغلغ) [٣٣]. ثم عزل عنها وعين مكانه (خطا لحجور) . وفى عهد الخليفة المعتمد تغلب (إساتكين) على الشرطة ، وهو أحد القادة فى مدينة سجستان ، ولما قوى نفوذه توجه إلى الرى واحتلها فى سنة (٢٦٦هـ / ٨٧٩م) وطرد عنها عاملها (خطا لحجور) [٣٤].

وقد توفى الحسن بن زيد العلوى المتولى على طبرستان فى سنة (٢٧٣هـ / ٨٨٣م)، وخلفه أخوة محمد بن زيد على السلطة ، وقدجرت بينه وبين (إتكوتكين) ؛ أو (إرلزيكيس) كما يسميه ابن كثير فى البداية والنهاية، وهو المتولى على قزوين، جرت بينهما منافسة فى السيطرة على مدينة الرى، ودار بينهما قتال عنيف فى سنة (٢٧٢هـ / ٨٧٥م) تغلب فيه (اتكوتكين) واحتل مدينة الرى، وثبت نفوذه على سائر المدن المجاورة ووزع عليها عماله [٣٥]. وأخذ من أهل مدينة الرى مائة ألف دينار غرامة، ربما لموقفهم العدائى منه أثناء نزاعه مع محمد بن زيد [٣٦].

وفى ذات الوقت كانت لرافع بن الليث الصفار تحركات فى المنطقة، فقد قوى نفوذه، فوضع يده على بعض القرى الهامة التابعة لمدينة الرى رغم احتجاجات الخليفة العباسى المعتضد، وهو أبو العباس أحمد بن طلحة [٣٧]، ولم نر (لأتكوتكين) أى نشاط إزاء هذه الاعتداءات، فكتب الخليفة إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبى دلف فى سنة (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) فى إخراج رافع من المدينة، وقد جرت بين الطرفين حروب لأيام عديدة أسفرت عن هزيمة رافع وطرده من البلاد[٣٨].

أما محمد بن زيد العلوى المتولى على طبرستان ، فقد أصبحت له قوة كبيرة فى سنة (٢٨١هـ / ٨٩١م) ، فقد قام بمحاولات لإعادة نفوذه على مدينة الرى، هذه الأوضاع دفعت الخليفة المعتضد إلى الذهاب بنفسه إلى تلك المناطق وزيارة بلاد الجبل، التى تتبع من الناحية الإدارية مدينة الرى (٣٩).

وقد أجرى بعض التقسيمات الإدارية فى الدولة الإسلامية، كما صنع بعض أسلافه من خلفاء الدولة العباسية، فقد كان الغرض منها يرتبط بهدفين الأول: سياسى وهو المحافظة على النفوذ العباسى فى تلك المناطق النائية عن مقر الخلافة، والثانى: أراد الخليفة أن يتحاشى حدوث النزاع بين أبنائه بعد وفاته، ففى سنة (٢٨١هـ) ولىّ ابنه الأمير على الملقب بالمكتفى على مدينة الرى وقزوين وزنجان وأبهر وقم وهمذان ونهاوند والكرج(٤٠) ، وقد أناب المكتفى عنه على الكرج ونهاوند أحمد بن عبد العزيز (٤١)، ولم يمكث الأمير علىّ طويلا فى بلاد المشرق، فقد بعث والده المعتضد وزيره عبدالله بن سليمان فى سنة (٢٨٢هـ / ٨٩٢م) يستدعى الأمير علىّ (٤٢). ولم تكن علاقة المعتضد طيبة بالأمراء الصفاريين، فقد كان غاضبا على الأمير عمرو بن الليث الصفار إلا أنه عفى عنه فى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) وأسند إليه ولاية الرى، وبعث إليه بالخلع والهدايا(٤٣).

وبعد موت المعتضد تولى ابنه المكتفى بالله، وهو على بن أحمد الخلافة ، فعين (إغرتمش) التركي عاملا على الرى، ولكن هذا كان حاكما ظالما، فقد ساد الظلم فى عهده فأراد أهل مدينة الرى التخلص منه، فاجتمع كبراؤها وأعيانها وقرروا استدعاء محمد بن هارون؛ وكان من قواد رافع بن هرثمة، وقد اكتسب هذا القائد شهرة كبيرة لاسيما بعد قضائه على محمد ابن زيد العلوى أمير طبرستان ، وقد جاء محمد بن هارون إلى مدينة الرى بعد مكاتبات سرية جرت بينه وبين البارزين من أهلها، واستطاع التغلب على (إغرتمش) ، وقد أسفرت هذه المعركة عن قتل (إغرتمش) وقتل ابنيه وأخيه (كيغلغ) واحتل ابن هارون المدينة ، إلا أن الخليفة تدارك الموقف بسرعة، فبعث مولاه (خاقان المفلحى) فى سنة (٢٨٩هـ / ٩٠١م) على رأس قوة عسكرية كبيرة لكنها لم تصل إلى مدينة الرى ولم نعرف الظروف التى حلت بها ، فبعث الخليفة المكتفى بالله إلى اسماعيل بن على وهو المتولى على بلاد ما وراء النهر، فأسند إليه إضافة إلى عمله الولاية على الرى ومحاربة محمد بن هارون، فتوجه إسماعيل إلى الرى وتمكن بعد معارك من هزيمة محمد بن هارون وأحكم سيطرته على الرى ، فهرب محمد بن هارون إلى

بلاد الديلم ، فبعث وراءه وتم اعتقاله وسجن فى مدينة بخارى ومات فى سجنه سنة (٢٩٠هـ / ٩٠٢م) [٤٤].

ولما تولى المقتدر بالله، وهو جعفر بن أحمد الخلافة أسند إلى ابنه الأمير علىّ فى سنة (٣٠١هـ / ٩١٣م) ولاية المشرق، وهى تضم : الرى ودنباوند وقزوين وزنجان وأبهر وأذربيجان[٤٥].

فى الحقيقة فإن الضعف الذى أصاب الخلافة العباسية فى مدينة بغداد زمن الخليفة المقتدر، من جراء الاضطرابات الداخلية، قد ألقى بظلاله على الولايات الإسلامية سياسيا واقتصاديا ، لاسيما الولايات الشرقية، فقد ضعف ولاؤها للخلافة ، وبعضها استقل بولايته ولم يعد يدفع الخراج للخلافة العباسية ببغداد، كما صنع أحمد بن على صعلوك، الذى أصبح عاملا على الرى بأمر من الأمير الخراسانى نصر بن أحمد بن إسماعيل السامانى دون علم الخليفة المقتدر[٤٦]. وفى سنة (٣٠٤هـ / ٩١٦م) قام يوسف بن أبى الساج المتولى على أرمينية وأذربيجان ، بهجوم على مدينة الرى ، فهرب عاملها أحمد بن على صعلوك إلى نواحى خراسان فاحتل ابن أبى الساج المدينة، مدعيا أن ما قام به كان بأمر من الوزير على بن عيسى، وزير المقتدر، ولكن بعد التحقيق تبين كذب وزيف يوسف بن أبى الساج، فبعث الخليفة إليه جيشا ولكن أبى الساج تمكن من دحر هذا الجيش، وأسر البارزين من قواده وطيف بهم فى شوارع مدينة الرى ، فبعث الخليفة جيشا اخر بقيادة مؤنس، فاضطر يوسف بن أبى الساج إلى التسليم وطلب العفو والمصالحة ، حين عرض على القائد مؤنس بأن يستمر فى ولايته على الرى مقابل أموال يدفعها لبيت المال فى كل سنة مقدارها سبعمائة ألف دينار[٤٧]، ولكن الخليفة المقتدر رفض هذا العرض بشدة قائلا: (لو بذل ملء الأرض لما أقره على الرى يوما واحدا لإقدامه على التزوير) [٤٨]. هذه العبارات تنم عن مدى غضب الخليفة من تصرفات يوسف بن أبى الساج، ورفضه القاطع على تعيينه عاملا على الرى.

فلما يئس يوسف بن أبى الساج من الولاية ترك مدينة الرى، ولكنه قبل أن يتركها أمر بجباية أهلها لسنة كاملة وهى سنة ٣٠٤هـ وكان ذلك فى غضون أيام قلائل لاتتجاوز العشرة، هذا فضلاً عن الدمار الذى لحق بالمدينة عند تركه إياها، وقد صدرت أوامر الخليفة بتقليد (وصيفا البكتمرى) أمر الولاية على قزوين ومدينة الرى، إلا أن الحروب لم تتوقف بين مؤنس ويوسف بن أبى الساج ، وقد انتهت بأسر ابن أبى الساج وإحضاره إلى بغداد[٤٩].

هذه الحروب قد تسببت فى إتلاف خزينة الدولة إلى حد الإفلاس، فقد كلفتها الكثير من الأموال، وقد تسببت حتى فى إرباك الجهاز الإدارى داخل بغداد، فمن نتائجها عزل الوزير علىّ بن الفرات فى سنة (٣٠٦هـ / ٩١٨م) (٥٠)، ويشرح لنا ابن مسكويه صاحب كتاب تجارب الأمم أسباب العزل، ويقول : إن السبب الرئيسى فى عزل الوزير ابن الفرات ، هو تأخره عن دفع رواتب جماعات من الفرسان ، لعدم توفر الأموال بسبب ما قام به يوسف بن أبى الساج من مصادرته لمال الخراج الخاص بمدينة الرى، وحال دون وصوله إلى بغداد ، مما أدى إلى تمرد الفرسان، ومن ثم عزل الوزير ابن الفرات ، فالعامل الاقتصادى إذا كان وراء العزل(٥١).

إمارة أحمد ومحمد ابنى صعلوك على الرى :

إن أحمد بن على صعلوك ، الهارب إلى نواحى خراسان قد استفاد من هذه الأوضاع ، كما استغل فرصة غياب الجيش العباسى عن الساحة وعن الرى فتحرك بجيشه من مدينة قم متوجها نحو الرى فغزاها واحتلها إلا أن استنكارات الخليفة العباسى أرغمته على الخروج من المدينة، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى واحتلها وأحكم سيطرته عليها، رغم اعتراضات الخليفة، فاضطر الخليفة إلى إرسال جيش، إلا أن أحمد تمكن من دحر هذا الجيش، وقتل قادته، ثم بعث يطلب من الخليفة أن يقره على الرى مقابل أموال يدفعها فى كل سنة إلى بيت المال، وكان مقدارها مائة وستين ألف دينار ، فقبل الخليفة هذا العرض مضطرا، ولم تكن هذه الأموال عن الرى وحدها، بل تشمل أيضا مدينة قزوين وزنجان ودنباوند وأبهر ، وهذا دليل على أن الخلافة العباسية تمر فى ظروف اقتصادية وسياسية صعبة لقبولها مثل هذا العرض(٥٢) .

واستمر أحمد بن على صعلوك يدفع فى كل سنة الأموال المقررة عليه، ففى سنة (٣٠٨هـ / ٩٢٠م) بعث أخاه إلى بغداد حاملاً الأموال والهدايا والتحف إلى الخليفة المقتدر، ليجدد له الولاء بالعهد (٥٣).

أما يوسف بن أبى الساج ، فإنه مكث فى السجن حتى سنة (٣١٠هـ / ٩٢٢م) ثم بعد ذلك عفا عنه الخليفة بعد أن توسط له مؤنس، فأطلق سراحه ، وأمر بمكافأته وعقد له على الرى وقزوين وأبهر وزنجان وأذربيجان ، وقرر عليه أن يدفع كل عام لبيت المال مبلغ خمسمائة ألف دينار ، ويضاف إلى ذلك دفع رواتب الجند بهذه المدن ، فوافق يوسف بن أبى الساج على ذلك(٥٤). وقد أبرم الخليفة هذه الاتفاقية مع ابن أبى الساج بعد أن قام أحمد بن على صعلوك

بنقض ما كان معقوداً بينه وبين الخليفة من اتفاق ، فذهب يوسف بن أبى الساج فى سنة (٣١١هـ/ ٩٢٣م) إلى الرى ودخلها عنوه [٥٥]، وقد قتل أحمد بن على صعلوك أثناء هذا النزاع، وبعث برأسه إلى الخليفة المقتدر ببغداد، وتوجه ابن أبى الساج من الرى إلى همذان، بعد أن خلف على الرى غلامة (مفلح) ولكن أهل الرى ثاروا عليه وعزلوه ، فلحق بابن أبى الساج، وقد مضت سنتان، ولانعرف ما إذا كان أهل الرى قد عينوا عليهم حاكما خلال هذه المدة، ولكن كل ما نعرفه أن ابن أبى الساج عاد إلى مدينة الرى فى جمادى الآخرة سنة (٣١٣هـ / ٩٢٥م) واحتل المدينة وعين عليها غلامه (فاتك) [٥٦].

السامانيون ومدينة الرى :

لقد أصبح يوسف بن أبى الساج يتولى نواحى المشرق بما فيها مدينة الرى، وقد طلب منه الخليفة المقتدر فى أواخر سنة (٣١٣هـ) التوجه إلى مدينة هجر بالبحرين لمحاربة أبى طاهر سليمان القرمطى [٥٧]، وعند مغادرة ابن أبى الساج كان (فاتك) يتولى أمر الرى، وقد أراد الخليفة المقتدر إبعاد (فاتك) عن مدينة الرى، فكتب المقتدر إلى السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فى مطلع سنة (٣١٤هـ / ٩٢٦م) بضم الرى إلى ولايته، مما يدل على عدم إخلاص (فاتك) للخلافة العباسية ، فلما وصل كتاب المقتدر إلى السعيد نصر، توجه فى الحال إلى مدينة الرى واحتلها ، فترك (فاتك) المدينة ودخلها السعيد نصر فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأقام بها شهرين ثم تركها بعد أن ولى عليها (سيمجور الدوائى) ، ثم عزله وولى عليها محمد بن على صعلوك أخ أحمد صعلوك الأمير السابق لمدينة الرى، الذى قتل على يد يوسف بن أبى الساج. وهنا ملاحظة جديرة بالانتباه ؛ وهى : أن الأمير السعيد نصر يتمتع بصلاحيات إدارية واسعة حيث أنه يعزل ويعين الولاة على مدينة الرى دون الرجوع إلى الخليفة العباسى وهذا ربما يعطى مؤشرا على مدى ضعف نفوذ الخليفة العباسى فى تلك المناطق. على أية حال استمر محمد بن على صعلوك أميرا على الرى حتى سنة (٣١٦هـ / ٩٢٨م) ، وقد مرض محمد ولما أحس بدنو أجله كاتب العلويين ليسلم إليهم الأمر بمدينة الرى، فبعث إلى الحسن بن القاسم الحسنى الداعى أمير الديلم وإلى قائده (ماكان بن كالى) ، فقدما المدينة واستلما السلطة فى سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م) ومات محمد بن على صعلوك بعد هذا التاريخ بقليل[٥٨].

وهذا يعنى أن محمد بن على صعلوك قد أخرج مدينة الرى من يد السامانيين الموالين للسلطة العباسية إلى العلويين أعدائهم التقليديين، وقد تولى الحسن بن القاسم الداعى السلطة

بالرى، وقد أظهر العدل والاستقامة فى حكمه للبلاد فأحبه الناس، إلا أن (أسفار بن شيرويه) المتولى على طبرستان من قبل السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان ، لم يدعه يهنأ بحكم الرى، فقد جره إلى حروب انتهت بمصرعه، وقد كان للخيانة التى قام بها بعض المقربين دور بارز فى مقتل الحسن الداعى، واستولى على السلطة بمدينة الرى (أسفار بن شيرويه)، وامتد سلطانه على طبرستان وجرجان وزنجان وقزوين وأبهر وقم، وأمر بالدعاء فى هذه المدن لصاحب خراسان ، الأمير السعيد نصر السامانى(٥٩).

غير أن المسعودى عند حديثه عن هذا الموضوع، لايرى أن هناك تواطئا تم بين محمد بين على صعلوك وبين الحسن بن القاسم الحسنى الداعى ضد العباسيين لاحتلال مدينة الرى، وإنما يقول: إن الحسن بن القاسم الداعى أتى على رأس قوة عسكرية معظمها من الديالمة يقودها (ماكان بن كالى) الديلمى، فاحتل مدينة الرى وقزوين وزنجان وقم وأبهر، كان ذلك فى سنة (٣١٧هـ) ، ولما علم الخليفة المقتدر بالله بهذا الأمر، كتب إلى السعيد نصر بن أحمد السامانى المتولى على خراسان ، مؤنبًا على هذا الإهمال ويطالبه بالإسراع فى إخراج الحسن بن القاسم الداعى من مدينة الرى وسائر المدن الأخرى التى استولى عليها، ومما جاء فى خطابه إلى نصر السامانى قوله : (إنى ضَمَّنتُك المال والدم، فأهملت أمر الرعية ، وأضعفتها وأهملت البلد، حتى دَخَلَتْهُ المبيضة) ؛ يعنى بذلك الحسن الداعى وأتباعه (٦٠).

وقد قام (ماكان بن كالى) قائد الحسن الداعى بعد ذلك بمحاولات لإعادة نفوذ العلويين إلى الرى ، فقد استغل فرصة غياب (أسفار) عن الرى فانقض عليها، ولكن (أسفار) تمكن من إعادة نفوذه ، وعلى أثر ذلك هرب (ماكان) (٦١).

أسفار بن شيرويه يتمرد ويستقل بحكم الرى:

لقد حقق أسفار انتصارات على المناوئين له ، وكان لايتورع من استعمال المكايد والحيل فى سبيل القضاء على أعدائه ، فكون له قوة عسكرية ضاربة فى المنطقة، فأصبح مرهوب الجانب، هذه القوة دفعته إلى الاستقلال عن التبعية التى تربطه بالسعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فخرج عن طاعته ، ومن مظاهر طغيانه وغروره وتجبره ، أنه وضع تاجا على رأسه وعملوا له سريرا من ذهب ليجلس عليه ويمارس أعماله، وتمرد على الخليفة وأعلن الحرب عليه وعلى أمير خراسان نصر السامانى، فبعث الخليفة إليه جيشا بقيادة هارون بن غريب، وسلك هذا الجيش طريق قزوين ، وقد لقى هذا الجيش مساعدات طيبة من أهل قزوين لكراهيتهم (لأسفار) ، ولكن (أسفار) تمكن من دحر هذا الجيش(٦٢).

هذا التمرد الذى قام به (أسفار) قد أثار حفيظة الأمير السامانى السعيد نصر، فقام بغزو الرى، وكادت الحرب تقع بين الجانبين لولا توسط مطرف بن محمد الجرجاني وزير (أسفار)، فقد أشار على (أسفار) الدخول فى طاعة أمير خراسان وبذل المال، فإن قبل وإلا فالحرب، فوافق (أسفار) على هذا الرأى، أما أمير خراسان فقد تردد أول الأمر ثم قبل بعد ذلك، وتم الصلح على هذه الشروط، وقد جبى (أسفار) هذه الأموال من أهل مدينة الرى وأعمالها، فقرر على كل إنسان ديناراً وحتى المسافرين عابرى الطريق لم يسلموا من هذه الضريبة، فقد جمع من الأموال ما زاد عن المقدار المطلوب، وقد استفاد من هذه الأموال فى تكوين الجيوش، فزاد بذلك طغيانه وغروره، وعمد إلى أهل قزوين الذين ساعدوا جيش الخليفة المقتدر وأراد أن ينتقم منهم، فنكل بهم وقتل الكثير منهم حتى أنهم فروا من منازلهم إلى الصحراء، وذكروا أنه لما سمع المؤذن يقول: الله أكبر أمر به فألقى من على المنارة إلى الأرض، فهذه الأعمال تشهد على طغيانه وكفره (٦٣).

مرداويج قائد أسفار يستولى على السلطة بالرى:

وقد ولدت هذه الفظائع التى اغترفها (أسفار) الحقد والكراهية لدى الناس، فأرادوا التخلص منه ومن أعوانه، وقد انفجر ذلك على شكل ثورة قادها مرداويج؛ أحد كبار القادة فى جيش (أسفار) بالاتفاق مع (ماكان بن كالى) الموجود فى طبرستان، وقد أيد الجيش هذه الثورة مما ساعد على نجاحها، وكان جل اعتماد (مرداويج) على الديالمة الذين ينتمى إليهم، فكانت أعدادهم كبيرة فى مدينة الرى، وقد انتهت هذه الثورة بمقتل (أسفار)، وتسلم السلطة (مرداويج)، وخضعت له جميع المدن التى كانت تحت نفوذ (أسفار) مثل قزوين وهمذان وقم وقاشان وغيرها، وقد بدأ (مرداويج) عهده بالعدل والإحسان إلى أهل مدينة الرى وأعمالها، ولكنه ما لبث أن انقلب فأحل الظلم والطغيان محل العدل والتواضع، فمن هذه الأعمال السيئة التى قام بها، مصادرته أموال بعض التجار، وسار على نهج (أسفار) فى الغرور والتكبر، فقد جلس على أسرة الذهب والفضة وكان يقول: أنا سليمان بن داود، وعمد إلى التنكيل بأهل الرى ولم يتورع عن قتل النساء وحتى الصبيان والأطفال فى المهد، ووضع الحجّاب، فابتعد عنه الناس خوفا من بطشه، وحتى صديقه ورفيقه فى الثورة (ماكان بن كالى) لم يسلم من شره، فقد استولى على جرجان وطبرستان وطرد عنها (ماكان) (٦٤).

ومن الطبيعى أن يهتم (مرداويج) بالناحية العسكرية، فقد كون له قوة عسكرية كبيرة. وبذل الأموال بسخاء على جنده ليضمن ولاءهم، فهذه الأموال التى تدخل خزائن (مرداويج)

كان مصدرها غنائم الحروب، من جراء ما كان يقوم به من غزو جيرانه، فقد هاجم همذان واحتلها وقتل الكثير من أهلها، ونهب أموالهم وسبى نساءهم وأحرق محلاتهم، ولم يتمكن جيش الخليفة المقتدر أن يصنع شيئا ، فأذعن له أهلها بالطاعة ، كما احتل بلاد الجبل ووصلت جيوشه إلى مدينة حلوان ، ومن جراء هذا الغزو تكدست الأموال في خزائنه (٦٥). ونظير هذه الأموال لم نجد (لمرداويج) أى اهتمامات تذكر فى النواحى العمرانية التى يستفيد منها العامة والخاصة من أهل مدينة الرى، كذلك لم نجد له اهتماما بالنواحى الاقتصادية ؛ كالزراعة أو الصناعة أو التجارة، بل كان جل اهتمامه منصباً على الناحية العسكرية.

ويلاحظ أن نفوذ (مرداويج) لم يكن قويا على المدن البعيدة عن مدينة الرى، لذلك كانت تنفصل عنه كلما سمحت الظروف بذلك، ففى سنة (٣٢١هـ / ٩٣٣م) قام (مرداويج) بغزو جرجان بهدف إعادتها إلى نفوذه، وكان ذلك بتحريض من وزيره مطرف بن محمد ، وكانت تحت نفوذ السعيد نصر بن أحمد السامانى، وقد اكتشف (مرداويج) فى اللحظة الأخيرة أن وزيره كان يتآمر عليه بتواطئه مع جماعة موالية لنصر السامانى، فاعتقله وأمر بقتله، ولما وجد أنه لاطاقة له بمحاربة السعيد نصر ، كما أنه فى ذات الوقت فى وضع لايمكنه من العودة، اضطر إلى طلب الصلح من السعيد نصر على أن يدفع مقداراً من المال مقابل حماية مدينة الرى ودرء الخطر عنها (٦٦).

ومن الأعمال العسكرية التى قام بها (مرداويج)، احتلاله لمدينة إصفهان فى سنة (٣٢١هـ) ومنها توجه إلى مدينة الأهواز(٦٧) فى سنة (٣٢٢هـ / ٩٣٣م) حتى يقطع الطريق أمام عماد الدولة بن بويه (٦٨)، الذى كان ينوى الذهاب إلى الخليفة الراضى بالله، وهو محمد بن جعفر المقتدر ببغداد (٦٩)، ويذكر ابن مسكويه أن الخليفة بعث برسالة إلى (مرداويج) يطلب منه التخلى عن إصفهان مقابل الاعتراف له بالشرعية لولاية مدينة الرى وأعمالها والجبل، فأبدى (مرداويج) الموافقة على طلب الخليفة (٧٠). وفى ذات الوقت طلب الخليفة من قائده محمد بن ياقوت الموجود بمدينة واسط بأن لايدع (مرداويج) يحتل مدينة الأهواز ، فتوجه ياقوت نحو مدينة الأهواز، وهناك دار قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة (مرداويج) وقتله فى هذه المعركة(٧١)، وبهذه الخطة التى رسمها الخليفة الراضى يكون قد فوت الفرصة على (مرداويج) وتخلص منه نهائيا ، بينما يذكر ابن مسكويه أن الأتراك هم الذين قتلوا (مرداويج) وهو فى الحمام(٧٢).

ولابد لنا من الإشارة إلى الأضاع السياسية التى تقع خارج مدينة الرى، لأنها، أى مدينة الرى، تتأثر وتتفاعل سياسيا مع جيرانها وحتى مع المدن البعيدة عنها، فما يجرى فى مدينة الرى من أحداث ووقائع يتصل إتصالا وثيقا بالأجواء السياسية المحيطة بها .

ويعلق ابن طباطبا على الوضع السياسى القائم إبان هذه الفترة من خلافة الراضى فى سنة (٣٢٢هـ) حيث الإنقسامات والإنفصالات والاستقلالات بحكم الولايات عن الخلافة العباسية، فيقول : أن الخلافة قد ضعف أمرها، فخراسان بيد السامانيين وبلاد فارس يسيطر عليها بنو بويه، ومدينة الرى وإصفهان والجبل بيد الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة بيد الحمدانيين (٧٣)، فكما هو واضح فإن السلطة قد انتزعت من يد الخليفة فى هذه المناطق التى أشرْنا إليها.

ويذكر ابن الأثير أنه بعد مقتل (مرداويج) استولى على السلطة بالرى أخوه (وشمكير بن زيــار) (٧٤)، وقد كانت الحروب مع بنى بويه الذين أخذ نفوذهم يتنامى ويتعاظم فى الأجزاء الشرقية من الخلافة العباسية، ففى سنة (٣٢٧هـ / ٩٣٨م) قام (وشمكير) بغزو مدينة إصفهان ، وكان المتولى عليها أبو الحسن بن بويه، الملقب بركن الدولة ، فتمكن (وشمكير) من احتلال المدنية وطرد بنى بويه عنها (٧٥).

وفى أثناء النزاع الدائر ما بين (ماكان بن كالى) المتولى على جرجان وبين الأمير السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فى محرم سنة (٣٢٨هـ / ٩٣٩م)، كان (وشمكير) قد اتخذ موقفا أيد فيه (ماكان بن كالى) ، فقد أمده بالمساعدات العسكرية، ولكن القائد السامانى (أبا على محتاج) استطاع أن يحقق النصر على (ماكان بن كالى) ، فاحتل جرجان، فهرب (ماكان) إلى طبرستان (٧٦). كذلك تمكن ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه من إعادة نفوذه على مدينة إصفهان فى سنة (٣٢٨هـ) ، وأخذ ركن الدولة يعمل على احتلال مدينة الرى وسائر أعمالها ، ووجد أنه لايتم له ذلك إلا بالتخلص من (وشمكير)، لذلك فإنه اتصل بأخيه عماد الدولة كى ينسق معه حتى يتم تحقق هذا الغرض (٧٧)، واتصل ركن الدولة بالقائد السامانى أبى على محتاج يحرضه على غزو الرى، وقد أظهر استعداده على مساعدته عسكريا، فركن الدولة يريد أن يحقق من وراء ذلك هدفين ، الأول : إضعاف (وشمكير) إذا ما دخل فى حرب مع أبى على محتاج . ثانيا : إذا ما تحقق النصر لأبى على محتاج واحتل الرى فهو لايشكل خطرا عليهم كما هو الحال مع (وشمكير) ، فضلا عن أن القائد محتاج كان حليفا لهم، وهو فى ذات الوقت أضعف من أن يدير السلطة بالرى وأعمالها ، بالإضافة إلى ما بيده من ولاية خراسان وجرجان ، فهذا سوف يمكن ركن الدولة من تحقيق هدفه، وهو احتلال الرى(٧٨).

فأخذ ركن الدولة يحيك الخطة ويدبرها حتى أنه أقنع القائد أبا على محتاج، وربما كانت قناعة أبى على محتاج بدافع من الرغبه فى السيطرة على مدينة الرى ، فتوجه فى سنة (٣٢٩هـ / ٩٤٠م) نحو الرى، واستعد (وشمكير) للقائه وطلب من حليفه (ماكان بن كالى) الموجود بطبرستان المساعدة ، فلبى طلبه، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن انتصار أبى على محتاج ، وقتل (ماكان بن كالى) وهرب (وشمكير) من الرى، ودخل أبو على محتاج المدينة[٧٩] ، وبعد مضى سنتين من إحتلال الرى، عمد أبو على محتاج إلى المدن المجاورة، مثل همذان وقزوين وقم واحتلها، ووصل إلى مشارف مدينة حلوان[٨٠].

وقد مات الأمير السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان، فى سنة (٣٣١هـ / ٩٤٢م)، فرجع القائد أبو على محتاج إلى خراسان، فاغتنم (وشمكير) هذه الفرصة وانقض على الرى واحتلها، ولكن بنى بويه كانوا له بالمرصاد، وهما ركن الدولة وأخوه عماد الدولة ، اللذان كانا يخططان من قبل لإحتلال مدينة الرى، فلم يدعاه يهنأ طويلا باحتلالها ، ومما شجعهما على ذلك ما نمى إلى علمهما من ضعف قدراته العسكرية ، لذلك قاما بمباغتته واحتلال المدينة [٨١].

ولكن الأمير السامانى الجديد وهو نوح بن أحمد بن نصر ، الذى خلف أباه على الإمارة، قرر إعادة مدينة الرى من بنى بويه، لذلك فقد بعث قائده أبا على محتاج فى سنة (٣٣٣هـ / ٩٤٤م) على رأس قوة عسكرية من العساكر الخراسانية إلى مدينة الرى، وقد لجأ (وشمكير) إلى الأمير نوح السامانى، مستأمنا ، فأحسن إليه وبالغ فى إكرامه، أما أبو على محتاج فإنه خسر المعركة أمام بنى بويه، والسبب الرئيسى فى هزيمته خيانة أتباعه[٨٢].

وفى شهر صفر من سنة ٣٣٣هـ بعث الأمير نوح ب نصر السامانى جيشا بقيادة (وشمكير) إلى جرجان بقصد احتلالها ، وكان يتولاها الحسن بن فيرزان، وقد احتلها [٨٣]. وفى ذات الوقت أعد الأمير نوح جيشا آخر بقيادة أبى على محتاج لغزو الرى، ولما علم ركن الدولة بكثافة أعداد جنوده القادمة ، ترك الرى فاستولى أبو على محتاج عليها وعلى منطقة الجبال فى شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ [٨٤].

هذا الانتصار الذى حققه القائد أبو على محتاج، جعل المخاوف والشكوك تساور الأمير نوح السامانى من قائده ، فأراد أن يحد من سلطانه ، فجعل نفوذه مقتصرا على الرى ومنطقة الجبال فقط بعدما كان نفوذه يمتد إلى خراسان، وقد فطن القائد أبوعلى محتاج إلى نوايا

الأمير نوح ، ولم يكتف الأمير نوح بذلك، بل بعث بشخص إلى مدينة الرى وأعطاه صلاحيات واسعة فى ممارسة بعض الأعمال داخل مدنية الرى، والغرض من ذلك هو الحد من سلطات ونفوذ القائد أبى على محتاج، هذه الشخصية التى أرسلها الأمير نوح قد أساءت كثيرا إلى الجند فى تنفيذ معاملاتهم ومطالبهم وتوزيع أرزاقهم ، فتضايقوا منه واتفقوا على طرده من بلادهم، وقد أطلعوا القائد أبا على محتاج على ذلك، وطلبوا منه المساعدة ، ولكنه امتنع فهددوه بالقبض عليه فأجابهم إلى طلبهم(٨٥).

وهذا العمل يعتبر فى حد ذاته تمردا على السلطة السامانية فى مدينة الرى، وكان لهذا التمرد أبعاد وصلت إلى مدنية خراسان ، فقد قام أهلها باقصاد أميرهم نوح عن السلطة وتعيين عمه إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل ، ولكن فوجئ أهل خراسان أن أميرهم إبراهيم لاتتوفر فيه الكفاءة والمقدرة للحكم، وعجز عن إدارة الأمور، وقد أحس الأمير بذلك، فاتفق سرا مع جماعة على خلع نفسه عن الإمارة، هذه الأجواء المضطربة كانت فرصة أمام نوح بن نصر للعودة إلى الإمارة، وقد نجح بالفعل وأعاد نفسه إلى السلطة(٨٦).

وبعد أن استقرت الأوضاع فى خراسان أراد الأمير نوح أن يقتص من قائده الخائن ، أبى على محتاج ، الذى تسبب فى حدوث الاضطرابات فى مدينة الرى، فبعث إليه العساكر لقتاله، فاستعد أبو على محتاج للقتال ، ودارت بينهما معارك طويلة كان آخرها فى سنة (٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، هذه الحروب ذكرها ابن الأثير، الذى يقول : إنه اعتمد على المصادر الفارسية فى نقل هذه الوقائع ولكن دون أن يشير إلى أسماء هذه المصادر(٨٧).

البويهيون يسيطرون على الرى وسائر أعمالها :

لقد استغل ركن الدولة بن بويه هذه الحروب الدائرة بين أبى على محتاج وبين الأمير نوح ابن نصر السامانى، وكان لركن الدولة من القوة ما مكنه من إحتلال مدينة الرى وسائر أعمالها، مثل منطقة الجبل وبلاد فارس والأهواز، وأزال عنها النفوذ الخراسانى ، فأصبح بنو بويه يشكلون قوة عسكرية كبيرة فى مدينة الرى وفى باقى المدن(٨٨). فمدينة الرى التى أصبحت وهى فى ظل حكم أبى على بن بويه مناوئة للأمير نوح بن نصر السامانى أمير خراسان وما وراء النهر، فحل العداء بين الجانبين، فقد كان ركن الدولة يؤيد الحركات المناوئة للأمير نوح ويساعدها بقصد إضعافه ، من ذلك أنه فى شهر رجب سنة (٣٣٦هـ / ٩٤٧م) أيد

حركة محمد بن عبد الرزاق، وهو من المعارضين للأمير نوح، وأمده بالأموال، وكان محمد قبل خروجه على الأمير نوح يتولى أعمال مدينة طوس وتوابعها؛ وطوس تقع فى الشمال الشرقى من إيران(٨٩).

وأخذ ركن الدولة يعمل على تعزيز نفوذه بمدينة الرى وأعمالها ، فأسس له قوة عسكرية كبيرة كان الغرض منها المحافظة على حدوده، أو التوسع على حساب جيرانه كلما سمحت الفرصة بذلك . ففى ربيع الأول سنة (٣٣٦هـ) اتفق مع الحسن بن فيزران، الذى كان أميرا على جرجان لاحتلال مدينة طبرستان ، وكان يتولاها (وشمكير) أمير الرى السابق، فاحتلها وهرب (وشمكير) إلى خراسان طالبا المساعدة لإعادة نفوذه، وقد واصل ركن الدولة غزواته فاحتل مدينة جرجان أيضا(٩٠).

هذه الانتصارات الناجحة التى حققها ركن الدولة قد أثارت حفيظة السامانيين حكام خراسان وما وراء النهر، فأخذوا يعملون للحد من قوته ، فقد بعث الأمير نوح السامانى قائده وصاحب جيوشه ، منصور بن قرتكين على رأس قوه عسكرية كبيرة يصحبه (وشمكير) ، فاستعد ركن الدولة للقاءهم، فطلب المساعدة من أخيه معز الدولة، الذى كان حاكما على بغداد خلال هذه الفترة، وكانت علاقته بأخيه طيبة وثيقة يسودها الاحترام، إلا أن معز الدولة كان مشغولا فى حربه مع ناصر الدولة حاكم الموصل، فاضطر إلى طلب المصالحة مع ناصر الدولة حتى يتسنى له إرسال المساعدات إلى أخيه ركن الدولة، فهيأ العساكر وبعثها إلى أخيه، ولكن لم يحدث قتال لأن الجيش الخراسانى المتجه صوب الرى، توقف عند مدينة جرجان ولم يذهب إلى الرى لوقوع خلافات بين القائد منصور بن فراتكين وبين الأمير نوح بن نصر السامانى ، وذكروا أن أسباب هذه الخلافات تتصل بقضايا أسريه ، هذه الأوضاع دفعت القائد منصور إلى مصالحة الحسن بن فيزران أمير جرجان السابق وسلمه المدينة(٩١).

وفى الحقيقة فإن تحرك العساكر الخراسانية لغزو مدينة الرى قد شجع أمراء آخرين القيام بغزوها، من ذلك ما قام به المرزبان محمد بن مسافر حاكم أذربيجان فقد قرر غزوها، لاسيما وأن هناك دوافع أخرى قد شجعته على ذلك منها : أولا- العداء الذى كان بينه وبين معز الدولة أخى ركن الدولة ، فقد أهان معز الدولة رسل المرزبان. ثانيا أن عددا من قوات ركن الدولة وأفراد جيشه المنشقين عليه لجأوا إلى المرزبان محمد بن مسافر ، وقام هؤلاء القواد المنشقين بتحريض المرزبان محمد وسهلوا له عملية غزو الرى، وقالوا: بأن معظم قادة الجيش

بمدينة الرى يميلون إليه ؛ أى إلى المرزبان . ثالثا – أن حاكم الموصل ناصر الدولة قد بعث برسالة إلى المرزبان محمد يعده فيها بتقديم المساعدات العسكرية إن هو قام باحتلال الرى(٩٢).

هذه الأمور قد أكدت العزيمة فى نفس المرزبان محمد، على غزو مدينة الرى، ولكن يجب أن ننتبه إلى أن المساعدات العسكرية التى يريد ناصر الدولة تقديمها للمرزبان محمد لم تكن لوجه الله أو حبا فى المرزبان، وإنما هذه المساعدات تسيرها مصالح سياسية، فقد أراد ناصر الدولة إلهاء البويهيين فى هذه الحروب حتى يتيسر له تثبيت نفوذه على الموصل وباقى المناطق المجاورة ، وفى ذات الوقت فإن استمرارية هذه الحروب التى يخوضها البويهيون مع جيرانهم سوف تؤدى إلى إضعافهم.

إن المرزبان محمد قد أعد نفسه عسكريا وعزم على الذهاب لغزو مدينة الرى، وقبل خروجه أحضر والده وأخاه المدعو (هسوذان) ، يستشيرهما فى أمر الغزو، فمنعه والده عن الخروج، ولكن الابن أصر على الذهاب، فودعه الأب وبكى وقال فى توديعه : (يا بنى أين أطلبك بعد يومى هذا ؟ قال : إما فى دار الإمارة بالرى وإما بين القتلى) (٩٣).

وعند وصول جيش المرزبان إلى مشارف مدينة الرى لم يكن ركن الدولة فى وضع يمكنه من منازلة المرزبان ، فلجأ إلى الحيلة ريثما يأتيه المدد من أخويه عماد الدولة المتولى على فارس ومعز الدولة المتولى على بغداد، فقد كان ركن الدولة قد طلب منهما المساعدة، لذلك فإنه أظهر للمرزبان التنازل عن بعض المدن، مثل : زنجان وأبهر وقزوين ، وقد انطلت هذه الحيلة على المرزبان ، ولكن ركن الدولة سرعان ما انقلب على المرزبان ونقض الاتفاق ساعة وصول الإمدادات العسكرية، وبادره بالقتال ، فانهزم جيش المرزبان ووقع أسيرا فى يد ركن الدولة(٩٤).

ومن الملاحظ أن بنى بويه الأخوة الثلاثة وهم: ركن الدولة ومعز الدولة وعماد الدولة، كانوا متعاونين متحابين مما ساعد على قهر أعداءهم ، ومما يدل على هذا التواد والتواصل بين هؤلاء الإخوة، أن معز الدولة قبل أن يرسل جيوشه إلى أخيه ركن الدولة بمدينة الرى، أخذ عهدا من الخليفة العباسى المطيع لله، وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر، لأخيه ركن الدولة بأن يجعله أميرا على خراسان وتوابعها إذا ما تم له الانتصار على القوى المعارضة هناك، فوافق الخليفة على هذا الطلب (٩٥).

أما عماد الدولة المتولى على بلاد فارس ، وكان يقيم بشيراز [٩٦]، فإنه لما أحس بدنو أجله ولم يكن له وريث يرثه، بعث إلى أخيه ركن الدولة فى سنة (٣٣٨هـ / ٩٤٩م) يطلب منه أن يرسل إليه ابنه عضد الدولة ليتولى الأمر بشيراز، وقد تولى عضد الدولة الإمارة بشيراز بعد وفاة عمه [٩٧]. وعلى هذا تكون أملاك ركن الدولة فى سنة ٣٣٨هـ تشمل مدينة الرى والجبال وإصفهان وهمذان يضاف إليها شيراز التى يتولاها ابنه عضد الدولة [٩٨].

وفى سنة (٣٣٩هـ / ٩٥٠م) اضطر ركن الدولة ترك مدينة الرى والذهاب إلى مدينة شيراز للقيام بتهدئة الوضع هناك ، وقد استغل الأمير الخراسانى نوح بن نصر فرصة غياب ركن الدولة عن الرى، خاصة وأن نائب ركن الدولة ، وهو على بن كامة كان ضعيفا ، فوصلت الجيوش الخراسانية بقيادة منصور بن قراتكين واحتل المدينة، فهرب على بن كامة إلى مدينة إصفهان ، فدخل القائد منصور المدينة، وقد كان أهل الرى يكرهون الخراسانية ، فأمر القائد منصور بتوزيع جنده فى جميع أرجاء المدينة لإحكام سيطرته، ثم عمد إلى بلاد الجبل وقرميسين فاحتلها وأجلى عنها نواب ركن الدولة، كما استولى على همذان [٩٨].

وقد طلب ركن الدولة وهو بشيراز المساعدة من أخيه معز الدولة ، وصلت على وجه السرعة العساكر المؤلفة من الديالمة والأتراك والعرب بقيادة (سبكتكين)، وخرجت هذه القوة من بغداد إلى المواقع التى يحتلها القائد الخراسانى منصور، وقد دارت بين الجانبين حروب طويلة تمكنت بعدها الجيوش البويهية من استرجاع بعض المدن، إلا أنها عجزت عن استرجاع مدينة الرى[٩٩].

وفى سنة (٣٤٠هـ / ٩٥١م) توفى القائد الخراسانى منصور بن قراتكين، وكان لموته أثر فى إضعاف القوى الدفاعية فى الجيش الخراسانى، وما رافق من ذلك حدوث اضطرابات فى صفوف الجيش، وقد أدى ذلك إلى انسحاب العساكر الخراسانية من مدينة الرى إلى مدينة نيسابور ، ولكى يحافظ الأمير الخراسانى نوح بن نصر على وجوده فى مدينة الرى ، أرسل على وجه السرعة القائد السابق أبا على محتاج للقيام بأعمال منصور بن قراتكين ، وأقطعه الرى وأمره بالإسراع والجد فى المسير [١٠٠]، ولكن ركن الدولة كان أسرع منه فسبقه فى الوصول إلى الرى، فأعاد نفوذه عليها وعلى معظم أعمالها، وفى سنة (٣٤١هـ / ٩٥٢م) انتقل ركن الدولة من الرى إلى مدينة نسا [١٠١]، وأقام فيها لفترة ، وعمل خلال وجوده على تثبيت نفوذه هناك ثم عاد إلى مدينة الرى، واستخلف على جرجان الحسن بن فيزران يساعده فى عمله، على بن كامة[١٠٢].

وكانت الدولة السامانية خلال هذه الفترة تخطط للإيقاع بالبويهيين ، وكانت تتربص بهم الدوائر ، محاولة بذلك القضاء على نفوذهم فى هذه الأقاليم، فلما عاد ركن الدولة إلى الرى توجه (وشمكير) إلى جرجان على رأس قوة عسكرية ، بأمر من الأمير نوح بن نصر السامانى أمير خراسان ، فاحتل جرجان وانهزم عنها الحسن بن فيرزان (١٠٣)، وفى سنة (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م) كتب (وشمكير) إلى الأمير نوح يطلب منه المساعدة لغزو الرى، فأمده بقوة عسكرية من الجيوش الخراسانية يقودها أبوعلى محتاج، وقد أدرك ركن الدولة فداحة هذه الجيوش، إلا أنه استعد للقائهم ، فخرج من المدينة إلى موضع يقال له طبرك ؛ وهو موقع حصين ، فالتقى بالجيوش الخراسانية ، واستطاع الصمود وقد طالت الحرب بينهما وحل فصل الشتاء فسئموا القتال واتفقوا على الصلح، وقد تبودلت بينهما الرسل فى هذا الصدد، وكان أبوجعفر الخازن العالم الرياضى والفلكى رسولا لركن الدولة، ومن نتائج هذا الصلح التزام ركن الدولة بدفع مائتى الف دينار فى كل عام للأمير نوح بن نصر السامانى، فانسحبت الجيوش وعاد أبو على محتاج إلى خراسان، ولكن (وشمكير) اتهم القائد أبا على محتاج بالتواطئ مع ركن الدولة ، وكتب إلى الأمير نوح بذلك، فأمر بعزل القائد أبا على عن قيادة الجيوش الخراسانية ، وتولاها أبوسعيد بكر بن مالك ، وبذلك أصبح (وشمكير) بمفرده يواجه جيوش ركن الدولة، فاضطر إلى الانسحاب إلى منطقة تسمى إسفراين فاحتل ركن الدولة مدينة طبرستان(١٠٤).

أما أبو على محتاج فإنه قدم اعتذاره إلى الأمير نوح وطلب الصفح عنه، ولكن الأمير نوح لم يقبل الاعتذار ، فأحس محتاج بالخطر يهدده لاسيما من أتباع الأمير نوح، فطلب اللجوء إلى الأمير ركن الدولة البويهى، فرحب ركن الدولة ولم يتردد فى قبول لجوئه (١٠٥). وقد سعى الخليفة العباسى المطيع للتوسط فى الصلح بين ركن الدولة وبين الأمير نوح ، وقد أرسل وفدا لهذا الغرض ، ولما وصل الوفد عند مشارف مدينة حلوان تعرض لقطاع الطرق، وهم من الأكراد يتزعمهم ابن أبى الشوك ، فنهبوا أموالهم وأسروهم ، ثم أطلقوا سراحهم ، فبعث معز الدولة بعساكره وفتك بهؤلاء اللصوص، فأمن الطريق وزال خطرهم(١٠٦).

ويبدو أن وفد الوساطة لم يذهب إلى خراسان أو الرى، بدليل أنه فى سنة (٣٤٣ - ٩٥٤م) تم الاتفاق بين أبى على محتاج الموجود بالرى فى ضيافة ركن الدولة وبين الخليفة العباسى المطيع لله، على أن يقوم أبو على محتاج بمحاربة السامانيين، وإذا ما تحقق له النصر يكون أميرا على خراسان باسم الخلافة العباسية، فتوجه أبوعلى محتاج نحو خراسان واحتل نيسابور ، وأمر بالخطبة للخليفة المطيع ، ومن بعدها احتل خراسان (١٠٧).

وفى سنة (٣٤٣هـ) توفى الأمير نوح بن نصر السامانى وخلفه على الإمارة ابنه عبدالملك ابن نوح السامانى الذى كان بمدينة بخارى، وقد صمم الابن على إخراج ابن محتاج من خراسان ، فأعد الجيوش لهذا الغرض وجعل قيادتها بيد بكر بن مالك، فتوجه نحو خراسان، فانهزم ابن محتاج ولجأ إلى مدينة الرى عند ركن الدولة، ودخل القائد بكر بن مالك مدينة خراسان، وقد عمل ركن الدولة على تأمين حدوده مع خراسان خوفا من تحركات الأمير السامانى عبد الملك بن نوح ، لذلك فإنه غزا جرجان واحتلها دون حدوث قتال، وكان بها (وشمكير) فهرب إلى خراسان لاجئا(١٠٨).

وقد حدث ما كان يتوقعه ركن الدولة، ففى سنة (٣٤٤ هـ/ ٩٥٥م) تحركت العساكر الخراسانية نحو الرى لغزوها ، فأسرع وبعث إلى أخيه معز الدولة ليمده بالمساعدات ، فجاءت العساكر من بغداد يقودها الحاجب (سبكتين)، أما الجيوش الخراسانية فإنها تعرضت إلى النهب والسلب عند وصولها مشارف مدينة إصفهان التى كان يتولاها من قبل البويهيين أبومنصور بن ركن الدولة، وعمل ركن الدولة على تجنب الصدام العسكرى، فقد أرسل إلى بكر ابن مالك قائد الجيوش الخراسانية وأقنعه بعدم جدوى هذه الحروب ، فاستصوب رأيه واصطلحا على ما يلى: أولا- يتعهد ركن الدولة بدفع مبلغ من المال مقابل ولايته على الرى ومنطقة الجبل بأسرها. - ثانيا - يضمن ركن الدولة لبكر بن مالك قائد الجيوش الخراسانية بولاية خراسان، وهذا الشرط الأخير يعطى مؤشرا على أن لركن الدولة أطماع فى خراسان ، وقد وافق معز الدولة حاكم بغداد على ذلك ، وبهذه الطريقة تمكن ركن الدولة من أن يصرف عنه القتال، وعمل فى ذات الوقت على إفساد العلاقة بين القائد بكر بن مالك وأمير خراسان عبد الملك بن نوح السامانى(١٠٩).

وقد تعرضت مدينة الرى وسائر أعمالها فى سنة (٣٤٤هـ) إلى وباء عظيم مما أدى إلى انتشار الأمراض والأوبئة فماتت من جراء ذلك أعداد كبيرة من الناس، وكان القائد أبو على محتاج ضمن ضحايا هذا الوباء (١١٠)، كذلك فى سنة (٣٤٦ / ٩٥٧م) ضرب مدينة الرى زلزال عنيف مات على أثره ناس كثير، فلا يستبعد أن لهذه الأوبئة والزلازل آثارها السلبية على الحياة السياسية والاجتماعية فى مدينة الرى(١١١)

وقد أشرنا من قبل أن أبناء بنو بويه، وهم : ركن الدولة المتولى على الرى وأعمالها، وعماد الدولة المتولى على فارس، ومعز الدولة حاكم بغداد، كانت تربطهم علاقة قوية من المودة والمحبة

والاحترام ، فجميعهم كان يسمع ويطيع لعماد الدولة، وهو الأخ الأكبر، ولما مات انتقلت هذه الخصوصية إلى ركن الدولة، حاكم مدينة الري، فكانت سلطاته تمتد حتى خارج نطاق حدوده الجغرافية ، لاسيما فى النواحى الروحية والمعنوية ، فكان رجال الدين يخطبون له فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، يدعون له أولا ثم لأخيه الأصغر معز الدولة (١١٢)، هذا النفوذ السياسى العريض الذى حظى به بنى بويه كان على حساب نفوذ السلطة العباسية الضعيفة المتهالكة زمن الخليفة الراضى والخلفاء الذين أعقبوه (١١٣).

وفى سنة (٣٤٨ / ٩٥٩م) تمت المصاهرة بين أبناء ركن الدولة وأبناء معز الدولة، فقد ذهب مؤيد الدولة بن ركن الدولة إلى بغداد ليتزوج من ابنة عمه معز الدولة ، ثم يعود بها إلى مدينة الـرى(١١٤) . وفيما يتعلق بآل سامان فقد توفى الأمير السامانى عبد الملك بن نوح أمير خراسان فى سنة (٣٥٠ / ٩٦١م) وتولى بعده أخوه منصور بن نوح (١١٥).

وقد كان ركن الدولة دائم اليقظة والحرص فى المحافظة على حدوده ، ففى سنة (٣٥١ / ٩٦٢م) قام بغزو طبرستان ليزيد فى تحصيناته ، وكان يتولاها (وشمكير) ، فرحل عنها إلى جرجان قبل مجيئ ركن الدولة ثم غزا جرجان واحتلها ، وانضمت إليه أعداد كبيرة من جيش (وشمكير) ، بلغ عددها نحو ثلاثة آلاف، وقد أدى ذلك إلى إضعاف قوة (وشمكير) ، وتعاظم قوة ركن الدولة ، فترك (وشمكير) جرجان وذهب إلى منطقة الجبل وتحصن بها ، وكان إلى جانب اهتمام ركن الدولة فى النواحى السياسية والعسكرية، فإنه فى ذات الوقت لم يهمل النواحى الحضارية والعمرانية ، فقد قام بالعمل على تحسين الحياة الاقتصادية بمدينة الرى وفى سائر أعمالها(١١٦).

وكانت الدولة السامانية التى تسيطر على خراسان تعمل جاهدة لاستعاد نفوذها على مدينة الرى ، فكانت على الدوام تستفز البويهيين ، إلا أن محاولاتها كانت دائما تبوء بالفشل بسبب يقظة ركن الدولة وذكائه ، ومن الأهداف الرئيسية التى تخطط لها الدولة السامانية هو الاحتفاظ بمدينة الرى ذات الموقع التجارى الهام وذات الخراج الكبير الذى يشكل موردا هاما تستفيد منه الدولة السامانية (١١٧)، هذا فضلا عن موقعها الهام المتميز فى الجوانب العسكرية والسياسية ، فهى المدخل الرئيسى إلى خراسان، فمن يمتلك مدينة الرى فإنه بإمكانه السيطرة على الممرات التجارية والعسكرية لاسيما مع خراسان (١١٨)، ففى رمضان سنة (٣٥٥ / ٩٦٥م) قامت الدولة السامانية بمحاولة لغزو مدينة الرى، فخرجت العساكر الخراسانية، وكان

عددها يربو على العشرين ألفا واتجهت صوب الري، وقد أظهروا أنهم يريدون الجهاد في سبيل الله ضد الروم ، ولكن وزير ركن الدولة ، أبا الفضل بن العميد حذر الأمير ركن الدولة بسوء نواياهم وعدم صدقهم وقد وصلت هذه الجيوش إلى مدينة الري ، واجتمعوا بالوزير ابن العميد وطلبوا منه الأموال لينفقوها على الجنود المجاهدين، وخاطبوه بشدة وغلاظة ، فوعدهم بإعداد المال، وقالوا: نحن نريد خراج الري بأكمله، فنحن غزاة أحق بالمال منكم، ودخل الجند المدينة واعتدوا على أهلها، كل ذلك باسم الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أثاروا الفتنة والفزع بين الناس، ولم يكفهم ذلك، بل عمدوا إلى دار الوزير ابن العميد ونهبوها ، ثم استعدوا لمحاربة الأمير ركن الدولة الذي لم يكن في وضع يمكنه من القتال ، فلجأ إلى الحيلة معهم وقد نجح في ذلك وفوت الفرصة عليهم وأبعدهم عن بلاده (١١٩).

وفي أواخر سنة (٣٥٦ هـ/ ٩٦٦م) وأوائل سنة (٣٥٧هـ/ ٩٦٧م) قام الأمير الساماني منصور بن نوح بمحاولة أخرى لغزو الري، وكان ذلك بتحريض من أبي علي بن الياس، وهو أحد الفارين من عضد الدولة بن ركن الدولة الذي كان يتولى كرمان من قبل أبيه، فقد لجأ مستأمنا عند الأمير الساماني منصور بن نوح، فأمنه ما دام عدوا لركن الدولة وابنه عضد الدولة ، وقد حبب إليه هذا غزو مدينة الري، وأظهر للأمير منصور أن قادة الري غير مخلصين لركن الدولة، يضاف إلى ذلك تفشي الرشاوي بين القادة، فوجد الأمير منصور بن نوح أن كلامه مطابقا لكلام (وشمكير) الذي كان يوافيه على الدوام بالتقارير عن الأوضاع بمدنية الري وأعمالها، فشجعه ذلك على الغزو، فتحركت عساكره بقيادة أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور الدواتي قائد الجيوش، وطلب في نفس الوقت من (وشمكير) ومن الحسن بن الفيرزان أن يعدوا جيشا ويلحقوا بالجيوش الخراسانية، وقد فوجئ ركن الدولة بهذه الجموع المتجهة إليه، فخاف على أسرته فأجلاهم إلى إصفهان ، واستعد هو للحرب، فطلب من ابنه الموجود بكرمان أن يمده بالعساكر ، كما طلب من ابن أخيه بختيار بن معز الدولة حاكم بغداد المساعدة، وقد وصلت على الفور جيوش ابنه عضد الدولة، بينما عساكر بختيار تأخر وصولها . وكادت الحرب تقع بين الطرفين لولا موت (وشمكير) المفاجئ ، وما ترتب عليه من تمرد الجند في صفوف العساكر الخراسانية ، هذه الأحداث كفت ركن الدولة شر القتال ، وخلف (وشمكير) على القيادة ابنه (بيستون)، واستطاع الأمير ركن الدولة البويهي بسياسته الرصينة استمالة القائد (بيستون) إلى جانبه واتفقا على الصلح، وقد أمده ركن الدولة بالمال والرجال، وفي هذا ما يدل على تحسن العلاقة بينهما (١١٩).

ولقد استغلت بعض العناصر المعارضة لركن الدولة حالة الحرب هذه ، فقامت بالتمرد والعصيان على السلطة المركزية بالرى، ففى طبرستان الخاضعة لنفوذ الرى خلال هذه الفترة، تزعم حركة التمرد فيها شخص يدعى، نوح بن نصر ، إلا أن موته المفاجئ أطفأ هذه الحركة ، وكذلك فى همذان قامت حركة تمرد قادها أحمد بن هارون الهمذانى، ومن غرائب الصدف أن مصيرها كمصير أختها حيث انتهت بموت قائدها ، ولكن هذا الموت المفاجئ للقائدين وبنفس الطريقة ليثير الشك والريبة بأن موتهما كان مدبرا(١٢٠).

وعلى العموم فإن هذه الحروب التى خاضها ركن الدولة مع الأمراء السامانيين ، والتى كادت أن تكون مستمرة ، كانت لها آثارها السلبية السيئة لاسيما على النواحى الأمنية بمدينة الرى وأعمالها ، فقد نشطت حركة قطاع الطرق خلال هذه الحروب على يد شخص يدعى، حسنويه بن الحسين الكردى، فكان يتعرض لقوافل التجار وغيرهم من المسافرين بالنهب والسلب والقتل فى بعض الأحيان، فأصبح خطرا يهدد أمن الطريق، ولما سنحت الفرصة لركن الدولة، بعث وزيره الفضل بن العميد فى سنة (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م) بالمسير إليه، ولكن الوزير مرض ومات بمدينة همذان، فخلفه ابنه أبو الفتح الذى قام بمصالحة حسنويه على مال يأخذه منه ثم عاد إلى الرى(١٢١).

إن المتتبع لسياسة ركن الدولة يلاحظ أنه كان حريصا على استمرارية السلطة فى البيت البويهى، وكان همه الوحيد أن يكون هذا البيت محتفظا بالسلطة، من ذلك أنه عارض ابنه عضد الدولة بشدة عندما أراد غزو بغداد والاستيلاء عليها والقبض على ابن عمه عز الدولة بختيار فى سنة (٣٦٤ هـ/ ٩٧٤م) فقد بعث إليه برسالة شديدة اللهجة يحذره فيها بما يترتب عليه من نتائج وخيمة ربما فيها ضياع ملك بنو بويه إذا ما استمرت هذه الأطماع بينهما(١٢٢).

كذلك لما أحس بدنو أجله جمع أولاده فى سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) ووزع الأعمال الإدارية بينهم فى مملكته ليتحاشى حدوث الخلافات بينهم، فقلد ابنه فخر الدولة أبا الحسن همذان وأعمال الجبل، ومؤيد الدولة مدينة الرى وإصفهان وأعمالها ، أما عضد الدولة الابن الأكبر، فكان نصيبه كرمان وسائر بلاد فارس . وأوصاهم بأن على الجميع أن يسمع ويطيع أوامر عضد الدولة، فهو الذى يخلفه فى السيادة على جميع هذه المدن (١٢٣). وفى هذه السنة التى نتحدث عنها مات الأمير السامانى منصور بن نوح وتولى الإمارة ابنه نوح (١٢٤).

ويبدو من سير الأحداث أن لعضد الدولة أطماعًا ومصالح سياسية كبيرة، فكان الأمل يحدوه فى السيطرة على العراق، التى كانت تحت نفوذ ابن عمه عز الدولة بختيار، فقد أرسل

جيوشه إلى العراق واحتل العاصمة بغداد فى سنة (٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م) ، وطرد منها عز الدولة بختيار وأرغمه على التنازل عن الإمارة ، ولما اكتشف خيانة وزيره أبى الفتح بن العميد اتصل بأخيه مؤيد الدولة وكان أميرا على الرى وأمره بسمل عيون أبى الفتح وقطع أنفه، فكان أبو الفتح آخر وزراء أبناء بيت ابن العميد (١٢٥).

كذاك فإن عضد الدولة لم يلتزم بوصايا والده ركن الدولة ، فقد اعتدى على أخيه فخر الدولة واستولى على مملكته فى بلاد الجبل، لاتهامه بالتوطئ مع ابن عمه عز الدولة بختيار(١٢٦). بينما كانت علاقته بأخيه مؤيد الدولة المتولى على الرى وأعمالها طيبة، فقد كان مؤيد الدولة متعاونا مع أخيه عضد الدولة ومما يدل على هذا الوئام والتعاون أنه بعث إليه فى سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠م) رسولا يجدد له الطاعة والولاء(١٢٧).

وقد حافظ مؤيد الدولة بن ركن الدولة على تطبيق العدل فى بلاده بمدينة الرى وأعمالها ، فقد اختار القاضى عبد الجبار بن أحمد الموصوف بالعدل ليكون قاضيا على مدينة الرى وقزوين وأبهر وزنجان وسهرورد (١٢٨)، وقم، وكان يسمى بقاضى القضاة (١٢٩)، وكان وزير مؤيد الدولة الصاحب بن عباد؛ وهو إسماعيل بن أبى الحسن بن عباد بن العباس الطالقانى، وهو الوزير الموصوف بالحكمة والفضل والعدل والأدب، فقد استقامت أمور مؤيد الدولة بمدينة الرى بفضل حكمة ودراية هذا الوزير، وقد سمى بالصاحب لطول صحبته لمؤيد الدولة حيث أنها كانت منذ الصبا(١٣٠).

وفى جمادى الآخرة لسنة (٣٧١هـ / ٩٨١م) استولى عضد الدولة على جرجان، وكانت تحت حكم (قابوس بن وشمكير) ، وحجته أن قابوس كان متعاونا مع أخيه فخر الدولة لرفضه تسليم أخيه ، فكان مؤيد الدولة على رأس الجيش الذى احتل جرجان (١٣١). ولكن الأمير السامانى نوح بن منصور بن نوح أمير خراسان لم يدع عضد الدولة وأخاه مؤيد الدولة يحتفظان بجرجان، فقد اتفق مع (قابوس بن وشمكير) ومع فخر الدولة على غزو جرجان ، فخرجت العساكر الخراسانية تحت قيادة حسام الدولة أبى العباس تاش نحو جرجان ، وهناك دار قتال عنيف بين الجانبين، أسفر عن انتصار أمير مدينة الرى مؤيد الدولة أخى عضد الدولة ، ولعل من أسباب هذا النصر خيانة القادة الخراسانيين لتواطئهم مع مؤيد الدولة (١٣٢).

وقد امتدت أطماع عضد الدولة الذى يتولى العراق وبلاد فارس إلى أملاك إخوته، فكثيرا ما كان يتدخل فى شئون فخر الدولة وحتى حميمه مؤيد الدولة أمير مدينة الرى، المتعاون معه

لم يسلم من أطماعه ، فكان يريد أن يجرده من سلطانه على مدينة الرى، إلا أن موت عضد الدولة فى شهر شوال سنة (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) وضع حدا لمثل هذه الاعتداءات ، وخلفه على السلطة فى العراق ابنه صمصام الدولة (١٣٣). وفى ذات السنة فى شهر شعبان توفى أخوه مؤيد الدولة أمير مدينة الرى وأعمالها ، ولم يكن له وريث ، فقد سأله وزيره الصاحب بن عباد قبل موته عمن يكون على مدينة الرى، فلم يفصح بشىء، وعند وفاته طلب الوزير الصاحب من فخر الدولة، وهو أخو مؤيد الدولة أن يأتى ليتسلم السلطة، وبذلك أصبح فخر الدولة أميرا على الرى وعلى جميع أعمالها. وكانت العلاقة بين فخر الدولة وبين ابن أخيه صمصام الدولة حاكم بغداد طيبة والتعاون بينهما كان وثيقا (١٣٤). ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلا، فقد أخذ الخصام والنزاع طريقه بين أبناء عضد الدولة ، لاسيما بين صمصام الدولة حاكم بغداد وبين أخيه شرف الدولة المتولى على بلاد فارس وكرمان والأهواز ، وكان عمهم فخر الدولة المتولى على الرى وأعمالها يميل إلى جانب صمصام الدولة، وقد انتهى هذا النزاع بتغلب شرف الدولة وقام بالاستيلاء على بغداد وأبعد أخاه صمصام الدولة (١٣٥).

أما فخر الدولة فإنه ظل محتفظا بمدينة الرى وأعمالها، كما ظل محتفظا بالوزير الصاحب ابن عباد، الذى كان وزيرا لأخيه مؤيد الدولة من قبل، فقد بعثه فى سنة (٣٧٧ هـ/ ٩٨٧م) إلى مدينة طبرستان لتهدئة الوضع هناك، فتمكن الوزير من إعادة الهدوء والاستقرار إلى المدينة، كما عمل على تثبيت نفوذ فخر الدولة هناك، وجعل حدود المدينة آمنة باستيلائه على بعض الحصون المتاخمة (١٣٦)، وفى قزوين المدينة القريبة من الرى ، وهى من أعمالها ، حدث فيها تمرد ضد فخر الدولة، وقاد هذا التمرد عاملها أبومنصور بن كوريكنج ، وقد أنهى فخر الدولة هذا التمرد دون إراقة دماء، وعالجه بحكمة ، ونجح فى إعادة عاملها المتمرد أبومنصور إلى الطاعة والولاء (١٣٧). وفى مدينة الدامغان : وهى من أعمال الرى أيضا، حدث تمرد قام به المتولى عليها نصر ابن الحسن بن الفيزران فى سنة (٣٧٨ هـ/ ٩٨٨م) ولكنه عاد إلى الطاعة والولاء بعد ما علم باستعدادات فخر الدولة لقتاله (١٣٨).

وقد قرر فخر الدولة فى سنة (٣٧٩ هـ/ ٩٨٩م) غزو العراق واحتلالها ، ولعل من الأسباب المشجعة التى دفعته إلى الغزو كما يذكرها ابن الأثير: أولا – رغبة الوزير الصاحب بن عباد السكنى فى بغداد، فإذا كان هذا السبب مقبولا ، فإنه يدل على مكانة الوزير عند الأمير فخر الدولة . ثانيا– أن الحاشية التى كانت تجالس فخر الدولة حببت إليه غزو العراق وملك بغداد

وسهلت له هذه العملية. ثالثا – موت شرف الدولة حاكم بغداد عجل فى تنفيذه هذه الخطة فكانت الفرصة مواتية إذا لهذا الغزو ، ولكن جيوش فخر الدولة هزمت عند مشارف مدينة الأهواز على يد بهاء الدولة الذى خلف شرف الدولة على حكم العراق، فعاد جيش فخر الدولة منكسرا إلى مدينة الرى، وقد أعقب ذلك تسرب أعداد كبيرة من جيشه بسبب تأخر رواتبهم(١٣٩).

وفى شهر محرم سنة (٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م) توفى الوزير الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد، وقد حزن لموته حتى أهل بغداد (١٤٠)، وامتدح ابن الأثير هذا الوزير، لاسيما فيما يتعلق بمعرفته الواسعة بتحرير الرسائل ، وآرائه السديدة ، وبفضل علمه الواسع باللغة وآدابها ، وكانت له مؤلفات كثيرة ، فكانت مكتبته من الضخامة بمكان حيث أنها تضم أعدادا كبيرة من الكتب فى مختلف ميادين المعرفة، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : إنهم يحتاجون إلى أربعمائة جمل لنقلها، وقد مات الصاحب بن عباد بمدينة الرى ، ونقل جثمانه إلى مدينة إصفهان ، ودفن هناك فى إحدى قراها عند باب درية(١٤١).

وقد كان الصاحب بن عباد مخلصا لفخر الدولة حتى فى آخر لحظات حياته، فهذه وصيته للأمير فخر الدولة وهو على فراش الموت تشهد على ذلك إذ يقول : (خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع وسرتُ فى دولتك سيرة جلبتْ لك حُسن الذكر فإن أجريت الأمور بعدى على نظامها وقررت القواعد على أحكامها نسب ذلك الجميل السابق إليك ونُسيتُ أنا فى أثناء مايثنى به عليك ودامت الأحدوثة الطيبة لك . وإن غيرت ذلك وعدلت عنه كنت أنا المشكور على السيرة السالفة وكنت أنت المذكور بالطريقة الآنفة وقدح فى دولتك ما يشيع فى المستقبل عنك)(١٤٢).

عند استقرائنا لهذه الوصية نقف على نقطتين رئيسيتين : الأولى تبين مدى إخلاص وحرص الوزير الصاحب بن عباد على سلامة الدولة البويهية واستمراريتها، والثانية تتصل بشخص الأمير فخر الدولة، حيث تبين مدى إثارة ووفاء الوزير للأمير فخر الدولة ، فقد آثره على نفسه، وأراد ألا يتصدع هذا البناء القائم على العدل والاستقامة والاستقرار بعد رحيله ، بل أراد أن ينسب هذا الفضل كله إلى الأمير فخر الدولة لا إلى الصاحب بن عباد، إنها قمة الأمانة والإخلاص والوفاء .

ولكن لانعرف لماذا لم يحترم الأمير فخر الدولة هذا الإخلاص والوفاء ، فبعد وفاة الوزير أمر بمصادرة جميع أملاكه وأمواله ، ويقول ظهير الدين الروذراورى : (ونقل جميع ما كان فى

الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة(١٤٣)، ويعلق ابن الأثير على هذه العلاقة بقوله : (قبح الله خدمة الملوك هذا فعلهم مع من نصح لهم فكيف مع غيره) (١٤٤).

وبعد رحيل الوزير الصاحب إلى جوار ربه، عثر فخر الدولة على كيس به رقاع لأقوام، أى مستندات كتب عليها مبالغ من المال، تصل إلى مائة وخمسين ألف دينار، هذه الأموال كانت مودعة له عند بعض الأعيان ، وكان بعضها عليها خاتم مؤيد الدولة، فاستدعاهم فخر الدولة وأمرهم بتسليم المال فأحضروه . وقد كان لهذه الحادثة آثارها السلبية على مكانة وأمانة الوزير الصاحب بين الناس فى مدينة الرى، فهناك من اتهمه ورماه بالخيانة، والبعض الآخر قد أحسن الظن به على اعتبار أن هذه الأموال بعضها أمانات مودعة عنده لأبناء مؤيد الدولة لوجود ختم الأمير عليها(١٤٥).

على كل حال فقد أصبح منصب الوزارة شاغرا الآن مما أقلق الأمير فخر الدولة ، خصوصا وإنه يريد الشروع فى مصادرة أتباع الصاحب بن عباد فهو يحتاج إلى مشورة الوزير، لذلك فإنه كلف أبا العباس أحمد بن إبراهيم الضبى، الملقب بالكافى الأوحد وهو المرشح للوزارة ، القيام بهذه المصادرة ، وكان المبلغ المراد مصادرته ثلاثين ألف ألف درهم ، فامتنع أبو العباس وتردد. وفى ذات الوقت وصل كتاب لفخر الدولة من أبى على بن حمولة يعرض نفسه للوزارة ويضمن عنها ثمانية آلاف ألف درهم، فأجاب فخر الدولة دون تردد ووافق على طلبه، وبذلك خسر أبو العباس منصب الوزارة ، وقد أنبه أتباعه لعدم امتثاله لأوامر فخر الدولة، عند ذلك أسرع أبو العباس وكتب لفخر الدولة بأنه مستعد لأن يدفع ستة آلاف ألف درهم مقابل إقراره على الوزارة (١٤٦).

فأخذ فخر الدولة يوازن بين هذين العرضين ، فوجد أنه لايستغنى عن الاثنين ، ومن الأصلح والأسلم أن يشركهما فى الوزارة ، وقرر على الاثنين عشرة آلاف ألف درهم يدفع كل واحد منهما نصف هذا المبلغ ، وأشركهما فى جميع أعمال الوزارة، وقسم العمل بينهما بالتساوى ، حتى التواقيع على المعاملات قسمت بينهما، وقد رضيا بذلك ، وباشرا أعمالهما، فأول عمل قاما به استمرارهما فى ملاحقة أتباع الوزير السابق الصاحب بن عباد والقبض عليهم ومصادرتهم ، فلم يفلت منهم أحد(١٤٧).

ومما يثير الانتباه والشك فى آن واحد وهو هذا الموقف المتشدد والمتصلب الذى اتخذه الأمير فخر الدولة من وزيره الوفى الصاحب بن عباد ومن أتباعه، من الاجتهاد فى المصادرة

وبلا هوادة ، ومما يدعو للتساؤل لماذا لم يصنع الأمير ذلك فى حياة الوزير الصاحب ؟ هل اكتشف خيانة وزيره بعد وفاته ؟ هذا مالانجده فى المصادر التى توصلنا إليها بما يؤيد ذلك.

وقد اعتاد الأمير فخر الدولة أن يشرك السيدة زوجته فى بعض القضايا من أعماله، وقد أكسبها ذلك بمرور الوقت خبرة ودراية فى القضايا السياسية، ثم أصبحت جميع الأمور السياسية تدار من قبل السيدة زوجة فخر الدولة. هذا الوضع قد أوهم بعض الأمراء بضعف الحياة السياسية بمدينة الرى، فدفعتهم أطماعهم إلى غزو مدينة الرى فى ظل حكم هذه المرأة، ولعل من أبرز هؤلاء الأمراء الطامعين، يمين الدولة أبى القاسم محمد بن سبكتكين أمير خراسان ، فبعث من عنده رسولا يهدد السيدة بالمسير إليها. فعمدت السيدة فى الحال إلى مستشارها الفذ المدعو بدر بن حسنويه، وكانت لاتحل ولاتعقد إلا بعد مشورته، تطلب منه الرأى فى هذا المأزق ، فأشار عليها بعمل مناورة عسكرية كبيرة عند مجيئ هذا الرسول ، ولما جاء الرسول شاهد بأم عينه هذه الكثافة من الجنود المحتشدة على هيئة صفوف ، فقد أرعبه ذلك وعاد إلى يمين الدولة مخبرا إياه بما شاهد فى مدينة الرى من قوة عسكرية ضخمة . فقد نجحت خطة بدر بن حسنويه، بما قام به من تدبير جعل يمين الدولة أمير خراسان يكف عن نواياه وغير من سياسته العدوانية تجاه مدينة الرى فعمد إلى الموادعة فى علاقته مع حكام مدينة الرى(١٤٨).

وقد مات فخر الودلة فى شهر رجب سنة (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) وخلفه على السلطة بمدينة الرى وأعمالها ابنه الصغير أبوطالب رستم الملقب بمجد الدولة (١٤٩)، فكان عمره يوم توليه لا يتجاوز الأربع سنوات ، وبالطبع كانت السيدة والدته هى الوصية عليه، وهى المشرفة على جميع الأمور والقضايا السياسية وإدارة الحكم ، يساعدها الوزيران أبو العباس الضبى وأبو على بن حمولة. وقد خلف فخر الدولة فى خزائنه أموالاً كثيرة من الجواهر وغيرها، ولمجد الدولة أخ صغير لقبوه بشمس الدولة، وأوكلوا إليه الولاية على همذان وقرميسين إلى حدود العراق(١٥٠).

هذه الأحداث التى تمر بها مدينة الرى قد شجعت بعض القوى الطامعة أن تتحرك من ذلك أن (قابوس بن وشمكير) طمع فى الاستيلاء على مدينة جرجان؛ وقد كان (قابوس) من المقربين من آل بويه زمن فخر الدولة، فقد كانت له خدمات ومواقف طيبة للأمير فخر الدولة فأراد الأمير مكافئته بأن يوليه على مدينة جرجان، وهى من أعمال مدينة الرى، ولكن الوزير الصاحب بن عباد، عدل به عن هذا الرأى . وقد جاءت الفرصة مواتية الآن أمام (قابوس)

في ظل هذه الظروف السياسية التي تمر بها مدينة الري، خصوصا وأن أهل جرجان وأعيانها كما يذكر ظهير الدين الروذراوري قد كاتبوا (قابوس) بعد موت فخر الدولة ، وكان بنيسابور يدعونه، فتوجه إليهم واحتل جرجان في سنة (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) (١٥١).

ولكن ماذا عن الوضع في مدينة الري؟ وما هي ردود فعل حكامها عند ضياع مدينة جرجان ؟ يبدو أن روح الخلافات هي السائدة ، فقد لجأت أم مجد الدولة كعادتها إلى مستشارها الخاص بدر بن حسنويه لتأخذ برأيه حيال هذه المشكلة ، ولكن تفاقُم الخلاف بين الوزيرين وأتباعهما أفسد هذه الخطة، خصوصا وأن الوزير أبي علي بن حمولة قد استمال إليه الأتباع بما كان يدفعه إليهم من الأعطيات والأموال والهبات، فكون بذلك قاعدة عريضة من الأنصار، وأعد نفسه لقتال (قابوس بن وشمكير) ، حاملا معه خزائن وأموال مدينة الري بحجة المحافظة عليها من (قابوس) فيما لو تعرضت المدينة للخطر ، وقد حبب إليه أتباعه غزو جرجان ومحاربة (قابوس) قائلين له: (إنك إذا حصلت بجرجان وملكتها كنت أميرا لا وزيرا وكانت الحاجة إليك داعيه والآمال بك متعلقة وبعدت عن الحضرة التي أنت فيها مجاذب على المنزلة)(١٥٢).

فخرج الوزير أبو علي بن حمولة لقتال (قابوس) ، وقد انهزم الوزير ابن حمولة عند أول جولة من القتال ، وغنم (قابوس) خزائن وأموال مدينة الري التي كانت مع الوزير ابن حمولة ، وعاد (قابوس) إلى مدينة جرجان وامتنع عن دفع الرسوم والضرائب التي كانت تدفعها جرجان لمدينة الري. بعد هذه الهزيمة النكراء التي مني بها ابن حمولة الذي عاد إلى مدينة الري منكسرا خائبا ، وقال عند وصوله : (قد خرجت نوبة وهذه نوبة أبي العباس الضبي) على اعتبار أن الأعمال مناصفة بين الوزيرين (١٥٣).

يفهم من هذه الأحداث أن ما قام به الوزير ابن حمولة هو نوع من التمرد والانشقاق والاستقلال عن السلطة بمدينة الري، ومما يؤكد ذلك قول الأتباع لابن حمولة: إنه إذا ما ملكت جرجان تصبح أميرا، كذلك فإن هذه الأحداث تظهر مدى استخفاف أبي علي بن حمولة بالجهاز الحاكم بمدينة الري، فعند انكساره أمام (قابوس) في هذه الحرب التي لم يأخذ إذنا من السلطة في خوضها ، يقول : (قد خرجت نوبة وهذه نوبة أبي العباس) (١٥٤).

لذلك فإن السيدة قررت بعد مشورة بدر بن حسنويه إبعاد الوزير ابن حمولة عن الوزارة والقبض عليه، وقد آل الأمر بعد ذلك إلى قتله، وقد تحرك أتباع ابن حمولة وكادوا يقتلون

الوزير أبى العباس لولا الاتصالات التى أجراها الوزير بكبار قادة الجند الديالمة، ثم تدخل السلطة وقد أسفر ذلك عن الأفراج عنه ، يضاف إلى ذلك أن أتباع ابن حمولة مالوا إليه خاصة عندما علموا بمقتل وزيرهم ابن حمولة ، وهكذا أصبح أبا العباس الضبى الوزير الأوحد بمدينة الرى(١٥٥).

ويبدو من سياق الأحداث أن أطماع السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى بمدينة الرى لم تتوقف ، وإنه كان يراقب مجريات الأحداث عن كثب ويتحين الفرص لاحتلالها ، من ذلك أنه فى سنة ٣٨٨ أو ٣٨٩هـ) بعث إلى السيدة والدة مجد الدولة يطلب منها أن تدفع له خراج مدينة الرى(١٥٦)، وهذا الخراج يشكل موردا كبيرا فقد خصص له ديوان عرف بديوان الخراج، ولهذا الديوان شأن كبير بمدينة الرى، حتى أن المسعودى كان يطلق عليه اسم دار الخراج(١٥٧).

ولما امتنعت السيدة بعث إليها السلطان محمود رسولا آخر يهددها ويقول : إنه سوف يرسل إليها ألفين من أفياله لتخريب مدينة الرى، ثم بعد ذلك يحمل ركامها إليه بمدينة غزنة . ولكن السيدة الوالدة أم مؤيد الدولة استقبلت رسول السلطان محمود بوافر التقدير والاحترام وحسن الضيافة ، ثم حملته رسالة ليوصلها إلى سيده السلطان محمود، وهذا نص الرسالة:

(لاشك أن السلطان محمود بطل من أبطال الإسلام . وهو من أقوى الأمراء والحكام ، وقد دانت له أكثر الأنحاء فى إيران وبلاد الهند، ولطالما خشيت سطوته منذ انتقل زوجى إلى جوار ربه وقد انزاح عن قلبى هذا الخوف الذى ملك نواصيه ، لأنى أجد أن السلطان محمودا من أكبر الملوك وأعزهم شرفا، ولن يقدم على محاربة امرأة عجوز مثلى، فأما إذا اختار الحرب والقتال فمن المؤكد أننى لن أتردد عن الطعن والنزال ، فإن وفقنى الله إلى التغلب عليه فسيذكر لى هذا الظفر إلى يوم الدين، وأما إذا فاز بالنصر على فسيتحدث المتحدثون فيقولون : إنه لم يفز إلا على امرأة عجوز ...! إنى ليأخذنى العجب كيف يتيسير له فى مثل هذه الحالة أن يعلن هذا الفوز ، وفى أى صورة يذيعه فى أنحاء ملكه العريض...؟ وقديما قالوا : (كيف يمكن أن يكون رجلا من نقصت همته عن همة النساء...؟ وإنى لأعرف أن السلطان عاقل حازم، ولن يقدم على مثل هذا الأمر، ومن أجل ذلك فإنى أنعم على أريكة الهدوء والراحة، لايأخذنى شيئ من الخوف أو الشك فيما ستنتهى إليه عاقبة الأمور).

إنه حقا لخطاب سياسى وأدبى رائع استخدمت فيه السيدة أساليب عديدة، منها الاكبار والرفعة لشخص السلطان محمود، ثم أسلوب المراوغة والمناورة دون الإذلال لنفسها، وبهذا

الأسلوب استطاعت أن تفوت الفرصة على السلطان محمود فامتنع عن قتالها أو التعرض لشيئ من أملاكها ، وظل هذا الاحترام متبادلاً طيلة حياة السيدة والدة مجد الدولة(١٥٨).

وقد عملت مدينة الرى على تحسين علاقتها مع الخليفة العباسى القادر بالله، وهو أبو العباس أحمد بن إسحق ، لربما الظروف السياسية المضطربة المحيطة بمدينة الرى هى التى دفعت الرى لمثل هذا التقارب ، ففى سنة (٣٨٨هـ) بعث الأمير مجد الدولة رسولا من عنده إلى الخليفة، فاستقبله الخليفة استقبالا حسنا، وخلع على مجد الدولة بالخلع السلطانية، وعهد له على الرى وأعمالها وعقد له لواء. وأراد مجد الدولة من هذا التقارب ضمان صفة الشرعية فى حكمه للرى وأعمالها ، فهذه الشرعية ربما تحميه من الطامعين ، لاسيما (شمس المعالى قابوس) الذى أقلق راحة مجد الدولة (١٥٩).

وفيما يتعلق بأمر الوزارة فى مدينة الرى ، فقد كان الوزير أبو العباس أحمد الضبى قد عمل على استقرار الوضع بمدينة الرى، وقد عمل قدر الإمكان على تحسين علاقته مع المسئولين فى الداخل ومع جيرانه فى الخارج، إلا أن حدة الطبع التى كانت فى الوزير أفسدت عليه هذا التقارب، ويعلق أبوشجاع الروذراورى على ذلك بقوله : (وكانت فى أبى العباس شدة تغلب على طبعه وشح يفسد عليه كثيرا من أمره) ، هذه الصفات التى ذكرها الروذراورى كانت هى السبب وراء ضياع الوزارة من يد أبى العباس(١٦٠).

يضاف إلى ذلك ما كان بينه وبين السيدة والدة مجد الدولة من شك وريبة، خصوصا بعد موت (الإصفهبد الأكبر) ؛ وهو ابن أخى السيدة، فقد اتهمت الوزير بأن له يداً فى قتله، ولما طلبت منه أن يدفع لها مصاريف العزاء رد قائلا لرسولها : (لو اشتغلت بما يعطاه الجند المطالبون لكان أولى من تشاغلها بعمل المواتيم للموتى الماضين) فغضبت من رده وأيقنت بأنه هو الذى قتل ابن أخيها ، فقالت : (صدق وكيف يقيم مأتمه من قتله)(١٦١).

وقد أدى ذلك إلى تأزم العلاقة بين الوزير والسيدة والدة مجد الدولة، فخاف الوزير على نفسه من أن تفتك به السيدة ، فقرر ترك مدينة الرى، ولكن قبل أن يرحل أراد أن يعرف رأى المستشار الفذ بدر بن حسنويه المتولى على مدينة بروجرد خلال هذه الفترة ولكن بدر بن حسنويه لم يوافقه على رأيه، واقترح عليه أن يبقى بمدينة الرى ويعمل على تحسين علاقته بالسيدة ، ولكن الوزير لم يأخذ لهذا الرأى، ويبدو أنه واقع تحت تأثير على بن الحسين بن القاسم العارض الملقب الخطير، وكانت له مكانة عند الوزير وموضع ثقته، وهو أحد المتنفذين

فى الجهاز الإدارى ، ولم يكن الوزير يعلم ما يضمره هذا الملقب بالخطير من شر، فترك مدينة الرى بعد أن رتب أموره وحصن نفسه بالأموال [١٦٢].

وعندما ترك الوزير مدينة الرى إلى مدينة بروجرد أصبحت الأجواء من الناحية الإدارية مهيأة أمام أبى على الحسين الملقب بالخطير ليتولى الوزارة بمدينة الرى ولو بالقوة، عندها ندم الوزير أبى العباس وحاول العودة إلى مدينة الرى مقابل أن يدفع مائتى ألف دينار للسيدة ولمجد الدولة فلم يقبل منه ، وهذا التصرف فيه حماقة من الوزير، فعندما كان فى الوزارة امتنع عن دفع مائتى دينار، والآن يبذل مائتى ألف دينار مقابل العودة فلايقبل منه[١٦٣]، ولم يعش الوزير بعد هذه الحادثة طويلا، فقد مات فى سنة (٣٩٢هـ / ١٠٠١م) أى بعد سنة أو أقل من إقصاء نفسه عن الوزارة ، وربما مات كمدا أو أسفا، وقد أوصى قبل موته بأن ينقل جثمانه إلى العراق ليدفن عند مرقد الحسين بن على بن أبى طالب فى مدينة كربلاء طلبا للتبرك [١٦٤].

وقد كان لهذا الاضطراب فى الجهاز الإدارى داخل مدينة الرى وفى منصب الوزارة وهو أعلى الرتب فى هذا الجهاز ، آثاره السيئة والسلبية على العلاقة بين البيت الحاكم، وقد كان للوزير الجديد الحسين بن القاسم الملقب بالخطير دور فعال فى إشعال نار الفتنة، فعمل على زرع الريبة والشك بين السيدة وابنها مجد الدولة، فجعل الأم تخاف ابنها، كما استمال إلى جانبه كبار القواد والمسئولين، وعمل على تجريد مجد الدولة من السلطات ، فأصبح شبه معزول لايملك من السلطة إلا القليل فى ظل حكومة هذا الوزير الملقب بالخطير، فخافت الأم على نفسها من مؤامرات الوزير فهربت إلى القلعة ؛ وهى من ضواحى مدينة الرى، فتتبعها الوزير بجواسيسه وعيونه فلما ضيق عليها الخناق اضطرت اللجوء إلى مدينة بروجرد عند مستشارها الخاص بدر بن حسنويه الذى أحسن استقبالها وضيافتها وقدم لها المساعدات ، كما ساعد إبنها الأصغر شمس الدولة ، وقام بإعداد العساكر وقادها بنفسه متوجها نحو الرى ، وقد تمكن بعد معارك طويلة من احتلال الرى سنة (٣٩٧هـ / ١٠٠٦م) فأعاد السلطة إلى السيدة الأم وقبض على مجد الدولة المخدوع ووضع فى السجن، وجعلت السيدة إبنها شمس الدولة هو الحاكم للرى، تشاركه فى الحكم وممارسة السلطة، ولكنها أحست بعد ذلك بتغير ابنها عليها وبأطماعه المتنامية، وكان ذلك بتحريض من الأعداء والحاشية المحيطة بشمس الدولة، فأبعدته عن السلطة ، وجاءت بابنها المخلوع مجد الدولة وأعادته إلى الحكم، وعاد شمس الدولة إلى مدينة همذان مقر حكمه ، وجعلت جميع الأمور تدار تحت إشرافها

مباشرة، فهى التي تستقبل الرسائل من الأمراء والملوك، وقد أحدثت تغييرا إداريا ، فقد عينت ابن خالها أبا جعفر بن دشمنزيار بن كاكويه ليتولى أمر مدينة إصفهان [١٦٥].

وقد طمع شمس الدولة بن فخر الدولة المتولى على همذان بأملاك بدر بن حسنويه، فقام بهجوم خاطف على مدينة بروجرد فى سنة (٤٠٥هـ / ١٠١٤م) واحتلها ، واستولى على الأموال والذخائر التى كانت موجودة فى قلاعها، فاستفاد من هذه الأموال فى تكوين العساكر، فأصبح بذلك قوة عسكرية كبيرة فى المنطقة، وقد دفعه ذلك إلى غزو مدينة الرى واحتلالها، وكان بها أخوه مجد الدولة ووالدته، فتركوا مدينة الرى ورحلوا[١٦٦] إلى مدينة دنباوند فدخلها شمس الدولة وأذعن أهلها له بالطاعة ، إلا أن شغب الجند وتمردهم جعله يضطر للعودة إلى همذان ، وقبل خروجه استدعى والدته وأخاه للعودة إلى الرى وسلمهما السلطة[١٦٧].

وقد تمرد الأتراك بهمذان على شمس الدولة فى سنة (٤١١هـ / ١٠٢٠م) ، فاستنجد بخال والدته أبى جعفر بن كاكويه المتولى على إصفهان ، والسيدة الأم حاكمة مدينة الرى هى التى طلبت من ابنها ذلك، فأمده بالعساكر فتمكن من القضاء على هذا التمرد[١٦٨]. ويبدو مما مر ذكره أن المصادر التى رجعنا إليها لم تكن واضحة فى موضوع إبراز الحدود السياسية والعسكرية التى كانت لمدينة الرى على المدن المحيطة بها، فهى دائما تفاجئنا بأن حاكم مدينة الرى قد عين ابنه أو أخيه على همذان مثلاً أو بروجرد ، دون أدنى توضيح إن كانت هذه المدن تابعة لمدينة الرى أم لا؟ مما يوقعنا فى حيرة من أمرنا، وليس أمامنا إلا التسليم.

الغزنويون يسيطرون على مدينة الرى :

إن فساد العلاقة بين أبناء البيت البويهى الحاكم فى مدينة الرى، حيث لم يكن هناك تفاهم بين الأخوين وأمهما، ، قد أفسح المجال للضعف والوهن أن يسرى فى جسم هذه الإمارة، فضلا عن السياسة التى انتهجها مجد الدولة بن فخر الدولة فى سنوات (٤١٧هـ / ١٠٢٦م) وما بعدها ، فقد انشغل عن مهام السلطة بالنساء ومطالعة الكتب ونسخها ، فأفسح المجال بذلك أمام الجند والقادة الذين لم يجدوا رقيبا يحاسبهم إلى التدخل فى شئون السلطة، حتى أصبحت معظم الأمور تقريبا فى أيديهم خصوصا بعد وفاة السيدة والدة مجد الدولة، وكان لوفاتها الأثر البالغ فى ضياع السلطة من يد مجد الدولة[١٦٩].

إن الوضع السياسي المضطرب الضعيف المتهرئ الذى تعيشه مدينة الرى، قد خلق مناخا سياسيا غير متوازن مما شجع القوى المجاورة على القيام بالتهام هذا الصيد السهل، وهذا ما صنعه (منوجهر بن قابوس بن وشمكير) المتولى على جرجان وطبرستان ، فقد قام بغزو مدينة الرى والاستيلاء عليها، فلم يكن أمام مجد الدولة إلا طلب النجدة من عدوه التقليدى ، السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى أمير خراسان وما وراء النهر، فلم يتردد السلطان محمود فبعث عساكره إلى مدينة الرى فتمكنت من دحر الغزاة وهزيمة (منوجهر) ، وأعاد الهدوء والاستقرار إلى المدينة ، إلا أن مساعدات يمين الدولة السلطان محمود لم تكن لوجه الله، وإنما كانت تسيرها أطماعه بمدينة الرى، فضمها إلى أملاكه وأمر باعتقال مجد الدولة، ومما شجعه على ذلك ما وجد عليه مجد الدولة من الإهمال والضعف وعدم الكفاءة فى إدارة شئون البلاد، فوجد أنه أولى من غيره، فأمر بمصادرة جميع الأموال الموجودة فى خزائن مجد الدولة، وكانت قيمة الجواهر فقط خمسمائة ألف دينار، ومن الدنانير ألف ألف دينار، وأمر بنفى مجد الدولة إلى خراسان ، وقد بعث برسالة إلى الخليفة العباسى القادر بالله، يصف له فيها حالة مجد الدولة وفساد السلطة وما آل عليه الوضع بمدينة الرى، وهذا كتبرير لما قام به السلطان يمين الدولة من احتلاله لمدينة الرى(١٧٠).

وفى أثناء وجود السلطان يمين الدولة محمود بمدينة الرى قام بالتنكيل بجماعات الباطنية ومحاربتهم وقتل منهم أعداداً كبيرة، كما اعتقل عدداً كبيراً من المعتزلة وأحرق كتبهم ونفاهم إلى خراسان، كما أحرق كتبًا أخرى فى علم الفلسفة والفلك، ولم يتعرض لكتب الأدب الموجودة فى مكتبات مدينة الرى، وأمر بنقلها إلى مدينة غزنة فاحتاج إلى مائة بعير لحملها (١٤١)، ثم عاد إلى خراسان واستخلف على مدينة الرى ابنه مسعود(١٧٢).

وهكذا ينتهى حكم الديالمة وعلى رأسهم الأسرة البويهية من مدينة الرى، وسقط حكم مجد الدولة بن فخر الدولة فى سنة (٤١٩هـ / ١٠٢٨م) وقد عمل مسعود بن يمين الدولة محمود على تثبيت نفوذه بالرى، فخاض من أجل ذلك المعارك الكثيرة، ففى سنة (٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) دارت معارك بينه وبين السالار إبراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن هسوذان بن محمد الديلمى المتولى على سرجهان(١٧٣) وزنجان وأبهر وشهرزور انتصر فيها مسعود (١٧٤).

وكثيرا ما كانت الرى تتعرض لهجمات الترك الغز، وهم أتباع أرسلان بن سلجوق، فقد اجتاحوا خراسان وإصفهان والرى وغيرها من المدن ، فكانوا يقومون بعمليات النهب والسلب

والقتل، فلما هجموا على خراسان ذهب الأمير مسعود إليها لمساعدة والده يمين الدولة محمود ابن سبكتكين ، فاستغلت بعض القوى الطامعة بمدينة الرى غياب الأمير مسعود فغزوها واستولوا على السلطة، وكان على رأس هؤلاء أبو جعفر بن كاكويه الملقب بعلاء الدولة، وكان للترك الغز دور بارز فى مساعدته ، فأراد الأمير مسعود أن يعيد سلطانه على مدنية الرى، فبعث قائده (تاش فراش) فى جيش كثيف لمحاربة علاء الدولة أبو جعفر كاكويه (١٧٥)، ولكن القائد (تاش) لم يقو على محاربة الترك الغز، فقد حاصروه ، وظل علاء الدولة كاكويه محتفظاً بمدينة الرى، ثم أخذ يتوسع فاستولى على همذان وإصفهان (١٧٦).

وكان الأمير مسعود بن يمين الدولة خلال هذه الفترة مشغولا فى حربه مع بعض العناصر المناوئة فى بلاد الهند ، ولما هدأت الأوضاع هناك توجه فى الحال إلى مدينة الرى وأعمالها وخلصها من نفوذ علاء الدولة كاكويه. ففى سنة (٤٢١هـ / ١٠٣٠م) سير جيشا إلى همذان فاحتلها وطرد عنها عمال علاء الدولة، وفى خضم هذه المعارك أتته أخبار تنبئه بوفاة والده يمين الدولة محمود ، فاضطر إلى إرجاء حروبه مع علاء الدولة كاكويه (١٧٧). وكان مسعود هو الابن الأكبر ، إلا أن أباه قد فضل عليه أخاه الأصغر محمد ليتولى العرش وولاه ملك خراسان وما وراء النهر، وقرر الأمير مسعود الذهاب إلى خراسان ، ولكن الثورة المفاجئة التى قام بها أهل إصفهان منعته من ذلك ، فتوجه إليهم وقضى على ثورتهم بعنف (١٧٨).

بعد ذلك أراد التوجه إلى خراسان ولكنه فضل الذهاب إلى مدينة الرى للاطمئنان على الوضع هناك والتعرف على مدى ولاء أهل الرى له، ولما علم أهل الرى بقدومه إليهم استعدوا لاستقباله ، فزينوا مدينتهم، ويعلق المؤرخ البيهقى على ذلك، وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث والقريب منها بقوله : أنهم زينوا مدينتهم (بأبهى الزينات التى تفوق حد الوصف)، ولم يدخل الأمير مسعود المدينة بل أقام بظاهرها، فخرج إليه أهل الرى العامة والخاصة منهم حاملين الهدايا، وهذا يعطينا مؤشرا عن مدى ارتياح معظم أهل مدينة الرى لحكم الأمير مسعود . وقد بعث الأمير مسعود بمن يثق بهم من الحاشية إلى مدينة الرى ليشاهدوا هذا الاحتفال الذى أعده أهل الرى لينقل إليه الخبر بصورة صادقة، وقد شكر الأمير مسعود أهل الرى على صنيعهم وأثنى عليهم(١٨٠).

وقبل أن يترك الأمير مسعود مدينة الرى أراد أن يجتمع بأعيان أهل الرى وكبرائهم ، فأمر بأن يُعد موكب فخم لاستقبال هؤلاء الأعيان، وكان هذا الموكب يضم بين صفوفه الخيالة

والمشاة المدججين بالسلاح والغلمان ، وكان غرض الأمير مسعود من ذلك، أن يشاهد هؤلاء الأعيان القوة العسكرية التي يمتلكها الأمير، ربما لتزيد في اطمئنانهم وولائهم له. وجاء أعيان ووجوه الري وكان عددهم يتراوح ما بين خمسين إلى ستين رجلا، وبدأ الحفل بخطاب الأمير مسعود يسأل فيه أعيان الري مستفسرا عن رأيهم في سيرته معهم ، وهذا نص الخطاب :

(كيف كانت سيرتنا فيكم هذه المدة لاتخجلوا وأجيبوا دون خوف أو وجل، فقالوا : أمد الله في حياة الأمير، فقد نجونا من جور الديالمة وعسفهم ؛ (يعنون بذلك البويهيين) وشملنا اسم هذه الدولة العظيمة أدامها الله ونحن ننام في أمن آمنين على أرواحنا وأموالنا ونسائنا وأولادنا، نأكل في أمن وننام في دعة ونعيش في سعة ، رافعين أكف الضراعة إلى المولى سبحانه ليديم ظل رحمة الأمير وعدله علينا إذ لم نكن في شئ من هذا على عهد الديالمة)(١٨١).

وقد بعث هذا الرد الذي سمعه من أعيان الري الطمأنينة في نفسه وتأكد له مدى وفائهم وإخلاصهم وولائهم له وقبل أن يترك مدينة الري، أعد شحنة من الفرسان الأقوياء كان عددهم خمسمائة فارس كحامية ، وعين حسن بن سليمان على رأس هذه الشحنة وليكون عاملا على الري، ولكن الأمير مسعود كأنه استصغر هذا العدد، وقد لاحظ أحد مستشاريه الحيرة بادية على وجه الأمير مسعود ، فقال للأمير: (إذا أراد أهل الري الوفاء ، سيأتمرون بأمر من يسميه مولانا عاملا عليهم وإن هم أرادوا العصيان فلن تنفع معهم كثرة الرجال) فاستصوب الأمير رأيه وقال : (حقا) (١٨٢).

بعد ذلك بعث الأمير مسعود إلى أخيه محمد يعترف له بالملك على خراسان وما وراء النهر وغيرها من الممالك، وإنه قانع بما لديه من الإمارة على الري وأعمالها ، ولكنه في ذات الوقت طلب من أخيه أن يقدمه على نفسه في الخطبة على اعتبار أنه الأكبر، فقبل محمد وبعث برسالة إلى مسعود ليؤكد له ذلك، ولكن الأحداث أثبتت أن محمدا لم يكن صادقا في وعده ، فقد نقض الاتفاق ولم يكتف بذلك، بل دفعته أطماعه التوسعية إلى الذهاب إلى الري لمحاربة أخيه، ولكن بعض القادة كان يميل إلى جانب مسعود لشجاعته وخبرته في الحروب، فعمدوا إلى محمد وقيدوه وسجنوه ونادوا بشعار مسعود ، وكتبوا إليه يدعونه المجيئ في الحال إلى خراسان(١٨٣).

فقرر الأمير مسعود الذهاب إلى خراسان ، وفي ذات الوقت أتته رسالة من الخليفة العباسي القادر بالله ، وكانت تتضمن اعتراف الخليفة بالأمير مسعود سلطانا على جميع

الممالك التى كانت تحت نفوذ أبيه يمين الدولة محمود (١٨٤)، هذه الرسالة شجعته وبعثت فى نفسه الثقة للمضى إلى خراسان ، وعند رحيله من مدينة الرى، تجمهر الخاصة والعامة مودعين فى موكب كثيف من الجند والحرس (١٨٥).

وعند وصول الأمير مسعود خراسان استقبلته العساكر تهنئه ومن الغريب حقا أنه أمر بقتل القادة الذين أيدوه وفضلوه على أخيه، واعتبرهم خونه لأنهم غدروا بأخيه، وقد بايعه الناس فى شهر ذى القعدة سنة (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) ملكا على خراسان وما وراء النهر، فكانت حدود مملكته من خراسان إلى مدينة غزنة وبلاد الهند والسند وكرمان ومكران، بالإضافة إلى مدينة الرى وأصفهان وبلاد الجبل، فكانت رسائل الأمراء تأتيه من كل هذه الأقطار المجاورة منها والبعيده(١٨٦).

ومن الترتيبات والأعمال الإدارية التى وضعها السلطان مسعود بمدينة الرى ، أنه عين طاهر دبير الكاتب بمرتبة كتخدا على مدينة الرى ونواحيها؛ والكتخدا من أهم الوظائف ، حيث أن صاحبها بيده الإشراف على تدبير الأموال والأعمال فى المدينة(١٨٧).

إلا أن ابتعاد السلطان مسعود عن مدينة الرى قد هيأ الظروف والفرص أمام الطامعين لغزو مدينة الرى، ومن هؤلاء الطامعين ، فناخسرو بن مجد الدولة البويهى محاولا بذلك إعادة نفوذ أسلافه البويهيين على مدينة الرى، وقد كان فناخسرو أثناء احتلال السلطان يمين الدولة محمود سبكتكين ؛ والد الأمير مسعود لمدينة الرى . مختبئًا فى موضع يقال له قصران (١٨٨)، وقد احتل فناخسرو المدينة بقوة عسكرية مؤلفة من الديالمة والأكراد، ولكن سرعان ما تمكن نائب السلطان مسعود على مدينة الرى، حسن بن سليمان من إعادة نفوذه بالقوة ودحر هذه العساكر فانهزم فناخسرو(١٨٩).

ومن الذين طمعوا باحتلال مدينة الرى، أبوجعفر علاء الدولة بن كاكويه ، فقد استغل هو الآخر فرصة غياب السلطان مسعود، وانشغاله أول الأمر مع أخيه محمد، وكان علاء الدولة بن كاكويه مستجيرا عند عبد الملك أبى كاليجار بخوزستان، فتوجه ابن كاكويه أول الأمر إلى إصفهان واحتلها ثم احتل همذان ، ومنها إلى الرى فاحتلها واحتل دنباوند؛ وهى من أعمال الرى، والذى كان يتولى دنباوند أنوشروان بن منوجهر بن قابوس ، فأخذ يعمل هذا على استرجاع مدينته من علاء الدولة بن كاكويه ، فاستعان بالسلطان مسعود الموجود فى خراسان، وكتب له يهنئه ويطلب منه العون والمساعدة لمحاربة علاء الدولة، ويشترط مقابل ذلك

إذا ما تحقق له النصر أن يكون عاملا على الرى وأعمالها باسم السلطان مسعود ، يضاف إلى ذلك أن يدفع مبالغ من المال فى كل سنة يتفق عليها، فوافق السلطان مسعود على هذا العرض وبعث بالعساكر من خراسان لتنضم إلى عساكر أنوشروان ، وبهذه الطريقة استطاع أنوشروان دحر علاء الدولة أبوجعفر بن كاكويه ، فاحتل مدينة الرى ومعظم أعمالها ، وخطب بها للسلطان مسعود (١٩٠).

وفى شهر ذى الحجة من سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) توفى الخليفة العباسى القادر بالله، وكانت مدة خلافته إحدى وأربعون سنة وأشهرا، وخلفه ابنه أبوجعفر عبدالله ، ولقب بالقائم بالله (١٩١).

ويبدو أن اتفاق السلطان مسعود مع أنوشروان قد انتهى فى سنة (٤٢٢هـ) ، بدليل أنه أصدر أمرا بتفويض (تاش فراش) قائد الجيوش الخراسانية الإمارة على الرى وهمذان ومنطقة الجبال (١٩٢). وقد كان (لتاش فراش) حروب ووقائع عديدة مع علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه ، تسببت فى حدوث الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار فى هذا الإقليم (١٩٣)، ويحتمل أن هذه الاضطرابات دفعت السلطان مسعود إلى تغيير سياسته مع هذه القوى المناوئة ، فاتبع معهم سياسة اللين والمصالحة، ربما دفعته ظروفه لمثل هذا الأسلوب ، ففى سنة (٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) أجرى عدة اتفاقات ودية مع هذه القوى، أولها مع علاء الدولة أبوجعفر بن كاكويه ، فقد اتفق معه على إقراره على إصفهان نظير تعهد علاء الدولة بأن يدفع مبالغ من المال للسلطان مسعود فى كل عام تحدد حسب الوضع الاقتصادى للمدينة. كذلك أجرى مع (منوجهر بن قابوس بن وشمكير) نفس الاتفاق نظير ولايته على جرجان وطبرستان(١٩٤).

كان للأزمات السياسية التى تعرضت لها مدينة الرى إبان هذه الفترة، وهى المتمثلة فى هجمات الطامعين فى الاستيلاء على المدينة أن خلقت جوا سياسيا خانقا غير متوازن وغير مستقر فى مدينة الرى، كانت له آثاره السيئة على الوضع الداخلى بالمدينة ، لاسيما فى الجوانب الإدارية والاجتماعية ، فمن هذه الانحرافات الإدارية ما قام به الحاكم الكتخدا طاهر دبير ، فقد أهمل أعماله وواجباته وانغمس فى ملذاته الخاصة، من لهو وشرب ومجون، ومظاهر الإسراف والأبهة والطغيان ، فكان ينثر فى مجلسه على الحاضرين الورد فى مواسمه ممزوجا بالدنانير الذهبية والدراهم، وكانت أوانى الشراب المصنوعة من الذهب والفضة تربط بحبال من الحرير وتشد على أوساطهم وهم يرقصون سكارى ثملين والكتخدا طاهر دبير يتوسط الراقصين ، وكان يضع على رأسه تاج نسيجه من الورد الجورى والياس، هذه الليالى

الحمراء التى يقيمها الكتخدا قد جرفت معها حتى القادة المخلصين للسلطان مسعود ، أمثال القائد الكبير (تاش فراش) فقد انغمس فى هذا اللهو، مما يدل على عدم أمانة هؤلاء المسئولين فراحوا يعبثون بأموال مدينة الرى وينفقونها على ملذاتهم الخاصة دون أدنى مراعاة لحقوق الآخرين من العامة فى مدينة الرى (١٩٥).

هذه الأوضاع التى كانت تجرى فى مدينة الرى ربما كانت من الأسباب التى شجعت الطامعين فى الاستيلاء على مدينة الرى. وقد وصلت أخبار فساد الجهاز الإدارى إلى السلطان مسعود ، فقرر عزل طاهر دبير، ورشح لهذا المنصب عدداً من الشخصيات ولكن بعد تشاور السلطان مع كبار المسئولين استقر رأيه على أبى سهل الحمدوى؛ لما يتصف به من العدل والفضل ، حتى أن السلطان مسعود أثنى عليه وقال: (ولكن أبا سهل الحمدوى أهل لهذا المنصب فإنه ذو شهامة وكفاية وحنكة وله فى مهام الأمور سابقة)(١٩٦).

وقد أراد السلطان مسعود أن يرسل ابنه الأمير سعيد مع أبى سهل الحمدوى، ليكون نائبا عنه بمدينة الرى، أما الإدارة والحكم فتكون بيد الكتخدا أبى سهل الحمدوى، وهذا نص خطاب السلطان مسعود للكتخدا :

(فكرنا بالأمس فى أمر الرى والجبال فرأينا من الصواب أن نبعث معكم ولدنا الأمير سعيد بأبهة فائقة حتى يكون نائبا عنا وتكون كتخداه ، بحيث يكون الحل والعقد والخفض والرفع والأمر والنهى فى يدك ويصغى ولدنا إلى نصحك فتكمل بذلك أسباب الهيبة). وقد رحب أبوسهل الحمدوى بهذا الرأى ولم يعارضه، إلا أنه اقترح على السلطان أنه إذا كان الهدف الحصول على الهيبة من مجيئ الأمير سعيد، فمن المصلحة أن يؤجل ذلك ريثما يستقر الوضع فى مدينة الرى ، وفى ذات الوقت يتم القضاء على القوى المعادية الطامعة بمدينة الرى، فوافقه السلطان واستحسن رأيه(١٩٧).

هذا التغيير الإدارى الذى أحدثه السلطان مسعود قد شمل القائد (تاش فراش) بالإضافة إلى الكتخدا السابق طاهر دبير ، وتقلد أبوسهل الحمدوى هذا المنصب ، وقد أجرى عدة إصلاحات فى مدينة الرى وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ، فكان العدل أساس حكمه، ورفع المظالم والرشاوى والمصادرات التى كانت متفشية زمن الكتخدا طاهر دبير والقائد (تاش فراش) فأمن الناس على أموالهم وحقوقهم ، فكان لذلك آثاره الطيبة على النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مدينة الرى، مما أدى إلى استقرار الأوضاع فى هذه المدينة إبان هذه الفترة على الأقل أى فى سنة (٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) (١٩٨).

لقد سبق وذكرنا أن السلطان مسعود قد أبرم اتفاقية مع علاء الدولة أبى جعفر بن كاكويه، ولكن علاء الدولة نقض هذا الاتفاق المعقود بينه وبين السلطان مسعود، باعتدائه على العساكر الخراسانية التى كان يقودها أبو سهل الحمدوى المسئول عن الرى، وقد أدى ذلك إلى حدوث حروب بين الطرفين أسفرت عن هزيمة علاء الدولة ونهبت أمواله وذخائره واحتلت إصفهان مقر حكمه ، فهرب علاء الدولة إلى إيدج(١٩٩) لاجئا عند الأمير أبى كاليجار (٢٠٠).

إلا أن علاء الدولة بن كاكويه لم يوقف نشاطه العسكرى، فقد عاود تحرشاته فى سنة (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) لإعادة نفوذه على إصفهان، ولكن أبا سهل الحمدوى كان له بالمرصاد ، ولم يمكنه حتى من اللجوء عند أبى كاليجار ، فانهزم إلى مدينة بروجرد وهناك نهبوا أمواله، ومنها ذهب إلى مدينة الطرم (٢٠١)، فلم يقبله أميرها السالار لاجئا(٢٠٢).

إن عدم الاستقرار فى مدينة الرى وفى سائر المدن التابعة لسلطان الملك مسعود شمل أيضا مدينة خراسان وبلاد ما وراء النهر، فأخذت تحاك المؤامرات هذه المرة ضد السلطان مسعود بن محمود أمير خراسان وما وراء النهر، فقد أراد مدبروها الإطاحة بالملك مسعود وإعادة السلطة إلى أخيه محمد ، وأسفرت هذه المؤامرة عن مقتل السلطان مسعود فى سنة (٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) ، ونادوا بمحمد ملكا على خراسان وتوابعها ، ولكن هذا الأمر لم يمر بسلام، فقد استطاع (مودود) ؛ وهو أحد أبناء الملك مسعود أن ينتقم لأبيه بعد أن تولى على الأمر، فأمر بقتل عمه محمد وأبناء عمه على وأحمد، وأمر بقتل القادة الكبار الذين دبروا هذه المؤامرة(٢٠٣).

وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أن خراسان لم تعد قادرة على الاستمرار فى القيادة المركزية للولايات التابعة لها بعد مقتل السلطان مسعود، ففى سنة (٤٣٣هـ / ١٠٤١م) تمكن علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه من السيطرة على مدينة الرى ، ولم تكن هناك ردود فعل من السلطة المركزية فى خراسان، ولم تستنكر هذا الفعل وهذا دليل على ضعفها وتشتت قوتها، وقد مات علاء الدولة بن كاكويه واستمر أبناؤه وهم: ظهير الدين أبو منصور فرامرز، وأبوكاليجار كرشاسف، ثم الأخ الأصغر أبوحرب يمارسون سلطانهم على مدينة الرى وإصفهان وهمذان (٢٠٤).

مدينة الرى تحت نفوذ السلطان طغرلبك :

إلا أن القوة المتنامية للسلاجقة إبان هذه الفترة والتى وضع أساسها السلطان ركن الدولة أبوطالب طغرلبك ، محمد بن ميكائيل بن سلجوق مؤسس الدولة السلجوقية ، وقد امتد نفوذها على معظم المدن الفارسية، كخوارزم وطبرستان وجرجان وكرمان وأعمالها وقزوين وبلاد الجبل، كما وضع حدا لنفوذ أبناء أبي جعفر علاء الدولة ولو لفترة محددة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن السلطان طغرلبك قام بغزو مدينة الرى فى سنة (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م) وفتحها واستولى على أعمالها، كما استولى على أموال وضياع أبناء علاء الدولة أبى جعفر (٢٠٥)، وكان يخطب له في جميع هذه المدن بما فيها مدينة الرى (٢٠٦)، ويذكر الحافظ الذهبى أن طغرلبك أسرف في القتل حتى تمكن من إخضاع مدينة الرى، فلم يبق فى المدينة، والكلام للحافظ الذهبى غير ثلاثة آلاف إنسان، وأرى أن هذا الرقم الأخير مبالغ فيه ، فلايعقل أن يصل القتل إلى هذا الحد ، حتى لم يبق فى المدينة غير هذا النفر، فيجوز أنهم فروا من المدينة خوفا من القتل والتنكيل فلم يبق فى المدينة غير النفر الذين ذكرهم الحافظ الذهبى(٢٠٧).

وقد كانت للسلطان طغرلبك اهتمامات بالنواحى العمرانية ، فلما استقر الوضع بمدينة الرى عمد إلى التعمير، وأول عمل قام به أنه أمر بتجديد بناء مدينة الرى، كذلك اهتم بتحسين علاقاته مع جيرانه، لذلك فقد وصلته من أمير خراسان (كامرو) هدايا قيمة، وهى عبارة عن مركب مصنوع من الذهب، وخزينة لوضع المجوهرات من صنع الصين(٢٠٨).

ولكن ما زال فناخسرو بن مجد الدولة البويهى يحلم فى استرجاع مجد آبائه وأجداده ، فقد كان له نشاط ملحوظ خلال هذه الفترة ؛ أى فى سنة (٤٣٩هـ / ١٠٤٧م) ، وكان ينوى إعادة مدينة الرى، لذلك تحرك بقواته نحو مدينة أمد؛ وهى من أعمال السلطان طغرلبك ، فاحتلها وقتل عددا من أتباع طغرلبك، وكان طغرلبك بمدينة الرى فخرج منها لقتال فناخسرو(٢٠٩)، كذلك كانت بين طغرلبك وبين أبى منصور بن علاء الدولة الذى أعاد نفوذه على إصفهان ، مناوشات فى سنة (٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) ، فقد حاصره ولما طال الحصار أذعن أهل مدينة إصفهان بالطاعة لطغرلبك وسلموه البلد فدخلها ، وفضل السكن بها ، فنقل مقر حكمه فى سنة (٤٤٣هـ / ١٠٥١م) من الرى إلى إصفهان (٢١٠). كما قبض على الملك الرحيم؛ وهو آخر ملوك بنى بويه وسجنه فى القلعة بمدينة الرى، ومات فى سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م (٢١١)، وقد اتسع سلطان طغرلبك حتى وصل إلى بغداد والموصل، وقد توفى طغرلبك بمدينة الرى فى سنة (٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) (٢١٢).

وبعد موت طغرلبك ورثه ابن أخيه ألب أرسلان، واسمه محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وآلت إليه السلطة فى بغداد وفى غيرها من المدن العراقية، إلا أن موت طغرلبك المفاجئ قد خلق جوا سياسيا غير متوازن ، لاسيما فى الولايات التى تقع فى مشرق الخلافة العباسية ، وأفسح هذا المناخ المجال أمام القوى الطامعة أن تتحرك للتوسع على حساب القوى الضعيفة ، وهذا ما حدث بالفعل ، ففى سنة (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) قام شهاب الدولة قتلمش بغزو مدينة الرى، ولكن السلطان ألب أرسلان حاكم بغداد سبقه فى الوصول إليها وتحصن بها ، وحدث القتال بين الطرفين عند مشارف مدينة الرى انتصر فيه ألب أرسلان وقتل قتلمش (٢١٣).

بعد ذلك خرج ألب أرسلان من مدينة الرى فى ربيع الأول من نفس السنة المذكورة متوجها إلى مدينة آنى لمحاربة الروم، هذا إلى جانب ما كان بينه وبين شمس الملك تكين المتولى على بلاد ما وراء النهر من حروب، وقد انتهت بمقتل السلطان ألب أرسلان، وقد أوصى بأن تكون السلطة من بعده لابنه ملكشاه ، فتولى السلطة فى سنة (٤٦٥هـ / ١٠٧٢م)، وتوجه إلى مدينة الرى (٢١٤)، ولكن نلاحظ أن (قاورت بك) عم السلطان ملكشاه المتولى على كرمان كانت له أطماع بالرى وأعمالها، فسير جيوشه لاحتلالها ، فاصطدم ملكشاه مع عمه ودار قتال بينهما عند مدينة همذان أسفر عن انتصار ملكشاه ، فأسر عمه (قاورت) ثم أمر بقتله، وكان للوزير نظام الملك دور بارز فى هذا النصر الذى حققه ملكشاه على عمه (٢١٥).

وقد أخذ سلطان ونفوذ ملكشاه يتسع حتى شمل من حد الصين شرقا إلى بلاد الشام غربا، ومن أقصى الشمال إلى اليمن، وكان يخطب له فى هذه البلاد الواسعة ، وحتى ملوك الروم كانوا يحملون إليه الجزية، واتسم حكمه بالعدل والسيرة الطيبة، وبعد وفاته خلفه ابنه محمود، وهو أصغر من أخيه (بركيارق)، وكان لأم محمود؛ (تركان خاتون) أو زبيدة خاتون دور بارز فى وصول ابنها إلى السلطة ولكن (بركيارق) لم يقبل هذه القسمة فأخذ يحيك المؤامرات حتى استطاع إبعاد أخيه وتولى هو السلطة، وذهب إلى الرى فوجد زبيدة خاتون أم أخيه فأمر بخنقها وكانت فى الحمام ، ثم بعد ذلك أخذ نفوذ (بركيارق) يتعاظم ، فكان يخطب له فى يوم الجمعة فى مساجد بغداد، فضلا عن مدينة الرى وأعمالها(٢١٦).

وفى سنة (٤٩٦هـ / ١١٠٢م) ظهر على مسرح الأحداث ينال بن أنوشتكين الحسامى، كمنافس خطير (لبركيارق) ، وقد استطاع بمساعدة حاكم مدينة إصفهان السلطان محمد من

احتلال مدينة الرى، والسلطان محمد هو أخ للسلطان بركيارق ، ولم تكن العلاقة بينهما طيبة بل اتسمت بالعداء والحروب الطويلة، يذكرها ابن الأثير وغيره من المؤرخين ، وقد أراد ينال أن يرد الجميل للسلطان محمد، فأمر أئمة المساجد أن يخطبوا بالرى للسلطان محمد، ولم يكن ينال الذى استولى على مدنية الرى محبا لأهل الرى، فقد أساء إليهم وصادر أموال بعض التجار ، ولكن (بركيارق) لم يدعه يهنأ بحكم الرى فقد غزا الرى بقيادة (برسق بن برسق) الذى تمكن من إلحاق الهزيمة بينال، فدخل (بركيارق) مدينة الرى وهرب عنها ينال إلى منطقة الجبال وتفرق عنه جنده وأتباعه ولم يبق معه إلا القليل ذهب بهم إلى بغداد ، فأكرمه الخليفة العباسى المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ولكن بعد ذلك طرد من بغداد لسوء سلوكه مع الناس واعتداءاته المتكررة على التجار(٢١٧).

وفى أثناء النزاع الطويل الذى أشرنا إليه والذى دار بين الأخوين، السلطان بركيارق والسلطان محمد فى سنة (٤٩٦هـ) استطاع السلطان محمد فى نهاية الأمر السيطرة على مدينة الرى وطرد عنها نواب وأتباع السلطان (بركيارق) ، ثم بعد ذلك تم الصلح بينهما، فكانت المناطق التى تحت نفوذ السلطان محمد هى: كنجة وبلاد آران (٢١٨)، بالإضافة إلى الرى وأعمالها (٢١٩)، وبلغ اتساع مملكة السلطان محمد من حد خراسان وما وراء النهر إلى الرى وتوابعها، ومات السلطان محمد فى سنة (٥١٢هـ / ١١١٨م) وخلفه ابنه السلطان سنجر بن محمد ، فقد ورث هذه المملكة وعمل جاهدا للمحافظة عليها وخاض الحروب من أجلها(٢٢٠).

ومن الملاحظ أن معظم هذه النزاعات والحروب كانت تقع بين أبناء البيت الحاكم، فى سنة (٥١٣هـ / ١١١٩م)، وقعت خلافات بين السلطان سنجر وبين ابن أخيه السلطان محمود بن أحمد حيث كان السلطان محمود يطمع فى السيطرة على مدينة الرى، هذه الخلافات قادتهم إلى حدوث صدام عسكرى بينهما داخل حدود مدينة الرى، وقد هزم السلطان محمود فى هذا النزاع ، وعمل السلطان سنجر على تحصين حدوده بمدينة الرى(٢٢١). وكان آخر هذه الحروب التى خاضها السلطان سنجر فى سنة (٥٣٦هـ / ١١٤١م) مع الأتراك الخطا، فاستعد لقتالهم وفوض عنه ابن أخيه مسعود على مدينة الرى، ولكن السلطان سنجر انهزم أمام الأتراك الخطا فاستولوا على بلاد ما وراء النهر. أما مدينة الرى فإن مسعود تركها وذهب إلى بغداد بعد أن أناب عنه شخص يدعى الأمير عباس ، وخلال وجود الأمير مسعود فى بغداد استطاع الوصول إلى السلطة ، فأصبح حاكما على بغداد(٢٢٢).

أما الأمير عباس فقد استقل بحكم مدينة الرى وخرج عن طاعة السلطان مسعود، وقد شجعه أمير خوزستان وبلاد فارس المدعو (بوزابة) على التمرد، وكره الملك مسعود محاربتهم، وربما لم تكن الظروف مهيئة لهذا الغرض، فتصالح معهما فى سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) (٢٢٣)، وتشير الدلائل إلى أن الأمير عباس قد حكم مدينة الرى بالعدل، وأحسن إلى أهلها وتتبع جماعات الباطنية فحاصرهم ونكل بهم واضطهدهم وقتل منهم الكثير حتى أن ابن الأثير يقول أنه عمل منارة من جماجمهم ، ثم عول على الجيش فأنشأ قوة عسكرية كبيرة ليحتمى بها من العاديات ، وفى ذات الوقت فإن هذه القوة الكبيرة أثارت حفيظة الملك مسعود ببغداد وتهيب منها وربما قد يكون هو المقصود والهدف من وراء إنشائها ، فأخذ يحترز ويعمل من أجل الحد من هذه القوة أو التخلص من صاحبها ، وقد جاءت هذه الفرصة مواتية عندما كان الأمير عباس ببغداد زائرا؛ ولعل الملك مسعود هو الذى استدرجه للقيام بمثل هذه الزيارة ، فغدر به وقتله فى سنة (٥٤١ / ١١٤٦م) وبذلك عادت مدينة الرى مرة أخرى لنفوذ الملك مسعود(٢٢٤).

ولكن نفوذ الملك مسعود على مدينة الرى كان ضعيفا بسبب انشغاله فى أمور بغداد، ثم أن نائبه على الرى الذى لم يعلن عن اسمه ، لم يكن على مستوى من الكفاءة، هذه الظروف قد أفسحت المجال أمام القوى الطامعة أن تعاود لتمارس نشاطها من أجل السيطرة على مدينة الرى، ومن بين هذه القوى: المماليك ، يتزعمهم (إيتاخ) أو (إينانج) وهم مماليك السلطان سنجر، فقد استغلوا فرصة انشغال السلطان سنجر فى حروبه مع الغز، فتركوا خراسان وتوجهوا نحو مدينة الرى، وربما كانت الظروف التى تمر بها مدينة الرى قد شجعتهم وساعدتهم لغزو مدينة الرى، فاحتلوها فى سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٣م) (٢٢٥).

ومن الملاحظ أن هذه الفترة التى نتحدث عنها وما بعدها ، تعتبر مرحلة مميزة فى التاريخ السياسى لمدينة الرى، فالرى لم تعد القوة المركزية التى تهيمن على الولايات المجاورة لها، إذ أخذت تفقد الكثير من سيطرتها على أعمالها ، فلم يعد لها نفوذ على هذه المدن، ويعود ذلك إلى أمرين: الأول يتمثل فى اضطراب وضعها الداخلى وعدم استقراره ، والثانى ظهور حكام أقوياء فى هذه المدن قاموا بقطع هذه التبعية واستقلوا عن مدينة الرى ، وقد ذهب الأمر ببعضهم أبعد من ذلك، فقد طمعوا بغزو مدينة الرى نفسها، وقد قام بذلك حاكم مدينة آرانية(٢٢٦) وأذربيجان المدعو (إيلدكز) ، ولم تمنعه الصداقة وصلة الرحم التى كانت بينه وبين

(إيتـاخ) حاكم مدينة الرى، فقد كان محمد الملقب بالبهلوان وهو ابن (إيلدكز) زوجا لابنه (إيتـاخ) ، فقد طمع (إيلدكز) أول الأمر بمدينة همذان ثم عدل عنها إلى مدينة الرى لعداوة تولدت بينه وبين صهره (إيتاخ) حاكم مدينة الرى ، وقد تطور هذا العداء إلى حدوث صدام عسكرى بينهما أسفر عن خسارة (إيتاخ) ، وانتهت هذه الخصومة إلى عقد صلح بينهما ، د شروطه أن يدفع (إيتاخ) (لإيلدكز) فى كل سنة مبلغا من المال (٢٢٧). ولكن (إيتاخ) نقض هذا الصلح ووجد أنه مجحف وغير منصف ، فامتنع عن دفع الأموال متعللا بكثرة المصاريف ، فقام (إيلدكز) بغزو مدينة الرى فهرب (إيتاخ) إلى قلعة منيعة تعرف بطبرك سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) فلم يهدأ بالٍ (إيلدكز) فاستأجر جماعة من المماليك لحقوا به وتمكنوا من قتله، إلا أن (إيلدكز) لم يقم طويلا فى مدينة الرى فقد تركها وعاد إلى همذان بعد أن أناب عنه، عمر بن على، وهو أحد الأتباع المقربين (٢٢٨)، وفى صيف سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) مات (إيلدكز) وخلفه على السلطة ابنه محمد الملقب بالبهلوان (٢٢٩).

الدولة الخوارزمية ومدينة الرى:

كانت الدولة الخوارزمية تشكل خلال هذه الفترة أكبر قوة فى تلك الأقاليم، فنفوذها السياسى يشمل مدينة خوارزم ونيسابور ومدن أخرى، وجميعها كانت تحت نفوذ الملك خوارزم شاه، ولكن فى سنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢م) تحرك أحد سلاطين الأتراك المدعو طغرل بن ألب أرسلان وأراد أن يسترجع ما كان لأبيه وأجداده من سلطان على همذان وكذلك مدينة الرى، وكانت الرى وهمذان إبان هذه الفترة تحت نفوذ (قتلغ إينانج بن محمد البهلوان) . فتوجه طغرل نحو همذان فاحتلها ، فهرب (قتلغ) إلى مدينة الرى واتصل بالسلطان خوارزم شاه يطلب منه المساعدة لحمايته من طغرل بن ألب أرسلان ، وعلى الفور جاءت عسكر خوارزم شاه إلى مدينة الرى، ولكن يبدو أن هذه العساكر لم تأت لتحمى وإنما لتستولى ، فقد طمع خوارزم شاه بمدينة الرى، فخاف (قتلغ) على نفسه فهرب إلى قلعة طبرك الحصينة فحاصره خوارزم شاه، ولكنه سئم المقام بالرى فلم يمكث طويلا وغادرها بعد أن ترك بها حامية تدير شئونها ، ليتصدى لأخيه سلطان شاه ويمنعه من احتلال مدينة خوارزم ، وقد أدى ذلك إلى حدوث نزاع بين الأخوين، ومن الطبيعى أن يستغل طغرل بن ألب أرسلان هذه الأوضاع فغزى مدينة الرى مرة أخرى واحتلها فى سنة (٥٩٠هـ / ١١٩٣م) وطرد عنها الحامية العسكرية(٢٣٠).

وعلى أثر ذلك تحرك (قتلغ إينانج) من مخبئه واتصل بالسلطان خوارزم شاه يعتذر له عما بدر منه ويعبر له عن سبب اختبائه عنه، ويطلب منه المساعدة لمحاربة طغرل، وقد أخذ السلطان خوارزم شاه يوازن بين (قتلغ) وبين طغرل، فوجد أن من المصلحة أن يقف إلى جانب (قتلغ) ويساعده عسكريا ضد طغرل ذى الأطماع السياسية، هذا فضلا عن العلاقة السيئة التى كانت بينه وبين طغرل، لذلك قبل عذر (قتلغ) ويعث معه قوة عسكرية لمحاربة طغرل، وقد تمكنت هذه القوه من هزيمة طغرل، فخضعت الرى وهمذان لنفوذ السلطان خوارزم شاه، ثم بعد ذلك سلمها بيد (قتلغ إينانج) ، وهذا دليل على أن العلاقة بينهما كانت طيبة، أو ربما أوضاع السلطان خوارزم حتمت عليه أن يفعل ذلك(٢٣١).

ولكن هذه العلاقة الطيبة كان عمرها قصيراً ما دامت هناك أطماع وتجاوزات ومنافسات للوصول إلى السلطة ، فالحامية العسكرية التى سبق أن تركها خوارزم شاه بمدينة الرى عادت من جديد إليها، فكانت مصدر إيذاء ومضايقه (لقتلغ إينانج) ، فتصدى لهم ولكنهم كانوا أقوى منه، فخرج من الرى ولجأ عند مؤيد الدين، وهو أبو الفضل محمد بن على بن القصاب البغدادى وزير الخليفة العباسى الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضيئ، الذى كان فى زيارة لهذه المدن، وكان على رأس قوة عسكرية أتى بها لإخضاع هذه المدن لطاعة الخليفة، وكان لقاؤه بالوزير عند مدينة ميسان، فأكرمه الوزير وأحسن إليه وزوده بالخيل وما يحتاج إليه الجيش من الخيام، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، وساروا جميعا إلى كرمان شاه (٢٣٢)، ومنها إلى همذان وكانت العساكر الخوارزمية بهمذان، فلما علموا بقدوم جيش الخليفة تركوا همذان ورحلوا إلى مدينة الرى، فتبعهم الوزير فتركوا الرى إلى دامغان وبسطام(٢٣٣) وجرجان ، بينما استقر جند الخليفة بالرى(٢٣٤).

وقد وجد (قتلغ إينانج) أنه لا نية للوزير مؤيد الدين أن يدعه وشأنه فى حكم الرى، فلم يكن أمامه إلا استخدام القوة ولكن الوزير استطاع القضاء على حركته، فهرب (قتلغ إينانج) إلى مدنية آوة(٢٣٥) فمنعته حامية الوزير من دخول المدينة، عند ذلك قرر محاربة الوزير، وأخذ يجمع الأتباع إلا أنها محاولات كانت يائسة إذ استطاع الوزير هزيمته، وقد عمل الوزير بعد ذلك على إحكام سيطرته على مدينة الرى وهمذان وباقى المدن المجاورة ولكن الجيوش الخوارزمية لم تدعه فقد كانت له بالمرصاد ، إذ أرسل الملك خوارزم شاه الجيوش لغزو همذان والرى، وتمكنت هذه الجيوش من إلحاق الهزيمة بجيش الخليفة الذى يقوده الوزير فى سنة

(٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) بعد حروب دامت بينهما، وكان لموت الوزير مؤيد الدين فرصة طيبة أمام الجيوش الخوارزمية لفرض سيطرتها التامة على همذان والرى وسائر المدن المجاورة (٢٣٦).

ويبدو أن مسلسل الحركات الطامعة في غزو مدينة الرى لم يتوقف ، فكانوا يتحينون الفرص للسيطرة عليها، فقد استغلت جماعة من المماليك التى يطلق عليها الفهلوانية ونفر من الأمراء فرصة غياب الملك خوارزم شاه عن مدينة الرى فوثبوا على السلطة بالرى، ونصبوا عليهم شخصًا يدعى (كوجة) ؛ وهو من أعيان المماليك الفهلوانية ليكون أميرا عليهم ، ثم توجهوا إلى مدينة إصفهان لإخراج الخوارزمية عنها واحتلالها ، إلا أنهم فوجئوا بجيش الخليفة الناصر لدين الله يقوده سيف الدين طغرل قادما لمحاربة الخوارزمية ، فتريث المماليك ينتظرون ما يحدث بين الخوارزمية وجيش الخليفة، وقد فوجئوا بخروج الخوارزمية وتركهم لمدينة إصفهان ، وقد كان المماليك يمتلكون قوة عسكرية كبيرة لها وزنها، فوجد زعيم المماليك (كوجة) أن الفرصة مواتية ليتفاوض مع الخليفة العباسي، وقد تم الاتفاق على أن يحكم (كوجة) مدينة الرى وساوة(٢٣٧) وقم وقاشان وما والاها ، وتكون إصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة، فوافق الخليفة على هذا الشرط ، وقد بعث الخليفة بالهدايا والخلع توكيدا على حسن العلاقة، كذلك اهتم الأمير (كوجة) بالناحية العسكرية ، لذلك أنشأ قوة كبيرة ليحافظ بها على حدود مدينة الرى وباقى المدن، ولتكون رادعا لأعدائه الطامعين(٢٣٨).

ولم يكن السلطان خوارزم شاه غافلا أو متهاونا إزاء ما قام به الأمير (كوجة) من تحصينات وأعمال عسكرية استفزازية ، ولكنه كان ينتظر الوقت المناسب، ففى سنة (٥٩٤هـ / ١١٩٧م) قام بغزو مدينة همذان واحتلها ثم أتبعها باحتلال مدينة الرى وأعمالها ، وبعث للخليفة العباسى خطابا شديد اللهجة مشفوعا بالتهديد والوعيد، وكان يطلب من الخليفة أن يعترف بسلطانه على المناطق التى احتلها والخطبة له في بغداد، فلم يستجب له الخليفة ، بل راح يعمل على كسر شوكته وإضعافه ، فاتصل بغياث الدين ملك الغور وغزنة يحرضه على خوارزم شاه، وقد فطن خوارزم شاه لخطط الخليفة، فراح يتصل بالأتراك الخطا يحرضهم ويؤلبهم على غياث الدين، وقد نجح فى ذلك وفوت الفرصة على الخليفة وأحبط مخططه (٢٣٩)، وفى ذات الوقت أحكم قبضته على مدينة الرى وهمذان، وأقر على مدينة الرى شخصًا يدعى (مياجق) ، ونتيجة للظرف السياسى المضطرب الذى تمر به الدولة الخوارزمية فقد دفع ذلك (مياجق) إلى التمرد والخروج عن طاعة خوارزم شاه واستقل بحكم الرى فى سنة (٥٩٥هـ / ١١٩٨م) (٢٤٠).

ومن الطبيعي أن يحدث مثل هذا التمرد والانفصال والاستقلال بحكم مدينة الرى عند بعض العمال، ويعود ذلك نتيجة لأسباب سياسية وجغرافية، وفيما يتصل بالجانب السياسى فإن المدن الخاضعة للنفوذ الخوارزمى لم تكن مستقرة، وولاؤها للدولة الخوارزمية ضعيف ، لذلك فإن السلطان خوارزم شاه منهمك ومشغول للعمل على تأكيد نفوذه على هذه المدن ، هذا الوضع السياسى المتأزم وغير المستقر قد أفسح المجال أمام المسئولين فى مدينة الرى إلى التمرد والثورة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهناك العامل الجغرافى المتمثل فى بعد المسافة بين خراسان ومدينة الرى .

ومع ما كان يمر به السلطان خوارزم شاه من صعاب إلا أنه استطاع أن يعيد سلطانه على مدينة الرى، ولم يتمكن (مياجق) من الإفلات من يد خوارزم شاه وقرر قتله لولا وساطة (أفجة) ؛ أخو (مياجق) وكان من المقربين من السلطان خوارزم شاه(٢٤١).

أمام هذه الأوضاع فإن الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وهو الضعيف سياسيا وعسكريا، اضطر إلى الإذعان وقبول الشروط التى أملاها عليه خوارزم شاه، إضافة إلى الهدايا والخلع التى بعثها إلى خوارزم شاه وإلى ابنه قطب الدين محمد، وقد توفى خوارزم شاه فى سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) وتولى السلطة بعده قطب الدين محمد الذى لقب نفسه بعلاء الدين(٢٤٢).

مدينة الرى والغزو المغولى:

عندما تعرض العالم الإسلامى إلى هجمات المغول التتار المدمرة فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، لم تكن مدينة الرى فى منأى عن هذا الدمار شأنها فى ذلك شأن باقى المدن الإسلامية، ففى سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) تعرضت مدينة الرى إلى هجوم بربرى عنيف قام به التتار، ونتج عن ذلك قتل العديد من الرجال والأطفال وسبى النساء واسترقاق الأطفال، هذا فضلا عن اعتدائهم على معالم الحضارة فى مدينة الرى فجعلوها خرابا، ومن ثم عينوا عليها حاكما من قبلهم وانتقلوا إلى مدينة همذان(٢٤٣).

ولكن فى سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) قام غياث الدين؛ وهو أحد أبناء خوارزم شاه، وكان يتولى إصفهان وكرمان، بهجوم مضاد ضد التتر استطاع أن يخلص مدينة الرى من أيديهم، وكان غياث الدين بن خوارزم يعتمد كثيرا على خاله (إيغان طائيسى) فى تدبير شئون مملكته،

فكان لايصدر أمرا إلا بعد مشورته، فهو المستشار الأول، فلما وجد الخال (إيغان طائيسى) أن جميع أمور الإدارة فى يده شجعه ذلك على الاستئثار بالسلطة ، وكان للحاشية دور فعال فى تنفيذ هذه المؤامرة، يضاف إلى ذلك ما قام به الخليفة العباسى الناصر لدين الله من دور مؤيد (لإيغان طائيسى) ، فقد اتفق معه سرا بأن يقطعه هذه البلاد بما فيها مدينة الرى، ولما علم غياث الدين بخيانه الخال أراد الانتقام منه فجمع الأتباع والمؤيدين وألحق الهزيمة بخاله، فهرب الخال إلى أذربيجان وأخذ غياث الدين بعد ذلك يتحصن فاهتم بالناحية العسكرية فأصبح نفوذه قويا على مدينة الرى وعلى سائر المدن التابعة لملكته(٢٤٤).

ولكن خطر التتار لم يتوقف وقوتهم لم تضعف فقد قاموا فى مطلع سنة (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) بشن هجوم مباغت على مدينة الرى اتسم بالعنف ، فأسفر عن خسائر كبيرة فى الأرواح والممتلكات ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى المدن المجاورة ، وساعة الهجوم لم يكن غياث الدين موجودا فى المدينة، فقد كان خارج البلاد منذ سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) متجها نحو خراسان بقصد غزوها وتم له احتلالها ، ومنها توجه إلى مدينة شيراز واحتلها واتخذها مقرا لحكمه خاصة بعد ما علم بتدمير مدينة الرى، ومدينة شيراز تقع فى الجنوب الشرقى لإيران وهى ذات موقع تجارى هام(٢٤٥).

وقد عاود التتار هجماتهم على مدينة الرى فى سنة (٦٢٥هـ / ١٢٢٧م)، فتصدى لهم جلال الدين ؛ أخو غياث الدين واشتد القتال بينهما وطالت مدته، إلا أنه انتهى بجلائهم عن الرى(٢٤٦)، ثم عاودوا هجومهم من جديد على المدينة فى سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) وعلى مدينة همذان ، وقد ساعدتهم فى هذه المرة جماعات من أهل الرى من الباطنية الإسماعيلية المعادين للحكم الخوارزمى فى الرى، ودلوهم على مواطن الضعف التى يعانى منها جلال الدين، وأسفرت هجماتهم عن تدمير المدينة مرة أخرى ونهبها ، وهكذا ظلت مدينة الرى تعانى من الضعف السياسى وعدم الاستقرار نتيجة لهجمات التتار المتكررة ونتيجة للاضطرابات فى الداخل من جهة أخرى (٢٤٧).

خاتمة البحث

هذه الجولة البحثية التى كانت بدايتها من العصر العباسى الثانى وحتى سقوط بغداد؛ أى من حوالى سنة (٢٣٢- ٦٥٦هـ / ٨٤٦-١٢٥٨م) كانت فترة مزدحمة بالأحداث السياسية من تاريخ الرى، وهذا دليل على أهمية هذه المدينة ذات الموقع الجغرافى المميز ذى الأبعاد الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية.

هذه الأحداث السياسية التى مرت بها مدينة الرى، كانت عبارة عن سلسلة متصلة متشابهة من الصراعات العسكرية القتالية بين هذه القوى من أجل السيطرة على مدينة الرى. هذا المناخ السياسى المتأزم المضطرب وغير المتوازن ، جعل مدينة الرى فى حالة من عدم الاستقرار ، وهذا الوضع لم يفسح لأى من هذه القوى المسيطرة على مدينة الرى المجال للعمل من أجل النهضة الحضارية فى هذه المدينة.

وبحكم موقع مدينة الرى الجغرافى فإنها قد تأثرت بهذه الأحداث وتفاعلت معها، فأثرت وتأثرت بها، فقد تأثروا بأفكار ومعتقدات من غزاهم من هذه القوى، لذلك فقد تعددت بها المذاهب والمعتقدات ، فهناك أهل السنة على اختلاف مذاهبهم والشيعة والمعتزلة والباطنية ، هذه المذاهب كانت عرضة للاضطهاد والتنكيل من قبل القوى المتعاقبة المسيطرة على مدينة الرى ، فبعض هذه القوى كانت تلجأ إلى اضطهاد من يخالفها فى العقيدة والمذهب وتنكل بهم، وهكذا استمر الوضع إبان فترة الاضطراب وعدم الاستقرار السياسى بمدينة الرى.

ومع ما كانت تمر به مدينة الرى من اضطراب وعدم استقرار إلا أنها أنجبت مجموعة من العلماء ورجال الدين البارزين فى عالمنا الإسلامى، فكثيرا ما نقرأ ونسمع بلفظة (الرازى) نسبة إلى مدينة الرى.

وباعتقادى أنه لو لم تتعرض مدينة الرى لمثل هذا الدمار العسكرى والاضطراب السياسى المستمر طوال العصر العباسى الثانى وحتى سقوط بغداد على يد المغول ، لظلت مدينة الرى محتفظة بدورها الحضارى الريادى إلى يومنا هذا، ولأصبحت هى العاصمة لدولة إيران الحديثة.

الهوامش

١- ابن الأثير (أبو الحسن بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) : الكامل فى التاريخ. دار الفكر، بيروت ١٣٩٨م هـ / ١٩٧٨م ج٥ ص٢٧٠-٢٧١ ، وانظر ابن خلدون (عبد الرحمن) : تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة، بيروت، ١٩٦٧م، مجلد ٣ ص٥٧٤ .

٢- اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب) : تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٤٨٠، وانظر ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٧١ .

٣- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٨٤ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٥٨٢، وانظر ابن العبري (غريغوريوس أبي الفتح هارون المالطي): تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠م، ص٢٧٤ .

٤- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٣٠١ .

٥- ابن الأثير : الكامل ج٥ ، ص٢٩٦ .

٦- هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. انظر الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، دار القاموس الحديث، سوريا (بدون تاريخ) ، ج١١ ص٩٢ - ٩٣ .

٧- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١١ ص٩٢-٩٣ وانظر ابن الأثير: الكامل ج٥ ص٣١٦ .

٨- الطبري : ج١١ ص٩١-٩٢ ، وانظر ابن الأثير: ج٥ ص٣١٦ .

٩- ابن الأثير : ج٥ ص٣١٦ .

١٠- الطبري: ج١١ ص٩٢ ، وانظر ابن الأثير : ج٥ ص٣١٦ .

١١- الطبري : ج١١ ص٩٢ ، وانظر ابن الأثير ج٥ ص٣١٦ .

١٢- الطبري: ج١١ ص٩٣ وانظر المقدسي (أبو زيد أحمد بن سهل المطهر بن طاهر) : البدء والتاريخ ، باعتناء كلمان هوار، باريس ١٩١٩، ج٦، ص١٢٤ ، وانظر ابن الأثير: ج٥ ص٣١٧ .

١٣- الطبري ج ١١ ص٩٣ وانظر المطهر المقدسي، ج٦ ص١٢٤ ، وابن الأثير ج٥ ص٣١٧ .

١٤- ابن الأثير : ج٥ ص٣١٧ .

١٥- لم نتمكن من معرفة باقي اسمه، غير أن الطبري يذكر أنه من أهل مدينة (اللارز) الطبري: ج١١ ص٩٣ ؛ و (اللارز) قرية من أعمال آمل بطبرستان ، ياقوت (أبوعبدالله بن عبدالله) : معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٣م) مجلده ص٧ ، بينما يكتفي ابن الأثير بذكر إسم (واجن) فقط دون تعليق ، ابن الأثير: ج٥ ص٣١٧ .

١٦- الطبرى ج١١ ص٩٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٥ ص٣١٧ .

١٧- الطبرى : ج١١ ص٩٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٥ ص٣١٧ .

١٨- على مرسى (د. نعمة) : دولة آل زيان فى طبرستان وجرجان وما جاورها، دار الهداية (بدون تاريخ) ص١٠ .

١٩- الطبرى : ج١١ ص٩٣ .

٢٠- ابن الأثير : ج٥ ص٣٢٩ .

٢١- المسعودى: مروج الذهب ، ج٤ ص٦٩ .

٢٢- المسعودى :ج٤ ص٩٦ .

٢٣- ابن الأثير : ج٥ ص٣٤٥ .

٢٤- المسعودى: ج٤ ص١٠٨ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٦٣٧ .

٢٥- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧١٤ .

٢٦- ابن لأثير: ج٥ ص٣٦٠-٣٦٤ .

٢٧- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ) : البداية والنهاية، باعتناء د. أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ، مجلد ٦ ص٢٧ .

٢٨- ابن الأثير : ج٥ ص٣٦٠-٣٦٤ وانظر ابن خلدون: مجلد ٣ ص٧١٤ .

٢٩- ابن الأثير : ج٥ ص٣٦٧ .

٣٠- ابن الأثير : ج٥ ص٣٧١ .

٣١- ابن الأثير: : ج ٦ ص٢ .

٣٢- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧١٦ .

٣٣- ابن الأثير : ج٦ ص١٣ .

٣٤- ابن الأثير : ج٦ ص٢٤ ، وانظر ابن خلدون: مجلد٣ ص٧١٨ ، وانظر ابن كثير: البداية مجلد ٦ ج١١ ص٤٢ .

٣٥- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٦٩٨ .

٣٦- ابن كثير : مجلد ٦ ج١١ ص٥٤ .

٣٧- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٠ .

٣٨- المسعودى : مروج الذهب، ج٤ ص١٥٤ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٠ .

٣٩- المسعودى : ج٤ ص١٥٧ .

٤٠- المسعودى : ج٤ ص١٥٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٧٨ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٢ .

٤١- ابن كثير : البداية : مجلد ٦ ج١١ ص٧٥ .

٤٢- ابن الأثير: ج٦ ص٨٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٤ .

٤٣- ابن الأثير : ج٦ ص٨٨ .

٤٤- ابن الأثير : ج٦ ص١٠٤-١٠٧ وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٤٥-٧٤٦ .

٤٥- ابن مسكويه (أبو على أحمد بن محمد) : تجارب الأمم، باعتناء > آمدروز، مصر ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، ج١ ص٣٢ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٤٤ ، وانظر ابن خلدون: مجلد٣ ص٧٧٠ .

٤٦- ابن الأثير : ج٦ ص١٥٥ .

٤٧- ابن مسكويه : ج١ ص٤٥-٤٦ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص١٥٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٤ ؛ ٧٧٥ .

٤٨- ابن الأثير: ج٦ ص١٥٥ .

٤٩- ابن مسكويه : ج١ ص٤٦-٤٧ .

٥٠- ابن الأثير: : ج٦ ص١٦ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٧ .

٥١- ابن مسكويه : ج١ ص٥٦ .

٥٢- ابن الأثير: ج٦ ص١٥٦ وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٦ .

٥٣- ابن الأثير: ج٦ ص١٦٦ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٦ .

٥٤- ابن مسكويه : ج١ ص٨٢-٨٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص١٧١ .

٥٥- ابن مسكويه: ج١ ص١١٩، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٧٥ ، وانظر ابن خلدون ، مجلد ٣ ص٨١٤ .

٥٦- ابن مسكويه : ج١ ص١١٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٧٥ .

٥٧- ابن الأثير: ج٦ ص١٨٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٨٠ .

٥٨- ابن الأثير: ج٦ ص١٨٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٨٠-٧٨١ .

٥٩- التنوخى (القاضى أبو على الحسن بن على) : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجى المحامى ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ج١ ص٣٢٤ .

٦٠- المسعودى: مروج ، ج٤ ص٢٧٩ .

٦١- التنوخى : نشوار، ج١ ص٣٢٤ .

٦٢- ابن الأثير: ج٦ ص١٩٥ .

٦٣- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦١ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص١٩٦ .

٦٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦١ ، وانظر التنوخي : نشوار : ج١ ص٣٢٤ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٩٨ ، وانظر ابن كثير : البداية : مجلد٦ ج١١ ص١١٦ .

٦٥- ابن الأثير: ج٦ ص٢١٤ .

٦٦- ابن الأثير: ج٦ ص٢٣٠-٢٣٢ .

٦٧- الأهواز أصلها أحواز، فقلبتها الفرس إلى أهواز لأنه ليس في كلام الفرس حاء . وهى بلدة كبيرة تقع بين البصرة وفارس، تضم مجموعة من المدن، مثل سوق الأهواز ورام هرمز إيذج وعسكر مكرم وتستر وغيرها . انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ١ ص٢٨٤ .

٦٨- بنو بويه : اسم لأسرة كانت تسكن بلاد الديلم من بلاد فارس، وكان ألمع رجالها ثلاثة : وهم : عماد الدولة أبو الحسن على وركن الدولة أبو على الحسن ومعز الدولة أبو الحسين أحمد وهم أولاد أبى شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام . وقد اختلف المؤرخون حول المكانة الاجتماعية لهذه الأسرة ، فبعضهم من ينسبهم إلى ملوك ساسان، والبعض الآخر يقول : أنهم من دهماء الناس. انظر ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبى بكر) : وفيات الأعيان . تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت (بدون تاريخ) ، المجلد ١ ص٤٠٥ ، وانظر محمود (د. حسن أحمد وأحمد الشريف) : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، دار الفكر العربى ١٩٧٧، ص٤٩٠ .

٦٩- ابن الأثير : ج٦ ، ص٢٢٩-٢٣٨ .

٧٠- ابن مسكويه : ج١ ص٢٦٥ .

٧١- ابن الأثير : ج٦ ص٢٣٦ .

٧٢- ابن مسكويه : ج١ ص١٦٢ .

٧٣- ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) تاريخ الدولة الإسلامية ، دار صادر، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م ص٢٨٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٨٥٤ .

٧٤- ابن الأثير : ج٦ ص٢٦٧ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٨٥٤ .

٧٥- ابن مسكويه : ج١ ص٤١١ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٧٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٨٥٤ .

٧٦- ابن مسكويه : ج١ ص٤١١ ، وانظر ابن الأثير :ج٦ ص٢٧٢ .

٧٧- ابن مسكويه : ج٢ ص٤-٥ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٧٣ .

٧٨- ابن الأثير: ج٦ ص٢٧٨ .

٧٩- ابن مسكويه : ج٢ ص٦ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٢٧٨ .

٨٠- ابن مسكويه : ج٢ ص٦ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٧٨ .

٨١- ابن مسكويه : ج٢ ص٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٨٨ .

٨٢- ابن مسكويه : ج٢ ص٨وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣١١ .

٨٣- ابن الأثير: ج٦ ص٣١١ .

٨٤- ابن الأثير: ج٦ ص٣١٢ .

٨٥- ابن الأثير: : ج٦ ص٣١٢ .

٨٦- ابن مسكويه : ج٢ ص١٠٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣١٩ .

٨٧- ابن الأثير : ج٦ ص٣٢٠ .

٨٨- ابن مسكويه : ج٢ ص١٠٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٢٤ .

٨٩- ابن الأثير : ج ٦ ص٣٢٦ .

٩٠- ابن الأثير: ج٦ ص٣٢٨ .

٩١- ابن مسكويه : ج٢ ص١١٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٢٩ .

٩٢- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٢ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٣٠ .

٩٣- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٢ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٣٠ .

٩٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٢ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٠ .

٩٥- شيراز : تقع في الجنوب الشرقي من إيران ، في إقليم بلاد فارس وهي من أكبر مدنه، فهي قصبة هذه البلاد. ياقوت : معجم البلدان مجلد٣ ص٣٨٠ .

٩٦- ابن الأثير: : ج٦ ص٣٣٢ .

٩٧- العمري(محمد بن علي بن محمد) : الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق د. قاسم السامرائي ، المعهد الهولندي للآثار، القاهرة ١٩٧٣م، ص١٧٧ .

٩٨- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٨-١٣٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٥ .

٩٩- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٨-١٣٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٥-٣٣٦ .

١٠٠- ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٨ .

١٠١- نسا : مدينة تابعة لولاية خراسان، وذكروا أن المسلمين الفاتحين هم الذين أطلقوا عليها اسم

(نساء) لأنهم لما فتحوها لم يجدوا بها رجالا انظر صفى الدين البغدادى (عبد المؤمن بن عبد الحق) : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م ج٣ ص١٣٦٩ .

١٠٢- ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٨ .

١٠٣- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٢ .

١٠٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٥٤ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٤ .

١٠٥- ابن مسكويه : ج٢ ص١٥٥ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٤٤ .

١٠٦- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٥ .

١٠٧- ابن مسكويه : ص١٥٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٤٦ .

١٠٨- ابن مسكويه : ج٢ ص١٥٧ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ، ص٣٤٧ .

١٠٩- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٨ .

١١٠- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦١ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٤٨ .

١١١- ابن الأثير: ج٦ ص٣٥٣ .

١١٢- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٧ .

١١٣- ابن الطقطقى : تاريخ الدولة الإسلامية، ص٢٨٠ .

١١٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٥٦ .

١١٥- ابن الأثير: ج٦ ص٣٥٩ .

١١٦- ابن الأثير: ج٧ ص٣ .

١١٧- ابن الأثير : ج٧ ص١٨ .

١١٨- العمرى : الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص٨٩ .

١١٩- ابن مسكويه : ج٢ ص٢٢٢-٢٢٣، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص١٨ .

١٢٠- ابن مسكويه : ج٢ ص٢٣٢-٢٣٣ وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٢٣ .

١٢١- ابن الأثير: ج٧ ص٢٣ .

١٢٢- ابن مسكويه : ج٢ ص٢٧٠-٢٧١ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٣٧-٣٨ .

١٢٣- ابن الأثير: ج٧ ص٦٠-٦١ .

١٢٤- ابن الأثير: ج٧ ص٨٠ وانظر الحافظ الذهبى : العبر فى أخبار من غبر، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٤م، ج٢ ص٣٤١ .

١٢٥- ابن الأثير: ج٧ ص٨١ ، وانظر ابن كثير : البداية ج١١ ، ص٣٠١ .

١٢٦- ابن مسكويه : ج٢ ص٣٦٥ وما بعدها، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص٨٢-٩٠ .

١٢٧- ابن الأثير: ج٧ ص١٠١ .

١٢٨- ابن الأثير : ج٧ ص١٠٣ .

١٢٩- سهرورد : مدينة تابعة لمدينة زنجان فى منطقة الجبال، وهى من أعمال مدينة الرى، وكانت من مراكز الثقافة والعلم، فقد أنجبت الكثير من العلماء كانوا يترددون على بغداد. أنظر ياقوت الحموى، معجم البلدان مجلد ٣ ص٢٨٩ .

١٣٠- القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) : التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، ج٣ ص١١٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٩٤ .

١٣١- الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق) : تاريخ الفارقى ، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض، المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ص٧٠ .

١٣٢- ابن الأثير: ج٧ ص١٠٨ .

١٣٣- ابن الأثير: ج٧ ص١٠٨ .

١٣٤- أبو شجاع : (محمد بن الحسين الروذراورى) : ذيل تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بمصر ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، ج٣ ص٣٩ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص١١٣ .

١٣٥- ابن الأثير: ج٧ ص١١٧-١١٨ .

١٣٦- ابن الأثير: ج٧ ص١٢٧-١٣٠ .

١٣٧- ابن الأثير: ج٧ ص١٣٤ .

١٣٨- ابن الأثير: ج٧ ص١٣٤ .

١٣٩- ابن الأثير ، ج٧ ص١٣٦ .

١٤٠- ابن الأثير: ج٧ ص١٣٩-١٤٠ .

١٤١- العمراني : ص٨٤ .

١٤٢- الفارقى : ص٧٠ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص١٦٩ .

١٤٣- أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ج٣ ص٢٦١ .

١٤٤- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦١ .

١٤٥- ابن الأثير: ج٧ ص١٧٠ .

١٤٦- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦٢ .

١٤٧- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦٣ .

١٤٨- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦٤ .

١٤٩- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩١ .

١٥٠- العمرانى : ص٨٤ .

١٥١- ابن الأثير : ج٧ ص١٨٦ .

١٥٢- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص١٩١-١٩٣ .

١٥٣- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٤- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٥- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٦- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٧- براون (إدوارد روجر أنفيل) : تاريخ الأدب فى إيران، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م، ص١٩٨ .

١٥٨- نعمة : دولة آل زيان فى طبرستان ص٧٤ .

١٥٩- براون : ص١٩٨ .

١٦٠- أبوشجاع: ج٣ ص٣١١، وانظر ابن الأثير: ج٧ هامش ص١٩٠ ، وانظر ابن كثير: ج١١ ص٣٤٦ .

١٦١- أبوشجاع : ج٣ ص٤٤٩ .

١٦٢- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٠ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص٢٤٠ .

١٦٣- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٠ .

١٦٤- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٢، وانظر لابن الأثير : ج٧ ص٢٤٠ .

١٦٥- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٢ .

١٦٦- ابن الأثير : ج٧ ص٢٣٩ .

١٦٧- ابن الأثير: ج٧ ص٢٤٠ .

١٦٨- ابن الأثير: ج٧ ص٢٧٤ .

١٦٩- ابن الأثير: ج٧ ص٣٢٥ .

١٧٠- ابن الأثير : ج٧ ص٣٢٥-٣٣٦ .

١٧١- ابن الأثير: ج٧ ص٣٣٦ ، وانظر البروفيسور رينولد ، أ. نكلسن : تاريخ الأدب العباسي، ترجمة د. صفاء خلوصي ، منشورات المكتبة الأهلية ، بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص٣٨ .

١٧٢- ابن الأثير: ج٧ ص٣٣٥-٣٣٦ .

١٧٣- سرجهان : قلعة تشرف على جبال الديلم، وتحدها من المدن قزوين وزنجان، وهي قلعة وربما اتسعت رقعتها حتى أصبحت مدينة. أنظر ياقوت الحموي : مجلد ٣ ص٢٠٧ .

١٧٤- ابن الأثير : ج٧ ص٣٣٦ .

١٧٥- ابن الأثير : ج٧ ص٣٣٨-٣٣٩ .

١٧٦- أبو الفضل البيهقي (محمد بن حسين) : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية (لايوجد تاريخ للطبع) ، ص٦٨ ، وأنظر ابن الأثير: ج٧ ص٣٣٨-٣٣٩ .

١٧٧- ألو الفضل البيهقي: ص١٦-١٧ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٣٤٥ .

١٧٨- ابن الأثير : ج٧ ص٣٤٧ .

١٧٩- أبو الفضل البيهقي : ص١٨ .

١٨٠- أبو الفضل البيهقي: ص١٩ .

١٨١- أبو الفضل البيهقي : ص١٨ .

١٨٢- ابن الأثير: ج٧ ص٣٤٧ .

١٨٣- أبو الفضل البيهقي : ص١٧ .

١٨٤- أبو الفضل البيهقي : ص٢٤ .

١٨٥- أبو الفضل البيهقي : ص١٦ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص٣٤٧ .

١٨٦- أبو الفضل البيهقي : ص٤١٠ .

١٨٧- أبو الفضل البيهقي: ص٤١٠ .

١٨٨- قصران : موضعان حصينان في جبال الري، يأوي إليهما الفارون من السلطة ، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد٤ ص٣٥٣ .

١٨٩- ابن الأثير : ج٧ ص٣٤٨-٣٤٩ .

١٩٠- ابن الأثير: ج٧ ص٣٥٤-٣٥٥ .

١٩١- ابن الأثير: ج٧ ص٣٥٦ .

١٩٢- ابن الأثير: ج٨ ص٢-٣ .

١٩٣- ابن الأثير: ج٨ ص٤ .

١٩٤- أبو الفضل البيهقي : ص٤١١ .

١٩٥- أبو الفضل : البيهقي : ص٤١٢ .

١٩٦- أبو الفضل البيهقي : ص٤١٥-٤١٦ .

١٩٧- ابن الأثير: ج٨ ص٤ .

١٩٨- إيدج: بلدة تقع بين خوزستان وإصفهان ، ومناخها شديد البرودة وأكثر إنتاجها من الفواكه . أنظر ياقوت الحموى : معجم البلدان مجلد١ ص٢٨٨ .

١٩٩- ابن الأثير : ج٨ ص٦ .

٢٠٠- الطرم : قلعة حصينة من بلاد فارس؛ وكان الجغرافيون يطلقون على الأجزاء الجنوبية الشرقية من إيران اسم بلاد فارس، أنظر ياقوت الحموى: معجم البلدان مجلد ٤ ص٣٢ .

٢٠١- ابن الأثير: ج٨ ص١٠ .

٢٠٢- ابن الأثير: ج٨ ص٢٦- ٢٧ .

٢٠٣- ابن الأثير: ج٨ ص٣٠ .

٢٠٤- الفارقي: ص١٥٥ ، وانظر العمراني : ص١٨٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٨ ص٣٤-٣٥ ، وانظر ابن كثير: ج١٢ ص٥٤ .

٢٠٥- ابن كثير : ج١٢ ص٥٤ .

٢٠٦- الحافظ الذهبي: العبر ، ج٣ ص١٨٤ .

٢٠٧- ابن الأثير: ج٨ ص٣٤ .

٢٠٨- ابن الأثير: ج٨ ص٤٦ .

٢٠٩- ابن الأثير: ج٨ ص٥٤ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٦٦ ، وانظر الحافظ الذهبي: ج٣ ص٢٠٣ .

٢١٠- ابن الأثير: ج٨ ص٨٧ ، وانظر الحافظ الذهبي : ج٣ ص٢٢٦ ، وانظر براون (إدوارد): تاريخ الأدب في إيران ص٢١٣ .

٢١١- ابن الأثير: ج٨ ص٩٤ ، وانظر بن العبري (غريغوريوس أبي الفرج بن هارون الملطي) ، تاريخ مختصر الدول المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٠م، ص٣٢١ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٩٥ .

٢١٢- ابن الأثير: ج٨ ص٩٨، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٩٧ ، وانظر الحافظ الذهبي : ج٣ ص٢٣٨-٢٣٩ .

٢١٣- ابن الأثير: ج٨ ص٩٩ - ١١٢ - ١١٣ .

٢١٤- ابن الأثير: ج٨ ص١١٤ .

٢١٥- ابن الأثير: ج٨ ص١٦٣-١٧٠ ، وانظر ابن كثير: ج١٢ ص١٦٧ ، وانظر القلقشندى (أحمد بن عبدالله) : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٥م، ج٢ ص١٢-١٣ وانظر براون : تاريخ الأدب فى إيران ص٢٧٥ .

٢١٦- ابن الأثير: ج٨ ص٢١٤-٢١٥ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص١٧٥ .

٢١٧- آران : عبارة عن إقليم فى إيران ويضم مجموعة من المدن، انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، مجلد ١-٤ ص١٣٦-٤٨٢ .

٢١٨- ابن الأثير: ج٨ ص٢١٦-٢١٧ .

٢١٩- الفارقى : ص٢٨٦ .

٢٢٠- القلقشندى : ج٢ ص٢٥ .

٢٢١- ابن الأثير: ج٩ ص٢ .

٢٢٢- ابن الأثير: ج٩ ص١٠ .

٢٢٣- ابن الأثير: ج٩ ص١٥ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٢٣٧ .

٢٢٤- ابن الأثير : ج٩ ص٤١ .

٢٢٥- وهو نفس الاسم لإقليم آران الذى مر ذكره .

٢٢٦- ابن الأثير : ج٩ ص٣٧-٤٧ .

٢٢٧- ابن الأثير: ج٩ ص١٠٤ .

٢٢٨- ابن الأثير: ج٩ ص١١٩ .

٢٢٩- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٠-٢٣١ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٠-١١ ، وانظر القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ج٢ ص٥٨ .

٢٣٠- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٠-٢٣١ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٠-١١ ، وانظر القلقشندى : الأناقة ج٢ ص٥٨ .

٢٣١- كرمان شاه : من ولايات إيران الكبيرة ، وتضم مجموعة من المدن والقرى ، تحدها من الشمال خراسان ومن الجنوب الشرقى بحر فارس ومكران ، انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان مجلد ٤ ص٤٥٤ .

٢٣٢- بسطام : مدينة والبعض يقول أنها قرية تتبع ولاية قومس وهى على الطريق إلى نيسابور . أنظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، مجلد ١ ص٤٢١ .

٢٣٣- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٢ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٢ ، وأنظر الحافظ الذهبى : ج٤ ص٢٧٩-٢٨٠ .

٢٣٤- ابن الأثير : ج٩ ص٢٣٢ .

٢٣٥- أوه : قرية تقع بين زنجان وهمذان : انظر ياقوت الحموى : مجلد ١ ص٢٨٣ .

٢٣٦- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٤ .

٢٣٧- ساوه : كانت مدينة جميلة تقع فى وسط الطريق بين الرى وهمذان، حيث أنها تبعد عن كل من المدينتين ٩٠ ميلا ، انظر ياقوت الحموى: مجلد ٣ ص١٧٩ .

٢٣٨- ابن الأثير: ج٩ ص٢٤١ .

٢٣٩- ابن الأثير: : ج٩ ص٢٤١ .

٢٤٠- ابن الأثير: ج٩ ص٢٤٨ .

٢٤١- ابن الأثير: ج٩ ص٢٤٨-٢٥٠ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص٢٥ .

٢٤٢- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٥-٢٤٥ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص٩٤ .

٢٤٣- ابن الأثير: ج٩ ص٢٥١ .

٢٤٤- ابن الأثير: ج٩ ص٢٥٢-٢٥٣ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١١٢ .

٢٤٥- ابن الأثير: ج٩ ص٢٧٦ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٢٦-١٣٢ .

٢٤٦- ابن الأثير: ج٩ ص٢٨٣ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٣٧ .

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

ابن الأثير: (أبو الحسن بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) :

الكامل فى التاريخ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

براون (إدوارد روجر أنفيل) :

تاريخ الأدب فى إيران، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

التنوخى (القاضى أبى على الحسين بن على) :

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجى المحامى ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

الحافظ الذهبى:

العبر فى أخبار من غبر ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م.

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة ، بيروت ١٩٦٧م.

ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبى بكر) :

وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ) .

البروفيسور رينولد . أ. نكلسن :

تاريخ الأدب العباسى، ترجمة د. صفاء خلوصى، منشورات المكتبة الأهلية ، بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م.

أبوشجاع ظهير الدين (محمد بن الحسين الروذراورى) :

ذيل تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بمصر ، ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م.

صفى الدين البغدادى (عبد المؤمن بن عبد الحق) :

مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

الطبرى (محمد بن جرير) :

تاريخ الأمم والملوك ، دار القاموس الحديث ، سوريا (بدون تاريخ) .

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا):
تاريخ الدولة الإسلامية، دار صادر، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
ابن العبرى (غريغوريوس أبى الفتح بن هارون المالطى):
تاري مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠م.
على مرسى (د. نعمة) :
دولة آل زيان فى طبرستان وجرجان وما جاورها، دار الهداية (بدون تاريخ) .
العمرى (محمد بن على بن محمد) :
الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق د. قاسم السامرائى، المعهد الهولندى للآثار ، القاهرة ١٩٧٣م.
الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق):
تاريخ الفارقى ، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض، المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
أبو الفضل البيهقى (محمد بن حسين) :
تاريخ البيهقى، ترجمة د. يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية.
القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) :
التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
القلقشندى (أحمد بن عبدالله) :
مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥م.
ابن كثير (أبو الفداء الحافظ) :
البداية والنهاية، باعتناء د. أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
محمود (د. حسن أحمد ود. أحمد الشريف) :
العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، دار الفكر العربى ١٩٧٧م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) :

مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

المقدسى (أبو زيد أحمد بن سهل المطهر بن طاهر) :

البدء والتاريخ ، باعتناء كلمان هوار، باريس ١٩١٩م.

ابن مسكويه (أبى على أحمد بن محمد) :

تجارب الأمم، باعتناء أمدروز ، مصر ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.

ياقوت الحموى (أبو عبدالله بن عبدالله) :

معجم البلدان، دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٣م.

اليعقوبى (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب):

تاريخ اليعقوبى ، دار بيروت ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م.

د. محمد الصغير غانم (*)

العلاقات الفينيقية المغاربية فى شمال إفريقيا

حتى يتسنى لنا تقييم العلاقات الفينيقية المغاربية من خلال ما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون الإغريق والرومان، وما أسفرت عليه نتائج التنقيبات الأثرية وكذا نصوص النقوش الكتابية لابد أن نركز على علاقة قرطاجة وهى المدينة الهامة التى آلت إليها السيادة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط بعد تأسيسها وتطورها ، ذلك لأن المستوطنات التى سبقتها كانت قد أسست من قبل تجار من بسطاء عامة الشعب كانوا لايفكرون فى الاستقرار فى الحوض الغربى للبحر المتوسط بعد انتهاء مهمتهم التجارية المتمثلة فى جلب المواد المصنعة ومبادلتها عن طريق المقايضة (١). ومقابل ذلك الحصول على المواد الخام، لاسيما معادن الحديد والرصاص والقصدير من شبه جزيرة إيبيريا وكذا المواد الأولية الأخرى التى كانوا يحصلون عليها من المغرب القديم مثل الملح وريش النعام وجلود الحيوانات والعاج. وكانت الوساطة التجارية بين حوضى البحر المتوسط هى مهمتهم الوحيدة (٢).

أما مدينة قرطاجة فقد أسستها أميرة - تدعى عليسا- تنتمى إلى أسرة ملكية بمدينة صور، وقد جاءت بحاشيتها منذ الوهلة الأولى بهدف الاستقرار. ولايستبعد أن يكون المكان الذى أسست فيه مدينة قرطاجة والمتمثل فى خليج شمال تونس قد تعرف عليه الفينيقيون الأوائل وتبينوا مكانته الاستراتيجية فى المنطقة، ولم يكن تأسيسها هناك اعتباطيا كما يعتقد البعض (٣). ومع ذلك ، فإن الباحث يقف عاجزا أمام بداية ونوعية العلاقات الفينيقية المغاربية الباكرة فى غرب المتوسط ، فيما عدا بعض الإشارات التاريخية البسيطة التى يغلب عليها الأسلوب الأسطورى فى كثير من الأحيان(٤).

---

* أستاذ التعليم العالى- قسم التاريخ- جامعة منتورى- الجزائر .

وهكذا يمكن أن تقسم العلاقات القرطاجية – الليبية إلى مرحلتين أساسيتين ، أولهما تبدأ منذ نشأة قرطاجة وتستمر حتى القرن الخامس ق.م ، وثانيهما تمتد من هذا التاريخ وحتى تهديم مدينة قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م.

أولاً : العلاقات التى تمتد منذ البدء وحتى القرن الخامس قبل الميلاد:

لعل أول إشارة إلى تلك العلاقات تكمن فيما ذكره المؤرخ الإغريقى تيمى (Timée) والتى نقلها عنه فيما بعد جوستان (Justin) فى مختصر تروق بومبى (Trogue- Pompée) ويستفاد من هذه الكتابات أو ما عرفت بأسطورة عليسا (Elissa) أن المغاربة القدماء كانوا فى بداية الأمر قد رحبوا بالتجار الفينيقيين الذين وفدوا إلى بلادهم وذلك نظرا لأهدافهم السلمية التى كانت لاتتعدى إنشاء مراكز تجارية تتم فيها المبادلات (٥).

ونظرا لهوية الفينيقيين السلمية، فقد قبلوا دفع ضريبة مالية سنوية للمغاربة القدماء عربونا للصداقة وإعطائهم الأمان وريعا للمكان الذى أسست فيه المدينة (٦). وقد دام ذلك الوفاق أو الاتفاق إن صح هذا التعبير بداية من تأسيس قرطاجة وحتى القرن الخامس ق.م تقريبا وهى الفترة التى تنقلب فيها قرطاجة إلى دولة مهيمنة على الحوض الغربى للبحر المتوسط(٧).

وبتقادم الزمن آلت بعض المراكز الفينيقية إلى مستوطنات ومدن قارة لها حرية السيادة فى نطاق المنظومة العامة القرطاجية. وقد تجمع حولها المغاربة لتسويق بضائعهم المحلية المتمثلة فى جلود الحيوانات وريش النعام والذهب وبعض المعادن الأخرى غير المصنعة. وبالمقابل كانوا يبتاعون من التجار الفينيقيين كل أنواع الزينة والعطور والأوانى المصنعة الزجاجية والمعدنية وكذا الخزفية وكل ذلك كان يتم عن طريق المقايضة (٨). وباستقرار الفينيقيين والمغاربة فى أماكن قارة بدأ التفكير فى استغلال المناطق الصالحة للزراعة والقريبة من أماكن الاستقرار. وهكذا استغلت كامل السهول الموجودة فى رأس بونة شمال تونس وسهول شمال غرب تونس والشرق الجزائرى، ثم سهول المغرب الأقصى الواقعة حول مستوطنة ليكسوس (Lixus) (٩).

أما الجانب الثانى الذى يبرز لنا ذلك الامتزاج فيتمثل فى الجانب الدينى لاسيما فى عبادة كل من المغاربة والقرطاجيين للإلهين بعل حمون وتانيت بنى بعل ، وتعتبر هذه الأخيرة عند بعض المؤرخين إلهة مغربية تقابل الإلهة عشتار السامية فى شرق المتوسط (١٠). كذلك يستدل من وجود رسوم الكبش الذى يحمل على رأسه دائرة تشير إلى قرص الشمس والتى وجدت فى الرسوم الصخرية وكذا رسوم الخراف والثيران التى وجدت فى بعض أنصاب قرطاجة

وسيرتا وحدرومات (سوسة) على مدى استمرار العبادة المغربية القديمة العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ وتعايشها مع العبادة السامية وهى ظاهرة تدل على الامتزاج الدينى بين القرطاجيين والمغاربة القدماء [١١]. ولعل من بين مظاهر الامتزاج الأخرى الفينيقية المغربية نشير إلى مظاهر الدفن ونوعية المقابر والهدايا الجنائزية التى وجدت بالقبور الحجرية كالحوانيت والدولمن التى وجدت معظمها فى مجال التأثير القرطاجى البونى، والعنصر الهام الذى يساعدنا على معرفة ذلك الامتزاج هو وجود الكسر والأوانى الفخارية المغربية- البونية منتشرة فى تلك المواقع الأثرية لاسيما فى كل من جيجل (ايجيلجلى Igilgili) وتيبازة بالجزائر وليكسوس بالمغرب الأقصى[١٢].

وقد استفاد المغاربة من الفينيقيين فى صناعة الخزف، سواء باستعمالُ دولاب الخزاف أو فى تطوير الرسوم الهندسية التى تبدو على الآنية الفخارية . علما وأنه كان يغلب على رسوم الآنية الفخارية المغربية قبل ذلك محاكاة الطبيعة ، ثم تطورت بعد ذلك ، فأصبحت بفضل القادمين الجدد تتخذ خطوطا وأشكالا هندسية وفقا لما كان سائداً فى فخاريات شرقى المتوسط وحتى شكلها ومظهرها قد تحسنا . وبذلك أصبحت الأوانى المغربية الفخارية تضاهى تلك الأجنبية المعاصرة لها والموجودة فى كل من بلاد الإغريق وشرقى المتوسط[١٣].

وعلى ضوء الملاحظات السابقة يتبين لنا بأن العلاقات الفينيقية المغاربية كانت علاقات سلمية اقتصادية دينية استفاد منها المغاربة فى الخروج من عزلتهم التى كانوا يعانونها فى جزيرة المغرب منذ فترة ما قبل التاريخ. كذلك عرف المغاربة بفضل احتكاكهم بالفينيقيين نظام الاستقرار وتأسيس القرى والمدن وزراعة بعض الأشجار مثل الكروم، والتين والرمان وتلقيح أشجار الزيتون البرى التى كانت موجودة ببلادهم.

هذا إلى جانب أخذهم حروف الكتابة البونية التى كانت سببا فى دخولهم إلى الفترة التاريخية وكذا النظام السياسى المتمثل فى نظام السوفيت (Sufféte) أى القضاة الحاكمين[١٤].

وقد استمرت علاقة سياسة المصالح المتبادلة خلال القرون الأولى من تأسيس مدينة قرطاجة ، غير أنه فى بداية القرن السادس قبل الميلاد وأمام الزحف الإغريقى نحو الحوض الغربى للبحر المتوسط ومنافستهم للقرطاجيين ، عملت قرطاجة على تجنيد المرتزقة من أبناء المناطق التى كانت تتعامل معها، ولاغرو فى ذلك أن يكون ضمن الجيش المرتزق أبناء المغاربة الذين كانت بلادهم تمتد على كامل شواطئ البحر المتوسط الجنوبية[١٥].

وقد أخلص المغاربة في بداية الأمر فى تعاملهم مع القرطاجيين ووقوفهم إلى جانبهم فى كل المعارك التى خاضوها ضد الإغريق سواء أكان ذلك فى كورسيكا (معركة ألاليا- Alalia) سنة ٥٣٥ق.م وذلك ضمن الاتحاد الإتروسكي- القرطاجي، وحتى فى صقلية نفسها. كما وقفوا معهم ضد الزحف الإغريقى غرب برقة (Cyréne) بليبيا [١٦].

ولم تبدأ العلاقات القرطاجية المغربية فى التدهور إلا منذ القرن الخامس ق.م وكان لذلك التدهور أسبابه الخاصة التى سنتطرق إليها فى الصفحات الآتية:

ثانيا : العلاقات اللاحقة للقرن الخامس ق.م وحتى سقوط قرطاجة:

عمِلت قرطاجة منذ القرن الخامس ق.م على تغيير سياستها الإفريقية وكان السبب فى ذلك راجعا إلى هزيمتها لأول مرة أمام الإغريق فى معركة هميرا (Himira) سنة ٤٨٠ ق.م . وقد انعكس ذلك التغيير على علاقتها مع المغاربة حيث حاولت بعد تلك الهزيمة أن تعيد النظر فى سياستها الاقتصادية المعتمدة على التجارة عبر سواحل المتوسط وربط حوضه الغربى بالشرقى، غير أن ظهور الإغريق فى كل من صقلية وقرينة بليبيا ومنافستهم لها بحيث أصبحوا يمثلون حاجزا يحول دون اتصال تجارها بشرقى المتوسط [١٧]. وكان على قرطاجة أمام هذه الوضعية الجديدة كما أشرت إلى ذلك آنفا أن تعيد النظر فى كل شئ يتعلق بسياستها فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وأن لاتعتمد على التجارة وحدها ، بل لابد أن تعطى للزراعة مكانتها اللائقة . وهنا بدأ ما عرف فى سياستها بالاتجاه الإفريقى[١٨]. وقد لاح ذلك واضحا فى تجهيزها وإرسالها لرحلة خميلكان (Himilcon) إلى جزر كاسيتريدس وكورنوال فى جنوب بريطانيا شمالا، وكذا رحلة حنون (Honnon) الاستكشافية فى نهاية القرن الخامس إلى أواسط جنوب غرب إفريقيا، بحثا عن مناطق أخرى فى السواحل الإفريقية على المحيط الأطلسى يمكن اللجوء إليها عند الضرورة [١٩].

وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الإغريقى بوليبيوس (Polybius) بأن السيادة القرطاجية قبل الحرب البونية الأولى كانت تمتد على كامل البحر الداخلى وذلك ابتداء من معبد الفلين بخليج السيرت الكبير شرقا حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالى) على المحيط الأطلسى غربا [٢٠].

كذلك لم تقف قرطاجة عند هذا الحد فى علاقاتها مع حلفائها المغاربة ، بل أساءت إليهم بقطع الضريبة السنوية التى كانت تدفعها لهم وذلك منذ نشأتها [٢١]. وأكثر من ذلك أصبحت

قرطاجة تفرض على المغاربة ضرائب جديدة لتمويل الحرب التى أصبحت تخوضها ضد المدن الإغريقية وتجند المرتزقة من أبنائهم لمواجهة الموقف فى صقلية.

غير أن قرطاجة باتباعها لتلك السياسة كانت قد أساءت إلى حلفائها المغاربة وفتحت أعينهم على التمرد والعصيان ضدها وتغيير نظرتهم لها حيث أنهم أصبحوا يعتبرونها شوكة غريبة فى جسمهم ولاتهمها بالدرجة الأولى إلا مصلحة أرستقراطيتها التى امتدت يدها لأراضى المغاربة تقيم لهم المزارع بغية تعويض ما خسروه فى صقلية(٢٢).

وتشير الكتابات التاريخية إلى أنه منذ القرن الخامس ق.م حتى نهاية الحرب البونية الثانية بمعركة زاما (Zama) ٢٠١ق.م . كانت قرطاجة قد عملت على ابتلاع كثير من الأراضى المغاربية ووضعتها تحت يد أرستقراطيتها وكان ذلك على حساب المغاربة القدماء. ولم تكتف قرطاجة بالشريط الساحلى بل تسربت إلى الداخل تقيم المزارع لأرستقراطيتها التى باتت مهددة فى صقلية(٢٣).

بناء على ما سبق أصبح المغاربة ينتهزون فرص الأزمات الصعبة التى تمر بها قرطاجة ليتمردوا عليها، وقد ظهر ذلك واضحا فى عدة مناسبات نذكر منها :

١- تذمر المغاربة مرة أولى وذلك سنة ٣٩٦ ق.م حيث حاولوا التصدى للقرطاجيين محاولين فى ذلك استغلال ضعفهم بعد هزيمة القائد خميلكون (Himilcon) أمام أسوار مدينة سيراكوزة (Syracuse) الإغريقية بجزيرة صقلية وفرار القائد خميلكون صحبة الضباط الذين هم من أصل قرطاجى وترك الجنود المرتزقة تحت ضربات الأعداء ، وحول هذا التذمر يذكر المؤرخ ديودور الصقلى (Diodore de Sicile) الذى نقل لنا أنباء هذا التذمر بأن تعداد المغاربة الذين طوقوا مدينة قرطاجة حينذاك كان حوالى ٢٠ ألف رجل (٢٤). ومن جهته يؤكد المؤرخ الفرنسى ج. كامبس (G. Camps) بأن العدد الذى أورده ديودور قد لايكون مبالغا فيه، ذلك لأن تعداد المغاربة الذين يقطنون مدينة قرطاجة أو بالقرب منها وكذا العبيد الذين هم بداخلها يجعل العدد يفوق ذلك(٢٥).

٢- تذمر المغاربة مرة ثانية وذلك سنة ٣٧٩ق.م كما يذكر ديودور الصقلى الذى هو مصدرنا فى هذا الموضوع وذلك باستغلالهم فرصة الاضطرابات السياسية التى حدثت داخل مدينة قرطاجة من جراء اجتياح مرض الطاعون لها غير أنهم لم يفلحوا فى الاستيلاء عليها(٢٦).

٣- أما التذمر الثالث فقد حدث فيما بين سنة ٣١٠-٣٠٧ ق.م وذلك أثناء غزو القائد الإغريقي أجاتوكليس (Agathoclés) لبلاد المغرب القديم وقد انضم إليه منذ الوهلة الأولى قائد نوميدى يدعى إيلماس (Ailymas) برجاله إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد لأسباب مجهولة[٢٧]. هل يعود ذلك إلى أن بقية القبائل الليبية - النوميدية عارضته فى ذلك ؟ أم أنه أدرك بعد انضمامه إلى القائد الإغريقي، بأن هذا الأخير قد دخل فى مغامرة مع قرطاجة قد لايستطيع تسجيل الانتصار عليها؟.

وما نعرفه هو أن ديودور الصقلى لم يشر إلى الأسباب الحقيقية التى جعلت إيلماس يتراجع عن مناصرة القائد الإغريقي، كما أنه لم يشر إلى هوية شخصية إيلماس نفسها! هل كان أميرا أو رئيس قبيلة ؟

ويذهب ج. كامبس إلى أن إيلماس كان أحد رؤساء قبائل الماسيل وهو من أجداد ماسينيسا [٢٨].

ويصف بوليبيوس إيلماس بأنه ملك ليبى [٢٩]. غير أن الغموض بقى يسود شخصية إيلماس .

وبشأن حملة القائد أجاتوكليس لبلاد المغرب القديم يشير ديودور الصقلى فى مكان آخر من مكتبته التاريخية إلى أن المغاربة انقسموا فيما بينهم بين التأييد والمعارضة ، فبينما أيدت بعض القبائل الليبية القائد الإغريقي المغامر الذى نقل الحرب إلى شمال أفريقيا وقلب الهزيمة فى صقلية إلى نصر فى شمال أفريقيا بحيث غامر فى البحر ونزل شمال شرق قرطاجة ثم حاصرها وأرغمها على التفاوض معه بعد إقدام سكانها على التضحية بحوالى ٤٠٠ طفل من أبنائهم، بغية إرضاء الآلهة التى اعتقد عرافوها وكهنتها بأنها غضبت عليهم. نرى فى الطرف الآخر بعض القبائل المغاربية التى بقيت مترددة ترقب نتائج تلك الأحداث ، ولعل هذا ما جعل إيلماس يعدل عن مناصرة القائد الإغريقي[٣٠].

٤- كذلك استغل المغاربة القدماء محاولة أحد القادة القرطاجيين واسمه حنون (Honnon) للاستيلاء على الحكم فى مدينة قرطاجة مستعينا فى ذلك ببعض الليبيين من سكانها، وقد ناصره فى ذلك ملك المور حسب رواية ديودور الذى لايذكر اسم هذا الملك المورى وحتى المملكة التى كان يحكمها . وقد علق المؤرخ س. جزيل (St. Gsell) على ذلك بقوله بأن قرطاجة كانت تخرج فى كل مرة منتصرة وتوسع أراضيها على حساب السكان المحليين عقابا لهم. ذلك لأنها

أصبحت لاتثق فيهم، كما أن حصانة سورها الذى كان يمتد ما بين سبخة أريانة وبحيرة تونس إضافة إلى مرتفع بيرصة جعلها تكون مدينة محمية تصمد فى وجه كل من يحاول اقتحامها (٣١).

٥- أما التذمر المشهور فى العلاقات البونية المغاربية والذى عرفه بعض المؤرخين بالثورة الاجتماعية لاسيما فى مرحلته الأخيرة فيتمثل فى مشاركة المغاربة القدماء فيما يعرف بتمرد الجنود المرتزقة (Révolte des Mercenaires) ، والذى اندلع فى نهاية الحرب البونية الأولى ٢٤١-٢٣٧ق.م ولاتهمنا هنا أسباب وتفاصيل هذا العصيان والشخصيات التى قادته بقدر ما يهمنا مشاركة القرى والمدن الليبية والنوميدية ، لاسيما بعدما عمدت قرطاجة إلى العقاب الجماعى لكل من له صلة بذلك العصيان سواء أكان من الجنود المرتزقة الذين كان أحد قادتهم ليبى يدعى ماطوس (Mathos) (٣٢)، أو من سكان القرى والمدن المغاربية التى تعاطفت معهم فى بداية الأمر ثم انضموا إليهم فى المرحلة الأخيرة من ذلك التمرد بعد أن استغاثوا بها وبذلك انقلب التمرد إلى ما يشبه الثورة الاجتماعية . وعلى ذلك الأساس عمدت قرطاجة إلى فرض ضرائب مجحفة على السكان الليبيين والنوميديين الذين انضموا إلى المرتزقة وذلك بهدف تسديد الديون التى خرجت معبأة بها تجاه الرومان والمتمثلة فى ضريبة المنتصر على المنهزم وقدرها ٣٢٠٠ تالنت إضافة إلى محاولة جمع أجور المرتزقة الذين كانت تمنيهم أثناء الحرب بأنه بعد انتصارها ستسدد لهم كامل أجورهم وعلف خيولهم ودوابهم .

وحتى تتصدى قرطاجة بكل قوة إلى ثورة الجيش المرتزق فوضت الأمر إلى قادتها العسكريين وعلى رأسهم املكار برقة والد حنبعل . وقد حمل هذا الأخير على فلول المرتزقة بعد أن بلغ تعدادهم حوالى ٧٠ ألف فى حرب عرفت فى تاريخ المغرب القديم بالحرب غير المغتفرة (La guerre inexpiable) فحاصرهم فى عدة مناطق وقضى عليهم، ثم عاقب كامل القرى والمدن التى تعاونت معهم. وعلى ضوء ذلك اجتاح كامل المنطقة الشمالية الواقعة على الحدود التونسية الجزائرية الحالية حتى اقترب من مدينة تبسة ثم سار نحو مدينة سيرتا، وعاد بعد ذلك محملا بالغنائم التى استولى عليها عنوة(٣٣).

وبعد عودته إلى قرطاجة بقليل عاد من جديد فاجتاز بجيوشه بلاد المغرب وعبر أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالى) إلى شبه جزيرة ايبيريا بهدف تجديد قوة الدولة القرطاجية هناك فى إسبانيا بعيدا عن أعين الدولة الرومانية (٣٤). وبعد وفاة املكار قتلا من قبل الأيبيريين

تولى القيادة بعده صهره صدربعل (Hasdrubal) الذى شيد مدينة قرطاجنة (Carthagéne) وبعد قتل هذا الأخير تعلق الجيش القرطاجى بحنبعل وذلك لما يتصف به من جرأة ومعاداة للرومان رغم صغر سنه فقد قبل القيادة وعمره لايتجاوز ٢٦ سنة وبعد إعادة تنظيم جيشه أعلن عن بداية الحرب البونية الثانية ٢١٨ ق.م وذلك بمهاجمته لمدينة صغينتم (Sagonte) الموالية للرومان. وقد تسلق حنبعل فى فصل الشتاء بجيشه سلسلة جبال البيرينى والألب ، ثم دخل إلى إيطاليا من الشمال ورغم محاولة الرومان المستمرة للتصدى له وإعاقته عن الوصول إلى هدفه استطاع أن يؤثر بواسطة اتباعه لأسلوب سياسة فرق تسد أن يضمن كامل شمال إيطاليا إلى جانبه ويفرد روما ثم يشعرها بالخطر الداهم الذى قد يزعزع أسوارها.

وتجدر الإشارة إلى أن المغاربة فى كامل هذه الفترة كانوا يشكلون زهرة الجيش المرتزق القرطاجى(٣٥).

غير أن المصادر هنا تصمت عن نوعية العلاقات التى سادت بين القرطاجيين وأتباعهم من المغاربة بعد إخماد ثورة الجيش المرتزق! هل كان عمل أولئك الجنود فى الجيش القرطاجى ناتجا عن طواعية وحسن نية ؟ أم أن قرطاجة بعد إخمادها لتمرد الجيش المرتزق وما ترتب عنه من انضمام بعض المدن النوميدية إلى جانب المرتزقة جعلها تفرض التجنيد الإجبارى على رعاياها؟

هذا ما لا نستطيع التثبت منه لنقص الوثائق فيما عدا الإشارة إلى الحرب التى دارت بين قرطاجة والملك غايا (Gaïa) وذلك بعد استيلاء هذا الأخير على بعض المدن التى كانت تابعة للدولة القرطاجية وكان ذلك حوالى ٢١٣ق.م وكذلك الحرب مع سيفاقص ملك نوميديا الغربية التى سبقت بداية الحرب البونية الثانية وسرعان ما تراجعت قرطاجة عن تلك الحرب وحسنت علاقتها مع الملك المازسيلى وذلك بهدف ضمان استمرار الاتصال بجيوشها فى شبه جزيرة إيبيريا (٣٦). وفى هذا المضمار يأتى تزويج الأميرة القرطاجية سفونيسبة (Sophonisbe) من الملك سيفاقص بعد أن كان ماسينيسا قد وعد بالتزوج منها قبل ذلك عندما كان يحارب ضمن الجيش القرطاجى فى شبه جزيرة ايبيريا . ولذلك اعتبر هذا الزواج سياسيا أكثر منه عاطفيا.

نستخلص من كل ما سبق بأن قرطاجة فى أخريات أيامها كانت تسلك فى علاقتها مع المغاربة القدماء سياسة مسك العصا من الوسط. وذلك من بين الأسباب التى جعلت بعض حلفائها المغاربة يتخلون عنها وينقلبون ضدها فى كثير من الأحيان وأكثر من ذلك يرتمى

البعض منهم فى أحضان أعدائها وهو ما جعلها لقمة سائغة بالنسبة للرومان وقد أساءت للمغاربة بسياستها تلك. هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن روما كانت دولة فى مستهل شبابها تطبق نظاما انضباطيا بين مواطنيها لايقل صرامة عن التنظيم الذى كان سائدا قبل ذلك فى مدينة اسبارطة ببلاد الإغريق وكان الهدف من كل ذلك هو جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية وإيجاد مستعمرات لجنودها وعبيدها فى مناطق أخرى خارج شبه جزيرة إيطاليا قصد التخفيف على مدينة روما التى كانت تعج بالطبقات الاجتماعية المتصارعة على السلطة، السياسة والاقتصاد، إضافة إلى العبيد والجنود المتقاعدين الذين أصبحوا يشكلون خطرا عليها.

الهوامش

1- Hérodote Histoire, CXCVI, éd. France Maspero, Paris 1980, p. 261.

2- Donald Harden, The Phonicians, éd. Thames and Hudson, London 1963, p. 63.

3- G.G. La Peyre et A. Pellegrin, Carthage panique, éd Payot, Paris, 1942, p. 9 et suiv.

4- Justin Histoire, T. 2, Livre 19, trad. Jules Pierrot, Paris 1833, p. 35;

– وهو الذى نقل لنا أسطورة عليسة واتفاقية شروط بناء مدينة قرطاجة بينها وبين حيرباس Hyrbas ملك الليبيين .... إلخ.

5- St Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T.I, éd. Hachette, Paris 1913-1928., pp. 468-509.

6- P. Cintas, Manuel D'Archéologie Punique, T. I, éd. A et J. Picard, 1970, p. 11 et suiv.

7- St. Gsell H. A. A. N. T. I, p. 460; M. GHAKI, Recherches sur les rapports entre les Phénico - Numides (thése de III cycle, Paris 1979) p. 118.

8- Hérodote, Op. cit., p. 261.

9- P. Cintas, Manuel d' Archéologie punique, T.I, pp. 12-19; M. Tarradell, Lixus, Institut, Muley El- Hasan tetuan 1959, p. 41; Pline l'Ancienn XIX, 63.

10- P. Cintas, le Signe de Tanit dans archéologie vivante, vol - 1 N°2, Décembre 1968, et Février 1969, pp. 4-10.

11- M. H. Fantar, les Phéniciens en Algérie, en Tunisie et en Libye, Dossiers Histoire et archéologie, N°132. Novembre 1988, pp. 92-95.

12- P. Cintas, Fouilles Punique à Tipasa, R. Af. XCII, 1948, pp. 263-330.

13- G. Camps, Monuments et rites funéraire, Protohistoriques, A. M. G., Paris 1961, p. 95

14- S. Moscati, L'épupée des Phéniciens, éd Fayard, Paris 1971, p. 251-253;

– محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، مطبعة . دار الأمة الجزائر ١٩٩٨، ص٢١٠ .

15- J. Desanges, Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique Diffusion de Boccard, 1978, pp. VIII IX.

16- Hérodote Histoire, 168, p. 251. B.H; Warmington, Histoire et civilisation de carthage, éd. Payot, Paris 1961, p. 53.

17- Harden op. cit., p. 163; Hérodote, W. CXL II.

18- St Gsell. H. A.A. N. T. II, p. 112.

19- F. Decret, Carthage ou l'empire de la mer, éd du Sud 1977, p. 123 et suiv; Desenges op. cit., pp. 39-85.

20- Polybuis, III, 30, 2.

21- G. et C. Picard , vie et mort de Carthage, éd Picard, Paris1970 , p. 89 .

22- C. Nicolet , Rome et la conquête du monde Méditerranéen 2 / Genése d'un empire, Paris 1978, p. 601 .

23- B. H. Warmington, Carthage, éd. penguin Books, 1964 , pp. 57-87 ; F. Decret et M. Fanatar , l'Afrique du Nord dans l'Antiquié, Payot, Paris 1981, pp. 66-67 .

24- Diodore de Sicile XIV , 77 éd. old Father 1933 , 1967 .

25- G. Camps, Massinissa au les débuts de l'histoire, imprimerie officielle, Alger 1961, p. 35 .

26- Diodore de Sicile XV- 24 .

27- Diodore de Sicile XX, 17-1 .

28- G. Camps Op . cit., p. 117 .

29- Polybius , I, 69-6 .

30- G. Walter , la Destruction de Carthage , éd Albin Michel, Paris 1947 , pp. 94-116 ; Diodore de Sicile, XIX et XX .

31- St Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T. I, pp. 303-304 ;

– فى الحقيقة أن قرطاجة كانت محاطة بثلاثة أسوار يتمثل السور الأول فى مجموعة من الأوتاد مصطفة على كامل السور ، ويتمثل السور الثانى فى الخندق الذى كان يحميها هو الآخر. أما السور الثالث فيتمثل فى الجدار السميك الذى هو عبارة عن ثكنة عسكرية فى جانبه الداخلى . أنظر محمد الصغير غانم، التواجد الفينيقى- البونى فى الجزائر، رسالة الدكتوراه الدور الثالث/ نوقشت بمعهد التاريخ جامعة الجزائر المركزية سنة ١٩٨١ص ص ٩١-٩٧ .

32- Polybe , I, 70-88 ; Diodore XXV, 2 ; G Walter. Op. cit ., pp. 237-254 .

– تمثل قادة المرتزقة فى القائد ماطوس الليبى وكذا أسبانديوس الذى كان عبدا رومانيا فر من الجيش الرومانى والتحق بالجيش القرطاجى . أما الثالث فكان من أصل غالى اشتهر بالخطابة وإلهاب المشاعر داخل صفوف المرتزقة.

33- St. Gsell , II A. A. N. T. 5 , pp. 179-180 ; Tissot , Géographie comparée de la province romaine d' Afrique T. I, Paris 1884 , pp. 545-548 .

34- Polybe, I, 70, Diodore XXV, 2.

– يلاحظ بأن أسرة البرقيين كانت تعارض اتفاقية نهاية الحرب البونية الأولى، لاسيما القائد أملكار الذى بقى فى صقلية بعد نهاية الحرب يعسكر فى جبل إريكس يقلق الرومان بحرب العصابات .

35- Salah - Eddine Tlatli , la Carthage Punique libraire d'Amérique et d'orient, Paris 1978 , pp. 282-283 .

36- Titelive XXIV , 13 , p. 583 ;

– محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية مطبعة. دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٩٨، ص ص٥٩-٦٠ .

أ.د. حياة ناصر الحجي

المنطلقات الحضارية فى سلطنة المماليك
٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م*

إن فاعلية الحياة فى حكم السلاطين المماليك كانت ظاهرة مشتركة بين الحكام المماليك المسلمين وبين عامة الناس فى مصر والشام، حيث ارتكز هيكل البناء فيها على ثلاث زوايا متساوية حددت قواعد العمل الحضارى فى سلطنة المماليك وهى الجهاد الإسلامى، والإبداع العلمى ، ونظام الوقف.

وقد تفاعل العمل المستمر المشترك بين المماليك وعامة الناس فى هذه المسارات الثلاثة دون تفضيل ، أو تمييز أو تعدٍ . ففى «الجهاد الإسلامى» شكل المماليك العسكر الرسمى الذى حقق الانتصارات العظيمة ضد المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، وفى شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣ م ليسجل تاريخ بلاد الشام صفحة رائعة فى انتصارات المسلمين على الأعداء الطامعين فى البلاد. وكذلك يذهب الفضل فى هذه الانتصارات الحاسمة أيضًا لعامة الناس من المتطوعة المصريين والشاميين، الذين بذلوا الأرواح ، حيث لم يملكوا الأموال، فى سبيل الإسلام والأرض والعرض.

وقاد الفقهاء والعلماء المسلمون راية الجهاد فى توحيد صفوف هؤلاء المتطوعة من أهل البلاد ، فكان ابن دقيق العيد فى عين جالوت ، وأحمد ابن تيمية فى شقحب على رأس المتطوعة من عامة الناس المصريين والشاميين من كافة المدن والضواحى. وهكذا يرجع الفضل فى هذه الانتصارات الإسلامية ضد المغول للمماليك كما هو لأهل البلاد فى مصر والشام .

---

* استاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب- جامعة الكويت .

ولم يقتصر الجهاد الإسلامى بين المماليك وأهل البلاد على مواجهة المغول فى أكثر من أربعة حروب كبيرة فى القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية/ الثالث عشر ، والرابع عشر، والخامس عشر الميلادية، حيث إن هذا الجهاد الإسلامى المشترك شمل كذلك هدف التخلص من الاحتلال الصليبى فى مدن ساحل الشام، فأحرز الفرسان المماليك والمتطوعة المصريين والشاميين أجمل الانتصارات الحربية الإسلامية ضد الصليبيين فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) عندما حقق تحرير إنطاكية من قبضة الصليبيين لتعود مرة أخرى إسلامية التاريخ والحضارة. ثم تولى السلطان المنصور قلاون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٨٠-١٢٩٠م) ليسجل بقيادته أروع صفحات الجهاد الإسلامى فى هزيمة الصليبيين، وطردهم من المرقب وطرابلس وعندما تولى السلطنة الأشرف خليل بن قلاون (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٤م) توج هذا الجهاد الإسلامى العظيم فى فتح عكا، آخر معقل صليبى فى بلاد الشام، سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م.

وأخيرا جاء الناصر محمد بن قلاون فى فترة حكمه الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) ليطهر جزيرة أرواد فى البحر الأبيض المتوسط من القراصنة الصليبيين الاسبتارية ليضمن حماية السواحل المصرية والشامية من اعتداءاتهم الوحشية المتكررة، ولتبدأ فى عهده مرحلة الازدهار الاقتصادى، والعلاقات الدبلوماسية ، والتفوق العلمى ، والعطاء الوقفى، والرخاء المعيشى ، والتقدم العمرانى . وهكذا ازدهر المجتمع الإسلامى فى مصر والشام فى ظل حكم السلاطين المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

أما فى محور «الإبداع العلمى» فإن ذخائر المكتبات العالمية والعربية من مصادر مخطوطة ومطبوعة وموسوعات، وقواميس دونت فى عصر المماليك فى مصر والشام دليل واضح وقاطع على دور هؤلاء فى مجال الإبداع الفكرى. فكما كان النويرى فى موسوعة «نهاية الأرب فى فنون الأدب»، والمقريزى فى حولية «السلوك لمعرفة دول الملوك»، والقلقشندى فى موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، وابن حجر العسقلانى فى تراجم «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»، والسخاوى فى تراجم «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وغيرهم كثيرون يمثلون نخبة الإبداع العلمى لأهل مصر وبلاد الشام، كذلك كان ابن تغرى بردى فى «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، وابن إياس فى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، وابن أيبك الدوادارى فى «كنز الدرر وجامع الغرر» يمثلون نخبة الإبداع العلمى للمماليك.

لقد كتب هؤلاء المؤرخون المماليك الذين عرفوا فى ذلك العصر باسم «أولاد الناس» الحوليات الطويلة، والمؤرخات الموثقة فى تاريخ الدولة الإسلامية فى مصر والشام والحجاز. وكانوا حريصين على إبراز كافة الجوانب الحضارية فى المجتمع ، مفضلين الاشتغال بهذه الأعمال الخالدة بالقلم دون السيف . لقد وثق هؤلاء تاريخ هذه البقاع التاريخية من منطق الدين الإسلامى الذى احتضن عقولهم ، وملك أرواحهم ، وقوى عزائمهم ، وتوج أهدافهم ، فاجتهدوا فى تجسيد انتمائهم الكلى للإسلام عقيدة وحضارة . كما كان هؤلاء المؤرخون من أخيار الكتاب المسلمين تدوينا وعرضا وتحليلا. وهذا البذل العلمى المشترك عند المصريين والشاميين والمماليك يؤكد عمق الوازع الإسلامى فى هذه الأرض على مدى حقبة زمنية طويلة زادت عن قرنين ونصف قرن .

أما الركيزة الثالثة فى هذه النظرية التى تنطلق من مفهوم الانصهار الإسلامى بين المماليك وأهل البلاد فهى «نظام الوقف» أو عطاء الخير الذى بذل فيه غالبية السلاطين والأمراء المماليك الأموال الطائلة لإنشاء الجوامع والمساجد، والبيمارستانات ، والمدارس، والخانقاوات ، والزوايا، والأربطة ، ودور السبيل لتربية الأيتام ، إلى جانب منشآت السقاية والرواية فى كافة أنحاء الأقاليم .

ومن ناحية أخرى كان للأغنياء من المصريين والشاميين دور كبير فى إنشاء الكثير من هذه المنشآت الدينية، والعلمية، والاجتماعية ، فعمل الجميع من أجل تشييد ودعم هذه المؤسسات الخيرية خدمة لعامة الناس، ولاتزال هذه المنشآت الوقفية العظيمة شاهداً حياً وبرهاناً خالداً على هذا البذل المادى الكبير فى مصر وبلاد الشام. لقد خصص المماليك وأغنياء مصر والشام الأموال الطائلة لهذا النشاط الدينى والتعليمى والاجتماعى ، فجاءت هذه المؤسسات الوقفية آيات فنية رائعة فى مضمار العمارة الإسلامية ، والعطاء العلمى، والعمل الخيرى، وكان المستفيد الأول من هذه المؤسسات الوقفية عامة الناس فى مصر وبلاد الشام.

وهكذا كان «الإسلام» هو القاسم المشترك بين المماليك على شتى طوائفهم، وأعراقهم ، ولغاتهم ، وثقافاتهم ، كما كان بوتقة انصهار بين المماليك وأهالى البلاد فى مصر والشام. لقد كان المماليك مسلمين بكل ما تعنيه هذه الصفة من عطاء لاحدود له تطبيقا لمبادئ الإسلام وأخلاقه . وبهذا تظل أعمال «الجهاد الإسلامى» والإبداع العلمى ونظام الوقف» وثيقة خالدة تتضمن جميع الإنجازات المملوكية والمصرية الشامية المشتركة لتصبح سلطنة المماليك إسلامية

فى تحويل مبادئ العقيدة إلى أعمال خالدة، وأهداف إنسانية وثقها المعاصرون، ويصبح المماليك والمصريون والشاميون إخوة تجمعهم رابطة الإسلام. وبهذه الرابطة شكلوا بنيانا شامخا برزت آثاره فى أعمال كبيرة خلدها التاريخ، وسجلتها الوثائق والحجج الشرعية، وأبرزتها مداخل المنشآت الوقفية التى لا حصر لها فى مصر والشام والتى لاتزال موجودة حتى يومنا هذا شاهدا حيا على ذوبان كل الاختلافات فى بوتقة الإسلام.

لقد كانت مصر والشام فى عصر سلاطين المماليك إسلامية عقيدة ومنهاج حياة، وكان الحكام المماليك وعامة الناس المصريون والشاميون مسلمين روحا وسلوكا ، وكان الهدف المشترك هو خدمة الإسلام جهادا وتعميرا . كما كان التوق للشهادة فى سبيل الله تعالى والإسلام هدفا مأمولا سعى له المماليك، وتسابق إليه عامة الناس، فكانت دولة إسلامية، وحكاما مسلمين ، وشعوبا إسلامية جمعت بينهم العقيدة السمحاء كلمة وعملا ومقصدا .

وهكذا تبرز لنا المعرفة التاريخية الموثقة فى حيثيات صفحات الجهاد الإسلامى، والدروس المستقاة من مواجهات الانتصار والهزيمة لتدعم جذع الارتباط بالأرض، وتكون هذه المعرفة درعا واقيا لدرء أخطار المستقبل ، وإدراك أهمية الارتكاز على عاملى العقيدة والعلم فى أى بناء حضارى إنسانى على مر العصور .

أما فى محور الإبداع العلمى فإن الثقافة المعرفية تظهر فى إطار الإدراك العقلى الواعى لما وراء الحوادث، والربط بين الوقائع ، والقدرة على فهم الأسباب المباشرة وغير المباشرة لكل ما يحدث، بل ما يمكن أن يترتب على الحادثة من نتائج إيجابية وسلبية، وظواهر تبرز عبر فترات الزمن . بل إن القدرة على استيعاب الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى تشكل عاملا حيويا مهما فى فهم كافة مجريات الأمور التلقائية والمخطط لها . وحيث إن مجالات الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى واسعة، وشاملة ومتشعبة ، فإنه يستحيل على إنسان واحد الإلمام بها مهما ملك من قدرات عقلية وجسمانية . وبالتالى تبقى عملية الإلمام بجزء معين من مجالات الإبداع العلمى مهمة ضمن مسئوليات من يملكون قدرة البحث والاستقصاء فى مجريات حوادث العصر ومداخلاته، وعليه تظهر إلى النور تلك الإنجازات الإنسانية الكبيرة التى تمت فى عصر المماليك. ومن المؤكد أن مثل هذا العمل البحثى يعتبر قاعدة علمية أساسية تحرص عليها الدول ذات الاهتمامات العلمية.

وقد أظهرت ثمار فعالية هذه العوامل المؤسسية لقيام سلطنة المماليك فى الصور الحضارية التى شهدها المجتمع الإسلامى فى ظل حكم المماليك. وتأتى المدارس على رأس هذه العطاءات الحضارية، وقد كانت فى عمارتها وعلومها حضارية بديعة لهذه الحقبة التاريخية.

ويعود تاريخ إنشاء المدارس فى مصر بالتحديد الدقيق إلى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، حيث بنى لكل من الطائفتين الشافعية والحنفية مدرسة بمدينة مصر[١] . ومن ثم بدأت قافلة التعليم تسير بعدد ضئيل من المدارس، وينضم إلى القافلة بين فترة وأخرى مدرسة وثانية، إلى أن أصبح بمصر مع بداية حكم السلاطين المماليك عدد كبير من المدارس، فغدت مصر مركزا حضاريا للعلم ونشر التعليم ، ولا أدل على ذلك التفوق والتقدم فى مجال الحياة العلمية والتعليمية من أن الكانم من طوائف التكرور[٢] لما وصلوا إلى مصر سنة «بضع وأربعين وستمائة»[٣] قاصدين الحج دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بنى به مدرسة للمالكية ، وهى بخط حمام الريش . ولما انتهى بناؤها درس بها القاضى ابن رشيق فعرفت باسمه وصار لها فى بلاد التكرور سرحة عظيمة ، وكانوا يرسلون لها الأموال فى أغلب السنين[٤].

ولاشك فى أن طوائف التكرور أدهشها ما كان فى مصر فى ذلك الحين، من المدارس العديدة، فأرادوا المشاركة فى بناء هذا الصرح التعليمى بالإسهام فى بناء مدرسة لتدريس الدين الإسلامى وما يتفرع منه من علوم مختلفة .

ويذكر القلقشندى ارتباط عدد من السلاطين المماليك بعدد من المدارس التى ازدهر بها العصر المملوكى، فقد بنى الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية ، وأنشأ المنصور قلاون المدرسة المنصورية، وشيد الناصر محمد المدرسة الناصرية [٥]، وأسس الناصر حسن بن الناصر محمد مدرسته العظمى ، كما أقام ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين المدرسة الأشرفية ، وبنى الظاهر برقوق مدرسته الظاهرية [٦]، «وفى خلال ذلك ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها » [٧]. وبمقارنة قول القلقشندى هذا بما سبق أن ذكره عن المدارس أيام الدولة الفاطمية ثم الدولة الأيوبية[٨] يتضح لنا تمام الوضوح أن العصر المملوكى كان بحق العصر الذهبى فى انتشار التعليم نتيجة هذا الإقبال الكبير على إنشاء المدارس، والذى اشترك فيه السلاطين والأمراء والأغنياء على حد سواء ، حتى كثرت المدارس وتعددت بشكل كبير لفت أنظار مؤرخى العصر المملوكى فسجلت أقلامهم هذه الميزة الفريدة التى امتاز بها العصر المملوكى.

ولاشك أن الهدف الأساسى من وراء سياسة الإكثار من المدارس أيام حكم سلاطين المماليك هو خدمة الدين الإسلامى وما يتفرع عنه من مختلف العلوم العقائدية والتشريعية. وقد

كان وجود العلماء والفقهاء والقضاة فى مصر فى العصر المملوكى بأعداد كبيرة ، مع تعمق فى مختلف الدراسات العقائدية والاجتماعية عاملا مشجعا لأصحاب السلطة ، ومحبى العلم والتعليم ، والمقتدرين لإنشاء المدارس على مختلف أنواعها، وقد كان من نتيجة ذلك تلك العلاقة الوثيقة والرابطة القوية بين الحكام المماليك من ناحية، وبين طبقة العلماء والفقهاء والقضاة والمتعلمين من ناحية أخرى ، وليس هناك ما هو أكثر فعالية من هذه الرابطة القوية بين هذين الطرفين المتناقضين لإقناع الشعب بمختلف فئاته وطبقاته على تقبل الوضع السياسى والرضا بحكم المماليك الدخلاء . بالإضافة إلى ذلك أمعن مؤسسوا هذه المدارس فى الصرف على بنائها ، وتوفير الأساتذة الأكفاء ، وما يلزم من مواد وأدوات لتدريس مختلف العلوم العقائدية والأدبية والعلمية، ولكن رغم تباينها عن مدارس الدولة الأيوبية فى الفخامة العمرانية والتقدم العلمى إلا أن كل هذه المدارس تتفق فى المظاهر المشتركة والأهداف الواحدة، من ذلك أن جميع ما أنشىء من مدارس أيام الدولة الأيوبية وفى العهد المملوكى كان يعتمد فى الصرف عليه على نظام الوقف الذى كان يمثل مصدرا شرعيا ثابتا للصرف والإنفاق على هذه المدارس(٩).

وبفضل نظام الوقف استطاعت خمس وسبعون مدرسة أن تؤدى وظائفها التعليمية بانتظام فى القرن الخامس عشر . وكان المدرسون فى هذه المدارس يختارون بعناية كبيرة، ويتم تعيينهم من قبل السلطان(١٠).

وقد كان جميع مؤسسى هذه المدارس من السلاطين والوزراء والأمراء والأغنياء والعلماء المقتدرين ، ومن ثم كانت لديهم الإمكانات الاقتصادية الوفيرة لوقف مختلف الأنواع من الأملاك والعقارات وغير ذلك من الأجزاء ومن جملة ما يوقف على هذه المدارس عدد كبير من القرى(١١)، والضياع (١٢)، والنواحى (١٣)، والحمامات (١٤)، والفنادق (١٥)، والحوانيت (١٦)، والأملاك (١٧)، والأراضى (١٨).

أما عن أوقاف المدرسة الناصرية فيذكر النويرى أنه حين «حصل الشروع فى عمارتها، وعين له من الأملاك السلطانية ما يوقف عليها، وكان المعين لذلك قاضى القضاة زين الدين المالكى ، وهو يومئذ ناظر الأملاك السلطانية، التى ورثها السلطان عن والده وإخوانه والمبتاعة من أجر أملاكه، وكانت أجرتها فى كل شهر بالقاهرة وظواهرها خاصة تزيد على ثمانية عشر ألف درهم . ولما عزم السلطان على الحركة إلى الشام للقاء غازان وضربه عند طروقه الشام، وقف القبة والمدرسة، ووقف على مصالحهما من أملاكه ما يذكر، وذلك فى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة قبل استقلاله ركابه الشريف إلى الشام بيومين»(١٩).

ثم أخذ النويرى بعد ذلك يعدد ما تم وقفه على المدرسة الناصرية من قيساريات وقاعات وحوانيت وحمامات وخانات وغير ذلك من المبانى ، وكلها تدر الإيجارات الوفيرة ، حيث يستغل كل ذلك للصرف على تعمير المدرسة ومرتبات أرباب الوظائف الدينية، والتعليمية، والخدمات المختلفة (٢٠). وكان جملة ما تدره هذه الأوقاف ريعا ثابتا للمدرسة الناصرية يزيد على (٨٤٠٢) درهم فى السنة (٢١). كما يشير المقريزى إلى أوقاف المدرسة الناصرية بقوله : «ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشين من القاهرة، والربع الذى يعلوها وكان يعرف بالدهيشة ، ووقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق»(٢٢).

لم يقتصر حبس الأوقاف على المدارس وقبابها عند الانتهاء من البناء فقط، بل كان يعمل على زيادة الأوقاف فى فترات لاحقة ، كما كان جائزا أن تتم هذه الزيادة فى الأوقاف على يد شخص آخر غير الواقف الأصلى، من ذلك أن الأشرف خليل بعد أن تولى زمام الحكم بعد وفاة والده المنصور قلاون أوقف فى شعبان سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م على القبة المنصورية التى بناها والده بين القصرين من قرى عكا الكابرة وتل الميشوح وكردانة، ومن ساحل صور معركة وصريفين . وأوقف على المدرسة الأشرفية بجوار السيدة نفيسة قرية الفرح من عكا، وقرية شعر عمر وقرية الحمراء، ومن ساحل صور قرية طبرينة(٢٣).

وكان بعض الفضلاء يوقفون الأوقاف الجليلة على مدارس وجوامع لاتنسب إليهم، فصاحب حماة إسماعيل بن على الأيوبى المعروف بالملك المؤيد عماد الدين أبى الفداء، كان له وقف على جامع ابن طولون وهو خان كامل بحوانيته فى دمشق، وسبق أن ذكرنا أن جامع ابن طولون كان مخصصا فيه مكانا للدرس له وظيفة المدرسة (٢٤). ويؤكد المقريزى فى مواقع متفرقة من كتابه المواعظ والاعتبار على أن الأوقاف كانت العمود الفقرى لذلك الهيكل التعليمى القائم على تلك المدارس الكثيرة، وبدون ذلك الريع الثابت الشرعى الذى تدره الأوقاف لايمكن لأى مدرسة أن تمارس وظائفها، أو تحقق الهدف الذى تم تشييدها من أجله. وقد شهد العصر المملوكى إنشاء ثلاث مدارس تجمدت فيها الحياة التعليمية بسبب عدم توفر ذلك الشريان الاقتصادى(٢٥) . ومن ريع الأوقاف هذا كان يصرف فى بعض الأحيان للفقهاء المقيمين فى المدرسة معلوم يعيشون منه (٢٦)، وكان هذا المعلوم هو مصدر الرزق الوحيد لبعض الفقهاء، ومن ناحية أخرى كان هو السبب الوحيد أحيانا لبقاء هذه المدارس وعدم وصول الخراب إليها(٢٧).

كما كان يصرف من ريع الوقف هذا مرتبات للطلبة (٢٨)، كل هذا يؤكد أن الأوقاف كانت هي القلب الذى يعمل على استمرار الحياة التعليمية فى هذه المدارس بانتظام وبدون تغيير، وبدونها تصبح هذه الأماكن خرابا لا منفعة من ورائها، ففى المدرسة الناصرية كان واجب على الناظر أن «يصرف لكل واحد من المدرسين ولمعيديه وطلبته والداعى عنده والنقيب فى كل شهر من شهور الأهلة ألف درهم نقرة، ومن ذلك ما يختص به المدرس عن التدريس مائتى درهم، والمعيدون والطلبة والداعى والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل » (٢٩)، ويلاحظ أن المرتبات التى تصرف للطلبة الدارسين على أيدى فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة تختلف من طائفة إلى طائفة ، كما كانت قيمة هذه المرتبات من أسباب جذب الطلبة نحو أحد المذاهب دون غيره، مثال ذلك ما يذكره المقريزى أنه فى «سنة سبع وستين وسبعمائة جدد الأمير يلبغا العمرى الخاصكى درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما وإردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية(٣٠).

إلى جانب ما كان يحصل عليه أرباب الوظائف من مرتبات منتظمة كانت توزع عليهم الخيرات المختلفة فى المناسبات الدينية حيث يقتطع ذلك من ريع الأوقاف كما جاء فى وصف المدرسة الحجازية : «وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية، وكان يفرق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكنانك، وفى عيد الأضحى اللحم، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام» (٣١). أما فى المدرسة الناصرية فإنه «جعل للناظر أيضا أن يصرف من ريع الوقف إذا فضل عن المرتب المعين فيه، فى ليالى الجمع والأعياد والمواسم وشهر رمضان ، ما يراه فى التوسعة عليهم، فإن تعذر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف إلى ما فيها، فإن تعذر صرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا »(٣٢).

وبذلت بعض المدارس عناية كبيرة لتوفير بيوت لسكنى الطلبة فالمقريزى فى كلامه عن المدرسة الصاحبية البهائية يصف التشاحن والتنافس بين الطلبة بهدف الفوز بالسكن فى أحد بيوتها التى أعدتها لإقامة الطلبة، بل ويقبل الطالب منهم مشاركة آخرين فى نفس البيت ، ولعل فى هذا كناية لما وفرته هذه البيوت الداخلية من راحة ورفاهية للطلاب لكى يتمكنوا من مواصلة دراستهم براحة نفسية، مطمئنين إلى أماكن إيوائهم واستقرارهم «وكانت من أجلّ مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة»(٣٣).

أما المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م فقد كان للناس فى سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إلى الحكام» (٣٤)، وهذا دليل على جودة المساكن التى توفرها المدارس للطلبة .

يستفاد من ذلك كله أنه وجدت فى هذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين ليعيشوا فيها، وتكون المقر الدائم لإقامتهم حتى ينهون دراستهم، إلى جانب ما كان يصرف لهم من مرتبات يتعيشون منها. وقد عمرت هذه المدارس بالمدرسين والمعيدين والطلبة والمباشرين والفراشين ، إلى جانب وجود إمام ومؤذن لإقامة الصلوات الخمس، وقد كان لكل هؤلاء الرواتب الثابتة(٣٥).

بالإضافة إلى ما كانت تؤديه هذه المدارس من وظائف علمية وتعليمية، فإنها كانت تستخدم أيضا لإقامة الشعائر الدينية، وإقامة الصلوات الخمس، أى أماكن للعبادة ومراكز للوعظ والإرشاد التهذيبى (٣٦)، ويستدل على ذلك من قول المقريزى فى كلامه عن المدرسة الصالحية: «فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشر من ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة رتب الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك جمال الدين الغزاوى خطيبا بإيوان الشافعية من هذه المدرسة، وجعل له فى كل شهر خمسين درهما، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفا جاريا فاستمرت الخطبة هناك إلى يومنا هذا »(٣٧). كما أشار الناصر محمد فى وصية الوقف الخاصة بالمدرسة الناصرية إلى ضرورة وجود الأئمة والمؤذنين والقراء لإقامة الصلوات الخمس، فقد جاء فى شروط وصية الوقف : «وجعل للناظر أن يرتب بالقبة المذكورة إماما يؤم المسلمين فى الصلوات الخمس ، ويفعل ما يفعله الأئمة على ما يراه الناظر من المذاهب، ويؤدى إليه اجتهاده ، ويصرف له فى كل شهر بالحلال ثمانين درهما أو ما يقوم مقامها »(٣٨)، واشترط على الناظر أن يرتب بالقبة شيخا لإقراء الحديث النبوى ، ويصرف له من ريع الوقف فى كل شهر ثلاثين درهما نقرة، ويرتب بالمدرسة من القراء الحافظين لكتاب الله العزيز خمسة وعشرين نفرا، ويصرف لهم فى كل شهر خمسمائة درهم . ومن المؤذنين ثمانية فى القبة والمدرسة لإعلان الأذان وإقامة الصلوات والتسبيح، ويصرف للاثنين الرئيسيين فى كل شهر مائتى درهم وثلاثين درهما نقرة، ويصرف للستة الباقين فى كل شهر مائة درهم وخمسين درهما (٣٩). وكان الحصول على منصب فى أحد المدارس هدف الكثيرين من القضاة ورجال الدولة، فيشتد التنافس والخلاف بينهم طمعًا فى هذه المناصب المدرسية ، سواء التدريس أو النظر أو الإشراف فإن وفق أحدهم فى الحصول على إحدى الوظائف اجتهد فى جعلها وراثية لأبنائه من بعده ، ثم أحفاده وذريتهم ، أى يتم ربطها بشخصيات إحدى الأسر، وهذا

الاحتكار الوظيفي الأسرى يظهر واضحا فى كتاب وقف المدرسة الناصرية ، فحين رتب قاضى القضاة زين الدين المالكى كتاب الوقف هذا «جعل النظر فيه على الوقف والمدرسة والقبة لنفسه أيام حياته، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من أولاده وأولادهم وذريتهم ، ثم من بعدهم لقاضى القضاة المالكى، وشرط أيضا التدريس فى إيوان المالكية لنفسه ولأولاده من بعده.، وكتب الكتاب ووقع الإشهاد على السلطان فيه لذلك »(٤٠).

وعلى ذلك يمكن أن نسأل إلى أى حد استطاع القاضى زين الدين أن ينجح فى تنفيذ تخطيطه هذا ومواجهة تيار التنافس الوظيفى الذى اتسم به العصر المملوكى تشير الحوادث إلى أن شهاب الدين أحمد بن عبادة تضايق من تدبير قاضى القضاة زين الدين المالكى وانفراده وأولاده بوظيفتى النظر والتدريس، وكان قد سبق أن ناشد القاضى زين الدين أن يجعله مشرفا على تنفيذ وصية شروط الوقف فلم يمكنه من ذلك ، لذلك كله عمل شهاب الدين أحمد على تغيير كتاب الوقف، وأخذ يغرى الناصر محمد بأن يجعل وظيفة النظر لعتيقه الطواشى شجاع الدين عنبر اللالا بدلا من قاضى القضاة زين الدين، وما زال يلح عليه حتى نجح فى إقناعه ، وأوكلت وظيفة النظر إلى الطواشى شجاع الدين «وجعل له أن يتناول من ريع الوقف المذكور فى كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة مدة حياته، وجعل لمن يؤول النظر إليه بعده فى كل شهر مائتى درهم، وابطل الكتاب الأول وثبت الكتاب الثانى» (٤١).

ويوضح هذا مدى أثر التطلعات الشخصية والتيارات الفردية فى تولية المناصب دون النظر إلى عواقب ذلك ونتائجه على المصلحة العامة، وقد حدث ذلك مع وظيفة النظر إذ يبدو أن من تولاها لم يكن كفئا للقيام بأعباء هذا المنصب، وأهملت شروط الواقف حيث «حصل الخروج فيها عن شرط واقفها فى كثير من أموالها، وأحصر المرتب عن شرط الواقف مع توفر المال وزيادة عن كفاية الشروط . وإنما ظهر ذلك عند وفاة ناظرها الطواشى شجاع الدين فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة وظهور كتاب الوقف ولعل الناظر المذكور لم يفعل ذلك عن علم واطلاع على الشروط، وإنما فعله عن إغفال وإهمال وجهل وعدم احتفال بإمعان النظر فيما أسند إليه ، واعتمد فيه عليه»(٤٢).

وهذا يؤكد ما سبق مناقشته من حدوث العواقب الوخيمة فى حالة عدم وجود الشخصية المناسبة فى المنصب الحساس، حيث أهملت شروط الواقف، وبالتالى تضرر أرباب الوظائف من القضاة والعلماء والفقهاء والأعيان والمدرسين وغيرهم، «فلما أسند النظر إلى أهله ، وانتهى إلى من يتحرى الصواب فى قوله وفعله، أجرى الأمور فيها على شرط واقفها ، وصرف

أموالها فى وجوه مصارفها ، وما عدل عن شرط الواقف ولاخرج: ولا اعتمد ما يترتب عليه فيه إذا خرج»[٤٣].

كذلك كان من غير المستحب أن يعمل السلطان على منع الناظر من تنفيذ شروط الواقف، حيث إن بقاء الناظر في وظيفة النظر كان مرتبطا بتقييده بشروط وصية الواقف . بالإضافة إلى أنه كان من المتعارف عليه بيع هذه الوظائف من قبل أصحاب الاستحقاق ، مثلما تم بيع وظيفة مشيخة الحديث فى الكاملية بمبلغ ستين دنيارا ، دون أدنى اهتمام بأن يعهد بها لمن تؤهله علومه للقيام بالتزاماتها ومسئولياتها في التهذيب والتعليم. وتذكر المصادر المملوكية أنه كان يحدث فى بعض الأحيان أن يقوم المدرس بوظيفة النظر فى أوقاف المدرسة إلى جانب قيامه بوظيفة التدريس، من ذلك ما حدث فى المدرسة الناصرية بالقرافة حيث «رتب بها مدرساً يدرس الفقه على مذهب الشافعي، وجعل له فى كل شهر من المعلوم عند التدريس أربعين ديناراً. وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً بالمصرى ، وراويتين من ماء النيل»[٤٤].

ومن ناحية أخرى يظهر واضحًا فى نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية الناصرية كتب لقاضى القضاة تقى الدين ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز- إن هذه الوظيفة توكل لمن تؤهله أخلاقه وسمعته وعلمه القيام بمسئولية هذا المنصب، حيث يتم تعيينه بأمر سلطانى لينشر علمه بين طلاب المعرفة ويكون ذلك قدوة لعلماء عصره[٤٥].

وإذا حدث وتنامى إلى سمع السلطان فشل المدرس الذى عينه فى القيام بأعباء مسئولياته كاملة، فإنه يتم إحضار هذ المدرس بين يدى السلطان للتحقيق فى الأمر[٤٦]. وكان المدرس يقوم بتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغير ذلك ، ويأتى من بعده المعيد الذى يعيد ما سبق أن شرحه المدرس، لكى يفهمه الطلبه [٤٧]. وكان لزامًا على المدرس أن يعامل الطلبة وكأنهم أبناؤه [٤٨].

ويلاحظ ارتباط هذه المدارس بالمذاهب الإسلامية الأربعة فيختص بعضها للفقهاء الشافعية، وبعضها للفقهاء المالكية، وبعضها للحنفية [٤٩]. وفى بعض الأحيان يكون فى مدرسة واحدة درس للطائفة الشافعية ، ودرس للطائفة الحنفية [٥٠]. كما وجدت مدارس بها دروسًا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، مثلما وجد فى المدرسة الناصرية من تدريس المذاهب الأربعة على يد كبار الفقهاء ومعهم المعيدون والطلاب كل مجموعة فى إيوان، المالكية فى الإيوان القبلى،

والشافعية في الإيوان البحرى، والحنفية فى الإيوان الشرقى، والحنابلة فى الإيوان الغربى ، ويراعى تحديد عدد المعيدين والطلبة حسب أوامر الناظر (٥١). وعنيت بعض المدارس بتدريس علم الطب مثل المدرسة المنصورية (٥٢). ووجد من أهل الدين والعلم من إذا بنى مدرسة، وانتهى منها، ووقف عليها الأوقاف الجليلة ، باشر التدريس بها بنفسه (٥٣)، فالشيخ هبة الله ابن على بن السديد الإسنائى مجد الدين (ت سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) تولى التدريس فى مدرسته التى أنشأها فى بلده إسنا ووقف عليها بساتينه، وكان يعمل للطلبة فيها طعاما طيبا(٥٤). وإلى جانب ما كانت تؤديه بعض المدارس من منافع تتفق مع كونها عبادة ودرس، كانت تقوم أيضا بوظيفة الخانقاة ، حيث تصبح مقرا لإيواء الصوفية ، وممارسة وظيفة التصوف «واستضافة الواردين من الفقراء (٥٥). فالمدرسة المهمندارية التى بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى المهمندار ونقيب الجيوش فى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م «جعلها مدرسة وخانقاة» (٥٦)، والمدرسة الجمالية التى بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م « جعلها مدرسة للحنفية وخانقاة للصوفية»(٥٧).

واحتوى عدد من المدارس على مكاتب سبيل تقام بجانبها معونة للأيتام والمحتاجين ، حيث يكون هدفها تعليم أيتام المسلمين ، وتجرى لهم الجرايات والكسوة (٥٨). وعادة تلحق مكاتب السبيل هذه إما بالمدارس، أو بالمساجد، أو غير ذلك من المؤسسات الدينية والتعليمية. وقد يكون السبب فى عدم قيام مراكز تعليم اليتامى هذه مستقلة بذاتها هو الخوف من اندثارها وسرعة وصول الخراب إليها، ولذا كانت تلحق بهذه المؤسسات الكبيرة القادرة على تمويلها وإمدادها بالمدرسين والطعام والكتب، وغير ذلك مما تحتاجه لتواصل مسيرتها فى تعليم الأيتام وحسن توجيههم . فالمدرسة الحجازية مثلا قد أقيم بجوارها مكتب للسبيل يضم عددا من أيتام المسلمين(٥٩)، مع مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويوزع عليهم فى كل يوم لكل واحد منهم خمسة أرغفة من الخبز، ومبلغ من المال، بالإضافة إلى كسوتى الشتاء والصيف(٦٠).

وقد اجتهد على أن يتوفر فى هذه المدارس مؤدب أطفال تكون مهمته توجيه وتعليم الأطفال اليتامى فى مكاتب السبيل (٦١). وكان بعض الخيرين يبنى مكتبا للأيتام قائما بذاته دون أن يلحقه بمدرسة ، من ذلك أن محمد بن الصاحب (ت سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م) «بنى مكتبا بالقرافة ، وشرط فى كتاب وقفه أن ألواح الصبيان إذا غسلت يصب على قبره»(٦٢) وقد يكون السبب وراء بناء هذا المكتب مستقلا بذاته هو عدم توفر المال لبناء مؤسسة كبيرة يلحق بها، فاكتفى الواقف بإنشاء هذا المكتب لتعليم الأيتام طلبا للثواب والرحمة.

ودرج فى كثير من الأحيان على أن تلحق بالمدرسة قبة يدفن فيها الواقف صاحب المدرسة أو يبنى له قبرا فى أحد جوانبها (٦٣)، فالمقريزى فى وصفه للمدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد، يذكر «وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة... فلما مات ابنه آنوك من الخاتون طغاى فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وعمره ثمانى عشرة سنة دفنه بهذه القبة وعمل عليها وقفا يختص بها...»(٦٤).

أما المدرسة الحجازية التى شيدتها خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد وزوجة الأمير بكتمر الحجازى- فيذكر- المقريزى أنه قد «أنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وأنشأت بها مناراً عاليًا من حجارة ليؤذن عليه»(٦٥). وحين توفيت خوند تتر الحجازية دفنت بهذه القبة فأخذ «يجلس بها عدة من الطواشية، ولايمكنون أحداً من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية إلا القراء فقط وقت قراءتهم خاصة»(٦٦).

كذلك يذكر المقريزى عن شمس الدين شاكر بن غزيل المعروف بابن البقرى مؤسس المدرسة البقرية أنه «دفن بمدرسته هذه وقبره بها تحت قبة فى غاية الحسن» (٦٧). بالإضافة إلى ذلك كان بعض الفضلاء المقتدرين يعملون على وقف دروس قرآنية فى الترب طلبًا للرحمة والمغفرة(٦٨). وهكذا كان من المستحب دفن صاحب المدرسة أو أبنائه فى المدرسة بعد وفاته. ولعل السبب أنها مكان للدرس، وذكر الله، وتفسير الشريعة الإسلامية، إلى جانب كونها مكان عبادة وتعبد . من ذلك أن الأمير الكبير سيف الدين الجاى دفن فى مدرسته المعروفة باسمه «مدرسة الجاى»(٦٩).

كما دفن السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون فى مدرسة أمه المعروفة باسم مدرسة أم السلطان ، وذلك بعد قتله (٧٠). ودفن الأمير سيف الدين إينال اليوسفى بعد وفاته فى سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢ م خارج باب النصر، حتى انتهت عمارة مدرسته، مدرسة إينال ، فنقل إليها ودفن فيها(٧١).

ويفهم من كلام المقريزى فى وصفه لهذه المدرسة أن الهدف من بنائها أن تكون مقراً يدفن فيها صاحبها ، حيث يذكر : «ولم يعمل فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره»(٧٢). ولعل الواقف صاحب المدرسة حين يوصى بأن يدفن فى مدرسته يرجو دعاء الشيوخ العلماء والمدرسين والمعيدين والطلبة ترحمًا عليه وطلب المغفرة له .

إلى جانب ذلك ضمت معظم هذه المدارس خزانة كتب بها أمهات الكتب في مختلف العلوم(٧٣)، واحتوت بعض المدارس على كتب تكون من جملة الموقوف للتعليم فى هذه المدارس(٧٤)، فالمدرسة الفاضلية وقف بها جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد(٧٥).

أما المدرسة المحمودية التى أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م فقد «عمل فيها خزانة كتب لايعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهى باقية إلى اليوم لايخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن»(٧٦). وكان من المعتاد أن يعين لخزانة الكتب فى المدرسة مشرفًا يتولى العناية بها والاهتمام بما فيها، من كتب ومراقبة الإعارة ففى المدرسة الناصرية مثلا: «شاهداً لخزانة الكتب، يحفظ ما فيها من الكتب، ويضبط ما يؤخذ منها للاشتغال بها، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة ، ويصرف له فى كل شهر ثلاثين درهمًا ، أو ما يقوم مقامها من النقود»(٧٧).

وهذه النظرة السريعة إلى بعض ما أنشئ من مدارس أيام الدولة المملوكية – هى خير دليل على أسباب قيام هذه المؤسسات، والهدف من تأسيسها ، وكيفية قيامها فى تأدية وظائفها ، ولابأس من تركيز هذه الدراسة حول مدارس عصر الناصر محمد بن قلاون، خاصة وأن المصادر المملوكية تكاد تجمع على أن هذا العصر كان يعد بحق العصر الذهبى للعمارة المملوكية، حيث ازدهر بعدد هائل لمختلف أنواع العمائر ، وكان يصرف ببذخ على تشييدها، ويتفانى فى ضخامة بنائها، وجودة زينتها، والإنفاق فى سبيل ذلك بغير حساب.

ونستشهد على ذلك كله بقول ابن حجر العسقلانى فى ترجمته للناصر محمد حيث يقول : «وبنى فى سلطنته من الجوامع والمدارس والخوانق الشيئ الكثير جداً»(٧٨).

الهوامش

١- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣ .

٢- عن العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربى انظر عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٢٤٢-٢٤٥ (الطبعة الأولى، ١٩٦٥م).

٣- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

٤- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

٥- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥١-٩٥٢ .

٦- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٦٣-٣٦٤ .

٧- القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٦٤ .

٨- القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣ ، ص٣٦٢-٣٦٣ .

٩- أبو الفدا ، مختصر ، ج٤ ص١٣٣ ، ابن حجر ، الدرر ، ج٤ ، ص٥٠ ، المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣-٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج١ ، ص٣٩٢-٣٩٣ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٤٢ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

١١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٢- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٣- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٤- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ ، ٣٧٨ .

١٥- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٦ .

١٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ .

١٧- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ .

١٨- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٨٢ .

١٩- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ورقة ٢٣٩أ ؛ انظر أيضا المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥١-٩٥٢ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، ج٨ ، ص٢٠٨-٢١١ .

٢٠- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٢٤١ب.

٢١- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٢٤١أ.

٢٢- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٨٢، انظر أيضا المقريزى، السلوك ، ج١، ص٩٥١-٩٥٢ .

٢٣- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٧٦٩ .

٢٤- ابن حجر ، الدرر ، ج١ ، ص٣٩٩ .

٢٥- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٠١ .

٢٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

٢٧- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

٢٨- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٥ .

٢٩- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ورقة ٢٤٠ ب.

٣٠- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٢٦٩ .

٣١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٨٢ .

٣٢- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٢٤١ ب- ٢٤٢ .

٣٣- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧١ .

٣٤- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧٩ .

٣٥- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٤٠٠، ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

٣٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ ، ٣٩٤ .

٣٧- المقريزى، الخطط، ج٢، ص٣٧٤ .

٣٨- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٢٤٠أ .

٣٩- النويرى ، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٢٤٠ أ.

٤٠- النويرى ، نهاية ، ج٣٠، ورقة ٢٣٩أ.

٤١- النويرى، نهاية، ج٣٠، ورقة ٢٣٩ب.

٤٢- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٢٣٩ب.

٤٣- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٢٤٠أ.

٤٤- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

٤٥- القلقشندى ، صبح الأعشى، ج١١ ، ص٢٣١ -٢٣٤ ، قارن ص٢٣٦-٢٣٩ ، ٢٣٩-٢٤١ .

٤٦- ابن تغرى بردى ، حوادث ، ورقة ١٢ أ، تبر ، ص٢١٩ .

٤٧- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٦٤ .

٤٨- القلقشندى، صبح الأعشى، ج١١ ، ص٢٤٧ .

٤٩- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ .

٥٠- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٩ .

٥١- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٢٤٠ب.

٥٢- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧٤ .

٥٣- ابن حجر ، الدرر، ج٥، ص١٧٦ .

٥٤- ابن حجر، الدرر ، ج٥ ، ص١٧٦ ، ابن تغرى بردى، المنهل، ج١، ص٣٩٢-٣٩٣ .

٥٥- ابن العماد، الشذرات، ج٦ ص١٤٢-١٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ .

٥٦- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٩ .

٥٧- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٢ .

٥٨- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩١، ٣٩٤ .

٥٩- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٨٢ .

٦٠- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٨٢ .

٦١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٤٠١ .

٦٢- ابن حجر، الدرر ، ج٤ ، ص٣٢٣ .

٦٣- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

٦٤- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٨٢ .

٦٥- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٨٢ .

٦٦- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص ٣٨٣ .

٦٧- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٩١ .

٦٨- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص١٦٥ .

٦٩- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٩٩ .

٧٠- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

٧١- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٤٠١ .

٧٢- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠١ .

٧٣- المقـــريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢-٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ .

٧٤- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٦٦ .

٧٥- المقريزى، الخطط، ج٢، ص٣٧٩ .

٧٦- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٩٥ .

٧٧- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ١٣٤١أ.

٧٨- ابن حجر ، الدرر، ج٤ ، ص٢٦٤ .

المصادر والمراجع

ابن إياس محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

١- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٣ أجزاء ، القاهرة، ١٨٩٣-١٨٩٦م.

ابن بطوطة محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩-هـ / ١٣٧٧م)

٢- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «رحلة بن بطوطة»، تحقيق د. على المنتصر الكتانى ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٧٥م.

ابن تغرى بردى أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)

٣- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، جزءان، تحقيق : ويليام بوبر، لوس أنجلوس، ١٩٣٠-١٩٤٢م.

٤- المنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٦م.

٥- مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة ، بإشراف ، ج.د. كارليل، طبعة أوروبا، ١٧٩٢م.

٦- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٥٦م.

ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٧- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق : محمد محمد أمين، مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٧٧م.

ابن حجر : أحمد على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)

٨- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

٩- إنباء الغمر فى أبناء العمر، جزءان ، حيدر آباد، ، ١٩٦٧م.

١٠- فتح البارى بشرح صحيح البارى، ١٣ جزء ، القاهرة، ١٣١٩هـ / ١٩٠٩م.

الحجى: حياة ناصر

١١- التعليم فى مصر زمن المماليك، ضمن كتاب: التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات ، الجزء الثالث، ١٩٩٠م، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن.

١٢- أسواق القاهرة فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ضمن كتاب ، بحوث ودراسات فى التاريخ العربى، مهداة إلى أ.د. نور الدين حاطوم بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، دار شمال للطباعة والنشر دمشق، ١٩٩٢م.

١٣- العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (حائز على جائزة معرض الكتاب المقدمة من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٨١م).

١٤- السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده مع تحقيق ونشر وثيقة وقف سرياقوس، الكويت، ١٩٨٣م.

١٥- السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٤م.

١٦- أحوال العامة في حكم المماليك ٦٨٧-٧٨٤ هـ / ١٢٧٩-١٣٨٢م دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، الكويت، ١٩٨٤م، والطبعة الثانية في عام ١٩٩٤م.

١٧- دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام، الطبعة الأولى، الكويت ، ١٩٨٦م.

١٨- صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٢م.

١٩- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الكويت، ١٩٩٥م.

٢٠- صفحات من تاريخ الكويت في ظل الاحتلال العراقي أغسطس ١٩٩٠- فبراير ١٩٩١م (دراسة وثائقية تاريخية) ، الطبعة الأولى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٩٥م.

الدواداري : أبوبكر بن عبدالله بن أيبك (معاصر للناصر محمد بن قلاوون)

٢١- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: و. هاريمان، القاهرة ، ١٩٧١م.

٢٢- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هـ. ر. رويمر، القاهرة ، ١٩٦٠م.

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) .

٢٣- العبر في خبر من غبر ، ٥ أجزاء ، الكويت (١٩٦٠- ١٩٦٦م).

٢٤- خلاصة تهذيب الكامل في أسماء الرجال، تحقيق : أ.أ الخزرجي ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م.

٢٥- كتاب دول الإسلام، جزآن ، حيدر آباد، ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨م.

زيتير شتين

٢٦- تاريخ سلاطين المماليك ، نشرة كارل ف ، زيتير شتين ليدن، ١٩١٩م.

السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) .

٢٧- معيد النعم ومبيد النقم ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٨٣م.

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)

٢٨- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءا، القاهرة، ١٣٥٣- ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤-١٩٣٦م.

٢٩- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة، ١٨٩٦م.

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

٣٠- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزءان ، تحقيق : م . أ . إبراهيم ، القاهرة، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

٣١- تاريخ الخلفاء ، تحقيق :م.م . عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٦٤ م.

ابن شاكر محمد بن أحمد الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٩٣م).

٣٢- عيون التواريخ، الجزءان، ٢٠، ٢١ ، تحقيق : فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم داود، الطبعة الأولى، بغداد ، ١٩٨٤م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح :

٣٣- العصر المملوكي فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣٤- مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣٥- مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣٦- المجتمع المصري فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م.

ابن عبد الظاهر : محيي الدين أبو الفضل عبدالله (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)

٣٧- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق: م. كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

٣٨- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق : عبد العزيز الخويطر، الرياض .

٣٩- الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، ليبزج ، ١٩٠٢م.

أبو الفدا : إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

٤٠- المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة، ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م.

٤١- تقويم البلدان ، تحقيق :م . رينود ، م. سلان، باريس ، ١٨٤٠م.

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)

٤٢- تاريخ الدول والملوك ، جزء ٨ ، تحقيق : قسطنطين زريق وآخرون، بيروت، ١٩٣٩م.

ابن أبى الفضائل : مفضل

٤٣- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ج٢، ٣، تحقيق: أ. بلوشيه ، باريس ١٩٢٨م.

القلقشندى: أحمد بن على (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

٤٤- مآثر الأناقة فى معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤ م.

٤٥- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢م.

المقريزى : أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

٤٦- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق:م . عابدين، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٧- إغاثة الأمة بكشف الغمة، حمص ، ١٩٥٦م.

٤٨- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، القاهرة، ١٨٩٥م.

٤٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقريزية» ، جزءان، القاهرة، ١٨٥٣م.

٥٠- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ٢، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، ج٣،٤ ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٧١م.

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

٥١- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ٣٠ جزء ، تحقيق : د. محمد عبد الهادى شعيرة، د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٢٣-١٩٩٠م.

مخطوط، دار الكتب المصرية، ٥٤٩ معارف عامة، الأجزاد ٢٦-٣٠ .

د. علي منصور نصر(*)

معابر الحضارة العربية الإسلامية للغرب الأوروبى

تعددت المعابر التى سلكتها الحضارة العربية الإسلامية فى وصولها إلى الغرب الأوروبى، فكانت هناك ثلاثة معابر رئيسية ، تمثلت فى الأندلس وصقلية والحروب الصليبية ومعبرين مساعدين هما التجارة والترجمة. واختلفت هذه المعابر فيما بينها من حيث النشاط وكمية المنقول الحضارى والثقافى. وإن نظرة فاحصة للمنقول من عناصر الحضارة العربية الإسلامية والطريق الذى عبرته يستدل منها بأن الأندلس كان الجسر الرئيسى فى عملية انتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبى وذلك لأن الاحتكاك الأوروبى بالعرب استمر مع المشرق والأندلس فترة ثمانية قرون بينما استمر مع صقلية ثلاثة قرون فقط، وتأتى أهمية الحروب الصليبية باعتبارها وسيلة ساعدت على نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبى وهنا برزت أهمية التجارة ثم الترجمة كعاملين مساعدين، أثرا إلى درجة كبيرة فى نقل الكثير من معالم هذه الحضارة إلى الغرب الأوروبى كذلك. وفيما يلى عرض لأهمية كل معبر من هذه المعابر :

أولا : معابر رئيسية :

١- الأندلس :

فتح المسلمون إسبانيا عام (٩٢هـ / ٧١١م) وحرروها من حكم القوط البرابرة ، ولم يكد يتم فتحها حتى أخذوا يمارسون نشاطهم الحضارى، فأقاموا حضارة بين ربوعها كانت

* أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - قسم العلوم الاجتماعية - كلية الآداب- جامعة البحرين.

امتدادا طبيعيا للحضارة الإسلامية فى المشرق ، فأكثروا من المنشآت ووطدوا ودعموا الصلات التجارية بين الأمم، ثم شرعوا يتفرغون لرعاية العلوم والآداب وينشئون المدارس ودور العلم التى ظلت زمنا طويلا مراكز الإشعاع الثقافى فى أوروبا ، وقد بهر أهل الأندلس من النصارى بهذه الحضارة إلى حد دفعهم إلى تعلم اللغة العربية . وعثر على قصيدة لمؤلف مجهول تقوم حوادثها على قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، لذا سموها قصيدة يوسف وهذه القصيدة مكتوبة بحروف عربية ، على الرغم من أن كلماتها إسبانية وهى مثال لما عرف فى إسبانيا والبرتغال باسم الأدب الجميادى Literature Aljamida وهى كلمة مشتقة من العجمة Aja-ma ، وكان يستعملها فى أول الأمر الأسبان الذين كانوا يتكلمون العربية، ويحرصون عليها حتى بعد أن أخذوا يكتبون بالأسبانية ، ثم استعملها الموريسكيون الذين كانوا يكتبون الألفاظ الأسبانية بحروف عربية(١) وهذا اللون من الكتابة يدل على شدة تعلق الأسبان بلغتهم بعد أن غلبهم المسلمون على أمرهم.

وإذا كانت اللغة العربية قد أثرت بمفرداتها فى اللغة الأوروبية فإن ميدان الأدب فاق ميدان اللغة والألفاظ إذ صار للشعر العربى سحره الخاص فى أوروبا، ففى الشعر كان الشعر العربى يهتم بالقافية ويلتزم بها فى حين لم يكن الشعر الأوروبى الكلاسيكى يعنى بها. وقد لاحظ شعراء أوروبا الجمال الذى تضفيه هذه القوافى على الشعر العربى، فشرعوا يحاكونه إلى أن شاع اتخاذ القوافى فى أشعارهم . على أن هذا التأثير فى الشعر الأوروبى لم يرق للمتعصبين فأخذوا يحاربون استخدام القوافى فى الشعر باعتبارها دخيلة على أشعارهم ، ولم ترد فى الشعر الكلاسيكى . ولكن شعراء أوروبا لم يقيموا وزنا لهذه الحرب التى شنها أمثال (فيلاموفيتس) وبقيت القافية إلى اليوم دليلا يشهد على فضل الأدب العربى.

ومن المسائل التى شغلت بال الباحثين المعاصرين مسألة تأثير الشعر العربى الأندلسى فى نشأة الشعر الأوروبى الحديث فى أسبانيا ، وجنوبى فرنسا خصوصا أن هناك مواد عديدة جديدة تظهر كل يوم لتؤكد هذا التأثير، بل ولتثبت أن الشعر العربى الأندلسى فى الموشحات والزجل يعبر عن المرحلة الأولى لنشأة الشعر الأسبانى نفسه، وذلك فى الخرجة التى تكتب عادة بلغة أجنبية، وكانت فى الزجل الأندلسى تكتب باللغة الأسبانية الدارجة أو الرومانسية . فإذا جعلنا من الخرجة أبياتا أسبانية فإنها تصبح بمثابة النموذج الأولى للشعر الأسبانى، وبهذا يكسب الشعر الأسبانى أكثر من قرنين من الزمان (٢).

لقد كان الشعر العربي في الأندلس ذا تأثير كبير على أوربا العصور الوسطى، وكانت هذه الأشعار والموشحات التى عرفتها إسبانيا تطوراً للشعر الغنائي العربي. لقد كان أدب إسبانيا العصور الوسطى انعكاسا للثقافة الإسلامية التى كانت أقرب إلى طبيعتهم من الحضارة المسيحية (٣).

لقد بقى المسلمون في بلاد الأندلس من ٧١١م إلى عام ١٤٩٢م أى حوالى (٨٧٠) عاما، وقد استطاع المسلمون خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤثروا ويتأثروا بالبيئة الأسبانية فى الغرب، وبالبيئة العربية فى الشرق، فى كافة الأصعدة الحضارية ، ولم يكن الفتح العربى لأسبانيا مجرد احتلال عسكرى، بل كان حدثا حضاريا امتزجت خلاله الحضارات والشعوب المتعددة وأدى هذا التمازج إلى ولادة وتبلور الحضارة الأندلسية (٤).

وكانت الحضارة الإسلامية فى الأندلس تشع من مراكز متعددة مثل قرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ، ، حيث كان العرب والمغاربة هم الذين يغرسون جذورها وقد عرفهم الأوروبيون باسم الموريسكيين Moriscos, Moros . وكانت غالبية سكان الأندلس من المسيحيين قد تشبعوا بالحضارة العربية نتيجة لروح التسامح الذى تحلى به الحكم الإسلامى ، تجاه العلماء من شتى الأجناس، والأديان والذى شجع نزوح طالبى العلم من شتى أنحاء أوروبا إلى الأندلس . ومن هؤلاء كان جربرت (٩٣٠-١٠٠٣م) الذى تقلد البابوية باسم سيلفستر الثانى ، وقام برحلة إلى الأندلس بين عامى ٩٦٠م و٩٦٧م وكان تأثره بالعلوم العربية الإسلامية ، التى وجدها هناك عميقا وخاصة فى الرياضيات (٥).

كذلك استفادت الأندلس وغرب أوربا من الطب العربى الذى شهد تطورا بارزا فى المشرق، ثم انتقل بواسطة الأطباء والمؤلفات إلى الأندلس . وبرز من المسلمين داخل الأندلس الكثير من الأطباء وفى مقدمتهم بنو زهر ، وهى العائلة التى أنجبت عددا كبيرا من الأطباء المشهورين خلال ستة أجيال متعاقبة . وقطن بنو زهر اشبيلية ، القاعدة الأندلسية الشهيرة، واشتهر منهم أبو مروان بن عبد الملك بن زهر المتوفى سنة ١١٦٢م عن عمر يناهز ٧١ عاما كذلك محمد عبد الملك بن محمد بن زهر المتوفى سنة ١٠٧٨م (٦).

وكان أن أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية فى الأندلس ، وأنشأ حكامها مدارس للطب ، والفلسفة والعلوم، والفنون الأخرى، وبذلوا المال فى سخاء . وعندما بلغت دولتهم درجة عظيمة من الثراء والتقدم ، أرسل عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١م) مبعوثيه لجمع الكتب

واجتذاب العلماء للبحث والدرس، والتأليف ، فأصبحت قرطبة موطنا للعلوم وفيها عدد ضخم من المستشفيات ، والأطباء ، والصيادلة والكيميائيين وعلماء النبات والفلك ، وصارت جامعتها ومكتبتها مراكزًا للعلوم والترجمة(٧).

وخير ما يعبر عن أثر الحضارة الإسلامية فى غرب أوروبا هو ما يرتبط بمعرفة صناعة الورق التى تعلمها مسلمو الأندلس من الشرق الإسلامى وعنهم انتقلت إلى أوروبا ، فبدأت هذه الصناعة فى إيطاليا، ثم عرفتها ألمانيا وإنكلترا، وفرنسا وذلك منذ حوالى سنة ١٣٠٠م. ولم تلبث أن نجحت صناعة الورق نجاحا كبيرا فى الأندلس ، فأخذت تقوم بتصدير الورق إلى المشرق الإسلامى كما نص على ذلك الإدريسى(٨).

ومنَ المؤثرات العلمية للأندلس ، انتقال نظريات فى علم الرياضيات إلى الغرب الأوروبى عن طريق مؤلفات المسلمين ، ومن المعروف أن قرطبة لم تكن عاصمة سياسية للخلافة فحسب، بل كانت على غرار بغداد مركزا للبحث العلمى، وإذ كانت بغداد قد أطلق عليها عروس الشرق وأصبحت فى عهد الرشيد والمأمون عاصمة الدنيا، فقد أصبحت قرطبة فى عهد الناصر والمستنصر عروس الغرب وأيضا عاصمة الدنيا (٩).

ومن بين علماء الرياضيات فى الأندلس مسلمة المجريطى (المدريدى) أمام علماء الرياضيات فى الأندلس (المتوفى ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) ومن تلامذته ابن السمح (ت ١٠٣٤م) وابن الصفلاء والكرمانى وأمية بن أبى الصلت . كذلك من العلماء المسلمين البارزين فى الأندلس فى الرياضيات والذين أثروا فى أوروبا أبو الحسن على بن محمد على القلصاوى ، المولود بمدينة بسطة فى الأندلس (٨٢٥هـ / ٨٩١م) ومن كتبه (كشف الأسرار عن علم الغبار) وهو يعتبر أول من استعمل الرموز والإشارات الجبرية واقتبسته عنه غالبية علماء الرياضيات فى أوروبا (١٠).

هذا وقد عرفت أوروبا الأرقام الهندية، عن طريق العرب . لذا فإنها تعرف فى أوروبا إلى الآن بالأرقام العربية . ولفظ الصفر كما يلفظه العرب عرفه الأوروبيون ، كما نقل المسلمون إلى أوروبا عن طريق الأندلس الكسر العشرى الذى استخدموه فى عملياتهم الحسابية .

وفى ميدان الزراعة سجل مسلمو الأندلس أبحاثا متعددة ومن أشهر المؤلفين فى الفلاحة من الأندلسيين يحيى بن محمد بن العوام، صاحب كتاب الفلاحة وكذلك ابن بصال الذى اعتمد فى الفلاحة على تجاربه الخاصة . ثم ابن الخير الاشبيلى ، والحاج الغرناطى ، وفى مؤلفات

هؤلاء تحدثوا عن أصول فلاحة الأرض ، وكيفية العمل في الزراعة والفراسة ، واهتموا اهتماما خاصا بأشجار الفاكهة ، فتبنوا أنواع الغرس ، وطريقة الحفر استعدادا للغرس ومواعيد الغراس، وكان لكتب العرب في الفلاحة والنباتات أثرها في تقدم الزراعة في أوروبا(١١).

أما عن الدراسات العليا فقد استوعبتها المدارس التي انتقلت فكرتها إلى أوروبا عن طريق المسلمين عبر اتصال الأوروبيين بهم في الأندلس. وهذا الأمر أصبح الآن في حكم الحقيقة المؤكدة ، إلا أنه بالرغم من أن المدارس عند المسلمين كانت تدمج التدريس والبحث العلمي، فإن الجامعات التي نشأت في أوروبا كانت تغلب عليها الصبغة الأكاديمية المدرسية ، ولم تكن تهتم بالبحث العلمي، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة بنية المجتمع الأوروبي آنذاك، وإلى غلبة تأثير الفلسفة اليونانية التي انتقلت إلى الأوروبيين ضمن ما انتقل إليهم عن المسلمين(١٢).

وبدا تأثير الموسيقى العربية واضحا على الموسيقى الأندلسية من خلال الغناء الأسباني الأندلسي المعروف باسم الفلامنكو Flamenco وكانت موسيقى الأغاني الأسبانية في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، قد أثرت بدورها في نشأة الموسيقى الأوروبية الحديثة. وقد تألق النجم المبدع زرياب في الأندلس وذاع صيته وذكرت مواهبه ، وترك من المعالم الفنية ما دفع الموسيقى العربية والأسبانية إلى التطور والتجديد، واستطاع زرياب أن يغني الموسيقى الأندلسية بعشرات الآلات الموسيقية ، فأصبحت لديهم ثروة من الآلات الوترية وآلات النفخ وآلات الإيقاع ، وانتقل الكثير من هذه الآلات إلى الغرب (١٣).

وهكذا ذاعت شهرة الأندلس برقي ثقافته ، وتقدم علومه بين طالبي العلم في أوروبا فقصدوه ، ومما سهل عليهم تلقي العلوم العربية دون معرفة باللغة العربية، وإمكانية أخذهم مستعربين أندلسيين يعرفون العربية معرفة جيدة، إضافة لمعرفتهم باللغة اللاتينية، لغة الثقافة والكنيسة (١٤).

٢- صقلية :

نزل حبيب بن أبي عبيدة، حفيد عقبة بن نافع ، فاتح أفريقية سنة ١٢٢هـ أرض صقلية ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، وفي نيته فتح الجزيرة كلها، غير أن قيام ميسرة السقا بثورة في أفريقيا اضطره إلى العودة واحبط سعيه فحولت جهودهم عن صقلية، مما أدى إلى تنبيه الروم لمكانة الجزيرة ، وجعلها قاعدة حصينة(١٥).

ولما اتسعت الدولة الإسلامية وامتدت أطرافها في خلافة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) كانت صقلية وجزء من جنوب إيطاليا ولايتين بيزنطيتين ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يعارض القيام بمخاطرات عسكرية عبر البحار، أو حتى عبر الأنهار الكبيرة ، إلا أن هذه السياسة أعيد النظر فيها ، في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ) (٦٤٤-٦٥٦م). فلحماية المدن الساحلية التى فتحها المسلمون على ساحل الشام ومصر من خطر غارات البيزنطيين، الذين كانوا يمتلكون أسطولا قويا ، أنشئت قوات بحرية فى عهد معاوية بن أبى سفيان، الوالى على بلاد الشام آنذاك ، وعبدالله بن سعد الوالى على مصر، ولم تلبث هذه القوات البحرية أن لعبت دورا هجوميا، ودفاعيا تجاه البيزنطيين فى شرق البحر المتوسط(١٦).

وكان أن استعان أحد أهالى صقلية واسمه فيمن ببنى الأغلب. وكان قد ثار على قسطنطين بطريق صقلية ولكن كيف لوالى أفريقيا زياد الله أن ينقض الصلح ؟ لم يجد مخرجا إلا عندما علم بأن لديهم أسرى من المسلمين، وهذا مخالف للصلح ، فجهز أسطولا قوامه مائة مركب، بقيادة أسد بن الفرات وأقلع من سوسة فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م. وتتفق المصادر بأن الجيش كان مكونا من أشراف العرب والجند وأهل العلم والبصائر(١٧) . وتعتبر هذه الحملة من أهم الحملات، رغم إنها لم تحقق أهدافها كاملة بسبب تفشى الوباء بين جند المسلمين، حتى هلك منهم خلق كثير ، كان بينهم قائد الحملة أسد بن الفرات. وتكمن أهمية هذه الحملة فى أنها فتحت الباب لمزيد من الحملات، والغزوات البحرية التى تتابعت بعد ذلك ، وكانت تضيف فى كل مرة أجزاء جديدة من الجزيرة إلى سابقتها. وكان فتح بلرم سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م قد يسر الأمر أمام المسلمين ، لفتح ما بقى من أقاليم الجزيرة . ولما كان ميناء بلرم سهل الاتصال بقواعد المسلمين، على شاطئ أفريقيا فقد أمكن عن طريقه تزويد جيوش المسلمين بالإمداد، والأقوات التى كانت تصلهم بانتظام فتزيد من قدرتهم على القتال (١٨).

وعندما تم فتح صقلية الإسلامية عين أسد بن الفرات واليا، وقاضيا عليها ثم أصبح الوالى والقاضى شخصيتين متميزتين، والمعتقد أن كثيراً ما كان الجيش ينتخب الوالى، دون أن ينتظر مجئ وال جديد من أفريقيا (١٩).

وعندما ثبت العرب أقدامهم فى صقلية، فى القرن التاسع الميلادى اهتموا بوسائل الزراعة، فحفروا الترع والقنوات وشقوا المجارى المعقوفة التى كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعة

القطن، وقصب السكر. وفي الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية ، فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت وأدخلوا فيها صناعة الحرير[٢٠].

أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها ، على أيام العرب، بعد أن بلغت الحضيض في العصر السالف مباشرة، ولم يبق الآن في صقلية من منشآت العرب، سوى القليل النادر، ولكنها تشهد جميعها بالروعة والجمال الأخاذ، ويكفينا ما ذكره الإدريسي في وصف بالرمو على عهد روجر الثاني، أي بعد زوال حكم العرب بقليل، إذ أشاد بقصورها ودورها، ومنتزهاتها. ويبدو الفارق كبيرا، إذا قارنا بين أحوال صقلية من النواحي الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية سيطرة العرب عليها، وبين أحوالها عند نهاية سيطرتهم عليها من جميع النواحي .

وقد نشط علماء صقلية ، فأنتجوا إنتاجا منوعا في الفقه والحديث واللغة، والطب والهندسة والنجوم ، وأشتهر من العلماء في صقلية في زمن ابن حوقل (٣٦٥-٣٩٥هـ / ٩٧٥-١٠٠٤م) ابن أبي خرسان في النحو والقراءات ، وعلى بن حمزة في اللغة والشعر، والبرادعي في الفقه المالكي ، ومحمد بن الحسين المروزي ، وفي القرن الرابع أبو عبدالله محمد بن عيسى بن مطر الذي علم في مسجد الزهري بالسماط وسافر إلى المشرق وكتب الحديث[٢١].

إن النهضة العلمية التي شهدتها صقلية بعد انقضاء الحكم الإسلامي على أيدي النورمان كانت بفضل رعاية ملوك النورمان ، ورجالهم للعلماء ، فكانوا يغدقون الأموال عليهم ويعاملونهم بالاحترام ، ويرفعون مراكزهم الاجتماعية في الوظائف والألقاب لإغرائهم بالقدوم إلى صقلية . ويذكر الصفدي أن الملك روجر كان محبا لأهل العلوم الفلسفية[٢٢] وإن الإدريسي كان يجئ إليه راكبا بغلة ، فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيجلسان معا[٢٣].

كذلك كان ابنه غليالم الأول وابنه غليالم الثاني، فقد وصفهما ابن جبير . وقال أن لهما الأطباء والمنجمون، وأنهما كثيرا الاعتناء بهم، شديدا الحرص عليهم ومتى ذكر أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده ، أمر الملك بإمساكه وأدار له أرزاق معيشته ، حتى يسلبه وطنه[٢٤] ومع أن غليالم كما يذكر ابن جبير كان يقرأ ويكتب العربية، ويتخذ لنفسه شعارا إسلاميا ، إلا أن جواري قصره المسلمات كن يتكتمن إسلامهن ، وإنه كان إذا مر بقصره فسمع ذكر الله، والرسول ، ممن به من النساء والفتيان فإنه يقول لهم (ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به) وفي عبارة (تسكينا لهم) التي ذكرها ابن جبير ، ما يقطع بخوفهم من إعلان عبادتهم، فهم

يدارونه وهو يداريهم ، وهم يحاولون أن يصطنعوه وهو يحاول أن يصطنعهم . وابن جبير يدعو عليه فى مواضع متفرقة من كتابه فيقول (أراح الله المسلمين من ملكته)[١٥].

والواقع أن الحضارة العربية لم تنته بانتهاء حكم العرب للجزيرة ، وإنما وجدت هذه الحضارة فى ملوك النورمان خير مشجع لها . ومن الواضح أن سبب حماية ملوك النورمان لعرب صقلية ، هو أنهم لمسوا تقدمهم فى الفنون والعلوم والصناعات ، وعرفوا تماما أن تشجيع الجالية العربية فى الجزيرة ، سيعود عليهم بفوائد عظيمة، لذلك نرى روجر الأول (١٠٦١ - ١١٠١م) يشمل العرب برعايته ويحسن المحافظة عليهم ويحميهم، حتى أنه أقبل على كتابة أوامره ومراسيمه باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية[٢٦].

كذلك اتخذ ملوك النورمان لأنفسهم فى صقلية حراسا من العرب، ارتدوا زيا اختلف عن زى حراسهم من النورمان[٢٧] ولايوجد شك فى أن الشعر العربى كان يمارس فى بلاط ملوك صقلية النورمان، لكنه لم يسمع عن المدرسة الصقلية فى الشعر، إلا فى عصر الإمبراطور فردريك الثانى فى القرن الثانى عشر ، وهو الإمبراطور الذى أسماه بعض الكتاب (نصف شرقى) ، نظرا لما أحاط به نفسه من مظاهر شرقية عربية، حتى قيل أنه تعلم العربية، وأحاط نفسه بالعلماء والراقصات ، والمغنيات الشرقيات ، وشجع ترجمة الكتب العربية ، كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب[٢٨] ويقول المستشرق المعروف أمارى، إنه لو زادت معرفتنا بالشعر الشعبى العربى فى صقلية ، لأصبح من الممكن أن نكشف عن صلات وثيقة ، بينه وبين الشعر الإيطالى القديم، الذى نشأ فى أواخر العصور الوسطى، وأن الباعث على ممارسة الشعر باللغة العامية فى صقلية ، هو علم أهلها بأخبار العرب، وشعرائهم، وما كانوا يلقونه من تشجيع الأمراء العرب المسلمين ويؤيد ذلك أن الشعر الشعبى المبكر فى إيطاليا يتفق مع الشعر الشعبى فى أسبانيا ، مما يدل على أن المؤثر واحد فى الحالتين [٢٩].

لذلك كانت إيطاليا سباقة إلى النهضة نتيجة الاتصال المباشر بالتراث العربى الإسلامى، حتى ليذكر (مونتجومرى وات) أن (الطابع الإسلامى كان أقرب إلى الإيطاليين آنذاك ، من الطابع المسيحى) وهذا يعنى أن الوجود الإسلامى السياسى، فى هذه النواحى رغم اندثاره ، إلا أنه ظل يمارس تأثيرا حضاريا على أوروبا، وفى ذلك دليل لايرقى إلى الشك عن الطابع الحضارى للفتوحات الإسلامية[٣٠].

وقد ترك المسلمون فى الجزيرة كثيرا من عاداتهم ، وآثار لغتهم، لاتزال قائمة فى الكثير من الأسماء والأعلام، وكلمة (قلتا) التى تبدأ بها أسماء القلاع هى الكلمة العربية قلعة.

وكان تأثير العرب بعلمهم فى هذه الجزيرة أعظم من تأثيرهم بمبانيهم ، والجانب الأعظم من الألفاظ التى تعبر عن نواحى الحضارة المختلفة. وقد اضطرت جنوة أمام انتشار هذه الألفاظ العربية فى اللغة الإيطالية إلى أن تؤسس فى سنة ١٢٠٧م مدرسة لتعليم العربية[٣١].

ومن العلماء المسلمين الذين اشتهروا فى صقلية : محمد بن عيسى بن عبد المنعم من أصحاب العلم بالهندسة والنجوم، ويعتبر من الحكماء في هذين العلمين[٣٢].

وقد بقيت اللغة العربية شائعة فى الجزيرة ، إلى أواخر القرن التاسع للهجرة، حتى أنها استخدمت لغة التخاطب والكتابة بعد الخروج العربى لمدة طويلة، وأرخوا بالتاريخ الهجرى[٣٣].

وللشعر العربى أثره فى نهضة الشعر الإيطالى، فقد حاكى أهل صقلية العرب فى العناية بالشعر، ومن صقلية انتقلت هذه العناية إلى إيطاليا ، كما أثرت القصص العربية فى الأدب الإيطالى نفسه، ويذهب بعض العلماء إلى أن شاعر إيطاليا الكبير (دانتى) قد أفاد فى روايته (الكوميديا الإلهية) من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، لأن التراث العربى كان شائعا فى صقلية ومنها انتقل إلى إيطاليا.

وهكذا نقل النورمانديون عناصر الثقافة العربية إلى إيطاليا وأوروبا. ومنذ القرن العاشر للميلاد ، ظهرت آثار العلوم العربية فى أوروبا ، أثر تسرب معالم الفن والأدب والعلوم العربية ، إلى الحضارة الأوروبية ، فاستخدم الأوروبيون فن هندسة بناء أبراج الكنائس ، بعد أن أخذوه عن المآذن فى مصر والشام ، كما قام معمل الحياكة الذى أسسه المسلمون فى باليرمو ، بإنتاج ملابس ملوك أوروبا. وكانت هذه الملابس تزدان بالزخارف والكتابات العربية ، وفى القرن الثالث عشر للميلاد انتشرت صناعة الحرير على النمط العربى فى مدن إيطاليا، وأصبح الطلب على هذه المنسوجات عظيما ، بعد أن أصبحت تمثل موضة العصر فى أوروبا .

والزائر اليوم للمكتبة الكبرى فى الفاتيكان بمدنية روما بإيطاليا، يجد العديد من الكتب من تأليف علماء العرب، وقد أشاد (ببيل) بأثر الحضارة العربية فى صقلية ، فقال : إن العرب حملوا معهم إلى صقلية ، مظاهر فنهم ، ونماذج قناطرهم العالية الجميلة، وفسيفسائهم من الرخام الملون، وصورهم الجميلة، وبهيج صناعاتهم ولبدة علمهم، وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه الزمان فيما بعد[٣٤].

وأنشأ المسلمون فى بلرم مدرسة للطب تعتبر الأولى بين مدارس الطب فى أوروبا، ومن هذه المدرسة انتشرت دراسة الطب العربى فى إيطاليا ثم فى أوروبا، بعد ذلك ، كذلك أسس العرب فى صقلية مجموعة من الدواوين ، بقيت ثلاثة أنواع منها فى عهد النورمانديين، وتعتبر أثراً من آثار الحياة الديوانية الإسلامية، وهى : ديوان المظالم الذى اقتبسه روجر من المسلمين ، وكان عمل هذا الديوان النظر فى الشكاوى التى تقدم إليه وإنصاف أصحابها . وديوان الطراز: وهو ديوان إسلامى عرف فى الأقطار الإسلامية قديما، ومهمة هذا الديوان تطريز ملابس الملك، ثم ديوان التحقيق الذى كان يعنى بشئون الأرض وما يتصل بها [٣٥].

٣- الحروب الصليبية :

تمثل الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، رد فعل أوروبى هجومى، على العالم الإسلامى، الذى تحول إلى موقع الدفاع فتوالت الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى، ونجحت فى تأسيس ممالك أربع فى بلاد الشام، وهى إمارة إنطاكية وطرابلس والرها ومملكة بيت المقدس.

وقد بالغ كتّاب القرن التاسع الهجرى، ولم يحسنوا التقدير عندما بالغوا بشكل غير عادى فى أهمية الحروب الصليبية وبلاد الشام كطريق سلكته الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبى. فالصليبيون قصدوا بلاد الشام للحرب، لا لطلب العلوم، وامتازت حياتهم فى تلك البلاد، بما تتصف به حياة الجنود عادة من خشونة ، فلم يهتموا إلا بتحصين مواقعهم، والدفاع عن كيانهم والإبقاء على معاقلهم التى أقاموها فى الشام، وسط محيط عربى واسع، ولم تتوقف الحرب بينهم وبين العرب المسلمين ، إلا بإجلائهم نهائيا فى عصر المماليك . وتم إجلاؤهم نهائيا عن أرض الشام سنة ١٢٩١م، وإذا حدث وهدأت الحرب بين الطرفين لفترات وجيزة من الوقت ، فإنها كانت تتوقف لتستأنف من جديد بعد قليل من الزمان ونريد من ذلك أن نصل إلى القول إنه لم تتح للصليبيين فى الشرق الحياة الهادئة الضرورية ، والمساعدة لممارسة النشاط الفكرى والحضارى، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمى بالعرب، بالقدر الذى أتيحت به لإخوانهم الأوروبيون فى الأندلس وصقلية[٣٦].

وصحيح أن الصليبيين تمكنوا من تأسيس عدد من الإمارات القوية فى بلاد الشام، بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس الشهيرة، ولكن جميع هذه المعاقل الصليبية لم تكن سوى معاقل أو ثكنات حربية متناثرة، وسط محيط من الأعداء ، سيطر عليها جو من الفزع والرعب،

لاتستقيم معه بال حال حياة علمية ناضجة ، يضاف إلى ذلك أن عصر الحروب الصليبية امتاز بنوع من الفقر على الصعيد الفكرى، فى المشرق العربى ككل، فندر الإقبال على الفلسفة ، بوفاة ابن سيناء وغيره[٣٩] ، حتى أن الخليفة العباسى فى بغداد قام بإحراق كتب الفلسفة سنة ٥٤٥هـ / ١١٥١م ومنها كتب ابن سينا نفسه.

وهكذا فإن الحروب الصليبية جاءت غنية بالحوادث المتعددة والوقائع النادرة ولكنها فقيرة بالأثر الحضارى ، الذى بولغ فيه لا سيما فى الغرب، وهو أثر محصور فى الفن والصناعة والتجارة دون العلم، والأدب . أما فى سوريا فقد تركت هذه الحروب حالة من الدمار والخراب. ومما ورثه الشرق عن تلك الحروب، ذكريات التعصب الدينى والنفور بين المسلمين والنصارى. ومن جهة أخرى فإنه علينا أن نذكر أن الفرنجة فى سوريا ، فضلا عن كون ثقافتهم دون ثقافة أعدائهم ، فقد كانوا فى الغالب جماعات عسكرية أجنبية ، تنزل فى القلاع والثكنات وتقتصر صلاتها على عامة الناس من فلاحين وصناع ، دون الطبقة الراقية المفكرة ، زد على ذلك أن التحريات القومية والتعصبات الدينية، والعداوات المتأصلة ، حالت دون تبادل الأفكار والثقافات ولم يكن عند الفرنجة من العلم والفلسفة ما يلقنونه أبناء البلاد .

وكانت سوريا وما ارتبط بمسرحها من حروب صليبية ، ذات أثر فعال فى هذا الميدان ، فالحروب الصليبية صحبها بعض النشاط الفكرى والحضارى، فظهرت مؤلفات فى التاريخ ، مثل (وليم الصورى) أو فى القانون مثل (حنا الإبلينى) و(فيليب ناقارى) كما انسابت بعض المصطلحات العربية إلى البلاد الغربية[٣٨].

كذلك أثرت الحروب الصليبية فى تطور فن الحرب عند الغربيين، لاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الجدران المزدوجة ، هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه الحروب الصليبية من تقدم حركات الحصار، واستعمال المجانيق والكباش الهادمة، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، وإرسال الرسائل الحربية ، عن طريق الحمام الزاجل، ومن المحتمل أن يكون الشرق العربى إبان الحروب الصليبية ، هو المصدر الذى أخذ عنه الغرب الأوروبى ألعاب المبارزة، التى تشبه كثيراً ألعاب الجريد (التحطيب) عند الشرقيين. كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات، والرنوك فى الغرب الأوروبى، نتيجة للاتصال بالعرب فى بلاد الشام[٤١].

إن الاتصال الذى تم بين الأوروبيين وشعوب الشرق، فى عصر الحروب الصليبية أثارت عظمة الحضارة العربية الإسلامية، وتقدمها ونضج أصحابها دهشة الغزاة الغربيين. ذلك أن

الصليبيين كان همهم الأول الانتصار ، والاستحواذ على الأراضى الإسلامية، ومع أنهم لم يفكروا فى الاستفادة من الحضارة الإسلامية ، حتى فى إقامة مدارس يعلمون فيها أبنائهم، إلا أنهم تعلموا الشئ الكثير من حضارة المسلمين. من ذلك أنهم دهشوا لبراعة الأطباء العرب المسلمين ، لكنهم لم يفيدوا من ازدهار الطب العربى[٤٠] إلا بعد مرور أجيال وبعد طردهم من المنطقة.

واكتسب الفرنجة خلال إقامتهم فى بلاد المشرق ، إبان الحروب الصليبية أسواق جديدة، وبخاصة فيما يتعلق بالروائح العطرية والتوابل والحلوى وسواها من محصولات المناطق الحارة، ثم أن هذه الأسواق الجديدة أدت إلى إنعاش التجارة فى المدن الإيطالية وسواحل البحر المتوسط ، فاشتهرت أنواع البخور، وماء الورد الدمشقى، والروائح العطرية، التى امتازت بها دمشق . ومن العقاقير الجديدة التى تعرفوا عليها حجر الشب. ثم أن التوابل والقلفل والبهارات وغيرها جرى استعمالها فى الغرب، خلال القرن الثانى عشر الميلادى. وأهم من ذلك كله السكر ، فقد كان الأوربيون لايعرفونه من قبل، وكانوا يستخدمون العسل لتحلية أطعمتهم وكان إن عرف الأوروبيون هذا النبات (قصب السكر) الذى أخذ منذ ذلك الحين يلعب دورا هامًا، فى الحياة الاقتصادية ، وفى تركيب الوصفات الطبية. وكان السكر أول اللذائذ الفاخرة التى أدخلت إلى الغرب، ولم يبلغ درجتها طعام آخر ، ومع السكر دخلت الأشربة غير الكحولية، والماء الذى تخلط فيه بواسطة التقطير خصائص الورد والبنفسج وسواهما من الزهور كذلك دخلت شتى أنواع الحلويات ، أما الأقمشة الموصلية والدمشقية وسواهما فقد ولجت أوروبا من الشرق العربى، كما تدل عليه أسماؤها فى اللغات الأوروبية ، محرفة عن العربية[٤١].

وظل الاحتكاك بين الحضارة الغربية المتخلفة والحضارة الإسلامية المزدهرة فى الشرق حوالى القرنين ، منذ القرن الخامس حتى القرن السابع الهجرى/ منذ القرن الثانى عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادى، فتعلم الصليبيون عن طريق الرواية الشفوية الكثير من العلوم.

لقد استحوذ الصليبيون على كثير من كتب المكتبات العربية فتعلموا اقتناء الكتب، وقرأوا القصص العربية منها كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وشعر الموشحات ، وتعلم الأوربيون العادات والتقاليد وبعض القيم الإسلامية، بل إنهم أخذوا عنهم أسلوب اللباس والأكل ، وأخذ كثير من المفردات يتسرب إلى اللغات الأوروبية. وما زال قسم منها حتى الآن[٤٢] مثل بازار Bazaar وكلمات أخرى مثل Sofa, Lufe مستخدمة فى أوروبا.

وكان تأثير الحروب الصليبية على الغرب في مجال الفنون والآداب أعمق وأشد، فاهتم الغربيون بلغات العالم الإسلامي، وظهرت الدعوة للعناية بدراسة اللغات الشرقية ، وبتأثير هذه الحروب الصليبية نشطت دراسة علم التاريخ عند الأوروبيين، وظهرت مؤلفات كثيرة، عن الحروب الصليبية وبيت المقدس، وتناول المؤرخون الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية بالدرس والبحث ، وأصبح لهذه المنطقة من العالم اهتمام خاص عند المؤرخين ، والجغرافيين، ازداد الاهتمام بارتياد تلك المناطق الإسلامية ، ووصف الأماكن المقدسة ، وبيان الطرق إليها ووضع الصليبيون كل هذه المعلومات والدراسات في خدمة أغراضهم العسكرية.

وكانت عنايتهم الجغرافية في أول الأمر قاصرة على سواحل آسيا الغربية ، أو الساحل الشرقي لبحر الروم، اعتقادا منهم أن هذا يعينهم على النصر على المسلمين في الأراضي المقدسة. فلما خاب أملهم في هذا الأمر ، وفشلوا في السيطرة عليها، وطرد المسلمين منها بالحرب، انتقلت عنايتهم الجغرافية من ساحل آسيا الغربي إلى قارة آسيا كلها. لقد زادت أطماعهم فزادت مناطق اهتماماتهم، واهتموا اهتماما شديدا بإيفاد البعثات التبشيرية لعلها تحقق ما عجزت الحروب الصليبية عن تحقيقه[٤٣].

ونتيجة لعنايتهم الجغرافية أخذ الأوروبيون عن العرب رسم الخرائط على أساس سليم للمعلومات الجغرافية ، وولد في نفوسهم حب الاستطلاع وروح المغامرة وتحمل المشاق كما نقلوا كثيرا من العلوم ولاسيما العلوم الرياضية والطبية.

وليس أدل على تأخر الطب آنذاك في أوروبا من إرسال صلاح الدين طبيبه الخاص ، لمعالجة عدوه قائد الحملة الصليبية الثالثة ريتشارد قلب الأسد . ولعل أبرز ما أخذه الأوروبيون عن المسلمين في الشرق فن العمارة ، فأخذوا يبنون بيوتهم بالأسلوب الشرقي، فكانت تبنى على النمط العربي وتزخرف بأسلوب إسلامي، وبأثاث عربي. وقد انتقلت هذه الأمور إلى معظم مدن أوروبا كالبندقية وغيرها .

وعرف الأوروبيون كثيرا من الحاصلات والصناعات العربية، فعرفوا نباتات السمسم، والمشمش ، والثوم ، والأرز ، وصناعة المرايا والملابس القطنية والموسلين (من الموصل)[٤٤] والمسكوكات . ونقل الأوروبيون أسلوب بناء المستشفيات من الشرق، وقد أسس البابا أنوسنت الثالث في روما في أوائل القرن الثالث عشر ، مستشفى القديس سبيرتو تقليدا للمستشفيات في سوريا ، بل وعلى طراز المستشفى النوري (نسبة إلى نور الدين زنكي) في دمشق لأنه كان مثارًا لإعجاب الأوروبيين[٤٥] .

ونحن حين ننظر إلى الحروب الصليبية نجد أن أوروبا فشلت فى تحقيق كل الأغراض والأطماع التى كانت تراودها ، من وراء هذه الحروب، فلا هى حققت النصر العسكرى على المسلمين، ولا هى استطاعت أن تحتفظ بالأراضى التى استولت عليها، ولانجحت فى تحرير بيت المقدس من أيدى المسلمين، كل هذه الأهداف لم يتحقق منها شئ.

إنما الذى تحقق نتائج أخرى حضارية لم تكن فى بال هؤلاء الصليبيين، عندما قاموا بغزواتهم للعالم الإسلامى. أن النزاع فى حقيقته بين الشرق والغرب كان نزاعا دينيا حضاريا، إذ كان الصليبيون يتصورون كما لقنهم زعمائهم أن بلاد المسلمين مظلمة ، تسودها روح الجهل والظلم، وتخلو من أى أثر من آثار الحضارة ، وأنهم سيكونون رسل أوروبا لبث حضارة الغرب فى تلك البلاد، وإنقاذ المسيحيين هناك من الاضطهاد . ولكن هؤلاء المخدوعين ما لبثوا أن أفاقوا وأدركوا الحقيقة عندما جاءوا إلى الشرق واتصلوا بالمسلمين ، فقد رأوا حضارة لم تعرفها بلادهم وعرفوا الإسلام على حقيقته ، وعاد كثير منهم إلى أهله يبدى إعجابه بالإسلام، وحضارة المسلمين. إن تأثير الشرق فى تمدين الغرب ، كان عظيما بفعل الحروب الصليبية ، وهذا التأثير كان يشمل كل المجالات . وإننا إذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية باضطراد بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ عن الاتصال بينهما فى أثناء تلك الحروب، من نمو فى فنون أوروبا وصنائعها ، يتجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة، وأن هذا التقدم انبثق من خلال ما كانت تستعين به جامعات أوروبا من علوم العرب، وآدابهم فى عصر النهضة الحديثة(٤٦).

ثانيا : معابر مساعدة:

١- التجارة

لم تكن علاقة العرب المسلمين مع أوروبا علاقة حربية، فالإسلام مشتق من السلام ، لذلك وجدت علاقات سلام وصداقة ، فقد اشتهرت شخصية الرشيد فى أوروبا نتيجة لعلاقته الودية مع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارلمان (٧٦٨-٨١٤م) فقد قامت بين الرجلين صلات ود وصداقة ، وتبودلت بينهما السفارات والهدايا فى المدة التى بين سنتى ٧٩٧- ٨٠٦هـ ، ولاشك أن المصالح السياسية والتجارية كانت وراء هذا التقارب الودى بين الملكين (٤٧). وتعبيرا عن تلك العلاقات ، أرسل الرشيد إلى شارلمان فيلا وساعة دقاقة ، وخيمة مطرزة بالقصب ومفاتيح كنيسة القيامة(٤٨) وبدوره أرسل شارلمان صدقات وهبات إلى فلسطين

فاستعملت فى تعمير بعض الكنائس ، وأنشأ منزلا للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة[٥١] وهى تدل على الحرية الدينية فى فلسطين من ناحية، وتسهيل التجارة بين الشرق وأوروبا من ناحية أخرى.

وكان لشارلمان دور فى نمو التجارة الخارجية بينه وبين الشرق، حيث عمل على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، كما نظم الموازين والمقاييس واهتم بالطرق التجارية[٥٠] وكان التجار يفضلون استخدام الأنهار فى نقل تجارتهم. وانتعشت التجارة البحرية كذلك فى عهد شارلمان[٥١] فكانت تتم عن طريق موانئ نانت ، وبوردو عن طريق البحر المتوسط[٥٢] فى بروفانس وسبتمانيا ولم تتوقف إطلاقا بسبب الفتوحات الإسلامية، بل نمت هذه التجارة وتطورت بين دولة الفرنجة، وبلاد الشرق، وخاصة فى فترة الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) والجاليات المسيحية فى مصر والشام وغيرهما من بلاد المشرق[٥٣].

وكانت أهم صادرات الشرق إلى دولة شارلمان ، المنسوجات والأقمشة المزركشة والملونة والملابس الحريرية، والنسيج الأرجوانى مثل العباءات الحريرية والمصنوعات الجلدية والروائح العطرية والأعشاب والتوابل[٥٤].

وساعد هذا النشاط التجارى الواسع بين دولة شارلمان والشرق على ظهور أهمية بعض المدن، بحكم موقعها مثل ميتز ومثل نيم Nimes وماجلون وارل وناربون التى كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق [٥٥].

كذلك قامت علاقات سياسية بين عبد الرحمن الناصر مع ملوك شمال أسبانيا ، وإمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع (٩٠٥-٩٥٩م) وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الكبير (٩٣٦-٩٧٣م) فنراه يتبادل الهدايا ، والسفارات معهم، وهذا مظهر التفاهم الدبلوماسى بين الطرفين[٥٦] ودليل على مكانة الناصر فى حوض البحر المتوسط ، إلى درجة جعلت كلا من إمبراطور بيزنطة وأباطرة الدول الغربية يتوسطون لدى خليفة قرطبة فى أن يتم التعاون بين بلدانهم، وبينهم وبين حكام الأندلس، ولاشك فى أن هذا التعاون يشمل نواحى عدة، إذ يبدأ سياسيا، ثم اقتصاديا ، ثم ثقافيا، ولما كانت الأندلس مزدهرة فكريا وحضاريا ، فلابد أن تتجه إليها أنظار الطلاب من كافة أنحاء أوروبا . وهكذا لم يقف نشاط العرب عند حد معين ، إذ تم لهم اجتياز جبال الألب الشمالية، ودخلوا سويسرا ، وامتد نفوذهم من شواطئ بحيرة كنستانس شمالا إلى جنوة ومرسيليا ونيس جنوبا. كذلك عمل العرب بجانب

نشر تجارتهم على نشر ثقافتهم الإسلامية ، وفى مقدمتها اللغة العربية التى كانت اللغة العالمية، ولغة العلم فى العصور الوسطى، حتى إننا لانزال نرى اسم الحى العربى Canton de Sarazins يطلق على أحد أحياء مدينة نيس(٥٧).

وما أن حل النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى حتى كانت التجارة بين أوربا الغربية والعالم الإسلامى، قد بدأت تنمو فى إطار نمط محدد، آخذ فى الازدياد ، وكان أكثر مظاهر هذه التجارة إثارة للانتباه هى أن عملية نقل السلع عبر البحر الأبيض المتوسط كانت فى أيدى الإيطاليين لا فى أيدى العرب وكان أهالى أمالفى والبندقية أول من شق الطرق عبر البحر المتوسط، لا إلى تونس فحسب بل إلى مصر والشام أيضًا . تبعهم بعد ذلك بفترة وجيزة مدينتا بيزة وجنوة اللتان سرعان ما حلتا مكان أمالفى، ربما لأنهما كانتا مينائين أصلح من أمالفى لاستقبال السلع القادمة من الشمال، بل إنه حتى فيما يتعلق بنقل البضائع من المغرب أو من غرب الدولة الإسلامية (أسبانيا وشمال أفريقيا) إلى بلاد الشرق (٥٨)، فقد شهد نموًا مطردا وسلك طرقا برية أسهمت فى ذلك النماء منها الطريق البرى الذى يعبر جبال البرانس إلى بلاد الفرنج ، وكانت الطرق البرية، لابد أن تعبر هذه الطريق فمن الجزيرة الخضراء إلى إشبيلية إلى بلاد الفرنج أو من مرسية إلى بلنسية إلى غرناطة أو من ملقة إلى قرطبة(٥٩).

وكل هذه الطرق البرية كانت تسلكها القوافل التجارية، فكانت تمر من ممرات جبال البرانس لتلتقى بموانئ جنوب فرنسا الشهيرة بحى بروفاس وسبتمانيا (٦٠). وهناك الطرق البحرية، فكانت السفن التجارية تفرغ حمولتها فى مرسيليا أو ناربون ، حيث كانت أهم المراكز الرئيسية للتجارة ، ثم تنقل عبر الطرق النهرية فى فرنسا ، كالراين والدانوب ، والسين والرون إلى جميع أنحاء أوروبا(٦١) ولم تكن هذه هى الطرق البحرية الوحيدة ، فهناك الطريق البحرى عبر ساحل أسبانيا الغربى على المحيط الأطلسى ، وقد استعمل هذا الطريق منذ عهد عبد الرحمن الأوسط(٦٢) أما الطريق البحرى الأخير فيمر عبر الساحل الشرقى المطل على البحر المتوسط من الجزيرة الخضراء إلى البحر المتوسط لفرنسا .

ومعلوم أن الأندلس لم تنقطع علاقاتها التجارية بأوروبا ، خاصة أن تجارة الرقيق الأبيض المجلوب من أوروبا إلى العالم الإسلامى كانت عن طريق الأندلس(٦٣).

أما من ناحية التبادل التجارى فقد لعب أهل بلاد الشام الدور الأكبر فى تحمل عبء التجارة فى البحر المتوسط فكانت لهم جاليات متاجرة فى كل موانئ البحر(٦٤) كما عاشت

جاليات تجارية إيطالية فى المراكز التجارية الكبرى فى مصر والشام. وتحمل أهل الشام النصيب الأكبر من عبء التجارة فى البحر المتوسط، فكانت لهم جاليات تجارية فى كل موانئ هذا البحر، وفى الكثير من البلاد الهامة، فأقامت هذه الجاليات فى ثغور بريطانية وغالة وأسبانيا ، وأيضا فى الثغور النهرية على الدانوب [٦٥] . وكان أكبر مركز رئيسى لهم فى مرسيليا ، وانتشروا فى حوض الرون وشمال باريس وكليرمونت وتورواوج ارل. ونشطت حركة التبادل التجارى بين أسبانيا وفرنسا مع بلاد الشام ومصر ، وظلت فرنسا تستورد البردى والتوابل وغيرهما من منتجات الشرق، واحتفظت مرسيليا بأهميتها كميناء ، وكان يرد إليها زيت الزيتون الذى كان[٦٦] يستعمل فى الطهى والإنارة ، فكان يستورد بكميات كبيرة من بلاد المغرب خاصة، وكانت السفن تعود محملة بالدقيق والفراء من روسيا ، والرقيق الذى كان يجلبه التجار اليهود لمسلمى الأندلس. وكان المسلمون يعاملونهم أحسن معاملة، كما كانوا يمثلون حلقة الوصل الاقتصادية بين المسلمين والعالم المسيحى[٦٧] .

ولعبت التجارة دورا هاما فى تحضير أوروبا على يد التجار المسلمين ، وما العثور على العملات والنقود الإسلامية فى أماكن مختلفة من أوروبا إلا دليل على تغلغل التجارة الإسلامية فى أوروبا. وقد وجدت النقود الإسلامية مرارا شمال بحر قزوين وبمحاذاة نهر الفولغا ، وفى المنطقة البلطيقية الشرقية، وفى الامتدادات الجنوبية لفنلندا والنرويج والسويد ، وكانت البضائع العربية التى تنقل فى نهر الفولغا تنقل إلى المشترين فى الشرق الأوسط جلود الحيوانات ، وأسرى سلاف (منها اشتقت الكلمة الإنجليزية Slave) وقطعان وأغنام وسهام وجلود مصنعة خاصة[٦٨] .

ولربما كانت أعظم خدمة أسداها العرب إلى أوروبا هى تقديم سلع جديدة من بلاد تقع خلف المتوسط، وضمان تدفق مستمر لها، كالبهارات. وكانت معظم هذه السلع باهظة الأثمان، وهى كمالية فى غالب الأحيان، على الأقل بالمعايير الأوروبية ، ويبدو أن التكاليف الباهظة للنقل عبر مسافات شاسعة جعلت الاتجار بالسلع الضخمة والثقيلة أو بالسلع الأرخص ثمنا أمرا غير مستحب. وحين توسعت التجارة فى أوروبا على نحو أسرع من انتشار النقود لم يكن من غير المألوف أن تكون المدفوعات بالفلفل والبهارات الشرقية الأخرى[٦٩] .

وكان وجود العملات والنقود الإسلامية عاملا من عوامل نشاط التجارة ، وقد سكت العملة الأندلسية تحت ضغط الحاجة الملحة لاستخدامها فى التجارة التى اتسعت آفاقها فى كل

أرجاء الدولة الإسلامية. ويرجع تاريخ سك النقود الإسلامية فى الأندلس إلى موسى بن نصير فى سنة ٩٥هـ / ٧١٣م . إذ صار يتعامل بها إلى جانب النقود الرومانية القديمة . وسك موسى بعد دخوله طليطلة نقودا عليها نقوش تحمل عبارة التوحيد[٧٠] كما سكت عملات على هيئة العملة المستخدمة في الشرق الإسلامى[٧١] وكان لعبد الرحمن بن معاوية عملة خاصة باسمه، كما كانت له دار لضرب العملة فى قرطبة، ولم تختلف هذه العملة عن بلاد الشام، فكانت تشبهها من حيث الشكل والوزن والنقوش، وكانت تصنع من الذهب الخالص [٧٢].

والتدليل على وجود الأثر التجارى العربى فى الغرب الأوروبى، ما نراه خلال وجود بعض الكلمات ذات الأصل العربى فى اللغات الأوروبية مثل كلمة Cheque المأخوذة من كلمة صك العربية وكلمة Magasin المأخوذة من كلمة مخازن العربية، كما نلاحظ فى بعض المصنوعات أسماء عربية الأصل، فعلى سبيل المثال، المنسوجات التى كانت تحتل مكانة عالية عند الأوروبيين فى العصور الوسطى، إذ أثارت فى نفوسهم دهشة عظيمة عندما قارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه أنوالهم، وراحوا يتساءلون عن موضع السحر فى هذه المنسوجات الإسلامية، أهو فى دقة النسيج أم هو فى جمال الزخرفة، أم هو التنسيق بين الألوان، أم هو فى هذه جميعا[٧٣] وقد أقبلوا عليها وسموها فى لغاتهم بأسمائها العربية سواء كانت هذه الأسماء مستمدة من طبيعتها مثل القماش الذى أطلقوا عليه كلمة Chiffon فقد كان فى الأصل يشف عما تحته فأخذوا هذه الكلمة، من كلمة شفاف العربية، ومثل كلمة Ricano المشتقة من كلمة رقم العربية، أو كانت هذه الأسماء مستمدة من البلاد التى اشتهرت بها مثل الجراندين Ge-randine التى كانت تنتجه مدينة غرناطة، ومثل كلمة Tabis التابس المأخوذة من كلمة العتابى (قماش من عطابية فى بغداد) وهناك أسماء عدد كبير من أسماء الأقمشة أخذها الغرب مثل الشاش، البقرم، الساتين ، الموهير ، الموصلين (من الموصل) ، الدامسكو (من دمشق)، القطن، كما أدخل العرب أيضا الانيلين الذى يعتبر مقوما هاما من مقومات أصبغة النسيج[٧٤].

وقد لعبت مصر دوراً رياديا فى انتشار التجاة وتبادلها بين الشرق والغرب ففى العهد الفاطمى كان المشرق مركزا سياسيا وتجاريا وثقافيا مهما[٧٥] وكانت مصر تسيطر على مسالك التجارة أنذاك بين الشرق والغرب، فكان الأوروبيون يفدون إلى مصر لشراء السلع الشرقية ، فساهم هذا الاتصال بين الشرق العربى والغرب الأوروبى فى نقل الحضارة العربية

الإسلامية إلى أوروبا، لاسيما بعد أن نشطت هذه العلاقات التجارية بين مصر وسوريا والمدن الإيطالية كالبندقية وفلورنسا ، ونابولى ، وجنوة وبيزا وقد نشطت هذه المدن وأقامت علاقات تجارية مع مصر والمشرق وأصبحت هذه المدن تتوقف تجارتها مع سلاطين مصر، وأدى ذلك إلى ثراء التجار، ونقل التراث العربى، واتجاه بعض الأوروبيين إلى تحصيل العلم والمعرفة العربية(٧٦).

ويكفى أن التجارة كسرت حاجز الخوف عند الأوروبيين، وجعلتهم يطلعون على بلاد جديدة، مما جعلهم يتعرفون على غرائب الكائنات والموجودات ، ومع التجارة كثرت قصص الرحلة والرحالة وهى التى قادت أوروبا إلى الاستكشافات الجغرافية التى قادتهم إلى الأمريكتين(٧٧) .

٢- الترجمة :

هناك وسيلة لابد من تبيانها لأهميتها البالغة فى عملية انتقال المؤثرات الحضارية العربية إلى أوروبا ، وهى حركة الترجمة التى نشطت مع بداية القرن الثالث الهجرى. ذلك أن بداية انتقال العلوم المتطورة من بلاد العرب إلى الغرب كانت فى هذا الوقت بالذات ، فقد ترجمت بعض الكتب فى الكيمياء والطب وأحكام النجوم، من اللغة العربية إلى اليونانية فى القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية، ولكن المستوى العلمى فى الدولة البيزنطية كان غير مناسب لأن تؤتى هذه الترجمات ثمرتها المنشودة(٧٨) .

عرف الأسبان ما كان للمسلمين من تقدم فى العلوم ومن نظم إدارية وسياسية وتجارية وثقافية ، وكانوا يميلون إلى الأخذ بها، ودراستها والاستفادة منها. وعندما كتب للأسبان الانتصار على العرب فى حربهم الطويلة مع المسلمين التى يسميها كتابهم بحرب الاسترداد وتمكنوا من استعادة طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، وتقرر مصير الجزيرة بذلك ، أخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين شعبهم، بنقل كنوز الثقافة الإسلامية إلى لغاتهم، ومن ثم ظهرت فى طليطلة مدرسة المترجمين التى نقلت العلوم الإغريقية وما أضافه العرب إليها من شروح وتعليقات إلى المدارس الأوروبية، وقد نقلت مدارس الترجمة التى نشرت كافة العلوم التطبيقية والبحتة، والعلوم الإنسانية وكانت طليطلة مهدا لهذه الحركة فانتشرت فيها المكتبات التى نقلت إليها من المشرق آلاف المجلدات . وكانت الترجمة تتم من العربية إلى

اللاتينية عبر العبرية، إذ يقوم اليهود بنقل الكتاب إلى العبرية من العربية، ثم يعاد نقله مرة أخرى إلى اللاتينية، وكان ريموندو Raimondo أسقف طليطلة وكبير مستشارى ملوك قشتالة آنذاك هو الذى شجع حركة الترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية، وكان لجهوده تلك، أبعد الأثر فى مصير أوروبا كما يقول رينان ، ثم توالى خلفاؤه من الأساقفة فى تشجيع هذه الحركة والحرب عليها حتى استمرت أكثر من قرن(٧٩).

إن العدد الكبير من الكتب التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية أو الإيطالية أو العبرية، وهى كتب تملأ المكتبات الأوروبية منذ زمن مبكر، تدل على تقدم العلم الإسلامى بجميع فروعه.

ففى الأندلس برز الكثير من العلماء الذين اهتموا بالترجمة والتعريب ، منهم جيرارد الكريمونى (١١١٤-١١٨٧م) الذى كان يترجم من العربية إلى اللاتينية، وقد نسب إليه ترجمة واحد وسبعين كتابًا فى مختلف العلوم، ويأتى فى مقدمتهم خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر يوحنا الاشبيلى، وكان يترجم من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية(٨٠) ونقل بعض مولفات ابن سينا (النفس) و(الطبيعة) ، (ما وراء الطبيعة) وبعض آثار الغزالى (مقاصد الفلسفة) وابن جيرول (ينبوع الحياة) ، وهناك مترجم آخر هو يوحنا الأسبانى الفلكى الذى ترجم من العربية إلى اللاتينية بعض كتب أبى معشر الفلكى والفرنمانى عام ١١٣٤م وبعض كتب فى الرياضة للخوارزمى انتقل بفضلها النظام العشرى فى الحساب إلى أوروبا، وبفضل هذه الكتب أيضا عرفت أوروبا (الصفر) فأدخلته فى نظامها العددى، وبذلك استغنت عن الطريقة التى كانت تعتمد على القيم العددية للحروف الأبجدية(٨١).

ويرى (سيزكين) إن طريق الأندلس كان أحد الأسباب الرئيسية فى انتقال المعرفة عن المسلمين ، إذ أن الترجمة لم تكن الطريق فقط، بل كان الاحتكاك المباشر له أهمية كبرى أيضا كما حدث فى الأندلس.

ويرى (سيزكين) أيضا أن أقدم ما ترجم كان كتابا فى علم الفلك، ومن الطبيعى- من وجهة نظره - ألا ينتظر - أحد منهم فى هذه المرحلة المبكرة أن يستطيعوا ترجمة الكتب النظرية ذات المسائل المعقدة ، فكانت أقدم ترجماتهم تتعلق بالاسطرلاب والهندسة العملية، والجدير بالذكر هنا أن المترجمين لم يجدوا فى كثير من الأحوال اصطلاحات لاتينية مقابلة للاصطلاحات العربية ، مما اضطرهم إلى اقتراض الاصطلاحات العربية كما هى(٨٢).

وكان أهم ما ترجم من كتب العرب كتب الفلسفة ، وذلك لأن العقلية الأوروبية وقتذاك كانت مشغولة بالمشاكل الفلسفية ، التى تعالج العقيدة أو بمعنى آخر الفلسفة اللاهوتية ، التى عرفت بالفلسفة المدرسية، لأنها كانت تدرس فى المدارس، ومن يقومون بها يسمون المدرسين، وقامت الفلسفة المدرسية على يد القديس أوغسطين (St. Augustin) (٨٣)، وكانت هناك دوافع دفعت الأسبان إلى النقل والترجمة عن العرب وتدارس كتبهم منها: الدفاع عن الديانة المسيحية وذلك عن طريق التعرف على آراء العدو ودراستها لمعارضتها ، وإظهار تفوق العقيدة المسيحية عليها من باب اعرف عدوك. ومنها أيضا: الرغبة فى تحصيل العلم والمعرفة ، خاصة أن أسبانيا كانت تعانى من فقر ثقافى شديد وتخلف كبير. وأخيرا: رغبة المغلوب دائما فى تقليد الغالب(٨٤) ورغبة الضعيف فى التشبه بالقوى، فقد كان العرب أقوياء، ولهم الغلبة، ولذا حاولت أوروبا أن تتشبه بالعرب فى ذلك الوقت(٨٧).

وقد امتدت الفترة الزمنية لمرحلة الترجمة إلى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى ، وتميزت باهتمامها الكبير بترجمات المؤلفات العربية التى تسير على الخط الارسطاطالى . أما المترجمون فظلوا خليطا من الجنسيات الأوروبية ، مثال ذلك الإنجليزى ميخائيل الاسكتلندى، وميخائيل سكوت ، الذى ترجم عام ١٢٧١م، كتب البطروجى، الذى يتبع خط أرسطو الفكرى ، وفيه شكك المؤلف بنظرية بطليموس فى الفلك التى كانت معتمدة خلال العصور الوسطى، وربما اعتمد على أفكاره العالم المشهور كوبرنيق الذى أجهز على النظرية، وقد طبعت هذه الترجمة فى بولونيا عام ١٤٩٥م ، كما أن المترجم ذاته ترجم كتبا لأرسطو مع شروح وتعليقات عليها لابن سينا(٨٦).

وقام الراهب الأسبانى ماركوس بترجمة كتب جالينوس فى الطب إلى اللاتينية من العربية، كما ترجمت تحت إشراف الأسقف جنمنيث دى رادا عدة كتب إسلامية ، كان فى مقدمتها القرآن الكريم، إضافة إلى بعض المؤلفات الدينية الأخرى(٨٧) .

وقد نشطت الترجمة حتى بعد سقوط طليطلة عام ١٠٨٥م حيث استمر كثير من المسلمين واليهود المتكلمين بالعربية فى الإقامة بها، وقد أدرك ريموندو الذى كان أسقفا لطليطلة من عام ١١٢٥م وحتى وفاته عام ١١٥١م، أن هذا الوضع يتيح فرصة عظيمة لممارسة الترجمة، فعكف على تشجيع الباحثين والعلماء للمجئ إلى طليطلة للمساهمة فى مشروع الترجمة ، لذا اشتهر عدد من التراجمة منهم دومنيك جوند يالفى الذى عمل مع عدد من التراجمة مثل يوحنا الاشبيلى ، وابن داود اللذين كانا من المتكلمين بالعربية ، وكان دومنيك هذا يقوم بانتقاء

الأعمال التى يترجمها، ويعطى النص اللاتينى صيغته النهائية، فى حين كان مساعدوه قد نقلوا إلى اللاتينية الفكرة الأساسية للأصل العربى، ويبدو أن معظم الترجمات فى القرن الثانى عشر كانت تتم على هذا النحو[٨٨].

كذلك أسهمت أجزاء أخرى من أسبانيا فى أعمال الترجمة فى القرن الثانى عشر فقبل ذلك بقليل ظهر هو جونديسالفى الذى ترجم كتبًا علمية بناء على طلب أسقف طرسونة، وهى مدينة صغيرة تقع إلى الغرب من سرقسطة، وعلى الساحل الشرقى من مدينة برشلونة قام بلاتو اليقولى مع إبراهام بازجية بترجمة كتب فى الهندسة والفلك من العربية إلى اللاتينية[٨٩].

ويعتبر جوند يسالفى شيخ المترجمين لجهوده الكبيرة فى الترجمة، حيث ألف كتبا نجد فيها لأول مرة آثار الفلسفة الإسلامية. وبدأت عقول ممتازة من الأوروبيين فى قراءة آثار الفلاسفة المسلمين المترجمة حيث بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفى الأوروبى، وذلك فى القرن الثالث عشر[٩٠].

وبلغ الاهتمام بالترجمة من العربية إلى اللاتينية أوجه فى عهد الفونسو العاشر (الملقب بالحكيم) . ففى هذا العصر تناولت أيدى الأسبان كتبا عربية فى الحكم والألغاز نقل أصحابها فيها حشدا من آراء الفلاسفة المسلمين ومفكريهم.

وترجمت عن العربية كتب فى الألعاب كالشطرنج ، واستعملت الموسيقى الأندلسية فى صياغة الأغانى الأسبانية ، وذاعت بينهم ترجمات لكتب عربية مشرقية فى الحكمة والقصص والأمثال إلى اللغات الأوروبية الحديثة منها: كتاب كليلة ودمنة، الذى ترجم إلى الأسبانية سنة ١٢٥١م، ثم إلى اللاتينية ، وكتاب رحلات السندباد الذى انتشر فى أوروبا بعنوان (الرؤساء الحكماء السبعة) وقد ترجم إلى اللاتينية ترجمة لاتزال محفوظة فى العديد من المخطوطات، وقام بطرس الفونسو فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى بترجمة مجموعة من القصص العربية[٩١].

وبعد أن نشطت حركة الترجمة فى صقلية وأسبانيا أيما نشاط بحكم اتصال هذين البلدين بالعرب وتمرسهم بثقافاتهم وأفكارهم ، أخذت تتحول حركة الترجمة إلى مراكز أخرى فى أوروبا ابتداء من القرن الحادى عشر منها إنجلترا وإيطاليا. وكان الطريق يمر عبر صقلية وأسبانيا والمغرب العربى. فمن المعروف أن ما نقله قسطنطين الأفريقى يجاوز السبعين كتابا عربيا إلى سالرنو ، وذلك عن طريق الترجمة، أو نسبة بعض الكتب إليه منها. على سبيل المثال: كتاب (كامل الصناعة الطبى) لعلى بن موسى المجوسى، الذى ظل متداولا عند الأطباء

على أنه من مؤلفات قسطنطين الأفريقى إلى أن تمت ترجمة الكتاب الأصلى فلفتت الحقيقة أنظار المشتغلين فى هذا الحقل (٩٢).

وقد استمر الأوروبيون ينهلون من الكتب العربية ترجمة واقتباسا ، وفى القرن الرابع عشر زاد عدد المشتغلين بالعلوم المترجمة عن العربية، واعتاد كثير منهم تأليف كتب مرجعية ضخمة فى مختلف التخصصات ، منها تلخيص للكتب العربية المترجمة ، ولكن هؤلاء الملخصين اعتادوا حذف أسماء العلماء العرب، وذكروا بدلا عنها أسماء علماء الإغريق المشار إليها فى المصادر العربية، فقد ذكروا بطليموس وكتابه فى الفلك مع أن مصدرهم كان كتاب البتانى ، صحيح أنه أخذ النظام البطليموس ، ولكن كتابه كان يحتوى على اكتشافات مهمة بالمقارنة ببطليموس (٩٣).

ويعتبر الفونس الحكيم- وهو نفسه عالم مستنير - من حماة العلم وأهله، ظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وأسهم فى المجموعة الفلكية الضخمة، وترجم كثيرا من كتب الفلك والنجوم والآلات الفلكية من العربية إلى اللغة القشتالية.

ومن مترجمى ذلك العصر كان ارمينجو Armengand فترجم عن العربية كتابا منسوبا إلى جالينوس والأرجوزة لابن سينا مع شرحها لابن رشد(٩٤) ، وتوجد مجموعة أخرى من التراجمة يضيق المقام عن ذكرهم ، لكثرة ما ترجموا ونقلوا من معارف عربية سواء إلى اللغة اللاتينية أو إلى اللغات الأوروبية أو العبرية ويهمنا أن نقف على الأثر الذى خلفته حركة الترجمة هذه فى المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى. ولعل خير من أفصح عن ذلك الفيلسوف رينان فى كتابه الذى مضى على تأليفه أكثر من قرن حول (ابن رشد والرشدية) عندما قال : إن إدخال النصوص العربية فى دراسات الغرب الأوروبى، يقسم تاريخ الفلسفة والعلم إلى فترتين مختلفتين بصورة كلية، فى الأولى، كان على النفس الإنسانية أن ترضى تطلعاتها إلى المعرفة بتلك البقايا الفقيرة ، المحفوظة فى المدارس الرومانية لعصر الانحطاط ، أما الفترة الثانية فقد استفاد الغرب من المؤلفات الأصلية لليونان والعرب(٩٥).

لقد أدى الاختلاط بين الغربيين والعرب المسلمين عبر كل الوسائل والطرق التى ذكرت حتى الآن ، إلى اقتباسهم شيئا كثيراً من الحضارة العربية الإسلامية، على مختلف الأصعدة والميادين ، ولاسيما فى مجال العلوم الرياضية والفلكية والطبية والصيدلانية والفلسفية والجغرافية ، مما جعل أوروبا تنتقل من مرحلة نومها الطويل عبر قرون عديدة مظلمة، إلى مرحلة أكثر وضوحاً وإشراقا وتأثيرا فى جميع مناحى الحياة العامة بصورة إيجابية (٩٦).

الهوامش

١- توماس ارنولد الفريد جيوم، تراث الإسلام، ص٧٢ .

٢- عبد الرحمن بدوى، دور العرب فى تكفير الفكر الأوروبى، ص١١ .

٣- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٥٨ .

٤- حسان حلاق ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٦٤ .

٥- يوسف محمود، الإنجازات العلمية فى الحضارة إسلامية ص٢٢٢ .

٦- رحاب خضر عكاوى، الموجز فى تاريخ الطب عند العرب، ص٣٢٠، كذلك عامر النجار، فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، ص١٧٣ .

٧- أحمد على الملا، أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية، ص١٢٩ .

٨- عبد الرحمن بدوى، دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، ص٣٨ .

٩- على محمد راضى الأندلس والناصر ، ص٤٠ .

١٠- على عبدالله الدفاع ، تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين ، ص٣٠١ .

١١- عبد الرحمن بدوى، دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، ص٤١ .

١٢- يوسف محمود، الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، ص٢٢٥ .

١٣- عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية ص٢١١، كذلك زنفريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤٩٠ .

١٤- أحمد بدر ، تاريخ الأندلس (السقوط والتأثير الحضارى) ص٤٠٢ .

١٥- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٥ ص٨٩ .

١٦- د. عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص٨ .

١٧- ابن عذارى ، البيان المغرب فى تاريخ أخبار الأندلس والمغرب، ص٢٥٥ .

١٨- د. طه ندا، فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص١٩٥ .

١٩- إحسان عباس، العرب فى صقلية، ص٥٠ .

٢٠- سعيد عبد الفتاح عاشور، فضل العرب على الحضارة الأوروبية، ص٧ .

٢١- ابن عذارى ، البيان المغرب، ص٢٦٤ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٢١ .

٢٢- الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج٤ ، ص٦٥٧ .

٢٣- المصدر نفسه ، ص٦٥٨ .

٢٤- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص٢٢٥ .

٢٥- المصدر نفسه ، ص٣٢٠ .

٢٦- سعيد عبد الفتاح عاشور ، حضارة ونظم أوروبا فى العصور الوسطى ، ص٢٦٢ .

٢٧- المصدر نفسه ، ص٢٦٤ .

٢٨- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص٢٢٢ .

٢٩- جب، تراث الإسلام، ص١٧٤ .

٣٠- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٠ .

٣١- محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، ج١ ، ص٢٨٧ .

٣٢- القفطى ، أخبار الحكماء، ص١٨٩ .

٣٣- محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية، ج٢ ، ص٢٩١ .

٣٤- أحمد على الملا، أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية، ص١٢٥ .

٣٥- إحسان عباس ، العرب فى صقلية، ص١٤٧ .

٣٦- المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، ص٥٦-٦٠ .

٣٧- د. بيكر ، تراث الإسلام، ص١٠٦ .

٣٨- سعيد عاشور: المدنية الإسلامية، ص٥٧-٥٨ .

٣٩- بيكر، تراث الإسلام، ص١١٥ .

٤٠- توفيق الطويل، فى تراثنا العربى والإسلامى، ص١٥٢ .

٤١- Hiti , History of the Arabs , pp. 662, 663, 667, 668

و انظر كذلك : Hiti , The Arabs Short History, pp. 180, 181, 182, 183.

٤٢- توماس أرنولد ، تراث الإسلام، ص١٠١ .

٤٣- طه ندى ، فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٩٢ .

٤٤- توماس أرنولد ، تراث الإسلام، ص١٠١ .

٤٥- المصدر نفسه ، ص٥٠٠ .

٤٦- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٣٦٧ ، ٣٦٨ ، وانظر كذلك : نجيب العقيقى، المستشرقون، ج١ ، ص٧-١٨ ، كذلك : فيليب حتى، موجز الشرق الأدنى، ص٢٢٤ .

٤٧- أحمد مختار العبادى، التاريخ العباسى والأندلسى ، ص٨٩ .

٤٨- عبد العزيز سالم ، العصر العباسى الأول ، ج٣ ، ص٧١ .

٤٩- عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٢٠ .

٥٠- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١ ، ص٢١٣ .

٥١- Lovisseet R. Hist . de France vol III , p. 338 .

٥٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر، ص٨٩ .

٥٣- Lovisset R. Hist de Frence vol II . p. 338 , 339 .

٥٤- منى حسن محمود ، المسلمون فى الأندلس وعلاقاتهم بالفرنجة ، ص٢١٤ .

٥٥- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى، ص٢١٤ .

٥٦- أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص٢١٦ .

٥٧- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، ج٣ ص٢٤٢ .

٥٨- مونتجومرى وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص٣٠ .

٥٩- ياقوت الحموى، معجم البلدان ، ج٢،١، ص٢٦٢ ، ٢٦٤ .

٦٠- شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص٨٨ .

٦١- منى حسن محمود، المسلمون فى الأندلس، ص٢٢٥ .

٦٢- أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٥١ .

٦٣- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٢ .

٦٤- أرشيبالد لويس ، القوى البحرية فى البحر المتوسط، ص١٢٠ .

٦٥- منى حسن محمود، المسلمون فى الأندلس، وعلاقاتهم بالفرنجة ، ص٢٢٩ .

٦٦- أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص١٣٠، حسين مؤنس ، المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، ص٥٣ .

٦٧- Pirenne, Mohammed and Charlemagne p. 174.

٦٨- مجموعة مؤلفين، عبقرية الحضارة العربية، منبع الحضارة الأوروبية ، ص٣٣٧ .

٦٩- المصدر نفسه، ص٣٤٤ .

٧٠- منى حسن محمود، المسلمون فى الأندلس، ص٢٣٣ .

٧١- عبد الحميد الشرقاوى ، الحالة الاقتصادية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى، ص١٣٥ ، وارشيبالد لويس، القوى البحرية فى البحر المتوسط ، ج١، ص٢٦١ .

٧٢- عبد الرحمن فهمى محمد، دراسة لبعض التحف الإسلامية، ص١٩٩ .

٧٣- أنيس الأبيض ، بحوث فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص١٧ .

٧٤- مجموعة مؤلفين، عبقرية الحضارة العربية، منبع الحضارة الأوروبية ، ص٢٤٥ .

٧٥- عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ص٢٩٠ .

٧٦- حكمت عبد الكريم فريحات، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص١٦١ .

٧٧- عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، ص٢٥٦ .

٧٨- فؤاد سيزكين، محاضرات فى تاريخ العلوم العربية والإسلامية، مجلد ١، ص١٢١ .

٧٩- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٥٦٨ .

٨٠- حسان حلاق ، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٧١ .

٨١- محمد عبد الرحمن مرحبا ، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب ، ص٥٦٩ .

٨٢- فؤاد سيزكين ، محاضرات فى تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ج١، ص١٢١ ، ١٢٢ .

٨٣- عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٩١ .

٨٤- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٥٧١ .

٨٥- رمضان الصباغ ، العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص٢٩٧ .

٨٦- أحمد بدر ، تاريخ الأندلس، ص٤١٢ .

٨٧- المصدر نفسه، ص٤١٣ .

٨٨- مونتجومرى وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص٨٤ .

٨٩- المصدر نفسه ، ص٨٥ .

٩٠- عبد الرحمن بدوى، دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، ص٣١ .

٩١- المصدر نفسه ، ص٦٧ .

٩٢- فؤاد سيزكين، مصدر سابق، ص١٢٥ .

٩٣- المصدر نفسه، ص١٢٩ .

٩٤- توفيق الطويل، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ، ص١٦٢ .

٩٥- Renan , Averries 1, Averroishne pp; 158, 159 .

٩٦- الكسندر، ستيفنتش ، تاريخ الكتاب، ترجمة محمد الأرناؤوطى ، ص٢٤٦ ، عمر الإسكندرى وسليم حسن ، تاريخ أوروبا الحديثة وآثار حضارتها، ص٦٠٥ ، كذلك إبراهيم زعرور وعلى الأحمد، المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية فى الغرب الأوروبى خلال العصور الوسطى، ص١٨ .

المصادر والمراجع

أولا : باللغة العربية:

ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م).

١- الكامل فى التاريخ ، دار صادر، بيروت .

ابن جبير : محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى المكنى بأبى الحسين.

٢- رحلة ابن جبير ، المسماة : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار تقديم د. محمد مصطفى زيادة ، دار الكتاب اللبنانى ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة، بدون تاريخ .

ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبى (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) .

٣- صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٩٢م.

ابن عذارى : أبو عبدالله محمد المراكشى (ت نهاية القرن السابع الهجرى)

٤- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، جزءان، تحقيق ومراجعة ج.س- كولان ولافى برفنسال - دار الثقافة، بيروت .

الأبيض ، أنيس (دكتور)

٥- بحوث فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى جروس برس، بيروت ، ١٩٩٤م.

الإسكندرى . عمر وسليم حسن.

٦- تاريخ أوروبا الحديثة أثار حضارتها، دار المعارف ، القاهرة، ١٩١٧م.

أحمد، عزيز (دكتور) .

٧- تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: د. أمين توفيق الطيبى، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٠م.

إسماعيل ، محمود (دكتور) :

٨- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ، الكويت ١٩٩٢م.

الحموى : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومى (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .

٩- معجم البلدان ، دار إحياء التراث ، بيروت ١٩٨٠م.

الدفاع ، على عبدالله (دكتور)

١٠- تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١م.

الدورى، عبد العزيز (الدكتور).

١١- العصر العباسى الأول، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى الطبعة الثانية، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ١٩٨٨م.

ارسلان ، شكيب.

١٢- تاريخ غزوات العرب، القاهرة، ١٣٥٢هـ .

الشرقاوى ، عبد الحميد

١٣- الحالة الاقتصادية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى، جامعة القاهرة، ١٩٥٠م.

الصباغ ، رمضان (دكتور)

١٤- العلم عند العرب، وأثره على الحضارة الأوروبية ، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، إسكندرية ، ١٩٩٨م.

الصفدى: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

١٥- الوافى بالوفيات ، فيسبادن ، ١٩٧١م.

الطويل، توفيق (دكتور) .

١٦- فى تراثنا العربى والإسلامى، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٥م.

العبادى ، أحمد مختار (الدكتور) .

١٧- فى التاريخ العباسى والأندلسى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢م.

١٨- فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

العقيقى: نجيب.

١٩- المستشرقون ، القاهرة، بدون تاريخ .

القفطى : جمال الدين أبو الحسن على (ت ٦٣٦هـ / ١٢٤٨م)

٢٠- أخبار الحكماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦هـ .

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

٢١- السلوك لمعرفة دول الملوك ، جزئين ، نشر وتحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف، والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٤ ، الطبعة الثانية ١٩٥٦م،ج٣ ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠م. ١٩٧٢م.

الملا، أحمد على:

٢٢- أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق ١٩٨١م.

النجار، عامر (دكتور)

٢٣- فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، دار الهداية ، القاهرة، ١٩٨٦م.

بدر، أحمد (دكتور)

٢٤- تاريخ الأندلس ، التجزؤ- السيادة المغربية، السقوط والتأثير الحضارى مكتبة أطلس، دمشق ١٩٨٣م.

بدوى، عبد الرحمن:

٢٥- دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، الطبعة الثانية، وكالة المطبوعات ، الكويت، ١٩٧٩م.

توماس أرنولد ، الفريدجيوم:

٢٦- تراث الإسلام ، كتب فصوله : ب ترند، أرنست بيكر، أ.ر. جب، ألفرد جيوم، ,١ هـ ، توماس أرنولد، مارتن برجز، قامت على ترجمته ونشره بالعربية، لجنة الجامعيين لنشر العلم، جزئين، القاهرة ١٩٣٦م.

حتى، فيليب:

٢٧- موجز الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، ١٩٧٠ .

حسن : حسن إبراهيم (الدكتور)

٢٨- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٣ ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

خلاق ، حسان (الدكتور)

٢٩- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٩م.

راضي ، علي محمد

٣٠- الأندلس والناصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

زعرور ، إبراهيم (الدكتور) ود. علي أحمد

٣١- المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى، دار المستقبل ، دمشق.

سالم ، السيد عبد العزيز (دكتور)

٣٢- العصر العباسي الأول، دراسات في تاريخ العرب، ج٣، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٣٣- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م.

ستيفيتش ، الكسندر

٣٤- تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، سلسلة عالم المعرفة ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٩٣م.

سيزكين ، فؤاد

٣٥- محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، سلسلة نصوص، ودراسات، المجلد الأول، منشورات تاريخ العلوم العربية الإسلامية، فرانكفورت ١٩٨٤ .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح (دكتور)

٣٦- أوروبا العصور الوسطى، ج١ ، التاريخ السياسي الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٩١م.

٣٧- حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٦ .

٣٨- فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣٩- النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر ، ١٩٥٦م.

عباس، إحسان (دكتور)

٤٠- العرب في صقلية ، دراسة فى التاريخ والآداب، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٥ .

عكاوى ، رحاب خضر (الدكتور)

٤١- الموجز فى تاريخ الطب عند العرب، دار المناهل ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٥م.

على، محمد كرد

٤٢- الإسلام والحضارة العربية، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م.

فراج ، عز الدين (دكتور)

٤٣- فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، دار الفكر العربى القاهرة.

فريحات ، حكمت عبد الكريم (الدكتور) وإبراهيم ياسين الخطيب.

٤٤- مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٨٩م.

لوبون، جوستاف

٤٥- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة البابى الحلبى القاهرة، ١٩٤٨م.

لويس، ارشيبالد

٤٦- القوى البحرية فى البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.

ماجد، عبد المنعم (الدكتور)

٤٧- تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٦م.

مؤنس ، حسين (الدكتور)

٤٨- المسلمون في البحر المتوسط، المجلة التاريخية، تصدرها الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد الرابع، ١٩٥١م.

مجموعة من المؤلفين :

٤٩- عبقرية الحضارة العربية، منبع النهضة الأوروبية، ترجمة عبد الكريم، محفوظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، بنغازى، ١٩٩٠ .

محمد، عبد الرحمن فهى (الدكتور)

٥٠- دراسة لبعض التحف الإسلامية، حولية كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٢ ، العدد١ ، ١٩٦٠ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م.

محمود، منى حسن (دكتورة)

٥١- المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢-٢٠٦هـ / ٧١٤-٨١٥م) دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٦ .

محمود، يوسف

٥٢- دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، القاهرة .

مرحبا، محمد عبد الرحمن (دكتور)

٥٣- المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الفيحاء ، طرابلس، ١٩٨٩ .

منتصر ، عبد الحليم (الدكتور)

٥٤- تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.

نداء طه (الدكتور)

٥٥- فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٣م.

هونكة ، زنغريد

٥٦- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وأخرون، الطبعة الثالثة، المكتب التجارى للطباعة، والتوزيع والنشر بيروت، ١٩٧٩م.

وات ، مونتجومرى

٥٧- أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، ترجمة : جابر أبى جابر، دمشق وزارة الثقافة ١٩٨١م.

٥٨- فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة : حسين أحمد أمين، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٣م.

ثانيا : باللغة الأجنبية :

59- Hitt , p. k.

History of The Arab , London - 1949 .

60- The Arabs: Short History Prenston 1941 , 1944 .

61- Lovisset History de France Depuis Origines Jusque 1906 .

(Revolution) Paris, 1911 .

Pirenne (Henri).

62- Mohammed and charlemagne.

London 1911 .

63- Averries I, Averrostine, Paris 1862 .

د. السيد حسين جلال (*)

بور سعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشرق والغرب

نشأة ونمو المدينة :

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبالتحديد فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ أقيم حفل متواضع إيذانا بالبدء فى عمليات حفر المدخل الشمالى لقناة السويس ، وقد شهد الحفل جمع من مستخدمى الشركة والمقاول العام وفريق من العمال المصريين، بلغ عددهم فى ذلك اليوم نحو مائة عامل جئ بهم من دمياط والنواحى القريبة منها وألقى دى لسبس خطابا قال فيه : «نضرب أول معول فى الأرض التى ستفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته»(١).

وأخذت المدينة تنمو مع سير عمليات الحفر ، وأخذت المبانى الحجرية المتماسكة تتزايد لتحل محل المنشآت الخشبية ، وبدأ وصول القناصل ثم الجرائد المحلية وافتتحت المدارس وشيد البنك العثمانى فرعا له ببورسعيد (١٨٦٣) ، وصارت بور سعيد مدينة وليدة ، ارتبطت الحياة فيها بالميناء الذى افتتح للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ . وقد أطلق عليها البعض اسم : «بوابة الشرق» .

وعلى الشاطئ الشرقى (الضفة الآسيوية) أنشئت مدينة جديدة هى بور فؤاد فى عام ١٩٢٦ لسكنى مستخدمى وعمال شركة قناة السويس علاوة على الورش الخاصة بصيانة الوحدات البحرية للشركة . وقد خططت هذه المدينة تخطيطا حديثا فشوارعها واسعة ومحاطة بالحدائق الجميلة (٢).

---

* كلية الآداب - بدمنهور- جامعة الإسكندرية .

التركيب السكاني لبورسعيد :

شهدت الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ جذبا سكانيا كبيرا وخاصة من الأجانب الذين قدموا بحثا عن الثروة والعمل في هذا الموقع الاستراتيجي الهام وساعد على ذلك سياسة دى لسبس وشركة قناة السويس من جهة وسياسة الخديوى سعيد وإسماعيل من جهة أخرى، فقد فتحوا أبواب مصر على مصراعيها للأجانب ، ويذهب الدكتور محمد صبرى (السربونى) فى وصف هذه الحركة «إلى أنها كانت أقرب إلى الغزو منها إلى الهجرة»(٣).

وعندما ألغيت السخرة فى حفر القناة ووفد إلى مصر جموع متباينة من العمال الأجانب اضطرب حبل الأمن وكثرت حوادث القتل والسطو ، وتعددت حوادث الاعتداء على الشرطة ومهاجمة مراكز قواته .

وكان وقوع هذه الحوداث بكثرة بين العمال أمرا متوقعا ، إذ كانوا على قدر كبيبر من التنافر فى الأخلاق والعادات والتقاليد والأمزجة واللغة ، فكان لابد من الصدام. أضف إلى ذلك إن كثيرا منهم كانوا من المتعطلين الذين ضاقت بهم سبل الحياة فى أوطانهم فجاؤا إلى مصر التماسا للرزق فى عمليات حفر القناة ، فكانوا فى حال من الفقر . وقد وصف محافظ الإسكندرية العمال الإيطاليين الذين وفدوا إلى مصر فى أكتوبر ١٨٦٥ بأنهم : «من سفلة الناس» (٤).

وعند افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ بلغ تعداد سكان مدينة بور سعيد حوالى عشرة آلاف نسمة ، وبعد ثمانين عاما فقط أصبحت ثالثة مدن القطر المصرى وبلغ عدد سكانها ١٢٥٠٠٠ نسمة (٥)، وجمعت أخلاطا شتى : يونانيين وفرنسيين وإيطاليين ونمساويين وبريطانيين ومالطيين وهنود وقبارصة علاوة على الشوام والمصريين . وكانت الجالية اليونانية من أكبر الجاليات الأجنبية فى بور سعيد ، وكانوا محل تقدير دى لسبس، حتى أنهم طلبوا منه تعديل اسم بور سعيد إلى : «كاسوس الجديدة» (٦)، ولكن دى لسبس خشى غضب إسماعيل (٧).

والجدير بالذكر إن الجاليات الأجنبية وفدت إلى بور سعيد فى ظل نظام التسلط القنصلى والامتيازات الأجنبية ، فاستغلت هذه الامتيازات أسوأ استغلال، كما سارعت الدول لإقامة قنصليات لها فى بور سعيد بلغت ١٤ قنصلية .

أما بالنسبة للمصريين فقد توافدوا من محافظات : دمياط والدقهلية وكفر الشيخ والنوبة والصعيد باحثين عن فرص عمل بالمدينة والميناء الجديدين.

الحي الإفرنجي والحي العربي:

انقسمت المدينة إلى قسمين:

أولا- الحي الإفرنجي:

ويقع إلى الشرق والشمال الشرقي للمدينة حيث أقام به الأجانب وقد توفرت لهم كافة أسباب الحياة في ظل الخدمات الممتازة من محلات ومطاعم بأنواعها ومقاهي وفرق موسيقية وكباريهات وخمارات وفنادق وميادين عامة وحدائق ومحلات للعب القمار .. الخ وكان الطراز المعماري لمنشآت بور سعيد يجمع بين الطابعين العربي والأوربي ، تحميها أسقف مائلة ومزودة بالشرفات والفراندات الزجاجية وكذلك مبنى شركة قناة السويس ذى القباب الثلاثة والبواكي والكنائس ذات الطراز القوطي.

التماثيل :

كذلك ازدانت المدينة بالتماثيل التي تخلد شخصيات فرنسية وأخرى إنجليزية نذكرها حسب ترتيب إقامتها زمنيا، فبعد عودة الإمبراطورة أوجيني لفرنسا عقب حفلات افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) أوصت المثال الفرنسي (الإيطالي الأصل) بارتولدى Bartholdi بصنع تمثال ليوضع في مدخل قناة السويس الشمالي، وانتهى المثال من صنع التمثال الذى بلغ ارتفاعه ٤٦ مترا وهو يمثل سيدة ترمز للحرية وتحمل في يدها شعلة . وقبل تنفيذ إقامة هذا التمثال قامت الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا وانتهت بهزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ودخلت القوات الروسية باريس وأسرت الإمبراطور نابليون الثالث وهربت الإمبراطورة أوجيني ونجلها لويس نابليون إلى إنجلترا وبقي التمثال إلى أن قامت الرابطة «الفرنسية - الأمريكية» بإهدائه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تقديرا وتعبيرا منها لحرية الشعوب، فوضع على قاعدة ارتفاعها ٤٥ مترا عند مدخل ميناء نيويورك على المحيط الأطلسي بارتفاع ٩١ مترا. وفي يوليو ١٨٨٦ (العيد القومي الأمريكي) أزيح الستار عن التمثال في احتفال هز العالم كله [٨].

تمثال نصفي لدى لسبس (١٨٩٥) :

كانت توجد في وسط ميدان دى لسبس حديقة من الأشجار الكثيفة أقيم في طرفها الشمالي تمثال نصفي لدى لسبس ، ففي ١٦ يونيو ١٨٩٥ حضر جمع غفير من أهالي بور سعيد الحفل الكبير الذى أقيم في ميدان دى لسبس لإزاحة الستار عن التمثال النصفي لدى

لسبس ، وكانت قد تكونت جمعية برئاسة السيد باخو Pacho [٩]، وقامت هذه الجمعية بجمع الأموال بغرض إقامة هذا التمثال الذى صممه المثال Mantovan، وحضرت ثلاث فرق موسيقية : اليونانية والدولية والليرة، وقد حضر هذا الحفل جميع الشخصيات الرسمية بالمدينة منها قنصلا اليونان وإيطاليا إلا إن شخصيات شركة قناة السويس لم تحضر تلك الحفلة وكذلك قنصل فرنسا. وكانت هذه المقاطعة مثار حديث أهالى بور سعيد . ويرجع السبب فى تلك المقاطعة أن شركة القناة كان فى نيتها إقامة تمثال ضخم لدى لسبس[١٠].

تمثال للملكة فيكتوريا (١٨٩٧) :

احتفلت قوات جيش الاحتلال البريطانى سنة ١٨٩٧ بإقامة تمثال الملكة فيكتوريا [١١]، وذلك بمناسبة العيد الستينى لجلوسها على العرش. وقام بتنظيم هذا الحفل اللورد كرومر (المعتمد البريطانى فى مصر) ومعه قنصل بريطانيا فى بور سعيد . وقد قاطع هذا الحفل الخديوى عباس حلمى.

وهذا التمثال عبارة عن قاعدة فى شكل أربعة أسود تصب مياها من أفواهها لتسقط بالحوض ، وكان يشرب منه المارة ، حتى عرفت عند أهالى بورسعيد القدامى باسم «سبيل فيكتوريا» وعلى نفس العمود وأعلى الأسود ذكر مناسبة هذا التمثال وسنة إزاحة الستار، ويعلو هذا العمود، تمثال للملكة فيكتوريا ، وقد أقيم على رصيف الميناء المطل على شارع فرانسوا جوزيف [١٢].

تمثال دى لسبس (١٨٩٩) :

قررت الجمعية العمومية لشركة قناة السويس فى جلسة ١٨٩٧- بناء على اقتراح الأمير اوجست دارنبرج (Auguste D'Arenberg) - إقامة تمثال فى برزخ قناة السويس لفرديناد دى لسبس ، وقد تم التصويت على القروض المطلوبة ، تاركين لمجلس الإدارة اختيار النحات والموقع الذى سيقام فيه التمثال . وستقوم الباخرة Indus بنقل أعضاء مجلس الإدارة والمدعوين على هذه السفينة . وغادرت السفينة اندوس (المذكورة) ميناء مارسيليا فى ١٢ نوفمبر ١٨٩٩ [١٣].

وقد تم صنع تمثال دى لسبس من البرونز وتم تدشينه يوم ١٧ نوفمبر ١٨٩٩، بمناسبة العيد الثلاثينى لافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية. وبلغ ارتفاعه ٧ أمتار وينصب فوق

قاعدة تجعل ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار، وكان ايمانويل فريميه (Fremiet)[١٤] الذى صنع هذا التمثال ، يتمنى أن يضع عند قاعدته تماثيل نصفية لأربعة خديوات مصريين متعاقبيين : سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس، ولكن تم إثنائه عن فكرته حتى لا يغضب المصريين: إن الرجل عظيم ولكن لايمكن وضع أربعة عواهل عند قدميه [١٥].

احتفالات إقامة التمثال (١٨٩٩) :

يعتبر هذا الاحتفال العالمى الثانى فى بورسعيد ، بعد الاحتفال العالمى الأول لافتتاح القناة عام (١٨٦٩) وقد بدأت مراسم الاحتفال العالمى الثانى فى التاسعة من صباح السبت ١٧ نوفمبر ١٨٩٩ بإزاحة الستار عن تمثال دى لسبس ، حضره الخديو عباس حلمى الثانى، الذى جاء إلى ميناء بور سعيد على اليخت المحروسة، وهو نفس اليخت الذى استقله الخديوى عند استقباله للملوك والأمراء ببور سعيد عند حفلات الافتتاح . وقد جاءت وفود الوزراء المصريين فى قطار خاص وكذلك المدعوين الأجانب من القاهرة والإسكندرية. هذا علاوة على السفن الحربية الكثيرة التابعة لفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والدانمارك . وكان الجسر العائم (Ponton) مغطى بخيام مصرية وبأكثر من ٣٠٠٠ شخص وعمال من كل نقاط القناة ، والأطفال من كل مدارس بور سعيد اصطفوا على السقالات Gradins المدرجات) ، وكان من بين كبار المدعوين الأمير والدمان Waldeman من الدنمارك ، والغازى مختار باشا واللورد كرومر ، والوزير الإيطالى توجينى (Tugini) وسفير فرنسا بمصر Cogordan وسفير اليونان M. Oryparis والوزير الهولندى Vilbos والوزير الألمانى Muller والوزير البرتغالى Zogheb[١٦] ، كما شهد الاحتفال أسرة دى لسبس [١٧]. وقد ألقى الخديو عباس حلمى الثانى كلمته وفى ١٩ نوفمبر ١٨٩٩ وقلد عباس بيده النيشان المجيدى من الدرجة الأولى للأمير دارنبرج . وفى ٤ ديسمبر دعى الخديوى أفراد عائلة دى لسبس لتناول الغداء بسراى القبة[١٨].

هذا ويمثل التمثال دى لسبس وقد ارتدى عباءة فوق بذلته وقبض بيده اليسرى على خريطة مشروعه الضخم، وأشار بيده اليمنى إشارة كلها ثقة وكرم، كأنما يدعو كل قادم إلى الشرق عن طريق القناة بقوله : «تفضل» وقد بدت أسارير وجهه واضحة مطمئنة[١٩].

دى لسبس وفضيحة قناة باناما:

توفى دى لسبس وهو حزين بعد أن تحطم بسبب فضيحة قناة باناما ، وكان قد بلغ الرابعة والسبعين من عمره حين تم اللجوء إليه ليرأس الشركة العالمية للقناة التى تربط المحيطين

الأطلنطى بالباسيفيكى. لقد بدأ مشروع باناما انطلاقا من خطأ فنى أدى إلى سوء تقدير الميزانية، ثم تحول إلى كارثة بعد وفاة العديد من المهندسين والعمال والفنيين بعد إصابتهم بالحمى الصفراء . ولكنها كانت بالأخص فضيحة مالية وسياسية اتسمت بدفع أموال خلسة من أجل الحصول على قرض . استلزم الأمر توقف الأعمال وإعلان إفلاس الشركة، وقد أفلت دى لسبس من محكمة الجنايات ومن السجن ، على عكس ابنه شارل ادين بالفساد، ولم تعد الصحافة تهتم إلا بالأموال القذرة[٢٠].

وهكذا تحولت قناة باناما من مشروع خاص إلى فضيحة عامة (a public scandle) بعد أن قاضى المساهمون الشركة الفرنسية وعلى رأسها دى لسبس وابنه شارل وأعضاء مجلس إدارتها . وبعد أن حكم عليهم بالسجن وبغرامات فادحة ، الأمر الذى أدى إلى هرب بعضهم وانتحار البعض الاخر ، وأوقف تنفيذ الحكم على دى لسبس لكبر سنه . وواصلت الحكومة الأمريكية الأعمال بمعرفتها ابتداء من عام ١٩٠٤ فأنجزتها فى عام ١٩١٤ وافتتحت رسميا للملاحة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩١٤ [٢١].

ويجب أن نتوقف هنا لنذكر القارئ بأن دى لسبس نجح فى مصر لأنه استعان فى حفرة قناة السويس بأيدى مصرية عن طريق السخرة ، وعندما جاء الخديو إسماعيل طلب من دى لسبس إلغاء السخرة فلجأ دى لسبس بالاتفاق مع الخديو إسماعيل– بقبول تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث– فقضى الأخير بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٤ بتعويض هائل يقدمه إسماعيل لدى لسبس قدره ٣٨ مليون فرنك مقابل إلغاء السخرة فى حفر قناة السويس [٢٢]. هذا المبلغ الضخم علاوة على قيام الشركة ببيع الأراضى المصرية حول القناة والترعة العذبة أعانها على إتمام المشروع .

تمثال الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين (١٩٣٢) :

أقيم هذا التمثال لتخليد جنود هذا الجيش الذين ماتوا أثناء الدفاع عن القناة وشبه جزيرة سيناء. وهو عبارة عن تمثال يمثل جندى من الخيالة الخفيفة ، ومعه جواد ، وهو مصنوع من الرخام الأسترالى الصلب بمعرفة حفار ماهر من ذوى الشهرة العالمية . وقد وافق مجلس بلدى بورسعيد [٢٣]، على أن يقتطع جزءا من حديقة واصف المطلة على الميناء، وفى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ تم رفع الستار عن الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين المشتركين فى الحرب العالمية الأولى ، وأقيم بجوار حديقة كازينو بالاس ، وكانت نفقات إقامة هذا التمثال من

تبرعات جنود هاتين الدولتين تخليدا لذكرى زملائهم الذين ماتوا فى الحرب ما بين ١٩١٤ و١٩١٨ (٢٤). وحضر حفل إزاحة الستار عن التمثال المندوب السامى البريطانى « السير برس لورين» ورئيس وزراء استراليا السابق السيد / هيوز Hiouz وقائد الجيش البريطانى فى مصر ورئيس الوزراء المصرى إسماعيل صدقى باشا وسعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء موفدا من قبل الملك فؤاد وقناصل الدول وكثير من سكان بورسعيد (٢٥).

الأهالى فى بور سعيد يقومون بتحطيم التماثيل فى بور سعيد (١٩٥٦) :

فى أعقاب العدوان الثلاثى (الإسرائيلى البريطانى الفرنسى) عام ١٩٥٦ على بورسعيد ، قام أهالى بورسعيد بنسف تمثال دى لسبس غداة رحيل القوات المعتدية عن بورسعيد ، ونزعوا العلم البريطانى من يده ، وهو الذى وضعته القوات البريطانية قبل رحيلها ، ثم نزل التمثال يتهاوى فوق إحدى المواعين بالقناة . كذلك قام رجال المقاومة الشعبية بتحطيم تمثال الجندى المجهول بعد تحطيم تمثال دى لسبس(٢٦). ويتهكم أحد الكتاب الفرنسيين(٢٧) عن هذه الحادثة فيقول : «إن دى لسبس الذى كانت تغطيه الزهور أصبح شيطانا» . ألم يكن هذا المجرم المحاط بالسماسرة والمرابين هو «أسوأ عدو لمصر خلال القرن التاسع وفقا لتأكيد الدكتورحسين مؤنس عضو لجنة تضم أساتذة جامعيين وكتابا ومصريين (٢٨)، «كان تاريخنا خلال الـ ١٥٠ عاما الماضية هو تاريخ صراعنا ضد فرنسا وإنجلترا لم يمر عام واحد دون حدوث صراع بيننا وبين الواحدة والأخرى»(٢٩)، وعلى أى حال فإن تمثال دى لسبس يقبع الآن فى ترسانة بورسعيد البحرية ويثير أزمة ثقافية بين مصر و فرنسا .

ثانيا : حى العرب:

أنشأه العمال المصريون الذين جاءوا لبور سعيد سنة ١٨٦٢ واشتغلوا فى المهن الصغيرة كحمالين وباعة وسعاة وسقايين و«بمبوطية» والتى تعنى فى الأصل (Boat Man) أي عمال القوارب التى تعمل فى البحر للارتزاق من السفن الراسية بالميناء. وقد أخذوا هذه المهنة نقلا عن التجار اليونانيين الذين كانوا يستقلون القوارب التى تسير فى القناة البحرية الصغيرة وكانت تحمل ألونا مختلفة من الأطعمة والمشروبات والفواكه والملابس وتباع هذه الأنواع المختلفة إلى العمال الذين يعملون فى الكراكات حيث تكون فى جهات بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان ، وكان يتعذر عليهم أن يحصلوا على حاجياتهم بطريقة منتظمة سهلة ، وكان أصحاب هذه القوارب هم بحارتها .

هذا وقد بنى الوافدون الأولون من الأهالى مساكنهم من الأخشاب والحصر ، وكان معظمهم من الفلاحين الذين لايتحدثون إلا باللغة العربية وفى الحى العربى أو قرية العرب كما كان يطلق عليها فى بادئ الأمر، كانت الشوارع ضيقة والمنازل متواضعة يبدو عليها فقر السكان ولكن تنبعث منها روح جذابة تخالف الروح المادية المنبعثة من حى الإفرنج . هنا الشرق بحركته ونشاطه وضجيجه وحواريه وحوانيته ونداءاته وأطفاله ونسائه وملابسه وألوانه ومشاكله وزحامه وحياته الشرقية الساحرة الحكيمة المملوءة فلسفة وقناعة. فهذا رجل يصلى وهذا طفل يمرح وهذه أمرأة تصرخ وتلك حوارى غير مرصوفة يغوص الأطفال فى طينها بين قاذورات لانهاية لها وميكروبات خطيرة . كذلك يكثر الباعة المتجولون يبيعون الخضروات والفواكه والمثلجات . ويربط الحمالون حميرهم فى عربات «كارو» لنقل الأثاث من مكان لآخر. وفى شارع الجامع التوفيقى(٣٠) ترى الترام تجره البغال على شريط من (الدكوفيل) كرمز لأخذ الشرق بالمدينة الغربية والتطور المنظور فى هدف الحياة الفطرية الأولى لاعتناق مذهب السرعة(٣١).

وقد حدث قبل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) حريق هائل فى قرية العرب أدى إلى دمار كثير من العشش الخشبية الواقعة غرب المدينة وتم إعادة تخطيط قرية العرب بحيث تتكون من مربعات تفصلها شوارع وحارات بحيث تقلل من أخطار الحرائق فى حالة حدوثها (٣٢).

وكان يفصل حى العرب عن حى الإفرنجى أرض فضاء كانت تغمرها المياه فى أغلب أوقات السنة، وكان الاتصال بين الحيين يتم بواسطة فلايك . وفى سنة ١٨٨٥ أصبحت تلك المنطقة جافة تماما، وقامت شركة القناة ببيع أراضى تلك المنطقة ، وعرف هذا الفاصل فيما بعد باسم شارع محمد على ، وقام دى لسبس بتجميع أبناء جزيرة كاسوس فى منطقة واحدة عرفت «بحارة الكاشوتيه» فى جزء من شرق هذا الشارع (٣٣).

وعند حدود حى العرب تجد يافطة سوداء كتب عليها بالإنجليزية تحذير للقوات البريطانية بأن هذا هو حى العرب، وهو خارج حدود تحرك القوات البريطانية (Arab Town out of bounds) وبالفعل لم يكن لهم الحق فى التحرك داخل المنطقة غرب شارع محمد على .

التعليم فى بور سعيد:

أولا : التعليم الأجنبى :

كان للتعليم الأجنبى فى بور سعيد دوراً كبيراً فى النهضة التعليمية بها. ويمكن تقسيم أنواع المدارس الأجنبية التى قامت بالنشاط التعليمى فى بور سعيد إلى الآتى :

١- مدارس الإرساليات الدينية(٣٤)

إرسالية أخوات الراعى الصالح Soeus du bon pasteur ، وهى من أقدم المدارس وقد افتتحت فى ١٨ أغسطس ١٨٦٣ . وقد ألحق دى لسبس بها مستشفى شركة القناة فى بورسعيد والمبنى عبارة عن سكن للراهبات ومدرسة وملجأ يقبل البنات اليتيمات من أى جنسية وأي دين من ٧ إلى ١٨ سنة وتقوم تلك اليتيمات بأعمال المشغولات اليدوية والتى تعرض للبيع لصالح الأعمال الخيرية لتلك المؤسسة حيث توجد إداراتها ببلدة انجر بفرنسا(٣٥).

وقد زار الخديو إسماعيل هذه المدارس (١٨٦٩) عند زيارته لمنطقة قناة السويس . وفى سنة ١٨٧٥ بلغ عدد الموجودين بالمدرسة ٣١ فتاة ٩ نمساويات، ٥ مصريات ٩ إيطاليات ، ٤ فرنسيات ، ٣ يونانيات وألمانية واحدة) وكانت دياناتهن : ٢٧ كاثوليكية ٢ أرثوذكسية ، ومسلمة ويهودية (إسرائيلية) (٣٦). وكان منهج الدراسة معلومات أولية باللغة الفرنسية ومبادئ اللغة الألمانية والإيطالية والإنجليزية بالإضافة إلى دروس الموسيقى، والمعلومات العامة، وكان التعليم بالمجان . أما نفقات المدرسة فكانت تتكفل بها الراهبات من عملهن اليدوى والأطفال ، علاوة على معونة شهرية قدرها ١٠٠ فرنك من إدارة شركة قناة السويس .

وانشأت أيضا مدرسة دينية للبنات- غير اليتيمات - كان بها ٨ طالبات ، ٤ منهن بالداخلية و٤ بالخارجية وكانت الدراسة بها بالمجان ، وأنشأت أيضا مدرسة خارجية بالمصروفات عام ١٨٧٤ وأخرى بالمجان (٣٧).

وكان يدرس بالأولى ٣٦ طالبة وبالثانية ٨ طالبات وكانت جنسياتهن : فرنسية وإيطالية ومصرية ويونانية ونمساوية ومالطية وبولندية . أما الديانات فكانت موزعة إلى: الكاثوليكية والأرثوذكسية واليهودية . وكان يدرس فى هذه المدارس نفس المناهج التى تدرس بمدرسة الراعى الصالح الدينية للأيتام . وكانت المصاريف الدراسية تتناسب ودخل أولياء الأمور. وقد حددت المصروفات العادية بعشرين فرنكا شهريا ثم عشرة فرنكات فسبعة فخمسة(٣٨).

ومنذ أن تأسست شركة قناة السويس، كانت هناك حاجة لإنشاء مدرسة فى منطقة القناة إذ أن السكان يعرفون اللغة الفرنسية لأنها كانت لغة شركة القناة، فتقرر إنشاء مدرسة بها، وقد دخل الفرير بورسعيد فى مارس ١٨٨٧ ، وكان عددهم ثلاثة إخوة.

والتجأ الفرير إلى دير الأباء الفرنسيسكان . وقد افتتحت المدرسة فى مارس وكان ثمانية تلاميذ زادوا فى آخر السنة إلى أربعين ، وضمت الجنسيات الآتية : (١٢ فرنسيون ، ١١ يونانيون ، ١١ نمساويون، ٤ إيطاليون، ٣ مالطيون ، ٢ مصريون، ٢أتراك ، ١برتغالى)(٣٩). ثم افتتح المدير فصولا مجانية لأبناء العمال، وبعد مدة أصبح العدد ٦٧ بالمجان ، ٦٥ بالمصروفات ولما ضاق المكان بالتلاميذ اتفق المدير مع شركة القناة بالاشتراك مع الحكومة المصرية فى ٢٠ فبراير ١٨٨٩ ، بأخذ قطعة من أرض مساحتها ٤٧٠٠م على شارع أوجينى لبناء المدرسة، وتم البناء فى سبتمبر ١٨٩٠ وسميت College Saint Marie وكانت تدرس فيها اللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والعربية ومبادئ تجارية . وفى عام ١٨٩١ ابتدأت فصول ليلية للتلاميذ الذين يرغبون فى تحسين لغتهم الفرنسية.

وإبان الحرب العالمية الأولى غادر ستة من الإخوة المدرسة وألقيت عليها القنابل ، ثم عادت إلى نشاطها السابق بعد الحرب، وقد زارها الملك فؤاد عام ١٩٢٤ ، ومنح جائزة للمتفوقين بهـا(٤٠). هذا ويلاحظ أن المدارس الأجنبية كانت محل عطف ورعاية كل من الخديو سعيد وإسماعيل ومن جاء بعدهم، مما دفع الراهبات للتقدم لاسماعيل سنة ١٨٧٧ بطلب يلتمسن فيه منحهن نصيبا من الحنطة وقد أنشئ هذا الملجأ فى النصف الأول من السبعينات (٤١).

وتقدمن للحكومة المصرية سنة ١٨٨٠ للإنفاق منها على الدير الذى أنشأن ببورسعيد لدراسة اللاهوت، وكانت شركة قناة السويس قد منحتهن حوالى ١٠٠٠ فرنك ، وطالبن بأن يكون تحت إشراف الحكومة . وكانت شركة قناة السويس قد طلبت بأن تكون المدرسة تابعة لها نظير دفعها ٥٠ فرنكا شهريا للمساهمة فى نفقاتها . فقد قبلت الحكومة المصرية دفع منحة لهن بشرط إشرافها وحدها عليها (٤٢). وكانت محافظة بورسعيد قد طلبت من ديوان المدارس إلحاق يتيمين أوربيين ببورسعيد بإحدى المدارس الأميرية التابعة للديوان حتى ينالا حظا من التعليم مساعدة لهما وإحسانا من الخديو (٤٣). كما أقيمت مدرسة دينية كاثوليكية باسم «مدرسة الأرض المقدسة الكاثوليكية» Ecole Catholique de la Terre Sainte.

وكان يقوم بالتدريس فيها : اثنان من إخوة الرحمة وكان بها ٧٦ كلهم من البنين كانوا كالآتى: ٢٧ إيطاليا، ١٩ فرنسيا، ١٣ نمساويا ، ٦ يونانيين، ٤ مالطين، ٤ عرب (شوام) ، ٢ أتراك ، ١ يهودى.

وكانت مناهج الدراسة تشمل تعليم اللغات الفرنسية والايطالية ومواد الجغرافيا والحساب الذى يدرس من واقع الكتب والتاريخ المقدس والقراءة والخط والرسم والتاريخ الدينى (الكنسى) والتاريخ (٤٤).

٢- مدارس الجاليات الأجنبية:

أ- مدارس الجالية اليونانية:

كان لتدفق اليونانيين على منطقة قناة السويس- كما سبق الإشارة- وبالأخص مدينة بورسعيد تصحبهم أسرهم ، ولذلك أقام لهم دي لسبس كنيسة فى بورسعيد ومدرسة أيضا لتعليم أبنائهم بها، وقام بتعيين مدرس يونانى لتعليم صغارهم، كل ذلك على نفقة الشركة وكانت هذه الجالية متضامنة، وبفضل الإيرادات التى أتى بها بيع الشموع فى الكنيسة ومن الرسوم التى دفعها التلاميذ ، كونوا صندوقا لمواجهة متطلبات إنشاء المدرسة والكنيسة.

وفى سنة ١٨٦٦ تنازل دي لسبس عن الأرض التى بنيت عليها مدرسة البنات والبنين التى أقيمت لأبناء الجالية اليونانية وذلك عرفانا لما قاموا به من أعمال للشركة وتملكتها الجالية اليونانية بالفعل (٤٥).

وكان الغرض من التعليم اليونانى فى مصر، هو تعليم اليونانيين اللغة اليونانية والاحتفاظ بثقافة وعادات اليونانيين ، مع تزويدهم بما يؤهلهم للحياة فى مصر(٤٦) .

ب- مدرسة للجالية الإيطالية:

قامت الجالية الإيطالية بتأسيس مدرسة لها ببورسعيد سنة ١٨٨٩ (٤٧). وقد حظيت هذه المدرسة بمساعدة وتشجيع الحكومة المصرية. كذلك أمدتها جمعية المعارف اليونانية ببورسعيد بالكتب اللازمة لتدريس أبناء الجالية اللغة العربية(٤٨).

٣- المدارس الخاصة:

قامت الجاليات بإنشاء مدارس خاصة على نفقتهم، وقام بهذا العمل أفراد من رجال الأعمال والتعليم، نتيجة لازدياد أعداد الجاليات الأجنبية فى مصر ، أدى إلى التوسع فى إنشاء المدارس على اختلاف أنواعها لتسد الحاجة ، وكانت المدارس الأجنبية على علاقة طيبة بالسلطات المصرية ، فقد نصب إسماعيل أكبر أبنائه وولى عهده توفيق باشا راعيا للمدارس الحرة المجانية ، وكان يبعث بابنه إبراهيم باشا من وقت لآخر لشهود حفلات توزيع الجوائز فى بعض المدارس الأجنبية . كما شهد ببورسعيد نشأة المدارس الأجنبية العلمانية للبنين والبنات، فقد تم إنشاء المدرسة العلمانية الحديثة للبنين Ecole Laigue pour Garcon فى سنة ١٨٧٣(٤٩) وكان بها ٣٧ طالبا: ٨ إيطاليين، ٨ عرب ، ٧ نمساويين ، ٥ فرنسيين ، ٣

يونانيين، ٢ مالطيين، وكانت دياناتهم كالآتى : ٣، كاثوليك ، ٧ مسلمين، ٣ أرثوذكس (يونانيين) وكانت الدراسة تشمل الآتى : القراءة والخط والجغرافيا والحساب بالإضافة إلى اللغات: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وكانت الدراسة مجانية .

أما إيراداتها فكانت تبلغ حوالى ٦٠٠٠ فرنكا كانت تأتى كلها من المحفل الماسونى عن طريق الاكتتاب الاختيارى (التبرعات)(٥٠). ويذكر البعض أن هناك مدرسة خاصة داخلية للبنات أنشأتها مدام/ شاليه Madame Challet وقد افتتحت أبوابها للدراسة فى عام ١٨٧٣ . وتم فى نفس العام وبفضل جهود ومبادرة من إحدى اللجان التى تكونت برئاسة السيد/ باكير Baker(٥١)، والسيد / باربازا (Barbaza) (٥٢). والدكتور /كوفيدو Couvidou ، والسيد / لويزيديه Loisides (تاجر) ، والسيد / مانش Manche(٥٣)، والسيد / ستافلر Stuffler(٥٤) والذى قام بجمع الاشتراكات . وأنشئت المدرسة الابتدائية المجانية تحت رعاية الأمير ولى عهد مصر، وهى تشبه مثيلتها فى الإسكندرية والتحق بها عدد كبير من الأطفال الفرنسيين والإيطاليين وكانت هذه المدرسة تقع قبالة لوكاندة سميراميس ، وكانت الدراسة باللغة الفرنسية وبلغ عدد الطلبة فيها سنة ١٨٧٥ خمسة وأربعين تلميذا ، وكان يدير المدرسة إيطالى يدعى أولدرينى Oldrini . وفى عام ١٨٧٦ تم إعداد يانصيب لصالح هذه المدرسة بواسطة لجنة مكونة من زوجات رجال الأعمال(٥٥).

وحين أتم التلاميذ الدورة الدراسية بهذه المدرسة وحصلوا على درجات جيدة، أتاح لهم ذلك الفوز بوظائف جيدة. وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ لم تعد هذه المدرسة قائمة، فقد كانت هذه المدرسة قد شيدت بمبادرة من الماسونية والتى افتتحت محفلها الماسونى فى بورسعيد فى الخامس من نوفمبر سنة ١٨٧٨ (٥٦). وهناك مدرسة أخرى علمانية للبنات اسمها: «المدرسة العلمانية الحديثة» Ecole laigue Des Jeunnes Filles وقد أنشئت عام ١٨٧٥ ، وبلغ عدد الطالبات بها ٣٢ طالبة جميعهن بالخارجية وكانت مواد الدراسة هى التى تدرس فى التعليم الابتدائى بالإضافة إلى اللغة الفرنسية والحساب والجغرافيا والتاريخ العام والموسيقى وفن الخياطة والدراسة بمصروفات كانت تتراوح بين ٦ و ١٥ فرنكا شهريا .

ومن هنا يتضح أن مدينة بورسيعد قد تميزت بانتشار التعليم العلمانى فيها ، كما يتضح أن مجموع الطالبات بهذه المدارس جميعا كان يفوق عدد الطلبة بها (٥٧). كما يلاحظ قلة عدد الطلبة المصريين إلى حد كبير ، فمن بين مجموع الطلاب وعددهم ٢٢٨ كان عدد الطلبة العرب

٢٤ فقط أى بنسبة تزيد قليلا عن ١٠٪ من مجموع الطلاب، منهم سبعة من المسلمين ، وكان نصف هؤلاء الطلبة من البنين والنصف الآخر من البنات .

كما نلاحظ أن نصف هؤلاء الطلبة العرب كانوا من غير المصريين، والأغلب أنهم كانوا من الشوام . وبالنسبة للمصريين فإننا نلاحظ أنهم جميعا من الطالبات ، وكان من بينهن طالبتان مسلمتان فقط . أى أن عدد الطالبات المصريات كان لايتجاوز ٥٪ من عدد الطلبة الأجانب ببورسعيد . ويرجع ذلك إلى أن الدراسة بهذه المدارس كانت باللغات الأجنبية فضلا عن أن الطلبة ملزمون بالتكلم بها طوال نهارهم مع أساتذتهم أو فيما بينهم، حتى بلغت نسبة الطلبة الذين يتلقون علومهم بالفرنسية حوالى ٥٥ ٪ من مجموع الطلبة فى مصر. أضف إلى ذلك أن أحوال الوطنيين الاقتصادية بالمدينة لمْ تكن تمكنهم من دفع المصاريف المطلوبة بهذه المدارس، فقد كان معظمهم من العاملين فى حمل الفحم وبأجور زهيدة يتقاسمها معهم شيخ الطائفة(٥٩).

وفى عام ١٨٧٨ أنشئت مدرسة أخرى للبنات بفضل جهود الأخوات جوان Jouane والآنسة / روز Rose التى تحمل دبلوم الثانوية العليا تعاونهم الأخت تريز (Therese) وكانت كريمتا أحد رواد بورسعيد من اللاجئين السياسيين فى الجزائر ، وقد وصل مصر بدعوة من دى لسبس . ودامت مدرسة إخوان جوان هذه ما يقرب من عشرين عاما. وكان موقع هذه المدرسة مكان مطافئ بورسعيد حاليا. ومن بين المدارس الحرة التى وجدت ببورسعيد – قبيل الحرب العالمية الأولى- نجد مدرسة مدام تيسيه (Teisser) والتى يصعب تجميع بيانات دقيقة عنها، لأن البيانات المتاحة متناقضة .

ففى أيام عمرها الأولى ضمت بورسعيد مدارس رياضية كان يشرف على تنظيمها وإدارتها فرنسيون وإيطاليون لم تمكث فترة طويلة نذكر منها : صالة رماية أسلحة ، وكان يديرها بروفيسور كورفيزيه (Corvisier) مدرس وأستاذ سلاح الرماية . ومدرسة أخرى للسلاح أنشئت عام ١٩٢٥ على يد السيد / لينون Linon(٦٠) وتحت إشراف أستاذ السلاح E. Janse(٦١).

ثانيا : التعليم الوطنى فى بورسعيد:

استمرت مدينة بورسعيد بدون مدرسة أميرية حتى نهاية الثمانينات ، فقد تأسست أول مدرسة تابعة للحكومة ببورسعيد سنة ١٨٨٩م(٦٢) وقد أدى عدم انتشار التعليم الوطنى

ببورسعيد إلى انتشار الجهل بين الأهالى مما تسبب عنه ظهور طائفة العرضحالجية، وقد قام هؤلاء بانتخاب شيخ عليهم يعرف بشيخ الكتبة أو العرضحالجية . كما أدت كثرة الأجانب إلى الحاجة لوجود تراجمة لإيجاد تفاهم مشترك بين كل من الأجانب والإدارة المصرية والأهالى فظهرت طائفة التراجمة(٦٣).

واقتصر التعليم الوطنى لأبناء بورسعيد على الكتاتيب فقط، ويبدو أن نطاقه قد انحصر فى قرية العرب ببورسعيد حيث انتشر السكان الوطنيين .

وقد ظلت الكتاتيب كما كانت من قرون معاهد التعليم الأولى فى البلاد حيث القرآن الكريم أساس للتعليم بالإضافة إلى تعليم الصبية القراءة والكتابة. ورغم قصورها فقد وفرت جانبًا كبيرًا من حاجة الأمة إلى التعليم .

وقد وجدت فى بورسعيد فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن التاسع عشر وذلك لأن وجود الكتاتيب يرتبط ارتباطًا وثيقًا بوجود العلماء أو الفقهاء أو المعلمين الذين يقومون بمهمة التعليم فيها. وكان يوجد فى بورسعيد ١٨ عالمًا وفقيها وغيرهم من المشايخ فى منتصف سنة ١٨٧٢ . وقد ارتفع عددهم فى منتصف ١٨٧٨ إلى ٣٢ شخصًا وقد باشروا مهمتهم فى تعليم الصبية من أبناء العرب ببورسعيد . وكان يوجد ثمانية مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم ببورسعيد سنة ١٨٧٧ ، وكان بها ٧٧ بما فيهم عدد المعلمين أنفسهم(٦٤).

وهذه الكتاتيب يمكن أن نطلق عليها اسم (كتاتيب المدن) طبقا للائحة رجب ١٢٨٤ والتى كان يكتفى بها تعليم القرآن الكريم والقراءة والكتابة ثم أضيف إليها مادة الحساب قصرته على «باب العدية» أى الأعداد وكان ذلك أهم تجديد فى الكتاتيب . كما قررت اللائحة أن يكتفى فيها بالمؤدبين والعرفاء. على أن يكون تعينهم من اختصاص ديوان المدارس بالمشاركة مع العمداء وعمد الجهة . وليس هناك ما يؤكد تدخل ديوان المدارس فى تعيين الفقهاء والعرفاء بهذه الكتاتيب ، مما يعنى أن اختيارهم كان قاصراً على العلماء فى بورسعيد ، ويبدو أن ذلك استمر حتى سنة ١٨٧٨ م على الأقل على الرغم من صدور دكرتو فى ١٨٦٩ يجعل كل كتاتيب القطر تحت تفتيش وملاحظة نظارة المعارف العمومية وزاد عدد الكتاتيب فى بورسعيد إلى تسعة مكاتب سنة ١٨٧٨ وكان يدرس بها ٣١٠ تلاميذ وهذا يعنى أن هناك إقبالا من الوطنيين ببورسعيد على تعليم أبنائهم فى هذه المكاتب لعدم وجود مدارس أميرية ولعجزهم عن تعليم أبنائهم بالمدارس الأجنبية بالمدينة أو الرغبة فى تعليم أبنائهم القرآن الكريم(٦٥).

كما يتضح أن متوسطة عدد التلاميذ بكل مكتب من مكاتب بورسعيد يزيد على ٢٤ تلميذا ، فإذا كان السكان العرب بها ٣٨٥٤ شخصا فإن متوسط عدد الأهالى للمكتب الواحد ٤٢٨ شخصا ويكون عدد التلاميذ من كل ألف شخص ببورسعيد . ورغم حداثة بورسعيد فإننا نلاحظ تفوقها فى نسبة التلاميذ الذين يتعلمون فى الكتاتيب عنها فى سائر البلاد. فمثلا بلغت النسبة فى القاهرة ٢٦ فى الألف وأيضا فى الإسكندرية ٢٦ فى الألف و١١ فى الألف فى مديرية قنا.

ويمكن ترتيب المحافظات والمديريات بنسبة انتشار التعليم فيها وفق الجدول التالى(٦٦):

المحافظات والمديريات	النسبة
بورسعيد	٨٠ فى الألف
الإسماعيلية	٧٥ فى الألف
السويس	٥٢ فى الألف
دمياط	٤٢ فى الألف
المنوفية	٣٥ فى الألف
الغربية	٣٤ فى الألف
الشرقية	٣٢ فى الألف
البحيرة	٢٧ فى الألف
القليوبية	٢٧ فى الألف
القاهرة	٢٦ فى الألف
الإسكندرية	٢٦ فى الألف
الدقهلية	٢٦ فى الألف
بنى سويف	٢٥ فى الألف
جرجا	٢١ فى الألف
الجيزة	٢٠ فى الألف
أسيوط	١٩ فى الألف
إسنا	١٨ فى الألف

وفى مطلع القرن العشرين (١٩ يونيو ١٩٠١) تم الاحتفال بوضع حجر الأساس لمدرسة الواصفية ببورسعيد بحضور محافظ بورسعيد[٦٨] وتولت الجمعية الخيرية الإسلامية الصرف عليها وهى مدرسة ثانوية وتهدمت هذه المدرسة فى مارس ١٩٩٧ [٦٩].

محو أمية الجنود وضباط الصف ببورسعيد :

فى سبتمبر ١٨٧٠ صدر أمر كريم إلى ديوان الجهادية بعدم ترقيه الضباط الصف الذين يجرى امتحاناتهم لترقيتهم إلا بعد التأكد من معرفتهم القراءة والكتابة.

وتنفيذا لهذا الأمر فقد صدر أمر ناظر الجهادية فى أواخر ديسمبر ١٨٧٢ بضرورة تعليم جميع العساكر بالمحافظة من مستحفظين وبوليس وعساكر الطلمبة القراءة والكتابة، وكان رؤساء العساكر هم الذين يقومون بهذا العمل كما تم توزيع بعض الكتب الهجائية على بعض هؤلاء العساكر.

وكان الخديو يهدف إلى تقدم أفراد وصفوف العساكر فى هذا التعليم . ولم يقتصر تعليم العساكر اللغة العربية قراءة وكتابة فقط بل شمل أيضا تعليم الجاوشية البلدية أبناء العرب ببورسعيد اللغة الإيطالية من كتاب مترجم عن اللغة الإيطالية باسم (النخبة الترجمانية فى اللغة التليانية) وقد اتضح أن عدد هؤلاء الجاويشية ٣٢ شخصا منهم ٦ فقط يجيدون القراءة والكتابة و٨ لهم إلمام بها والباقون أميون [٧٠]. وهذا التعليم وهو (محو الأمية للجنود والشرطة) مازال معمولا به حتى الآن.

طائفة أهل العلم :

ارتبط ظهور مكاتب تعليم القرآن الكريم ببورسعيد بوجود العلماء وإقامتهم بها، كما أدى إلى ظهور طائفة خاصة بهم هى «طائفة أهل العلم الشريف وحملة القرآن الحنيف». بل وتعددت الطرق الخاصة بهم. وقد قاموا بانتخاب الشيخ أبى الحسن[٧١] شيخا على طائفة أهل العلم الشريف وحملة القرآن الكريم . وقد صدقت المحافظة على انتخابه لأهليته وصلاحيته ولياقته بهذه الوظيفة[٧٢].

كذلك نجد أن الخديو إسماعيل قد أمر بربط ٧٠٠ قرش بالأوقاف لوظيفة معلم اللغة العربية بمدرسة الأوروبيين ببورسعيد ، وأمر بشراء كتب أجرومية قدرى بك للمدارس اليونانية ببورسعيد[٧٣].

فى أعقاب الاحتلال الإنجليزى لمصر ..
الدعوة لتعلم الإنجليزية ونبذ اللغة الفرنسية :

فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت اللغة الإيطالية هى اللغة الأوربية الأولى ذات النفوذ فى مصر ، وبعد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ وانفتاح مصر على أوروبا وإرسال البعثات لفرنسا نمت اللغة الفرنسية وتراجعت أمامها اللغة الإيطالية وفقدت الثقافة الإيطالية مكانتها فى مصر وحلت محلها الثقافة الفرنسية . وبعد الاحتلال البريطانى لمصر ١٨٨٢ كانت هناك دعوة لتعلم اللغة الإنجليزية ونبذ اللغة الفرنسية، وقد قامت سلطات الاحتلال البريطانى بإنشاء ثمانية عشر مدرسة إنجليزية بمصر فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس(٧٤).

وعلى الرغم من محاولات سلطات الاحتلال البريطانى إحلال الثقافة الإنجليزية محل الثقافة الفرنسية فإنه لم يستطع أن يقف أمام التعليم الفرنسى فى مصر ، فقد كانت اللغة الفرنسية معروفة فى الأوساط العالية والطبقة الوسطى أيضا، وكانت اللغة الفرنسية رئيسية فى المدارس الإيطالية والفرنسية واليهودية بأعداد مدارسها الكبيرة ، بينما اقتصرت اللغة الإنجليزية على المدارس الأمريكية والإنجليزية فقط(٧٥).

ونجد صحيفة المقطم(٧٦) تندد باللغة الفرنسية ، مستشهدة بأن أهل القطر المصرى وغيره من الأقطار الشرقية من أقاصى الهند واليابان راغبون فى تعلم اللغة الإنجليزية لأنها على حد قولها «لغة أوسع الأمم تجارة وأرقاهم علما وتمدنا وأكثرهم عددا» وتستطرد الصحيفة بقولها «إن الصحف المتفرنسة تندد بنظارة المعارف لأنها زادت عدد معلمى اللغة الإنجليزية، ولو نظرت هذه الجرائد فى حقيقة هذه الزيادة وبينت أسبابها وأثبتت أنها تفوق المطلوب لوجب لها الشكر»(٧٧).

كما تدعو الصحيفة الشعب المصرى إلى إتقان اللغة الإنجليزية بعد أن تقرر أن تكون من جملة اللغات الرسمية التى يترافع بها فى المحاكم المختلطة . وأكدت الصحيفة «أن اللغة الإنجليزية قد انتشرت سريعا فى هذا القطر حتى لقد عنى أكثر أبناء الأعيان بتعلمها وصارت مما لايستغنى عنه فريق كبير من المصريين . وإذا دامت الحال على هذا المنوال فلا تمضى بضع سنين حتى تعم، لذلك فالحكيم من استعد للانتفاع بها قبل أن يسبقه غيره إلى منافعها(٧٨).

وعلى أية حال فقد تعاظم التغلغل الثقافى الأجنبى فى بور سعيد ونشط من خلال الحركات النشطة للجمعيات التبشيرية الأجنبية- التى حرصت كما رأينا على افتتاح العديد من المدارس التى توفر تعليما يسير على نهج البلدان الأجنبية التى تنتمى إليها هذه الجمعيات. وتعتبر فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية أهم البلدان التى وفدت منها الجمعيات التبشيرية، علاوة على مدارس الأقليات الأجنبية والمدارس الخاصة أيضا .

ولم يقتصر الأمر على التوسع فى إنشاء المدارس الأجنبية وإنما تجاوز ذلك إلى فرض محتوى تعليمى يؤكد تبعية من يمثلونه من الطلاب للثقافة الأجنبية ، ويترتب على ذلك إضعاف روح الانتماء إلى الوطن وإضعاف الوعى بالهوية المتميزة لشعبنا فكان التعليم فى المدارس الفرنسية فيما بين الحربين العالميتين نسخة مطابقة للتعليم الفرنسى، وأن جميع التلاميذ فى هذه المدارس أجانب وسوريين ولبنانيين كانوا يعرفون بشكل جيد شارلمان وجان دارك ولويس الرابع عشر ، فى الوقت الذى يجهلون فيه أبسط المعلومات عن هارون الرشيد أو رمسيس الثانى. وفى كتب التاريخ التى كانوا يدرسونها ، يتعلمون أن سكان بلاد الغال هم أجدادهم(٨٠).

ولم يهمل الإنجليز أيضا الممارسات الثقافية الرامية إلى تأكيد هيمنتهم فقد طبعوا مدارس التعليم الحديث بطابع الثقافة الأنجلو سكسونية وجعلوا لغة التعليم فى مدارس مصر الحكومية هى اللغة الإنجليزية ، ليكونوا طبقة من المتعلمين تفكر كما يفكرون ويحققون من خلالهم مصالحهم السياسية ، وفى مقابل ذلك مارس الفرنسيون هيمنتهم الثقافية بفضل مدارسهم التى تزايد أعدادها وتطابقت مناهجها مع المدارس الفرنسية.

وهكذا أصبح التعليم فى المدارس الحديثة التى تديرها الدولة وتلك التى تخضع للجاليات الأجنبية أداة غزو ثقافى تعمل على تأكيد الانتماء للغرب ومن ثم قبول هيمنته على مقدرات شعبنا(٨١).

زوال التعليم الأجنبى (١٩٥٦)

تعرضت بورسعيد لعدوان سافر فى عام ١٩٥٦ وهو العدوان الثلاثى (إنجلترا وفرنسا وإسرائيل) وكان ذلك إيذانا بالقضاء على التعليم الأجنبى فى مصر، ويعترف أحد الكتاب الفرنسيين المعاصرين بقوله «كانت كارثة للنفوذ الثقافى الفرنسى، فقد تم الاستيلاء على

المنشآت الست الخاصة بالبعثة العلمانية التى كانت تعلم عشرة آلاف و ٥٥٠ تلميذا سنويا . وتحولت مدارس الليسيه إلى مدارس «الحرية» مثلما تحولت كليات فيكتوريا الإنجليزية إلى مدارس «النصر» وحرمت هذه المدارس من مدرسيها الفرنسيين وأصبحت تابعة للجنة حكومية[٨٢].

«فى ساعة واحدة يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ فقدت فرنسا نفوذا نسجته بأناة خلال قرن ونصف»، وعلى ضفاف النيل أصبح اسمها موضع سخرية وتقوضت حظوتها »[٨٣].

ويمثل القانون رقم ١٦٠ ولائحته التنفيذية الصادرة فى ١٧ مارس ١٩٥٩ نهاية التعليم الأجنبى فى مصر بشكل عملى.

الصحافة فى بورسعيد :

أولا- الصحافة الأجنبية:

جانب آخر من النشاط الثقافى تمثل فى الصحافة الأجنبية فى بورسعيد : الفرنسية واليونانية والإيطالية ، وقد شملت مواد إخبارية وتجارية وإعلاميه وفنية وسياسية وأدبية . وكانت غالبية الصحف الفرنسية نذكر منها:

١- صحيفة Le Journal du Canal وصدرت عام ١٨٦٧ وطبعت فى بورسعيد وكانت تدافع عن مشروع دى لسبس ضد الهجمات التى تشنها الصحافة الإنجليزية على مشروع القناة وكان يديرها الأب مول Le Pere Moll. وذاع صيت هذه الصحيفة فكانت تنشر وتقرأ فى العالم أجمع[٨٤].

٢- صحيفة Journal de Port- Said وقد أصدرها ج باربير J. Barbier سنة ١٨٧٠ ، وهى صحيفة أسبوعية من أربع صفحات بحجم متوسط، وقد أوقفت بناء على أمر الحكومة المصرية فى أواخر فبراير ١٨٧٢ بسبب بعض المقالات السياسية[٨٥].

٣- صحيفة Le Moniteur de Port- Said وقد أصدرها نفس الناشر : ج باربيه وصدرت فى ٢٩ فبراير عام ١٨٧٢ [٨٦].

٤- صحيفة L' Avenir Commerciale de Port - Said : (أى المستقبل التجارى لبورسعيد) وقد أصدرها أ. رو E. Roux فى ٢٧ يونيو ١٨٧٣ وظلت تصدر حتى عام ١٨٧٤م[٨٧].

وقد نشرت هذه الصحيفة نقدا لاذعا للحكومة المصرية إزاء عدم اهتمامها بتعليم المصريين وانتشار الجهل بين أفراد الشعب في عددها الصادر في ٢٨ نوفمبر ١٨٧٤ وأن من واجب الحكومة تنوير الأهالي عن طريق العلم والأدب لمعاونتهم كي يتعاونوا فيما بينهم والوفاء لهم بما يلزم في هذه الحياة من الحق والحرية ، فقد كان ذلك مطمح العقول السليمة من الحكام على مر العصور، مما أدى إلى تأسيس جمعيات خيرية ومؤسسات كان من نتائجها ظهور شخصيات شهيرة ونشأة حكومات قوية وظهور أمم خلد التاريخ ذكراها، وأنه بانتشار العلم والأدب والعدل في الأمم تتهذب الأخلاق وتزداد الثروة وتسعد الشعوب .

وقد حاولت جريدة الوقائع المصرية الرد على ذلك فأشارت إلى جهود الحكومة المصرية للتصدي للجهل وأنها تسعى لتعميم التعليم بالديار المصرية(٨٨).

٥- جريدة Le Courrier du Port - Said (أي رسالة بورسعيد) وقد أصدرها كل من ماريوس بيرييه ، ج. سيرييه Marius Perrier & J. Serrier وقد صدرت في نوفمبر وظلت تصدر حتى عام ١٨٧٧(٨٩) وهذه الجريدة شبيهة بجريدة لافونيير التي كان يحررها إميل روكس وقد تعهد السيد موريس من تلقاء نفسه بالامتثال لقانون المطبوعات . وبناء عليه فقد أصدرت الخارجية ترخيصا له بإنشاء المطبعة والجريدة المذكورة ببورسعيد(٩٠).

وقد اهتمت هذه الجريدة بالشئون التجارية والبحرية، وقد انتقدت الأوضاع في مدينة بورسعيد وبالأخص الأمور الصحية عندما وجهت اللوم لمستخدمي جمرك بورسعيد الذين يلقون المياه القذرة والقاذورات من الدور الأعلى بالشارع الخلفي والشوارع المحيطة بمبنى الجمرك مما يسبب روائح كريهة وعفونات مضرة بالصحة . ونتيجة لهذا النقد طلبت المحافظة من أمين الجمرك وقف ذلك لمنع نشر مثل هذه الأمور بالجريدة وكانت هذه الجريدة الأكثر انتشاراً في بورسعيد وقامت هذه الجريدة أيضا بإصدار كتاب بعنوان «رحلة عبر البرزخ» من تأليف كوفيدو H. Couvidou سنة ١٨٧٥ (٩١).

٦- جريدة لاجور سيروانس ، وقد صدرت عام ١٨٧٦ عن نفس الجريدة السابقة وكان يتولى إصدارها جاك سيرييه الفرنسي Jacques Serriere وقد تخصصت هذه الجريدة بالإعلانات الخاصة بمحكمة الإسماعيلية المختلطة ومحكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية(٩٢).

٧- جريدة البسفور إجيبسيان Le Bosphore Egyptien أصدرها ج. سيريير J. Serri-er فقد صدرت فى ٤ مارس ١٨٧٨ وكانت أسبوعية ومخصصة لنشر المواد التجارية الأدبية والحوادث الأجنبية فقط وقد ذاعت هذه الجريدة وانتشرت خارج حدود مدينة بورسعيد ووصلت إلى القاهرة وأصبحت هذه الجريدة المحلية التى تصدر فى بورسعيد معروفة، مما دعا صاحبها ومحررها إلى أن يجعل اسمها «البسفور المصرى» وكان ذلك سنة ١٨٨٠ (٩٣).

وقد اكتسبت هذه الجريدة شهرة وشعبية فى القاهرة وبورسعيد ونتيجة لذلك طلب صاحب الجريدة التصريح له بمعالجة الشئون السياسية والإدارة على صفحات الجريدة وقد أجيب لطلبه بشرط مراعاة القوانين الخاصة بالصحافة والطباعة فى مصر فيما ينشره من مواد سياسية وغيرها . وبدأت فى ذلك اعتبارا من يناير ١٨٨١ . وأدى ذلك إلى الارتفاع بشهرتها مما دعى سيريير إلى الإقامة بالقاهرة بمساعدة أصدقائه ، وأصبحت جريدة البسفور المصرى جريدة يومية بدلا من أسبوعية وأحدثت قدرا كبيرا من الضجة . وقد قام جيرود Giraud - محامى مدير الجريدة- بنشر عدد من المقالات المدوية ، حتى أصبح سكان القاهرة سواء من الأوروبيين أو الوطنيين من عشاقها أو من المفتونين بها، حتى أنهم قاموا بحمل جيرود على الاعناق فى شوارع الأزبكية فى أحد الأيام(٩٤) وكانت مقاومة الخديو إسماعيل لصحف الرأى الفرنسية غير مجدية، فكان إذا أقدم على إلغاء صحيفة سرعان ما تظهر أخرى غيرها فى الميدان وذلك لما كان لها من امتيازات تكفل لها الحماية سواء فى الإنذار أو التعطيل أو الإغلاق النهائى وأجمعت الصحف الفرنسية على تشييع إسماعيل- بعد عزله - أسوأ تشييع وكانت تعبر بذلك عن رأى حكومتها فى إسماعيل . وفى عهد توفيق استمرت الصحف الفرنسية فى الظهور والازدياد كما استمر سيريير فى جهوده فى إنشاء صحف جديدة بالإضافة إلى الصحف السابقة فأنشأ صحيفة سياسية هى :

٨- صحيفة بورسعيد جورنال Port - Said Journal لتحل محل جريدة البسفور المصرى التى صدر الأمر بتعطيلها لعيبها فى ذات أحد الولاة الأصدقاء . ولقد صدر العدد الأول فى ٧ أبريل سنة ١٨٨١ (٩٥). وبعد عام ١٨٨٠ ظهرت صحف كان يديرها بعض المالطيين والإيطاليين(٩٦).

٩- جريدة الفنار Le Phare والتى صدرت عام ١٨٨٩ ونشرت نعى أقدم بورسعيدى يمتلك فندق باريس الكبرى(٩٧).

الصحافة اليونانية :

مجلة بروجريه Le Progres الأسبوعية وكانت تصدر باللغة اليونانية وقد توقفت فترة من الوقت ثم عادت إلى الظهور مرة ثانية . وكانت تخصص الصفحتين الأولى والثانية للتحرير باللغة الفرنسية ، أما الصفحتان الثالثة والرابعة فكان التحرير بهما باللغة اليونانية ، ثم انتقلت فيما بعد إلى القاهرة ، وكانت تجارية أدبية ولنشر الإعلانات وكان يديرها لازاريدس Lazarides (٩٨).

الصحافة الإيطالية :

تقدم مأمور قنصلية إيطاليا ببورسعيد فى ديسمبر ١٨٦٧ بطلب إلى محافظة بورسعيد برغبة أحد الإيطاليين ويدعى موفتلين الترخيص له بإنشاء جريدة إيطالية تحمل اسم «الموستيك» وأن تكون أسبوعية تختص بنشر الأخبار والشئون التجارية وقد أحيل الأمر إلى محافظ عموم القناة للتحرير للخارجية التى رأت ضرورة مخابرة قنصل عام إيطاليا فى ذلك. وقد شرع الإيطالى فى إجراءات نشر الجريدة. والصحافة الايطالية فى هذه الفترة لم يكتب لها الازدهار والانتشار، ولم تشهد بورسعيد سوى ظهور صحيفة إيطالية واحدة(٩٩).

الصحافة الوطنية فى بورسعيد :

صدرت أول جريدة مصرية فى بورسعيد عام ١٩١٠ وهى جريدة المؤدب كانت تتابع الأخبار والقضايا المحلية، وأفردت صفحات للثقافة والأدب، وتم إنشاء ثلاث مكتبات عامة بالإضافة إلى مكتبات خاصة كان صاحبها ينظم الاستعارة فيها مقابل اشتراكات زهيدة وهو محمد أبو النور الذى أنشأ فى الثلاثينات جريدة «المستقبل» ودار نشر تحمل نفس الاسم(١٠٠).

كذلك قامت مجموعة من المثقفين بإصدار نشرة دورية هى «الانتصار» إبان العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ على بورسعيد ، فكانت هذه النشرة الدورية عاملا هاما فى كسر العزلة الإعلامية، وتضمنت مقالاتها تحليلا لأبعاد المعركة ومتابعة الأخبار، كما تضمنت إرشادات للتوعية وكشف حيل وأساليب العدو، وتوجيهات إلى أبناء المدينة بالإضافة إلى أشعار تحريضية مباشرة وبسيطة ، وظهرت أغانى السمسية التى لعبت دورا هاما فى تلك الفترة فى تعبئة الناس بتعبيرها التلقائى ضد الاحتلال (١٠١).

مراكز أخرى للأنشطة الثقافية فى بورسعيد:

تواجدت مراكز متعددة للأنشطة الثقافية في بورسعيد تمثلت فى المسرح والسينما والموسيقى والغناء والإذاعة والمتاحف والصالونات الثقافية:

المسرح الأجنبى :

وجد ببورسعيد مسرح بحرى متنقل على صندل (Chaland) قبل افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية، وكان يسير فى القناة البحرية الصغيرة وعليه فرقة من الممثلين الأجانب ، يبدأون التمثيل بدق الطبول واستعمال الناى والصفارات ثم يقومون بتمثيل بعض الروايات الصغيرة(١٠٢).

كما وجد بمدينة بورسعيد سنة ١٨٧٨م محلات للعزف والتمثيل الهزلى والغناء والبغاء(١٠٣). وقد ذكر بعض الأجانب الذين زاروا بورسعيد أو نقلوا عمن زارها وجود المسرح فى المدينة(١٠٤). وأشار بعضهم إلى أن شركة قناة السويس هى التى قامت بإنشاء المسرح وتحملت نفقات إعداده(١٠٥).

المسرح الوطنى البورسعيدى :

أنشئ فى المنزل الكائن بشارع المقدس أول مسرح فى بورسعيد ، ويذكر الحسيب الكيال الذى يؤرخ للمسرح في بورسعيد : «ترجع صلتى بفن التمثيل إلى العهد الذى كان فيه نخبة الهواة أمثال توفيق الطيب وحامد الصفطى وطلبة رضوان قد أسسوا سنة ١٩٢٧ فرقة رمسيس تيمنا بفرقة رمسيس للفنان يوسف وهبى» وكان الفن يومئذ مدرسة التثقيف والترفيه على السواء. وقد أنشئ نادى رمسيس سنة ١٩٢٣ وكان يسمى بالنادى الأهلى، وهو نادى اجتماعى ثقافى خيرى غالبية أعضائه من الموظفين ، وكان مقره بالدور الأول بالمنزل الكائن بشارع الثلاثينى والمقدس(١٠٦).

ويرجع الفضل فى إنشائه للسيد محمد مصطفى علام(١٠٧) رئيس المستخدمين بمحافظة القناة. وبدأ نشاطه التمثيلى عام ١٩٢٧ بمنزل غندر بشارع أوجينى وفى سنة ١٩٤٠ قدم بعض أعضاء نادى رمسيس استقالاتهم وكونوا ما يعرف بنادى المسرح الذى بدأ نشاطه فى مكان نادى الليرا والذى تم تصفيته أثناء الحرب العالمية الثانية ضمن أملاك الإيطاليين فى بورسعيد واشتهر باسم نادى الجمارك لأن غالبية أعضائه من موظفى الجمارك(١٠٨).

وقدمت جماعة التمثيل بنادى رمسيس أهم روائع أمير الشعراء أحمد شوقى (مجنون ليلى) وقد حضرها فؤاد سراج الدين [١٠٩]، وكذلك مسرحية «رصاصة فى القلب» لتوفيق الحكيم، وهكذا نشأت حركة مسرحية فى بورسعيد مواكبة للحركة المسرحية فى القاهرة وسارت فى نفس الطريق حيث قدمت مسرحيات: سلامة حجازى ويوسف وهبى ونجيب الريحانى وعلى الكسار، حتى أن هناك ممثلين من بورسعيد تخصصوا فى أداء دور هؤلاء النجوم وأصبح ذلك جزءا من التراث المسرحى البورسعيدى، كما قدمت مسرحيات عالمية وظهر فى فترة متأخرة قبل الثورة مسرحيات محلية تناقش هموم وقضايا محلية، وشهدت المدينة نشاطا ثقافيا من خلال هذه المؤسسات كان يدعى إليها أدباء القاهرة البارزين ، واحتلت قضايا التراث مساحات كبيرة من المناقشات[١١٠].

الموسيقى والغناء الأجنبى:

فى أيام الآحادى كان يجتمع نخبة من سكان المدينة فى ميدان دى لسبس[١١١] حيث يستمعون إلى الجوقات الموسيقية التى تعزف أنغامها المختلفة، ويظلون فى ذهاب وإياب حول الميدان يحيون بعضهم بعضا برفع قبعاتهم على الطريقة الأوروبية[١١٢].

كذلك أقيمت حفلات موسيقية فى نفس الميدان (دى لسبس) بواسطة الفرقة الموسيقية الخاصة بالسفينة الحربية المصرية السقا Sakka والتى كانت قد ألقت مرساها فى ميناء بورسعيد ، وكان هدفها الوحيد هى تحية تطلقها مدافعها احتفالا وترحيبا بالسفن الحربية المملوكة للدول الأجنبية عند وصولها لميناء بورسعيد، والرد عند رحيلهم بإطلاق مدافع للتحية اللائقة . وكانت هذه الفرقة مكونة من ٤٠ عازفا موسيقيا يقودهم بعصاه مايسترو مصرى ، وعلى الرغم من سفر السفينة المصرية السقا من بورسعيد ومغادرتها الميناء ، فإن هذا لم يحرم المجتمع البورسعيدى من سماع المعزوفات الموسيقية حيث أنشئت التيرا سانتا Terra Santa بواسطة الأب كابوسان كليمنت Capusan Clement وبعد ذلك بفترة نظمت هذه الفرقة تحت اسم جديد هو «الليرا» Lyra بعد إنذارها وإلغائها لأنها ساهمت بالعزف فى جنازة أحد الماسونيين[١١٣].

وفى حديقة واصف[١١٤] كان يتوسطها كشك موسيقى مخصص للسيدات والأطفال[١١٥] ويبدو أنه كان هناك أكثر من مكان أو محل لسماع الموسيقى ، فإلى جانب كشك الموسيقى كان هناك نادى تقام فيه الاحتفالات ، وكان به بيانو فى مكان آخر كانت الموسيقى العسكرية تعزف فيه وكان يحضر لسماعها الأجانب والوطنيون .

الموسيقى والغناء الوطنى:

إن دراسة الفن الشعبى فى بورسعيد والذى يتمثل فى الغناء يعد مدخلا هاما لدراسة عناصر المقاومة لدى الشخصية البورسعيدية ، وهى تبدأ بأغانى «الضمة البورسعيدية» والتى يؤكد شيوخ الغناء فى المدينة أنها بدأت مع حفر قناة السويس ، فبعد يوم من العمل الشاق تحت سياط السخرة والعشرات يتساقطون يوميا أثناء الحفر، وخليط من البشر جاءوا من محافظات مختلفة من مصر لايكاد أحدهم يعرف الآخر، يواجهون مصيرا مجهولا كانت الذاكرة تأبى أن تستجيب لنداء الأجسام المنهكة لتخلد إلى الراحة ساعتها فقط يتذكرون أنهم بشر وأن لهم ماضى وحياة كانوا يحنون إليها ، يجلسون على أبواب الخيام يقول أحدهم للآخر: «ضم علينا» أى انضم لنا ويبدأون بسرد ذكرياتهم ... الأماكن التى جاءوا منها ثم يغنى كل منهم أغنية من قريته، ويدور الغناء فى الحلقة حسب ترتيب الجالسين . ومع الوقت أخذت أغانى الضمة تكتسب تقاليد الأداء بحيث أصبحت فى النهاية تؤدى كطقس غنائى ، يبدأ أحد الجالسين بافتتاح الغناء الذى يكون عادة إما بموال أو أبيات غزل أشبه بالنسيب ، ثم يأتى الدور على الذى يليه فيغنى مقطع بلحن معين ، ثم يغنى الذى يليه مقطعا آخر على نفس اللحن، وهكذا حتى يصبح دور غناء شارك فيه جميع الجالسين (١١٦).

وبعد ذلك تطور الأمر وكان الجالسون يتبارون فى ارتجال الكلمات وينظمونها فى أبيات مع إيقاع اللحن ويسمى ذلك تطور الأمر وكان الجالسون يتبارون فى إرتجال الكلمات ، وينظمونها فى أبيات، مع إيقاع اللحن ويسمى ذلك : «الدور المقسم».

وقد ورثت الأجيال التالية «الدور المقسم» ليس كمجموعة أغانى وإنما كأغنية واحدة، ولكنها تضم ملامح شتى من مختلف أنحاء مصر.

وشهدت حلقات الضمة فيما بعد غناء التراث الغنائى المصرى والعربى من الموشحات القديمة وشعر التصوف الإسلامى. وكان يستعان بوسائل بدائية قديمة وبسيطة لضبط الايقاع. وأغانى الضمة تسجل لنا بداية التفاعل بين السكان الجدد الذين وفدوا على بورسعيد من أماكن شتى فأنتج مجموع الأصوات صوتا واحدا، خرج به أولئك الناس من الحدود الفردية الضيقة إلى نطاق الجماعة، حيث ظهر الغناء كاستجابة لتفاعل الأفراد فيما بينهم وتفاعلهم مع الواقع المحيط به من ناحية أخرى .

السمسمية :

ظهرت آلة السمسمية لأول مرة فى بورسعيد حوالى الثلاثينات من القرن العشرين واستطاعت هذه الآلة الموسيقية الشعبية البسيطة، أن تطلق فنون الإبداع الشعبى تبلور الوجدان الجماعى لسكان المدينة، وهى تشبه إلى حد كبير آلة الطنبور المنتشرة فى النوبة والصعيد، والتى تطورت بدورها عن آلة الهارب الفرعونية ، ولكنها أصغر حجما من الطنبور وهى تنتسب إلى أبناء النوبة من الوافدين إلى المدينة. لكن مما ساعد على إنتشارها هو بساطتها فى العزف ولها سلم موسيقى غير مدون ، كذلك بساطة الخامات المستخدمة فيها، بحيث يتاح لأى فرد أن يقوم بصنعها باستخدام بعض العصى والأسلاك وطبق معدنى من أطباق الطعام(١١٧).

وأغانى السمسمية تفيض بوصف الحياة اليومية التى تمثل أغانى العمل مساحة كبيرة منها، وهى تعطى المهاجر البورسعيدى من قرى مصر الجسارة فى مواجهة البحر، فهى أحيانا أشبه بترانيم للقناة مصدر عيشه ، وهو يروض بها البحر، كما يثأر لنفسه من خلالها ممن يضعون العقبات أمامه ، فهى أشبه بالتميمة التى كان يحملها الإنسان الأول أو التعويذة التى يتلوها للتغلب على قوى الطبيعة . وتبرز من خلال أغانى السمسمية ملامح الشخصية البورسعيدية التى يعتبر البمبوطى والصياد محورين أساسيين فيها .

ويتم غناء السمسمية فى جماعات تسمى الصحبة «الصحبجية» ويصاحبها الرقص الذى يتميز باللياقة والرشاقة ويمثل شريحة يوم كامل فى حياة البمبوطى أو الصياد(١١٩).

كما ظهرت خلال فترة الاحتلال الإنجليزى الأغانى الوطنية التى عبأت الناس ضد الاحتلال والوجود الأجنبى، وربطت ذلك بالملاحقة اليومية له وقطع سبل عيشه .

وتحولت مشاعر الغربة (التى عانى منها جيل الآباء فى أغانى الضمة أحيانا) إلى مشاعر اغتراب لدى جيل الأبناء من فنانى السمسمية نتيجة لهذا الاحتلال(١٢٠).

وليس أبلغ هنا من صوت ابن البلد البورسعيدى وهو يشدو تحت وابل القنابل ليسمعه العالم كله بهذه الأغنية :

«إيدن و بن جوريون وجومولييه
جـــايين يحـــاربونا على إيه
هو القنال ده فى أراضيهم
ولا إحنا خدناه منيهم»(١٢١)

السينما :

وجدت ببورسعيد العديد من دور العرض السينمائى الأجنبى والعربى، فعلى سبيل المثال نجد سينما باتييه Pathe والتى انشأها الأخوان مانولى و ينى تروفيلدس وبعد ذلك أطلق عليها اسم «سينما ماجيستك».

وتوضح محاضر مجلس بلدى بورسعيد[١٢٢] أن محمد أفندى عثمان صاحب «سينما عثمان» تقدم للمجلس بتصريح له ببناء غرفة تحت البواكى لوضع ماكينة السينما توغراف ، وعرفت بعد ذلك بسينما ، ومسرح الكزموغراف المصرى، والتى ظلت تذكرة الدخول لها إلى ما قبل هدمها تقل عن القرش صاغ بمليم واحد ، حتى لاتخضع للضرائب .

وكان الكثير يدخلونها مجانا . وفى أول عهدها كانت تستضيف فرق القاهرة أمثال سلامة حجازى وجورج أبيض ونجيب الريحانى وعلى الكسار وأمين صدقى[١٢٣].

كذلك نجد أن صالة الفرقة الموسيقية «مارجيتا» تحولت إلى سينما ريو[١٢٤] وقد تم إنشاء عدد من دور السينما فضلا عن التى أنشأها الأجانب ووصل عدد دور العرض السينمائى ١٥ دارا للعرض [١٢٥].

الإذاعة :

انشاء كامل محمود فى فبراير ١٩٣٠ استوديو لأول إذاعة أهلية فى بورسعيد تحت اسم «محطة أمير الصعيد» بلغ تكاليف إنشائها ٢٠٠ جنيه، وهى محطة لها موجة ترددية على الهواء مباشرة وعلى موجة متوسطة طولها ٩٠ كيلو سيكل، وكان يعتمد فى تمويلها على الإعلانات التجارية لمختلف الأنشطة للأفراد والشركات وأيضا للمناسبات والحفلات للمصريين. وكان سعر إذاعة الإعلان قرشين لمرة واحدة، ولمدة دقيقة، وخمسة قروش للإعلان ثلاث مرات منها مرتان خلال فترة المساء والسهرة ، وكان الاشتراك فى تلك الإذاعة بمبلغ عشرة قروش شهريا ، ويمكن للمشترك الاستماع لاسطوانة واحدة يوميا لأحد مشاهير الطرب والغناء فى ذلك العصر مثل محمد عبد الوهاب وصالح عبد الحى ومنيرة المهدية والآنسة أم كلثوم .

وكانت البرامج اليومية دينية وثقافية وأدبية ورياضية ، ويبدأ إرسال الفترة الصباحية فى السادسة صباحا بتلاوة آيات الذكر الحكيم يليه رأى الدين لأحد العلماء ، وتستمر الفترة الصباحية حتى الثانية بعد الظهر. أما الفترة المسائية وتبدأ فى الخامسة وتنتهى عند منتصف

الليل وتختم بالسلام الملكى. وكانت هذه الإذاعة تبث إرسالها لمدن القناة الثلاث بالإضافة إلى دمياط . وكانت المذيعة حياة عارف تتولى إذاعة الفترة الصباحية، أما المذيع خليل جويد فيتولى الفترة المسائية.

وفوجئت جميع محطات الإذاعة الأهلية بالقطر المصرى بإنذار من وزارة المواصلات بأن توقف هذه الإذاعات إرسالها فى يوم ٢٩ مايو ١٩٣٤ لتبدأ الإذاعة الحكومية المصرية أول إرسال لها يوم الخميس ٣١ مايو عام ١٩٣٤ بصوت المذيع يقول «هنا القاهرة»(١٢٦).

المتاحف :

رأت البلدية ببورسعيد أن تعمل على إنشاء متحف ببورسعيد تمده مصلحة الآثار بمختلف الآثار المصرية لتكون منه نموذجا مصغرا لآثار مصر عبر العصور الفرعونية والإسلامية والقبطية كما يشمل معرضا للوحات الزيتية من صنع فنانى مصر وآخر زراعيا لمختلف منتجاتها الزراعية (١٢٧).

وعلى ناصية شارع النصر نجد منزل رزق الله وهذا المنزل ارتبط بإنشاء أول متحف فى تاريخ بورسعيد ففى جلسة ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ عرض رئيس المجلس البلدى (المحافظ محمود صدقى بك) رغبة مصلحة الآثار المصرية فى مد المجلس البلدى (بالأنتيكات) اللازمة للمتحف المزمع إنشاؤه بالدور الأرضى فى منزل (الخواجة) رزق الله وبجلسة ٨ يوليو ١٩٢٢ وافق أعضاء المجلس البلدى على طبع دليل باللغات : العربية والإنجليزية والفرنسية وبجلسة ٥ مايو سنة ١٩٢٣ المنعقدة برئاسة المحافظ (حسن مظلوم بك) وعلى أثر افتتاح المتحف تم تعيين لجنة إدارية برئاسة رئيس المجلس سعادة حسن مظلوم بك وعضوية مهندس مصلحة الآثار وأعضاء المجلس البلدى والمسيو سيمونينى والدكتور سكوفويلو وإبراهيم أفندى لهيطة والدكتور على أفندى البحراوى.

وبجلسة ٨ سبتمبر ١٩٢٣ تليت المذكرة التالية (أن كثيرا من السياح يجدون أن أجرة المتحف هى خمسة قروش كثيرة جدا فلا يدخلونه ومن جهة أخرى فإن التراجمة يهملون عمدا إرشاد السياح إلى المتحف لأنهم يفضلون الذهاب بهم إلى المحلات التى تعطى للتراجمة عمولة، فقرر القومسيون أن تخفض أجرة الدخول إلى قرشين ونصف أو ستة بنسات ، وأن تعط للتراجمة مكافأة)(١٢٨).

ولم يستمر المتحف طويلا فى منزل رزق الله، إذ نقل إلى أول شارع النهضة بمبنى الغرفة التجارية[١٢٩].

الصالونات الثقافية والفنية:

أولا ـ الأجنبية :

عند تقاطع شارع دى لسبس بشارع فرعون (١٣٠) يقابلنا «مقهى اللوفر» وأعلاه نادى الجالية الفرنسية، التى كان لها نشاط فى الاحتفالات والندوات والمحاضرات، فنظمت محاضرة لأمين متحف اللوفر بباريس (الأب دو بورجيه) Pere du Bourget عن التاريخ المصرى القديم بصفة عامة والفن المصرى القديم بصفة خاصة ، وكذلك النسيج فى العصر القبطى، وتخلله عرض بالشرائح الزجاجية الملونة عن روائع الفن المصرى القديم ، الموجود بمتحف اللوفر بباريس [١٣١]. كذلك نجد نادى الرابطة الفرنسية Alliance L' Francaise ، وكان عميد الجالية الفرنسية طبيب الأسنان د. جوتير (Dr. Gautier) وكان لهذه الرابطة نشاط ثقافى راقى، فكانت تنظم المحاضرات وتقيم المعارض فمثلا فى ٢٠ مارس ١٩٥١ افتتح عبد الهادى غزالى بك[١٣٢] المعرض الخاص بالرسامين الفرنسيين العالميين خلال القرن التاسع عشر ، وفى ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ ألقى البروفيسور زيوجين (Ziogien) وهو أستاذ محاضر بجامعة الإسكندرية ، محاضرة عن فلسفة الكاتب الفرنسى جان بول سارتر [١٣٣]. أما بالنسبة للنشاط الثقافى للجالية الإيطالية ، فنجد أن جمعية «دانتى اليجيرى» ببورسعيد وهى إيطالية قد نظمت محاضرات كان يقوم بإلقائها الدكتور Lugi Duri وهى محاضرات فى ٩ فبراير ١٩٥٢ و١٢ مايو ١٩٥٢ عن تاريخ بورسعيد[١٣٥].

وبالنسبة للجالية المالطية نجد أن ناديها الثقافى وكان يسمى «بالنادى المالطى» : (Mul-tese Club) وكان يقع بجوار سينما ماجستيك وكان من أشهر نوادى الجاليات الأجنبية فى بورسعيد . وعقدت فيه الندوات الثقافية وفى ٥ أغسطس من كل عام كانت هذه المنطقة تعج بجمع غفير من أبناء الجالية المالطية بالإضافة إلى لفيف من أبناء الجاليات الأخرى الذين يحضرون الاحتفال بالعيد الوطنى المالطى[١٣٦].

ثانيًا – الوطنية :

وبالنسبة للنشاط الثقافى الوطنى نجد أن محل الحاج سليمان كان منتدى لأهل الفكر والدين ويضم كوكبة من العلماء والشعراء مثل : الشيخ محمود حلبة وهو الرجل الموسوعى

وعميد الصحافة البورسعيدية والشيخ معوض إبراهيم (كبير مفتشى الوعظ والإرشاد بمنطقة القناة) والأستاذ على الألفى (شاعر القناة) والحاج عبده أبو الخير (من كبار تجار الخضر والفاكهة ببورسعيد) كانوا يلتقون كل يوم لقراءة ومناقشة كتاب من كتب الدين والآداب(١٣٧).

كذلك كانت المقاهى الوطنية أشبه بصالونات ثقافية، فنجد «مقهى الاتحاد» (١٣٨)، قد افتتحه «محمد أفندى» سمى بمقهى الاتحاد نسبة إلى شعار حزب الوفد الذى كان ينادى بوحدة عنصرى الأمة ، من مسلمين وأقباط . وثبت صاحب المقهى صورة كبيرة للزعيم سعد زغلول نظرا لأن أغلب روادها من مؤسسى حزب الوفد . وكان رواد هذا المقهى من رجال الأعمال بالإضافة إلى رجال الفكر والأدب البورسعيدى كشاعر القناة على الألفى ومحمد شردى (مراسل صحيفة المصرى) والأديب عبد الهادى الحديدى. كما كانت مقرا لرؤساء النادى المصرى وعلى رأسهم الحاج عوض فقوسة(١٣٩).

وعلى أية حال يمكن لنا إيجاز الحركة الثقافية الوطنية فى بورسعيد فى الآتى:

أولاً : هذه الحركة الثقافية التى تطورت ونمت داخل المدينة كانت تسير فى رافدين: حركة المثقفين والثقافة الشعبية المحلية، كانتا تهدفان إلى تجسيد أبعاد الشخصية المحلية والقومية فى مواجهة الوجود الأجنبى وتأكيد هويتها .

ثانيًا : بروز وتطور شعور المقاومة– نتيجة الوجود الأجنبى– فقد عبر عن نفسه من خلال الفنون الجماعية ذات الاتصال المباشر بالجمهور، أكثر من الفنون الفردية، إذ ظهر المسرح والأغنية الشعبية الجماعية عن باقى الأشكال الثقافية الأخرى.

ثالثًا : ارتبطت حركة المثقفين بإنشاء المؤسسات الثقافية وقد اقتبست أشكال تلك المؤسسات من الجاليات الأوروبية ، وإن كانت ذات مضامين وتوجيهات وطنية فى حين أن الثقافة الشعبية قد خلقت أشكالها الخاصة، فقد لاقت أغانى «الضمة القديمة والسمسمية» إقبالا واسعا ، فى حين أن أغانى «البيانولا» التى كانت منتشرة بالمدينة أثناء وجود الجاليات الأجنبية حتى فى المناطق الشعبية قد اندثرت برحيل الأجانب.

رابعًا: ارتبطت حركة المثقفين بالأبعاد القومية من خلال ارتباطها بالحركة الثقافية فى مصر بشكل عام وبرزت فيها الأبعاد المحلية خلال فترات الحروب وتصاعد المقاومة، فى حين أن الثقافة الشعبية التى جسدت الأبعاد المحلية كانت تبرز فيها الأبعاد القومية خلال تلك الفترات.

خامسا : لم يكن هناك انفصال بين حركة المثقفين وبين الثقافة الشعبية المحلية ومبدعيها ، حيث يوجد مبدعين يمثلون حلقة اتصال بين الجانبين، وتتدرج إبداعاتهم بين استيعاب الحركة الثقافية للمثقفين والتعبير التلقائى الشعبى، وهم مؤثرون بدرجة كبيرة داخل المدينة ومنهم عدد من شعراء السمسمية وفنانيها.

العلاقة بين الأجانب والمصريين ببورسعيد:

يتحدث البعض عن صدام- الحضارات - ولكننا نجد فى هذه المدينة تعايشًا للحضارتين والثقافتين الأوربية والمصرية ، جنبًا إلى جنب على مدى قرن من الزمان- هى فترة الدراسة- فقد أخذت كل واحدة من الأخرى بقدر ما تسمح به العادات والتقاليد.

فقد أقام الأجانب فى الحى الإفرنجي ببورسعيد ، وأقام المصريون بقرية العرب ببورسعيد، كما ذكرنا من قبل . وإذا عقدنا مقارنة بين كل من مركز الأجانب والمصريين ببورسعيد ، لوجدنا أن الأجانب قد تمتعوا بكافة الامتيازات وبحماية قناصلهم وتأييدهم. أما المصريون فكانوا فى مركز يلى الأجانب الذين توفرت لهم أيضًا كافة أسباب الحياة الكريمة والرفاهية بدرجة أكبر من المصريين.

ولم يكن الأجانب يلتزمون بالقوانين والأوامر والتعليمات ، بينما نجد أن المصريين كانوا أكثر التزامًا. لذلك كان إحساس المصريين فى بورسعيد أنهم مواطنون من الدرجة الثانية فى الوقت الذى اعتبر الأجانب أن بورسعيد هى بلدهم لما يتمتعون به من مميزات ومكانة اجتماعية وخدمات تفوق ما يتمتع به الوطنيون(١٤٠).

وكان الوطنى إذا أراد الذهاب لحى الأفرنج يقول لزميله : «أنا طالع حى الأفرنج» وإذا اتجه لحى العرب يقول: «أنا نازل حى العرب».

ورغم انفصال المدينة إلى حيين متميزين- كما سبق وأوضحنا- إلا أنه كانت هناك اتصالات واحتكاكات بين الأجانب والمصريين . فهناك ظاهرة زواج طبيب مستشفى بورسعيد وهو مصرى من فتاة نمساوية طبقًا للشريعة الإسلامية. وقد أثبت الطبيب فى طلب الزواج موافقة الزوجة وموافقة أسرتها أيضاً.

كذلك أعلنت إحدى السيدات المسيحيات إسلامها برضاها ورغبتها. ومع ذلك لايمكن القول أن امتزاج الأجانب والمصريين كان بصورة كبيرة ، فقد ظل المصريون وأبناء العرب يقيمون

فى قرية العرب يمارسون فيها حياتهم وعاداتهم ومعيشتهم كما كانت من قبل فى موطنهم الأصلى، بينما أقام الأجانب فى الحى الأفرنجى وعاشوا حياة شبيهة بحياتهم فى بلادهم الأصلية . وقد ظلت قرية العرب بعاداتها وتقاليدها مثاراً لإعجاب الكثير من الأجانب وخاصة السياح (١٤١).

من جانب آخر نلاحظ كثرة حوادث اعتداء الأجانب على المصريين وأبناء العرب ببورسعيد. ومن أمثلة ذلك تعدى بعض اليونانيين على حمال مصرى وعدم تسديد أجرته وكذلك التعدى على مؤذن مسجد بورسعيد وعلى بعض صغار التجار، وتعدى إيطالى على فتاة مصرية بالسكين . ولم يكن الاتصال بوكلاء القناصل يفيد بشئ لصالح المعتدى عليهم، فضلاً عن عدم معاقبة المعتدين فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية والتسلط القنصلى .

وامتدت هذه الاعتداءات فشملت مستخدمى الحكومة المصرية من العسكريين والمدنيين، فحدثت حوادث اعتداء كثيرة من بعض اليونانيين والفرنسيين والإيطاليين وغيرهم على قواصة بورسعيد وعلى غفر السواحل وعلى مستخدمى الجمارك (١٤٢).

كما نجد أن موظفى شركة قناة السويس من الفرنسيين- فى ظل الترف الذى نعموا به- وقد اتسمت تصرفاتهم بالعنجهية والترفع إزاء المصريين(١٤٣).

ظاهرة أخرى تمثلت فى توافد أعداد هائلة من السياح الأجانب على مدينة بورسعيد، وكان بمثابة احتكاك حضارى وثقافى بين الوافدين وأهل المدينة. وهكذا أصبح ثغر بورسعيد ملتقى الأجناس البشرية من مشارق الأرض ومغاربها . فكان الممر الرئيسى ليس فقط لتجارة الشرق والغرب بل أيضاً لحركة الركاب بين الشرق والغرب (خلال فترة الدراسة) (١٤٤).

فالسفر بالسفن كان هو الوسيلة الوحيدة بين القارات حتى منتصف القرن العشرين إلى أن نافست الطائرة السفينة فى حركة نقل الركاب بين الشرق والغرب .

وكانت بورسعيد محطة رئيسية ينزل فيها الركاب من كل الأجناس ، يمضون فيها الليل انتظاراً لعبور سفنهم فى الصباح ، وكان الآلاف من الركاب يستمتعون بقضاء وقتهم فى هذه المدينة التى نافست ميناء نيويورك فى حركة السفن بها طوال العام(١٤٥).

وعندما تقترب السفينة من ميناء بورسعيد يقع نظر الركاب على أول مبنى على ناحية شارع السلطان حسين وشارع كتشنر، وهو مبنى كازينو بورسعيد الفخم ، حيث توفرت فيه

جميع أسباب الراحة. كذلك يطالعهم متجر «سيمون أرزت» وفندق «مارينا بالاس» ومكاتب شركة قناة السويس ذات القباب الثلاث واستراحة ضباط الأسطول البريطانى لشرق البحر المتوسط ومبنى قسم الميناء الجديد ببورسعيد [١٤٦]، وفندق «أيسترن اكتستشنج» أو البيت الجديد الواقع عند تقابل شارع فؤاد الأول بشارع أوجينى[١٤٧].

وبعد أن يخرج الركاب من أبواب الجمرك يتجهون إلى شارع الأمير فاروق الذى كان يعرف باسم «شارع التجارة» حيث يجدون أمامهم مكتب التلغراف فيتسابقون إليه لإخطار ذويهم باتجاهاتهم أو بمحمل وصولهم. وبعد ذلك يندسون فى زحام الشوارع . وهنا تجد أصحاب المتاجر وهم ينادون هؤلاء السياح بكل لغات العالم فى أبواق مضخمة للصوت، فهذا صاحب مكتبة يدعو لمكتبه باللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية واليونانية، حسب ما يتوسمه فى جنسية هؤلاء السياح .

وهذا بائع صحف يصيح بأعلى صوته مقاربًا لبيع جرائده ، وذاك ينادى على أدوات الكتابة وآخر على الملابس وآلات التصوير ، وذلك يبيع نظارات مكبرة وهنا مصنوعات شرقية، وهناك صراف يستبدل العملة الأجنبية بعملة محلية. وبعد عبور هذا الضجيج الذى تختلط فيه جميع اللغات تصل إلى تقاطع شارع فاروق بشارع فؤاد الأول حيث توجد مشارب البيرة ومقاهى من الدرجة الأولى يستريح فيها السياح لبعض الوقت ويتناولون شيئًا من المرطبات . وتوجد فى كل هذه المقاهى فرق موسيقية تعزف أحدث الأدوار الموسيقية بأشجى الأنغام جذبًا للزبائن.

وتتعدد أخلاط السياح ، فنجد الهندى السابح فى أحلامه وبجواره الصينى بعيونه الصغيرة البراقة وبجواره اليابانى وبجواره الطالب الأنامى فى طريقه إلى جامعات باريس وبرفقته زميله الطالب الماليزى المبعوث إلى الجامعة الأزهرية بالقاهرة.

كما تجد أيضًا السائح الأمريكى وقد أحاط به الباعة والصيارفة والأدلاء والحمالون وبجواره الأوربى المشدود أمام مناظر الشرق الآخاذة.

هنا يبدأ تعارف الشرقى بمقدمات الحضارة الغربية ، ويبدأ تعارف الغربى بمقدمات الحضارة الشرقية، فتتلاشى قوة الصدمة التى تنتج عن الانتقال الفجائى بين الشرق والغرب.

تلك هى خاصة بورسعيد التى تتميز بها عن سائر المدن بعد أن أصبحت محطة أساسية للخطوط الملاحية ولخطوط سفن الركاب على وجه الخصوص[١٤٨].

وكان ملوك مصر وأمرائها وكبار رجالاتها يفضلون السفر من ميناء بورسعيد عن السفر عن طريق ميناء الإسكندرية. فكانت أول زيارة رسمية للملك الشاب فاروق الأول ببورسعيد فى ٢٧ مارس ١٩٣٧ عندما توجه لأوربا ترافقه والدته الملكة نازلى وشقيقاته الأميرات، حيث زار إيطاليا وفرنسا وسويسرا وكان فى استقباله ببورسعيد محافظ القناة (محمد السيد شاهين بك) وأعيان بورسعيد(١٤٩).

العبور الليلى للسفن فى قناة السويس:

ظلت قناة السويس منذ افتتاحها للملاحة العالمية (١٨٦٩) وحتى عام ١٨٨٦ تخضع لنظام الملاحة نهاراً فقط. ولكن فى عام ١٨٨٦ تم تزويد السفن بكشاف فى مقدمتها Projector لينير لها الممر الملاحي ونجحت التجربة وكان ذلك بمثابة ثورة فى حركة الملاحة بالقناة، وكان لذلك أثره الفعال اقتصادياً وسياسيًا على مجريات الأمور، وتهدئة الصراع بين الشركة وعملائها والحكومة البريطانية بسبب التأخير فى عبور السفن فقد كان المعدل الزمنى لعبور السفن القناة فى عام ١٨٨١ هو ٤٥ ساعة و٥٣ دقيقة ، وارتفع إلى ٥٣ ساعة ، ٤٦ دقيقة عام ١٨٨٢ بسبب القيود الصحية التى فرضها الحجر الصحى . وكانت السفن تفقد ١٠ ساعات فترة الانتظار الليلى، وهو متوسط الليل فى مصر . إلا أنه فى عام ١٨٨٦ بعد تطبيق نظام العبور الليلى بلغ المتوسط الزمنى لعبور القناة ٢٠ ساعة و٤٢ دقيقة وهذا يمثل نسبة خفض قدرها ٤٢٪ من زمن العبور.

إلا أن هذا العبور السريع أثر فى نفس الوقت على أصحاب الحوانيت فى بورسعيد ، ذلك أن ركاب السفن لم يعودوا فى حاجة إلى قضاء الليل فى الشرب بالميناء فى انتظار العبور بالقناة . كذلك أضر بتجارة البمبوطية وزاد من الحوادث الملاحية لقوارب الأهالى(١٥٠).

الهوامش

١- عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس (عصر سعيد) ، ص٥١ .

٢- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ص٢١٨ .

٣- Sabri, M., Bey L'Empire Egyptienne sous Ismail et L'ingerence Anglo francaise. Paris 1933 , p. 207 .

٤- عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس (عصر اسماعيل) ص٤١٥ .

٥- فؤاد فرج، مرجع سابق ص٢١٨ .

٦- قام دى لسبس بتجميع أبناء جزيرة كاسوس اليونانية فى منطقة واحدة عرفت بحارة الكاشوتية فى جزء من شارع محمد على- راجع : ضياء الدين ، بورسعيد ص١٤٨ .

٧- ضياء الدين، بورسعيد ص٧٨ .

٨- ضياء الدين، بورسعيد ص١٤٧ .

٩- مدير جريدة Phar Port Said .

١٠- ضياء الدين، المرجع السابق ، ص١٥٨ .

١١- ولدت سنة ١٨١٩ وجلست على العرش ١٨٣٧ وتوفيت ١٩٠١ .

١٢- وهى تابعه لشركة المساجيرى ماريتيم الفرنسية.

١٣- Charles Roux, L'Isthme et le Canal de Suez t . 2. Paris 1901 . p. 335-336 .

١٤- نحات فرنسى (١٨٢٤-١٩١٠) .

١٥- روبير سولييه ، مصر ولع فرنسى ص٢٦٩ .

١٦- Charles Roux, t. 2 . Op. cit. pp. 338-341 .

١٧- أحمد شفيق باشا، مذكراتى فى نصف قرن ج٢ سلسلة تاريخ المصريين العدد رقم ٨٤ ، ص ص٣١٤-٣١٥ .

١٨- المرجع السابق، ص٣١٦ .

١٩- فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره ص ص٢٢٦-٢٢٧ ، وانظر الرسم بملحق الدراسة .

٢٠- روبير سولييه ، مصر ولع فرنسى ص٢٧٠ .

٢١- السيد حسين جلال، قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوروبى ص ص٢٣٩-٢٤٣ .

٢٢- عبد العزيز الشناوى وجلال يحيى، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف، ١٩٦٩ ، ص٦١١ .

٢٣- جلسة مجلس بلدى بور سعيد فى ٢٢ / ٩ / ١٩٣٢ وكان الماجور هدسون (من الجيش الاسترالى).

٢٤- ضياء الدين، مرجع سبق ذكره ، ص١٣٧ .

٢٥- المرجع السابق .

٢٦- ضياء الدين، الأطلس التاريخى، الطبعة الثالثة ، ص ص١٠٥-١٠٦ .

٢٧- بيير سوليبه . مصر ولع فرنسى ص٣١٨ .

٢٨- المرجع السابق .

٢٩- المرجع السابق .

٣٠- يعرف الآن باسم : الثلاثينى أو شارع سعد زغلول .

٣١- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ص٢٣٥ .

٣٢- ضياء الدين، مرجع سبق ذكره ص٨٨ .

٣٣- مرجع سابق ص١٤٨ .

٣٤- إن هذا النوع من التعليم قد بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها فى الشرق وفى مصر خاصة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية فى مصر لرياستها ، وكذلك بذلت الأرساليات الدينية البروتستنتية مجهودات كبيرة لتحويل أقباط مصر إلى البروتستنتية (فى القرن التاسع عشر) . راجع جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص١٥ .

٣٥- ضياء الدين، موسوعة تاريخ بور سعيد ص٦٥ .

٣٦- راجع كل من : أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى مصر، القسم الثانى، ص٨٤٦ ، جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص١٣٩ وزين العابدين، بورسعيد ص٣٤٦-٣٤٧ .

٣٧- زين العابدين ، بورسعيد ص٣٤٧ وأحمد عزت عبد الكريم ، مرجع سبق ذكره ص٨٤٦ .

٣٨- زين العابدين ، بورسعيد ص٢٤٧-٢٤٨ .

٣٩- سلامة جرجس، التعليم الأجنبى فى مصر ص١٤٤-١٥٤ .

٤٠- المرجع السابق ص١٥٤ .

٤١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٤٨ .

٤٢- المرجع السابق.

٤٣- المرجع السابق ص٣٤٨-٣٤٩ .

٤٤- المرجع السابق ص٣٤٩ .

٤٥- المرجع السابق ص٣٥٠ .

٤٦- جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ص٥٣ .

٤٧- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٥١ .

٤٨- عبد الفتاح تركي وأخرون، تاريخ التعليم في مصر، ص١٣٢-١٣٣ .

٤٩- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٥١ .

٥٠- المرجع السابق ص٣٥٢ .

٥١- وهو مدير البنك العثماني في بورسعيد .

٥٢- وهو يعمل صراف بشركة قناة السويس.

٥٣- وكيل ملاحي.

٥٤- وكيل مؤسسة اللويدز الألمانية ببورسعيد .

٥٥- زوجات السادة كوفيلو وفرنشيس وهاسيه وباينيه روبز برج وراتشيوتي .

٥٦- I. Dorini , Eltimsah . pp. 31-32 .

٥٧- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ص٣٥٢-٣٥٣ .

٥٨- المرجع السابق ص٣٥٤ .

٥٩- المرجع السابق.

٦٠- وهو مدير شركة ليبون الخاصة بالإنارة في بور سعيد .

٦١- I. Dorini , Eltimsah, Op. cit , p. 32 .

٦٢- أمين سامي ، التعليم في مصر ص٦٦ ، ٧٩ .

٦٣- زين العابدين ، مرجع سبق ذكره ص٣٥٦ .

٦٤- المرجع السابق ص٣٥٩ .

٦٥- المرجع السابق ص٣٥٩- ٣٦٠ .

٦٦- المرجع السابق ص٣٦٠ .

٦٧- أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ص٣١٧-٣٥٤ .

٦٨- حسين واصف باشا الذي نسب إليه اسم المدرسة .

٦٩- ضياء الدين حسن القاضي ، بورسعيد ص١١٩ .

٧٠- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٦٣ (نقلا عن وثائق القلعة) .

٧١- وهو إمام جامع القرية ، وهو عالم فاضل .

٧٢- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٦٣ .

٧٣- جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ص٣٨ .

٧٤- إحصائية وزارة التربية والتعليم عام ٥٧ / ١٩٥٨ الملحق الإضافي ١١٠١ .

جرجس سلامة ، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢) ، ص٢٣٤ .

٧٥- R . Gault , the Conflict of French Educational Philosophies in Egypt , pp. 6-8 .

٧٦- وهي لسان حال سلطات الاحتلال .

٧٧- جريدة المقطم بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٩٠ .

٧٨- جريدة المقطم في ٢١ نوفمبر ١٨٩٠ .

٧٩- عبد الفتاح تركي وآخرون ، تاريخ التعليم في مصر ص١٦٨ .

٨٠- المرجع السابق ص١٦٨-١٦٩ .

٨١- المرجع السابق ص١٦٩ .

٨٢- روبير سوليه ، مصر : ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٣٩١ .

٨٣- المرجع السابق ص٣١٩ .

٨٤- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٦٧ .

٨٥- I. Dorini , Eltimsah , Port- Said aprés, L, inaugeration du canal du Suez (1869- 1900) , p. 32 .

٨٦- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد، ص٣٧٠-٣٧١

٨٧- I . Dori , Op. cit .

٨٨- زين العابدين ، بورسعيد ص٣٧٢-٣٧٣ .

٨٩- I. Dori , Op. cit . p. 32 .

٩٠- زين العابدين ، بورسعيد ص٣٧٣ .

٩١- المرجع السابق جرجس ٣٧٣-٣٧٥ .

٩٢- I. Dori , Op. cit. p. 32 .

٩٣- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص٣٧٦-٣٧٧ .

٩٤- المرجع السابق ص٣٧٧ .

٩٥- المرجع السابق .

٩٦- I. Dori, Op. cit. p. 32 .

٩٧- Ibid .

٩٨- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٧٩ .

٩٩- المرجع السابق ص٣٧٩-٣٨٠ .

١٠٠- سهام بيومى ، الثقافة فى بورسعيد من المقومة إلى الانفتاح. مقالة فى مجلة المنتدى الفكر ببورسعيد الكتاب الثالث (مارس ١٩٩٥) إصدار كلية التربية ببورسعيد.

١٠١- المرجع السابق ص٥٩ .

١٠٢- عبد العزيز الشناوى ، السخرة فى عصر إسماعيل .

١٠٣- دفتر ٣٧٨ وثائق عابدين رقم ٣٥٩ ، ٣٧٢ ، ٤٠٠ فى ٢ ، ١١ ، ٥ صفر سنة ١٢٨٨هـ - و٨ صفر سنة ١٢٩٥هـ .

١٠٤- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص٣٨١ .

١٠٥- المرجع السابق ص٣٨١ .

١٠٦- حاليا أعلى محل أبوذكرى للأسماك .

١٠٧- ضياء الدين ، بور سعيد ص١٦٣ .

١٠٨- المرجع السابق ص١٢٦ .

١٠٩- وزير الداخلية آنذاك.

١١٠- سهام بيومى، مرجع سابق ذكره ص ص٥١-٥٢ .

١١١- الآن يسمى ميدان المنشية.

١١٢- فؤاد فرج ، منطقة القناة ص ص٢٣٤-٢٣٥ .

١١٣- Lugi Dori, Op. cit. pp. 34-35 .

١١٤- نسبة إلى المحافظ حسين واصف .

١١٥- ضياء الدين، بورسعيد ص١٣٧ .

١١٦- سهام بيومى مرجع سبق ذكره ص ص٥٢-٥٣ .

١١٧- المرجع السابق ص ص٥٣-٥٤ .

١١٨- المرجع السابق .

١١٩- المرجع السابق ص ص٥٤-٥٥ .

١٢٠- المرجع السابق ص٥٥ .

١٢١- المرجع السابق ص٩٥ .

١٢٢- محضر مجلس بلدى ببور سعيد بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٢٠ .

١٢٣- ضياء الدين ، بورسعيد ، ص١٥٩ .

١٢٤- المرجع السابق ص١٢٨ .

١٢٥- سهام بيومى ، مرجع سبق ذكره ص٥١ .

١٢٦- ضياء الدين ص ص١٦٢-١٦٣ .

١٢٧- فؤاد فرج ص٢٤٢ .

١٢٨- ضياء الدين ص١٣٦-١٣٧ .

١٢٩- المرجع السابق ص١٣٧

١٣٠- راجع أسماء الشوارع القديمة وأسماءها الحالية من البحث.

١٣١- ضياء الدين ، مرجع سابق ذكره ص١٥٩ .

١٣٢- محافظ القناة.

١٣٣- ضياء الدين ، مرجع سابق ص١٢٦ .

١٣٤- كان والده يعمل مترجما لدى دى لسبس .

١٣٥- Lugi Dori , Op. cit . p. 28 .

١٣٦- ضياء الدين، بورسعيد . مرجع سبق ذكره ص١١١ .

١٣٧- المرجع السابق ص١٥٩ .

١٣٨- كان يقع فى شارع الهلالية .

١٣٩- ضياء الدين ، بورسعيد ص١٦٣ .

١٤٠- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ، ص ص٩٥-٩٦ .

١٤١- المرجع السابق ، ص٩٩ .

١٤٢- المرجع السابق ، ص ص٧٦-٧٧ .

١٤٣- جاك بيرك ، مصر الإمبريالية والثورة ، ترجمة يوسف شاهين ، ص٢٣٨ .

١٤٤- راجع جدول حركة عبور الركاب عبر قناة السويس فى فترة الدراسة فى ملحق البحث.

١٤٥- بلغت أعداد السفن التى كانت تعبر القناة ٢٠,٠٠٠ سفينة سنويًا .

١٤٦- وهو جوازات الميناء حاليًا .

١٤٧- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس، ص ص٢٢٩-٢٣٠ .

١٤٨- لمزيد من التفاصيل عن الخطوط الملاحية التى تعبر قناة السويس، راجع للمؤلف كتاب: الصراع الدولى حول استغلال قناة السويس (١٨٦٩-١٨٨٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ص٨٥-١٠٥ .

١٤٩- ضياء الدين ، بورسعيد ، ص١٤٠ .

١٥٠- Bullétin Decadaire , No . 532 , 22 September, 1886 .

مراجع البحث

أولاً : المراجع العربية :

١- أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن (جـ٢)، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢- د. أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في مصر إسماعيل ، مكتبة النصر، القاهرة، ١٩٤٥ .

٣- د. السيد حسن جلال ، قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي (١٨٨٢-١٩٠٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨٠ ، ١٩٩٥ .

٤- د. السيد حسن جلال ، الصراع الدولي حول استغلال قناة السويس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٥- جاك بيرك، مصر .. الإمبريالية والثورة ، ترجمة يونس شاهين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،. القاهرة ، ١٩٨٧ .

٦- د. جرجس سلامه ، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة، ١٩٦٣ .

٧- د. جرجس سلامه ، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (ط١) ، ١٩٩٦ . .

٨- روبير سوليه ، مصر : ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٩ .

٩- د. زين العابدين شمس الدين نجم ، بورسعيد (تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

١٠- سهام بيومي، الثقافة في بورسعيد ، الكتاب الثالث، كلية التربية ببورسعيد ، مارس ١٩٩٥ .

١١- ضياء الدين حسن القاضي، موسوعة تاريخ بورسعيد ، ط١ ، مطبعة المستقبل ببورسعيد ، ١٩٩٧ .

١٢- ضياء الدين حسن القاضي ، الأطلس التاريخي لبطولات شعب بورسعيد عام ١٩٥٦، ط٣ ، مطبعة المستقبل ببورسعيد .

١٣- د. عبد العزيز محمد الشناوي، السخرة في حفر قناة السويس (عصر سعيد) منشأة المعارف بالاسكندرية ، ط٣ ، ١٩٦٦ .

١٤- د. عبد العزيز محمد الشناوي، السخرة في حفر قناة السويس (عصر اسماعيل، ١٩٥٢) .

١٥- د. عبد العزيز محمد الشناوي ، د. جلال يحيى ، وثائق ونصوص - التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .

١٦- د. عبد الفتاح إبراهيم تركي وآخرون ، تاريخ التعليم في مصر، مطبعة جامعة طنطا ، (بدون تاريخ) .

١٧- د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٧ .

١٨- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس (المجلد الثاني) ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٩٤ .

ثانيًا - المراجع أجنبية :

1- Charles Roux , L'isthme et la Canal de Suez T.2, Paris 1901 .

2- R. Gault , The Conflict of French Educational Philosophies in Egypt.

3- Sabri, M. Bey , L'Empire Egyptienne sous Ismail et Ingerence Anglo-Francaise , Paris , 1933 .

ثالثا : دوريات عربية :

- جريدة المقطم .

رابعًا - دوريات أجنبية :

1- Eltimsah , Lugi Dorini , Port Said aprés L'inaugeration du Canal du Sues. (1869-1900) .

2- Le Canal De Suez, Bulletin Décadaire de la Compagnie Universlle du Canal Martime de Suez.

ملاحق البحث

بيان بأسماء شوارع بورسعيد القديمة والأسماء الحديثة

الأسماء القديمة	دلالاتها	الأسماء الحديثة
Rue Des Dames	شارع السيدات	شارع ممفيس
بوليفار دى بورت *	شارع الميناء	شارع فؤاد الأول وحاليا شارع الجمهورية
شارع البولانجيرى	شارع المخابز	شارع القسطنطينية
شارع لاسييرى	شارع ورشة الخشب	شارع رمسيس
شارع دى سيركل	شارع الدائرة أو شارع النادى	شارع فرعون
شارع أرسينال	شارع الترسانة	شارع اسماعيل
شارع اوجينى	(امبراطورة فرنسا)	شارع صفية زغلول
دولا ديفيزيون	شارع التفتيش أو القسم	شارع سعيد
شارع بابل	لم يتغير	شارع بابل
شارع التجارة	————————	شارع فاروق وحاليا النهضة
كيه دى نورد	الرصيف الشمالى	شارع دى لسبس وحاليا سعد زغلول
كيه دى سيد	الرصيف الجنوبى	شارع الإسكندر الأكبر
ميدان دى لسبس	————————	ميدان سعد زغلول

* هذا الشارع هو الشارع الرئيسى بالمدينة وأسماه الفرنسيون هكذا ليذكرهم بمدينة مرسيليا .

(حركة الركاب في قناة السويس)

(١٨٧٠-١٩٥٤)

السنة	عدد الركاب	السنة	عدد الركاب	السنة	عدد الركاب
١٨٧٠	٢٦,٧٥٨	١٨٩٨	٢١٩,٥٥٤	١٩٢٦	٢٨٦,٤٣٢
١٨٧١	٤٨,٤٢٢	١٨٩٩	٢٢١,٣٣٢	١٩٢٧	٣٤٠,٣١٨
١٨٧٢	٦٧,٦٤٠	١٩٠٠	٢٨٢,٥١١	١٩٢٨	٣١٧,٧١٨
١٨٧٣	٦٨,٠٣٠	١٩٠١	٢٧٠,٢٢١	١٩٢٩	٣٢٥,٨٥٥
١٨٧٤	٧٣,٥٩٧	١٩٠٢	٢٢٣,٥١٣	١٩٣٠	٣٠٥,٢٠٢
١٨٧٥	٨٤,٤٤٦	١٩٠٣	١٩٦,٠٢٤	١٩٣١	٢٧٠,٦٥٧
١٨٧٦	٧١,٨٤٣	١٩٠٤	٢١٠,٩٨٠	١٩٣٢	٢٦١,٧٧٤
١٨٧٧	٧٢,٨٢٢	١٩٠٥	٢٥٢,٦٩١	١٩٣٣	٢٥٣,٩٤٠
١٨٧٨	٩٩,٢٠٩	١٩٠٦	٣٥٣,٨٨١	١٩٣٤	٢٦٢,١٢٢
١٨٧٩	٨٤,٥١٢	١٩٠٧	٢٤٣,٨٢٦	١٩٣٥	٦٢٥,٤٦٥
١٨٨٠	١٠١,٥٥١	١٩٠٨	٢١٨,٩٦٧	١٩٣٦	٧٨١,٩٢٩
١٨٨١	٩٠,٥٢٤	١٩٠٩	٢١٣,١٢٢	١٩٣٧	٦٩٧,٨٠٠
١٨٨٢	١٣١,٠٦٨	١٩١٠	٢٣٤,٣٢٠	١٩٣٨	٤٧٩,٨٠٢
١٨٨٣	١١٩,١٧٧	١٩١١	٢٧٥,٢٥٩	١٩٣٩	٤١٠,٥٢٣
١٨٨٤	١٥١,٩١٦	١٩١٢	٢٦٦,٤٠٣	١٩٤٠	١٦٧,٨٠٥
١٨٨٥	٢٠٥,٩٥١	١٩١٣	٢٨٢,٢٣٥	١٩٤١	١٤,١٢٤
١٨٨٦	١٧١,٤١١	١٩١٤	٣٩١,٧٧٢	١٩٤٢	٥٩٠
١٨٨٧	١٨٢,٩٩٧	١٩١٥	٢١٠,٥٣٠	١٩٤٣	١٧٣,٢٦٩
١٨٨٨	١٨٣,٨٩٥	١٩١٦	٢٨٣,٠٣٠	١٩٤٤	٤١٨,٨٣٢
١٨٨٩	١٨٠,٥٩٤	١٩١٧	١٤٢,٣١٣	١٩٤٥	٩٨٣,٩٣٧
١٨٩٠	١٦١,٣٥٣	١٩١٨	١٠٥,٩١٤	١٩٤٦	٩٣٢,٠٠٧
١٨٩١	١٩٤,٤٦٧	١٩١٩	٥٢٧,٥٠٢	١٩٤٧	٥٨٧,١٣٥
١٨٩٢	١٨٩,٨٠٩	١٩٢٠	٥٠٠,١٤٧	١٩٤٨	٤٥٤,٨٦٤
١٨٩٣	١٨٦,٤٩٥	١٩٢١	٢٩٥,١٩٩	١٩٤٩	٦١٠,٩٥١
١٨٩٤	١٦٥,٩٨٠	١٩٢٢	٢٧٥,٠٣١	١٩٥٠	٦٦٤,٢٨٤
١٨٩٥	٢١٦,٩٣٨	١٩٢٣	٢٤٦,٣٣١	١٩٥١	٥٨٨,٩٤٧
١٨٩٦	٣٠٨,٢٤٣	١٩٢٤	٢٦٣,٨٦٩	١٩٥٢	٥٧١,٤١٦
١٨٩٧	١٩١,٢١٥	١٩٢٥	٢٦٩,٥٢٢	١٩٥٣	٥٥٤,٠٩٣
				١٩٥٤	٥٣٧,٩٧٦

المصدر كل من :

Paul Raymond , Histoire De la navigation dans le canal de suez . le Caire. 1956, p. 247 .

Hallberg , W. charles ., The Suez Canal . its history and diplomatic importance . London. 1931 , p. 351 .

د. مدحت محمد عبد النعيم (*)

الأزمة السياسية اللبنانية عام ١٩٤٣

ظهرت فى تاريخ لبنان الحديث أزمات سياسية عديدة ولكن تبقى أزمة عام ١٩٤٣ أهم تلك الأزمات وأبعدها اثرا فى تاريخ لبنان .

كان اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية سببا فى إحداث تغييرات شاملة بالنسبة للوضع فى كل من سوريا ولبنان ، فقد عملت فرنسا على تقوية جيش الاحتلال فى كل من البلدين، وعينت ويجند قائدا للقوات الفرنسية فى منطقة الشرق الأوسط وأطلقت يده حرة فى التصرف فى شئون المنطقة مما يؤمن مصالح فرنسا.

وكان على المندوب السامى الفرنسى فى لبنان أن يأمن جانب الشعبين السورى واللبنانى حتى يؤمن موقف فرنسا فى المنطقة ولذلك فقد أوقف العمل بالدستور وحكم لبنان حكما مباشرا .

وازداد الموقف تعقيدا بالنسبة لفرنسا بدخول إيطاليا الحرب فى يونيو عام ١٩٤٠ بجانب ألمانيا، مما جعل فرنسا تعيد النظر فى موقفها سواء داخل أراضيها نفسها أو بالنسبة لدولتى الانتداب- على ضوء هذه التطورات - وكانت التطورات سريعة بالنسبة لفرنسا نفسها، فقد احتل الألمان باريس فى الشهر التالى لدخول إيطاليا الحرب وقامت حكومة فيشى الموالية لألمانيا .

* أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر - كلية التربية جامعة قناة السويس.

وبالرغم من المحنة التى كانت تواجهها فرنسا ومن احتلال أراضيها نفسها أعلن الجنرال منتل هوزو بأنه لن يحدث أى تغيير فى وضع الأراضى الواقعة تحت الانتداب الفرنسى وأن العلم الفرنسى سيظل مرتفعا فى هذه الأراضى وأن فرنسا ستستمر فى تأدية رسالتها فى سوريا ولبنان .

وقد كان لهذا التصريح أثره السيئ فى نفوس شعبى سوريا ولبنان مما قد يؤثر تأثيرا سيئا على موقف الحلفاء فى المنطقة ، خاصة وأن سياسة إنجلترا فى ذلك الوقت كانت ترمى إلى محاولة جذب الشعور الوطنى إلى جانب الحلفاء وتكوين جبهة ضد تغلغل نفوذ دول المحور[١].

وكانت بداية الخلاف بين إنجلترا وفرنسا (حكومة فيشى[٢]) بسبب السياسة التى أخذت السلطات الفرنسية تعمل على تنفيذها وهى سياسة معادية فى الوقت نفسه لمصالح إنجلترا. ولم يكن أمام إنجلترا إلا أن تعمل منفردة وبوحى من مصلحتها الخاصة دون النظر إلى أى اعتبار آخر، فأصدر الوزير البريطانى المقيم فى القاهرة فى يوليو ١٩٤٠ تصريحا استنكر فيه تصريح الجنرال هوز وأكد فيه أن إنجلترا لن تقف مكتوفة الأيدى إزاء أى تدخل من دول المحور فى سوريا ولبنان، وأوضح الوزير البريطانى فى تصريحه أن سياسة بريطانيا تجاه البلدين هى ترك الحرية التامة لهما فى أن تتخذ الموقف الذى يلائم مصلحتهما دون الإضرار بمصلحة الحلفاء ، بما فى ذلك الاستقلال على ألا تتاح الفرصة لألمانيا لأن تتخذ منها قاعدة لضرب إنجلترا .

وكانت نتيجة هذا الخلاف بين إنجلترا وفرنسا إتاحة الفرصة لازدياد نفوذ الدعاية الموالية لدول المحور ووضع فرنسا فى مركز حرج . وبدأت نظرة الشعب تتبلور وتتقلب من نظرة رهبة واحترام إلى نظرة عدم اكتراث وعداء لدولة احتلته وحجرت على حريته، وفى الوقت نفسه تريد أن تبقى على سلطانها وهيبتها فى أراض غير أراضيها التى تحتلها فى نفس الوقت سلطات أجنبية[٣].

وفى ١٨ أبريل عام ١٩٤١أعلنت حكومة فيشى انسحابها من عصبة الأمم ، وبذلك فقدت فرنسا (الشرعية) حقها (الشرعى) فى أن تكون دولة منتدبة على سوريا ولبنان ، وفى ٢٢ يونيو (حزيران) عام ١٩٤١ وفى غابة كومباين Compiegn وقعت كل من فرنسا وألمانيا الهدنة بعد أن هزمت فرنسا هزيمة منكرة، وتضمنت شروط الهدنة التى قبلتها حكومة بيتان Petain[٤] عددا من المواد كان أهمها :-

١- وقف الأعمال الحربية للقوات الفرنسية اعتبارا من ١١ يوليو .

٢- دخول القوات المتحالفة سوريا ولبنان وتجميع قوات دانتز فى نطاق محدد حتى يحين سفرها .

٣- تحتفظ هذه القوات بأسلحتها دون ذخيرة، أما القطع الحربية الثقيلة فتوضع تحت تصرف القوات البريطانية .

٤- لضمان إطلاق سراح الأسرى البريطانيين ستبقى عدد من الضباط الفرنسيين التابعين لفيشى من بينهم دانتز نفسه (٥).

أثارت شروط الهدنة الجنرال ديجول الذى اعتبر هذه الاتفاقية عملية تسليم بسيطة ومجردة لسوريا ولبنان إلى البريطانيين وأنها لاتتوافق مع المصالح السياسية والعسكرية لفرنسا ، ورفضت التصديق عليها لأنها لم تتضمن أى ذكر لقوات فرنسا الحرة، ولأنها وضعت الأسلحة التى كانت بعدة فيشى بأيدى البريطانيين ولم تسلم للسلطات الديجولية.

وأسرع ديجول إلى القاهرة فى ٢١ يوليو يعلن أنه غير ملتزم باتفاقية الهدنة وأنذر الكابتن لينلتون بفصل قواته بصورة تامة فى القوات البريطانية .

وفى ٢٤ وافقت الحكومة البريطانية على مطالب ديجول فعدلت اتفاقية الهدنة باتفاقية تفسيرية من ٩ بنود أتاحت للضباط الديجوليين مجالا أوسع لعرض وجهة نظرهم أمام قوات فيشى ووضعت الأسلحة المصادرة والقوات الخاصة تحت إمرة كاترو.

وفى أواخر أغسطس اقترح دانتز إطلاق سراح الضباط البريطانيين ورحل عن البلاد فى ٤ سبتمبر ١٩٤١، وما أن انتهت العمليات العسكرية حتى نسى ممثلو فرنسا الحرة وعودهم بإنهاء الانتداب وعمدوا إلى وضع معاهدة قريبة من صيغة الانتداب ووقفت بريطانيا إلى جانب فرنسا رغم إقرارها بحق البلاد بالاستقلال إلا أنها احتفظت لفرنسا الحرة بأحقية التفاوض مع الهيئات المحلية دون غيرها من الجهات الأجنبية الأخرى.

كذلك كانت تدرك بريطانيا خطورة تبعية لبنان إلى حكومة فيشى وخطورة التواجد الألمانى فى الشرق خاصة من النواحى الاستراتيجية والعسكرية(٦)، لذلك حدثت الرغبة المشتركة عند الفرنسيين الأحرار وبريطانيا للتدخل العسكرى بمهاجمة لبنان وطرد فيشى منها وإزاحة النفوذ الألمانى، فى الوقت الذى لم يكن فيه الفرنسيون الأحرار بزعامة ديجول راغبين فى ترك المجال لبريطانيا للعمل وحدها .

وفى البداية أعد الفرنسيون خطة للتدخل ولكنهم وجدوا أنها غير ممكنة التطبيق لقلة ما لديهم من قوات فقد أدركوا أن التواطؤ بين فيشى والألمان لم يثر حركة واسعة وسط القوات الفرنسية في الشرق الأدنى وهو أساس الخطة الفرنسية، وأن الذى حدث فقط أن بضع مئات من القوات الخاصة ، وبشكل خاص اجتازت الفرسان الشركس بقيادة الكولونيل كوله Collet الحدود الجنوبية وانضمت للفرنسيين الأحرار فى فلسطين التى كانت تحت قيادة الجنرال الفرنسى الديجولى ليجنتيل هوم Legentil Homume (٧).

ولذلك ولعدم إمكانية تطبيق المشروع الفرنسى كان لابد من إشراك البريطانيين وتم أخيرا الموافقة على خطة فرنسية- إنجليزية مشتركة يقوم بتنفيذها الجنرال ويلسون Henry Mait-land Uilson (٨)، وفى ٢٥ مايو (أيار) ١٩٤١ أخبر ويفل Wavel وزارة الحربية البريطانية أنه جهز خطة للعمل فى لبنان وسوريا (٩).

وفى ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤١ شرعت قوات الحلفاء بغزو لبنان وسوريا ، وكانت فى مجموعها مؤلفة من قوات بريطانية مع قوات استرالية وهندية وقوات فرنسية حرة. وفى اليوم نفسه الذى تحركت فيه هذه القوات التى كانت فى معظمها بريطانية ، أعلنت الحكومة البريطانية أنه بالرغم من تحذيرها السابق والواضح فى أول حزيران فإن حكومة فيشى تابعت سياستها فى التعاون مع دول المحور فوضعت المطارات تحت تصرف الألمان ولذلك فإن الحكومة البريطانية لن تتسامح حول هذا العمل ولاتستطيع السكوت عنه (١٠).

دامت الحرب حوالى شهر ونصف بدأت فى حدود مرجعيون والناقورة وضربت بيروت عدة مرات بقنابل الطائرات ووجه الرئيس نقاش كتابا إلى الجنرال دانتيز يطلب منه إعلان بيروت مدينة مفتوحة كى لاتضرب بالقنابل (١١)، ولم تحدث أية مقاومة خلال الأسبوع الأول فالطابور الساحلى أخذ صور واتجه إلى ما بعدها ، ولكن فى ١٦ حزيران قامت قوات فيشى بهجوم معاكس استعادت فيه مرجعيون ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد استعيدت مرجعيون والمناطق المحيطة بها ووصلت نجدات من العراق كما وصلت نجدات أخرى من البحر(١٢).

وزاد من صعوبة موقف دانتز أن المساعدة التى كان بحاجة إليها عن طريق حكومة فيشى كانت محدودة هذا حسب ما يقوله لونج ريج بأن الألمان الذين غزوا روسيا فى ٢٢ حزيران ١٩٤١ فقدوا المصلحة فى لبنان وسوريا ولذلك ظهر أن المساعدة الألمانية الخارجية غير ممكنة فى الوقت الذى أصبحت فيه قوات فرنسا الفيشية ضعيفة نتيجة للخسائر الفادحة التى تعرضت لها .

لقد تأكد لدانتز فى ٢٢ حزيران عبث المقاومة فطلب من القنصل الأمريكى فى بيروت (فان انجهرت Van Englrt) معرفة شروط الهدنة من بريطانيا ، وفى ٨ تموز (يوليو) ١٩٤١ طلب دانتز وقف إطلاق النار مع القائد البريطانى ويلسون وتسلم شروطه فى اليوم التالى ، ولكن هذه الشروط لم تقبل من فيشى على أساس ما جاء فيها من شروط سياسية[١٣] وأنها لم تقبل المفاوضة مع رجال فرنسا الحرة وعلى رأسهم ديجول ، وفى ١٥ تموز دخلت جيوش الحلفاء بيروت واحتلت المراكز العسكرية فى المدينة.

النتائج السياسية للوجود البريطانى فى لبنان عام ١٩٤١:-

فى اليوم الذى بدأت فيه القوات العسكرية اجتياح لبنان أسقطت الطائرات منشورين أحدهما بإمضاء الجنرال كاترو Catraux ممثل الجنرال ديجول فى القاهرة ، ومما جاء فيه . «بأن فرنسا ذات التقاليد المجيدة تعد بإنهاء عهد الانتداب وضمان الحرية والسيادة للبنانيين» وختم هذا المنشور بالنص التالى «لقد أزفت ساعة عظمى فى تاريخكم ، وأن فرنسا بصوت أبنائها الذين يحاربون من أجل حياتها ومن أجل حرية العالم تعلن استقلالكم»[١٤].

أما المنشور الثانى فقد كان عبارة عن بيان وقعه مايلز لامبسون Milies Lampason السفير البريطانى فى القاهرة وجاء فيه «أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية فوضته بأن يعلن تأييد ضمان الاستقلال الذى أعطاه الجنرال كاترو Catroux بالنيابة عن الجنرال ديجول واشتراكها به»[١٥].

وكانت بريطانيا ترغب فى أن تتم صياغة هذين البيانين فى بيان واحد وذلك عندما عرضت الوثيقة الفرنسية على شكل مسودة على مكتب وزارة الخارجية البريطانية بحيث يأتى على شكل ضمان بريطانى لكن ديجول رفض ذلك وأجاب «بأن بريطانيا تستطيع نشر ضمانها بالطريقة التى تناسبها ولكنه لايحبذ وضع إعلان بريطانى مع الإعلان الفرنسى ويتعجب لماذا تصر قوة أخرى على ضمان وضع دول تابعة للانتداب الفرنسى»[١٦].

وفى رسالة بعث بها تشرشل إلى ديجول يقول فيها «أنه ليس لإنجلترا مآرب خاصة فى الإمبراطورية الفرنسية ، ولاتريد مطلقا أن تجنى فائدة لها من حالة فرنسا المحزنة، ثم رحب فى رسالته بقرار الجنرال ديجول بمنح لبنان الاستقلال ، وأشار إلى الضمانة البريطانية وما فيها من قوة وأبدى حرصه على تجنب كل ما يهدد الاستقرار فى المشرق ووجوب صنع كل شئ مستطاع لتحقيق آمال العرب ورغباتهم[١٧].

وفى ٢٤ حزيران أصدر الجنرال ديجول أوامره بتعيين الجنرال كاترو Catroux مندوبا ساميا عاما ومفوضا وقائدا عاما فى الشرق وبذلك حل محل الجنرال دانتيز وهذا التعيين كان الهدف منه تثبيت الفرنسيين الأحرار لوجودهم السياسي فى لبنان وإعطائه صورة جديدة تختلف عن ذلك الوجود الذى كان مرتبطا بحكومة فيشى وعلى أساس أن كاترو Catroux يمثل تمثيلا حقيقيا ذلك الوجود الجديد .

ولكن كانت عند الفرنسيين الأحرار ومنهم كاترو Catroux الرغبة فى وضع قواعد معينة تنظم العلاقات الجديدة التى أصبحت قائمة فى لبنان على أثر التواجد البريطانى والمتعلق بالنواحى العسكرية والسياسية ومن أجل ذلك جرت مراسلات بين ديجول وليتلتون Oliver Lyttelton. وزير الدولة البريطانى فى مصر، وقد اتفق على تسمية هذه المراسلات باتفاق ديجول ليتلتون، وقد جاءت فيه أمور عسكرية وسياسية وأهم ما جاء فى هذا الاتفاق هو قبول الفرنسيين للتواجد البريطانى مع اعتراف بريطانيا بالوضع الخاص والمميز لفرنسا فى لبنان مع تعهد الدولتين باستقلال لبنان (١٨).

وفى ٨ من يونيو عام ١٩٤١ وأثناء زحف القوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة لاحتلال لبنان وتخليصها من حكومة فيشى أعلن الجنرال كاترو قائد قوات فرنسا الحرة انتهاء نظام الانتداب وأن كل شعب مستقل له سيادته وأمامه فرصة العمل أما أن يتحدوا فى دولة واحدة وإما قيام دولتين منفصلتين ، وسوف يكرس هذا الاستقلال بمعاهدة يضمن فيها المصالح المتبادلة . ولكى يعطى الجنرال كاترو بيانه شكلا قويا وسندا يقبله المواطنون فقد أكد بأن الحكومة البريطانية بالاتفاق مع فرنسا الحرة قد ضمنتا للبلدين كافة المزايا التى يتمتع بها العالم الحر الذى يقف بجانبها ، وعلى ذلك فإن الحصار المضروب حول البلدين سوف يرفع(١٩).

وأثبتت الأحداث التى تلت ذلك التصريح أن فرنسا قد تراجعت منذ بداية استقرار جنودها فى لبنان عن الموقف الذى اتخذته فى يونيو وكان على إنجلترا أن تساند سياستها مرة أخرى وتقف فى صف الاستقلال فأعلنت بيانا يؤكد هذا الموقف .

ولم يقتصر أمر إعلان استقلال سوريا ولبنان على الجانب الفرنسى فقط، بل كان على إنجلترا وهى صاحبة القوة أن تثبت وجودها فى أمر جوهرى خطير كهذا ، لذلك سارع السير مايلز لامبسون سفير بريطانيا فى القاهرة فى ٩ يونيو ١٩١٤ بإذاعة بيان باسم الحكومة البريطانية أنها تؤيد وتدعم الاستقلال والتأكيد التى أعلنته فرنسا .

وفى ٢٦ تشرين الثانى (نوفمبر) أعلن كاترو Catroux استقلال لبنان وبعض ما جاء فى هذا الإعلان «أن فرنسا تتعهد بالمحافظة على سلامة لبنان ووحدة أراضيه وأنها ستضمن استقلال البلاد فى إطار مشروع معاهدة ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التى رحب بها اللبنانيون فيما مضى، ثم قام كاترو Catroux بتعيين الفرد نقاش فى أول كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه رئيسا للجمهورية، وكان النقاش قد عين فى هذا المنصب من قبل الجنرال دانتيز، وفى الوقت نفسه تألفت وزارة برئاسة المهندس أحمد الداعوق ، وقد اختلفت هذه الوزارة عن سابقتها بأنها تضمنت منصبا وزاريا للشئون الخارجية وأعطى هذا المنصب لحميد فرنجيه(٢٠).

ولكنه لم يلبث أن استقال بعد الأزمة الغذائية الحادة فى ٢٢ يوليو ١٩٤٢ لعجزه عن إيجاد حل مرضى لمشكلة الإعاشة أو وُقِف ارتفاع الأسعار مما أدى إلى إقفال عام للمخازن صباح يوم ١٦ يوليو وحصول اشتباكات فى ذلك النهار وقد وضع بيار الجميل الحكومة أمام خيارين أما أن تجد الطحين أو ترحل وتولى الوزارة سامى الصلح (٢١).

وهكذا اجتمعت مقتضيات الحرب على فرنسا أن تتبع سياسة التأجيل التى لم تقتضيها الشعوب المحلية خاصة بعد إعطاء وعود محدودة بالاستقلال والسيادة ويعتبر البعض أن إعلان ٨ يونيو (جاء فى إعلان ٨ يونيو الموجه إلى أهالى سوريا ولبنان «أنه سوف يتاح لكم أن تشكلوا دولتين مستقلتين أو أن تتحدوا فى دولة واحدة) حول انتهاء الانتداب قد أضاع الفرصة من فرنسا لتعزيز وضعها وإعادته إلى ما قبل ١٩٣٩ .

ولم يعجب اللبنانيون تمسك فرنسا بمركزها الممتاز أو عودتها إلى تطبيق السياسة السابقة والتى تشير إليها بوضوح تصرفات المندوب السامى بجمع الصلاحيات فى يده خاصة وأن فرنسا ١٩٤١ المنهارة والمنقسمة على نفسها والخارجة من عصبة الأمم هى غير فرنسا ١٩٣٦ التى رضى الشعب اللبنانى أن يوقع معها اتفاقية لم توافق عليها هى فى ذلك الوقت .

ولقد اعترفت الدول رسميا ولأول مرة باستقلال لبنان وكان فى مقدمة هذه الدول بريطانيا التى عينت فى فبراير ١٩٤٢ الجنرال سبيرس وزيرا مفوضا لها فى لبنان وسوريا والذى جعل بيروت مقرا لعمله، كما عينت الولايات المتحدة الأمريكية السيد ود سورث معتمدا سياسيا الذى صرح بعد تقديم أوراق اعتماده الرسمية إلى رئيس الجمهورية الفرد نقاش فى نوفمبر «يمكن لسوريا ولبنان الاعتماد على دعم الولايات المتحدة للحصول على استقلالهم التام»(٢٢).

ثم كان الاعتراف البريطاني السريع باستقلال لبنان خاتمة المطاف فى عام ١٩٤١ وقد جاء هذا الاعتراف على شكل رسالة تهنئة من الملك جورج السادس George VI إلى الرئيس اللبنانى على أساس أنه رئيس دولة مستقلة بتاريخ ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١ . وهذا الاستقلال المعلن واعتراف الدول به لم يكن يكتمل معناه ما دامت فرنسا تفرض على لبنان قيودا سياسية تمنعه من تحقيق أمانيه .

وفى ٢٩ أبريل ١٩٤٢ بعث كاترو إلى حكومة فرنسا الحرة برقية جاء فيها «الخطة الوحيدة التى يمكن معالجة الأوضاع بها تتمثل فى إعادة الأوضاع الدستورية كما كانت عليه عام ١٩٣٦ دون إجراء الانتخابات التى يطالب بها سبيرس والتى ستتيح للعملاء وللمال الأجنبى فرصا عديدة للسيطرة على الأحداث ». لذلك رأى كاترو بالعودة لرئاسة اميل إده والمجلس النيابى المكون من ١٢ عضوا فرصة تسمح له بإقرار معاهدة ١٩٣٩ .

أحداث لبنان السياسية عام ١٩٤٢ :

دعمت بريطانيا اعترافها السابق بتعيين الجنرال إدوارد سبيرس Edward Spears كأول وزير بريطانى مفوض لدى الجمهورية اللبنانية والجمهورية السورية فى شباط (فبراير) ١٩٤٢ والذى جعل من بيروت مقرا له ، وبقى سبيرس فى هذا المنصب حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٤ .

والحقيقة فإن الخطوة البريطانية الأخيرة، الاعتراف الرسمى باستقلال لبنان وتعيين سبيرس، هذه الخطوة أدت إلى دعم الوجود السياسى البريطانى فى لبنان بالإضافة إلى وجودها العسكرى الذى بدا منذ ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤١ ، ثم أضافت إلى خطوتها السابقة خطوة أخرى وهى تعيين ضباط سياسيين فى جميع المناطق اللبنانية مما زاد تأثير الوجود السياسى والعسكرى البريطانى وبالتالى التأثير فى كل الأحداث اللاحقة.

لقد أخذ يبرز شعور عام لدى اللبنانيين بأن الوجود الفرنسى فى لبنان أصبح ضعيفا لذلك أخذ اللبنانيون يتجهون صوب بريطانيا لإنجاز ما تم الوعد به من استقلال خاصة وأن بريطانيا ضمنت تحقيق ذلك فى بيان مايلز لامبسون وفى اعترافها الأخير بهذا الاستقلال[٢٣].

ولكن زاد من اتجاه اللبنانيين نحو بريطانيا أن واقع الحال فى عام ١٩٤٢ بدا يثبت أن الفرنسيين لم يغيروا شيئا فهم مستمرون فى تعطيل الحياة الدستورية ، ومستمرون فى تعيين

رئيس الجمهورية والمجلس الوزارى فى ظل تعطيل الحياة النيابية ، وهذا كله يتنافى مع الاستقلال الذى أعلنوه ولذلك أحاط باللبنانيين شعور بخيبة الأمل ، وفى رأى سبيرس الوزير البريطانى المفوض فى بيروت والذى جاء في رسالة سرية إلى وزير الدولة البريطانية فى القاهرة أن خيبة الأمل تلك تعود إلى فتور الهمة عند الرئيس اللبنانى نقاش والإدارة المحيطة به وخاصة الوزراء وأيضا إلى النقص الواضح فى البرهان على أن لبنان فعلا بلد مستقل وهذا الجانب مرتبط بالشك بحسن نية فرنسا .

وفى ظل هذا الوضع السياسى أخذت تظهر فى لبنان قضية إجراء الانتخابات وهذه القضية كانت المحك الرئيسي التى يمكن أن تبين مدى إمكانية صدق النية الفرنسية نحو تحقيق الوعود التى أطلقها الفرنسيون من أجل الاستقلال أو ما يمكن أن يطلق عليه إعادة الحياة الدستورية كهدف نحو تحقيق هذا الاستقلال .

لقد أثارت مسألة الانتخابات خلافا بين المفاهيم الفرنسية والبريطانية ، ففرنسا اعتبرت إجراء انتخابات مبكرة سيؤدى إلى فوز الوطنيين اللبنانيين وفيه إحراج لمركزها ، أما بريطانيا فكانت ترى العكس تماما فإجراء انتخابات ووصول الوطنيين إلى الحكم سيؤدى إلى هدوء الحالة والاتجاه الكامل نحو كسب الحرب كذلك أخذت السلطات الفرنسية تطرح أفكاراً بديلة عن الانتخابات .

أما اللبنانيون وعن طريق أحزابهم السياسية وهيئاتهم الوطنية فقد اعتبروا مسألة الانتخابات على أنها أمرا لابد منه ، لأنه عن طريق الانتخابات سيتم تشكيل حكومة دستورية تمثل الشعب، وكان أكثر هذه الأحزاب نشاطا فى هذا المجال الحزب الدستورى بزعامة بشارة الخورى وحزب النجادة بزعامة جميل عكاوى(٢٤).

ولما كانت هذه الأحزاب تدرك وجهة النظر البريطانية الداعية إلى إجراء انتخابات مبكرة فقد صاغت مذكرة وذلك فى ٤ أبريل (نيسان) ١٩٤٢ وقدمتها إلى الوزير البريطانى المفوض فى بيروت وجاء فيها «عدم رضاها عن الحالة السياسية الراهنة فى لبنان وطلب العودة إلى الحياة الدستورية القائمة على أساس إجراء انتخابات يتمخض عنها مجلس نيابى وحكومة دستورية ، وقام المفوض بدوره وبحث المسألة مع كاترو Catroux فى اليوم نفسه، ويقول الوزير البريطانى المفوض «أنه وجد ما كان يتوقعه وهو أن تحديد موعد للانتخابات قبل نهاية ١٩٤٢ سوف لن يحسن الأحوال السياسية ، لأن ذلك لن يسمح للحكومة بالاستمرار فى منصبها وأن أفضل ما يمكن عمله فى هذه الحالة هو إيجاد مجلس نواب معين (٢٥).

وإذا كانت مسألة الانتخابات هى القضية السياسية المطروحة فإن موضوع مصير الحكومة بدأ يطرح أيضا على بساط البحث والفرنسيون أنفسهم كانوا متأكدين بأن الحكومة فى تشكيلها الراهن لن يطول عمرها فى الحكم، ولذلك فإن حلها بدا قاب قوسين أو أدنى ، وفى مقابلة مع الوزير البريطانى المفوض أشار رئيس الجمهورية إلى أنه توجد إمكانية وشيكة الحدوث تقوم على أساس تشكيل مجلس وزارى جديد من ستة وزراء فقط (واحد لكل طائفة رئيسية) وأن كاترو Catroux يميل إلى استقالة الوزراء ، ولكنه يرغب فى تشكيل وزارة جديدة مع بقاء رئاسته وربط رئيس الجمهورية موضوع التحديد لموعد الانتخابات بتشكيل مثل هذه الحكومة (٢٦).

استمرت ذيول هاتين المسألتين متلازمتين الانتخابات ومصير الحكومة مرتبط بهما كذلك الحالة الاقتصادية التى كانت سائدة فى لبنان وبالوضع العسكرى العام خارج لبنان وخاصة فى الشمال الأفريقى لقد أخذ بشارة الخورى تلك الأثناء يعمل بجهد كبير نحو لملمة صفوف حزبه وكسب المؤيدين له فى بيروت وطرابلس ومجموعات أخرى صغيرة كانت قد بدأت تشكل نفسها أو تعيد تشكيل نفسها ، أو تعيد تشكيل صفوفها على أساس أن الانتخابات لابد قادمة أما أميل إده الرئيس السابق وزعيم الكتلة الوطنية، والمنافس الرئيسى لبشارة الخورى، فقد كان يعمل على دفع رئيس الجمهورية نحو تغيير الحكومة وحجته فى ذلك أن تلك الحكومة فقدت ثقة البلاد، ويعلق الوزير البريطانى المفوض فى تقرير للخارجية البريطانية على ذلك أن اده يؤيد تغيير الوزارة من أجل أن يزيد من نفوذه بوضع أعوانه فى الحكومة الجديدة وبذلك يصبح فى وضع أفضل للتأثير فى مجرى الانتخابات القادمة .

ويضيف التقرير نفسه أن رئيس الجمهورية كان يعكف على وضع أحد بنود قانون الانتخابات موضع التنفيذ والذى يجيز له تعيين ثلث مقاعد مجلس النواب وانتخاب الثلثين عن طريق الاقتراع ، بالرغم من أن الحياة الدستورية كانت معطلة فإنه يميل إلى هذا الاتجاه حتى يقوى من موقفه داخل مجلس النواب القادم ، مع أن الشعور السائد عند الناس فى لبنان بأنه لامجال لأعضاء معينين فى مجلس نيابى فى دولة مستقلة(٢٧).

ولم تقف تحركات رئيس الجمهورية فى هذا المجال عند هذا الحد فقد حاول فى ٢٢ أيار (مايو) ١٩٤٢ أن يقنع الضابط السياسى البريطانى سبيرس Spears بأن الانتخابات فى حال إجرائها ستولد اضطرابا شعبيا ولن تقود إلى مجلس نيابى يمثل الشعب بصورة

صحيحة وإجابه سيبيرس Spears» بأن الانتخابات من وجهة النظر البريطانية ضرورية من أجل تنظيم وضع الحكومة وإعطاء صمام أمن للنقد الشعبي»(٢٨).

أن إجراء الانتخابات في لبنان وهذا هو رأى الوزير سيبيرس Spears حسب ما جاء في تقريره ستؤدى إلى زوال نقاش من منصبه لأنه مجرد إجراء مثل تلك الانتخابات - وهو ما تؤيده بريطانيا - سيفقده منصبه الرئاسي لفقدانه التأييد الشعبي شخصيا لضعف فرص انتخابه من قبل مجلس ينتخب بمجموعة من الشعب ومن هنا كان تأييده دائما لمجلس معين بكامله أو أن يعين ثلث أعضاء ذلك المجلس(٢٩).

وفي صيف عام ١٩٤٢ بدا موقف الحكومة اللبنانية ضعيفا فالرئيس اللبناني يحاول كسب شعبية شخصية له ووزير الخارجية حميد فرنجية يهدد بالاستقالة لفشله في نقل الصلاحيات من الفرنسيين إلى الحكومة ومصر العراق والولايات المتحدة لاتعترف باستقلال لبنان .

وفي يوم ١٦ تموز (يوليو) ١٩٤٢ حدث اضطراب شعبي منظم حيث أغلقت الحوانيت وتوقفت المواصلات وجرت مظاهرات قام بها الشباب وحصلت اضطرابات وأطلق البوليس النار ولكن لم تحدث إصابات، وحسب ما جاء في التقرير البريطاني الذي تعرض لهذا الحادث فإنه لم يتم التوصل إلى فاعليه ولكنه وصف بأنه كان عفويا شعبيا وأن سببه الرئيسي هو السخط الناجم عن النقص في خدمات التموين اللبنانية خاصة فيما يتعلق بتوزيع الطحين الذي تأخر توزيعه أياما في بيروت بالإضافة إلى ارتفاع الأسعار في الأسابيع الأخيرة بشكل لايمكن احتماله (٣٠).

لقد أدى هذا الحادث إلى سقوط الحكومة في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٤٢، وفي ٢٧ تموز تشكلت حكومة جديدة برئاسة سامي الصلح صهر رياض الصلح الوطني اللبناني المعروف، وكان قبل أن يشكل تلك الوزارة قد اتخذ خطوات كانت أهمها التحقق من أنه مقبول شخصيا من البريطانيين وبعد التأكد من ذلك باشر في تشكيل الوزارة ، ولكنه وجد أن الرئيس اللبناني والفرنسيين ثم البريطانيين قد أبدوا اعتراضات على بعض الأشخاص الذين رشحوا للاشتراك في وزارته وفي النهاية تم التفاهم على إزالة تلك الاعتراضات من الطريق فوضع القائمة التي تشكلت منها الوزارة(٣١).

وكان استقبال الوزارة في البلاد محبذا أكثر مما كان متوقعا خاصة شخصية سامي الصلح ففي يوم الجمعة ٣١ تموز تجمهر عدد كبير من الناس في الجامع الرئيسي لأداء صلاة

الجمعة ، وبعد الصلاة عبروا عن تأييدهم الحار لسامى الصلح، كما وصله سيل من برقيات التهنئة خاصة من طرابلس وجنوب لبنان[٣٢] .

ومن ناحية أخرى فقد وصل الجنرال ديجول فى بداية شهر آب (أغسطس) إلى بيروت، وأثارت زيارته بطبيعة الحال الاهتمام ، وفى أول اجتماع له مع الموظفين الفرنسيين الرسميين، أعاد إلى الأذهان تأكيد استمرار وجود الانتداب على لبنان وأثنى على جهودهم الناجحة فى دعم الوجود الفرنسى ، وكان هذا القول من ديجول أول تحد للحكومة الجديدة التى أبدت اعتراضها ولكنها لم تستطع توجيه أى احتجاج رسمى على ذلك لإدراكها أن رئيس الجمهورية لن يوافق على ذلك ، وفى مباحثات أجراها الوزير البريطانى المفوض مع ديجول ، استنتج أن الأخير لايرغب فى وضع تاريخ محدد لإجراء الانتخابات ، ثم ترك ديجول بيروت والحالة السياسية على حالها ولم يحدث حتى نهاية عام ١٩٤٢ ما يدل على تغيير فى المواقف الفرنسية[٣٣].

عودة الحياة الدستورية :

ولكن بمطلع عام ١٩٤٣ رجعت قضية الانتخابات تفرض نفسها، وفى ٢٤ كانون الثانى (يناير) ١٩٤٣ أصدر المسيو هيلو Hellew السكرتير العام فى بيروت ، بلاغا رسميا نيابة عن اللجنة الوطنية الفرنسية فى لندن جاء فيه بأن اللجنة مصممة على حماية استقلال لبنان وتعتقد بناء على مشاورات أجرتها مع الحكومة البريطانية أن تطور الحالة العسكرية تسمح بإعادة الحياة الدستورية وقد أعطيت الصلاحية إلى الجنرال كاترو Catroux عند عودته بأن يتخذ الخطوات المناسبة لتحقيق ذلك بعد التشاور مع الحكومة اللبنانية ومع الشخصيات المحلية الرئيسية[٣٤].

وبالرغم من عدم تحديد موعد للانتخابات وعدم معرفة القانون الذى سيتم بواسطته طريقة إجراء تلك الانتخابات فإن النشاط السياسى أخذ يدب فى لبنان بأشكال مختلفة وأساليب متعددة لصدور هذا البلاغ .

ففى ٢٦ كانون الثانى حاول رئيس الجمهورية حث رئيس الوزراء سامى الصلح على الاستقالة مع وزرائه على أساس أن تلك الاستقالة ضرورية للمصلحة الوطنية مع بقائه رئيسا للبلاد وتعيين حكومة محايدة تشرف على الانتخابات ، لكن رئيس الوزارة رفض ذلك وربط استقالته باستقالة رئيس الجمهورية لكنه على استعداد للتخلى عن منصبه إذا طلب منه

سلطات الحلفاء ذلك، وكان رأى الوزير البريطانى المفوض سبيرس Spears مع رئيس الوزراء فى وجهة نظره فى الوقت الذى تنتظر فيه ما تتمخض عنه المشاورات مع الفرنسيين وأبدى المسيو هيلو وجهة نظر تتفق مع وجهة النظر البريطانية (٣٥).

وعلى صعيد آخر فإن الإعلان عن عودة الحياة الدستورية أدى إلى نشاط سياسى عند الأحزاب المتعددة للتحضير لمعركة الانتخابات وتحاول إثارة الاهتمام الفرنسى أو البريطانى والدوائر الوطنية الممثلة بصورة خاصة فى الكتلة الدستورية فقد كانت تحاول نشر الاعتقاد بأن وصولها للسلطة ينال رضى البريطانيين، وعلى الجانب الآخر فقد تدهور وضع رئيس الوزراء بشكل خطير فالاكليروس المسيحى يقف ضد سياسته ذات الاتجاه الإسلامى والبطريرك المارونى يدعم محاولات إقصائه وزعماء الطائفة السنية يعارضونه على أساس أنه فشل فى حماية المصالح الإسلامية(٣٦).

وفى ١٩ شباط (فبراير) عاد كاترو Catroux إلى بيروت وبدأت مشاوراته مع الشخصيات اللبنانية وأخذت الشائعات تنتشر حول ما سيقوم به ، هل سيعيد برلمان عام ١٩٣٩ ، وهل سيتم استبدال الحكومة الحالية بحكومة أخرى يتم تعيينها ؟ وفى أثناء ذلك أدرك كل من الرئيس اللبنانى ورئيس الوزراء أن منصبيهما فى خطر ، ولذلك أرسلا رسالة مشتركة إلى كاترو Catroux ونسخة منها إلى الوزير البريطانى المفوض سبيرس Spears يحتجان فيها «على أساس المشاورات التى أجريت مع بعض السياسيين اللبنانيين الذين هم حسب رأيهم (أصحاب مصلحة) ولايوافقون على إعادة نواب ١٩٣٩ » ، وفى حديث لرئيس الجمهورية قال فيه «أنه كرئيس لدولة أعلن استقلالها فإنه لايقبل أن يجبر على الاستقالة ولن يفعل ذلك (٣٧).

وبالرغم من تلك المعركة السياسية التى كانت تجرى بين الحكومة اللبنانية وكاترو Catroux فقد بدأت تتضح أهداف كاترو Catroux والطريقة التى سيعالج فيها الأمور الملحة، فبالنسبة للحكومة القائمة فإن هدف كاترو Catroux هو إقناع الرئيس اللبنانى بالاستقالة ويقوم بتعيين وزارة انتقالية قليلة العدد برئاسة فيليب بولص أو أيوب ثابت فى الوقت الذى يدرك فيه كاترو Catroux عدم إيمان غالبية اللبنانيين بالنظام الدستورى القديم والقائم على أساس تعيين ثلث النواب من قبل رئيس الجمهورية، كذلك وضع حلان أمام كاترو Catroux ، الأول يقوم على إعادة الحياة الدستورية مع نزع تلك الفقرات غير المرغوب فيها فى الدستور، والثانى إيجاد جمعية تأسيسية لسلطات تشريعية مع تحديد دور انعقادها لسنتين وخلال ذلك يتم تعديل الدستور(٣٨).

لقد أصبح واضحا أن هناك خلافا بين كاترو Catroux والرئيس اللبنانى وأن كاترو Ca- troux سيخطو خطوة مضادة لإيقاف تحركات رئيس الجمهورية وبالتالى لإفشال أهدافه ، كذلك فقد أصبح واضحا أن الاعتقاد الذى ظهر فترة حول إعادة المجلس النيابى القديم قد تبدد تماما نتيجة للاعتراضات البريطانية (٣٩).

أما الخطوة التى قام بها كاترو Catroux فقد تمت فى ١٨ مارس (آذار) حيث أعاد العمل بالدستور المعطل منذ عام ١٩٢٩ مع استثناء تعيين ثلث الأعضاء من قبل رئيس الجمهورية وعين حكومة انتقالية من ثلاثة أعضاء فيها الدكتور أيوب ثابت رئيسا للدولة والحكومة ويساعده وزيران لإدارة البلاد حتى يتم إجراء الانتخابات فى غضون ثلاثة شهور وهما خالد شهاب وجواد بولص . وقد جاءت هذه الخطوة بالاتفاق الكامل مع السلطات البريطانية والدليل على ذلك صدور بيان عن الوزير البريطانى المفوض سبيرس Spears فى ١٩ آذار (مارس) أعلن فيه ترحيبه بالخطوة الفرنسية وهذا الترحيب أوجد شعورا بالارتياح بشكل عام لدى الأهالى(٤٠).

ومن المرجح أن الجهود البريطانية أسفرت عن نتائج أولية لمصلحة السياسية البريطانية فى المنطقة، ففى آذار (مارس) ١٩٤٣ وقعت الأزمة الحادة بين الرئيس الفرد نقاش وبين المفوض كاترو Catroux وقد أوضح الرئيس اللبنانى كيفية اتفاق بريطانيا مع فرنسا من أجل انتخابات نيابية فى لبنان رغم أن أجواء الحرب العالمية الثانية كانت لاتزال تسيطر على لبنان والمنطقة كما أن سليم تقلا ، بشارة الخورى، حبيبى أبوشهلا، أميل اده حضرا إلى كاترو Ca- troux وقالا له «باسم الحزبين الممثلين الآن أمامك نؤكد لك يا جنرال أننا مستعدون لأن نتعهد معك ونتعهد لك بتنفيذ برنامجك السياسى بشرط أن تسلمنا الحكم»(٤١).

وبالرغم من الاتفاق البريطانى- الفرنسى غير أن الصراع كان لايزال قائما بين السياستين بدليل أنه بعد عودة كاترو Catroux إلى لبنان كان فى مقدمة هدفه استمالة الناخبين فى سوريا ولبنان بواسطة مستشاريه وأتباعه المخلصين (٤٢).

وعلى ضوء المساومات البريطانية الفرنسية سلم دافيد David مندوب الجنرال كاترو Ca- troux فى ١٨ مارس (آذار) ١٩٤٣ رسالة للرئيس الفرد نقاش طلب منه فيها أن يقدم استقالته رسميا من رئاسة الجمهورية ، ولكن الرئيس النقاش رفض الانصياع لطلب كاترو Catroux وظل رئيسا للجمهورية من الناحية الشكلية إلى الأول من سبتمبر (أيلول) ١٩٤٣ عندما قدم استقالته إلى المجلس النيابى الجديد (٤٣).

وفيما يتعلق بسامى الصلح رئيس الوزراء فقد قدم استقالته بمذكرة احتجاجية لكاترو Ca-troux فى ١٥ مارس (آذار) ١٩٤٣ ومهما يكن من أمر فقد اختار كاترو Catroux النائب أيوب ثابت رئيسا للجمهورية على أن تكون رئاسته مؤقتة بهدف الإشراف على إجراء الانتخابات النيابية ينبثق عنها مجلس نيابى جديد يتولى بدوره انتخاب رئيس الجمهورية.

وكان الرئيس أيوب ثابت الذى تولى الحكم فى ١٨ مارس (آذار) ١٩٤٣ من الأقليات المسيحية البروتستانتية وكان من جملة الأسباب التى أدت إلى اختياره كون كاترو Catroux يريد تحقيق أمنية المفوض السابق (بيو) الذى كان يتلهف لإقامة حكم مسيحى برئاسة بروتستانتى على غرار مذهبه (٤٤).

وكان الانطباع الذى كان سائدا فى لبنان أن الحكومة الجديدة ذات اتجاه فرنسى، لكنها فى نفس الوقت تنال الدعم من السلطات البريطانية وهذا جعلها مقبولة لدى الكثيرين مع وجود بعض الرافضين ، ومع ذلك فقد وجهت الانتقادات إلى سلطات الحلفاء لتنصيبها حكومة من ثلاثة أعضاء كانوا هم أنفسهم مرشحين للمجلس النيابى أو الرئاسة اللبنانية وبعضهم يسهل انقياده للتيار الفرنسى(٤٥).

ورغم أن عهد الرئيس كان قصيرا غير أنه كان مليئا بالاتجاهات الطائفية وبالمشكلات السياسية التى عمقت الهوة بين اللبنانيين، وكذلك أخذت التقارير الواردة من الأقاليم للمفوضية البريطانية فى بيروت تشير إلى الانطباع السائد بأن الحكومة المؤقتة برئاسة ثابت ستقترح تأجيل الانتخابات وعلى الأقل لستة شهور وزيادة عدد النواب والتقليل من مناطق الانتخاب ، وأشارت تلك التقارير أيضا إلى إمكانية تدخل أعضاء الحكومة والمستشارين الفرنسيين فى الانتخابات والضغط على الناخبين وكان ذلك يثير القلق عند الرأى العام والخوف من عدم حدوث انتخابات نظيفة وخاصة وأن أعضاء الحكومة يرشحون أنفسهم للانتخابات وبذلك أوجدوا الشبهة حولهم لأنه من المؤكد أنهم سيسيئون استعمال مناصبهم لترجيح كفتهم ، فى الوقت الذى أخذ فيه المستشارون الفرنسيون فى طرابلس وصيدا يتدخلون وبشكل صارخ فى محاولات تشكيل قوائم انتخابية مؤيدة للفرنسيين.

وفى تلك الأثناء وصلت تقارير أخرى إلى بعثة الوزير البريطانى المفوض سبيرس Spears أشارت إلى اتساع تدخلات رئيس الدولة أيوب ثابت نفسه فى تشكيل قوائم الانتخابات فى المقاطعات والتى أوضحت أن طموحه للوصول إلى الرئاسة جعله ينغمس فى مسالك غير

صحيحة وذلك لتأمين انتخاب نواب يؤيدونه في ترشيحه النهائي لرئاسة الجمهورية ، كذلك اتجهت جهوده بشكل خاص ضد المرشحين الأعضاء في الكتلة الدستورية التي تزعمها بشارة الخوري والذي كان يعده خصمه القوى في ترشيحات الرئاسة القادمة ولذلك وضع خطوات معينه لكبح نشاط الخوري وجماعته (٤٦).

ومما لاشك فيه أن قضية الانتخابات كانت تلقى الاهتمام الرئيسي من قبل السلطات البريطانية وهذا الاهتمام جعلها تضغط على الرئيس ثابت لتحمله على الموافقة على إجراء انتخابات مبكرة ، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ثابت في مؤتمر صحفي عقد في ٢٧ أبريل (نيسان) وذكر فيه «أنه مصمم على مقاومة الضغط البريطاني من أجل انتخابات مبكرة»(٤٧) ومن ثم أجرى الضابط السياسي البريطاني في ٤ أيار (مايو) محادثات مطولة مع ثابت بين له فيها الأسباب التي تجعل السلطات البريطانية تحبذ إجراء انتخابات مبكرة ، وفي اليوم نفسه تحقق ذلك الضابط من الموضوع من هيللو Helleu ليعرف وجهة النظر الفرنسية فوجده على اتفاق كامل معه في أن تكون الانتخابات مبكرة ، وبناء على ذلك وجه الوزير البريطاني المفوض رسالة إلى ثابت في ٥ (مايو) أشار فيها أنه سيقترح على هيللو Helleu وضع تاريخ محدد للانتخابات (٤٨).

لذلك أعطى البطريرك الماروني رأيه في موضوع الانتخابات وهو تأييده لانتخابات مبكرة حسب ما جاء في الصحف ، وأكد ذلك من خلال زيارة مجاملة قام بها للوزير البريطاني المفوض في ٦ أيار (مايو) لكنه ربط هذه الموافقة بوجوب أن يقوم المرشحون قبل خوض الانتخابات بالقسم على الإخلاص إلى فكرة استقلال لبنان وعزله عن الدول المجاورة له لكن الوزير البريطاني أجابه بأن ذلك لايتفق مع المبادئ الديمقراطية (٤٩).

والحقيقة فإن نتائج الضغط البريطاني على رئيس الدولة بدأت تظهر نتائجها ، ففي مقابلة تمت مع الوزير البريطاني المفوض ذكر ثابت أنه «إذا طلب منه هيللو Helleu تثبيت أي تاريخ معين لإجراء الانتخابات فإنه سيوافق على ذلك» (٥٠).

والذي كان يبدو في الأفق السياسي أن فرنسا أصبحت مقتنعة بأن إجراء الانتخابات يجب أن تتم بسرعة والحجة التي كانت تستند إليها في السابق وخاصة ما يتعلق بالوضع العسكري العام في شمال أفريقيا قد تحسن وأصبح في جانب الحلفاء ، ولم يبق على إعلان موعدها سوى عودة الجنرال كاترو Catroux إلى لبنان كذلك كان قد تدعم موقف الفرنسيين الأحرار

بالاتفاق الذى عقد بين الجنرال ديجول وجيرو [٥١]، وبالتالى تدعيم هذا الموقف فى لبنان وتم تعيين هيلو فى ٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ مندوبا ساميا عاما فى لبنان وسوريا بدلا من كاترو Catroux الذى نقل إلى الجزائر كمندوب للشئون الإسلامية، كما تم التفاهم على تشكيل لجنة التحرير الوطنى الفرنسية ومدينة الجزائر مقرا لها [٥٢].

وكان أول عمل قام به هيللو Helleu بصفته المندوب السامى الفرنسى العام هو إعلامه رئيس الدولة بأن رغبة الجنرال كاترو Caroux أن تجرى الانتخابات فى لبنان فى شهر تموز (يوليو) ووافق رئيس الدولة على أن تجرى الانتخابات فى حوالى ١٠ من ذلك الشهر[٥٣].

وبدأ بإعداد العدة للانتخابات بتحديد عدد المقاعد النيابية وجعلها ٥٤ مقعدا اثنان وثلاثون منها للطوائف المسيحية واثنان وعشرون للمسلمين وكان هذا التوزيع يشكل إجحافا بحقوق الطائفة الإسلامية[٥٤].

لقد استقبلت الطائفة الإسلامية هذا المرسوم بغضب، وقدم المفتى كتابا للمندوب السامى جاء فيه أنه يجب أن يقنع الحكومة بإلغائه ، وإذا فشل فى ذلك فإن المسلمين سيحتجون للبريطانيين والأمريكيين والحكومات العربية المجاورة، وسوف يقاطعون الانتخابات، وفعلا وقعت الشخصيات الإسلامية البارزة مذكرة احتجاج قدمتها لسلطات الحلفاء والحكومات العربية وسلمت نسخة للمفوضية البريطانية فى بيروت [٥٥]. ولهذا فقد زار كاترو مفتى المسلمين واستمع منه عن الإجحاف اللاحق بالمسلمين من جراء هذا المرسوم.

وبالرغم من السخط العنيف الذى واجه فيه المسلمون مرسوم ثابت فقد نشرت الحكومة اللبنانية مرسوما جديدا أعلنت فيه أن الانتخابات ستجرى يوم ٢٦ سبتمبر (أيلول) ، ولتهدئة الرأى العام الإسلامى صدر بلاغ رسمى من الحكومة جاء فيه : أن الاستعدادات وضعت لإجراء إحصاء قبل إجراء الانتخابات ، ولكن صدور هذا البلاغ لم يؤد إلى النتيجة التى صدر من أجلها، بل اتهم المسلمون الفرنسيين بأنهم يدعمون المسيحيين من أجل الانفراد بحكم لبنان ولا يعاملونهم على قدم المساواة مع المسيحيين ولذلك فإنهم سيطالبون بتوحيد لبنان مع سوريا فى دولة واحدة.

وإذا كان غير المقبول بالنسبة للمسيحيين فإن الحال الآخر هو إعادة المحافظات الأربع التى أضيفت إلى لبنان عام ١٩٢٠ إلى سوريا ويعود لبنان إلى حدود ما قبل عام ١٩١٤ ويوضع تحت إشراف دولى وبيروت ميناء حر[٥٦].

وفى تلك الأثناء وبينما كان زعماء المسلمين يقفون بثبات فى معارضتهم للتعديل الأخير فى عدد مقاعد المجلس النيابى، وصل الجنرال كاترو Catroux إلى بيروت واستقبل على الفور رئيس الدولة الدكتور ثابت واميل اده وبشارة الخورى، ولكنه لم يستقبل زعيما مسلما، كما تباحث القائم بالأعمال البريطانى فى بيروت مع ثابت فى ٢٩ حزيران (يونيو) حول محتويات مرسوم الانتخابات الجديد فأجابهم بأنه لايستطيع إلغاء أية فقرة فيه(٥٧).

واستمرت احتجاجات المسلمين وتركزت منذ ٨ تموز (يوليو) على الحكومة اللبنانية برئاسة ثابت على أساس أنها تجاوزت الصلاحيات التى تسلمتها من الجنرال كاترو Catroux عند تعيينها وتصرفت بطريقة غير شرعية ، وذلك بإضافة ١٥٩ ألف مقيم لبنانى خارج لبنان إلى مجموع عدد السكان عند حساب عدد النواب الجديد فى المجلس النيابى حيث أثر ذلك على التوازن بين الطوائف الإسلامية والمسيحية فى الوقت الذى لم يتم فيه التحقق ما إذا كان هؤلاء المهاجرين اللبنانيين يتمشون مع القوانين التى تتعلق بحق الاقتراع اللبنانى(٥٨).

ولذلك اضطر كاترو Catroux أمام هذه الاحتجاجات وتلك الضغوط أن يستقبل وفدا من وجهاء المسلمين واستدعى رسميا المفتى، وقد جابهه هؤلاء باللوم لأنه لم يجتمع معهم قبل ذلك وقدمت له مطالب تتعلق بعزل الحكومة وحذف التعديل الذى تم على قانون الانتخاب ، ومن خلال محادثاته تلك خرج بانطباع وهو أن ثابت اقترف خطأ سياسيا، وهيلو برهن على عجزه فى القيام بواجباته وسماحه بإصدار بيانات مثيرة للجدل ومؤيدة للخلاف مع البريطانيين(٥٩).

ووجه مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر رسالة إلى كاترو الذى كان فى زيارة للمنطقة مستفسرا عن السبب الذى دعا إلى تقوية الخلاف الدينى ولاقت نظره إلى المشكلة اللبنانية وضرورة النظر إليها من ناحية علاقة لبنان بالدول العربية وتحقيق الاتفاق التام بين المسلمين والمسيحيين. وتتهم تقارير الخارجية الفرنسية رئيس الوزراء المصرى بالتعصب ، وأنه بمحاولته التوفيقية هذه كان يرمى لإنشاء وحدة عربية تلعب مصر فيها دور الزعامة مشيرة إلى أن بعض المسلمين الموجودين فى مصر فى تلك الفترة كانوا يعارضون تفكير رئيس الوزراء المصرى وتستشهد بمحى الدين النصولى ومنير كريديه ، راجع حول هذا الموضوع عرائض المسلمين لملك مصر . وفى مساء ١٢ تموز أرسل كاترو Catroux إلى زعماء المسلمين مجموعة من الاقتراحات الجديدة. ووضعت بطريقة ترضى تطلعاتهم وتتضمن ما يلى :-

١- تبنى اقتراح مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر فى تقسيم المقاعد فى مجلس النواب بين المسيحيين والمسلمين بنسبة ٢٩-٢٥ .

٢- تعيين سكرتير دولة مسلم جديد توضع بين يديه السلطة التنفيذية ، أما الدكتور ثابت فيصبح اسميا للدولة وتقلل صلاحياته ويمنع من الوقوف أمام أى مرشح للانتخابات .

٣- يوضع على الرف موضوع المهاجر اللبناني وينظر المجلس النيابى القادم فى هذا الموضوع .

٤- تقديم تاريخ الانتخابات إلى آب (أغسطس) (٦٠).

وأمام احتجاجات المسلمين الصارخة وإصرار ثابت على موقفه ، توصل الفرنسيون إلى قرار يقوم على أساس إقالة رئيس الدولة ، الأمر الذى اضطر المندوب السامى الفرنسى جان هيللو Helleu إلى إصدار قرار بإقالة أيوب ثابت من رئاسة الجمهورية وتعيين النائب بترو طراد بدلا منه وذلك فى ٢١ تموز (يوليو) ١٩٤٣ ، وكان طراد من طائفة الروم الأرثوذكس وكان تعيينه أيضا بشكل مؤقت وذلك للإشراف على الانتخابات النيابية . وتعيين عبد الله بيهم المسلم السنى أمينا لسر الدولة وأمين عواد المسيحى المارونى معاونا لأمين سر الدولة.

وكان على هذه الحكومة أن تضع حلولا للمسائل الرئيسية التالية:-

١- نسبة المسيحيين إلى المسلمين فى مقاعد المجلس النيابى الجديد.

٢- تاريخ الانتخابات .

٣- الإحصاء الرسمى للسكان (٦١).

وأعقب صدور القرار الفرنسى الجديد بإقالة الحكومة السابقة قبول المسلمين للاقتراحات الجديدة التى قدمها كاترو Catroux أخيرا لهم لكنها أثارت معارضة عنيفة من الاكليروس المسيحى، ولكن تبين أن كاترو Catroux مصمم على وضع الحال الذى أرتاه ولو بالقوة(٦٢).

باشرت الحكومة الجديدة أعمالها ، لكنها لم تتوصل إلى حل قضية نسبة توزيع المقاعد فى المجلس النيابى الجديد وذلك لاختلاف أعضاء الحكومة أنفسهم حول هذا الموضوع، لذلك جرت محاولات للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة وكان آخر تلك المحاولات التى قام بها الفرنسيون والقائمة على أساس الاقتراح المصرى الذى اقترحه النحاس باشا ، والذى وافق عليه المسلمون لكن رفضه المسيحيون(٦٣) وتعاون كل من هيللو وسبيرس الذى زار بطريرك

الموارنة ثم مفتى المسلمين وبعد ذلك أصدر هيللو فى ٣١ يوليو مرسوما يجعل عدد نواب المجلس المدعو لعودة تأسيس الدستور ب ٥٥ نائبا بنسبة ٢٥ للمسلمين و٣٠ للمسيحيين ، على أن يتم إجراء إحصاء فى خلال سنتين من تاريخه ، وهذا أدى إلى ظهور المعادلة الشهيرة ٦ للمسيحيين و ٥ للمسلمين .

وينسب الشيخ بشارة الخورى قضية تسوية النسبة الطائفية فى المجلس إلى النحاس باشا رئيس وزراء مصر الذى اقنع الجنرال كاتو بها (حقائق لبنانية ص٢٥٢) أما أتدمون رباط فيرجع الفضل فيه إلى الجنرال سبييرس[٦٤].

لقد أدرك الجميع أن ما تم حول قضية نسبة توزيع المقاعد فى المجلس النيابى كان عملا قد دبر بين الإنجليز والفرنسيين وتم فرضه من قبلهم، وفى ٤ آب (أغسطس) نشرت الصحف رسالتين متبادلتين بين رئيس الدولة بيترو طراد والبطريرك المارونى، أعطى فيها الأخير موافقته وبركاته للتنظيمات الانتخابية الجديدة ، وفى ٥ آب (أغسطس) نشر مرسوم جاء فيه أن الانتخابات ستجرى فى يوم ٢٩ آب أى قبل شهر من التاريخ الذى عينه رئيس الدولة السابق[٦٥].

على أثر إعلان موعد إجراء الانتخابات دب نشاط واسع فى جميع المحافظات اللبنانية، وبدأ تشكيل قوائم المرشحين ، وأخذت تقارير الضباط السياسيين البريطانيين المنتشرين فى المناطق اللبنانية تصل إلى المفوضية البريطانية وتغطى الأحداث التى تصاحب هذه المعركة.

ففى موضوع التدخل الفرنسى فى تشكيل المرشحين أشار أحد التقارير أنه حدث تدخل عمدت السلطات الفرنسية فى صيدا وطرابلس نحو اتخاذ خطوات واسعة فى تشكيل قوائم للانتخابات من أولئك الذين يسهل انقيادهم نحو الاتجاه الفرنسى، لذلك وصلت عرائض إلى المسئولين البريطانيين أعقبتها زيارات لهؤلاء المسئولين تستفسر عن العمل الذى ستقوم به السلطات البريطانية لمواجهة التدخلات الفرنسية فى تشكيل قوائم الانتخابات[٦٦].

أن النشاط الواسع للمسئولين الفرنسيين فى الانتخابات خاصة فيما يتعلق فى تشكيل القوائم وغياب النشاط البريطانى أوجد موجة من الإحباط بين السكان فى الوقت الذى بدا الأهالى يشعرون بأن التواجد البريطانى فى هذا المجال ليس كافيا لإيجاد أية حرية حقيقية فى الانتخابات المقبلة ، وقد جاء فى الرسالة المتضمنة لهذا الكلام والمرسلة من الوزير البريطانى السياسى فى زحلة يقول التقرير «لا أحد هنا يعتقد اعتقادا كاملا باستقلال لبنان

أو أن الانتخابات ستكون حرة ومن يرغب فى الوصول إلى البرلمان لابد له من دعم فرنسى أو بريطانى وفى بعض الأحوال يمكن التقليل من التأثير الأمريكى، لأن مئات السنين من الهيمنة الأجنبية قتلت الشعور عند اللبنانيون بيؤثرون القوى الأجنبية على مصالح بلادهم والأشخاص يتابعون أهدافهم القائمة على الأنانية ولتغيير ذلك يحتاج إلى مئات السنين من التربية السياسية(٦٧).

ثم ظهر سخط كبير لدى الرأى العام للتدخل الصارخ فى تشكيل القوائم والتى قام بها القسم السياسى فى المندوبية الفرنسية وذلك عن طريق إصدار هذا القسم تعليماته للمستشارين الفرنسيين وخاصة فى صيدا وطرابلس للتدخل المباشر فى الحملة الانتخابية ، فى الوقت الذى أخذ فيه توفيق عواد أحد أعضاء الحكومة الانتقالية يعمل على توجيه الموظفين الرسميين فى منطقته ليعملوا على محاباته وفى هذا إساءة إلى منصبه (٦٨).

وقد بدا واضحا الصراع البريطانى الفرنسى من خلال الاستعدادات المكثفة للمرشحين للانتخابات النيابية فبدأت الكتلة الوطنية تنشط فى مختلف المناطق مدعومة من فرنسا ، بينما بدأت بريطانيا تدعم الكتلة الدستورية التى رشحها الشيخ بشارة الخورى، كما اتخذت الانتخابات طابعا آخر هو طابع الصراع بين دعاة العزلة ودعاة الاتحاد العربى، بالإضافة إلى أن الانتخابات اتخذت مظهرا سياسيا طائفيا على أساس أن الكتلتين المتصارعتين كانتا تضمان من مختلف الطوائف الدينية .

وبدأت الاتهامات المتبادلة تطلق من كلتا الكتلتين فالدستورين اتهموا أركان الكتلة الوطنية باستسلامهم للفرنسيين وبأنهم ضحوا بمصالح البلاد طمعا بمساعدتهم وأن قوات الأمن الفرنسية سخرت لخدمتهم وأن الأموال وزعت تأمينا لفوز مرشحيهم ، أما الكتلويين فقد اتهموا الدستوريين بان الإنجليز وعلى رأسهم الوزير البريطانى المفوض سبييرس Spears لم يدخروا وسيلة إلا استخدموها لإنجاح مرشحى الدستوريين وأن رئيسهم الشيخ بشارة الخورى تناول أموالا طائلة من مصطفى النحاس باشا أثناء وجوده فى مصر للإنفاق على الانتخابات ، وأنه أعطى وعدا مقابل ذلك أن يوجه سياسة لبنان توجيها عربيا(٦٩) بينما اتهمت اللايدى سبيرز (زوجة الوزير البريطانى المفوض سبييرس Spears) كلا من المفوض الفرنسى جان هيللو Helleu ومساعده بوغينز بأنهما تدخلا فى سير الانتخابات النيابية وعملا على تعبئة رجال الدين المسيحى الموالين لفرنسا ، كما أرسلا رجال الأمن إلى كافة المناطق

اللبنانية قبل أسبوع من موعد الانتخابات لإقناع الناخبين وتهديدهم وابتياع ضمائرهم، غير أن اللايدى سبيرز اعترفت بأن الفرنسيين أنفقوا خمسين مليونا من الفرنكات على الحملة الانتخابية فى حين اتهم زوجها بأنه شوهد يجوب الجبال يحمل أكياسا من الذهب (٧٠).

لكن السلطات البريطانية فى لبنان لم تقف مكتوفة الأيدى أمام تلك التدخلات خاصة تلك التى كان يقوم بها ثابت، لذلك اتخذت الخطوات المناسبة لإيصال قلقها إليه حول تدخلاته الصريحة والادعاءات القائلة بأنه ينوى تأجيل موعد الانتخابات وأنه سيزيد من عدد أعضاء المجلس النيابى وإمكانية تغيير المناطق الانتخابية ، ولهذا أعلنت السلطات البريطانية وجهة نظرها حول ذلك (٧١).

كذلك فإن المفوضية البريطانية فى بيروت تعد من أسباب المعارضة التى يبديها ثابت نحو المرشحين التابعين لحزب بشارة الخورى تعود فى جزء منها إلى اعتقاده بأن اتفاقا سريا قد تم بين بشارة الخورى والسلطات البريطانية ، وعلى أساس أن الخورى إذا أصبح رئيسا للجمهورية فإنه سيعمل على ضم لبنان فى اتحاد فيدرالى مع دول عربية إسلامية يشجعه البريطانيون ، وهذا يعنى أن السلطات البريطانية عقدت صفقة مع الخورى تدعمه فى الانتخابات ويضم لبنان إلى ذلك الاتحاد (٧٢).

واستمر التدخل الفرنسى على أشده فى الحملة الانتخابية حتى بعد يوم ١٧ آب (أغسطس) وهو آخر يوم لتقديم طلبات الترشيح ، وكان لابد من مواجهة ذلك من قبل السلطات البريطانية حيث قدم الوزير البريطانى المفوض سبيرس Edward Spears احتجاجا إلى هيللو Helleu على التدخلات الفاضحة التى كان يقوم بها المسيو بوغيز Boegner والمسيو روزوك Rozek والمستشارين الفرنسيين فى صيدا وطرابلس ، وأجاب هيللو Helleu على ذلك بأن أنكر مجموعة التهم الموجهة للفرنسيين ووجه تهما يقول عنها المفوض البريطانى سبيرس Edward Spears فى تقريره للخارجية البريطانية أنها تهم ضعيفة ضد الضابط السياسى البريطانى فى طرابلس، ولكن هيللو Helleu أنهى جوابه بأن وعد الوزير البريطانى المفوض بحجز مستشاريه فى بيوتهم حتى نهاية آخر يوم فى الانتخابات ، وكان للاحتجاج البريطانى رد فعل آخر بالإضافة إلى جواب هيللو Helleu وهو طلب هيللو Helleu من أعضاء الحكومة الثلاثية أن يكتبوا رسائل يعلنون فيها أنهم لا هم ولا الموظفين التابعين لهم سيتدخلون فى الانتخابات (٧٣).

وباقتراب موعد الانتخابات قدمت احتجاجات إلى سلطات الحلفاء تشير إلى الإساءات التى تتم أثناء الحملة الانتخابية وخاصة فى منطقة جبل لبنان، كما وصلت من شمال لبنان تلغرافات تحتج على المحاولات الأكيدة التى يقوم بها توفيق عواد والمتعلقة برشوة الإداريين ولهذا فإن التدخل والتحايل كان بدون شك واسعا لكن استطاعت السلطات البريطانية أن تحد من تدخل القوات الفرنسية وقوات الأمن المحلية[٧٤].

ومن الثابت أن الرشوة تفشت أثناء الانتخابات تفشيا كبيرا، وقد كتب الدكتور مصطفى عز الدين فى جريدة النهار عدة مقالات بهذا الصدد تحت عنوان «كيف تستقيم النيابة فى لبنان» أكد فيها انتشار الرشوة مع عدم نفيه وجود وجوه نيابية جديدة [٧٥]. أما صحيفة البيرق الموالية لفرنسا ولاميل إده فقد هاجمت الكتلة الدستورية بسبب ميولها غير اللبنانية ، بينما أيدت قائمة الكتلة الوطنية فى جبل لبنان لا لشئ إلا لأن إرادة الأمة تجلت بأحلى المظاهر فى تأييد زعماء هذه الكتلة بالنظر لمبادئهم اللبنانية القديمة الصحيحة على حد قول البيرق[٧٦].

كما أن الفرنسيين والكتلويين اتهموا الدستوريين بأنهم «مرشحون بريطانيون» بينما ذكرت اللايدى سبيرز Spears بأن البريطانيين لم يساندوا مرشحا معينا ، ولم يتدخلوا بطريقة من الطرق بشؤون الانتخابات ولكنها أضافت بأن القرويين الذين اعتقدوا بأن مرشحيهم الوطنيين كانوا مؤيدين من قبل بريطانيا وأن ذلك لم يسوءهم بل ربطوا ما بين الإنجليز وتحقيق آمالهم الوطنية ، واعتبرت أن انتشار القوات البريطانية فى أنحاء لبنان هى التى أدت إلى حرية اللبنانيين فى الانتخابات ، بينما لم يعترف الفرنسيون بأنهم كانوا مكروهين حتى فى جبل لبنان المسيحى، لكنهم اعتقدوا بأن البريطانيين كانوا وراء ذلك كله ، وأن هذه الحملة الاستقلالية كانت مؤامرة بريطانية وأن الوزير البريطانى سبيرز Spears كان كبير المتآمرين عليهم فى البلاد [٧٧].

ويلاحظ الدبلوماسى لونغريغ Longrigg أن الفرنسيين بذلوا كل ما فى وسعهم من أساليب للتأثير على الناخبين فى المدن والأرياف وأن عمليات الانتخابات أسفرت عن نجاح أنصار فرنسا فى المعاقل المارونية مقابل خصومهم فى المناطق الأخرى[٧٨] وفيما يتعلق بنتائج انتخاب الدورة الأولى التى تمت فى ٢٩ آب (أغسطس) فقد أسفرت الدورة الأولى عن نجاح مرشحين عديدين ، وأن قوائم المرشحين التى دعمت من الفرنسيين فى شمال لبنان وجنوبه والبقاع نالت هزيمة قاسية ، ومن ناحية أخرى فإن القائمة التى شكلت من قبل المسيو بوغيز

لمعارضة جورج ثابت والتى تضمنت اثنان من الرؤساء السابقين الفرد نقاش والدكتور أيوب ثابت ورئيس الوزراء السابق رياض الصلح نالت فوزا ساحقا ، أما فى الجبل فقد حقق ثمانية من سبعة عشر مرشحا أغلبية واضحة منهم سبعة من جماعة أميل اده (الكتلة الوطنية) وواحد وهو كميل شمعون من جماعة بشارة الخورى (الكتلة الدستورية) بينما لم ينجح رئيسا الكتلتين المتنافستين بشارة الخورى واميل اده إلا فى الدورة الثانية (البالوتاج) ، بعد أن اشتد الصراع بين الكتلتين وكثرت فى محافظة جبل لبنان نفقات الانتخابات ولعبت التدخلات الفرنسية والإنجليزية دورها الفاعل ، كما تدفقت عشرات الألوف من الليرات من الجانبين لشراء الأصوات [٧٩]. غير أن الانتخابات انتهت بصورة رئيسية بنجاح كاسح ومهم للكتلة الدستورية التى يرأسها بشارة الخورى ضد الكتلة الوطنية التى يرأسها أميل اده [٨٠].

والواقع أن التنافس الفرنسى- البريطانى لم ينته بانتهاء الانتخابات النيابية إنما استمر وبرز بوضوح فى انتخابات رئاسة الجمهورية ، فقد استمرت فرنسا تدعم مرشحها للرئاسة أميل اده ، بينما قامت بريطانيا بدعم مرشحها بشارة الخورى، غير أن بشارة الخورى نفى هذه التهمة بقوله «أن السلطة الفرنسية أصرت على مخاصمتى ، ولم أجر أى اتصال مباشر بالسلطة البريطانية وكل ما كنت أعرفه أنها لاتنظر إلى أميل اده بعين الرضى[٨١]، بينما أكد كمال جنبلاط[٨٢] أنه كان للبريطانيين اليد الطولى فى إيصال أعضاء الكتلة الدستورية إلى المجلس النيابى عام ١٩٤٣ ثم إلى الحكم ، وأن الجنرال سبيرس Edward Spears تدخل لدى السفارة البريطانية فى بيروت ودوائر الاستخبارات لديها لمناهضة أميل اده، وأضاف جنبلاط أنه كان بين أعضاء الكتلة الدستورية من اتصفوا بالوطنية الصحيحة والعروبة السليمة، وبعضهم عرف أيضا باتصالاته الأجنبية وعلاقاته المباشرة بدوائر الاستخبارات البريطانية بعد أن كانت لديهم ارتباطات سابقة بالدوائر الفرنسية.

وفى هذا الجو من الصراع السياسى والمحلى والعربى والدولى بدا كل من بشارة الخورى واميل اده بممارسة نشاطهما للوصول إلى منصب الرئاسة وبدأت المناورات أولهما لجوء أميل إده إلى طرح اسم الرئيس بترو طراد ليكون بديلا عنه وعن بشارة الخورى مدعيا أن القبول به ينهى الخلاف بين الموارنة ، غير أن بشارة الخورى رفض هذا الاقتراح ، وراح يجتمع ببعض النواب وبينهم عبد الحميد كرامى وعادل عسيران فأكد لهما استعداده للتعاون مع الدول العربية إلى أقصى حد فى حال وصوله لرئاسة الجمهورية ، ولكنه رفض اقتراحهما بتوحيد

العلم والجيش والتمثيل الخارجي مع سوريا ، ورأيت فى ذلك تجاوز للحدود فرفضته بكل صراحة ». فأوضحا له بأن أميل اده قبل اقتراحهما ، فرد بشارة الخورى بأن الوعد شئ والتنفيذ شئ آخر(٨٢).

ثم بعد ذلك تزايدت المناورات السياسية بين القوى الفاعلة ، ففى ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ وقبل انتخابات الرئاسة بأيام قليلة، اقترح الجنرال سيبرس Spears على بشارة الخورى بحضور النائب هنرى فرعون الانسحاب لكميل شمعون أو حميد فرنجية أو يوسف اسطفان أو أمين السعد ، ولكن تبين أن هذا الاقتراح كان مجرد مناورة بريطانية انطلت على الفرنسيين ، وكانت تهدف إلى إجبار فرنسا على القبول ببشارة الخورى(٨٣)، ذلك لأن الفرنسيين ما كانوا ليوافقوا على نجاح كميل شمعون ، وقد أوضح المفوض الفرنسى جان هيللو Helleu لبشارة الخورى «أن كميل شمعون هو خويصة الإنجليز وأنا باسم فرنسا أطلب منك أن ترجع عن تنازلك لمصلحته(٨٤).

والحقيقة أن المناورات استمرت بين الفرنسيين والبريطانيين واللبنانيين إلى أن اقتنعت فرنسا على مضض بأن وصول بشارة الخورى إلى الحكم يبقى أفضل وأقل خطورة من وصول كميل شمعون «خويصة الإنجليز» وفى هذا ذكر اميل اده بأن الفرنسيين لم يكونوا معادين للشيخ بشارة الخورى وذلك اعتمادا على ما جاء فى مذكرات الجنرال كاترو Catroux «أن الشيخ بشارة الخورى لم يكن خصما لنا بل بالعكس كان فى جميع أدوار حياته السياسية صديقا مخلصا لفرنسا» (٨٥).

ثم أن بشارة الخورى نفسه ذكر بأنه ما أن اقترب موعد انتخابات الرئاسة حتى زاره موظفان فرنسيان كبيران وعرضا عليه مساعدة المفوض السامى بأصوات النواب الذين ينتمون إلى الموظفين الفرنسيين وتحمل بعض النفقات ، وكان بشارة الخورى حريصا بدوره على استمالة بعض القوى الدينية المارونية ، وقد ذكر سعيد فريحة بأنه مر على منزل بشارة الخورى ورأى أمامه عشرين ظرفا ، فقرأ على الظرف الأول اسم غبطة البطريرك وعلى الثانى اسم أحد المطارنة ، فقال له سعيد فرنجية ألم تنته بعد من الدفع ؟ فأجاب بشارة بأنه جرت العادة أن تدفع لرجال الدين شيئا من المال مقابل إقامة قداس ، ورأى سعيد فريحه أن بشارة الخورى لم ير وسيلة لتحقيق إقناع رؤساء الدين بعدم محاربة ترشيحه للرئاسة أنجح من استعمال المال(٨٦).

ومن جهة ثانية لابد من الإشارة إلى أن رياض الصلح وبعض القوى السياسية الإسلامية لم تكن تؤيد وصول بشارة الخورى للرئاسة الأولى مما دعا سوريا إلى التوسط لإقناع تلك القوى لتأييد بشارة الخورى ، وقد حرص الرئيس السورى شكرى القوتلى ورئيس وزرائه سعد الله الجابرى- نسيب رياض الصلح- ووزير خارجيته جميل مردم بك على إرسال وفد خاص مؤلف من لطفى الحفار وعفيف الصلح وسواهما إلى بيروت وسبب الحرص السورى على التوسط فى هذا الموضوع صادر من وعود بشارة الخورى فى القاهرة للوفدين السورى والمصرى بأنه سيعمل على تعزيز التعاون العربى إلى أقصى حد، وبالفعل فقد اجتمع لطفى الحفار وعفيف الصلح بكل من رياض الصلح وعبد الحميد كرامى وسامى الصلح وصائب سلام وانتهى الاجتماع بالموافقة على تأييد بشارة الخورى، وكان للموقف السورى أثر واضح فى تغيير موقف الزعامات الإسلامية الذين ساهموا فى تشكيل جبهة قوية لمساندة الشيخ بشارة الخورى وكان رياض الصلح على رأس هذه الجبهة ، ومن ثم فقد عقد اجتماع ضم بشارة الخورى ورياض الصلح وعبد الحميد كرامى وصائب سلام أعلنوا فيه أن بشارة الخورى هو مرشحهم الوحيد لرئاسة الجمهورية (٨٧).

وقد ذكر بشارة الخورى أن أميل إده استمر فى مناوراته حتى آخر لحظة ، فقد اقنع إده رئيس الوزراء الأسبق سامى الصلح بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية فى ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ، ورأى بشارة الخورى أن هذه ألعوبة سبق أن لعبها أميل إده مع الشيخ محمد الجسر عام ١٩٣٢ غير أن هذه الألعوبة فشلت .

واستكمالا لعملية انتخاب بشارة الخورى للرئاسة فقد اجتمع فى منزله فى بيروت فى ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ أغلبية النواب الموالين، وكتب عبد الحميد كرامى وثيقة بترشيح بشارة للرئاسة ، وكان أول من وقع عليها كرامى نفسه ثم وقع عليها رياض الصلح وصائب سلام، مجيد أرسلان، أحمد الأسعد وغيرهم، وبذلك بدأ بشارة الخورى ليل ٢٠-٢١ يعد الخطاب الرئاسى الذى سيلقيه أثر انتخابه لرئاسة الجمهورية ، واثقا بذلك من نجاحه (٨٨).

وبموجب الدستور اللبنانى فكان يجب على المجلس النيابى الجديد أن يجتمع فى ٢١ أيلول (سبتمبر) وكانت الأنظار قد بدأت تنصب على من سيكون الرئيس ، وبدأ أن السلطات الفرنسية ستعطى دعمها للدكتور أيوب ثابت والذى تعتبره الزعيم المفضل لدعمه فكرة استقلال لبنان المسيحى، أما بشارة الخورى فبالرغم من أن النتائج العكسية التى حصل عليها فى انتخابات الجبل إلا أنه كون رصيدا شعبيا واسعا (٨٩).

وفى ٢١ أيلول (سبتمبر) عقد المجلس النيابى جلسته الأولى التى ترأسها رئيس السن النائب جورج زوين فانتخب المجلس النائب صبرى حماده رئيسا للمجلس النيابى ، ثم بدا الاقتراع لرئاسة الجمهورية، وبين المرشحين أميل اده وبشارة الخورى وأيوب ثابت والفرد نقاش وبترو طراد والثلاثة الآخرون كان حظهم من الفوز قليلا فى البداية فقد ظهر أن الصراع سيكون عنيفا بين اده والخورى ، وكان الدستوريون حلفاؤهم مقتنعين من الحصول على الانتصار على اده الذى كان معروفا بدعم الفرنسيين له، كذلك فقد أدرك الكثيرون بأنه فى حالة هزيمة اده فإنه سيشكل معارضة قوية داخل البرلمان ضد الخورى، ولذلك بدا البحث عن مرشح آخر للرئاسة وغير حزبى ، لكن هذه الجهود لم تثمر ، وعندما اتفق الوزير البريطانى المفوض هيللو Helleu كاقتراح أخير أن ينسحب كل من اده والخورى وذلك لتجنب نزاع دائم فى البرلمان يمكن فى النهاية أن يضر بمستقبل البلاد(٩٠).

وانتهت النتيجة بانتخاب ٤٤ نائبا بشارة الخورى لرئاسة الجمهورية من مجموع الأعضاء البالغ عددهم ٤٧ نائبا ، هذا وقد كشف عن ثلاث ورقات اقتراع بيضاء ، كما غاب عن الجلسة كل من أميل اده وكمال جنبلاط ، أسعد البستانى، جورج عقيل ، أحمد الحسينى، عبد الغنى الخطيب، حبيب تلحوق، وهم نواب الكتلة الوطنية ، كما غاب عنها النائب أيوب ثابت ، أما جورج زوين وأمين السعد فرغم أنهما من الكتلة الوطنية فقد حضرا الجلسة وانتخبا بشارة الخورى(٩١).

وبذلك تم انتخاب بشارة الخورى رئيسا للجمهورية وقد اعتبر نجاحه انتصارا للقوى الوطنية واعتبر كاترو Catroux أن نجاح بشارة الخورى كان نتيجة للاتفاقات التى تمت بين الزعامات السورية والعربية وليس نتيجة لاتفاق بشارة الخورى مع الزعماء المسلمين واللبنانيين(٩٢).

مع العلم أن بشارة الخورى قد قرر قبل انتخابه التعاون مع رياض الصلح باعتباره أول أحد العاملين فى سبيل استقلال لبنان(٩٣) بالإضافة إلى هذا الواقع يمكن القول بأن انتخابات الرئاسة أكدت أيضا تبعا للاتجاهات العربية والدولية والتدخلات فيها أن الصراع لم يكن طائفيا بقدر ما كان سياسيا ، لاسيما وأن مجموعة من النواب المسلمين أيدوا أميل اده المعروف بتعصبه الطائفى والمعادى للعروبة.

وعلى أى حال فقد استقبل انتخاب الخورى بترحيب كبير من معظم اللبنانيين وانتهى الاعتقاد الذى كان سائدا بأن المجلس النيابى منقسم إلى قسمين متعادلين بين زعامتين متقاربتين ، وتأكد لدى الجميع بأن الخورى سيدشن سياسة وطنية معتدلة مبنية على التحرر

التدريجى من الهيمنة الفرنسية، وانتخاب الخورى كان معناه أن الهيمنة الفرنسية فى لبنان أصيبت بضربة عنيفة لأنه منذ بدء الحملة الانتخابية فإن المفوضية الفرنسية تداخلت بشكل واضح لمصلحة أميل اده (٩٤).

كذلك فإن انتخاب الخورى أدى إلى ارتياح لدى جميع اللبنانيين ماعدا أولئك الذين رغبوا لأسباب خاصة بهم فى دولة تكون السيادة فيها لفرنسا كما أن الرئيس الخورى، أخذ يعبر فى أحاديثه عن الصداقة وعلاقات الجوار مع البلاد العربية وضرورة التماسك بين الجماعات السياسية فى لبنان واعتبرت أحاديثه تلك دلالة على أن لبنان سيشارك فى مشاريع الوحدة العربية(٩٥).

أما النتيجة المباشرة لانتخاب الخورى فكانت تشكيل وزارة رياض الصلح فى ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ (تم تشكيل الوزارة على النحو التالى رياض الصلح (سنى) رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية ، حبيب أبو شهلا (روم أرثوذكس) نائبا لرئيس الوزارة ووزيرا للتربية والعدل، كميل شمعون (مارونى) وزيرا للداخلية والبريد والبرق، سليم تقلا (كاثوليك) وزيرا للخارجية والأشغال ، عادل عسيران (شيعى) وزيرا للاقتصاد ، مجيد أرسلان (درزى) وزيرا للدفاع والصحة . ولقد تمثلت فيها جميع الطوائف الدينية أكثر مما تمثلت فيها الاتجاهات السياسية، وذكر الرئيس بشارة الخورى من أنه ارتؤى اختيار وزيرين من الكتلة الوطنية هما جورج زوين وجبرائيل المر، غير أن أميل اده رفض اشتراكهما فى الحكم(٩٦).

وفى ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ عقد المجلس النيابى جلسة ألقى فيها رياض الصلح بيانه الوزارى، وقد حرص كل من الوزير البريطانى المفوض Spears وقنصل مصر أحمد رمزى بك على ضرورة هذه الجلسة ، عالج فيه جميع الأمور التى تهم الدولة والمواطنين على السواء لتحرير الدستور من كل النصوص التى تكرس الانتداب الفرنسى وتنظيم الحكم الإدارى والوطنى ليصبح حكما صالحا تبرز فيه حسنات العهد الاستقلالى الدستورى، وتطرق للتعاون مع الدول العربية المجاورة لأن لبنان ذو وجه عربى كما أشار الصلح فى بيانه إلى أسلوب الحكم فى المستقبل وضرورة تعديل الدستور وإلغاء الطائفية والقضاء على مساوئها لأنها تسمم روح العلاقات بين الجماعات الروحية التى يتألف منه الشعب اللبنانى كما ركز البيان على بعض التعديلات فى السياسة الداخلية والخارجية، ومن أهمها تعديل الدستور على أساس إلغاء تلك الفقرات التى لاتتناسب مع الاستقلال ، واعتبار اللغة العربية هى اللغة الرسمية للبلاد وإصلاح النظام الانتخابى(٩٧).

وكان لهذا البيان أثر كبير على فئات الشعب لأنه أوجد طريقة نحو الاستقلال وتوحيد الصفوف، كما أنه اعتبر بمثابة اتفاق بين المسلمين والمسيحيين على عدد من المبادئ الأساسية(٩٨) وبعد إلقاء البيان الوزارى ناقشه مجموعة من النواب، وحاولت المعارضة المدفوعة من أجل أميل اده عدم وضع برنامج الحكومة للتصويت لكن هذا الاقتراح هزم ووضع البرنامج للتصويت وتمت الموافقة عليه بأغلبية ساحقة بلغت اثنين وخمسين صوتا ثم انتهت الجلسة بإعطاء الحكومة الثقة(٩٩).

والحقيقة أن الحكومة اللبنانية عقدت عزمها منذ البدء على تقليص النفوذ الفرنسى بتعديل الدستور اللبنانى ، بما يضمن استقلال لبنان عن فرنسا فسعى رياض الصلح أولا إلى صبغ لبنان بالصبغة العربية فأصدر تعميما وزع على مختلف الدوائر الرسمية طلب فيه استخدام اللغة العربية كلغة رسمية وحيدة للبلاد جاء فى تعميم رئيس الوزارة رقم ١٢٥ ما يلى «أرجو من حضراتكم أن تصدروا التعليمات اللازمة إلى جميع الدوائر التابعة لوزارتكم بأن جميع المخابرات والمعاملات بين الدوائر الرسمية يجب أن تحرر من الآن فصاعدا باللغة العربية التى هى لغة البلاد الرسمية وذلك عملا بالعهد الذى قطعته الحكومة على نفسها فى البيان الوزارى»(١٠٠).

ومما لاشك فيه أن ظهور حكومة وطنية فى لبنان كان ضربة قوية للسلطات الفرنسية، ولذلك بدأت المناوشات بين هذه الحكومة وتلك السلطات منذ تشكيلها ، ففى حفلة العشاء التى أقامها الرئيس اللبنانى الشيخ بشارة الخورى وحكومته للمندوب السامى ومستشاريه السياسيين ومن ضمنهم المسيو شاتانيو السكرتير العام للمندوبية ، أخبر المسيو هيللو Hel-leu الرئيس بوضوح بأنه لن تتم تنازلات للحكومة اللبنانية حتى يتم إلغاء الانتداب عن طريق عقد معاهدة ، وحدث نقاش مع رئيس الحكومة رياض الصلح الذى ذكر بأن الاستقلال كان قد تم إعلانه ، فأجابوا هيللو Helleu بأنه لن يتم تسليم السلطات للحكومة اللبنانية قبل انتهاء الحرب وعقد معاهدة، ثم حدثت مجادلة بين الطرفين وبدا أن موضوع المعاهدة محور النقاش ، وانتهت المجادلة بدون نتيجة وأصبح الانطباع السائد عند هيللو Helleu بأن كلا من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء لن يوقع على معاهدة مع لجنة التحرير الفرنسية تحت أية ظروف(١٠١) .

وفى ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ أصدر رئيس الوزراء أوامره باستبدال الأوامر العسكرية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، كما تألفت لجنة خاصة لوضع المصطلحات

اللازمة لأفراد الدرك والشرطة باللغة العربية، بالإضافة إلى ذلك فقد قرر رئيس الوزراء فتح مدرسة ليلية لتعليم الموظفين الذين لايتقنون العربية مبادئ هذه اللغة وكانت أول نتيجة لاستخدام اللغة العربية فى المعاملات الحكومية تعطيل عمل المستشارين الفرنسيين الذين لم يعد بوسعهم أن يشتركوا فى الإشراف والمراقبة على سير إدارات الدولة كما أدت إلى أنه فى ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) عارض جان هيللو Helleu استخدام العربية مكان الفرنسية وأن ذلك يعتبر مخالفا لصك الانتداب ، ومخالفا لنصوص الدستور اللبنانى، كما أن صك الانتداب لايخول للبنان حق تعديل الدستور منفردا (١٠٢).

وذلك لأن الانتداب لايزال موجودا وأن فرنسا ستستمر فى حمل المسئوليات المعطاة لها من الانتداب ولايمكن التخلص منه إلا من قبل عصبة الأمم أو تحل محلها هيئة دولية أخرى، ولذلك فإن لجنة التحرير الوطنى الفرنسية سوف لن تسمح بأى تعديل فى الدستور من جانب الحكومة اللبنانية وتستنكر أية مناقشة لهذا الموضوع فى المجلس النيابى ، وأضاف هيللو Helleu فى رسالته «بأن لجنة التحرر الوطنى الفرنسية على استعداد للبحث مع الحكومة اللبنانية ترتيبات معينة يمكن أن تسهل تطوير لبنان إلى الاستقلال الكامل وأن فرنسا لاتزال مصممة على وضع أسس عامة للعلاقات اللبنانية الفرنسية (١٠٣).

لم توافق الحكومة اللبنانية على ما جاء فى رسالة هيللو Helleu وأخذت تتعرض لضغط شديد من قبل المجلس النيابى لفتح باب المناقشة حول تعديل الدستور كجواب عليها، كذلك حاول رئيس الوزراء أن يحث الفرنسيين على سحب تلك الرسالة التى اعتبرت تهديدا للحكومة اللبنانية ، لكن الفرنسيين رفضوا سحبها ، واعلم المسيو شاتانيو رئيس الحكومة بذلك ، وكرد فعل لهذا الرفض سلمت الحكومة اللبنانية المسيو شاتانيو مذكرة تحوى أربعة مطالب هى:

١- المندوبية الفرنسية فى بيروت يجب أن تتحول إلى شعبة دبلوماسية .

٢- يجب أن يحصل لبنان على سيادته الحقيقية.

٣- جميع المطالب والخدمات التى تدار حاليا من قبل المفوضية يجب أن تنتقل إلى الحكومة اللبنانية .

٤- عائدات المصالح المشتركة يجب أن تعطى للحكومة اللبنانية والسورية، وألحقت بهذه المذكرة نسخة من اتفاق حول هذا الموضوع تم مع الحكومة السورية (١٠٤).

كما ذكر الرئيس تقي الدين الصلح بخصوص معارضة المحامين الموارنة الذين يتقنون الفرنسية ويجهلون العربية وسواهم من المنتفعين رفضوا حركات تعريب الدولة لأنهم كانوا ضد الاستقلال وضد إلغاء المحاكم التى يترافعون بها وهؤلاء هم اليسوعيون المؤمنون بالحماية الفرنسية ، وأضاف قائلا «هذه الجرثومة اليسوعية انطفأت بصورة مؤقتة لدى اليسوعيين والمتعصبين غير أنها عادت لتنمو شيئا فشيئا بعد اغتيال رياض الصلح : وبالفعل فقد اعتبر البعض أن تعريب لبنان هى مسألة خطرة وهو أخطر قرار بحق الشعب المسيحى لأنه أعطى الشرعية القومية لمن يريد تعريبه بالقوة(١٠٥).

وبالرغم من أن السياسة البريطانية كانت مؤيدة للعهد الاستقلالى الأول، غير أن تقريرا بريطانيا صادر فى ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، كشف عن مدى انتقاده لفقرات من البيان الوزارى لاسيما حول اللغة العربية كلغة رسمية فى الدولة، فأشار التقرير إلى أن اللغة الفرنسية لاتقل أهمية عن اللغة العربية وأنه كان من الأفضل عدم تركيز رئيس الوزراء على هذه النقطة بقوة، وأن استخدام اللغة الفرنسية أو عدم استخدامها هو موضوع يجب أن يتم عبر الاتفاق ، ثم أشار التقرير إلى ضرورة الاهتمام بموضوع إحلال الموظفين اللبنانيين مكان الموظفين الفرنسيين ، كما أشار إلى أن وزير العدل يحضر لمشروع إلغاء المحاكم المختلطة ، بينما يحبذ الفرنسيون بقاء هذه المحاكم بسبب ارتباطهم الدولية (١٠٦).

أما فيما يختص بالدستور اللبنانى فقد عزم رياض الصلح على تعديله وفاء بتعهداته لاسيما أنه سبق أن أشار فى بيانه الوزارى أنه لابد من تعديله، بحيث يصبح ملائما كل الملائمة لمعنى الاستقلال وفيه ما يجعل لغير الشعب اللبنانى وممثليه الشرعيون مشاورة فى تسيير شؤونه (١٠٧).

وكانت الحكومة اللبنانية منذ أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ قد أبلغت المفوض السامى الفرنسى هيللو Helleu عزمها على استلام جميع المصالح اللبنانية وتحويل المفوضية الفرنسية إلى بعثة دبلوماسية ، غير أن لجنة الجزائر رفضت تحقيق ذلك ما لم يوقع على اتفاق بين البلدين يحدد العلاقات بينهما (١٠٨).

وفى ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ قامت الحكومة اللبنانية بالرد السامى على رسالة هيللو Helleu وقد صيغ الرد بتعبير معتدله فى بدايتها لكنها أنهيت بتعبير عنيف واستعملت كلمة السفير بدل المندوب للتعبير عن منصب هيللو Helleu على أساس أن لبنان دولة مستقلة

، وفى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، وجهت اللجنة الوطنية رسالة إلى رئيس الجمهورية اللبنانية تعلمهم أن الفرنسيين لن يسمحوا بإجراء أى تعديل فى الدستور اللبنانى من جانب واحد(١٠٩).

وتلقى الصحافيون اللبنانيون دعوة من مدير قلم المطبوعات الفرنسى للحضور إلى دائرة المطبوعات لإعلامهم بذلك البلاغ ونشره فى صحفهم دون مناقشة سواء فى الاجتماع معه أو على صفحات الصحف (١١٠)، كما أن المسئول العسكرى الفرنسى دافيد David سلم البلاغ نفسه إلى رئيس الوزراء الذى أنكر حق فرنسا فى التدخل فى الشئون الداخلية اللبنانية ، كما أن بعض الصحف اللبنانية أيضا أشارت إلى حق لبنان بتعديل دستوره (١١١). غير أن مجلس الوزراء أصدر بلاغا بعد ظهر ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، اعتبر فيه أن تعديل الدستور حق من حقوق السلطات الدستورية اللبنانية وفقا لأحكام المادة ٧٦ وما يليها من الدستور ، ثم قدم مجلس الوزراء للمجلس اللبنانى مشروع تعديل الدستور فى بعض مواده التى تتعارض مع استقلال لبنان(١١٢).

وكـان هيللو Helleu قد سافر إلى الجزائر للتشاور وحث رياض الصلح قبل سفره على تأجيل أى عمل إلى ما بعد أسبوعين ، وفى الجزائر تشكلت لجنة مؤلفة من ديجول وماسيغلى Massigli مفوض الشئون الخارجية وكاترو Catroux وأعطت هيللو Helleu تعليمات «بأن لاتتم بأى حال من الأحوال نقل السلطات والخدمات التى تقوم بها فرنسا فى لبنان على أساس الانتداب حتى تصل فرنسا إلى تنظيم تعاقدى مع لبنان يقوم على أساس معاهدة تنظم العلاقات بين الطرفين بشكل عام» وعندما طلب هيللو Helleu من اللجنة أن تحدد موقفها من شرعية تعديل الدستور اللبنانى من طرف واحد وهو الحكومة اللبنانية والبرلمان اللبنانى ، أجابت اللجنة على ذلك «بأن التعديل لايتم إلا عن طريق اتفاق مع ممثلين فرنسيين ، ولذلك فإن لجنة التحرير الوطنى الفرنسية لن تعترف بشرعية تلك التعديلات إذا تمت».

وفى طريق عودته حيث وصل إلى القاهرة علم هيللو Helleu بأن المجلس النيابى سيناقش لائحة التعديلات بعد ظهر ذلك اليوم ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣، فاتصل تليفونيا بالحكومة اللبنانية وأعلمها «بأنه سيكون فى بيروت بعد ظهر غد وهو يطلب تأجيل الجلسة حتى يعود لأنه يحمل تعليمات من لجنة التحرير الوطنى الفرنسى تحوى اقتراحات نتيجة اتصالاته معها» .

ومن جهتهم فإن الفرنسيين حاولوا إقناع رياض الصلح بالعدول عن تنفيذ قرار تعديل الدستور ولكنه رفض طلبهم ، فما كان منهم إلا أن حاولوا إقناع ٧١ نائبا بالتغيب عن جلسة تعديل الدستور التي حددت في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ وذلك لتعطيل الجلسة، كما أن المفوضية الفرنسية أظهرت من خلال هذه الممارسات بأنها غير راضية إطلاقا في إنهاء انتدابها عن لبنان ، ورأى كاترو Catroux أن أقصى ما تسمح به المفوضية هو إبدال الانتداب بمعاهدة تستوحي من بنود اتفاقية ١٩٣٦ ، كما سعى بعض كبار الموظفين الفرنسيين في المفوضية الفرنسية مثل بار ودافيد وشانيتيو إلى إقناع بعض النواب بعدم القبول بتعديل الدستور وبممارسة الضغوط عليهم أحيانا(١١٣).

وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ اجتمع ١٢ نائبا في مكتب الرئيس الأسبق أميل اده(١١٤)، الذي اتصل بمدير الأمن العام غونيه وأخبره أن الجماعة حضروا ، فما كان من غونتيه إلا أن طلب منهم عدم حضور جلسة تعديل الدستور، غير أن عددا من النواب رفضوا وأصروا على حضور الجلسة وإقرار التعديل رغم التهديد الفرنسي لهم (١١٥). والحقيقة أن المجلس النيابي كان في هذه الفترة ينقسم إلى ثلاث مجموعات مجموعة تتصرف بوحي من وطنيتها اللبنانية ، ومجموعة تتصرف بوحي من السياسية الفرنسية ومجموعة ثالثة تتصرف بوحي من السياسة البريطانية ، وقد صرح النائب أحمد الحسيني الموالي لاميل اده بالقول «لاأريد أن استبدل سيدا بسيد ودولة منتدبة عرفناها بدولة منتدبه بريطانية نعرف عنها الشئ الكثير»(١١٦).

وكان جواب الحكومة اللبنانية على كل ذلك هو انعقاد جلسة مجلس النواب في مساء ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، وتغيب عنها النواب أيوب ثابت وأحمد الحسيني ودو كالوسيان ، واقترح كل من أميل اده وجورج عقل وأسعد البستاني في بداية الجلسة إحالة مشروع التعديل إلى لجنة خاصة لمراجعته فرفضت الحكومة الاقتراح وأيدها المجلس النيابي في ذلك فانسحب أميل اده من الجلسة قبل مناقشة مشروع التعديل ، ثم أقر ٤٨ نائبا من المجلس المشروع وبالإجماع وتغيب سبعة عن حضور الجلسة. وقد تناول التعديل المواد (١) و ١١ و ٥٢ و ٩٠ و ٩١ و ٩٣ و ٩٥ و ١٠٢، وقضت التعديلات بإلغاء المواد والفقرات المتعلقة بالانتداب والدولة المنتدبة ، كما أنها جعلت اللغة العربية لغة رسمية وحيدة في لبنان(١١٧).

واعتبر الوزير البريطاني المفوض الجنرال سبيرس Edward Spears أن هذا التعديل هو السبب المباشر للأزمة السياسية اللبنانية ، وعندما وصل هيللو Helleu إلى بيروت في

اليوم التالي علق على ذلك بقوله «سأدرس القرارات وسأتخذ الإجراء المناسب لهذا التحدي»[١١٨].

وعلى الفور وقع رئيس الجمهورية على مشروع التعديل ونشر في اليوم الثاني في الجريدة الرسمية ليصبح نافذ المفعول[١١٩] وفي مساء يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ تناول هيللو Helleu العشاء مع الوزير البريطاني المفوض الجنرال سبيرس Edward Spears فذكره الأخير «أن يتجنب أي عمل يمكن أن يؤدي إلى اضطرابات عامة أو إجراءات من شأنها أن تؤثر في المجهود الحربي، ووعد هيللو Helleu سبيرس بأنه لن يقدم على أي عمل[١٢٠].

فإذا به يصدر قرارا في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، رقم (464 / F.C) علق بموجبه العمل بالدستور اللبناني وحل المجلس النيابي وألغى التعديلات الدستورية، ثم أصدر في اليوم نفسه قرارا ثانيا يحمل الرقم (465 / F.C) عين بموجبه أميل اده رئيسا للجمهورية والحكومة بصفة مؤقتة [١٢١].

وفي ليل ١٠-١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ نفذ هيللو Helleu خطته في اعتقال وسجن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ثم الوزراء ، سليم تقلا ، كميل شمعون ، عادل عسيران، والنائب عبد الحميد كرامي ونقلوا جميعا إلى قلعة راشيا [١٢٦]، ويذكر Edward Spears أنه عندما اعتقل الفرنسيون بشارة الخوري اعتقلوا معه نجله ووضعوه في السرداب وأخذوا يوجهون له إهانات كقولهم (ابن الكلب ، ابن الإنجليزي) وقد أكد بشارة الخوري بنفسه هذه الحادثة[١٢٢].

ولما انتشرت أخبار ذلك أغلقت الحوانيت في بيروت وحدث اضطراب شعبي وأطلق الفرنسيون النار على المتظاهرين ، وفي يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ أعلن منع التجوال وفرض الأحكام العرفية، ولما حاول الرئيس أميل اده تشكيل حكومته رفض جميع السياسيين مشاركته الحكم، ولما حاول إشراك بعض المديرين العاملين أعلنوا أيضا رفضهم الاشتراك في الحكم وأصدروا بيانات بهذا الخصوص[١٢٣].

بينما كان أميل اده لايستطيع في هذه الفترة الخروج إلى الشوارع إلا بحماية الدبابات والسيارات العسكرية الفرنسية ، ولذا فقد حاول هيللو Helleu تهدئة الأوضاع بإسناد رئاسة الوزراء إلى سامي الصلح- وهو مسلم وابن عم رياض الصلح- غير أنه رفض هذا العرض قائلا «إني ملتزم بموقف رفاقي وإني أصر على استقلال البلاد وإخلاء سبيل المعتقلين فورا[١٢٤].

وفى صباح ١٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ وصل تقرير هيللو Helleu عن الإجراءات التى قام بها إلى لجنة التحرير الوطنى الفرنسية فى الجزائر وكانت وجهة نظر كاترو Catroux أن العمل الذى قام به هيللو Helleu لايمكن تبريره لاشرعيا ولاسياسيا ولا أخلاقيا ، ولذلك يجب أن يستدعى حالا، بينما كانت وجهة نظر ديجول هى دعم إجراءات هيللو Helleu، ثم تقرر أن يذهب كاترو Catroux بنفسه إلى لبنان لدراسة الموقف (١٢٥).

وفى ١٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ اجتمع ٣٤ نائبا فى منزل النائب صائب سلام، وقد اتخذوا عدة قرارات لدعم الحكومة واعتبروا أن الدستور اللبنانى لايزال قائما، وأن حكومة أميل اده غير شرعية ، وفى الوقت نفسه عقد مؤتمر وطنى فى بيروت للبحث فيما يجب اتخاذه، وقد تم انتخاب لجنة تنفيذية لمتابعة الموضوع (تكونت اللجنة التنفيذية على النحو التالى: سليم إدريس، جورج حنا، محمد خالد، حبيب روبير، مصطفى بيضون ، رئيف أبى اللمع، فريد طليع ، إلياس اليفقلينى، يوسف عطية ، ميشال فرعون، أحمد الداعوق، نقولا بستلايس ، سليم الطيارة ، سعيد فريحه ، رينيه سرسق ، محسن الدين النصرلى، محمد على بيهم، إبراهيم الأحدب، عبد الرحمن سحمرانى، أمين الحلبى، إيلى خياط ، تقى الدين الصالح، جورج ريس، إبراهيم عودة ، الياس طرابلسى، كمال خير، مصباح بحصيلى، إيلى فارس، سامى عبد الملك، جورج عاقورى، ارتين مادويان) وقد استنكر المؤتمر الإجراءات الاستبدادية الصادرة عن المندوبية لجنة فرنسا، واعتبر أن الحكومة الشرعية هى وحدها دون سواها صاحبة الحق للتكلم والمفاوضة باسم لبنان(١٢٦).

وكان طلاب مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية والجامعة الأمريكية يتظاهرون ضد السلطة الفرنسية ، وقتل منهم الطالب هانى غندور كما جرح ابن وزير تموين سوريا، ثم قام مفتى الجمهورية اللبنانية محمد توفيق خالد والمطران المارونى اغناطيوس مبارك وصلا إلى منزل Edward Spears وقد طلبا منه الدعم والتأييد ، ثم طلب منه المطران مبارك باسم المسيحيين التدخل المسلح وكان حينذاك يهتز بشئ من السخط والهياج (١٢٧).

كما شاركت المرأة اللبنانية بعدد من المظاهرات منددة بالفرنسيين طالبة من Edward Spears إرسال برقية احتجاج باسم المرأة اللبنانية إلى رئيس وزراء بريطانية(١٢٨) وذكر كاترو أن جان هيللو Helleu قد وحد لبنان كله ضد فرنسا فى ليلة واحدة(١٢٩).

فقد بدأت الحركة الشعبية ضد السلطة الفرنسية فى منطقة البسطة فى غربى بيروت ثم ما لبثت أن امتدت إلى الجميزة وما جاورها من شرقى العاصمة ثم امتدت إلى عدد من المناطق

اللبنانية ، وبالفعل فقد كانت أحداث ١٩٤٣ فرصة ليحقق اللبنانيون أمانيهم خاصة وأن الرأى العام أخذ يتقارب كثيرا وبدأ اللبنانيون ينسجمون ويتوافقون (١٣٠).

ولما كانت فرنسا قد حاولت تثبيت صفوف اللبنانيين على أمل إيجاد حوادث تمكنهم من استمرار انتدابهم ، وكان محمد جميل بيهم قد اقترح فى اجتماع المؤتمر الوطنى فى ١٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ إرسال وفد من المؤتمرين لمقابلة البطريرك المارونى انطون عويضة لإطلاعه على تطورات الأوضاع قبل أن يتصل به الفرنسيين وعملائهم ، وبالفعل اتصلوا به الفرنسيون وحاولوا إقناعه بأن حركة المقاومة ليست إلا حركة إسلامية قصدوا بها طغيانهم وإضعاف المسيحيين (١٣١).

ولما شعر الفرنسيون بفشل مساعيهم مع البطريرك المارونى عمدوا إلى بث الفتن الطائفية وبذلوا جهودهم لحصر نطاق الثورة فى المناطق الإسلامية (١٣٢)، لتأكيد وجهة نظرهم القائلة بأنها ثورة إسلامية ، ثم بدأت السلطات الفرنسية بث الشائعات المغرضة بين الفئات الإسلامية والمسيحية والتى اتخذت طابعا طائفيا(١٣٣) أما فيما يختص بالصحافة اللبنانية فقد كانت منقسمة إلى عدة اتجاهات سياسية فبعضها مؤيد للفرنسيين والبعض الآخر معاد لهم، وقد كانت صحف البيرق والبشير وصوت الأحرار والشرق وسوريا الصادرتان باللغة الفرنسية تدعم موقف فرنسا وقد تعرضت هذه الصحف لغضب المتظاهرين الذين رموها بالحجارة والقنابل مما اضطروا إلى الإقفال ، كما قامت السلطات الفرنسية بإقفال أربعين صحيفة وكان هذا أمرا صعبا على اللبنانيين المعادين لفرنسا، ولذا قرر الشباب الوطنى اللبنانى إصدار صحيفة لاتحمل اسما أو عنوانا سوى علامتى استفهام ؟؟ وكانت لها دور كبير فى إزعاج السلطات الفرنسية وتوعية المواطنين ، وعمدت السلطات على تشويه هذه الصحيفة فأصدرت صحيفة مزورة تحمل نفس الاسم وهى علامتان استفهام وكانت تطبعان فى المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين باللغة العربية واللغة الفرنسية وتوزع بكثرة فى أنحاء لبنان وكانت تهاجم الحركة الوطنية الشعبية(١٣٤) .

وفى ١٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ أعلن فى الجزائر بأن الإجراء الذى قام به هيللو Helleu اتخذ بدون علم لجنة التحرير الوطنى الفرنسية ، لكنه فى اليوم التالى لهذا الإعلان أخبر هيللو Helleu مؤتمرا صحفيا فى بيروت بأن اللجنة المذكورة هى التى اتخذت القرار وأنه أوضح لديجول بأن الشعب اللبنانى سيقوم باضطرابات إذا نفذ الإجراء المتعلق باعتقال

وسجن رئيس الجمهورية ومجلس الوزارة ولكن الجنرال ديجول طلب منه أن يستمر فى ذلك[١٣٥].

وفى الوقت ذاته وجه القائم بأعمال الوزير البريطانى المقيم فى الجزائر مذكرة للسلطات الفرنسية هناك جاء فيها «إن الحكومة البريطانية لن توافق على تفاقم الحالة فى لبنان ولن تتحمل قيام اضطرابات خطيرة فى هذا البلد خلال الحرب ، لأنه فى مثل هذه الحالة فإن الحكومة البريطانية مضطرة للتدخل فى النهاية بواسطة القوات البريطانية لإعادة النظام[١٣٦].

وفى اليوم نفسه أيضا تلقى رينيه ماسيغلى R. Massigli وزير الخارجية فى اللجنة الوطنية لفرنسا الحرة، مذكرة من روجرز ماكنز R. Makins الوزير البريطانى جاء فيها «أن حكومة صاحب الجلالة لا يمكنها بوجه من الوجوه أن توافق على خطورة الحالة فى الشرق ، ولاتهضم وقوع اضطرابات جديدة أثناء الحرب ، والحكومة ترى ضرورة تدخلها عسكريا لإعادة الهدوء إلا إذا سحبت فرنسا مندوبها هيللو Helleu وأطلقت سراح المعتقلين »[١٣٧].

ونلاحظ من خلال هذه المذكرة حدة الصراع والتنافس البريطانى الفرنسى على لبنان ، بحيث وصل إلى إمكانية التدخل العسكرى البريطانى، وفى الوقت نفسه كان الجيش التاسع البريطانى قد وزع فى لبنان إعلانا هاما جاء فيه أن السلطات البريطانية لاتؤيد اعتقال الحكومة اللبنانية وأن البريطانيين سيحافظون على الوعود التى قدمت عندما انتزعت البلاد من القوات الفيشية [١٣٨].

وفى ١٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ وصل كاترو Catroux إلى القاهرة واستدعاه الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط كاسى Casy والذى كان قد عاد من بيروت لتوه وأخبره بأن الحكومة البريطانية تعتبر أن الحالة فى لبنان خطيرة جداً ، وأى تأخير من جانبه فى حل المشكلة سيضطر بريطانيا إلى التدخل العسكرى، وأجابه كاترو Catroux بأنه لم يقبل أى تدخل أجنبى فى موضوع الخلاف الفرنسى اللبنانى»[١٣٩].

ومنذ اللحظة التى وصل فيها كاترو Catroux إلى بيروت فى ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣، تأكد له قوة الرأى العام فى لبنان وجدية بريطانيا فى تصرفها مع الأزمة، ثم تأكد له هذا الموقف بعد أن اجتمع مع الوزير البريطانى المفوض وبعد مشاورات أجراها مع أصحاب الشأن من الزعماء الدينيين المحليين ووجهائهم ، كذلك فإن أحدا منهم لم يعط جوابا إيجابيا

بأنه على استعداد لدعم أميل اده الرئيس المعين أو يعلن أنه يحبذ ما قام به هيللو، حتى البطريرك الماروني أبدى معارضته ولم يوافق على الإجراءات الفرنسية الأخيرة ، كل ذلك جعل كاترو Catroux وغيره من أعضاء لجنة التحرر الوطني الفرنسية يدركون في النهاية خطورة الموقف(١٤٠).

كما أن إطالة مدة الأزمة أدى إلى التأثير على الأحوال ونفاد الصبر أخذ يتسع ومظاهر الثورة تزداد وزعماء الفلاحين في البقاع بدءوا يتسلحون وينظمون أتباعهم وينسقون مع أي انتفاضة تحدث في أي مكان آخر في لبنان، ولاحظت السلطات البريطانية أن اللبنانين أخذوا يصعدون من حركتهم لإعطاء الذريعة لإجراء تدخل عسكري مضاد ضد الفرنسيين ، فقد استطاع الوزيران اللذان كانا خارج الاعتقال جمع عدد كبير من الأتباع من قرى الجبل وجعلوا من قرية بشامون مثوى لهم وأعلن الوزيران فيها أنهما يمثلا الحكومة الشرعية ، في الوقت الذي تابع فيه مجلس النواب اللبناني المنحل عقد جلساته في البيوت الخاصة واعترف بحكومة بشامون ، وأصدر جملة قرارات مهمة من ضمنها إلغاء العلم اللبناني القديم واستبداله بعلم جديد يرمز إلى استقلال لبنان(١٤١) .

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ عاد المعتمد البريطاني كيزي Casey من القاهرة إلى بيروت واجتمع بالجنرال كاترو Catroux وسلمه بحضور الوزير المفوض سبيرز Ed-waed Spears إنذارا من بريطانيا والحلفاء تضمن أنه في حالة عدم إنهاء الأزمة فإن الجيش البريطاني مضطر للتدخل العسكري لتوطيد الأمن وإعادة الأوضاع اللبنانية إلى طبيعتها ، وأن حكومة صاحب الجلالة قد أطلقت يد وزير الدولة البريطاني كيزي Casey في حرية التصرف وإعلان الأحكام العرفية في لبنان وتسلم قائد الجيش التاسع مهمة الأمن، وأنه إذا لم يخل سبيل رئيس الجمهورية والوزراء قبل الساعة العاشرة من صباح الاثنين ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ فإن الجيش البريطاني يتولى هذه المهمة »ونحن نؤكد أن تدخل بريطانيا ليس له هدف خاص أو إبدال نفوذ فرنسا بنفوذ بريطانيا « وفي ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر ١٩٤٣ تسلم سبيرز Edward Spears برقية من كيزي Casey عالج فيها الموقف اللبناني كما أشار إلى مسؤولية الإنجليز الدولية حيال الوضع الراهن في لبنان(١٤٢).

وكانت أجهزة الإعلام الفرنسية قد بدأت تتهم البريطانيين بأنهم يعملون للسيطرة على سوريا ولبنان وأن Edward Spears هو المحرك الأول في المؤامرة البريطانية ورأى

الفرنسيون أنهم إذا تخلصوا من سيبيرز Edward Spears فعندئذ يصبح كل شئ على ما يرام فى لبنان، ولهذا فإنهم حاولوا اغتياله ولكنهم فشلوا فى تحقيق ذلك ، ويذكر كاترو Ca-troux أن سيبيرز Spears كان طموحا ويود أن يصبح الرجل الأول الذى يكون له الفضل التاريخى فى إزاحة فرنسا عن الشرق، لاسيما وأن الشرق العربى كان تحت سيطرة العسكرية، غير أنه لم يرد أن يقلد النازية فيدوس فرنسا علنا ، كما ذكر بانتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية فأوضح بأن سيبيرز Spears ساهم كثيرًا فى دعم لائحة بشارة الخورى تحت ستار إنقاذ البلاد من الفرنسيين وإعطاء اللبنانيين استقلالهم ، وقد تعهد بشارة الخورى حينئذ مقابل هذا التأييد أن يسير فى ركاب السياسة البريطانية . هذا وقد شعر كاترو بأن الصراع ليس بين الفرنسيين واللبنانيين والدول العربية بقدر ما هو صراع بين الفرنسيين والإنجليز(١٤٣).

وفى هذه الفترة تساءل ونستون تشرشل W. Churchill رئيس الوزراء البريطانى عن سبب إقدام فرنسا على حركة اعتقال رئيس الجمهورية ومجلس وزرائه ، وكيف يمكن لها أن تفسر رغبتها فى إجلاء الألمان عن أراضيها وهى تبشر بالاستعمار فى غير بلادها ، ورأى أن الحل يكمن فى تدخل بريطانى- أمريكى لحل الأزمة التى خلقت «لنا الفرصة السانحة أمام الرأى العام العالمى لنبحث جديا أمر ديجول ولنوقفه عند حده» ، ورأى تشرشل ضرورة إطلاق سراح رئيس الجمهورية وبقية المعتقلين ، فإذا رفض ديجول هذا الحل نبادر إلى إلغاء اعترافنا باللجنة الوطنية الفرنسية ووقف القوى العسكرية الفرنسية الموجودة فى أفريقيا، ولقد أصدرت أوامرى للجنرال ويلسون أن يكون على استعداد لفرض النظام والهدوء فى لبنان(١٤٤).

ومنذ ذلك الوقت بدا الموقف البريطانى الحازم يعطى ثماره المرجوة وتأثيره الفاعل حيث أصدرت لجنة التحرير الوطنى الفرنسية تعليماتها بإطلاق سراح رئيس الوزراء والوزراء بالإضافة إلى عبد الحميد كرامى، كذلك أعلن بان المسيو هيللو Helleu سيستدعى من بيروت وفعلا تم إطلاق سراح جميع المعتقلين يوم ٢٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، فاستقبلت لبنان ذلك بابتهاج عظيم والعلم الفرنسى الثلاثى الألوان مع شجرة الأرز مزق أرضا بعدإنزاله عن المبانى الحكومية واستبدل بالألوان الوطنية الأحمر- الأبيض- الأحمر مع شجرة الأرز، وفى اليوم نفسه عاد رئيس الجمهورية والوزراء إلى مكاتبهم فى المبانى الحكومية وزاولوا وظائفهم الرسمية ، وأعيد فتح البرلمان وأعطى رئيس الوزراء أوامره بإنهاء الاضطرابات(١٤٥).

وعلى ضوء ذلك بدأت الحياة السياسية تعود إلى حالها السابقة وصدرت نشرة باسم منظمتي النجادة والكتائب تطلب من الشعب اللبناني حل الاضراب واستئناف الحياة العادية(١٤٦).

وفي مساء ذلك اليوم أذاع كاترو Catroux كلمة في راديو المشرق بين فيها الأسباب التي جعلت لجنة التحرر الوطني الفرنسية تقوم بإجراءاتها الأخيرة(١٤٧).

موقف الدول من هذه الأزمة :

كان لعملية الاعتقال أصداء دولية تشكلت في الاستنكارات والاحتجاجات التي وجهها المحليون وكذلك بالإنذار الأول الذي وجهه سبيرز إلى هيللو يوم الاعتقال، يذكره بوعده الشفوي وكلام الشرف الذي أكده خلال الحفلة التي أقيمت على شرف الملك اليوغسلافي ، بأنه سيتجنب كل ما من شأنه أن يعكر الأمن، ثم يضيف قائلا «وأنا أترك لغيرى الحكم على عملك هذا بأن تعطي وعدا وتنقضه بعد ساعات قليلة ومن العسير أن يتصور المرء إجراءات تعكر الأمن وتعرقل مجهود الحرب في هذه البلاد أكثر من عملك» .

ولقد جاء موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الذي أعلن موقفه في ١٦ نوفمبر مماثلين للموقف البريطاني ، وبالنسبة للأمريكيين فالجدير بالذكر أنهم تعاونوا مع البريطانيين لإنهاء الأزمة اللبنانية لأن ذلك يضاعف من نفوذهم في الأوساط اللبنانية خاصة وهم لم يوقعوا على صك الانتداب ، ولهذا فقد وجد الأمريكيون الفرصة سانحة لهم لإبداء معارضتهم للفرنسيين عندما تعرض طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت لنيران الجنود الفرنسيين وجرح منهم أكثر من عشرة طلاب، الأمر الذي أدى إلى إدخال جنود أمريكيين إلى بيروت بحجة حماية الجامعة الأمريكية والمفوضية الأمريكية أيضا . وفي منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة إلى اللجنة الفرنسية في الجزائر تضمنت تحذيرات شديدة اللهجة وتهديدات في حال استمرار التعنت الفرنسي الذي لا يضر بفرنسا ولبنان فحسب ، وإنما بجميع دول الحلفاء الذين لايريدون الانشغال عن الحرب العالمية الدائرة في أوربا وبقية بلدان العالم ، وقد أوضح شابان Chapin المسؤول في وزارة الخارجية الأمريكية ، في مذكرة لوزارة الخارجية الفرنسية بأن فرنسا تحافظ على مصالحها أكثر وأفضل إذا أعطت الاستقلال للبنان فورا ، عوضا عن إصرارها على الانتداب ، إذ أنها لو اعتمدت سياسة استعمارية فهي لن تنتظر انفجار الجماهير ضدها فحسب ، بل أن الحكومة

الأمريكية ترى أيضا بأن الاضطرابات تضر بمجهود الحلفاء العسكرى، خاصة وأن الشعوب تنتظر تحقيق وعود أمريكا الهادفة إلى تقرير مصير تلك الشعوب[١٤٨] ، ويقول كاترو فى هذا الصدد «اتفق الأمريكيون والإنجليز على خطة واحدة ضدنا»[١٤٩].

أما الاتحاد السوفيتى فقد أبدى تأييده للبنانيين فى أزمتهم لاسيما وأن السوفيات كانوا يعانون من وطأة الاحتلال الألمانى لأراضيهم ، بالإضافة إلى تحالفهم – المؤقت– مع الولايات المتحدة وبريطانيا وذلك منذ الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتى فى ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، وكان لابد من اتخاذ موقف موحد وبالفعل فقد أرسلت حكومة الاتحاد السوفيتى مذكرة لكل من المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين أعلنت فيها تأييدها لوجهة نظرهما حيال قضية لبنان وأنها تقف إلى جانب الشعب اللبنانى لنيل استقلاله الحقيقى كما طالبت المذكرة بإطلاق سراح المعتقلين[١٥٠].

أما بالنسبة للموقف العربى من أزمة تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، فقد استطاعت الدول العربية التحرك لدعم موقف لبنان إما بإيحاءات بريطانية وإما من منطلقات عربية ، فبعد اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء قامت المظاهرات الصاخبة فى سوريا والعراق ومصر وفلسطين[١٥١].

كما قام تحسين قدرى القائم بالأعمال العراقى فى بيروت بإرسال مذكرة إلى جان هيللو Helleu أكد فيها أن ما قام به يعتبر عملا شاذاً ، وأن العراق حكومة وشعبا يحتج بشدة على العمل الذى قامت به فرنسا فى لبنان [١٥٢].

أما الملك فاروق ملك مصر فقد أرسل رسالة إلى رئيس الجمهورية تسلمتها الحكومة المؤقتة فى بشامون أيد فيها قضية لبنان ومما قاله فيها «أننا لواثقون بأن الشعب اللبنانى بالغ فى ظل الكرامة والحرية والشرف ما هو جدير به من سيادة ومجد ، ولست فى حاجة لأن أؤكد لفخامتكم أن الشعب اللبنانى يستطيع أن يعتمد على صداقتنا وصداقة حكومة وشعب مصر فى ساعة الشدة والحرج التى تمر»[١٥٣].

وفى ١٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ وهو عيد الجهاد الوطنى فى مصر، ألقى مصطفى النحاس رئيس الوزراء المصرى خطبة ندد فيها بالفرنسيين ، وحيا فيها الحركة اللبنانية الاستقلالية وطالب الدول العربية بدعم القضية اللبنانية ، كما قدم مذكرة إلى الجنرال ديجول قال فيها «فإذا لم تعد الحالة فى لبنان إلى وضعها المنطقى فإن مصر تعيد النظر في موقفها من فرنسا على ضوء الحوادث الجارية»[١٥٤].

كما أن الشعب المصرى بجميع فئاته لاسيما الفئة المثقفة منه من طلاب الجامعات قد قاموا بتنظيم المظاهرات الصاخبة تأييدا للبنان وتجاوبا مع إخوانهم الطلاب اللبنانيين»(١٥٥).

وكان الجنرال كاترو Catroux قد وصل إلى القاهرة فى ١٥ تشرين (نوفمبر) ورفض فى البدء زيارة النحاس باشا، أما مباحثاته مع كيزى Casey المعتمد البريطانى للشرق الأوسط، فقد انتهت إلى إصرار كاترو على استمرار الانتداب الفرنسى وركز على آثام الجنرال سبيرز الذى ينبغى أن يستدعى إلى بلاده جنبا إلى جنب مع المفوض هيللو Helleu (١٥٦).

أما فيما يختص بالموقف السورى فقد بدأت حركة مظاهرات واسعة النطاق مؤيدة للبنان ، وكانت الحكومة السورية برئاسة سعد الله الجابرى تراقب الوضع اللبنانى ثم ما لبثت أن وجهت إنذارا إلى كاترو فى ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) طالبت فيه إرجاع الحياة الدستورية إلى ما كانت عليه فى لبنان ، وإلا تتحملون وحدكم المسؤوليات.

كما أبرق الملك عبد العزيز آل سعود ملك السعودية إلى الحكومتين الأمريكية والبريطانية محتجا على سياسة الفرنسيين ، ووقف اليمن وشرقى الأردن إلى جانب لبنان ، وقد أرسل الأمير عبدالله أمير شرقى الأردن رسالة إلى البطريرك المارونى أيد فيها لبنان ضد الممارسات الفرنسية ، ونظرا للموقف العربى المؤيد للبنان، اتخذت السلطات الفرنسية قرارا يمنع دخول الصحف العربية إلى لبنان غير أن هذا القرار لم يمنع تسرب بعض الأعداد لاسيما من فلسطين إلى الداخل(١٥٧).

وكان لابد من حدوث خطوة مهمة كانت السلطات الفرنسية تتردد فى أجرائها وهى الاعتراف بشرعية الحكومة اللبنانية بعد إطلاق سراح رئيس الجمهورية وأعضاء حكومته ، وأمام الضغط البريطانى العنيف على لجنة التحرر الوطنى الفرنسية لإعطاء اعتراف رسمى بالحكومة اللبنانية ، وفى توصية من الجنرال كاترو لتلك اللجنة ، فإن اللجنة وفى وقت متأخر من مساء يوم ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) أعطت الصلاحية لكاترو بإبلاغ رئيس الجمهورية بهذا الاعتراف وقد وصله ذلك وبصورة رسمية فى صباح يوم ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر)(١٥٨).

وبعد هذا الاعتراف الرسمى بالحكومة اللبنانية ظهر واضحا قوة موقف الرئيس اللبنانى وحكومته، ومع ذلك فقد أبدى المسئولون اللبنانيون رغبتهم فى الوفاق وتجنبوا التحريض فى تصريحاتهم ، وفى ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبر) حدث اجتماع ضم من الجانب اللبنانى الرئيس بشارة الخورى ورئيس الوزراء ووزير الخارجية ، ومن الجانب الفرنسى الجنرال كاترو والمسيو

بـارت Bart المفوض الجديد للبنان، وفى هذا الاجتمـاع لم يتطرق كاترو إلى موضـوع المعاهدة وكان هذا اتجاها جديدا، فقد عبر عن شعوره فى إمكانية حل كثير من المسائل بطريقة ودية ، فى الوقت الذى يمكن فيه إعطاء فرنسا وضعا مميزا وهو ما اعترفت به بريطانيا سابقا، لكن الرئيس اللبنانى ومن معه رفضـوا أن يرتبطوا بشئ من هذا مع الفرنسيين وبعد مشاورات مع باقى أعضاء الحكومة اللبنانية توصلت الحكومة اللبنانية إلى نتيجة وهى أن أى اعتراف بذلك سيستغله الفرنسيون إن عاجلا أو آجلا(١٥٩).

وقـبل عـودة كـاترو إلى لبنان والتى تمت فى ١٦ كـانون الأول (ديسـمـبـر) ١٩٤٣ وذلك للتفاوض مع الحكومة اللبنانية من أجل تسوية تنهى الأزمة السياسية فى لبنان ، حدثت عملية تطهير فى الوظائف القيادية الفرنسية فى لبنان وقد شملت كل من بوغنز Boegner وبايلين Baelon ، كذلك اجتمع المجلس النيابى فى أول ديسـمبر وللمـرة الأولى منذ الأزمة الأخيرة وحضـر الاجتماع أربعة وأربعون نائبا وبعد قراءة محاضر الجلسات التى عقدت فى خارج قاعة البرلمان أكد رئيس الوزراء أن الحكومة اللبنانية لم تعترف بالانتداب ولن تعترف به ثم قال أمام النواب «للبنان الحق فى أن يكون حرا وأن استـقـلاله قد تأمن من قبل تعهدات الحلفاء وميثاق الأطلنطى(١٦٠).

وفى ٢٤ كـانون الثانى (يناير) ١٩٤٤ تم توقيع على البرتوكول الخاص بتسليم المصالح المشتـركة Interet Communs ، وفى نفس الوقت أوضح الوزير البريطانى أنتونى ايدن بأن الحكومـة البريطانية قد اعترفت باستقلال لبنان وسوريا وضمنت هذا الاستقلال وهى لم تفكر قط فى التـراجع عن هذه الخطة، كـمـا أوضح له «أنكم أصدقـائنا والفرنسـيـون هم أيضـا أصدقائنا وأنه ليكون أدعى بكثير لراحة وزير الخارجية الذى هو أنا أن توافقوا إلى إيجاد حل فيما بينكم للمسائل التى تفرقكم»(١٦١).

وهذا القول فى رأينا يشير إلى أن بريطانيا لن تتدخل للضـغط على فرنسا من أجل سحب قواتها من لبنان بل تنتظر من لبنان وفرنسا أن يتفقا معا على حل هذا الموضـوع ، كما أوضح كميل شمعون الوزير اللبنانى المفوض فى لندن لإيدن وزير الخارجية البريطانية بأن فرنسا تريد أن تفرض على لبنان معـاهدة تضـمن لهـا مـركـزا ممتـازا فى بلاد الشـرق، فكرر إيدن مجددا موقفه السابق مطالبا بإيجاد تسوية بين لبنان وفرنسا .

الهوامش

١- محمد كمال الدسوقى : الحرب العالمية الثانية، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٨ ، ص١٢٣ .

٢- فيشى Vichy مدينة صغيرة قرب باريس اتخذت مقرا لحكومة فيشى ١٩٤٠-١٩٤٤ التى حكمت فرنسا بعد سقوط باريس فى الحرب العالمية الثانية والتى ألفها المارشال بيتان .

3- George Kirk; The Middle East in The War , Survey of International Affaires, 1939-1946 (London Oxford Universty, Press, 1952, p. 86 .

٤- كان بيتان قد تسلم الحكم فى ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ بعد استقالة رينو .

٥- للاطلاع على النص الكامل لبنود الهدنة انظر:

The Bulletin of Internaional News, Vol XVLL, No 13 , June 29 , 1940 ,p. 780.

٦- حول هذه الأهمية لبريطانيا راجع:

Winston Churchill ; The Second World War , vol . 5 . (London Cassel and Company ltd, 1965 . p. 390 .

٧- للاطلاع على موقف الفرنسيين الاحرار حول هذا الموضوع: راجع الجنرال ديجول : مذكرات عن الحرب العالمية الثانية ج (١) تعريب خيرى حماد، بغداد مكتبة المنار، ١٩٦٤ ، ص٢٤ .

8- Stephen Hemdy Longrigg; Syria and Lebanon Under Mendate (London Oxford Universty), Press, 1958 . p. 56 .

٩- للاطلاع على هذه الخطة راجع ، . Churchill Winston , vol , 5 p. 296

10- The Bulletin of International News: vol XVLL , No 14 , July 13, 1940 , p. 18 .

١١- كان الجنرال دانتيز قد عين القاضى الفرد نقاش رئيسا للدولة ، كما تشكلت وزارة برئاسة أحمد الداعوق ، راجع : بشارة خليل الخورى: الخورى: حقائق لبنانية، ثلاثة أجزاء حريصا ١٩٦٠ / ١٩٦١ الجزء الأول ، ص٢٣٨ .

١٢- حول هذه النجدات وتاثيراها الإيجابى على الحلفاء راجع :

Albert Hourani ; Syria and Labanon , A Political Eaay (London Oxford Universty, Press, 1945 , p. 239 .

١٣- للاطلاع على نص هذه الشروط انظر .George Kirk; Op. cit. p. 314

14- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 42 . p. 231.

15- H. M. Wilson ; Eight Years Overseas 1939 -1947 (London Hatchinson , 1948), pp. 113 114 .

16- Archives Diplomatique Minister des Affaires , Etrangeres Series, Repport a La Socicte des Nations sur la situation de La Syrie et de Liban. 1945 .

17- Winston Churchill ; Op. cit, vol , 3 , p. 297 .

١٨- شارل ديجول : مذكراته السياسية ج٢ ، تعريب وتعليق خيرى حماد ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص٢٣٩ .

19- Archives diplomatique Minster des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939 - 1945 . Comite National sur La situation de la Syrie et de Liban . 1945 . p. 124 .

٢٠- بشارة الخورى : حقائق لبنانية ، ثلاثة أجزاء ، حريصا ١٩٦٠ / ١٩٦١ . الجزء الأول، ص٢٣٨ . (فى برقية من كاترو إلى ديجول يذكر أن حكومة الداعوق قد تشكلت فى ٢ / ١٢ / ١٩٤١ بعاونه ارثوذكس ، ١ روم كاثوليك ، اقليات بروتستانت ، وتشير البرقية أن الحكومة استقبلت بالترحيب رغم معارضة تجمع بشارة الخورى والبطريرك لها) .

21- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .

Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F. vol 40 . p. 53-54 . 75 . et vol 42 . pp. 136-137 .

22- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .

Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F. vol. 40 . p. 166 .

23- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .

Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F. vol. 41 . p. 5 de Catroux a Francelib .

24- Foreign Offic F.O . 371 / 31471 . E 369 / 207 / 89 Confidental General Spears to Minister of State (Cairo) Beirut Febraury 26 , 1942 .

25- Foreign Office. 371 / 31471 . E . 3331 / 369 / 207 Confidental , Issued by . Syria to Mission April, 4, 1942 .

26- Archives Diplomatique, Ministeres des Affaires , Etrangeres series, Levant Syria Liban 1920, 1945 .

27- Foreign Office . 371 / 31471 . E . 2276 / 207 Confidental , Issued by . Syria to

Mission , No , 9 , April , 1942 .

28- Foreign Office . 371 / 31471 . E . 2691 / 207 . Secret No 10 , Issued by . Syria to Mission , 22 . May . 1942 .

29- F. O . 371 / 31473 . E 3331 / 207 / 89 . Confidental , No , 11 , May . 30 , 1942 .

30- F. O . 371 / 31474 . E 4347 / 207 / 89 . Confidental , No , 16 . July 3, 1942 .

31- F. O . 371 / 31474 . E 4507 / 207 / 89 . Confidental , No ,17 , July . 7 , 1942 .

32- Foreign Office . 371 / 31474 . E . 4507 / 207 No , 8 , Issued by . Syria to Mission , July , 31 . 1942 .

33- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 111 .

34- F. O . 371 / 35174 . E 845 / 27 / 89 , February 16 . 1943 .

35- F. O . 371 / 35147 . E 719 / 27 / 89 , Secret No , 44 , February , 3 , 1943 .

36- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 321 .

37- F. O . 371 / 35175 . E. 300 / 27 / 89 , Secret No, 48, March 3 , 1943 .

38- F. O . 371 / 35176 . E . 1708 / 27 / 89 , Secret No , 49 , March 10 , 1943 .

39- F. O . 371 / 35176 . E . 1589 / 27 / 89 , Secret No, 49 , March 17 , 1943 .

40- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 262.

41- F. O . 371 / 35176 . E, 1708 / 27 / 89 . Secret , No , 49 . March 11, 1943 .

42- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 42 . p. 231 .

43- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1943 . vol . 31 . p. 1231 .

44- Stephen Hemdy Longrigg , op. cit . p. 295 .

45- Edward Spears ; Fulfilment of a Mission Syria and Lebanon , United Empire XXXVI . 1977 . p. 47 .

46- F. O. 371 / 35176 . E , 1918 / 27 / 89 . Secret , No , 52 . March 31 , 1943 .

47- F. O. 371 / 35177 . E , 2642 / 27 / 89 . Secret , No . 57 . Apr 28, 1943 .

48- F. O. 371 / 35177 . E, 2798 / 27 / 89 . Confidental , No , 58 . May 6, , 1943 .

49- Edward Spears ; Op. cit. p. 143 .

50- F. O. 371 / 35177 . E, 2965 / 27 / 89 . Secret , No , 57 . May 19, 1943 .

51- Georg Kirk ; Op. cit, p. 162 .

52- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National . vol 31 . p. 1231 .

53- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1926- 1950 . vol . 12 . p. 341 .

٥٤- بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، المصدر السابق ج ١ ، ص٢٤٦ .

55- F. O . 371 / 35177 . E, 3691 / 27 / 89 . Secret , No . 64 . July 6, 1943 .

٥٦- محمد جميل بيهم : لبنان بين المشرق والمغرب ١٩٢٠-١٩٦٩ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص١٢٢ .

٥٧- كمال صليبي: تاريخ لبنان الحديث ، بيروت ، دار النهار، ١٩٨٤ ، ص٢١٧ .

58- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1920-1945 . vol 2 . p. 321 .

59- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 143.

60- F. O . 371 / 35179 . E, 4142 / 27 / 89 . Secret , No , 67 . July 14 , 1943 .

٦١- بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، المصدر السابق . ج١ ، ص٢٢٧ .

62- F. O . 371 / 35179 . E, 4281 / 27 / 89 . Secret , No , 68 . July 21 , 1943 .

63- F. O . 371 / 35179 . E, 4459 / 27 / 89 . Secret , No , 69 . July 20, 1943 .

64- Admon : La formotion Historique , du Laban Politique et Censtitutionnel . e. Roabbarto . p. 452 .

65- F. O . 371 / 35179 . E, 4611 / 27 / 89 . Secret , No , 70 . 1, Augest , 1943 .

66- F. O . 371 / 35180 . E, 4990 / 27 / 89 . Secret , No , 62 . 1, Sep , 1943 .

67- F. O . 371 / 35175 . E, 845 / 27 / 89 . Secret , No , 45 . Feb, 10 , 1943 .

68- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .

٦٩- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج٢ ص١٠٧٦ .

٧٠- اللايدى سبيرز : قصة الاستقلال فى سوريا ولبنان ، تعريب منير البعلبكى، بيروت، ١٩٧٤، ص٧٦ .

71- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .

72- F. O . 371 / 35177 . E, 2484 / 27 / 89 . Secret , No , 56 . 8, April , 1943 .

73- F. O . 371 / 35181 . E, 5810 / 27 / 89 . Secret , No , 74 . 1, Sep , 1943 .

74- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .

٧٥- انظر مقالات الدكتور مصطفى عز الدين فى جريدة النهار، العدد ٢٧٨٠ ، ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، والعدد ٢٧٨٢ ، ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، العدد ٣٧٦٣، ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ .

٧٦- البيرق ، العدد ٣٧٦٣ ، ٦ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٤٣) .

٧٧- اللايدى سبيرز : المرجع السابق ، ص٧٨ .

78- Stephen Hemdy Longrigg , Op. cit, p. 329 .

٧٩- بشارة الخورى: المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٦ .

80- Arab World Political and Diplomatic History 1900 , 1957 , vol 2, 1942, 1952 , 29 August 1943 .

٨١- بشارة الخورى : المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٨ .

٨٢- كمال جنبلاط (١٩١٧-١٩٧٧) أحد الزعماء السياسيين البارزين فى لبنان دخل المجلس النيابى لأول مرة عام ١٩٤٣ ، وفى أول مايو ١٩٤٩ أسس الحزب التقدمى الاشتراكى ، كان أحد زعماء ثورة عام ١٩٥٨ ضد عهد كميل شمعون، ولعب دورا بارزا فى كل العهود السياسية ، وتبوأ مناصب وزارية أكثر من مرة، كما لعب دورا فاعلا فى أحداث لبنان ١٩٧٥-١٩٧٦ وترأس الحركة الوطنية، له عدة مؤلفات فى السياسة والأدب ، اغتيل فى ١٦ آذار (مارس) ١٩٧٧ .

أنظر ، كمال جنبلاط : حقيقة الثورة اللبنانية ، ص٢١ .

٨٢- بشارة الخورى: المرجع السابق، ج١ ، ص٢٥٨ .

٨٣- يوسف مزهر : المرجع السابق، ج٢ ، ص١٠٨٣ .

84- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 112.

85- G. Cat roux; Op. cit . p. 239 .

٨٦- بشارة الخورى : المرجع السابق ج١ ، ص٢٦٤ .

٨٧- مذكرات سامي الصلح: المرجع السابق، ص٢٣١ .

٨٨- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج٢، ص٢٦٥ .

٨٩- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٨٥ .

90- F. O. 371 / 35182 . E, 5567 / 27 / 89 . Secret , No , 76 . 22 , Sep , 1943 .

٩١- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج٤ ص٢٧ ، ١ .

92- A. Williams , Britain and France in the Middle East and North Africa. p. 321 .

93- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1939-1945 . vol . p. 212.

94- F. O. 371 / 35182 . E, 5700 / 27 / 89 . Secret , No , 77 . 22, Sep , 1943 .

95- F.O. 371 / 35182 . E, 5639 / 27 / 89 . Secret , No , 78 . 29 , Sep . 1943 .

٩٦- بشارة الخوري : المرجع السابق ج٢، ص١٩ .

٩٧- راجع نص البيان في، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني، ٧ تشرين الأول (اكتوبر ١٩٤٣) ، ص١١-١٧ ، النهار ، أعداد ٢٧٦٩ ، ٢٧٧٠ ، ٨و٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٣ ، بيار زيادة : مجموعة الوثائق الدبلوماسية والسياسية- لبنان ص٩١ .

98- E, Abouchdid : Thirty Year of Lebanon and Syria 1917- 1947 p. 19 .

٩٩- منير تقي : ولادة الاستقلال ص٣٧ ، محمد جميل بيهم : النزاعات السياسية بلبنان ص٩٧ .

١٠٠- انظر النهار، العدد ٢٧٧٢ ، ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، والعدد ٢٧٧١ ، ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، صوت الأحرار العدد ٥٠٥٨ ، ١٤ تشرين الأول ١٩٤٣) .

101- F. O. 371 / 35182 . E, 6239 / 27 / 89 . Secret , No , 81 . 20 Oct, 1943 .

102- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 44 , p. 101 .

103- F. O. 371 / 35182 . E, 6239 / 27 / 89 . Secret , No , 82 . 27 , Oct, 1943 .

104- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 231.

١٠٥- وليد فارس : التعددية في لبنان ، الكسليك ، لبنان، ١٩٦٤ ، ص١٥٥ .

106- F.O. 371 / 35183 . E, 6213 / 27 / 89 . Secret , No , 83 , to Speras . No . E. 6451, in F.O. 371 / 35183 / 89 .

١٠٨- انظر البيان الوزاري في مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني، في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ص ص١١-١٩ .

١٠٩- بشارة الخوري: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٢٣ .

110- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 111.

111- F. O. 371 / 35183 . E, 6213 / 27 / 89 . Secret , No , 83 . 6 , Nov, 1943 .

١١٢- انظر تعديلات هذه المواد في الدستور اللبناني مع تعديلاته ١٩٦٢، ص٧-٢٠ ، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ص٤٠-٥٣ ، بشارة الخوري : حقائق لبنانية ص٢٧-٩٢ .

113- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 44. p. 331 .

١١٤- من هؤلاء النواب كمال جنبلاط ، عبد الغني الخطيب، أحمد الحسيني، جورج زوين، جورج عقل، أسعد البستاني، جميل تلحوق، أمين السعد ، جبرائيل المر ، وديع الأشقر.

١١٥- منير تقي : المرجع السابق ، ص٤٩ .

١١٦- البشير : العدد ٦٩٧٩ ، ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

١١٧- انظر تعديلات هذه المواد في الدستور اللبناني مع تعديلاته ١٩٦٢ ، ص٧-٢٠ ، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ص٤٠-٥٣ .

118- Edward Spears ; Op. cit , p. 173 .

119- E. Rabbath, Op. cit. pp. 459-469 .للمزيد من التفصيلات انظر

120- Edward Spears ; Op. cit . p. 174 .

١٢١- للمزيد من التفصيلات الواقية يوما بيوم من ٧ إلى ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ انظر :

Kessings Contemporary Archives 1943-1945 . vol , V. pp. 6109-6111, A . W. 11. Now 1943 , W, B. Fischer, The Middle East. p. 493 .

١٢٢- (للمزيد انظر اللايدي سبيرز Spears المصدر السابق ص٨١-٨٤ ، بشارة الخوري ، ج٢ ، ص٣٣-٣٩ ، يوسف مزهر ج٢ ص١١٢٨ . Edward Spears : Op. cit . p. 225-229

123- Edward Spears ; Op. cit. 228 .

124- E. Rabbath ; Op. cit. p. 94 .

125- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 261.

١٢٦- منير تقي: المرجع السابق ، ص١٥١ .

١٢٧- اللايدى سبيرز : المرجع السابق ، ص٨٥ .

١٢٨- انظر نص البرقية . Edward Spears , p. 237

129- Catroux ; Op. cit p. 414 , Stephen Hemdy Longrigg Op. cit. p. 332 .

١٣٠- كمال جنبلاط : حقيقة الثورة ١١١ .

١٣١- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١١٦٦ .

١٣٢- أنيس صائغ : لبنان الطائفى ص١٥٦ .

١٣٣- للمزيد من التفصيلات عن هذه الشائعات انظر ، منير تقي الدين: ولادة الاستقلال ص١٦٣-١٦٦ ، يوسف مزهر ج٢ ١١٥٠ .

١٣٤- علامة استفهام (؟) العدد ٧ و ٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ .

135- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 291.

136- Kessings Contemporary Archives 1943-1945 . vol , V, p. 6109, E Spears , pp. 222-223 .

137- F. O . 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret , No , 86 . 24 , Nov. 1943 .

138- Edward Spears ; Op. cit , p. 266-269 .

139- W. Churchill; Memoires sur la deuxieme guerre. T, V, pp. 185-187 .

140- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 432 .

141- F. O . 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret , No , 86 . 24 , Nov, 1943 .

142- Catroux ; Op. cit. p . 412 .

بشارة الخورى المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٣ه .

144- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1945 .

145- F.O. 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret, No , 86 . 27 Nov. 1943 .

١٤٦- بشارة الخوري المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٤٢ .

147- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 145.

148- American Foreign Policy Gvornment Printing Office Washington Current Documents, Depatrment of State Washington . 1945 , vol , V. p. 1221 .

149- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 146.

١٥٠- البشير ، العدد ٦٩٨٥ ، ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

151- Stephen Hemdy Longrigg; Op. cit, p. 23 .

١٥٢- جورج حنا : من الاحتلال إلى الاستقلال ، ص ص٢٠٢-٢٠٥ ومنير تقي الدين : المرجع السابق ، ص٩٧ .

١٥٣- علامة استفهام ؟ العدد ٢، ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

١٥٤- يوسف مزهر : المرجع السابق، ج٢ ، ص١١٥٨ ، وجورج حنا: المرجع السابق ، ص٢٠٢ .

١٥٥- زاهية قدوره : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص٢٩١ .

156- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1945. vol. p. 331 .

١٥٧- مذكرات سامي الصلح : المرجع السابق، ص٢١٤ .

158- Stephen Hemdy Longrigg , Op. cit . p. 295 .

159- Albert Hourani , Op. cit . p. 132 .

160- F. O. 371 / 35169 . E, 8000 / 27 / 89 . Secret , No , 88 . 18 , Dec. 1943 .

١٦١- كميل شمعون : المرجع السابق، ص١١٢ .

د. حسن خضيرى أحمد (*)

الهمدانى ومنهجه فى كتابة التاريخ

القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادى

معظم الذين كتبوا عن حياة أبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى، من أيام القاضى أبى القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) ، ووزير حلب جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى (ت ٦٣٦هـ / ١٢٤٨م) ، وياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) إلى العصر الحديث لم يذكروا عنه إلا معلومات قليلة(١).

ويعرف الهمدانى بالنسابة(٢)، وابن الدمينة(٣) ، ويلقب نفسه لسان اليمن، ويعبر عن نفسه قائلاً : «أبومحمد أو الهمدانى»(٤) كما يعرف بالعبدى(٥) وبالبكيلى (٦)، بينما يذكره مسلم اللحجى بابن الحائك (٧). ويعلل القفطى(٨) هذه التسمية بقوله : «فأما تلقيبه بابن الحائك ، فلم يكن أبوه حائكًا ، ولا أحد من أهله ، ولا فى أهله حائك ، وإنما هذا اللقب لمن يشتهر بقول الشعر، وكان جده سليمان بن عمرو المعروف بابن ذى الدمنة، شاعراً ، فسمى حائكًا لحوكة الشعر..».

ولد أبومحمد الهمدانى سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م فى مدينة صنعاء (٩)، ويبدو أن أسرة الهمدانى تأثرت بعوامل لانعرف الكثير عنها ، فكانت من أقدم الأسر التى تركت البداوة، وتحضرت ، حيث انتقل بعض منها إلى الكوفة، والبعض الآخر إلى زبيد (١٠). ومارس بعضهم حرفة الصناعة(١١).

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد – كلية الآداب بقنا– جامعة جنوب الوادى .

على أن أسرة الهمداني كانت تقطن في المراشي (١٢)، في مواطن قومهم البكيليين الهمدانيين ، ثم انتقل يوسف الجد الثالث للهمداني إلى صنعاء، يقول الهمداني: «سكن صنعاء في آخر عمره، وحمل بها هو وأولاده» (١٣). أما والده فقد كان يعمل في تجارة الذهب والفضة ، وزار بلاداً كثيرة بحكم عمله في التجارة، «فقد دخل الكوفه وبغداد والبصرة وعمان ومصر ومكه »(١٤)، وفي ظل هذه الأسرة عاش الهمداني سني حياته الأولى في صنعاء ، التي كانت تمثل إحدى منارات الثقافة في أوائل العصر الذهبي للثقافة العربية ، ومن خلال أسرته بدأ أول جسر مع المعرفة . ومن المرجح أن الهمداني شارك أهله في عملهم في نقل الحجاج والتجار إلى مكة ، «فقد كان لهم بصر بالإبل لم يكن لأحد من العرب»(١٥)، ويصف الرحلة وصفًا شائقًا بقوله (١٦): «وكنت أنظر إلى التجار إذ حملناهم إلى مكة من صعدة ، يأكلون سفرهم طرية إلى نصف الطريق، ويابسه تدق وتطر إلى مكة».

تلقى الهمداني أولى مراحل تعليمه في صنعاء التي كان مفتونًا بها ، حيث افتتح دراسته بعلوم القرآن الكريم والحديث والفقه ، هذه العلوم التي كانت تمثل الركيزة الأساسية في ثقافته، وانعكست على مؤلفاته الموسوعية العديدة. وإذا أردنا أن نقف على ثقافته الواسعة نجد لزامًا علينا أن نعرض للخلفية الثقافية في عصره، فقد نشطت رواية الحديث في اليمن منذ مطلع القرن الثاني الهجرى / الثامن الميلادى، حتى صار لمدرستها جلة من العلماء من أمثال همام بن منبه بن كامل بن سنسخ وأخيه وهب بن منبه (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م) (١٧)، الذى كان بارعًا في الروايات ، هذا فضلاً عن تضلعه في اللغات اليونانية والعبرية والسريانية والحميرية. وينسب إليه كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم»(١٨) وكتاب المغازى (١٩)، ويقول وهب بن منبه (٢٠): «.. قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتابًا».

ومن بين هؤلاء العلماء نذكر معمر بن راشد (ت ١٥٤هـ / ٧٧٠م) وطاووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ) الذى قال عنه ابن عباس : «طاووس عالم أهل اليمن»(٢١)، ويصفه الجندى: «أنه كان فقيها زاهداً ورعًا محدثًا ، عابداً ناسكًا ، أدرك خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحبهم وأخذ عنهم ..» (٢٢). وأما عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م) ، فهو فقيه أهل اليمن وصنعاء ، ومحدثها ومؤرخها ، وأحد أئمة الأمصار المعدودين ، وله الجامع المشهور في السنن(٢٣)، وهو أقدم من موطأ مالك (٢٤)، ونذكر أيضًا أبا قرة موسى بن طارق الزبيدى (٢٠٣هـ / ٨١٨م) وكان إمامًا كاملاً لمعرفة

السنن والآثار، أخذ العلم عن مالك وأبي حنيفة ومعمر، فقد لقيهم جميعًا وروى عنهم(٢٥)، كما أدرك نافعًا وأخذ عنه القراءة(٢٦).

وإلى جانب العلوم الدينية، عكف أبو محمد الهمداني على دراسة الرياضيات والفلك والنجوم والطب والفلسفة ، واتخذ من بطليموس القلوذى أستاذًا ومعلمًا ، ونهل منه حتى بلغ الغاية القصوى(٢٧)، «وفى مؤلفات الهمداني جُمَل حِسَان من حِسَابِ القِرَانَات وأوقاتها ، ونبذ من علم الطبيعة ، وأحكام النجوم، وآراء الأوائل من قدم العالم وحدثه»(٢٨).

على أننا نستشف من كتابات الهمداني مؤثرات يونانية فنراه يعرض فى مقدمة كتبه صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين ، والمقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ونبذًا من أخبار الإسكندر. ويبدو التأثير اليوناني قويًا ، عندما يقول (٢٩): «قالت الحكماء...» ويقصد بذلك فلاسفة اليونان من أمثال دوثيوس اليوناني ، وأرسطوطاليس ، وديستوريدس»(٣٠).

وفى حين ينكر صاعد الأندلسى علم الفلسفة على العرب فإنه يخص منهم اثنين اشتهرا به أحدهما الهمداني وذلك حيث يقول : «.. وأما علم الفلسفة فلم يمنح الله العرب شيئًا منه، ولا هيأ طباعهم للعناية به، ولا أعلم أحدًا من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندى، وأبا محمد الحسن الهمداني» . ويذكر أحد المستشرقين المنصفين (٣١)، أن ما كتبه الهمداني فى مؤلفاته ، وفكره ونظرته الشمولية ، جعله يكتسب صفة الفيلسوف ، إلى حد أنه وضع جنبا إلى جنب مع الكندى فيلسوف العرب المشهور.

وعلى الرغم من تأثر الهمداني بحكماء اليونان فى علم الفلك والنجوم، فمن المرجح أنه تتلمذ فيه على يد مشاهير المنجمين فى اليمن، يتضح ذلك عند ذكره لأبى عصمة المنجم وغيره (٣٢). وهو أحد شيوخه ، وأبى هارون الكبارى الحاسب باليمن (٣٣)، ولاغرو فى ذلك فالعرب بصفة عامة وأهل اليمن بخاصة لهم دراية واسعة فى هذا المجال ، وضربوا بسهم وافر فيه ، فقد نقل لنا صاعدا الأندلسى (٣٤): «أن ملوك حمير لم يكونوا يستعملون من قوادهم، ولايصرفون من كفالهم إلا من عرفوا مولده، ووجدوا أدلته من البروج والكواكب موافقة لأدلتهم ومشاكلة لها».

أما الجغرافيا فهى التجسيد الأمثل لدى إدراك الهمداني لأهمية البيئة، فقد ارتبطت كتابة التاريخ عنده بالجغرافيا، ولم يكتف بالقراءة والمشاهدة، وإنما أخذ يجمع المعلومات عن الجزيرة العربية من أهلها ، وسافر وتجول فى أنحائها سعيًا وراء المعرفة ، ووضع لها مؤلفًا خاصًا أسماه «صفة جزيرة العرب»، وصف فيه المدن والبلاد، وذكر طرقها وشعابها وحاصلاتها وأجوائها، وقبائلها وبطونها ، الأمر الذى جعله مؤرخًا وجغرافيًا فى آن واحد.

وإلى جانب ذلك كان الهمدانى يجيد أكثر من لغة ، كان يجيد لغة حمير، ومما يدعو للدهشة أنه فك رموز الخط المسند، واستنطق الحجارة، وأماط اللثام عن الحضارة العربية القديمة فى جنوب جزيرة العرب [٣٥]، هذا فضلا عن معرفته باللغة اليونانية، واشاراته الكثيرة فى أكثر من موضع فى سرائر الحكمة وصفة جزيرة العرب والجوهرتين والأكليل .

ولم تقف ثقافة الهمدانى وإحاطته للكثير من اللغات عند هذا الحد فحسب ، فقد كان يجيد اللغة الفارسية بحذق ، حتى أنه يورد اللفظ الفارسى ومعه اللفظ العربى المقابل [٣٦]. أما اللغة العربية ، فإن ما وصل إلينا من مؤلفات الهمدانى يقيم الدليل على تبحره فى اللغة العربية والشعر ، فقد كان شاعرًا بارعًا فى الوصف ، وذكر السيوطى أن للهمدانى ديوانًا يقع فى ست مجلدات [٣٧]، وفى معظم مؤلفاته يعتبر الشعر سندًا أساسيًا للأخبار المروية ، يصفه القفطى[٣٨] بقوله : «الأديب النحوى ، الطبيب المنجم الاخبارى اللغوى .. نادرة زمانه وفاضل أوانه .. صاحب الكتب الجليلة، لو قام قائل : إنه لم تخرج اليمن مثله لم يزل».

وقد أدرك الهمدانى أهمية النقود ، فأرخ لها ، وإن كان هذا الاهتمام لم يعرف على نطاق واسع فى ذلك العصر، ويشمل كتاب «الجوهرتين» معلومات قيمة عن النقود فى الفترة السابقة للإسلام وفى عصره ، حيث عرض للنقود البيزنطية والفارسية والعربية ودنانير حمير ودراهمها، هذا فضلا عن الكتابة على الدينار والدرهم ودور السكة فى صنعاء وصعده ، والعاملين فيها الذين استقى منهم معلوماته [٣٩]. وتعتبر عائلة الهمدانى مصدرًا من مصادره، فمنها حصل على بعض المعلومات التى ضمنها كتابه ، فوالده أمده بمعلومات قيمة عن تنظيف الفضة [٤٠]، وكان جده الأعلى مسئولاً فى عيار ذهب صنعاء، وعنه عرف كيفية اختبار الذهب، وعن تاريخ دار السكة فى صنعاء[٤١]، مما حدا بأحد الباحثين[٤٢] ، إلى القول : «... إن هذا الكتاب ينقل لنا فى مجال التعدين وصنعة المعادن تقليدًا حرفيًا أصيلاً ، وحين تلقفت أوربا فى العصور الوسطى مثل هذا التقليد، كان لايزال حينها على حاله، بل دون تغير يذكر كما هو شاهد آخر كغيره على توحد الثقافة الهلينستية (اليونانية والفارسية) والعربية فى العصور الوسطى».

وبلغ من شغف الهمدانى بالمعرفة أن شد الرحال إلى مكة ، التى كانت حاضرة ثقافية يتردد عليها كبار الشيوخ والعلماء والطلاب، «والرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم»[٤٣]. ويبدو أنه ارتحل إلى مكة فى شبيبته ، وأطال فيها الإقامة [٤٤]، يقول

القـفطي :(٤٥) « وأقام بمكة دهراً طويلاً »، وفي مكة تفتحت له آفاق المعرفة ، ونهل من علم علمائها الشئ الكثير ، والتقى في مكة بالخضر بن داود سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩م (٤٦)، وهـذا العالم من رواة السيرة عن محمد ابن اسحق (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م(٤٧) وألف ابن اسحاق كتاب المغازي ، وحفظ لنا ابن هشام (ت ٢١٨هـ / ٨٣٤م) ، الكثير منه في سيرته، كما اعتمد عليه القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) في كتابه الأموال، وكذلك المؤرخ المسعودي (ت ٣٤٥هـ / ٩٥٦م)(٤٨)، ويعتبر محمد بن اسحاق من أكبر أعلام كتاب المغازي ، هذا فضلا عن أن كتابه هذا يعتبر علامة واضحة على طريق تطور التاريخ عند العرب (٤٩)، وقد شهد الشافعي لابن اسحاق فقال: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحق »(٥٠)، ومما يجدر ذكره أن الهمداني شغف كثيراً بكتاب المغازي لابن اسحق ، وروى كثيراً عنه في إكليله(٥١).

على أن الهمداني وطن نفسه على دراسة التاريخ والأنساب ، وتبحر في الأنساب حتى صارت ديدنه وميدانه ، «فهي أصل علم الأخبار، ومعدن معرفة السير والأمصار»(٥٢). وينقل صاعد الأندلسي عن الهمداني قوله : «ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم ، .. ومن سكن اليمن فإنه علم أخبار الأمم جميعاً»(٥٣)، أما الجندي(٥٤) فيرى أنه لولا «التاريخ لجهلت الأنساب ، واندرست الأحساب، ولم تفرق بين الجهلة وأولي الألباب».

ومن المرجح أن الهمداني اطلع أثناء إقامته في مكة على مؤلفات محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ / ٧٦٣م) في الأنساب وعلى مؤلفات ابنه هشام (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذي كان غزير العلم بالأنساب والتاريخ (٥٥)، حتى وصف بأنه أعلم الناس بالأنساب (٥٦). ويعتبر محمد ابن السائب الكلبي وابنه هشام سنداً أصيلاً في الرواية التاريخية عند البلاذري(٥٧)، ونجد نقولاً كثيرة عنهما في كتب الهمداني (٥٨). ويرى الهمداني أن الكلبيين اختصروا أنساب الناس وطرحوا منها بقوله (٥٩): « ... وكذلك سبيل نساب العراق والشام يقصرون في أنساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهئوا بها عدة الآباء من ولد اسماعيل» .

وأما عن شيوخ الهمداني فيعتبر أبونصر محمد بن عبدالله اليهري الحميري من أكابر شيوخ الهمداني، ومصدره في كل ما أورده من أخبار اليمن وأنساب أهله، وقد أشاد الهمداني بذكره، ووصفه شائقًا بقوله (٦٠): «شيخ حمير وناسبها وعلامتها ، وحامل سفرها ووارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكنون علمها، وقارئ مساندها والمحيط بلغاتها». ومن

أشهر مشايخه أيضًا محمد بن عبدالله الأوساني الحميرى (٢٧٦ / ٨٨٩- ٣٦٠هـ / ٩٧٠م)(٦١).

لم يكتف الهمدانى برحلته العلمية إلى مكة ، بل سار إلى العراق التى تبوأت الذروة الفكرية والعلمية فى ذلك الوقت، وغدت مركزا للعلماء والأدباء والشعراء من كل حدب وصوب، يقول القفطى (٦٢): «وسار إلى العراق ، واجتمع بالعلماء واجتمعوا به». ويبدو أنه اقتنى أثناء وجوده بالعراق، كثيرًا من الكتب كدواوين الشعر وكتب التاريخ والأنساب والجغرافيا، والكتب المترجمة عن اليونانية أو الفارسية أو الهندية ، حيث نجد نقولاً كثيرة فى كتبه (٦٣)، هذا فضلا عن توطيد علاقاته بالعلماء، حيث «صحب أهل زمانه من العلماء وراسلهم وكاتبهم» (٦٤)، ومن بين هؤلاء العلماء محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى وكان يختلف بين صنعاء وبغداد، وهو أحد عيون العلماء باللغة والعربية وأشعار العرب وأيامها ، وكان يكاتب أبا عمر النحوى صاحب ثعلب، وأبا عبدالله الحسين بن خالويه (٦٥).

ولعل هذه المصادر العديدة والمتنوعة من المعارف والثقافات والأسفار والرحلات شكلت فكر وثقافة الهمدانى المؤرخ والنسابة ، حتى صار لسان اليمن وأعظم مؤرخيها بلا منافس.

على أية حال عاد الهمدانى إلى اليمن بعد رحلته العلمية التى طاف فيها مكة والعراق ، واستقر فى مدينة صعده حاضرة الدولة الزيدية طويلاً ، يقول الهمدانى (٦٦): «.. وقد سكنت بها عشرين سنة ... ، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفرى ، المتوارث من الجاهلية ، فمن أخبارهم ما دخل فى هذا الكتاب (٦٧)، ومنها ما دخل فى كتاب الأيام»(٦٨).

ويبدو أن مرحلة استقرار الهمدانى فى صعدة الطويلة نسبيا، كانت بمثابة محصلة لكل معارفه وإفرازات فكره وثقافته وتوجيه كتابته فى تاريخ اليمن، ومن خلالها استطاع أن ينجز كل مؤلفاته الموسوعية العديدة ، والتى تدل على علو كعبه ورجاحة فكره .

ولعله من المفيد أن نعرض للمناخ السياسى فى أيام الهمدانى ، وأثره سلبًا أو إيجابًا على فكره ومنهجه فى كتابة التاريخ. والحقيقة أن فكرة التاريخ عند شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، ليست فى حقيقة أمرها سوى شكل من أشكال فهم هذا الشعب لهويته الذاتية والحضارية (٦٩) فقد شهدت بلاد اليمن منذ أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى تمزقًا سياسيًا وصراعًا من أجل السلطة عصف بوحدتها السياسية (٧٠)، فقد كان لسياسة خلفاء بنى العباس منذ عهد المأمون (١٩٨ / ٨١٣ - ٢١٨هـ / ٨٣٣م) فى كثرة تولية الولاة

فى اليمن وعزلهم، وعدم اهتمامهم بشئون بلاد اليمن ، أن ساءت أحوال هذه البلاد الاجتماعية والاقتصادية، وأتاح الفرصة للشيعة فى تلك البلاد فى أن تحقق مطامحها (٧١). فالتغيرات السياسية والدينية التى عاشتها اليمن خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى كانت تعكس وإلى حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها اليمن . ففى حين ساهم الإسلام فى تحرير المنطقة اجتماعيًا واقتصاديًا ، فإن ظهور المذهب الشيعى فى اليمن فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، يجب أن تتم رؤيته داخل إطار التغيرات التى شهدتها المنطقة ، وليس من منطلق المفهوم القبلى الضيق.

عول الخليفة المأمون على اسناد ولاية اليمن سنة ٢٠٣ / ٨١٨م لمحمد بن عبدالله بن زياد(٧٢)، وما لبث ابن زياد ان اختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م ، وعمل على توطيد نفوذه فى جميع أرجاء اليمن (٧٣) . بيد أن هذه الدولة تعرضت لهزات عنيفة ، فى أواخر عهدها ، وخرج الكثير من الأمراء عن طاعتها ، الأمر الذى أدى إلى تطلع بعض الزعامات القبلية فى تأسيس دويلات لها فى نجد اليمن، ومن بينها آل يعفر بن عبد الرحمن الحوالى فى شبام وهى أسرة حميرية (٧٤)، حيث استطاع محمد بن يعفر سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م أن يؤسس دولة اليعافرة ، عندما ولاه الخليفة العباسى المعتمد الصلاة، وأعمال المعادن، والحرب والخراج، والضياع والصدقات ودور الضرب، وسائر أبواب الجبايات بصنعاء واليمن ومخاليفها وجميع أعمالها ونواحيها (٧٥). بيد أن ما تعرض له بنو يعفر من انقسام، ساعد على خروج الزعماء المحليين والقبائل عن طاعتهم (٧٦)، ومهد الطريق فى إنجاح الدعوة الاسماعيلية فى اليمن على يد الداعيين على بن الفضل اليمانى وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م (٧٧). واتسعت مناطق نفوذهما حتى شملت صنعاء وعدن (٧٨). ومع نهاية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، استطاع الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين تأسيس الدولة الزيدية سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م فى صعده ، وقام بنشر المذهب الزيدى (٧٩)، وتضافرت لدولته عوامل البقاء والاستمرارية زهاء ألف سنة ونيف (٨٠).

وعندما عجزت الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، عن الاحتفاظ بوحدة البلاد، تجزأت اليمن من جديد، ولكن وفق تجمعات سياسية دينية، تعكس خلفيات اجتماعية اقتصادية ، لاتمت بصلة لتجمعات المنطقة فى مرحلة ما قبل الإسلام. وكان الصراع من أجل السلطة مع عامل سوء الإدارة من قبل ولاة بنى العباس، وراء تفكك المجتمع اليمنى،

وتذبذب مواقفه، ومن هنا كثر المتطلعون إلى الحكم والسلطان مثل بنى يعفر فى صنعاء وشبام، وآل المناخى فى المذيخرة[٨١]، وبلاد الجند [٨٢]، وآل الضحاك فى حاشد، وآل أبى المغلس فى الدملوه ، وآل الكرندى فى المعافر[٨٣] ، محاولة منهم فى السيطرة على مقدرات بلادهم . يقول ابن خلدون [٨٤]: «أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة والسبب فى ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأى منها وهوى عصبية تمانع دونها...».

وفى الوقت الذى كانت رياح التغير تعصف ببلاد اليمن، تمكن الإمام الهادى يحيى ابن الحسين من السيطرة على شمال اليمن، وتأسيس دولته فى صعده ، ولم يفكر فى الاعتراف بالخلافة العباسية ، التى لم يصدر عنها ما يدفعه لمخالفتها ، والخروج عن طاعتها ، وهكذا أفصحت دعوته عن نية أتباع المذهب الشيعى فى المنطقة[٨٥].

فى ظل هذا المناخ السياسى المفعم بالصراع المرير والتناحر القبلى، واجه الهمدانى حالة التراجع والانكفاء الحضارى، بروح المفكر الثائر ، لذلك لجأ إلى التاريخ يستنطقه ، ويحث الآخرين على الاعتبار به ، ويستشرف حضارة أسلافه التى جعلتهم يكتشفون حكمة الحياة فى هذه الربوع قبل غيرهم ويفيدون بها ، ويتجلى ذلك فى شعره الذى يعتز فيه كثيراً بهمدانيته[٨٦]. وفى سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨ م أثناء إقامته فى صعده ، وقع بينه وبين شعرائها المنتسبين إلى عدنان خصومة لتعصبهم ضد قبائل اليمن [٨٧]، فكتب لكل واحد منهم قصيدة ، فلما بلغهم قوله ، اشتد ذلك عليهم ، ونصبوا له ....، وتألبوا عليه ، ودخلوا على الإمام الناصر لدين الله بن الإمام الهادى– صاحب صعده – وأخبروه أن ابن يعقوب هجا النبى ﷺ فتوعده الإمام الناصر ، وكتب إلى الأمير أسعد بن أبى يعفر ، وكانت بينهما مودة شديدة، فأمر أسعد ابن أخيه الخطاب عامله على صنعاء ، بسجن الهمدانى [٨٨]، وأشار الهمدانى فى المقالة العاشرة من سرائر الحكمة إلى أن الملوك «غضبت عليه يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ٣١٩هـ ، وأدخل السجن وأجريت الأيمان والعهود بالله أن لايخرج إلا على لوحة ميتًا ...[٨٩]»، وفى موضع آخر يصف لنا سجنه وما جرى عليه وهو يرسف فى القيود الثقال حتى «نقل من بلد إلى بلد» ، وطيف به مصفداً إلى موضع غربة. فلقى من ذلك الأمرين »[٩٠]، وفى ١٧ شعبان سنة ٣٢١هـ أذن بإطلاقه فأطلق ، ثم رد إلى السجن ثانية ، وبعث به مغرباً مع حفظه أينما وصلوا من قرية سجنوه [٩١]، ثم «فلت من النهج الذى قصد به له وملك نفسه ، وذلك بعد ٦٤٩ يومًا تكون شهوراً تامة ٢١ شهراً و١٩ يوماً» [٩٢]. ويفهم أن الهمدانى هرب من محبسه ، بيد أن الهمدانى[٩٣] ، يذكر فى الاكليل «أن الناصر لما قام آل أبى فطيمة [٩٤]، مطالبين بإخراج

الهمداني من السجن فتح له ، فرضوا ووادعوه ، حتى صح لهم أن إطلاق الهمداني كان من جهة ابن زياد صاحب زبيد» ويبدو أن ابن زياد هذا هو اسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد الذى كان معاصراً لأسعد ابن أبي يعفر وللإمام الناصر لدين الله (٩٥)، وهو الذى ساعد على هروب الهمداني من السجن.

على أننا نشك أن يكون الهمداني أقدم على هجاء النبى ﷺ وإلا فأين ما يدل على هذا الهجاء، هذا فضلاً أن هذا العمل يتنافى مع أخلاقه ودينه وورعه وتقواه واهتمامه بالعلوم الدينية. ومن المرجح أنها مكيدة دبرها له الحاقدون والحاسدون فى صعدة ، يدعم ما ذهبنا إليه قول القفطى (٩٦): «... وكان رجلاً محسداً فى أهل بلده» وقد يكون وراء هذه التهمة شئ من التعصب القبلى.

ومما لاشك فيه أن قصيدة الدامغة النونية التى رد فيها على قصيدة للكميت بن زيد الأسدى فى تفضيله عدنان على قحطان ، «أحدثت له العداوة من النزارية والمتنزرة»(٩٧)، وفتحت عليه أبواب الطعن وسبل الاتهام ...، وطعنوا فى خلقه ورموه بالكذب . يقول صاحب طبقات الزيدية (٩٨): «أكثر تصانيفه لايخليها من التعصب لقحطان على عدنان حتى خرج إلى الكذب، وكان مشهوراً بالكذب فى الأنساب مع معرفته بها» . ويقول أحد الباحثين (٩٩): «أن الهمداني يثبت حقائق العلم على صحتها ما استطاع فى كل مالايمس همدانيته ويمنيته ، فإذا لمس العلم هذا الجانب الحساس من الهمداني وجد فيه ضعفاً».

على أية حال أثبت الهمداني حبه واعتزازه بيمنيته وهمدانيته ، حتى وقف حياته على كل ما أمكنه من الدراسات المتعلقة والمتصلة باليمن، لعشقه العظيم للمجد السالف، والتغنى بمفاخر الآباء والأجداد (١٠٠)، حتى أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقى عن اليمن، وبمعلومات مؤسسة على قواعد أصيلة مثل الهمداني (١٠١). لقد أدرك الهمداني مبررات حكمة التاريخ واستوعب منطق الأجيال، وعرف أن قوة الحاضر لاتنفصل عن حضور الماضى، فالتاريخ ما هو إلا عملية متصلة للتفاعل بين المؤرخ وحقائقه ، وحوار متصل بين ماضيه وحاضره (١٠٢).

أما وقد تعرضنا للعوامل التى أثرت وشكلت شخصية الهمداني، فإنه يبقى علينا أن نتناول منهجه فى كتابة التاريخ ، ويجدر بنا أن نبحث فى مصادر مادته التاريخية بإيجاز، حتى نقف على منهجه فى عرض هذه المادة التاريخية من خلال كتبه : الاكليل ، صفة جزيرة العرب، والجوهرتين ، باعتبارها العمل الأساسى والأكثر أهمية من أعماله الموسوعية المتعددة.

اعتمد الهمدانى فى استقاء المادة التاريخية على مصادر عديدة أهمها : القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقد أشار السخاوى إلى أن البداية الحقيقية لعلم التاريخ عند المسلمين ذات أصل دينى، بتأثير ما ورد فى القرآن الكريم من مادة تاريخية تتناول قصص الأمم الماضية وأخبار الأنبياء ، وغير ذلك (١٠٣) ، هذا فضلا على اعتماده على الشعر وأئمة اللغة وفصحاء البادية ، وكتب المؤرخين السابقين، والروايات الشفوية التى سمعها، ثم ما رآه أو سمعه بنفسه من الأحداث التى دونها . وهكذا يكون الهمدانى قد اعتمد على النقل والرواية والدراسة والمشاهدة كمصادر لمعلوماته التاريخية .

على أن الهمدانى يشير إلى مصادره دائمًا ، بيد أنه يذكر اسم المؤلف أو النسابة الذى نقل عنه دون الإشارة إلى عنوان الكتاب ، مثل قوله(١٠٤) : قال الفيروزى، وقالت الحكماء ، ويقول بعض النساب (١٠٥) ، وحينًا يشير إلى اسم من سمع منه أو أخبره. فيقول (١٠٦) : «وحدثنى محمد بن أحمد الأوسانى ، أنه قرأ فى مسند بعمران» وخبرنى أحمد بن أبى الأغر الشهابى من كندة، وخبرنى مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيوانى (١٠٧) . كما يبين الأحداث التى شاهدها بنفسه بقوله (١٠٨)، قال أبو محمد ، وقرأت فى مسند قصر ريدة(١٠٩). وإلى جانب الأحداث السياسية نجده ينقل لنا بعض المعلومات ذات الصبغة الاجتماعية والاقتصادية عندما يقول (١١٠): «... أنه لما قحط القطر فى زمان يوسف عليه السلام،، وألحت الجراد، وساءت أحوال اليمن والحجاز ونجد، لأنها أرض معلقة لاسوح فيها ..» ثم يحدثنا عن تاريخ دار السكة فى صنعاء وكيفية حساب عيار الذهب ، والأدوات والوسائل اللازمة لذلك، وأماكن التعدين فى اليمن (١١١)، ثم يتناول الكتابة على الدينار والدرهم(١١٢).

ومما يجدر ذكره أن الهمدانى لم يقتصر على رواية الحدث التاريخى فحسب، بل يعنى بالتحليل أو التفسير لهذا الحدث فى إطار العلاقة السببية، فهو يحاول استقصاء الأسباب وتحرى الحقائق ، فبعد أن يورد أقوال ابن اسحاق عن زعم أهل التوراة أن السواد فى ولد حام عن دعوة دعاها نوح على ابنه حام يعقب قائلا(١١٣): «.. وهذا فى غاية التناقض أن يسيئ حام ويلعن ولده ، والله يقول : «ولاتزر وازرة وزر أخرى» ، وإنما سواد الناس وبياضهم وسمرتهم علة ذكرناها فى السيرة من هذا الكتاب.

كما يرى الهمدانى أن الكلبيين قد اختصروا أنساب الناس وطرحوا منها، ويعلل ذلك بأن بعضهم حاول إفساد النسب فى أيام العصبية فى دولة معاوية ليقرب نسب قضاعة وكهلان،

على نحو ما أرادت النزارية من إدخال هذه القبائل فى ولد إبراهيم عليه السلام(١١٤)، وينقل عن ابن خرداذبة من المسالك والممالك بيد أنه يعده من الشعوبية (١١٥). وقد نقل عن أرسطوطاليس ، وما لبث أن أورد رأيا مخالفا له (١١٦)، وينقد الهمدانى الأخبار بطريقة العقل كتعليله لانطفاء السراج فى الأمكنة التى ينعدم فيها الهواء بقوله (١١٧): «هذا الحديث فيه زيادة لا تمكن ، لأنهم ذكروا المسلك فى المغارة ثم دخولهم منها إلى هوة وأبيات ، فقل بها النسيم، ويعجز بها التنفس .. فإذا انقطع فى مثل هذه المغارات العميقة ، .. لا يثبت فيها روح ولا سراج».

على أن هذه الروح النقدية التى يتمتع بها الهمدانى لم تظهر بوضوح بين مؤرخى المسلمين إلا فى عصر متأخِّر ، وبخاصة على يد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) الذى عاب على المؤرخين عدم مناقشة الحقائق وقبولها دون تمحيص (١١٨)، فالمؤرخ «محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط ...»(١١٩).

تأثر الهمدانى كثيراً ببعض الآراء الواردة فى الكتب المترجمة عن اليونانية أو الفارسية أو الهندية ، تأثراً دفعه لا للأخذ بها فحسب ، بل إلى احترامه لأصحابها ، فهو بعد أن يورد قول أرسطوطاليس الحكيم فى مبتدأ الحرارة فى جوف الأرض يعقب عليه بقوله (١٢٠): «قد أحسن الحكيم فيما فرع، وإن كان قد بنى قوله فى مبتدأ الحرارة على غير أصل» ، ثم يسترسل فى إيضاح ذلك ، ومن خصائص منهج الهمدانى تلك المقارنات التى يعقدها أحيانًا هذا فضلاً عن استطراده فى تفاصيل حادثة بعينها مثل بلقيس وسليمان بن داود عليه السلام(١٢١)، وحادثة على بن أبى طالب وحارثة ابن بدر الغدانى (١٢٢).

وقد أدرك الهمدانى أهمية دراسة العوامل الجغرافية من أجل معرفة تأثيراتها على مسار التاريخ، فأفرد مؤلفًا من مؤلفاته أسماه «صفة جزيرة العرب»، مما جعله فى مصاف فحول الجغرافيين الذين تضلعوا فى هذا العلم(١٢٣)، هذا فضلاً أن هذا الكتاب يكشف عن وعى تاريخى عميق وقدرة فائقة على تتبع العلاقة السببية بين الظواهر التاريخية والجغرافية ، فهو يربط بين العوامل الاقتصادية والأحوال الاجتماعية فى جزيرة العرب بعامة وبلاد اليمن بصفة خاصة . أما كتابة الاكليل فيعتبر بحق مصدراً هاماً من مصادر تاريخ اليمن فى جوانبها السياسية والاقتصادية والفكرية ، ومن ناحية أخرى يحوى الكتاب معلومات إضافية عن أنساب القبائل العربية (١٢٤)، فقد استخدم العرب الأنساب باعتبارها نمطًا من أنماط المعرفة

التاريخية ، ووسيلة القبيلة فى البحث عن هويتها وتأكيد ذاتها، وتدعيم وجودها الحاضر من خلال ماضيها الحافل بالمآثر والبطولات [١٢٥]. وكل من يطالع ما كتبه الهمدانى عن أنساب القبائل اليمنية فى الاكليل وصفة جزيرة العرب، يدرك أن هذا الرجل بلغ شأواً لم يبلغه غيره ممن كتب فى الأنساب ، «فعليه المعول فى أنساب الحميريين»[١٢٦].

عول الهمدانى فى توثيق مادته التاريخية على الاستشهاد بالشعر، حيث ضمن مؤلفاته نماذج من الشعر، أماطت اللثام عن حادثة تاريخية، وتتبعت تسلسلها فى وحدة بنيوية متكاملة، وهو بهذا لايكتفى بأن يكون مؤرخًا ونسابة ، بل يضيف إلى معرفته بالتاريخ والأنساب معرفة وثيقة بالشعر[١٢٧]، هذا فضلاً عن عنايته الفائقة بالمباحث اللغوية مما يدل على تبحره فيها . ولفضل نظرته الشمولية توحد عنده المحيط الجغرافى والفلكى مع المحيط الاجتماعى للإنسان ، فهو يفتش عن الأحداث وتسلسلها الزمنى ولغتها التاريخية التى تحدثت عنها الوثائق الأثرية ، لمعرفته الفائقة بالخط المسند [١٢٨]. كما أدرك الهمدانى أهمية النقود فأرخ لها وأن كان هذا الاهتمام بعلم النميات لم يعرف على نطاق واسع فى عصره، فقد اشتمل كتاب الجوهرتين على معلومات وافرة عن النقود فى الفترة السابقة للإسلام وفى عصره[١٢٩].

على أنه يؤخذ على الهمدانى شدة تعصبه لقحطانيته بعامة ، وهمدانيته بخاصة شدة قد تحيد به فى بعض الأحيان عن جادة الصواب، فالدارس لكل ما يتصل بحياة الهمدانى، يجد أن تعصبه لقومه المنفذ الواسع لدراسته [١٣٠]. ويبدو أن تجربة السجن التى امتحن بها الهمدانى تركت بصماتها على فكره، وأزكت من عصبيته لقومه، حتى وقف علمه وخبرته ونتاجه الغزير على دراسة اليمن، وكل ما يتصل به ، وغدت سمة واضحة فى منهجه التاريخى.

أما مؤلفات الهمدانى فتبلغ قرابة بضع وعشرين كتاباً ، وللأسف لم يصلنا مع كثرتها إلا بقية قليلة لاتقاس بما كتبه ، وأكثرها مفقودة ، وقد أورد القاضى محمد بن على الأكوع قائمة بها[١٣١]:

١- الاكليل - عشرة أجزاء - (ظهر منه أربعة أجزاء)

الجزء الأول فى المبتدأ وأصول أنساب العرب والعجم ونسب ولد حمير ، وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٦٣ تحقيق محمد بن على الأكوع ، والجزء الثانى فى نسب ولد الهميسع ابن حمير ونوادر من أخبارهم، وطبع فى القاهرة ١٩٦٧ تحقيق محمد بن على

الأكوع ، والجزء الثالث فى فضائل اليمن ومناقب قحطان[١٣٢] (مفقود) ، بينما يتناول الجزء الرابع فى السيرة القديمة من عهد يعرب بن قحطان إلى عهد أبى كرب أسعد الكامل (مفقود) ويتناول الجزء الخامس السيرة الوسطى من عهد أبى كرب إلى عهد ذى نواس (مفقود) والجزء السادس فى السيرة الأخيرة من عهد ذى نواس إلى عهد الإسلام (مفقود) ، والجزء السابع فى التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة[١٣٣] (مفقود) أما الجزء الثامن فى محافد اليمن ومساندها ، ودفائنها وقصورها ومراثى حمير والقبوريات ، طبع فى بغداد سنة ١٩٣١ تحقيق الأب انستاس مارى الكرملى ثم فى برنستن سنة ١٩٤٠ بتحقيق نبيه أمين فارس، بينما يتناول الجزء التاسع أمثال حمير وحكمها باللسان الحميرى، وهو مفقود كذلك، أما الجزء العاشر فى معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها، وقد طبع فى القاهرة سنة ١٣٦٨هـ تحقيق محب الدين الخطيب .

٢- السير والأخبار (مفقود).

٣- صفة جزيرة العرب، وهو من أشهر مؤلفاته بعد الاكليل ، ويحوى معلومات جغرافية مهمة عن بلدان اليمن، وقبائلها ، وجبالها ، ووديانها ، وسهولها ، وحصونها، وإنتاجها الزراعى والصناعى، وعاداتها، وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة بريل فى ليدن سنة ١٨٨٤م بتحقيق (د. هـ . مـولر D. H. Moller ثم أعاد الشيخ محمد بن عبدالله ابن بلهيد طبعه فى سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣ م، ثم قام القاضى محمد بن على الأكوع بنشره وإعادة تحقيقه بإشراف الشيخ حمد الجاسر (بيروت ١٩٨٣) .

٤- المسالك والممالك اليمنية (مفقود) .

٥- اليعسوب (مفقود) وقد ورد ذكره فى الاكليل وصفه جزيرة العرب [١٣٤].

٦- الأيام (مفقود) وورد ذكره فى الاكليل [١٣٥].

٧- سرائر الحكمة (طبع منه المقالة العاشرة تحقيق محمد بن على الأكوع (صنعاء د.ت) .

٨- الزيج (مفقود) ، ذكره القفطى وقال : عليه اعتماد أهل اليمن [١٣٦].

٩- توحيد الزيج (مفقود).

١٠- القوى فى الطلب (مفقود) ، ذكره صاعد الأندلسى والقفطى[١٣٧].

١١- الحيوان (مفقود) .

١٢- المطالع والمطارح (توجد منه نسخة خطية فى مكتبة الإسكندرية).

١٣- الجوهرتان العتيقتان ، حققه الدكتور كريستوفر تول.. ونشره بالسويد سنة ١٩٦٨ ، وأعادت وزارة الإعلام والثقافة اليمنية نشره سنة ١٩٨٥ فى صنعاء بإشراف الدكتور يوسف محمد عبدالله .

١٤- الحرث والحيلة (مفقود) .

١٥- مفاخر اليمن ووقائعها (مفقود) .

١٦- أخبار الإبل (مفقود) .

١٧- أخبار الأوفياء (مفقود) .

١٨- أسماء الشهور والأيام (مفقود) .

١٩- الدامغة ، قما بتحقيقه محمد بن على الأكوع، بيروت (د.ت) .

٢٠- تفسير الدامغة ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت (د.ت) .

٢١- ديوان شعر الهمدانى (مفقود) .

٢٢- الوشى المرقوم (مفقود) .

أما عن وفاة الهمدانى ، فيكتنفها الغموض، ويلزمنا تحقيق هذا التاريخ لأهميته فى البحث، يحدد صاعد الأندلسى[١٣٨]، هذه الوفاة فى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، يذكر أنه يوجد بخط أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله بن عبدالرحمن الناصر، (ت ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) «أن أبا محمد الهمدانى توفى بسجن صنعاء فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة» .

وذكر كاتب مقال الهمدانى فى دائرة المعارف البريطانية[١٣٩] أن الوفاة كانت سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م فى سجن صنعاء . كما قال صاعد الأندلسى، بيد أنه أثار الشك حول وفاته فى هذا التاريخ «... ويقال أنه توفى فى سجن صنعاء سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م ، ولكنه الآن محل شك وسؤال».

بينما يذكر القفطى أن الهمدانى سار فى آخر زمانه إلى ريدة- من البون الأسفل من أرض همدان - وبها قبره وبقية أهله[١٤٠] بيد أنه لم يحدد القفطى تاريخ الوفاة . أما الأكوع[١٤١] فيحدد تاريخ الوفاة فى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٣م، وينقل عنه الزركلى[١٤٢] واعتمد الأكوع فى ذلك على خبر ورد فى الجزء الثانى من الاكليل [١٤٣]، عن محمد بن عبدالله الأوسانى- شيخ الهمدانى- ونصه : «قال أبومحمد بن عبدالله بن سليمان : رويت عن محمد هذا سنة ٣٥٦هـ وهو من عمره فى ٨٠ وكتبت عنه ، وقتل فى سنة ٣٦٠هـ رحمة الله».

وبمناقشة هذه الروايات نرى:

أولا: أن الهمدانى نص فى الجزء العاشر من كتاب الاكليل (١٤٤)، على خروجه من السجن، وبقائه فترة طويلة فى صعده ، ضعف خلالها نفوذ الحكام المسيطرين على اليمن، حيث توفى الامام أحمد الناصر بن الإمام الهادى سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣ م ، وتوفى الأمير أسعد بن أبى يعفر فى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م (١٤٥)، هذا فضلاً عن ذكره أن سيد همدان فى عصره أحمد بن محمد الضحاك – «الذى يمدحه الهمدانى، ويقيد أيامه، وهو منه خل وصاحب»(١٤٦) .. «ثم باعد القاسم بن الناصر، فجرى بينهما ما ينطق به شعر الهمدانى» ، وقد قتل ابن الضحك القاسم بن الناصر سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م، ووقع الخلاف بينهما سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م(١٤٧)، وهذا يدل على أن الهمدانى أدرك هذا الزمن، وقال الشعر فى تلك الحوادث.

ثانيا: يقول الأكوع (١٤٨): «جاء فى مخطوط بخط جدنا العلامة أحمد بن على الأكوع ، أطلقت عليه «التاريخ المجهول» أنه لما حمل جثمان أسعد بن يعفر من ذمار فى رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة إلى شاهرة ليقبر هناك، وكان توفى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م قال الهمدانى يصف تشييع الجثمان :

قد استوى الناس ومات الكمال وقال صرف الدهر أين الرجال

هذا أبوحسان فى نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال

يا ناصر الملك بآرائه بعدك للملك ليال طوال

وعلى هذا فإن وفاة الهمدانى فى الأغلب تكون فيما بعد سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م، ولم تكن فى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م كما ذكر صاعد الأندلسى، أو فى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٢م كما ذهب الأكوع وتبعه الزركلى، لأن الرواية التى اعتمد عليها الأكوع يفهم منها مقتل محمد بن على الأوسانى– شيخ الهمدانى– ولا علاقة لها بوفاة الهمدانى .

الهوامش

١- الهمداني : الاكليل ، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٦٨هـ، ج١٠ مقدمة المحقق ؛ الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، بيروت (د.ت) ، ج٢، ص١٧٩ .

٢- مؤلف مجهول: تاريخ اليمن في الكواقي والفتن، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٩٦٨) ، ورقة ١٣٧ ، ١٣٨ ؛ الحجري ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجري): مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٢٩٣٨) ، ورقة ١٠٣ ، ١١١ .

٣- ياقوت الحموي : معجم البلدان، طبعة بيروت (د.ت) ، ج٤ ، مادة (الحسن بن أحمد)، القفطي ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت٦٢٤هـ) : أنباه الرواه على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٨٦، ج١ ، ص٣١٤ .

٤- الهمداني : الاكليل ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ، ص١٩ ، ج١٠ ، ص١٤ ، ١٧٧ ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، ص٢٩ ، ص٤٦ ، ص٤٨، ص٦٦ وكذلك .The New Enc. Britannica , V.5 (Art . Hamdani, al)

٥- نسبة إلى أصله في عبد بن عليان بن أرحب . (الهمداني: الاكليل ، ج١٠، ص١٧٧ وما بعدها، القفطي: أنباه الرواه على أنباه النحاه، ج١ ، ص٣١٥ .

٦- بكيل : بالفتح ثم بالكسر وياء ساكنة ، مخلاف باليمن . (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢ ، ص٢٥٧) .

٧- مسلم اللحجي ، مسلم بن محمد بن جعفر اللحجي (ت حوالي ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) : تاريخ مسلم اللحجي ، مخطوطة باريس، رقم ٥٩٥٢ ، ج٤ ، ورقة ٨ .

٨- القفطي : أنباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٤ .

٩- الهمداني : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء (د.ت) .

١٠- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٩٥-١٩٨ .

* زبيد واد مشهور من أودية اليمن ، وأما مدينة زبيد فقد أنشأها سنة ٢٠٤هـ محمد بن زياد عامل الخليفة المأمون على اليمن، وينسب إلى هذه المدينة جمع كثير من العلماء ، وهي مدينة مدورة الشكل عجيبة الموضع على النصف ما بين البحر والجبل، وفي جنوبها واديها المسمى وادي زبيد، (ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقي ت ٦٩٠هـ) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ويسمى تاريخ المستبصر ، نشر أوسكار لوفجرين ، ص٢٢ ، الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ) : العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم (٧٣٦) ورقة ١٢٠ ب.

١١- حمد الجاسر: صفة جزيرة العرب ، المقدمة ، ص٨ .

١٢- المراشي : بالفتح جبل معاند لبرط من جهة الشرق، وهو جبل خصيب فيه فاكهة العنب الذي يؤتى أكله في السنة مرتين، وكان مسكن أجداد الهمداني. (الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٩٩، صفة جزيرة العرب، ص١٦١).

١٣- الهمداني: الاكليل ، ج١٠ ، ١٩٩ .

١٤- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣١٩ .

١٥- الهمداني: الاكليل ، ج١٠ ، ص١٩٩ .

١٦- الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣٦٥ .

١٧- الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص١٠٣ ؛ الاكليل ، ج٢ ، ص٣٣ ؛ ابن سمرة ، عمر بن على بن سمره الجعدى (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن، ، تحقيق فؤاد سيد، دار القلم، بيروت (د.ت) ص٥٧ .

١٨- الهمداني: صفة جزيرة العرب ، ص١٠٣ ، حاشية رقم (١) .

١٩- ذكر المستشرق كارل مينرش أن هناك بضعة أوراق منه في مكتبة هايدلبرج.

٢٠- ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص٥٧ ، الجندي، بهاء الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف الجندي السكسكي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد بن على الاكوع، بيروت ١٩٨٣ ، ج١، ص١١٤ .

٢١- ابن النديم : محمد بن اسحاق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢٢م) الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ، ص٣١٨ ، الرازي، أبوالعباس أحمد بن عبدالله (ت حوالى ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق عبد الجبار بكار وحسين العمري، دمشق ١٩٧٤ ، ص٢٩٧ ، ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص٥٦، الجندي : السلوك ، ج١ ، ص١٠٤ .

٢٢- الجندي : السلوك ، ج١ ص١٤٤ ، وراجع : ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٦٧-٦٨ .

٢٣- ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص٦٦-٦٧ .

٢٤- ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص٦٦ ، الجندي: السلوك، ج١ ص١٤٥ .

٢٥- الجندي: السلوك ، ج١ ، ص١٥٩ .

٢٦- بامخرمة : أبومحمد عبدالله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكرلوفجرين ، ليدن ١٩٣٦ ، ج٢ ، ص٢٦٠ ، وراجع : الجندي: السلوك ، ج١ ، ص١٥٩ .

٢٧- محمد بن على الأكوع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة للهمداني، ص٢١ .

٢٨- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) : طبقات

الأمم، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣، ص٧٩ .

٢٩- الهمداني: صفة جزيرة العرب ، ص٣٩ ، ص٦٥ ، الجوهرتين : تحقيق الدكتور كريستوفرتول، صنعاء ١٩٨٥ ، ص١٠٣ ، ص١٠٦ .

٣٠- الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص٩١ ، ص١٠٥ ، المقالة العاشرة، ص٢٥ ، ص٣٦ ، ص٥٠ .

٣١- كريستوفرتول : مقدمة كتاب الجوهرتين ، ص٥٤ - ٥٥ وراجع:

- Croken Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen (626-858 AH / 1229 - 1454 AD) Ph . D. diss., Harvard University . 1990 . pp. 24-26 .

٣٢- ذكر الهمداني من أصحاب النجوم أبا عصمة وأبا جنده وابن عاصم وابن المنذر وابن عبدالله وغيرهم. (صفة جزيرة العرب، ص١٠٤) .

٣٣- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص٨٤ .

٣٤- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص٥٧ .

٣٥- Swanson : Historical Considerations in Yemen Vernacular Architecture : Sulahid Dyansty (439-1047) to the modern Period - Ph D. diss., Ohio State University , 1997 , pp. 8-9 .

٣٦- الهمداني : كتاب الجوهرتين ص٥٠ ، ١٢٦ .

٣٧- السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ ، ص٤٩٨ ، ص٥٣١ .

٣٨- القفطي : انباه الرواه على أنباه النحاه ، ج١ ، ص٣١٤ .

٣٩- الهمداني : الجوهرتين ، ص٤٢-٤٤ ، ٥١ .

٤٠- كريستوفرتول : مقدمة الجوهرتين ، ص٥١ .

٤١- الهمداني : الجوهرتين ، ص١٦٥ .

٤٢- كريستوفرتول : مقدمة الجوهرتين ، ص٥٥ .

- Lealan Anderson : Hitstorical Considerations in Yemen, pp. 13-14 .

٤٣- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الإسكندرية (د.ت) ، ص٣٩٩ .

٤٤- يذكر الشيخ حمد الجاسر أن ابن فهد نقل عن الخزرجي في كتابه «تاريخ اليمن، فقال : «أن الهمداني ولد بصنعاء ، وبها نشأ، ثم ارتحل في شبيبته إلى مكة فجاور بها وقتل » (حمد

الجاسر:مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١٠) .

٤٥- القفطي : انباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

٤٦- الهمداني : تفسير الدامغة ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، بيروت (د.ت) ، ص٢٩٥ ، وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة الجزيرة ، ص١٠ .

٤٧- حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، القاهرة ، (د.ت) محمود الحويري: منهج البحث التاريخي ، القاهرة ١٩٩٩، ص١١٦-١١٧ .

٤٨- راجع : ابن هشام ، محمد بن عبدالملك (ت ٢١٨هـ / ٨٣٤م) سيرة ابن هشام ، القاهرة (د.ت) ٤ ج، ابن سلام ، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) الأموال ، بيروت ١٩٨١ ، وكذلك : المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) التنبيه والاشراف ، القاهرة (د.ت) .

٤٩- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، القاهرة ٢٠٠١م، ص٩٦ .

٥٠- أحمد أمين : ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٧٩، ج٢ ، ص٣٢٨-٣٣٢ ، محمود الحويري: منهج البحث في التاريخ ، ص١١٩ .

٥١- الهمداني: الاكليل ، ج١ ص٣٨ ، ج٢ ، ص١٢٧ ، ج٨ ، ص٦١-٦٢ ، ج١٠ ، ص٢٣ .

٥٢- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص٦٠ .

٥٣- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص٦٠ .

٥٤- الجندي: السلوك ، ج١ ص٦٣ .

٥٥- المسعودي: التنبيه والاشراف ، ص٧١؛ ابن النديم : الفهرست ، ص٨٩ .

٥٦- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٥٣٥-٥٣٦ .

٥٧- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت ١٩٨٧، الصفحات ٢٤ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ١٠٣ .

٥٨- الهمداني، الاكليل ، ج٨ تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي، بغداد ١٩٣١ ، ص١١٩، ١٢٠، ج١٠، ص٣٠ ، ص٢٢١ ، صفة جزيرة العرب، ص٨٣ .

٥٩- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص٣٠ .

٦٠- الهمداني : الاكليل ، ج١ ص٩ ، ص٢٠ وراجع : حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١١ .

٦١- الهمداني: الاكليل ، ج٢ ، ص٣٧١ وراجع حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١١ .

٦٢- القفطي : انباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

٦٣- راجع مؤلفات الهمداني : الاكليل ، ج١، ج٢ ، ج٨ ، ج١٠ ، صفة جزيرة العرب، الجوهرتين ، المقالة العاشرة من سرائر الحكمة .

٦٤- القفطي : انباه الرواه ، ج١ ص٣١٥ .

٦٥- القفطي: انباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

٦٦- الهمداني : الاكليل ، ج١ ، ص٢٧٥ .

٦٧- يقصد به كتاب الاكليل.

٦٨- كتاب الأيام ، من كتب الهمداني المفقوده وذكره في كتاب الاكليل .

٦٩- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ، ص٧٢ .

٧٠- أحمد بن أحمد بن محمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامي، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، بيروت ١٩٨٦ . ص٥٧-٧٠ ، كذلك : حسن خضيرى أحمد، قيام الدولة الزيدية في اليمن، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٢٥-٣٠ .

٧١- ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبدالباقى بن عبد المجيد (ت ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣م) : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص٢٥-٣٣ ؛ الخزرجي ، أبو الحسن على ابن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) : اليمن فى عهد الولاة، تحقيق راضى داغفوس، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩، ص١٠٠- ١٠٧ .

٧٢- عمارة اليمني ، نجم الدين محمد الحكمى (ت ٥٦٩هـ) : المفيد فى تاريخ صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٤١ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن، ص٢٥ .

٧٣- الجندى : السلوك ، ج١ ، ص٢٢١ ، حسن خضيرى : قيام الدولة الزيدية ، ص٢٨ .

٧٤- شبام : قرية فى مخلاف أقيان بن زرعه بن سبأ الأصغر ، وبهما مملكة بني حوال، ويقال إنها سميت بشبام بن عبدالله رجل من همذان توطنها (الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص٢١١ ، ص٢١٢) .

٧٥- محمد بن على الأكوع : الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الاسلام إلى سنة ٣٢٢هـ ، بغداد ١٩٧٦، ص٢٣٤-٢٣٧ .

٧٦- ابن عبد المجيد : بهجة الزمن، ص٣٥ ، الخزرجي : الكفاية والاعلام، ص١١٤ .

٧٧- نشوان الحميرى ، أبوسعيد نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحور العين، تحقيق كمال

مصطفى ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٢٥٣ ، ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيباني (ت ٩٢٤هـ/ ١٥٣٣م) : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ، ص١٨٣-١٨٥ .

٧٨- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص٣٥ ، الرازي : تاريخ مدينة صنعاء، ص٢٦٣ .

٧٩- العلوى ، على بن محمد بن عبيدالله العباسي (كان معاصراً للإمام الهادى يحيى بن الحسين) : سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق الدكتور سهيل زكار، بيروت ١٩٨١ ، ص٣٦-٤٩ ، وكذلك راجع : يحيى بن الحسين : أنباء الزمن فى أخبار اليمن، القاهرة ، (د.ت) ، ص٧-٥٣، وطبقات الزيدية ص٢٤-٢٧ .

٨٠- حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية فى اليمن، ص١٤١ .

٨١- المذيخرة : بضم الميم وفتح الذال وسكون الياء، مدينة ذات أنهار ورياض واسعة من مخلاف جعفر ، وقد اختط هذه المدينة جعفر مولى محمد بن زياد أول المائة الثالثة . (الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١١٨ - ١١٩) .

٨٢- الجند: بلدة مشهورة فى اليمن جنوب صنعاء ، على مسافة سبع مراحل ، وهى مقابلة لمدينة تعز من جهة الشرق (الحجرى : مجموع اليمن وقبائلها ، ورقة ٤٢) .

٨٣- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٤٢ ، المعافر هو المخلاف الذى يعرف الآن بالحجرية وهو شمال غربى عدن (الحجرى : مجموع بلدان اليمن، ورقة ١٧١) .

٨٤- ابن خلدون : المقدمة ، ص١١٧ .

٨٥- حسن خضيرى أحمد: قيام الدولة الزيدية فى اليمن، ص٥٦-٥٨ .

٨٦- للهمداني قصيدة تعرف بقصيدة الجار يعتز فيها بهمدانيته وكذلك القصيدة الدامغة النونية ومطلعها:

ألا يا دار هـــلا تنطقـــينـــا فـــإنا ســـائلوك فـــخـــبـــرينا

الهمداني : الاكليل ، ج١ ، ص٤٢٦ ، ياقوت الحموى، معجم الأدباء ، ج١ ، ص٤١٣ وراجع : محمد بن على الأكوع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢١ .

٨٧- ابن فهد المكى: الدر الكمين وذيل العقد الثمين ، مخطوطة (رامبوز الهند) ، ورقة ١٠٢ ، (نقلاً عن الشيخ حمد الجاسر ، مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١٥) .

٨٨- ابن فهد المكى : الدر الكمين، ورقة ١٠٢ .

٨٩- الهمداني : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص١١١ .

٩٠- نفس المصدر، ص١١٥ .

٩١- نفس المصدر ، ص١١٦ .

٩٢- نفس المصدر ، ص١١٦ وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١٧ وكذلك : محمد ابن علي الأكوع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢١ .

٩٣- الهمداني: الاكليل ، ج١ ، ص٣٣١ .

٩٤- الفطيميون : هم ولد سعد بن جاذر بن صحار بن خولان ، وهم أكثر خولان إجابه، وأبعدهم صيتًا ، وأفرسهم فروسية، وكانت ملوك حمير تميل معهم (الهمداني: الاكليل ، ج١ ، ص٣٢٦،٣٢٧) .

٩٥- الجندي: السلوك ، ج١ ص٢٣١ ، ابن الديبع : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، ص١٧٨،١٩٩ ، أحمد بن محمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص٦٠-٦١ راجع كذلك:

- Croken Barbra : Zabid under the Rasulids of Yemen , pp. 84-87 .

٩٦- القفطي : أنباه الرواه، ج١، ص٣١٥ .

٩٧- نفس المصدر، ص٣١٨ .

٩٨- يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٢٨ ، ورقة ٦١ .

٩٩- محب الدين الخطيب، مقدمة الاكليل ، ج١٠ .

١٠٠- أحمد بن محمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص٣٣ .

١٠١- Enc. of Islam (art El- Hamdani).

١٠٢- ميلاد المقرحي : ملاحظات حول كتابة التاريخ والبحث التاريخي، مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة، العدد الثاني يوليو ١٩٨٤، منشورات جامعة الفاتح ، ليبيا، ص٤٧٧ .

١٠٣- السخاوي ، شمس الدين عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧م) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، القاهرة ١٣٤٩هـ ، ص٨٥-٨٦ ، وراجع : قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين، ص٣٤ .

١٠٤- الهمداني: الاكليل ، ج١٠، ص٢٧ ، كتاب الجوهرتين، ص١٠٥ .

١٠٥- نفس المصدر ، ج١٠ ، ص١٠٣ .

١٠٦- نفس المصدر ج١٠ ، ص١٦ .

١٠٧- الهمداني: الاكليل ، ج١٠ ، ص٢٠ .

١٠٨- نفس المصدر ، ج١ ، ص٢١ الجوهرتين، ص١٠٦ .

١٠٩- ريده : بفتح الراء وسكون الياء ثم دال وهاء، وهي اليوم آهلة بالسكان والحياة وهي لاتزال سوقا لحاشد وبكيل (الهمداني: صفة جزيرة العرب ص١١٤، الاكليل ، ج٢ ، ص٩٨) .

١١٠-الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٤ .

١١١- الهمداني: كتاب الجوهرتين ، ص١٨٥ ، ص٢٠٠ .

١١٢- الهمداني : كتاب الجوهرتين ، ص٢٢٦ ، ص٢٢٩ .

١١٣- الهمداني: الاكليل ، ج١ ص٦٦ ، ص٨٤ راجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١٠ .

١١٤- الهمداني: الاكليل ، ج٨ ، ص١٠١ .

١١٥- الهمداني : الاكليل ، ج١ ، ص١٣٧ .

١١٦- الهمداني: الجوهرتين ، ص١٠٧ .

١١٧- الهمداني: الاكليل ج٨ ، ص٢١٣-٢١٨ .

١١٨- سيده اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٦١ : عبد المنعم ماجد : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١ ، ص٦٨ .

١١٩- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٧ .

١٢٠- الهمداني: الجوهرتين، ص١٠٦ .

١٢١- الهمداني: الاكليل ج١٠ ، ص٢٣-٢٥ .

١٢٢- نفس المصدر، ج١٠، ص٤٧-٥٠ .

١٢٣- سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ص٤٣ ، حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١٩ .

١٢٤- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص٧٨ .

١٢٥- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، ص٦٧ .

١٢٦- حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب ص١٩ .

١٢٧- محمد عبد الغني حسن: التاريخ عند المسلمين ، القاهرة ١٩٧٧، ص٢٩-٣٠ .

١٢٨- راجع الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٥ ، ص٦١ ، ص٣٠ وكذلك :
The historical value of ancient Yemen's , pp. 10-12 .

١٢٩- الهمداني: الجوهرتين ، ص٩٦ .

١٣٠- راجع : محب الدين الخطيب : الاكليل ، ج١٠ ، المقدمة ، كذلك : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١٨ .

١٣١- محمد بن على الأكوع، المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢٢-٢٣ .

١٣٢- ذكره القفطى: أنباه الرواه، ج١ ، ص٣١٧ .

١٣٣- القفطى : انباه الرواه، ج١ ص٣١٧ .

١٣٤-الهمدانى : الاكليل ، ج١٠ ، ص٨٨ ، ص١١٧ ، صفة جزيرة العرب ، ص٣٦٥ ، القفطى ، أنباه الرواه ج١، ص٣١٦ .

١٣٥- الهمدانى: الاكليل ، ج١ ، ص١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢١٦ .

١٣٦- القفطى: انباه الرواه ، ج١ ، ص٢١٨ .

١٣٧- صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص٧٨، القفطى : أنباه الرواه ، ص٣١٧ .

١٣٨- صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص٧٩ .

١٣٩- The Enc. Britannica (art Hamdani , al).

١٤٠- القفطى : أنباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

١٤١- محمد بن على الأكوع، : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢٣ .

١٤٢- الزركلى: الأعلام ، ج٢ ، ص١٧٩ .

١٤٣- الهمدانى: الاكليل ، ج٢، ص٣٧١ .

١٤٤- الهمدانى: الاكليل ، ج١٠ ، ص٦٧ ، وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص٣٠ .

١٤٥- نفس المصدر، ج١٠ ، ص٦٧ .

١٤٦- نفس المصدر، ج١٠ ، ص٦٧ .

١٤٧- نفس المصدر ، ج١٠ ، ص٦٧ ، وراجع : محمد بن على الأكوع: المقالة العاشرة، ص٢٣ .

١٤٨- محمد بن على الأكوع: المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢٣ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة:

- الحجرى ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٢٩٣٨).
- الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤١٠م) : العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٧٣٦) .
- مسلم اللحجى ، مسلم بن محمد بن جعفر اللحجى (المتوفى فى حوالى سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) : «كتابٌ فيه شئ من أخبار الزيدية فى اليمن، يعرف بتاريخ مسلم اللحجى، مخطوطة باريس رقم ٥٩٥٢، ج٤ .
- مؤلف مجهول : تاريخ اليمن فى الكوافى والفتن، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٩٦٨) .
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨م) : الطبقات الزهر فى أعيان العصر، ويعرف باسم طبقات الزيدية الصغرى، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، توجد صورة من المخطوط بمكتبتى الخاصة.

ثانيا: المصادر المطبوعة:

- بامخرمة > أبو محمد عبد الله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٣٦ .

البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) : فتوح البلدان ، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٨٧ .

- الجندى، بهاء الدين أبوعبدالله محمد بن يوسف الجندى السكسكى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) :
- السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الأكوع، بيروت ١٩٨٣ .
- الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) : اليمن فى عهد الولاة، تحقيق راضى دغفوس ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩ .
- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الاسكندرية (د.ت) .

- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى (ت ٩٢٤هـ / ١٥٣٣م) قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة، ١٣٧٤هـ .

- الرازى ، أبو العباس أحمد بن عبدالله (ت حوالى ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق عبد الجبار زكار وحسين العمرى ، دمشق ١٩٧٤ .

- السخاوى، شمس الدين السخاوى (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، القاهرة ١٣٤٩هـ.

- ابن سلام، أبوعبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨م) : الأموال ، بيروت ١٩٨١ .

- ابن سمرة ، عمر بن على بن سمرة الجعدى (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد ، بيروت (د.ت) .

- السيوطى، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ .

- صاعد الأندلسى ، القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠ م) طبقات الأمم، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٩٣ .

- ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد (٧٤٤هـ / ١٣٤٣م): بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازى، القاهرة ١٩٦٥ .

- العلوى، على بن محمد بن عبدالله العباسى (كان معاصراً للإمام الهادى يحيى بن الحسين فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى) سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق الدكتور سهيل زكار، بيروت ١٩٨١ .

- عمارة اليمنى، نجم الدين محمد الحكمى (ت ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م) : المفيد فى تاريخ صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٩٦٧ .

- ابن قتيبة ، أبومحمد عبدالله بن مسلم (٢٧٦ هـ / ٨٨٩م) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشه ، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠ .

- القفطى ، جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) : أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٦، ج١ .

– ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقى (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ويسمى تاريخ المستبصر ، نشر أوسكار لوفجرين ، ليدن ١٩٥١ .

– المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) : التنبيه والاشراف، دار الصاوى للنشر، القاهرة، (د.ت) .

– ابن النديم ، محمد بن اسحاق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢٢م) : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ.

– نشوان الحميرى، أبوسعيد نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) الحور العين، تحقيق كمال مصطفى، بيروت ١٩٨٥ .

– ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) : السيرة النبوية ويعرف بسيرة ابن هشام ، القاهرة (د.ت) ٤ أجزاء .

– الهمدانى ، أبومحمد الحسن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) :

الاكليل ج١ ، تحقيق محمد بن على الاكوع، القاهرة ١٩٦٣ .

الاكليل ج٢ ، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة ١٩٦٧ .

الاكليل ج٨ ، تحقيق الأب انستاس مارى الكرملى، بغداد ١٩٣١ ، تحقيق محمد بن على الأكوع، دمشق ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ .

– الهمدانى ، الاكليل ج١٠ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ.

– صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع، طبعة ثالثة ، بيروت ١٩٨٣ .

– كتاب الجوهرتين ، تحقيق الدكتور كريستوفرتول، صنعاء ١٩٨٥ .

– المقالة العاشرة من سرائر الحكمة ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، صنعاء (د.ت) .

– ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبدالله الحموى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان، بيروت ١٩٨٤ ، ج٢، ج٤ .

– معجم الأدباء ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ج١ .

– يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) : أنباء الزمن فى أخبار اليمن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د. ت) .

ثالثًا : المراجع العربية:

- أحمد بن أحمد بن محمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامي ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، بيروت ١٩٨٦ .
- أحمد أمين: ضحى الإسلام ، القاهرة ١٩٧٩ ، ج٢ .
- حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية فى اليمن (٢٨٠-٢٩٨هـ / ٨٩٣-٩١١م) ، القاهرة ١٩٩٦ .
- حسين نصار : نشأة التدوين التاريخى عند العرب ، القاهرة (د.ت) .
- حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب للهمداني، بيروت ١٩٨٣ .
- خير الدين الزركلي: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت (د.ت) ، ج٢ .
- سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، القاهرة، ١٩٧٦ .
- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، قراءة فى التراث التاريخى العربى، القاهرة ٢٠٠١ .
- كريستوفرتول : مقدمة كتاب الجوهرتين للهمداني، صنعاء ١٩٨٥ .
- محمد عبد الغنى حسن : التاريخ عند المسلمين ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .
- محمد بن على الأكوع الحوالي: مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة للهمداني ، صنعاء (د.ت) .
- الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٢٢هـ ، بغداد ١٩٧٦ .
- محمود الحويرى : منهج البحث التاريخى، القاهرة ١٩٩٩ .
- ميلاد المقرحى : ملاحظات حول كتابة التاريخ والبحث التاريخى: مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة ، العدد الثاني، يوليو ١٩٨٤ ، منشورات جامعة الفاتح ليبيا.

رابعا :المراجع الأجنبية:

- Croken Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen (626-858 AH/ 1229 - 1454 AD) Ph . D. diss., : Harvard universty , 1990 .
- Encyclopeadia of Islam .
- Hayden V. White H,: Ibn Khaldun in world Philosophy of History(in Coparative studies in society and history . V. 2 October 1959) pp. 110-175 .
- Swanson Lealan Anderson Nunn : Historical considerations in Yemeni Vernacular Architecture: Sulahid Dyansty (439-1047) to the modern Period . Ph . D diss , Ohio State University 1997 .
- Daghfous Radhi : " Les You' Furides " Faclt Des letters et sciences Humaines de Tunis (1 et 2 timesttes 1982) .
- Reniner L History its Purpose and method , London , 1950 .
- The historical Importance of the Antiquities Related to Ancient Yemen's (www. Yemenini gov. ye).
- The historical Value of ancient Yemen's (art of El Hamdani. htm) .
- The new Encyclopaedia Britannica.

د. جمال فوزي محمد (*)

النشاط السياسي والحضاري للمسلمين في الهند في عهد السلطان علاء الدين الخلجي

٦٩٥-٧١٥هـ / ١٢٩٥-١٣١٦م

اختلف المؤرخون والباحثون حول أصل الخَلجيين(١) ونسبهم . فقد ذهبت طائفة إلى أنهم من نسل «قالج خان» صهر جنكيز خان، وكان خاطره قد ملّ من زوجته ابنة جنكيز خان، ولم يجد مفراً من المداراة خوفًا من أبيها . وقد واتته الفرصة عندما عاد جنكيز خان عن بلاد المشرق الإسلامي إلى موطنه في منغوليا - شمال الصين- ففكر في تحصين جبال الغور- شرقي الهضبة الإيرانية، وضمن أفغانستان الآن- وأسكنها قبيلته ، وكثر نسله . ودخل الخلجيون الهندستان بالتدريج في ظل توسع سلاطين الغور(٢) فيها، حيث عظم هناك شأن عدد من أحفاد قالج خان هذا الذي حرف إلى خالج وصار لكثرة استعماله خلج (٣). وربما يظهر بوضوح خطأ بعض مضمون هذا الرأي من الناحية التاريخية . فالمعروف أن الغور- الذين يذكر هذا الرأي أن بعض أحفاد قالج خان صهر جنكيز خان قد عملوا وبرزوا في عهدهم- قد انتهت دولتهم سنة ٦١٢ هـ على يد الخوارزميين(٤). في حين أن جنكيز خان لم يقدم إلى مشرق العالم الإسلامي إلا في عام ٦١٦هـ .

---

* مدرس بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة دار العلوم- جامعة القاهرة.

فى حين ترجع طائفة أخرى من المؤرخين والباحثين الأصل التركى للخلجيين ، ولكن نظراً لهجرتهم المبكرة من ديار الترك فقد ألفوا مجموعة متمايزة ببلاد الغور (٥)، وربما كان هذا هو الدافع للبعض لأن ينسبهم للغوريين (٦).

كان جلال الدين فيروز شاه (٦٨٩-٦٩٥هـ / ١٢٩٠-١٢٩٥م) أول من ولى عرش دهلى- عاصمة الهندستان- من الأسرة الخلجية (٧). وكان لهذا السلطان ابن أخ يدعى «علاء الدين محمد بن شهاب الدين مسعود»، كان والده قائدا عسكريًا ومحاربًا جسوراً ، ولكنا لانعرف متى ولد علاء الدين ولا فى أى ظروف نشأ (٨). ولكنا نعرف أن جلال الدين كان يحب ابن أخيه وأنه زوجه ابنته وعينه حاكمًا لكره Kara وعين أخاه «الماس بيك» - وصهر السلطان أيضًا- فى منصب آخوربك (٩).

كان علاء الدين شجاعًا مغامرًا ، وقلبه متعلق بحب الملك، كما كان على علاقة سيئة بزوجه ابنة السلطان أيضا وأمها «ملكه جهان»(١٠) وفى نهاية سنة ٦٩١ هـ تقريبًا حصل علاء الدين على إذن السلطان بالتقدم نحو بهيلسه Bhilsa ومهاجمة تلك المنطقة، حيث حصل على غنائم كبيرة أهدى منها للسلطان كما اصطحب معه عند العودة من هذه الغزوة صنمين حديديين كانا معبودين لأهل هذه النواحى ووضعهما تحت بوابة بداون Badaon (١٢) ليطأهما الناس . ولقيت أعماله هذه استحسانًا من قبل عمه السلطان (١٣).

فى بهيلسه سمع عن ثروة ملك ديوكير (أوديو جيرى Devagiri) الهائلة فى الجنوب . وبدون الحصول على إذن من عمه أو عمل الترتيبات فى كره لإمداد دهلى العاصمة بأخبار منتظمة عن تحركاته منعًا للشكوك ، وخرج علاء الدين سنة ٦٩٥هـ على رأس ثمانية آلاف فارس، ولأبعد مما وصل إليه حاكم مسلم من قبل ، عبر جبال ويندهيا Vindhyas نحو الدكن جنوبًا حيث كانت ديوكير(١٤) يفصلها عن كره مدة شهرين سيرًا عبر أقاليم غير معروفة . وبعد صراع قوى أذعن له حاكمها «رام ديو» وحصل علاء الدين على غنائم هائلة ، وانتوى العصيان، فرجع إلى كره ولم يبعث إلى عمه شيئًا من الغنائم وامتنع من المثول بين يدى السلطان فأغرى الأمراء عمه به ولكن السلطان قال : أنا أذهب إليه وآتى به، فإنه محل ولدى. وبعد مراسلات ساعد فيها - على نية الغدر أيضًا- الماس بيك ، أخو علاء الدين ، الذى التمس من السلطان مقابلة أخيه فى غير عدة ولا عدد كى لايخافه علاء الدين فوافق السلطان، وفى مركب فى عرض النهر غدر علاء الدين بعمه ، إذ قتله أعوانه بالاتفاق معه وهو يحتضنه .

على أثر ذلك فر أكثر عساكر عمه إليه ، بينما عاد بعضهم إلى دهلي واجتمعوا على ركن الدين إبراهيم أصغر أبناء السلطان جلال الدين ، الذي أقامته أمه ملكه جهان- بمعاونة أمراء أبيه الذين غمرتهم بالهدايا والهبات- سلطانًا على عرش دهلي خلفًا لأبيه . على أن علاء الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها، فاضطر السلطان الشاب وأمه إلى الفرار إلى المُلتان(١٥).

لم يضع علاء الدين وقتًا ، فقد أرسل قواده لمطاردة أركلي خان وركان الدين ابن عمه السلطان حيث حوصرا في الملتان ثم قبض عليهما وقتلا وتحفظ على زوجات السلطان وبقية أولاده مسجونين في دهلي (١٦).

وفي يوم مقتل السلطان جلال الدين نفسه نشر علاء الدين شارات المملكة وشعاراتها، ورفع المظلة فوق رأسه باعتباره السلطان الجديد، وأمطر العامة في دهلي العاصمة بالدنانير والدراهم وقطع الذهب، ويومًا فيومًا ربط أمراء جلال الدين أنفسهم بخدمته وحلفوا له يمين الولاء تحت الرغبة والرهبة . ودخلت المملكة جميعها تحت سيطرة علاء الدين(١٧).

وفي ٢٩ ذو الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م ارتفع لواء السلطان علاء الدين على دهلي بواسطة أخيه الماس بيك، الذي لقب بعد ذلك بألغ خان ، ولقب سنجار أمير مجلس علاء الدين بألب خان، بينما منح ملك نصرت جليساري لقب نصرت خان وملك بدر الدين (أو هزبر الدين) لقب ظفر خان . وهؤلاء هم قواده الأربعة المشاهير وأذرعته الطويلة لتسخير مجمل أرجاء شبه القارة الهندية خلال مدة سلطنته التي دامت حوالي عشرين عامًا منذ أقيمت الخطبة باسمه وذكر على السكة ولأول مرة في تاريخ الحكم الإسلامي بها (١٨).

- النشاط السياسي والعسكري في عهد السلطان علاء الدين:

أولاً : التصدي للمؤامرات الداخلية:

في السنة الثالثة لجلوس السلطان علاء الدين على العرش أرسل قائديه ألغ خان ونصرت خان بجيوش جرارة لمهاجمة الكجرات(١٩) فعادا بغنائم كثيرة أخذ بعضها بالشدة والتعذيب . فاتفق بعض الأمراء من المسلمين الجدد(٢٠) مع أخرين تضرروا لما أخذ منهم، واجتمعوا وهجموا علي ملك عز الدين أخي نصرت خان وكان أمير حاجب ألغ خان وقتلوه ودخلوا خيمة ألغ خان فخرج من الطرف الثاني، ووصلوا إلى خيمة نصرت خان، وكان ابن أخت السلطان علاء الدين نائمًا بها فقتلوه ظنًا منهم أنه ألغ خان، فأسرع نصرت خان وجمع جموعه وقصد

المتمردين فتفرقوا وتوجهوا إلى الجوانب والأطراف . وعلى أثر ذلك قبض السلطان على أولاد وأتباع الأشخاص الذين سعوا فى هذه الفتنة وقتلهم (٢١).

وفى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م وجه السلطان قائديه ألغ خان ونصرت خان للاستيلاء على حصن رنتنبهور Ranthambhor (٢٢). وفيما كانا يحاصرانه أصابت إحدى قذائف المدافعين الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة، فخرج المدافعون لمهاجمة القوات المحاصرة التى اضطرت للتراجع ، فبادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هذا الحصن . وذات يوم- وهو فى فى طريقه إلى الحصن- كان السلطان مشغولاً فى ميدان الصيد بطريقة القمُرغَة Qamurgha (٢٣)، وقد نشر قواته فى الأطراف وبقى هو مع تابعيه المختارين يتسلقون مرتفعًا ويتابعون ممارسة هذه الرياضة فى غضون ذلك هاجمه بقسوة مع مجموعة من المسلمين الجدد ابن أخيه سليمان أكات خان ورموه بالسهام فجرحوا ذراعه ، ولأن الوقت كان شتاء ، والسلطان يرتدى لباسًا واقيا شيئًا ما، لم يكن جرحه مميتًا . ورغب المتمرد فى قطع رأس السلطان، ولكن بعض المحيطين به صرخوا قائلين : قتل السلطان ، فكف عنه وتوجه بسرعة إلى المعسكر وجلس على العرش ونشر المظلة فوق رأسه .

وحينما استعاد السلطان وعيه توجه نحو قائده ألغ خان فى جهاين . قرب رنتنبهور- ليتقوى به، إذ كان يظن أن المتمرد متفق مع أمراء آخرين شجعوه على تمرده ، ولكن بعض خلصائه لم يستصوبوا ذلك وألحوا عليه في التوجه نحو المعسكر السلطاني، فى الحال، ولأن أمر ابن أخيه لم يتم وسينفض الناس من حوله عند رؤية السلطان . وفى طريقه للمعسكر انضم إليه بعض عسكره ، وحين علم المتمرد بأمره سلك طريق الهرب ، ولكن أحد الذين أرسلوا لملاحقته قبض عليه وأرسله إلى حضرة السلطان - وقيل أرسل رأسه- وحينئذ دمرت كل أسرته وأقاربه حيث وجدوا(٢٤).

على أثر هذه الحوادث التى شارك فيها المسلمون الجدد من المغول أصبح السلطان كثير الشك فيهم واعتزم استئصالهم وهم من جانبهم كانوا مدفوعين بابتزاز وجشع جامعى الضرائب حانقين عليهم. وفى نهاية الأمر أرسلت من قبل السلطان أوامر سرية لحكام البلاد تأمرهم بالتخلص من المسلمين الجدد أينما وجدوا فى موعد معين . وفى الموعد المحدد- كما يذكر بدوانى- «جعلوا كثيرا من فقراء المغول سيئى الحظ طعمة لسيف الظلم وأرسلوهم إلى مملكة الإبادة وهم يستعصون على الحصر، ولم يعش اسم المغول طويلا فى الهندستان»(٢٥).

وفى أثناء حصار السلطان السابق لحصن رنتنبهور جمع شخص يدعى «حاجى مولى» من مماليك فخر الدين أمير الأمراء فى بلاط السلطان- مجموعة من غلاظ الطبع وأظهر أمراً مزيفًا فى دهلى ، ادعى أنه تسلمه من السلطان ودخل العاصمة، وأرسل فى طلب الكوتوال(٢٦) وفى الحال قطع رأسه وأغلق أبواب المدينة وأرسل إلى كوتوال القلعة علاء الملك- وكان صديقا له - قائلاً:

وصل أمر من السلطان تعال واقرأه . فتوجس خيفة ولم يلب الاستدعاء ، بينما أطلق المتمرد السجناء وأعطى حصانًا وأسلحة وصرة قطع ذهبية من الخزينة لكل منهم، وجمع أتباعًا كثيرين وقبض على شخص علوى يدعى «سيدزاده»، ينحدر من ناحية أمه من نسل السلطان شمس الدين ايلتمش وأجلسه على العرش فى حضور الزعماء والأمراء الذين استدعاهم وجمعهم واضطروا إلى حلف يمين الولاء له .

وحين وصلت أنباء هذا التمرد فى العاصمة إلى مسامع السلطان وهو يحاصر رنتنبهور لم ينشرها بين عساكره حتى تمكن من فتح الحصن ثم أرسل نحو المتمرد قائده المدعو «حميد الدين» فتمكن من قتله وقتل العلوى وأرسلوا رأسيهما إلى السلطان فى رنتنبهور .

وعين السلطان ألغ خان ليتقدم إلى العاصمة دهلى لتعقب الذين شاركوا فى التمرد وقتلهم واستئصال أسرهم . ثم عهد له بحصن رنتنبهور وما يحيط به . ولكن ألغ خان ما لبث أن مرض ثم توفى(٢٧).

بانتهاء هذا التمرد الأخير فرغ بال السلطان من الشأن الداخلى واستقامت له الأمور وتوجه بنظره إلى الخارج لدرء الأخطار الخارجية المهددة لسلطنته خصوصا الخطر المغولى التقليدى القادم من الشمال الغربى، ثم توسيع حدودها على حساب الإمارات الهندوكية المتبقية فى شبه القارة الهندية.

ثانيًا : مواجهة الأخطار الخارجية :

تمثل الخطر الخارجى الرئيسى فى غزو المغول لأرض الهند، الذى تجدد مع بداية سلطنة علاء الدين واستمر حتى عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٤م، دخل معهم السلطان خلال هذه المدة فى حروب طاحنة حتى تمكن فى النهاية من رد عائلتهم عن البلاد.

ففى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م عبر جيش مغولى نهر السند فى الشمال الغربى قادما من

بلاد ما وراء النهر (٢٨)، ودخل إلى أراضى الهند فأرسل السلطان قائديه ألغ خان وظفر خان حيث اصطدم الفريقان فى معركة حامية حاقت فيها الهزيمة بجيش المغول وقتل منه كثيرون وأسر جماعة (٢٩).

وفى العام التالى(٣٠) قدم مما وراء النهر «قتلغ خواجه» بن داود بجيش لايحصى محاولا غزو الهندستان وتوغل نحو دهلى حيث أصبحت الحبوب فيها عزيزة والأهالى فى عسر عظيم . ومرة أخرى أرسل السلطان قائديه ألغ خان وظفر خان على رأس قوات كبيرة لصد الهجوم الجديد حيث وقعت معركة شديدة هزم فيها المغول وتعقبهم ظفر خان وتأخر عنه ألغ خان حسدا له فخرجت عليه الكمائن فقتلته (٣١).

وللمرة الثالثة يتوجه تارغى المغولى مصحوبا بمائة ألف من المشاة وعشرين ألفا من الفرسان لنهب الهندستان، وتوغل حتى نزل على شاطئ نهر جون قرب دهلى . فى ذلك الوقت كانت معظم قوات السلطان قد توغلت جنوباً لإتمام فتح الدكن، وبقية الأمراء قد توجهوا نحو مقاطعاتهم بعد فتح رنتنبهور، وكان الجيش المصاحب للسلطان فى العاصمة- قد صار بلا أمتعة بسبب المطر وطول السفر- عائداً من رنتنبهور- فاضطر السلطان- لكل هذه الأسباب- إلى الخروج من العاصمة والنزول بسيرى- إحدى ضواحيها- حيث تحصن هناك وراء الخنادق والأشواك فى انتظار بعض الأمراء الذين استدعاهم من الأطراف، والذين صعب عليهم الوصول للسلطان لاستيلاء المغول على نواحى دهلى والأطراف المجاورة لها، فتوقفوا قريباً من دهلى ، وعندما مر شهران انسحب جيش المغول دون سبب واضح، ربما لخشيته من الوقوع بين براثن جيوش السلطان التى من المحتمل تكاثرها ومسارعتها فى الوصول من الأطراف لنجدة العاصمة(٣٢). واستمر المغول فى تهديد أطراف الهندستان الغربية حيث تصدى لهم فى المرحلة التالية قائد السلطان الجسوران تُغلق وكافور(٣٣).

ونظراً لإدراك السلطان لجسامة الخطر المغولى المهدد لبلاده فقد اتبع عدداً من الترتيبات للتصدى لهذا الخطر ، فأعاد تأسيس وتنظيم الدفاعات فى غربى الهندستان، فى إقليم البنجاب ، ووضع المقاطعة الأمامية منه فى ديبالبور Dipalpur(٣٤) تحت إمرة قائده تُغلق العسكرى القدير، وجهز جيشاً للطوارئ ، جعل اعتماده على الإقطاعات وأعده للأغراض الدفاعية والهجومية ، يعنى هذا أن أمراء السلطان تحولوا من الدفاع للهجوم وأخذوا بزمام المبادرة وبالفعل فقد أغاروا على مقاطعات المغول قرب كابل وغزنة(٣٥) وبذا استبدلت

باستراتيجية الحدود المتراجعة- فى السياسة الدفاعية للسلاطين قبل علاء الدين فى الشمال الغربى للهند- فى النصف الثانى من عهد علاء الدين، استبدل بها ما يمكن تسميته باستراتيجية الحدود المتقدمة ضد المهاجمين من ممرات الطرف الشمالى الغربى وخاصة المغول. فانقطع تهديد المغول للهند (٣٦).

وقد عبر الهروى عن هذا التحول بقوله : «وبعد ذلك انتهت متاعب المغول تمامًا على الأطراف ودخلت بلاد الهندستان التى كانت ملاذًا وملجأ للمفسدين والمتمردين فى حيز الضبط، وتم تأمين طرق ذهاب وإياب التجار والسائحين ... واستراح خاطر السلطان علاء الدين من عرش دهلى، وشرع فى تسخير البلاد البعيدة»(٣٧).

ثالثًا : التوسع فى شبه القارة الهندية .

فى السنة الثالثة لجلوس السلطان أرسل قائديه ألغ خان ونصرت خان بجيوش جرارة لمهاجمة إقليم الكجرات فانتهبوه ، وفر «راى كران»(٣٨) حاكم نهرواله(٣٩) والتحق بوالى ديوكير بالدكن . وسقطت نساؤه وبنته «ديولرانى نام» مع الخزانة والأفيال وكل شئ فى يد الجيش، وحمل الصنم الذى اتخذه البراهمة معبودًا لهم بدلاً من سُومنات(٤٠) الذى حمله السلطان محمود إلى دهلى، وجعله تحت أقدام الناس. وتوجه نصرت خان إلى كنبايت(٤١) حيث حصل من التجار المقيمين هناك أموالاً كثيرة ونفائس (٤٢). واكتسحت مقاطعات الراجبوتانا Rajpu-tana وأخذت منها غنيمة هائلة (٤٤).

ونظرًا لكثرة مال السلطان وعتاده وذخائره خطر له أن ينيب عنه فى دهلى ويتوجه لفتح أركان الأرض تأسيا بالإسكندر الأكبر ، وأمر أن يدعى فى الخطبة الإسكندر الثانى وكتب هذا على السكة أيضًا . وصدقته حاشيته خوفًا من طبعه الخشن ومزاجه القاسى إلا ملك علاء الملك(٤٥) كوتوال دهلى(٤٦)، الذى طلب منه السلطان المشورة فى ذلك ، وكان مخلصًا متزنًا ، فأقنع السلطان بأنه من الأولى الانتهاء عن إحداث شئ فى الشريعة لأن فى ذلك خراب الملك والسلطنة . وأوضح له أن تبليغ الرسالات مهمة الأنبياء والرسل، وأن الزمان قد تغير عن عصر الإسكندر الذى كان الناس فيه أقل غدرًا ومكرًا وأن الإسكندر تهيأ له وزير لايجود الزمان بمثله وهو أرسطو ، فإذا ما خرج السلطان لغزو العالم لم يأمن من انتقاض الأطراف عليه. والأولى أن يوجه همته لتسخير الهندستان وتحصين وإحكام القلاع جهة المغول، وبعدها يستطيع السلطان أن يرسل المماليك المخلصين بالجيوش القوية إلى الأطراف للاستيلاء على

الأقاليم البعيدة وبهذا يذيع فى الآفاق أنه فاتح العالم، وعلى عكس المتوقع، استحسن السلطان منه هذه المشورة وأنعم عليه كما أنعم عليه أمراء السلطان الذين سرهم أثر نصيحته (٤٧).

فى عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م أمر ألغ خان بالتقدم نحو حصنى رنتنبهور وجهاين حيث رأى همير ديوا الابن الأكبر لراى بتهورا الذى كان بحوزته عشرة آلاف فارس وما لايحصى من المشاة والفيلة- ذائعة الصيت. ولكنه هزم وانسحبت بمهارة عسكرية فائقة كل قواته إلى حصن رنتنبهور. وأبلغ ألغ خان طبيعة الحال إلى البلاط السلطانى وألح على السلطان باقتناص الحصن فجمع السلطان قواته وسار نحوه ، وفى وقت قصير وبمحاولة بارعة وبمعاونة ونشاط مماليكه قهر السلطان الحصن واستولى عليه وقضى على همير ديوا وحاز كنوزاً وغنائم عظيمة وعين كوتوالا للحصن واستعمل ألغ خان على جهأين وغادرها ليهاجم جبتور أو جتور فغزاها فى أيام قليلة وأعطاها اسم «خضر آباد»(٤٨) على اسم ابنه خضر الذى عهد إليه بحكمها ، ثم رجع السلطان إلى دهلى (٤٩).

فى العام التالى أمر السلطان «عين الملك شهاب ملتانى» أن تقدم إلى مالوه - وسط الهندستان- فى جيش ضخم ، فلم يستطع كوكا Koka زعيم الإقليم، الذى كان يمتلك أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، الوقوف ضده فنهب عين الملك وأتلف ورجع مظفراً بغنائم لاتعد(٥٠).

بعد أن فرغ بال السلطان من إخضاع جميع الهندستان توجه بأنظاره صوب الدكن- القسم الجنوبى من شبه القارة الهندية- فعين قائده ملك نايب كافور مع قادة آخرين لمهاجمة ديوكير . من بلاد الدكن- سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧ م فهزم حاكمها رام ديو- الذى كان قد امتنع عن دفع الجزية التى وعد بها عقب غزوة علاء الدين الأولى- وأسره، على الرغم من شجاعته . وأرسل جميع خزانته وسبعة عشر فيلا مع رسالة فتح إلى دهلى، ثم أرسله هو نفسه إلى السلطان الذى أنعم عليه ولقبه «راى رايان» وأعاده حاكماً على ولايته فسلك مسلك التابعين المطيعين وقدم خدمات جليلة(٥١).

بعد ذلك بعامين عاد كافور مرة أخرى إلى الجنوب على رأس جيش جرار متوجها إلى ورنكل Warangal، وقد أوصاه السلطان بأنه إذا بذل راى نادر ديو حاكمها الطاعة والجزية أن يقبل منه ويكتفى بذلك. فسار كافور متوجهاً إلى ديوكير فاستقبله رام ديو وقدم هدايا كثيرة وقدم لوازم الطاعة والولاء ورافق القائد الخلجى عدة منازل حتى سمح له كافور بالعودة

لولايته، وعندما اقترب جيش المسلمين من ورنكل أسرع رايان- حكام - الأطراف إلى قلعتها- فحاصرها المسلمون وسعوا فى فتحها واجتهد الهنادك فى الدفاع عنها وبعد مدة فتحت الأجزاء الخارجية منها وأسر أكثر الرايان ، واضطرب راى نادر ديو وطلب الصلح والأمان فأخذ ملك نايب منه مائة فيل وسبعة آلاف جواد وأمنه بعد أن قبل أن يرسل مقررات سنوية(٥٣).

فى العام التالى -٧١٠هـ - توجه كافور نحو بلاد المعبر على الساحل الشرقى حيث فتحها وخرب معابد أصنامها وحطم الأصنام الذهبية وأدخل ذهبها فى الخزانة، وعاد بثلاثمائة وأثنى عشر فيلاً واثنى عشر ألف جواد عدا صناديق الذهب والجوهر فسر السلطان بفتوحهم وأكرمهم. كما امتد سلطان المسلمين فى تلك الآونة حتى الساحل الجنوبى للهند(٥٤).

هكذا امتد سلطان المسلمين فى مختلف أرجاء شبه القارة الهندية، لأول مرة فى تاريخ المسلمين بها، فى عهد السلطان علاء الدين، الذى ينقل أحد الباحثين- فى حقه- عن تاريخ فرشته ما يفيد أن عدة معاركه كانت أربعًا وثمانين ، فى كلها ظفر وغنم(٥٥).

ويرجع أحد الباحثين هذه القدرة التوسعية فى عهد علاء الدين إلى التزايد الكبير فى الطاقة البشرية القابلة للتجنيد التى نتجت عن مشاركة الأهالى فى الجيوش والإدارة فى ذلك العهد وعدم اقتصارهما على الأرستقراطية التركية وذلك أيضًا نتيجة الأعداد الكبيرة التى اهتدت إلى الإسلام بفعل جهود الدعاة والصوفية المسلمين مما وفر أعدادا ضخمة لخدمة الدولة(٥٦).

ويرى باحث فى هذا التوسع سببا لضعف الدولة إذ انهار سريعا حكم الأسرة الخلجية بعد وفاة علاء الدين بمقتل آخر حكامها سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، بعد أن دام حكمها حوالى ثلاثين عاما (٥٧). ولا أدرى كيف يكون التوسع وما يجلبه من ثروات وإمكانيات هائلة تدعم قوة الدولة وهيبتها- خصوصا إذا كانت السلطة فى يد قوية كيد علاء الدين الذى وضع قواعد راسخة لتنظيم دولتــه (٥٨)- سببا فى الضعف. وأظن أن الأوجه هو القول بأن علاء الدين خلفه من أسرته سلاطين ضعاف أضاعوا ما أسسه(٥٩).

رابعًا : نهاية علاء الدين:

حين خلا بال السلطان من الفتح والتوسع واستقرت قواعد السلطنة ، تفرغ للنظر فى مستقبل أولاده فعين لكل منهم شيئا وجعل ابنه «خضرخان» وريثه وولى عهده ، وكان له من الأولاد أربعة غيره ، هم:

شادى خان وأبوبكر خان ومبارك خان وشهاب الدين . ثم اعتلت صحة السلطان لتقدم سنه ، فنشط ابنه خضر خان فى جلب الصالحين لدهلى للدعاء له وتمريضه. ولكن قائده كافور ، الملازم له والمقرب عنده والذى فوض إليه السلطان كثيرا من الأمور فى آخر أيامه وقد كانت له طموحات شخصية كبيرة، أوغر صدر السلطان ضد ابنه وأوحى له أن خاله ألب خان الذى حضر من الكجرات إلى دهلى يسعى للتدخل فى شئون الدولة وأن نفسه تميل إلى سلطنة ابن أخته خضر خان وهو يصبو إلى أن يصبح نائبا عنه . ونتيجة لهذه الوشاية أمر السلطان بإعدام «ألب خان» . ثم أوحى كافور للسلطان أن خضرخان قد حذر لقتل خاله وسيتجنب الحضور للبلاط ، فاستدعاه السلطان، قد أطاع الابن الأمر وحضر فاستقبله السلطان بمشاعر الأبوة.

ولكن ملك نايب كافور عاد وملأ آذان السلطان بالأكاذيب من جهته ، فأمر السلطان بإبعاد خضرخان وأخيه شاى خان إلى حصن كواليار(٦٠) Gwoliar .

وبعد إبعاد هذين الوريثين أقام كافور شهاب الدين بن السلطان من أم أخرى وريثًا ونصب نفسه وصيًا عليه إذا كان غضًا صغيرًا. وبعد أيام قلائل توفى السلطان فى شوال سنة ٧١٥هـ / يناير ١٣١٦م. وأسرعت يد القدر فى أسرته ما بين سجن وسمل للأعين وقتل، حتى انقطع نسله وزال ظل السلطنة عن أهل بيته (٦١).

نظم الحكم والإدارة فى عهد علاء الدين:

أولا : السلطان :

رأس الأمر وعموده فى نظام الحكم بالهند فى ذلك الوقت ، إليه المرجع فى كل الأمور ، ولايراجعه أحد، يصف المؤرخون السلطان علاء الدين بأنه كان قاسيًا صعب الطباع مستبدًا ، ورغم أنه كان فى أوائل حاله يستشير رجاله فى بعض أمور الملك ، إلا أنه حين فرغ خاطره من جميع الشواغل كان «يقوم بعمل ما يرد بخاطره من الأمور الملكية، وما كان يأتى على مخيلته ويوافق رأيه ينفذه. ولم يكن يستشير أى شخص فى تنفيذ أمر الملك»(٦٢).

وكان للسلطنة شعاراتها فالجتر لايفارق رأس السلطان فى سفر أو حضر وبه يعرف (٦٣). ودار السلطان بالعاصمة دهلى كانت تسمى «دولت خانه» ، ولها أبواب كثيرة، فأما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الأبواق فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها لكل

حسب رتبته . وبين الباب الثانى والثالث دهليز[٦٤] كبير به أهل النوبة - التناوب- من حراس الأبواب . وبالباب الثالث يجلس كتاب الباب. ومن عادتهم ألا يدخل من هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك ، ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه وأهله يدخلون معه . وكل من يأتى إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلانًا جاء فى الساعة الأولى أو الثانية أو بعدهما من الساعات إلى آخر النهار. ويطالع السلطان ذلك بعد العشاء الآخرة. ويكتبون كذلك كل ما يحدث بالباب من أمور . ومن عادتهم أيضًا أن من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو بغير عذر ، لايدخل من هذا الباب إلا بإذن من السلطان . فإن كان له عذر من مرض أو غيره قدم بين يديه هدية مما يناسبه إهداؤها إلى السلطان ، وكذلك القادمون من الأسفار ، فالفقيه يهدى المصحف والكتاب وشبهه ، والناسك يهدئ المصلى والسبحة والسواك ونحوهما ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والركاب ... والسلاح . ويفضى هذا الباب الثالث إلى المشور- الساحة- الهائل فسيح المساحة المسمى «هزار استون»[٦٥] وهى أعمدة من خشب مذهبة وعليها سقف خشب منقوش بأبدع نقش يجلس الناس تحته ، وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام[٦٦].

وكان جلوس السلطان فى الديوان العام بعد العصر أو أول النهار على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها حشية وخلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه ويساره متكأ. ويقف أمامه الوزير وخلفه الحجاب ثم يتلوهم النقباء. وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم «بسم الله» ، ثم يقف على رأس السلطان كبير الأمراء وبيده المنبة يشرد بها الذباب. وعن يمين السلطان يقف مائة من السلحدارية[٦٧] ومثلهم عن يساره بأيديهم الأسلحة. ثم يقف فى الميمنة والميسرة بطول المشور قاضى القضاة ثم خطيب الخطباء ثم سائر القضاة ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء ثم المشايخ ثم إخوة السلطان وأبناؤه وأصهاره ثم الأمراء الكبار.

وكل من يأتى من الناس المعينين للوقوف فى الميمنة والميسرة يطأطئ رأسه عند موقف الحجاب ثم ينصرف إلى موقف لايتعداه أبدا . ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بأيديهم التروس والسيوف ، فلايتمكن أحد من الدخول بينهم إلا بين أيدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان [٦٨].

ثانيًا : السلطات الإدارية التنفيذية :

لم تختلف كثيراً عن نظم الإدارات فى الدول الإسلامية السابقة خاصة الإدارة الغزنوية(٦٩). وقد كان على رأس الجهاز الإدارى «الوزير» وهو المهيمن على هذا الجهاز بإداراته المختلفة والمسئول عن تدبير أمور الدولة يعاونه المشرفون والمستوفون وغيرهم . وكانوا يسمونه «خواجه جهان»(٧٠)، وهو بمثابة رئيس الوزراء الآن . وقد ولى هذا المنصب لعلاء الدين أسماء مثل : نصرت خان وشمس الملك (٧١).

وكان «الحاجب» هو الوسيط بين السلطان ورجال السلطة وهو على مراتب كثيرة، ولذا فقد كان موضع رجاء الأمراء ورجال السلطان ولمنصبه هيبة عظيمة . وهو على مراتب كثيرة منها:

كبير الحجاب ونائبه ، وخاص حاجب وشرف الحجاب وسيد الحجاب .

و«أميرداد»(٧٢) هو الأمير الكبير الذى يحكم على الأمراء (٧٣)، فمن كان له حق على أمير أو كبير يحضر بين يديه . وديوان عرض وموضوعه التبليغ عن السلطان فى عامة الأمور، «وكيل دار» وإليه أمر البيوت السلطانية من المطابخ والشراب خانه(٧٤) والحاشية والغلمان . والمستوفى والمشرف من بأيديهم حساب الدخل والخرج . و«إقطاع دار» وهو الأمير الذى ينوب عن السلطان فى حكم ولاية كبيرة من أرض الهند وإليه أمر جيشها وماليتها. ومناصب أخرى عديدة (٧٢).

تنظيم الجيش وتنظيم البريد.

لتدبير أمور الجيش كانت وظيفة العارض أو مشرف عرض الممالك وظيفة رئيسية ضمن الحكومة المركزية ، وقد اكتسب منصبه أهمية كبيرة ليس فقط لقيادته القوات أحيانا(٧٦)، ولكن لمسئوليته عن تجنيد أفراد الجيش وتدبير تمويل الصرف عليه. وكانت العساكر تعرض بين يديه وهنالك قسى كثيرة ، فإذا أتى من يريد أن يثبت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسى ينزع فيها، وهى متفاوتة فى الشدة والضعف ، فعلى قدر نزعه يتحدد مرتبه . ومن أراد أن يثبت فارسا، فهناك طبل منصوب فيجرى فرسه ويطعنه برمحه . ومن يريد أن يثبت راميا فارسا فهناك كرة موضوعة فى الأرض ، فيجرى فرسه ويرميها ، وعلى قدر ما يظهر من الإصابة يكون مرتبه (٧٧).

ونظرا لخطورة الغزو المغولى الذى كان يتهدد الهند بين لحظة وأخرى مما يتطلب إعادة

تشييد وتقوية القلاع والحصون المواجهة لهم وإعادة تنظيم الجيش على أسس جديدة فقد حاول جعله نظاميا ثابتا ذا رواتب شهرية تدفع له نقدا من الخزانة وإمداده بالخيول الصالحة للقتال ووسمها – وضع علامة عليها– لتمييزها (٧٨).

وقد كان سلاح الفرسان العمود الفقرى للجيش، ولكن خروجا على النظام التقليدى وظلت – قبيل هذا العهد واستمرت على أيام علاء الدين– الفيلة فى قوس ممتد على أرض المعركة إلى جانب جنود المشاة (باياك Payaks) الذين كانوا فى الغالب هنودا . وقد قسمت القوات على نظام عشرى : فسارى عسكر يقود عشرة فرسان، وسبهسالا يقود عشرة سارى خيل ، والأمير يترأس عشرة سبهسالار، والملك يتأمر على عشرة أمراء، والخان يتزعم عشرة ملوك(٧٩).

وقد بلغت عدة الجيش فى ذلك العهد أربعمائة ألف وسبعين ألفا من الفرسان والرجالة ، وعسكر معظمه حول العاصمة دهلى وصينت هذه القوات على الدوام لمواجهة التهديدات(٨٠). وإلى جانب الأسلحة التقليدية استعمل النفط والنار الإغريقية، وكانت السهام الملتهبة والرماح بالإضافة إلى قدور اللهب تقذف نحو العدو (٨١).

أما البريد فقط نظم فى ذلك العهد تنظيماً جيداً للغاية ببلاد الهند وقد كان على صنفين :

بريد الخيل ويسمونه بالتركية «أولاق»(٨٢) وهو خيل للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال . وبريد الرجالة ويكون فى مسافة ميل منه ثلاث رتب ويسمونه «الداوة» وهى ثلث الميل. وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة، وقد شدوا أوساطهم، ومع كل واحد منهم مقرعة بأعلاها جلاجل من نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى . فإذا سمع الرجال الذين فى القباب صوت الجلاجل تأهبوا له، فإذا وصل إليهم أخذ ما معه أحدهم وجرى بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل للداوة الأخرى وهكذا حتى يصل البريد إلى غايته فى سرعة تفوق بريد الخيل (٨٣).

ومن خلال هذا النظام البريدى المسعف كان علاء الدين يظل على اتصال بالجيش عندما يكون متحركًا إلى جهة ما، واعتادت الأخبار الوصول للسلطان مخبرة عن تقدم الجيش واتصال المدد السلطانى المحمول له . وكانت الأخبار السيئة يحظر انتشارها بين الناس أو الجيش(٨٤).

ثالثا : القضاء :

عرف مجتمع المسلمين بالهند أربعة نظم قضائية ورقابية هى:

ديوان المظالم : يترأسه السلطان أو ممثله ، محاكم القضاة : التى تنفذ الأحكام الشرعية بين الناس وتفصل فى خصوماتهم ، المحتسبون : الذين يراقبون الحفاظ على الأخلاق القواعد والأعراف والنظم العامة والشعائر الإسلامية ، ورجال الشرطة(٨٥).

وكان لكل ولاية قاضيها الذى يتبع قاضى القضاة الملازم لحضرة السلطان، ويلقبونه «صدر جهان» . وبالرغم من شهرة السلطان علاء الدين بالقسوة والوحشية . إلا أن ذلك لم يمنع بعض رجال القضاة من الجهر بالحق فى وجهه وقد مر بنا نموذج القاضى مغيث الدين الذى لم يخش نقد تصرفاته . كما شجع الضغط النسبى للرأى العام- نظراً لمكانة القضاة ورجال الدين الملتزمين فى المجتمع الإسلامى- أمانة واستقلال القضاء.

الأوضاع الاجتماعية : «عناصر المجتمع وطبقاته وأديانه ومذاهبه»

تمثلت عناصر المجتمع الهندى فى ذلك الوقت فى:

أ) الدراوريون والتمول: أقدم من سكن الهند فى التاريخ المعروف ، ومنهم أغلب سكان الهند اليوم. وترجع أصولهم إلى اختلاط أجناس حامية سوداء قطنت الغابات مع موجات تورانية وافدة من أواسط آسيا .

ب) الآريون : قدموا فى موجات متتالية من الشمال الغربى فاكتسحت أمامها العنصر السابق الذى توغل جنوبياً وتمركز فى الدكن بينما غلب الآريون على الهندستان فى الشمال .

ج) العرب : وصلوا إلى سواحلها مبكراً قبل الإسلام للتجارة وتمركزت جاليات منهم بموانيها ، وازداد عددهم بتوغلهم فى أطرافها الشمالية الغربية مع موجة الفتوحات الإسلامية الأولى على أيام الراشدين ثم الأمويين .

د) الترك : دخلوا إليها فى موجات كثيفة متتابعة مع فتوحات الغزنويين الترك فى الهندستان ثم حكموها نيابة عن الغوريين ثم استقلوا بها مكونين أسر تركية حاكمة متتابعة كالمماليك والخلجيين- على أرجح الآراء- وغيرهم .

هـ) الأفغان : تطرقوا إليها فى ركاب الفاتحين من العرب والترك وحكم فيها بعضهم هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى كثيرة قليلة الشأن بالمجتمع الهندى فى ذلك الوقت (٨٧).

ورغم هيمنة العنصر التركى على الحياة السياسية والعسكرية بالهند فى تلك الآونة إلا أنه يبدو أن السلطان علاء الدين لم يكن يسمح بنفوذ قوى للعشيرة أو الأسرة فى اختياره لقواده ورجاله ، وقد كان كافور أشهر قواده من غير العنصر التركى[٨٨].

وقديمًا خاف البراهمة الاريون مغبة اختلاط قومهم بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات الذى يعبر عنه أحد رجال الهند فى الوقت الحاضر [٨٩]. بقوله : «أما نظام الطبقات فلم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشدة قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينيًا ومدنياً، وخضعت له آلافًا من السنين ولاتزال» وقد بدت طلائع التفاوت الطبقى ... بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها . وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى، وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفقت عليه البلاد وأصبح قانونًا رسميًا ومرجعًا دينيًا فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ «منوشاستر»

وقد قسم هذا القانون أهل الهند إلى طبقات هى:

١) **البراهمة** : وهم رجال الدين الهندوسى الأريين .

٢) **الشتري**: وهى تلى الطبقة السابقة وتتكون من النبلاء الفرسان المحاربين قادة الجيوش.

٣) **الويش** : وهم التجار وأرباب الأموال .

٤) **الشودرا** : وتنتظم الزراع والصناع والحرفيين.

٥) **الباريا أو المنبوذون** : وهم أحط طبقات المجتمع الهندى وهم أصحاب المهن الوضيعة ، والعبيد وأسرى الحرب ... إلخ [٩٠].

ولاشك أن مجتمع المسلمين بالهند قد تجاوز هذا النظام الطبقى المقيت الذى ظل متحكمًا فى البيئات الهندوسية .

وقد كانت الهندوسيه أو الهندوكية [٩١]. فى ذلك العهد- وما تزال- صاحبة الأغلبية فى شبه القارة الهندية . وفيها تمثلت تقاليد الهنادك وعاداتهم وأخلاقهم ، وقد أطلق عليها البرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما Brahma وهو القوة السحرية العظيمة الكامنة التى تتطلب كثيراً من العبادات والطقوس كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم

القرابين . ومن براهما اشتقت كلمة «البراهمة» لتكون علما على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم متصلين فى طبائعهم بالعنصر الإلهى، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة . ويقدس الهنادك قوى الطبيعة وعناصرها المختلفة حتى مجارى الأنهار وخاصة نهر الكنج الذى يحجون إليه ويذرون فى مياهه رماد جثث موتاهم بعد حرقها (٩٢).

ومثل المسلمون - وما يزالون- الطائفة الدينية الثانية. ويبدو أن الطائفتين قد عاشتا منفصلتين غير ممتزجتين فى الممارسات والأحوال المعيشية فى كثير من بلاد الهند ، يصور ذلك قول ابن بطوطة واصفًا رحلته عبر طريق بساحل المليبار: «والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار ، وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر . وعند كل بيت منها بئر يشرب منها، ورجل كافر موكل بها» فمن كان كافراً سقاه فى الأوانى، ومن كان مسلماً سقاه فى يديه ، ولايزال يصب له حتى يشير له أن يكف . وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولايطعم فى آنيتهم، فإن طعم فيها كسروها أو أعطوها المسلمين، وإذا دخل المسلم موضعًا منها لايكون فيه دار للمسلمين ، وطبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الأدام ، وما فضل عنه تأكله الكلاب أو الطير(٩٣).

ورغم اشتغال علاء الدين بالأغراض الدنيوية وانشغاله بها وعدم تعويله على الأغراض الدينية كثيراً ، إلا أن التحول إلى الإسلام قد شجع ، كما استنت فى ذلك الوقت عادة تقديم الشخص الذى أسلم حديثًا إلى السلطان- كما يروى ابن بطوطة- الذى كان يكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره (٩٤). وقد اعتنق آخر حكام إقليم مالوه الهنادكة الإسلام على أيدى الخلجيين(٩٥). وكذا حاكم كشمير ولم يترك الدعاة بقعة من الهند إلا دخلوها بدءا بالسواحل حتى قلب هضبة الدكن(٩٦).

وقد أقبل عدد كبير من الهنادكة على الدخول فى الإسلام طواعية فلم يكن سيف الفتح ولاعوامل أخرى كالتخلص من الجزية- التى يدفع المسلم الزكاة فى مقابلها- هما السبب فى هذا الإقبال باعتراف بعض مؤرخى الغرب بل بعض المؤرخين من الهنود أنفسهم- بل كان التعليم والإقناع والقدوة العملية هى وسائل الدعاة المسالمين الفعالة فى هذا المحيط الهندوسى الفسيح ، ولم يكن ما تعرض له غير المسلمين من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية عارضة(٩٧).

ورغم هذا الإقبال وتلك الجهود ورغم أن الإسلام قد تطرق لأطراف هذه البلاد مبكراً - منذ عهد الخلفاء الراشدين- ، وظل يتوغل حتى عمها نفوذ المسلمين السياسي والعسكرى أيام علاء الدين الخلجى، رغم كل هذا ما يزال التساؤل قائما: لماذا لم يغمر الإسلام الهند ويصير المسلمون أغلبية فيها كما حدث فى كثير من البلدان والأقطار التى دخلها الإسلام ؟ صحيح أن المسلمين صاروا - فى ذلك الوقت وما زالوا إلى الآن- أقلية ضخمة ولكنهم لم يتحولوا قط إلى أغلبية فى شبه القارة الهندية .

بل الأغرب من ذلك أن المرء كان يتوقع تركز انتشار الإسلام فى المناطق التى ترسخ فيها سلطان المسلمين السياسى، لكن الواقع - وبغض النظر عن الشمال الغربى- حيث باكستان الآن- والشمال الشرقى - حيث بنجلاديش الآن- اللذان تركز فيهما جهد الدعاة والمتصوفة وتمركزت جماعات المسلمين الفارة أمام ضغط المغول، بغض النظر عن ذلك، فإن نسبة انتشار الإسلام فى الهندوستان- فى الشمال- حيث معاقل قوة المسلمين سياسيًا وعسكريًا حول العاصمة دهلى، منخفضة قياسًا على نسبة انتشاره فى الجنوب فى ساحل المليبار مثلا حيث لم يرسخ سلطان المسلمين كما فى الشمال. وقد تخف حدة الغرابة فى هذا إذا عرفنا أن انتشار الإسلام فى أطراف الشمال كان امتداد طبيعيًا مباشراً لكتلة الإسلام المتصلة فى غرب آسيا حتى حدود شبه القارة الهندية أما الجنوب فقد جاءه الإسلام عن طريق البحر على يد التجار فى الغالب(٩٨). ورغم كل هذا نعود فنكرر التساؤل : لماذا لم يصر للإسلام الأغلبية فى شبه القارة الهندية ؟

يعلل لذلك كثير من الباحثين بأسباب وجيهة تتلخص فى أن الذين قدموا الإسلام لهذه البلاد فى الغالب، إما تجار أو فاتحون عسكريون وكلتا الطائفتين قليلتا البضاعة من الفقه والفكر الإسلامى ولم تصحبها جماعات من العلماء الدعاة بالقدر الكافى، بالإضافة إلى أن هؤلاء الفاتحين العسكريين كانوا أحيانًا قدوة غير حسنة بلجوئهم للعنف والتدمير وتنازعهم ونهمهم فى جمع الغنائم. كما أن هذه البلاد كانت الهندوسية قد هيمنت عليها من قديم وتأصلت فى نفوس أهلها وشبوا عليها وباشروا طقوسها (٩٩).

وختامًا للحديث عن طوائف المجتمع الهندى فى ذلك الوقت يجدر أن نذكر أنه لم يمارس تمييز يذكر بين رعايا السلطان علاء الدين، وربما يمكن القول بأن الرعية المسلمة شعرت بارتياح كبير مع حكمه، ولم يكن لدى الطبقات الدنيا من غير المسلمين ما تشكو منه تجاه حكمه القاسى العادل، إذ كان أقرب إلى صنف المستبد العادل من الحكام(١٠٠).

خامسًا الأحوال الاقتصادية :

أ- الزراعة :

بالهند مناطق واسعة خصيبة ترويها أنهار عديدة أهمها نهر السند الذى يروى السند والبنجاب في غرب الهندستان، والكنج وجمنا اللذان يرويان فى الشرق منطقة الدواب- أرض ما بين النهرين المذكورين ، وهى المد الأول لمالية السلطان ومصدر الدخل الرئيسى للدولة. وأعظم مناطق الهند حيوية وخصوبة . ومناطق أخرى غيرها(١٠١).

وكانت الأرض مقسمة على كور كبيرة يلى كل كورة أمير يسمونه إقطاع دار ينوب عن السلطان فيها ويرفع إليه ما يتحصل منها من أموال، وكل كورة بدورها مقسمة لعمالات عليها أمير يسمى المقطع (١٠٢).

وقد كان الهنود – كما يروى ابن بطوطة – يزرعون مرتين فى السنة :

عند نزول المطر فى أوان القيظ يزرعون الزرع الخريفى ويحصدونه بعد ستين يومًا فإذا حصدوا زرعوا المحاصيل الربيعية المعروفة كالقمح والشعير والحمص ويزرعون أيضًا الأرز فى البنغال والقطن والكروم فى الكجرات والبطيخ فى سيوستان ومن فواكههم أيضا النبق والمانجو والنارنج والرمان(١٠٣) وكان علاء الدين أول من أنشأ البساتين تقريبًا فقد أسس ثلاثين حديقة بدهلى وملأها بالرياحين والفواكه والأشجار المثمرة (١٠٤).

ونظرًا لإصلاحات علاء الدين الاقتصادية ، وعنايته بالزراعة عناية فائقة وهمته فى ضبط الأسعار فى بلاده الواسعة توفرت الأقوات وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء- مخازن- الحبوب التى أقامها علاء الدين بدهلى والتى ما برحت تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التى كانت تجتاح الهند حينما تنحبس الأمطار وتقوم الخانقاوت – رباطات الصوفية – والمطابخ السلطانية المنتشرة فى أنحاء البلاد بإطعام الأهلين فى هذه الأزمات(١٠٥).

ب) التجارة :

تعددت طرق التجارة الداخلية بالهند وربطت بين أجزائها وأطرافها المختلفة، وسلكتها إلى جانب الجيوش الضخمة قوافل التجار والحجاج المسافرين الهندوس والمسلمين، ومنها : طريق يخرج من قنوج(١٠٦) فى قلب الهندستان فى الشمال ويصل إلى بنواسى على الساحل

الجنوبى، طريق من قنوج إلى الكجرات على الساحل الغربى ، طريق من قنوج إلى غزنة بأفغانستان الآن، طريق من إقليم مكران من قصبة- قاعدته - التيز بالساحل الشمال الغربى، يجتاز هذا الساحل نحو الجنوب حتى سيت بند التى تواجه سيلان أو سرنديب- سريلانكا الحالية. وأخيراً طريق من قنوج إلى كشمير فى أقصى الشمال الغربى كما وجدت شبكة طرق تربط العاصمة دهلى بوادى السند ومالوه وبلاد المعبر بالساحل الشرقى وغيرها.

ومن هذه الطرق ما تكتنفه الأشجار الظليلة فكأن سالكه يسير فى بستان وفى كل داوة بريد منه ما يحتاج إليه المسافر فكأنه يمشى فى سوق فلا يحتاج إلى حمل زاد، وفى منازل بعض الطرق قصور للملوك (١٠٧). هذا بالإضافة إلى الطرق البحرية التى ربطت موانئ سواحل الهند التى سبق ذكر بعضها . وقد تعرضت هذه القوافل والسفن عبر هذه الطرق للقرصنة أحياناً كما حدث لابن بطوطة الذى يرد عنده الحديث عن القرصنة وسلب الكفار ما كان بيده (١٠٨).

وقد راجت تجارة المحاصيل والسلع والمصنوعات خصوصاً الأنسجة والمصنوعات الجلدية عبر هذه الطرق والمسالك (١٠٩). وقد قام الهندوس إلى جانب المسلمين بدور كبير فى التجارة. حتى فى عهد علاء الدين القوى، الذى أدرك خطورة نفوذ زعماء الريف الهندوس وحاول الحد من قوتهم، وجد أنه من الضرورى أن يجعل التجار الهندوس الأداة الرئيسية لإجراءاته لضبط مقاييس الأسعار ، حتى إن هؤلاء التجار والصرافين كانوا تقريباً الفئة الوحيدة الثرية بالإضافة إلى الملوك والأمراء ورجال الدواوين فى عهده، وانتعشت أحوالهم حتى أقرضوا الأموال حتى للأمراء الترك (١١٠).

وكانت العملات المستعملة فى هذه التجارات من معدن نقى وقد اتخذت الدولة احتياطاتها للحفاظ على نقاء العملة ووزنها، ومن هذه العملات : التُنكة من الذهب وتساوى واحد توله التى تزن الآن ١١ جرام و٦٦٤ ملى جرام، وقد تكون التنكة من الفضة بالوزن نفسه. والجيتل Jital من النحاس وبوزن التنكة نفسه وخمسون منه تساوى تنكة واحدة فى القيمة. كما استعملت دنانير فضية ، الواحد منها يساوى ثمانية دراهم . وعندما نصح القاضى علاء الملك السلطان علاء الدين بالعدول عما انتواه من استحداث أمور جديدة بالشريعة والخروج بجيوش لغزو العالم، وقبل منه السلطان، كان من بين ما أنعم عليه به عشرة آلاف تنكة فضية وأنعم عليه الأمراء بآلاف التنكات (١١١).

ج) موارد ومصارف الدخل :

كانت غنائم الحرب من أكبر مصادر الدخل للدولة والمحاربين ، ففى حملة نصرت خان سنة ٦٩٨هـ «تقريبا» على الكجرات استولى على غنيمة كبيرة من البضائع القيمة واليواقيت والجواهر والرقيق ، وقد كان كافور- القائد المشهور فيما بعد- ضمن هذه الغنيمة(١١٢).

وقد فاقت غنائم كافور هذا فى حملاته المتكررة على الدكن حد التصور، ففى إحداها غنم جميع خزائن العدو وسبعة عشر فيلا، وفى الثانية أخذ غنائم كثيرة وسبعة آلاف حصان كهدية، وفى الثالثة غنم حوالى أكثر من ٣٠٠ فيل و ٢٠٠٠٠ حصان و٩٦٠٠٠، قطعة ذهبية بالإضافة إلى صناديق عديدة من الجواهر واللؤلؤ وغنائم أخرى تفوق حد التخمين ، على حد تعبير بدوانى(١١٣).

ومثلت الموارد الثابتة الواردة من الأقاليم المفتوحة كالجزية والخراج وغيرها من أنواع الضرائب المفروضة آنذاك مورداً مهمًا آخر، وقد أدت أحيانًا المغالاة فيها- لكثرة النفقات على الجيوش والعمران وخلافه ، إلى تمرد وقلاقل . وقد ارتفعت نسبة الخراج فى عهد علاء الدين إلى نصف مقدار المحصول(١١٤).

وزاد الأمر فلم تقتصر حكومة علاء الدين على هذه الموارد التقليدية للدخل بل لجأت إلى الوسائل غير المباحة شرعيًا كالمصادرات . ففى سنة ٦٩٦هـ حين تقلد نصرت خان الوزارة شرع فى استرداد الأموال التى قسمها السلطان علاء الدين فى أول جلوسه بعد قتله عمه تاليفًا لقلوب الأمراء فأدخل الخزانة أموالاً كثيرة بهذه الوسيلة كذلك صودرت أموال الثائرين والمتمردين كثيراً(١١٥) وقد أنفقت هذه الأموال فى تمويل الجيوش ورواتب الجند والمشروعات العمرانية والنفقات السلطانية، إلى غير ذلك(١١٦).

أما عن الاصلاحات الاقتصادية فى عهد السلطان علاء الدين الخلجى فبسبب كثرة الحوادث والفتن التى وقعت فى تلك الأيام من أمراء كبار، تساءل السلطان علاء الدين عن الأسباب وكيفية تداركها ، فأجابوه بردها إلى أربعة أسباب هى :

جهل السلطان بخير وشر أحوال الناس .

وتناول الشـــراب لأن الناس عندما يشربون تتحرك فيهم الطباع السيئة وتتوالد الفتن، وصداقة وقرابة واتفاق الأمراء بعضهم مع بعض،

وكثرة الذهب والمال بأيدى الأراذل والمتهورين مما يشجعهم على سلوك التفكير الفاسد.

فاستصوب السلطان ذلك، وضم كل الأوقاف والإنعامات والأملاك الشخصية إلى خالصة السلطان- الأملاك الخاصة به- وأدخل الأموال إلى الخزانة، أى صنع ما يشبه التأميم للأملاك الخاصة الكبيرة خصوصاً الموهوبة من السلطان لأصحابها. فاضطر الناس السعى لتحصيل أرزاقهم ولم يرد اسم الفتنة والفساد على لسانهم . كما عين الجواسيس للمراقبة وبالغ فى ذلك لدرجة صعب معها اختلاط الأمراء.

وأمر بسكب الشراب وتحطيم أدوات المجلس السلطانى الخاصة أمام بوابة بدوان بدهلى ليعلم الناس بمنع الشراب، ونادى المنادون وأرسلت الفرمانات بمنعه إلى الأطراف . وحين اكتشف جماعة من الفساق تحايلوا على الشراب بكل سبيل، أمر بحفر بئر تحت ممر الناس قرب بوابة بدوان لكى يسجن فيها هؤلاء ، وظل أكثرهم فى الحبس حتى مات وعولج الأحياء فقضى بذلك على هذه العادة التى كانت تمارس جهاراً فى مجالس خاصة بها، واقتصر شرب الشخص على منزله منفرداً دون مجالس.

بعد ذلك حاول أن يقر عدة قواعد فى البلاد لكى يسوى ما بين الرعايا ، القوى منهم والضعيف ، ويقلل من تسلط الأمراء والمقدمين، ورجال السلطة على الرعية . فأمر ألا يلقى حمل الأقوياء على الضعفاء فى الخراج، وأن يدخل فى الخزانة كل ما يحصل . ووزع المراعى أيضًا بحسب نوعية الماشية بقر أو جاموس أو خراف . وتشدد فى أمر العمال وأهل القلم لدرجة أنه لم يتيسر لأحدهم الاستيلاء على جيتل خيانة، وإذا استولى على شئ تخرج ورقة من البتوارى – المحاسب- باسمه وما اختلسه ، فيسترد منه فى ساعته بالشدة والإهانة ، وقد كان عمل مقدمى القرى والجودهريين – مساعدى المقدمين- يستلزم أن يدوروا دائمًا راكبين ومرتدين الأسلحة والملابس النفيسة، فوصل الأمر بهم إلى أن نساءهم عملن فى منازل الأهالى لتحصيل القوت (١١٧).

ثم أقر – بعد استطلاع رأى رجاله – عدة ضوابط لضبط ظروف المعايش هى:

الضابطة الأولى :

أن أمر السلطان هو الذى يحدد سعر الغلة ، ولا دخل لأهل السوق فى تحديد سعرها. وقد استقامت هذه الأسعار حتى آخر أيامه ولم يحدث تراخ فى هذا رغم إمساك المطر ووقوع القحط أحيانًا .

الضابطة الثانية :

أنه جعل ملك ألغ خان ، وكان رجلاً عادلاً ، صاحب شوكة شحنة بازار غلة- المسئول عن السوق ، بازاره سوق – ويسمى بلغة الهنود «مندوى» ، وعليه تنفيذ لائحة الأسعار التى أقرها السلطان.

الضابطة الثالثة :

أنه أمر أن يجمعوا الغلات من الأرض الخالصة للسلطان- خالصات سلطانى- ويخزنوها، حتى إذا حدث عجز فى السوق تباع غلال السلطان بالسعر الذى يحدده .

الضابطة الرابعة:

منع الاحتكار لدرجة أنه لو ظهر أن أحداً احتكر الجنود أو الرعية تصادر بضاعته كما أمر الرعايا الزراع أن يبيعوا الغلال التى يزرعونها ولايحملوا إلى منازلهم إلا حصتهم.

الضابطة الخامسة :

أن يعرض على السلطان يوميًا أخبار الأسعار وسائر معاملات السوق بالتفصيل ولو حدث تقصير على هذا يعاقب المندوى وعماله. وقد وضعت ضوابط منظمة للسلع الأخرى كالأقمشة وغيرها .

ومن أجل خفض سعر الجياد- لكونها سلعة استراتيجية كعصب للجيوش فى تلك العهود – وضع أيضا أربع قواعد :

أولاها : تحديد جنسها وقيمتها :

ثانيتها : أنه أمر ألا يشترى بعض التجار الجياد من السوق، لأنه كان من عادتهم خفض سعر الشراء ورفع سعر البيع، فطردهم وفرقهم.

ثالثتها : ترغيب وترهيب دلالى الخيول، فلو ظهر أنهم باعوا فى السوق جواداً بخلاف سعر السلطان كان يعاقب جميع الدلالين .

رابعتها : أنه كان يفحص كل شهر أجناس الجياد وقيمتها ويتتبع أحوال الدلالين، فلو ظهر أقل تفاوت فى هذه الضوابط السلطانية كان الدلالون يصابون بالأذى وقد روعيت هذه الضوابط أيضا فى مجال تجارة البغال والحمير.

وكل ما كان يقع فى السوق كان يكتب ويعرض على السلطان يوميًا فى صحيفة ، وكان الجواسيس أيضًا موكلين بمراقبة أحوال الأسواق، فإذا ظهر أن القائمين بمراقبة السوق قد عرضوا شيئا مختلفًا على السلطان يعاقبون . وبلغ اهتمام السلطان بمراقبة السوق إلى درجة أنه كان فى بعض الأحيان يعطى الأطفال الذين لا دخل لهم فى البيع والشراء نقوداً ويرسلهم إلى السوق ليشتروا الأشياء التى يرغبون فيها ويحضرونها عنده، فإذا ظهر أن هناك تفاوتًا فى السعر أو الوزن يعاقب البائع وكان أقل عقاب يقع هو قطع الأذن أو الأنف . فانخفضت بذلك أسعار أمتعة المعيشة وأدوات الجيش وظهر الارتياح بين الرعية(١١٨).

وقد ناقش أحد الباحثين آراء المؤرخين حول تقييم هذه الإصلاحات التى أجراها علاء الدين، وذكر أن ضياء الدين بارانى- المؤرخ المعاصر لعلاء الدين، وكان متحاملاً عليه لقسوته - قد عزا هذه التدابير إلى محاولة حفظ تكلفة الجيوش فى مستوى أقل . بينما عزها مؤرخون معاصرون ، منهم ابن بطوطة ، إلى الفائدة العامة. ثم يصف هذا الباحث تفسير بارانى بأنه يبدو شاذاً نظراً لأن حاكمًا قاسيًا مثل علاء الدين كان ممكن أن يدبر نفقات جيشه بوسائل أخرى كالضرائب الإضافية مثلاً، وليتعامل مع مشكلة محدودة كهذه ليس من الضرورى أن يتبع نظامًا مفصلاً ومعقداً للتدابير الإدارية فى مناطق شاسعة كما فعل . فكل المعاصرين عدا بارانى - أشاروا إلى أن علاء الدين، رغم عيوبه السابقة ، كان لديه فكرة حاسمة عن مسئوليات الحاكم، وقد شعر أن الطريقة المؤثرة لإفادة العامة هى السيطرة على أسعار معقولة لضروريات الحياة اليومية (١١٩). ويبدو لى هذا الاحتمال الثانى المخالف لبارانى وجيهًا إلى حد كبير .

سادسا : النشاط الثقافى وفنون العمارة:

كان طبيعيا أن تؤدى الفتوحات الواسعة الجالبة للغنائم الوافرة، بالإضافة إلى ما قام به علاء الدين من إصلاحات اقتصادية وإدارية تنظيمية ، إلى مستوى كبير من الرخاء والوفرة خصوصًا لدى الطبقات الأرستقراطية من الأمراء ورجال الحاشية. مما جعل من بعضهم إلى جانب السلطان، رعاة للعلم والثقافة والفن ، ولهذا احتشد بدهلى فى أيام علاء الدين مجموعات من العلماء والشعراء والدعاة والفلاسفة والأطباء والفلكيين والمؤرخين . فقد شعر هؤلاء أن العاصمة دهلى فى ذلك الوقت صارت حاضرة المشرق الإسلامى ، صحيح لم تكن الصورة على ما هى عليه فى مثل بغداد وقرطبة من مؤسسات راسخة ودراسة للعلوم، والسبب

فى هذا أن العلماء كانوا يلجأون للهند غير مصطحبين مكتباتهم فى فرارهم إلى الهند أمام ضغط المغول وغيرهم، لصعوبة ذلك. فتركز النشاط الثقافى لذلك فى مجالات مثل : الشعر والموسيقى والتاريخ المحلى والعمارة، ووجدت المدارس فى دهلى وكل العواصم الإقليمية المهمة.

ويصعب هنا التقدير الكامل للمظاهر الثقافية في عهد علاء الدين، ولكن الشواهد المبعثرة كافية لتبين أنها كانت فترة مهمة جداً فى الحياة الثقافية فى الهند الوسيطة ، فقد نضجت البلاد ثقافيًا فى تلك الآونة ومكنت الثروة الطائلة الحاكم ومستفيدين آخرين من أن يتعهدوا الأنشطة الثقافية بسخاء . ورغم أن علاء الدين لم يعمر طويلا ليشهد تحقق كل أحلامه المعمارية ، إلا أنه خلف كثيراً من الآثار الرائعة ، وحدثت أيضًا تطوراتٍ كثيرة مهمة فى ميدان الموسيقى وبعد غزو الإمارات الهندوسية فى الجنوب تحرك الموسيقيون شمالا ليلتمسوا رعاية الملوك والأمراء المسلمين. ولحسن الحظ فقد وجد فى دهلى رجال مثل أمير خسرو أفادوا أنفسهم من المركز الاجتماعى، وافتتح عصر جديد من الموسيقى الهند إسلامية(١٢٠) .

وقد كانت لغة التأليف عند علماء المسلمين بالهند هى اللغة الفارسية ، كما نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية ومنهم الشاعر خسرو الدهلوى الذى أبدع بالعربية أيضا. وقد عاصره كوكبة من أصحاب ، المعارف المختلفة بالهند فى ذلك الوقت، من الشعراء القاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ، ومن الناثرين أحمد تنيسرى صاحب أخبار الأخبار وعين الملك الملقانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجيين والذى ترك مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم «إنشاء ماهرى» أما المؤرخون فيأتى على رأسهم ضياء الدين بارانى صاحب تاريخ فيروز شاهى الذى سجل فيه كثيراً من حوادث ومعارف عصره (١٢١). بالإضافة إلى الشاعر خسرو نفسه الذى أرخ لفتوحات جلال الدين الخلجى فى تاريخ الفتوحات ولفتوحات علاء الدين فى خزائن الفتوح(١٢٢).

وقد كان الفقه عمدة بضاعتهم فى ذلك الوقت، ولذلك فقد كثرت فيهم الفتاوى والروايات ومطابقة الاجتهادات بالسنن المأثورة عن النبى ﷺ وحكى أن أحد مشايخ المحدثين المصريين قدم إلى الهند أيام السلطان علاء الدين الخلجى ووصل إلى الملتان ولقى بها الفقهاء وسمع كلامهم، ثم رجع إلى بلاده وبعث رسالة إلى السلطان علاء الدين شنع فيها على أن الفقهاء فى بلاده لايعتنون بأحاديث النبى ﷺ ... ولكن الفقهاء لما وقفوا على تلك الرسالة منعوها عن السلطان(١٢٣).

ويبدو أن العلاقات بين الهند وسائر أقطار العالم الإسلامى فى ذلك الوقت كانت ثرية والرحلة إليها قائمة من بلاد المسلمين (١٢٤). والجدير بالملاحظة أن هذا التراث الإسلامى الهندى لم يحظ باهتمام الباحثين العرب فى العصر الحاضر وأهمل هذا الجانب الحضارى الكبير من تراثنا الإسلامى ربما بسبب الفواصل اللغوية(١٢٥).

وعلى الرغم من أن علاء الدين كان أميا لايعرف القراءة ولا الكتابة فى حياته الباكرة، ثم أصبح على بعض الدراية بالقراءة بالفارسية بعد أن علا نجمه (١٢٦)، رغم ذلك فقد لازم بلاطه عدة أدباء وشعراء بارزين كما برز فى عهده علماء فى مختلف الفروع .

وقد كان ناصر الدين خسرو بن أمير سيف الدين محمود دهلوى الشهير بأمير خسرو (ت ٧٢٥هـ) من ألمع شعراء ورجالات عصره - ووالده من أمراء قبيلة لاجين التركية ببلاد ما وراء النهر قربه السلطان جلال الدين فيروز شاه الخلجى بين أمراء بلاطه ومنها عرف بأمير ثم صار من أشهر شعراء علاء الدين، وصاحب كثيراً من حملاته العسكرية وصور أحداثها كما برع فى الموسيقى والتصوف، وكان تلميذا نجيبًا للشيخ نظام الدين أوليا، ولعلو منزلته بين الشعراء هناك عرف بغُريد الهند (١٢٧).

وزامل خسرو فى بلاط علاء الدين والتلمذة على الشيخ نظام الدين الشاعر المقلق نجم الدين حسن بن علاء الدين سجزى (ت ٧٣٧هـ) المعروف بأمير حسن الدهلوى، وذاعت مختارات من شعره حتى لقب بسعدى الهندستان(١٢٨).

وقد وجد بكثرة بالهند فى ذلك الوقت كثير من الصلحاء والأولياء والمتصوفة والزهاد الذين كان يزورهم السلاطين والملوك ويخفضون لهم الجناح، وعلى رأسهم الشيخ نظام الدين أوليا البدوانى الذى عاصر سبعة سلاطين لم يزر بلاط واحد منهم وحين أصر السلطان علاء الدين على زيارته أبلغه الرسول عنه هذه الرسالة: لدارى بابان إن دخل السلطان من أحدهما سأخرج من الآخر . وقد مثل هذا الشيخ قوة روحية هائلة فى تاريخ الهند الإسلامى وانتشر حواريوه فى ربوع القطر كله ونظموا حيواتهم وفقا للشريعة ليصلوا لدرجة عالية من السمو الروحى وقد ضمن منهجه فى إرشاد أتباعه فى فوائد الفؤاد للشاعر أمير حسن حيث سجل حواراته مع الشيخ ومنذ وفاة هذا الولى الكبير سنة ٧٢٥هـ حتى اليوم يجتذب قبره بدهلى عدداً كبيراً من الزوار من كل ربوع الهند(١٢٩).

وقد صادفت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجًا كبيرًا فى عصر السلطان علاء الدين الخلجى، وقد أطلق يد البذخ فى الإنفاق على منشآته بفضل كنوز الدكن وغنائم الحروب . وقد كان الملمح البارز للعمارة الخلجية أنها طورت لنفسها أسلوبًا خاصًا فى النظم والأساليب . فالمبانى الخلجية كانت من الحجر الرملى المبطن بالرخام، وللمرة الأولى يستعمل القوس (الأرش Arch) والقبة الفسيحة تتخلل الأقواس(١٣٠).

وقد اضطر ضغط الهجمات المغولية السلطان علاء الدين إلى أن يبنى عاصمة جديدة – فى ضواحى دهلى هى مدينة سيرى Siri سنة ١٣٠٣م وبها قصره المهيب الذى يتكون مدخله من ألف عمود (١٣١). وبنى السلطان أيضًا المستودع المائى الواسع المعروف بهوزخاس وهوز علائى ، وغير ذلك من الأعمال العمرانية كالمدارس والمساجد والبوابات والمنارات. وفى عهده كانت الأعراف الإسلامية قد رسخت فى الروح الهندية ولذا فإن مسجد الجماعة المشيد فى عهده هو النموذج المبكر الباقى فى الهند كمسجد بنى كاملا طبقًا للأفكار الإسلامية(١٣٢).

الهوامش

١- الأشهر في نطق هذا الاسم كسر القاء والأصح فتحها ، وربما كانت من الكلمة التركية «قلج» بمعنى: السيف . انظر : أرمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ترجمه وعلق عليه: د. أحمد محمود الساداتي نهضة الشرق، ط٢ سنة ١٩٨٧ م ص٤٨ هامش (٢)، وانظر كذلك : علي أكبر دهخدا : لغت نامه زير نظر د: محمد معين جلد ٣٥ تهران تير ١٣٤٢هـ ش .

٢- سلطنة الغوريين إحدى الدول الإسلامية المستقلة في شرق العالم الإسلامي حكمت في شرق الهضبة الإيرانية والهندستان من سنة ٥٤٣هـ إلى سنة ٦١٢هـ .

٣- نظام الدين أحمد بخشي الهروي: طبقات أكبرى ترجمه عن الفارسية د. أحمد عبد القادر الشاذلي تحت عنوان : المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الاستعمار البريطاني، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥م، ج١ ص١٠٨ .

٤- الدولة الخوارزمية إحدى دول المشرق الإسلامي المستقلة، حكمت في إيران وبلاد ما وراء النهر من سنة ٤٧٠ إلى ٦٢٨هـ .

٥- انظر في ذلك مثلا : عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، دار الثقافة نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه د. محمد علاء الدين منصور ١٩٩٠م ص٦٨٧ هامش (١) فامبرى : تاريخ بخارى ٤٨ .
S.M. Ikram : Muslim civilization inIndia, Columbia university Press, New York and London, Third Printing 1969 , p. 61 the Oxford history of India, by A. smith , Fourth edition, Karachi 1983 , p. 244 .

ويبدو لي أن هذا هو الأقرب للصواب خصوصا في ظل سيادة العنصر التركي سياسيا وعسكريا في دول المشرق الإسلامي في تلك الفترة.

٦- انظر مثلا: الجوز جاني : طبقات ناصرى به تصحيح ومقابلة وتحشية وتعليق عبد الحى حبيبى نشر كرده انجمن تاريخ أفغانستان كابل ١٣٣٢ ش جلد أول ٤٢٢ ، حمدالله مستوفى قزوين : نزهة القلوب بسعي واهتمام وتصحيح كاى ليسترانج ليدن ١٩١٣ م ص١٥٨، خواندمير : تاريخ حبيب السير از انتشارات كتا بخانه خيام ١٣٣٣ شمسى جلددوم ص٦١٢ ، د. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٩٨١م ص١٥٨ ، ١٥٩ . ولعل صعوبة الفصل في نسب الخلجيين هي التي دعت أحد المؤرخين إلى التعليق بالعبارة التالية: God Know "the truth of this" يعلم الله حقيقة ذلك» انظر: عبد القادر بدواني: منتخب التواريخ المجلد الأول ص٢٣٠ ، ٢٣٧ ، وقد ترجمه عن الفارسية إلى الإنجليزية George S.A. Ranking وقد اعتمدت على هذه النسخة الإنجليزية في هذه الدراسة.

٧- في هذا الصدد يذكر «لوبون» أن الخلجيين أعقبوا الأسرة الغورية في الحكم (حضارات الهند ٢٢١) . والمعروف أن سلطنة المماليك (٦٠٢-٦٨٩هـ) هي أولى الدول الإسلامية المستقلة في الهند، وتلاها

الخلجيون فى الحكم . وإن حكم المماليك – قبل هذا التاريخ– الهندستان كولاة تابعين للغوريين شرقى إيران . فالمماليك إذن ، وليس الخلجيين، هم من أعقبوا الغوريين بالهندستان.

٨- M. Mujeeb : the Indian Muslims , London , first published , 1967, p. 81 .

٩- الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١١٢ .

Al- Badaoni : Muntakhabu - T- tawarikh, vol ., 1 , p. 232 , 239 .

وكره بفتح الكاف والراء كانت بلدة كبيرة على شاطئ نهر الكنج حسنة العمارة، حصينة ولها سور عظيم، فتحها «قطب الدين أيبك» (٦٠٢-٦٠٧هـ) أول سلاطين المماليك بالهندوستان، وكانت قصبة بلاد شرق الهندستان فى عهدهم ، وكانت من أخصب بلاد الهند وهى الآن قرية لا عمارة لها قرب الله آباد الحديثة انظر: الحسنى : الهند فى العهد الإسلامى ص٨٨ .

Ikram : Muslim Civilization in India , p. 62 .

أما منصب آخور بك» فيعنى: المشرف على الاصطبل السلطانى . انظر : د. شتا : المعجم الفارسى.

١٠- Badaoni 1 : 237 .

١١- مدينة كبيرة بولاية مالوه Malwo بوسط الهندستان ، كانت مركزًا تجاريًا ، افتتحها السلطان «شمس الدين ايلتيمش» المملوكى (٦٠٧- ٦٣٣هـ) ، وهى اليوم قرية من أعمال أجين انظر: الحسنى: الهند فى العهد الإسلامى ص٧٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، Ikram : Muslim Civilization: p. 62.

١٢- بداون أو بدايُون بفتح الباء وضم الياء وإسكان الواو ، كانت بلدة كبيرة فتحها السلطان أيبك المملوكى بينها وبين دهلى مسيرة عشرين يومًا د. الحسنى : الهند فى العهد الإسلامى ص٨٠ . وإليها ينسب المؤرخ عبد القادر البدوانى صاحب «منتخب التواريخ» الذى تعتمد هذه الدراسة على نسخته المترجمة للإنجليزية عن الفارسية كثيراً .

١٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٠ ، الهروى : طبقات أكبرى ١ :١١٦ ، ١١٧ ، Badaoni 1 : 236 . .

١٤- ديوكير زو ديوجيرى Deogiri اتخذها – فيما بعد – السلطان «محمد تغلق شاه» (٧٢٥-٧٥٢هـ) عاصمة بدلاً من دهلى وسماها «دولت آباد» وهى تبعد الآن ٢٨ ميلاً غرب حيدر اباد .

انظر: Badaoni 1 : 271 , f . N . 6 .

١٥- ابن بطوطة ٤٥٠-٤٥٢ ، الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١١٦ ، ١١٧ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ١١٥-١١٧ ، Ikram : Muslim Civlization., p. 62 . .

والملتان : Multan ولاية بشمال غرب الهندستان ، قاعدتها الملتان وهى مدينة معروفة بباكستان الآن . الحسنى: الهند فى العهد الإسلامى ص١٠ وهامش (١) ، ١٠٩ .

١٦- Badaoni : 247 , 248 .

١٧- ابن بطوطة ٤٥٢ ، الهروى : طبقات أكبرى : ١١٧-١٢٣ . Badaoni 1 : 244 .

١٨- ابن بطوطة ٤٥٢ ، . Badaoni 1 : 247

والمعروف أن السلطان علاء الدين قد حكم فى المدة من (٦٩٠هـ / ١٢٥٩م إلى ٧١٥هـ / ١٣١٦م) وليس من سنة ١٢٩٤ إلى سنة ١٣١٣م كما يذكر لوبون : حضارات الهند ٢٢١ .

١٩- كجرات بضم الكاف الفارسية وإسكان الجيم، بلاد على الساحل الغربى للهند، وهى الآن ضمن مقاطعة بومباى . الحسنى الهند فى العهد الإسلامى ص٧١ ، معارف العوارف فى أنواع العلوم والمعارف المنشور باسم «الثقافة الإسلامية فى الهند» مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣م ص١٠ هامش (٢) . وسيأتى الحديث عن التوسع الإسلامى فى شبه القارة فيما بعد .

٢٠- مصطلح عُرف به فى ذلك الوقت المغول الذين دخلوا الهندستان حربًا أو سلمًا وذابوا فى ذلك المجتمع وعاشوا فى تلك الآونة.

٢١- الهروى : طبقات اكبرى ١ : ١٢٥ ، ١٢٦ .

٢٢- إلى الجنوب الغربى من دهلى بينها وبين الكجرات ، وقد ذكر Ikram فى Muslim Civilization in India, p. 63 أن إخضاعه تم فى عام ١٣٠١م.

٢٣- كلمة تركية تعنى أرض الصيد وتقوم على محاصرة الصيد من جميع الجهات عن طريق كلاب الصيد وغيرها وتضيق الدائرة والخناق عليه شيئًا فشيئًا . انظر، Badaoni : 258 , F.N.5.

٢٤- ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٢ ، الهروى : طبقات أكبرى ١٢٩-١٣٣ . Badaoni 1 : 258 - 260

الذى يذكر أن تمردًا آخر- فى الوقت نفسه - قاده عمر ومنكوخان - بنا أخى وأخت السلطان- فى بدوان، حيث قبض عليهما وأحضرا للسلطان الذى أمر بسمل أعينهما . على أثر هذه المؤامرة احترز علاء الدين فلم يكن يركب لجمعه ولا لعيد ولا سواهما كما يروى ابن بطوطة ٤٥٢ .

٢٥- Badaoni 1 : 254، يقول الهروى إن عدد الهلكى من هؤلاء المسلمين الجدد بلغ عدة آلاف برئ لم يكن لديهم دراية بالأمر . طبقات أكبرى ١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

٢٦- الكوتوال : رئيس المدينة وحاكمها أو حاكم القلعة وقائدها ، استعمل فى الهند بهذا المدلول . انظر : د. شتا : المعجم الفارسى الكبير.

٢٧- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٢٩ ، ١٣٣ . Badaoni 1 : 260 , 261

٢٨- بلاد ما وراء نهر جيحون (فى العربية ، أموداريا فى الفارسية ، Oxus فى اللاتينية أو تُركستان أو آسيا الوسطى Central Asia أو الجمهوريات الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفيتى ، كلها أسماء لمسمى واحد هو هذه المنطقة التى كان يحكمها فى تلك الآونة الجغتائيون (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م - ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م) نسبة إلى جغتاى بن جنكيز خان، انظر د. أحمد عبد القادر الشاذلى: الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا ١٩٩٤م ، بوريبوى أحمدوف ، زاهد الله منروف : العرب

والإسلام فى أوزبكستان تاريخ اسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم بيروت ط١ ١٩٩٦ م ص١٧٦-١٨٨ .

٢٩- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٢٥ .

٣٠- حسب رواية الهروى فى طبقات أكبرى ١ : ١٢٦ ، ١٢٧ بينما يجعلها Badaoni 1 : 244 , 250 وفى وقت متأخر عن هذا التاريخ .

٣١- يذكر الهروى أن السلطان اعتبر مقتل قائده ظفر خان نصراً آخر لما كان يكنه له من غيره لشجاعته . طبقات أكبرى (١ : ١٢٦ ، ١٢٧) .

٣٢- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ويبدو أن تارغى وهذا قد عاود الهجوم على الهندستان من جديد حيث أسره قائد السلطان تغلق غازى وأحضره إلى الحضرة الملكية. Badaoni 1 250 . وتغلق هذا هو الذى سيصبح فيما بعد السلطان غياث الدين تغلقشاه الأول (٧٢٠-٧٢٥هـ) مؤسس حكم الأسرة التغلقية (٧٢٠-٨١٥هـ / ١٣٢٠-١٤١٢م) التالية للخلجيين فى حكم بلاد الهند .

انظر: أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة دار المعارف ج٢ ص٦٠٦ .

٣٣- انظر فى ذلك : . Badaoni 1 : 251 , 252 , the Oxford History of India, p. 246

٣٤- كانت مدينة كبيرة على مسيرة ثلاثة أيام من ملتان إلى جهة لاهور بباكستان الآن. الحسنى : الهند فى العهد الإسلامى ٦٠ .

٣٥- بأفغانستان الآن .

٣٦- Ikram : Muslim Civilization in India, p. 63, Mujeeb : The Indian Muslims, p. 47.

٣٧- طبقات أكبرى ١ : ١٤١ .

٣٨- راى أو راجا لفظ هندى بمعنى حاكم . د. شتا : المعجم الفارسى الكبير.

٣٩- بفتح النون وإسكان الهاء وفتح الراء المهملة بعدها واو وألف ولام مفتوحة قبل الهاء ، بلدة قديمة بالكجرات . الحسنى : الهند ١١٥ .

٤٠- سومنات Somnath بمعنى : صاحب القمر بلدة كبيرة على الساحل الغربى ، كان بها معبد عظيم به صنم هائل كسره السلطان محمود الغزنوى (٣٨٧-٤٢١هـ) . الحسنى: الهند ١١٣٠٠ ، نفيس أحمد: جهود المسلمين ٢٦٥٠٠٠ .

٤١- أو كنباية أو كنبايا قديما وهى الآن كمباى Kambay من مدن الكجرات على الساحل . الحسنى : الهند ١١٣ ، نفيس : جهود المسلمين ٢٤٥ هامش (١).

٤٢- الهوى : طبقات أكبرى ١ : ١٢٥ .

٤٣- The Oxford History of India , p. 245 وراجبوتانا أو راجبوتانه كورة كبيرة بالهند يحدها من

الشرق أرض دهلي ومن الجنوب الكجرات ومن الغرب السند وهي منسوبة إلى راجبوت، وهم أهل الجند، ومنهم الولاة والحكام. ومعنى الكلمة : أبناء الملوك. وأشهر مدنها : جتور وأوديبور ، ومن أحسن قلاعها أجمير. وهي بلاد صحراوية مكنت طبيعتها المقاتلين الهنادكة من مقاومة الفتح الإسلامي طويلا. الحسني : الهند ٦٢ ، ٦٣ .

٤٤- كان ضمنها الخصي كافور الذي كان مملوكا لحاكم الكجرات ، وكان هندوسيا فأسلم، وصار من أشهر قواد علاء الدين، ولقب بملك نايب حين عينه السلطان نائبا له. كما كان يلقب هراز ديناري لأنه اشتري بألف دينار فيما قيل .. انظر: الهروي : طبقات أكبري ١ : ١٢٥، د. عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام في الهند ص١٥٩ هامش (١) ، الشاذلي: الحياة الثقافية ١١ هامش (٣) ،

The Oxford History ..., p. 245 .

٤٥- يذكر د. الساداتي أن علاء الملك هذا هو عم السلطان علاء الدين. انظر : تاريخ المسلمين ١١٩ ويكرر ذلك في كتابه : تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها نهضة الشرق ١٩٩٧م ص٣٨ . ولكن الثابت في جميع المصادر والمراجع أنه عم المؤرخ المعاصر للسلطان علاء الدين، والذي ينقل عنه د. الساداتي هذه الرواية، وهو ضياء الدين باراني (ت بعد سنة ٧٥٨هـ) صاحب كتاب «تاريخي فيروز شاهي» والذي روى فيه أحداث تلك الفترة ومن بينها حادثة عمه علاء الملك مع السلطان بهذا الشأن ونصيحته له. فربما كان ورود لفظ «عمي» في هذه الرواية هو الذي أوقع د. الساداتي في هذا الخلط.

٤٦- وهذه الوظيفة هي التي تثبتها لعلاء الملك في تلك الآونة جميع المصادر والمراجع أيضا على عكس ما يذكره د. عبد المنعم النمر (تاريخ الإسلام في الهند ص١٦٠) من أنه كان قاضي قضاة دهلي. ولعل كونه قاضيا بالأساس هو الذي أوقع أيضا د. النمر في هذا الخلط. .

أنظر مثلا :

Irfan Habib : Barani , theory of the History of the Delhi Sultanate , published in : the Indian historical review, vol V. 11 Delhi 1981, p. 101 , 102 .

٤٧- الهروي : طبقات أكبري ١ : ١٢٧-١٢٩ ،

Badaoni 1 : 254 , 255 , Ikram: Muslim Civilzation , p. 265 .

٤٨- آباد فارسية بمعنى مدينة .

٤٩- Badaoni 1 : 257 , 258 .

٥٠- Badaoni 1 : 264 , 265 .

٥١- الهروي : طبقات أكبري ١ : ١٤٢ ،

Ikram : Muslim ..., p. 63 , the Oxford history , p. 245 , 246 .

٥٢- بفتح الواو وإسكان النون وفتح الكاف الفارسية كانت قصبة بلاد الدكن ، وفيها حصن حصين من أمنع قلاع الهند. الحسني : الهند ١٢٠ .

٥٣- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٤٢ ، ١٤٣ ، Badaoni 1 : 265.
Ikram : Muslim Civilization p. 63 , 64 , the Oxford history 245 , 246 .

٥٤- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٤٤ وبقية مراجع الهامش السابق فى الصفحات نفسها. وبلاد المعبر أو كورو مندل بفتح الميم والدال هى بلاد الساحل الشرقى للدكن من أشهر مدنها مدّراس ميناء كبير الآن . الحسنى ٧٣ ، ٧٤ ، حسونة : الجغرافيا التاريخية ص١٠٠ .

٥٥- الحسنى : الهند ١٨٩ ، وتاريخ فرشته لصاحبه محمد قاسم فرشته المؤرخ الهندى المشهور كتبه بالفارسية وترجم للأوردية ، فرغ من تأليفه سنة ١٠١٥هـ . د. النمر : تاريخ الإسلام فى الهند هامش (١) ص١١٥ ، ١١٦ .

٥٦- Ikran : Muslim Civilzation , p. 61 .

٥٧- د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٢ : ٥٩٩ .

٥٨- سيأتى الحديث عنها عند تناول نظم الحكم والإدارة لاحقًا .

٥٩- يؤيد هذا أحمد عبد القادر الشاذلى فى : نظام الدين أحمد وكتابه «طبقات أكبرى» رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغات الشرقية سنة ١٤٠٥هـ / سنة ١٩٨٥م ص٦٥ .

بينما ينسب د. أحمد شلبى ذلك الضعف إلى ما قام بينهم من صراع ولعدم جدارتهم بالسلطة . موسوعة التاريخ الإسلامى النهضة المصرية جـ٨ ط٢ ١٩٩٠م ص٢٨٥ .

٦٠- بفتح الكاف الفارسية والواو وكسر اللام، ويقال لها كوالير، حصن منيع على قمة جبل شاهق ، وأسفله الحصن مدينة حسنة مبنية من الحجارة المنحوتة . وهى من مدن إقليم أكبر آباد إلى الشرق من إقليم دهلى. الحسنى : الهند ٨٣ ، نفيس : جهود المسلمين ٢٥٧ .

٦١- حول هذ النهاية اليائسة لنسل السلطان علاء الدين انظر مثلا :

ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٢-٤٥٥ ، الهروى : طبقات أكبرى ١ :١٤٩-١٥١ ،

Ikram : Muslim Civilization 69 , Badaoni 267 , 272 the Oxford history p. 247 .

وحتى السلطان علاء الدين نفسه يقال إن كافورا قد دس له السم . الهروى: طبقات أكبرى ١ : ١٤٩ .

٦٢- الهروى : طبقات أكبرى ١ :١٤٥ .

٦٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٩ وقد سمى الجتر : الشطر ، والجتر فارسية بمعنى المظلة . د. شتا : المعجم الفارسى الكبير.

٦٤- دهلُيز : فارسية معربة معناها: إيوان أو ركن من البيت . د.شتا: المعجم الفارسى الكبير.

٦٥- هزار : ألف ، أستون : عمود . المعجم الفارسى الكبير.

٦٦- الحسنى : الهند ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

٦٧- حملة السلاح.

٦٨- الحسني: الهند ٣٦١ ، ٣٦٢ .

S.M. Jaffar : Medieval India under Muslim kings, India , 1972 , p. 237-264 .

حيث يوجد حديث مفصل حول نظم الإدارة الغزنوية .

٧٠- خواجه : سيد ، جهان : عالم ، في الفارسية .

٧١- الهروي: طبقات أكبري ١ : ١٢٠ ،

Yusuf Husain : Glimpes of Medieval Indian Culture , London , 1954 , p. 72-74 .

٧٢- داد فارسية معناها : عدالة وإنصاف .

٧٣- الذين يدعون في الهند الملوك فيقال للأمير ملك. ابن بطوطة: الرحلة ٤٣٢ ، الهروي: طبقات أكبري ١: ١٢٥ .

٧٤- خانة فارسية معناها : دار .

٧٥- الحسني : الهند ٣٢٩-٣٣٢ ، Ikram : Muslim Civilization , p. 91 .

٧٦- صاحب وشارك خواجه حاجي مشرف العرض القائد كافور في حملاته على الدكن . انظر مثلاً : الهروي: طبقات أكبري ١ : ١٤٢-١٤٣ . وقد عرف صاحب هذه الوظيفة في فترة متأخرة بالهند باسم «بخشي».

٧٧- ابن بطوطة : الرحلة ٤١١، الحسني: الهند ٣٢٩ ،

Ikram : Muslim Civilization , p. 98 , 99 .Mujeeb: Indian Muslims , p. 49 .

٧٨- عبد العزيز بقوش : أمير خسرو دهلوي وقصته شيرين وخسرو ورسالة دكتوراه بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٩م ، ص٢٤ ،

Ikram : Muslim Civilization p. 66-97 .

٧٩- Bodaoni : 1 : 257 , 258 , Ikram , Muslim Civilization 95 , 96 .

٨٠- الحسني : الهند ٢٤٥ ،

Misra : the Rise of Muslim Power in Gujarat , London , 1963, p. 40 .

٨١- Ikram : Muslim Civilization , p. 98 .

٨٢- بضم الواو .. ويسمى الداوة : الدواة خطأ ، الحسني: الهند ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

٨٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤١١-٤١٣ ، وكانت خيل البريد تسمى عندهم : داكجوكي ورجل البريد يسمى: بايك . الهروي طبقات أكبري ١٤٣ . والميل يساوي ١٨٤٨ متراً تقريباً .

انظر : د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية دار الأنصار ط٤ ١٩٧٧م ص٣٠١ .

٨٤- Ikram : Muslim Civilization , p. 66, 67.

٨٥- Ikram : Muslim Civilization , p. 99 .

٨٦- ابن بطوطة : الرحلة ٤٣٢ ،

Ikram : Muslim Civilization , p. 100-102 , 106 .

٨٧- انظر في ذلك مثلا: ابن بطوطة : الرحلة ٥٧٢ ، ٥٧٥ ، الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٠٧ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ٦-٨ .

٨٨- Mujeeb : The Indian Muslims, p. 35 .

٨٩- هو المرحوم الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار الجيل بيروت سنة ١٩٩١م ص٧٢ ، ٧٣ .

٩٠- د. الساداتى : تاريخ المسلمين ص٧، ٨ ، الندوى: ماذا خسر العالم ٧٢ ، ٧٣ .

٩١- لفظ هندوسى أو هندوكى – وهو معرب– غدا عند كتاب العربية المحدثين علماً على أصحاب العقائد الهندية القديمة من سكان شبه القارة، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ص ج هامش (١) من المقدمة.

٩٢- ابن بطوطة : الرحلة ٦١٤ ، د. أحمد شلبى : موسوعة مقارنة الأديان الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى مكتبة النهضة المصرية الطبعة التاسعة ١٩٩٣م ص٤٣ ، الندوى: ماذا خسر العالم ٦٩ .

٩٣- الرحلة ٥٦٧ ، Ikram: Mulim Civilization , 131 , 132 .

٩٤- ابن بطوطة : الرحلة ٤٥٦ ، أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة وتعليق د. حسن ربراهيم وآخرين النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٧٠م ص٢٨٩، ٢٩٠ .

٩٥- الساداتى : تاريخ المسلمين ٢٧ ، ٢٨ .

٩٦- د. شوقى أبو خليل : أطلس دول العالم الإسلام ص١٧٩ ، ١٨٥ ، د. عصام الدين عبد الروف الفقى : أسباب ونتائج انتشار الإسلام فى الهند بحث منشور ضمن ملف ندوة« الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى كلية الآثار بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٩م ص٢١٣ . وكشمير فى أقصى الشمال فوق البنجاب فى حصن الجبال الشمالية . الحسنى : الهند ١٠٨ .

٩٧- أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ٢٨٥ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ١٩٤ ، ١٩٥ هامش (٢) .

٩٨- د. جمال حمدان : العالم الإسلامى المعاصر كتاب الهلال الطبعة الثانية يونيه ١٩٩٦م ص٥١-٥٤ ،
Ikram : Muslim Civilaztion , p. 123 . 124 .

٩٩- الشاذلى : نظام الدين أحمد ص١ ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ٨ : ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، لوبون : حضارات الهند ،٤١٧ ، د. النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

١٠٠- Misra: The Rise of Muslim Power, p. 38. 39 .

١٠١- ابن بطوطة : الرحلة ٤١١، الحسنى : الهند ١١-١٣، ٦٥ .

Ikram : Muslim Civilzation , p. 104 , Misra : The Rise of Muslim ..p. 40 .

١٠٢- الحسنى : الهند ٣٥٠ .

١٠٣- ابن بطوطة : الرحلة ٤١٧ ، ٤٢٦ - ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٥٤٩، ٥٥٣ ، ٦١٣ على سبيل المثال، الحسنى : الهند ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ .

وسيوستان هى الآن سهوان بباكستان ، ابن بطوطة ٤١٧ هامش (٨) .

١٠٤- الحسنى : الهند ٤٠٧ .

١٠٥- ابن بطوطة ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، د. الساداتى : تاريخ المسلمين ١٩٦ .

١٠٦- قنوج كسنور مدينة قديمة قصبة إقليم بوسط الهندستان ، إلى الشرق من دهلى، قنوج كورة بإقليم السند، الحسنى: الهند ٥٩ ، ٨٥ .

١٠٧- الحسنى : الهند ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، نفيس : جهود المسلمين ٢٥٥-٢٥٩ ، ٢٦١،٢٦٢ .

١٠٨- ابن بطوطة ٤١٤ .

١٠٩- انظر مثلا : ابن بطوطة ٤٢٣ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٥ ، ٦١٣ ، الحسنى: الهند ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ .

١١٠- Ikram : Muslim Civilization 109 , 110 , Irfan . Barani 114 .

١١١- انظر فى ذلك مثلا : ابن بطوطة ٦١٣ ، ٤٥٣ ، ٦١٣ ، البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة حيدر آباد الهند ١٩٥٨ م ص١٢٤ ، الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٢٩ ، الحسنيك الهند ٢٧٨-٢٨٥ Ikram : Muslim ... 97 .

١١٢- Badaoni : 1 ; 256 .

١١٣- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٤٢ ، ١٤٤ .

Badaoni 1 : 265 , Ikram : Muslim , p. 95 .

١١٤- ابن بطوطة ٥٥٩ ، الحسنى : الهند ٣٨٨ ، Badaoni 1 : 254 , Ikram : Muslim p. 64 , 94 .

١١٥- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، Badaoni ; 1 : 256 . 257 .

١١٦- الحسنى : الهند ٣٤٢ ، Badaoni : 1 : 256 , 257 .

١١٧- الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٣٣ ، ١٣٤ بهوامشهما، Badaoni 1 : 252 , 253 , 262 , 263 , 264 .

١١٨- فى شأن هذه الضوابط والإصلاحات انظر : الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٣٧ - ١٤١ ،

Ikram : Muslim Civilization , p. the Oxford History of India p. 246 .

١١٩- Ikram : Muslim Civilization , p. 65 . 66 .

١٢٠- Ikram : Muslim Civilization , p. 67 . 68 . 112 . 113 .

وخسرو شاعر كبير وموسيقى سيرد الحديث عنه لاحقًا .

١٢١- د. الساداتى : تاريخ المسلمين ١ ٢٠١ .

١٢٢- الحسنى: الثقافة الإسلامية فى الهند ٥٩ .

١٢٣- الحسنى: الثقافة الإسلامية فى الهند ١٢ ، ١٣ .

١٢٤- ابن بطوطة ٥٥٨ .

١٢٥- الشاذلى : نظام الدين أحمد ٢ ، ٣ .

١٢٦- أحمد رجب محمد : العمارة الإسلامية فى مدينة أكرا بالهند فى عصر أباطرة المغول رسالة دكتوراه بكلية الآثار بجامعة القاهرة ١٩٩٦م ص١٦، د. النمر: تاريخ الإسلام فى الهند ١٦٣، ١٦٤ .

Ikram : Muslim Civilization , p. 65 , The Ixford History , p. 247 .

١٢٧- وفى تراجم خسرو العديدة انظر:

د. أحمد إدريس : الأدب العربى فى شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين عين للدراسات والبحوث الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨ م ص٣٩١ ، ٣٩٢ ، بقوش : خسرو ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٢ ، مثلاً : الحسنى: الثقافة الإسلامية ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، دكتر ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ودر قلمر وزبان بارسى جلدسوم بخش دوم جاب دهم ١٣٧٣ تهران ٧٧١-٧٩٧ ،

Bodaoni 1 : 245 , 269 . 270 .

١٢٨- الشيخ سعدى الشيرازى من ألمع الشعراء فى تاريخ الأدب الفارسى، من أشهر دواوينه البستان وكلستان سعدى، ت ٦٩١هـ .

د. شتا : المعجم الفارسى الكبير. وانظر فى ترجمة : الحسنى: الثقافة الإسلامية ٣٣٢، د. صفا : تاريخ أدبيات در ايران ٨١٧-٨٣١ ، Bodaoni 1 : 270 .

١٢٩- انظر فى ترجمته : الهروى : طبقات أكبرى ١ : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

Mujeeb : Indian Muslims p. 74 , 75 .

Yusuf Glimpes of ... 39-43 .

١٣٠- A. K. Jain : The Cities Of Delhi , New Delhi , 1994 , p. 39 .

١٣١- وسيرى مجرد بقايا متهالكة فى الموضع المعروف الآن بقرية شاهبور ، ودهلى العاصمة القديمة كلها فى موضع قريب من دلهى الحديثة التى بناها المستعمرون البريطانيون .

Jain : the Cities of Delhi, p. 37 . 38 . the Oxford History p. 246 , 47 .

١٣٢- Ikram : Muslim Civilization 121 , Yusuf Husain : Glimpes of Medieval Indian Culture, p. 73,74 .

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية والمعربة :

أبوخليل : د. شوقي:

– أطلس دول العالم الإسلامي دار الفكر المعاصر لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

أحمد : نفيس :

– جهود المسلمين في الجغرافية ترجمه عن الإنجليزية فتحي عثمان دار القلم.

أحمدوف : بوريبوى ، زاهد الله منروف :

– العرب والإسلام في أوزبكستان تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم بيروت ط١ ١٩٦٩م.

إدريس : د. أحمد :

– الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين عين للدراسات والبحوث ط١ ١٩٩٨ م.

أرنولد : سير توماس:

– الدعوة إلى الإسلام ترجمة وتعليق د. حسن إبراهيم حسن وآخرين النهضة المصرية ط٣ ١٩٧٠م.

إقبال : عباس :

– تاريخ إيران بعد الإسلام نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه د. محمد علاء الدين منصور ١٩٩٠م.

ابن بطوطة : أبوعبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، ت ٧٧٩هـ :

– تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروف برحلة ابن بطوطة شرحه وكتب هوامشه طلال حرب دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ١٩٩٢م.

بقوش : عبد العزيز مصطفى :

– أمير خسرو دهلوى وقصته شيرين وخسرو رسالة دكتوراه بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

البيرونى: أبو الريحان محمد بن أحمد ، ت ٤٤٠هـ :

– تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة حيدر آباد الدكن الهند ١٩٥٨م.

الحسنى: العلامة عبد الحى بن فخر الدين بن العلى، ت ١٣٤١هـ :

– الثقافة الإسلامية فى الهند مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٨٣م.

– جنة المشرق ومطلع النور المشرق المنشور باسم : الهند فى العصر الإسلامى حيدر آباد الدكن الهند ١٩٧٢م.

حسونة : محمد أحمد :

– الجغرافيا التاريخية الإسلامية لجنة البيان العربى بدون تاريخ .

حمدان : محمد أحمد:

– الجغرافيا التاريخية الإسلامية لجنة البيان العربى بدون تاريخ .

حمدان : د. جمال :

– العالم الإسلامى المعاصر كتاب الهلال ط٢ يونيو ١٩٩٦م.

الريس : د. محمد ضياء الدين:

– الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية دار الأنصار ط ٤ ١٩٧٧م.

الساداتى : د. أحمد محمود :

– تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها دار نهضة الشرق، ١٩٩٧م.

– تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم نهضة الشرق الطبعة الثالثة بدون تاريخ.

سليمان : د. أحمد السعيد (مترجم ومعلق ومضيف) :

– تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة دار المعارف.

الشاذلى : د. أحمد عبد القادر:

– الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا ١٩٩٤م.

– الحياة الثقافية فى بلاط السلطان جلال الدين أكبر رسالة ماجستير بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٨٢م.

– المسلمون فى الهند من الفتح العربى إلى الاستعمار البريطانى الترجمة الكاملة لكتاب

طبقات أكبرى لنظام الدين أحمد بخشى الهروى الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥م.

– نظام الدين أحمد وكتابه طبقات أكبرى رسالة دكتوراه بكلية الآداب بجامعة القاهرة قسم اللغات الشرقية سنة ١٩٨٥م.

شتا: إبراهيم الدسوقى:

– المعجم الفارسى الكبير فرهنك برزك فارسى فارسى/ عربى مدبولى ١٩٩٢م.

شلبى : د. أحمد:

– موسوعة التاريخ الإسلامى النهضة المصرية الجزء الثامن ط٢ ١٩٩٠م.

– موسوعة مقارنة الأديان النهضة المصرية الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى ط٩ ١٩٩٣م.

فامبرى : أرمنيوس :

– تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ترجمه وعلق عليه د. أحمد محمود الساداتى نهضة الشرق ط٤ ١٩٨٧م.

الفقى: د. عصام الدين عبد الرؤف :

– أسباب ونتائج انتشار الإسلام فى الهند بحث منشور ضمن ملف ندوة «الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى» كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٩م.

لوبون : د. غوستاف :

– حضارات الهند ترجمة عادل زعيتر دار إحياء الكتب العربية ط١ ١٩٤٨م.

مجمع اللغة العربية: – المعجم الوسيط ط٣ .

محمد على: أحمد رجب:

– العمارة الإسلامية فى مدينة أكرا بالهند فى عصر أباطرة المغول رسالة دكتوراه بكلية الآثار بجامعة القاهرة ١٩٩٦م.

الندوى: أبو الحسن على الحسنى:

– ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار الجيل بيروت ١٩٩١م.

النمر : د. عبد المنعم :

– تاريخ الإسلام فى الهند المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط١ ١٩٨١م.

ثانيًا : المراجع الفارسية:

الجوزجاني : منهاج الدين عثمان بن سراج الدين ، ت ٦٥٨هـ ك

– طبقات ناصرى به تصحيح ومقابلة وتحشية وتعليق عبد الحى حبيبى نشر كرده انجمن تاريخ أفغانستان كابل ١٣٤٢ش .

خواندمير : غياث الدين بن همام الدين الحسينى ، ت ٩٤٢هـ:

– تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد بشر از انتشارات كتابخانه خيام ١٣٣٣ ش.

دهخدا : على أكبر، ت ١٣٣٤هـ . ش .

– لغت نامه زير نظر دكتر محمد معين جلده ٣ تهران تير ١٣٤٢هـ . ش.

صفا : دكتر ذبيح الله :

– تاريخ أدبيات در ايران ودر قلمر وزبان پارسى جلد سوم بخش دوم چاپ دهم ١٣٧٣ تهران.

قزوينى: حمد الله مستوفى ، ت ٧٥٠هـ .

– نزهة القلوب بسعى واهتمام وتصحيح كاى ليسترانج ليدن ١٣٣١هـ .

ثالثًا : المراجع الإنجليزية:

- A.K. Jain : The Cities of Delhi , New Delhi 1994 . -

- Badaoni : A History of India , English translation by :
George S.A. Ranking , New Delhi , 1990 .

وهو ترجمة لكتاب منتخب التواريخ لعبد القادر بدوانى.

- Irfan Habib : Barani,s Theory of the Delhi Sultanate , published in : - The Indian Historical Review , vol . V 11 , N .1-2 , Delhi . 1981 .

- M . Mujeeb : The Indian Muslims, London , first published in 1967 .

- S.C. Misra : The Rise of Muslim Power in Gujarat , London 1963 .

- S.M. Jaffar : India under Muslim kings, India , 1972 .

- S.M. Ikram : Muslim Civilization in India, New York and London , Third Printing , 1969 .

- The Oxford History of India, edited by : Percival Spear , forth edition , Karachi , 1983 .

- Yusuf Husain : Glimpes of Medieval Indain Culture, London Second edition, 1954 .

رقم الإيداع ١٩٩٤/٦٥٤٩

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق